



دار المستقبل العربي

المسيح يصعد من جديد



نيقوس
كازانتزاكيس

ترجمة: شوقي جلال

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

المستقبل العربي للنشر والتوزيع



١٠ شارع ميلاد، جدة
الطبع من شارع نواصر العقابي
بإشراف طاهر العقابي
الطبعة الأولى: ١٩٨٢

تصديّر

ليقوس كازانتزاكيس : كاتب ومفكر يوناني عصري ، وقعة شامخة
من كتاب الأدب العالميّ إذ حقق شهرة منقطعة النظير كروالي . ولد في
جزيرة كريت في الثامن من ديسمبر ١٨٨٥ ودرس القانون في جامعة
أثينا ثم انتقل منها إلى باريس حيث درس الفلسفة . وعاد بعدما إلى
أرض الوطن واعتزل عامين في دير للرهبان فوق جبل آتوس الذي يرد
ذكره كثيرا في رواياته . وكان اعتزاله فترة تأمل عميق اهتزت معها كثير من
أفكاره الموروثة وازدادت رؤاه وضوحا وشمولا . ثم خرج إلى الحياة ليكتب
ويبدع في غير عزلة وانطواء . كان غزير الإنتاج في قوة وإبداع ، مفتوح
المفكر في حرية وحيوية . فقد قرأ كثيرا وخلف آثارا ودراسات عديدة متباينة .
عاش حياة زاخرة بفكرها ، غنية بانتاجها : نشر مقالات في النقد والفلسفة
والف للمسرح التراجيدي ، ومن مسرحياته « تسبوس » و « عطيل يعود »
و « المسيح ويوذا وبروميثيوس » . وكتب في الأسفار « رحلات بين ربوع
السين واليابان » . ونظم الشعر الغنائي والمحمي . ومن أشهر أعماله
الشعرية ملحمة اسمها « الأوديسا » تتألف من ٣٣٣٣ شطرا ، وهي
صورة ملحمية رائعة فذة للمسار الفكري لكازانتزاكيس على طريق الحياة .
وقد حاكي في نظمها ملحمة هوميروس شاعر اليونان القديم وصاحب
الآلياذة والأوديسا . وعنى بترجمة روائع الكلاسيكيات الأوروبية إلى
اليونانية مثل « الكوميديا الإلهية » لداكني ، و « قاوست » لجيتو و « هكذا
نكلم زرادشت » لنيشنه . وتحول في مرحلة متقدمة من عمره إلى كتابة

الرواية وأحرز شهرة عالمية + وتكشف رواياته عن قدرة إبداعية فذة ، وتمكن في الأسلوب ، وتامل عميق للحياة ، ومن أهم رواياته « زوريا اليوناني » و « المسيح يصلب من جديد » و « الأخوة الاعداء » و « الكابتن ميخائيل » .

ويعد كازانتزاكيس علامة هامة في تاريخ الأدب اليوناني إذ يمثل حلقة ضمن سلسلة متصلة من الأدباء اليونانيين - شعراء وروائيين - تمتد عبر قرن من الزمان أو يزيد قليلا . وهذه هي مرحلة النهضة اليونانية أو صحو اليونان في العصر الحديث حين شرعت تبحث عن ذاتها في ماضيها وحاضرها وتصل بينهما في وشيجة قوية متينة يمتد أصلها إلى أعماق تاريخ اليونان أو الحضارة الهيلينية ابتداء الحاضر والمستقبل بكل ما فيه من جدة وحدانية . فقد كانت هذه المرحلة ملحمة جديدة في تاريخ اليونان عمل فيها أدباؤها على خلق اليونان الجديدة لغة وأدبا حتى بلغوا شأوا بعيدا وأصبح لليونان أدب يضارع الآداب العالمية .

لقد كانت اليونان قبل الاستعمار التركي وفي عصر الامبراطورية البيزنطية تعاني من انفصال في لغتها ، بين اللغة المكتوبة والمنطوقة . وكان لهذا الانفصال أثره على الحياة الأدبية إذ أدى إلى إضعاف النشاط الأدبي . ثم جاء الاستعمار التركي فكاد يحو كل ما بقي من آثار لهذا النشاط وأصيب الأدب بحالة كساد ، وكان النفي مصير كل كاتب وأديب . ولم يبق لليونان سوى بعض الأشعار الشعبية وأغاني الحب والموت . ومع حركة التحرير بعثت الحركة الأدبية من مرقد ما ، وبدأت اليونان تبحث عن طريقها . ومن ثم اتجه المشتغلون بالأدب اثر التحرير إلى الغرب حيث استحوذ على أعينهم مشاهير الأدباء الغربيين آنذاك مثل والتر سكوت والكسندر دumas ، وأقبلوا على ترجمة روائع الأدب العالمي . ومن خلال هذا التلاحم نما الأدب اليوناني الوليد واستوى على عوده ، واستطاع على مدى قرن من الزمان أن يبدع شعرا ونثرا يضاهي الآداب الأوروبية الرفيعة . وتسمى هذه المرحلة باسم مرحلة التعبير الوطني ، ذلك لأن الحركة الأدبية كانت تطمح إلى بناء الأمة الهيلينية والتغلب على آلام الماضي . فلم يشأ كاتب هذه المرحلة التخل عن ماضيه التقليد ولا اغفال الحاضر فحسب الماضى . لقد راوا أن الحاضر قيمته في ذاته ، وأن من الخير الربط بين الماضي والحاضر في تراث متصل . وأن هؤلاء بأن لكل عصر مشاكله التي يعيها ويعيشها ، ومن ثم فعل كل جيل أن يعمل على علاج مشاكل

عصره بكل ما تتوافر لديه في حاضره من إمكانيات بدلا من الرجوع إلى الوراء والهروب من الواقع . فقد كان أدب تلك المرحلة أدب مواجهة ... مواجهة الحاضر بكل ما فيه من جديد ، وقبول للواقع ومشاكله وحلها وفقا لتقتضيات العصر . فهي نظرة لا تغفل الماضي ولكن ترى الحياة ديمومة تحمل الماضى في أحشائها ، بيد أنها تطور ارتقائى بحيث تتخلد مع كل عصر صورة وكيفية جديدة .

وهكذا بحث الأديب اليوناني المحدث عن صيغة جديدة تتفق مع احتياجات الفن والجمهور . لقد استجاب الأدب اليوناني إلى التغييرات التي طرأت على الشكل في الأدب العالمي الحديث وخاصة في باريس ولكنه حافظ على الطابع القومي وعبر عن مثل وآمال الشعب اليوناني . ومن ثم كانت الحركة الأدبية بعنا ونهضة جديدة يواكب حركة التحرير ويكملها .

وظهرت مع بداية هذه الحقبة مدرستان للشعر والنثر . أحدهما وهي الأولى نشأت في الجزر الأيونية وسميت بالمدرسة الأيونية (١٨٢٠ - ١٨٨٨) وراندها الشاعر ديونيسيوس سولوموس . والمدرسة الثانية في أثينا (١٨٨٨ - ١٩٢٠) ، واستطاع أدباء هذه المرحلة أن يجددوا اللغة اليونانية أو أن يلائموا بينها وبين العصر . إذ كانت اللغة اليونانية قد أصابها من الوهن ما أفقدها القدرة على مسايرة العصر فباتت مشكلة أو عائقا في طريق الإبداع الأدبي يلزم تطويعها وتجديدها ، حتى أن سولوموس كان يقول : « لا يشغل بالي سوى الحرية واللغة » .

ولقد كانت النهضة الأدبية الأولى نهضة شعرية ، وهي النهضة التي بدأها المدرسة الأيونية والتي كانت بمثابة عن السيطرة التركية . وعنى الشعر في تلك الفترة بالتعبير عن آلام الشعب اليوناني وبطولاته وآماله . وعالج أيضا مشاكل إنسانية الطابع : الحرية والصبر والموت والطبيعة . ثم كان النثر من بعد الشعر ، على يد مدرسة أثينا . وعرف النثر انطلاقا كبرى إبان القرن العشرين . واستوحى الكتاب « جذورهم الحية » فاتخذوا من حصارهم وتاريخهم أرضا لها ومنطقا لإعادة صياغة اللغة . ولقد استطاعت الرواية والقصة القصيرة أن تخلق من لغة اليونان الجديدة لغة أدب . وعرفت هذه الحقبة الكسندر باباديمانتيس (١٨٥١ - ١٩١١) وأندريا كارايفتاس (١٨٦٦ - ١٩٢٣) وقسطنطين ثيوتوكيس (١٨٧٢ - ١٩٢٣) . وعلم طابع الرعاية على كتاباتهم إذ كانت الغربة مصدر الهامهم .

وعقب الحرب العالمية الأولى ظهر عدد من الكتاب الشباب . وكان هؤلاء

رواد مرحلة التجديد التكنيكي . ومهد هؤلاء الطريق لجيل جاء من بعدهم حمل شعلة اليونان وواصل المسير . وهو جيل كتاب ما بعد ١٩٣٠ . وقدم هذا الجيل أدبا أكثر نضجا تجاوز الطابع المحلي الى العالمي . من هؤلاء سترافنيس ميريفيس ، ويوزغوس ثيوتوكاس . وأصبح هذا الجيل قدوة لكتاب ما بعد الحرب العالمية الثانية في الشعر والنثر . ومن بين هذا الجيل الأخير نيقوس كازانتزاكيس الذي كشف في رواياته عن رؤيا واسعة عميقة وقدرة خلاقة وتمكن في الأسلوب ، إذ استطاع أن يطوع اللغة اليونانية الحديثة ويخلق منها بهارة وحلق أداة قوية للتعبير .

ونلمس في كتاباته خطأ متصلا لتأثيرات متباينة ابتداء من الأساطير والعقائد الغيبية القديمة الى الأفكار الواقعية في أحدث صورها . ولقد استطاع كازانتزاكيس بقدرة الغدة وبغيرته أن يربط بين هذه المؤثرات المتباينة في حيط واحد . ونلمس في كتاباته أيضا مسحة من التشاؤم تبرز على السطح حتى تبلغ أحيانا درجة العمدية ويصبح الوجود عبثا وباطلا . وهو أيضا إنساني النزعة بالمعنى التاريخي والفلسفي لهسلم العبارة . فقد عني بربط فكره بالتراث اليوناني وأصبح التراث القديم على يديه تجربة حية ومعاناة . كما كان الإنسان ، أو الوجود الذاتي الأسيل له ، هو محور أفكاره . فالإنسان هو القوة الفاعلة النشطة ، وهو الوجود الحق القادر بفضل وعيه على مواجهة المشاكل التي يفرضها عليه الوجود الخارجي والذاتي .

لقد عبر كازانتزاكيس عن إنسان العصر بما يعتمل في داخله من قلق وصراع وطموح وقتل وخير وشتر ، كما عبر عن الإنسان بما له من تاريخ طويل وحضارات متعاقبة ترى فيه القديم والجديد والصراع بينهما . نراه حريصا على أن يربط بين الجديد والقديم ، ويستخرج للجديد فيما دامح غير مبتورة الأصل بل موصولة بالتاريخ ، فهو كاتب ينحرف من خلال التراث ويعبر عن الجديد بمشاكله العصرية . هو يوناني ، فخصائصه يونانية في طابعها وسائنها وأخلاقها ، وهو عالمي في معالجته لشخصياته والقضايا التي يطرحها في أعماله الأدبية . إن أدبه عالمي ومحلي في آن ، فيه من العمق والتشوق والأصالة ما يربط بين الماضي والحاضر ، والمحلي والعالمي . إنه تجربة إنسانية بمعناها العميق الشامل بحيث يرى فيه الإنسان المعاصر . أما كان منيته ، انعكاسا لنفسه الفلقة والأوضاع ، فكأنما عمله الأدبي يؤدو ضو ، تتجمع فيها شعاعات الشمس على مدى واسع النطاق بضم الكون كله لتتمركز في نقطة واحدة .

ورواية ، المسيح يصطب من جديد ، رواية من نسوع القصص السيكولوجية الاجتماعية ، وهي عمل فني قد ، سطرها قلم راسخ متمكن ، فيها رقة فنية ، وقوة حيوية نشطة ، ولسة شعرية في صوغها وتصويرها المرفف لآلام المسيح ، وهي صورة ملحمية لصراع الإنسان على طول التاريخ من أجل حياة أسسمى ، وهي أمل إنساني قوى عارم يعتمل في صدر كل إنسان ، ولكن . . . وهنا نتجى مسحة التشاؤم إذ يختتمها كازانتزاكيس بقوله : « لا جدوى يا يسوع ، فبصير الأمل سرايا كأنما نقبس الريح ، ولكنه لا يترك الإنسان يتردى في وهدة اليأس المطبق الأسود القاتل ، بل ثمة أمل على البعد ، قد يكون عسيرا بعيد المثال ولكنه قائم على أية حال ، وعلى الإنسان أن يسعى أو على قوى الخير أن تنصافر ابتغاء هزيمة قوى الشر المتمكنة . الصليب عب الحياة الذي ينقل كامل الإنسان ، يحمله ويرتقى الجبل الوعر سعيا وراء الخلاص ، إنه صخرة سيزيف ، والصليب انتصار قوى الشر ، وقيام المسيح هو الأمل . . . قد يكون بعيدا ودونه أهوال ولكنه قائم ، وعلى المرء أن يحمل صليبه على كتفه ، أن يعاني ويتأصل ، ويتخذ الطريق الوعر ، الطريق الصاعد حيث يكون الخلاص . ولا خلاص بغير تضال ، تضال الإنسان الحر المنمرد ، حر إزاء نفسه وإزاء الوجود ، متمرد على نفسه وعلى الوجود رغم العدم .

وكازانتزاكيس رغم اتجاهه التشاؤمي العدسي إلا أن كتاباته كلها دعوة الى الحياة ، أن لنهل منها ونقضي وطرا ، فالحياة لنا ، ومن أجلها نعيش وننصاف . ويجب ألا يتصرف ذهننا هنا الى متع الحياة بمعناها الساذج . إنه حقا واقعي يؤمن بشعوات الحياة ويقرها ، ولكن الجمال والمحب أصماهما جميعا وأرفعهما قدرا . فهكذا كان زوربا الذي عاش حياة الواقع ، أقدمه على الأرض ، حياته تجربة حية متجددة ، وحين حضره الموت خطا نحو القافزة وفتح صراعيها ، وبسط ذراعيه كأنما يستقبل الوجود بين أحضانها ، وأطل بعينين تهمنن الى جمال الطبيعة يرو الى الأفق البعيد يتمتع بظفريه . . . ولكن الى الشمس المساربة التي خضبت الأفق بحمرة الشفق . وكذلك كان الكاتبن فورتوناس في « المسيح يصطب من جديد » حين استرجع حياته وهو على فراش الموت ، فلم تع ذاكرته سوى رفائق الأنس في روضة يانعة حيث الأزهار الجميلة العطرة الأربع . والحان الماندولين ، والسماء الصافية الأديم . وكان كازانتزاكيس يعزف على نفس القيثارة التي عزف عليها ديونيسيوس سولوموس والد النهضة الأدبية الهيلينية الحديثة :

« الطبيعة سحر وحلم جمال ودلال ،
تنبس من الف نبع ، وتنادى بألف صوت ،
حتى تستقر في نفس الانسان .
ان من يمت اليوم فكانما مات ألف مرة »

الحياة عند كازانتزاكيس ظفر بالموت ، وانتصار على اليأس والفساد
مستمر ، وبهجة تراجيدية . اننا نلف على شفا حاوية مسخية هي العدم
ويكاد اليأس يمسك بنا ويموت الأمل - وقد لا يجد المرء سبيلا الى
الخلاص فيتردى في حاوية العدم . ولكن الخلاص في رأى كازانتزاكيس
أمل قائم فيما وراء اليأس ، والتضال سبيلنا الى التعال أو تجاوز هذه
الهوة السحيقة . والحب والعمل عدة النضال وزادنا في مسيرة الحياة ،
وسبيلنا الى الانتصار على اليأس . والحب والعمل لا يكونان الا للانسان
الحر الذي يختار حياته بكل معنى الاختيار الذي يرفى الى مستوى الخلق .
الانسان الحر الذي يعرب حياته في كل لحظة من لحظاتها ولا يفتح يافتكار
مسبقة موروثة أو قوالب محفوظة ، وانما تكون حياته معيشة فعالة
نشطة خالقة : يرفض ويقبل ، يهشم ويبني ، والعزم والاصرار يملآن
جوانحه ، وقدماء ثابتتان على الأرض ، غير محلقة في أجواء الخيالات
والأوهام ، أو أسير قوالب فكرية جامدة سواء كانت تفتى الى الحاضر
أم الماضي . يقول كازانتزاكيس في رواية المسيح يصلب من جديد على
لسان ياناكوس : « هكذا يكون الانسان » . كائن حي يتكلم ويعترض
ويسائل ، « فعل هذا النحو يحقق الانسان ذاته أو ينهض الوجود الخلق . انما
نرفض ذاتنا على الحياة ، أو هكذا ينبغي أن يكون الانسان » . وهكذا كان
التفكير فوتيني في « المسيح يصلب من جديد » وهو نموذج الانسان ،
ومسيرته هي مسيرة الانسان على طريق الحياة : معاناة وجهد وتحرك وحب
وعمل . يقول الفيس فوتيني « الحياة يا الهى عبء ثقيل ، ولولاك
لأمسك كل منا بيد الآخر ، رجالا ونساء ، وذهينا لنلقى بأنفسنا في هوة
سحيقة ليس لها من قرار للتخلص من الحياة . ولكنك موجود ، فانت
الفرقة والعزاء » . ويقول نفومه بعد أن حلت بهم النوائب تطحنهم ، العمل
والصبر والحب . « نلسم هي أسلحتنا » . تحررت الروح من البطون
النسجة وهي الآن قادرة على الطيران » . « ان من يملك أرضا وأشجارا
تصبح الأرض والأشجار هي ذاته ، وتنفذ روحه صفاتها القدسية » . ويسأله
مأثولي : « يا أبانا ، ترى هل تستحق الحياة الدنيا كل هذا العناء والوقت؟ »
فيجيب عليه قائلا : « نعم تستحق ، وتستحق الكثير » . ولو وضعنا أيدينا

الى جنوبا دون أن يبدى حراكا فاننا لنلقى بأنفسنا الى التهلكة ، هلاك على
الأرض ، وهلاك في السماء . » . وهكذا فالحياة أمل غير اليأس ، ونضال
حر على شفا العدم الذي يسرى بين أوصال الوجود حتى يكاد يصدعه ،
واختيار قلق وغائى ، وبهجة مأساوية ، لادعة ومسكينة واستسلاما ،
الحياة قلب عاشق للجمال يدوب حنيئا ، وابتنامة صافية لنفس نقية
استقلت عن كاهلها أهواها وشواغلها الدنية .

عاش كازانتزاكيس حياته الليونان يملا قلبه حبها . « حب اليونان
شعبا وتاريخا وتراثا مجيدا » . عاش للانسان : للحب وللحياة وللطبيعة
والجمال حتى وافته منيته يوم ١٨ من أكتوبر ١٩٥٧ . مات وبقيت آثاره
منارة وضياء في عالم الأدب والفكر تخاطب أعماقنا وتعزف على وتر الوجود
الانسانى المشدود فوق حافة العدم .



وبعد ، فتوخيا منا أن تقدم هذه الرواية في اكمل صورة وأصدقها
فقد رأيت ألا أقصر في نقلها الى العربية على الترجمة الانجليزية
وحدها . بل أترت أن أراجعها على الترجمة الفرنسية أيضا ضمنا للدقة
ورغبة في أن تكون أقرب الى التطابق مع النسخة الأصلية في لغتها
اليونانية التي لا أعرفها . ويجدر بي هنا أن أعوذ الى ما لا خطئته من اختلاف
بين الترجمتين الانجليزية والفرنسية . فقد تبين أن كلا من الترجمتين
أسفلت حينا بعض جمل أو فقرات فصل حينا الى صفحة كاملة في بعض
المواضع ، ولكنها قليلة جدا في الترجمة الفرنسية ، ومسرقة الى حد ما في
الترجمة الانجليزية . واني إذ أقدم هذه الترجمة أمل أن أكون قد وفقت
في نقلها بصورة أقرب الى الصدق والكمال .

شوقي جلال

الْبَحْثُ عَنْ يَهُودَا

جلس أغا ليكوفريس في شرفته المظلة على ميدان القرية ، يدخن الدارجيلة ، ويحتسي العرقى ، والريّاذ الدافئ يساقط في حنو . وقد علّقت بشاربه الكتّ فطرات من العرقى ، لمعت فوق صبغته السوداء الفاحشة . وكان العرقى قد أشاع الدفء في جسد الأغا . فاختد يلحق بشاربه بلسانه مستمتعا ببرودته . وعن يمينه وقف حسين ، تابعه وحارسه الخاص ، ممسكا في يده بوقا ؛ وهو عملاق شرقي ، خبيث كالفرقة ، وفي عينيه حول . وعن يسار الأغا تربع على جسيمة مكسوة بالفليفة غلام تركى وسيم في خديه غمازتان ، يمد يده بين الحين والحين ليشعل التارجيلة أو ليعلا كاس العرقى .

أغمض الأغا عينيه المثقلتين صلب اغصاصة ، مستشعرا لذة الحياة في هذا العالم الممتد تحت قدميه . وجال في نفسه خاطر يقول : « صنع الله كل شيء فابدى صنعه ، وإن الدنيا لفي غاية النمام والكمال . هل أنت جوعان ؟ هلك الحبز واللحم المفرود بالصلصلة وطاجن الأرز بالقرقة . هل أنت عطشان ؟ هلك العرقى ، اكسير الشياح . هل بك رغبة إلى النوم ؟ الله خلق النوم ، وليس كمثلته شيء حين يغالبك النعاس . وإذا كنت غاضبا فقد خلق الله السوط وأعجاز الرعايا . وإذا أصابك اكتئاب ، فقد خلق لك الهانى آمآن . آمآن . فإذا شئت بعد ذلك أن تنسى أحزان هذه الدنيا وهمومها فقد خلق لك الله يوسوقاكي . »



وتتمتع الأغا في انفعال : « الله فنان مبدع ! نعم ، فنان مبدع حقا ، يعرف أسرار صنعته ، وخياله عبقري أيضا ، والا فكيف يحق للشيطان واتنه - جلت حكمته - فكرة خلق العرقى ويوسفياكي ؟ »

واغرورقت عينها بالأغا بالمدموع ، كان قد شرب كثيرا من العرقى حتى غابت نفسه في خضوع رقيق ، وأطل من شرفته يرفق رعاياه وهم يتجولون في الميدان ، حليقي الذقون ، وقد ارتدوا أحسن ملابسهم ، فسراويلهم ببضاء مفسولة في العشية ، تلتف حولها أحزمة حمراء عريضة ، وأحذيتهم ذات رقاب طويلة زرقاء ، كان بعضهم يضع على رأسه طربوشا ، والبعض الآخر عمامة ، وآخرون يضعون فلائس من فرو الخراف ، وكان أكثرهم أناقة يضع خلف أذنه عود ربحان أو سيجارة .

كان ذلك في عيد القيامة ، يوم الثلاثاء الكبير ، بعد لحظات من انتهاء القداس ، الطلسم جميل رقيق ، وشمس الربيع ساطعة ، والمطر رذاذ ، وقد توضع الجو بقطر أزهار الليمون ، وبرزت البراعم من فروع الشجر ، وعادت الحضرة إلى أعشاب الأرض ، كان المسيح يقوم في كل حقبة من التراب ، والمسيحيون يروحون ويحيثون عبر الميدان ، يتعاقبون ويتبادلون نحية عيد القيامة : « المسيح قام ! » ثم يذهبون إلى مقهى قسطنطين ، أو يجلسون وسط الميدان تحت شجرة السنار الكبيرة ، وهناك يطلبون الترابيلة والقهوة ، وسرعان ما يبدأون ثرثرة لا تنتهي ، تنتشر بينهم مثل رذاذ المطر .

وقال خراامبوس خادم الكنيسة : « هكذا سيكون الفردوس : شمس حانية ، ومطر رقيق هادي ، وزهور منفتحة في أشجار الليمون ، وتاريخيات وأحاديت ذات شجون إلى أبد الأبدين » .

ورأى الأغا في الطرف الآخر من الميدان ، خلف شجرة السنار ، كنيسة القرية التي أعيد طلاؤها بالجير الأبيض ، وفي طرفها يرتفع برج الجرس في رشاقة ، اليسوم عيد الصليب ، وبوابة الكنيسة يغطيها بهذه المناسبة سعف النخيل وفروع الفسار ، وحول الكنيسة تكثر الدكاكين الصغيرة والحوانيت ، ومن بينها دكان بانايوتي السروجي ، هذا الجنب القليل الذي اشتهر باسم « أكل الجبسي » : فقد أحضروا في القرية ذات يوم تمثالاً نصفيًا من الجبس لنابليون فأكله ، وأحضروا مرة أخرى تمثالاً لكمال باشا ، فأكله أيضا ، وأخيرا أحضروا تمثالاً للزعيم الكرمني فيتزيلوس فأكله بدوره .

أما الدكان المجاور فهو دكان أنثونيس الحلاق ، يحمل اسمه ، وعلى بابهِ لافتة كتب عليها بحروف كبيرة حمراء فاتحة : « هنا نخلع الأستان أيضا » .

وبعد ذلك يوجد محل جزارة ديمتري الأعرج ، وعليه لافتة تقول : « بناء على طلب هيروديا من ميرووس تقدم مريس عجول طازجة » وفي كل سبت يذبح ديمتري عجلا ، بعد أن يطل قرونيه بلون الذهب ، ويصيح جبهته ، ويعقد حول رقبتِه شرائط حمراء ، ثم يسوقه عبر حواري القرية وهو يعرج ويتغنى بمزاياءه .

وعند آخر الدكاكين توجد مقهى قسطنطين الشهيرة ، وهي عبارة عن صالة ضيقة طويلة رطبة ، عميقة برائحة القهوة والطبق دائما ، وبرائحة مشروب السحاب شتاء ، وعلى جدران المقهى ثلاث صور معبرة مرسومة على الورق المقوى هي مقبرة القرية كلها ، على اليسار صورة القديسة جنتيفيف ، نصف عارية وسط غابة استوائية ، وعلى اليمين مسورة فخمة للملكة فيكتوريا يعينها الزرقاوين وسدراها الممتلئ ، كسندور المرصعات ، وفي الوسط تماما صورة كمال باشا بوجه قاسي اللامع وعينين غسليتين تأفتين ، وعلى رأسه قلنسوة طويلة من الفرو .

إن كل أبناء القرية رجال أنغياء مجدون في أعمالهم ، وآباء طيبون ، وأغا القرية أيضا رجل نقي خصوصا في حبه للعرقى والمطور النفاذة - كالمسك والبنشول - وفي حبه لقلامه الجميل الحائس إلى سواره على الخشبة المكسوة بالقطيفة .

إن الأغا يشعر بالمنعة وهو يحلم في المسيحيين كالراعي عندما يحلم في قطيعه ، فتعمره النشوة .

وحديثه نفسه :

- أنهم ثاس ممتازون - لقد ملأوا مخزني هذا العام أيضا بهديا عيد القيامة : جبن ، وفطير بالسهم ، وكمك ، وبض أحمر وأحضر أحدهم - حفظه الله وأبقاه - صندوقا من لبنان خيوس هدية لقلامي يوسفياكي ، يضيغه فيعطر قبه الصغير »

وشعر الأغا بالسعادة ، وسرحت خواطره إلى مخزنه الممتلئ ، بأطاييف الأنشياء ، بينما يتساقط المطر خفيفا ، وتضيق الديكة ، ويقبع إلى جانبه يوسفياكي عند قدميه ، يضيغ الديانة ، ويترقع بلسانه في لذة .

وفجأة شعر الأغا أن قلبه يقبض تنسوة - ومال بمنقه ليفنى مقطعا
من أغاني آمان ، لكن المحاولة كانت أصعب مما يستطيع . فالتفت الى
حارسه الخاص حسين وأشار اليه أن يطلق البوق ليسكت الرعية . ثم
استداز نحو يوسوفاكي على يساره قائلا :

« يوسوفاكي ، غن لي شيئا ، باركك الله » غن لي دنيسا تايير .
روياتايير ، آمان آمان ، غن لي ولا زعقت روعي » .

تمهل الغلام الجميل وهو يسحب اللبانة من فمه ويلصقها على ركبته
العارية ، وأمسك نفسه لي راحة يده اليمنى بفنى للأغا أغنيته المفضلة :
« الدنيا والحلم شي واحد ، آمان ، آمان » .

أخذ صوت الغلام الذي يشبه صوت الناي يعلو ويهبط في هديل
كهديل الحمام . وأغضب الأغا عينيه مسلوب اللب ، وهو يسمح غناء
الغلام ، حتى لقد نسي الشراب .

ونظر فسطندي ناحية الأغا ، وقال هامسا وهو يقدم القهوة : « هذا
يوم من أيامه الجميلة ، بارك الله في العرقى ! » وأضاف ياناكوس بابتسامة
نيينة : « بل بارك الله في يوسوفاكي ! » . و ياناكوس هذا بائع متجول
وطواف ينقل الرسائل ، له لحية شهباء قصيرة كثرة ، وعينا طائر جارح .

ولمغم حاجي نيكولا شقيق القسيس :

« بل لعنة الله على القدر الأعشى الذي جعله أغا وجعلنا رعايا » .
إن حاجي نيكولا ناظر مدرسة القرية وهو رجل جاف المود يضع على
عينيه نظارة ، وتبرز في عنقه فتاحة آدم كبيرة . مدينة تعلق وتهبط عندما
يتكلم .

لقد اشتعل حماسه عندما عادته ذكريات أجداده الفاييرين ، فتنهذ
وعاد يقول :

« أتى حين من الدهر كان فيه أبناء شعبنا الاغريق سادة هذه
الأراضي » . ثم دارت هذه العجلة وجاء أهل بيزنطة ، وهم أيضا اغريق
ومسيحيون . ثم دارت العجلة مرة أخرى وأتى أبناء هاجر . . . ولكن
المسيح قام من جديد أبها الأصدقاء ، وبلادنا مستنقمة أيضا . هيا يا فسطندي
قدم لنا الشراب مرة أخرى » .

وانتهى الغناء فأعاد الغلام الجميل - لللبانة الى فمه وأخذ يلوكها ثم
غاب في النعاس مرة أخرى . وانطلق البوق ثانية : « الآن تستطيع الرعية
أن تعود الى الضحك والضحك في حرية » .

وطهر على باب المقهى كابتين فورتوناس ، انه واحد من الأعضاء
الخمس في مجلس شيوخ القرية : طويل القامة ، ضخم الجثة ، وكان فيما
مضى يملك مركبا قطع به كل أرجاء البحر الأسود خلال سنوات طويلة
يحمل القمح الروسي ، ولا يتورع عن التهريب . وللكابتين وجه أرمود وبشرة
زيتونية وجلد مدبوغ وتجاعيد غائرة وعينان شبيقتان براقتان فأجمتا
السواد . لقد تقدمت به السن ، وكذلك هرم مركبه . وفي أحد الليالي
تحطم المركب على صخور الشاطئ بالقرب من اسطنبول . ومع حطام
مركبه تحطمت آماله فعاد يانسالى الى قريته ، وقد صمم على أن يعب من
العرقى قدر ما يستطيع ، حتى تأتي ساعته فيدير رأسه الى الحائط ويلفظ
آخر أنفاسه . شاهدت عيناه الكثير ، وحسبه ما أصابه من الدنيا . لا ،
فالحق أنه لم يصب كفايته ، ولكن التعب أضناه وإن كان التحمل يمنعه
من الاعتراف .

في ذلك اليوم انتعل القبطان حذاءه ذا الرقبة ، ولف حول وسطه
الحزام الأصفر ، ووضع على رأسه قلنسوة الأعيان المصنوعة من فرو
الاستر كان الأصلي وأمسك بيده عصا كبيرا كمادة شيوخ القرية . وبهض
بعض أبناء القرية واقفين في احترام يدعونه لتناول كأس من العرقى .
فأجاب :

« ليس عندي وقت يا أبنائي حتى للعرقى . المسيح قام . وأنا
ذاهب الى منزل القسيس فهناك سستعقد اجتماعا لأعيان القرية . وهؤلاء
الذين وجهت اليهم الدعوة يجب أن يحضروا الى هناك أيضا في أقل من
ساعة . هيا ارسموا علامة الصليب وتعالوا لا شك أنكم تعرفون ما هو
عملنا اليوم . أه ! ليتهب أحدكم ويحضر بانابوتى السروجي ذا اللحية
الشيطنانية فنحن في أشد الحاجة اليه » .

وصمت لحظة ، وغمز بعينه في خبث قائلا :

« إذا لم يكن في بيته ، سيكون عند الأرملة » .

فانفجروا جميعا ضاحكين .

ورد عليهم كريستوفيس المكارى العجوز ، الذي تعلم في شبابه معنى
الهوى ، ودفع من أجله ثمنيا غاليا . صاح في حدة :

« ماذا يضحكمكم يا أصحاب العقول الصغيرة ؟ بانابوتى على حق .
افعل أبها الملعون ما يحلو لك ولا تنصت لأحد ! الحياة قصيرة والموت
طويل فامض في سبيلك يا ولدي » .

وهو ديمتري الجزار البدين ، رأسه الحليق قائلا :

— ليحفظ الله أولمنا كاترينا : يعلم الشيطان كيف أنقذت روسنا من الفرون !

قال الكابتن فورتوناس ضاحكا :

— هيا يا أولاد لا تختلفوا ! فكل قرية لا بد لها من امرأة شاذة تحمي حرائر النساء من أزعاج الرجال . انها أشبه بالبيع على قارعة الطريق يرده النظماء فيرون ظمأهم . ولولا ذلك لقد سدوا أبواب بيوتنا جميعا يدقونها بابا بعد آخر . وعندما يطلب الماء من النساء

والفت فلمح ناظر المدرسة :

— لما نزال هنا يا حاجي نيكولا ؟ ألسنت مدعوا لاجتماع مجلس الأعيان ؟ حتى المقهى حولتها إلى مدرسة ؟ كفى دروسا وتعال معي .

وهنا غمز كريستوفيس بعينه للصحاب وسأل :

— ألا تريدني أن أحضر أيضا ؟ أستطيع أن أقوم بدور يهوذا .

ولكن الكابتن فورتوناس كان قد مضى يصعد الطريق المنحدر متكلما بكل تغله على عصاه . لم يكن في ذلك اليوم حسن المظهر ، فقد عادت أيام الرومانيزم نعتصر جسده ، ولم يغمض له جفن طوال الليل . وفي الصباح الباكر عب بعض الزجاجات الكبيرة من العرقى علاجاً لآلامه ، لكن الألم لم يزياله لحظة بنعم فيها بالسكنينة ، وحتى العرقى لم يستطع أن يؤثر فيه .

وقال يحدث نفسه :

— لولا الخجل لانفجرت صاخرا . ربما كان في هذا ما يخفف بعض آلامي ، ولكن هذا الشيء اللعين الذي يسمى احترام النفس يتعنى ، إذ يجب أن أمشي أمام الناس بادي البشاشة . وإذا سقطت العصا من يدي يجب أن أتحنى بنفسى لالتفتها ولا أسمح لأحد أن يساعدني في ذلك ... هيا يا كاترين فورتوناس . عسى على شفتيك بشدة ! انتشر شرارك يا فتى ، وامض عاب الموج ! ولا تفعل ما يملؤك بالخجل . فما الحياة والملة الا زوبعة وتترا

وغغمم الكابتن وهو يسب ويلعن . كان يصعد الطريق وهو يترنح من جانب إلى آخر . وتوقفت لحظة وحال بنظره فيما حوله . لم يكن هناك من يراه . ونهده بصوت مرتفع ، يخفف هذا من ألمه . ووقع بصره إلى الجانب المرتفع في طرف القرية فلمح بين الأشجار بيتا أبيض ذا نوافذ

زرقاء هو بيت القسيس . وغغمم الكابتن وهو يستأنف طريق الصعود . — أي فكرة خطرت لهذا القسيس الشيطان عندما بنى منزله هناك بأهل التل ؟ لتزلزل لعنته على رأسي !

كان اثنان من الأعيان قد وصلا قبل الكابتن إلى منزل القسيس . وتربعا على الأريكة الكبيرة ، ينتظران في صمت تقديما تحية الضيافة المعتادة . ودعب القسيس إلى المطبخ يعطى أوامره لابنته الوحيدة ماريوري ، وهناك كانت الفتاة تضع على الصينية الإكواب والماء البارد والمربي .

وفي مكان الصدارة تربع إلى جانب السافطة كبير شبيخوخ قرية ليكوفريس وعمدها . إنه جورج بطرياركاس : رجل مهيب المنظر . ضخيم البنية . بليس سروالا من النيل الفاخر . وصنادار موشى بالذهب . وحول خصره خاتم ذهبي كبير يستخدمه أيضا ككسائم خاص يحمل الحرفين الأولين من اسمه : ج . ب . يدها سميتان بضفتان مثل يدي الأسقف ، فهو لم يعمل بها شيئا طوال حياته لأن لديه وهلا كاملا من الخدم والخدم يكونون في خدمته . وهو مترهل الجسد ، ضخيم الأذفاف عريضا . متهدل الكرش وله لحية تنزل على ثلاث طبقات لتصل إلى صدره المكشوف ذي الشعر الكثيف ، لقد سقطت من ثيابه سنتان أو ثلاثة ، وهذا هو العيب الوحيد في هذه اللوحة الرائعة . ولهذا كان يلفخ في كلامه ويهتته . ولكن حتى هذا العيب كان يزيد من مهابته ، إذ كان يرغم مستمعيه مهما كان أن ينحنوا نحوه لكي يثيب كلامه .

وفي أحد أركان الحجرة على يمينه كان لاداس العجوز . يجلس متكشا على نفسه في مذلة وخنوع . هزيل الجسم ، قذر المظهر ، تأتيه غظام الوجه ، أعشى العينين ، له يدان ضحكتان يغطينهما جلد ميت . ولاداس هنا هو أغنى أهل القرية ، قضى سبعين عاما متكبيا على الأرض ، يفلحها : يبلر ويحصد . يزرع فيها أشجار الزيتون والسكرم ، يعصرها ويمص دمه . لم يغمض عن نفسه تراهيا ولو مرة واحدة منذ كان صبييا . انكب عليها بنهم لا يشبع . يريد أن يأخذ منها ألف ضعف لما يقدمه لها ، دون أن يقول أبدا : شكرا لله ! بل هو دائما مساحط متفهم . والآل وقد تقدمت به السن لم تعد الأرض تكفيه ، كان يشعر بافتراق أجله ، فيندفع في لهفة ليبتلع القرية كلها قبل أن تأتي ساعة . لهذا اشتغل بافراض النقود بالزيرة الفاحشة لأهل القرية . وكان هؤلاء الذين يخولهم الحظ يرمون لديه كرومهم وحقولهم وبيوتهم ، فإذا حل موعد السداد ولم يجدوا

مهم ما يوفون به ديونهم يبيع ممتلكاتهم بالزاد ، ويتبع لاداس العجوز كل شيء .

ومع ذلك تراه دائما يئن بالشكوى ، وهو لا يأكل من الطعام مايسد رمقه ، وزوجته ينيوب تسير حافية القدمين ، وحتى البنت الوحيدة التي أنجبها بعد سنوات طويلة تركها تموت لأنه رفض أن يستدعي لها طبيبا يوم عليها المرض . كان يقول في ذلك الوقت :

— المدن الكبيرة نائية ، والتكاليف باهظة ! فكيف أستطيع أن أحضر لها طبيبا ؟ فليذهب الأطباء الى الشيطان ! عندها هنا القسيس ، وهو يعرف الأدوية القديمة ، ولن ادفع له على الأكثر سوى ثمن المرحم . ومع ذلك سوف تشفى ابنتي ، ولن يكلفني ذلك كثيرا .

ولكن الأدوية المخلوطة التي قدمها القسيس لم تجد فتيلا ، والزيت المقدس لم تفعل شيئا ، وحالت الصبية في السابعة عشرة وبذلك أفلست من أيتها . أما هو فقد استطاع أن يقلت أيضا من تكاليف زواجها . وفي أحد الأيام ، بعد عدة شهور من وفاة ابنته ، بدأ يقدر هذه التكاليف :

« مهر : كذا وكذا تقريبا ، ثياب الزفاف والموائد والمقاعد تكلفتني كذا » ثم لا بد من دعوة الأقارب يوم الزفاف ، ويجب أن أقدم لهم قالة طعام تملا بطونهم الشرعة ، ولتحسب مثلا اللحم والخبز والخبز : كذا .. وحسب حاصل الجمع فكان رقما كبيرا : فابنته كانت ستفقد كل مايلك . ثم ما وجه الخطوة في أن تموت ؟ فكل نفس ذائقة الموت .. وفضلا عن ذلك فقد تخلصت من هموم الدنيا : الزوج والأطفال والأمراض وأعمال البيت .. في الحقيقة أنها كانت محظوظة ، ليتبعها الله برحمته .

دخلت ماريوري تحمل الصبينة وحيث الاعيان . وعندما وقفت أمام عمدة القرية خفضت عينيهما . كانت شاحبة الوجه ، ذات عيني واسعتين وحاجبتين مرسومتين بدقة ، تجدل شعرها الكسستانى في ضفيري طويلتين لتلتفك كالتاج حول رأسها . وتناول العمدة الشيخ ملحقة ممثلة من مربى الكرز ، ورفع الكوب الى قمه وهو ينظر الى الفتاة قائلا :

— نخب زفافكما يا صغيرتي ماريوري ! ابنتي لم يعد يطيق صبرا .

فابتة القسيس هي خطبة ابنه الوحيد ميشيل . وكان القسيس يفسر بهذا القران ويعلم بأن يحصل منه في أقرب وقت على أحقاد صغار .

وأضاف الشيخ ضاحكا وهو يعمر بعينه أمام الفتاة :

— أستطيع الآن أن أفهم لماذا يفقد هذا الجرو الصغير صبره ؟ يقول أنه لم يعد يحتمل

وأحمر وجه الفتاة حتى أذنيه ، وانعقد لسانها فلم تحر جوابا .

ودخل الأب جريجوريس برجاجة تبيد من نوع المسكات وهو يقول :

— أدام الله علينا الفرح ! ليباركهما المسيح والعذراء البتول !

والقسيس رجل خشن المظهر ، ممتلئ الجسم موفور الصحة له خبة شديدة البياض ذات شعيتين . وكانت تقوح منه رائحة البخور . لاحظ القسيس ارتباط ابنته فقال متسائلا ليغير موضوع الحديث :

— متى بأذن الله ستزوج ابنتك بالبنين لينيو ؟

ولينيو هذه ابنة غير شرعية من كثرات أنجبنه الشيخ من خادماته . وكان قد خطبها الى راعيه المخلص الوديع مانولى . ومهرها مهرًا سخيا : طعما من الخراف يرعاه مانولى على جبل العذراء المواجهة للقرية .

وأجاب :

— قريبا جدا بأذن الله . لينيو متعجلة . أراها متلهفة . هذه الفتاة المحظوظة . وأحسب أن لديها امتلا وأصبحت بحاجة الى طفل يرضعها . منذ أيام قالت لي اقرب شهر مايو ياسيدي وأزف الوقت .

وانطلق الشيخ يقهقه من قلبه ، ولحيته الكثيفة المتلثة تهتز . وعاد يقول :

— الحمير هي التي تتزوج في شهر مايو . ولينيو عل حق في قولها ان الوقت قد أزف . وهؤلاء الناس رغم أنهم خدم ، الا أنهم بشر أيضا .

وقال القسيس :

— مانولى ولد طيب . وسيعيشان في سعادة .

وأمن العمدة الشيخ على ذلك قائلا :

— هذا صحيح ، وأنا أحبه تماما كائني . رأيت لأول مرة عندما ذهبت الى دير القديس يانتيليمون . لا بد أن عمره آنذاك كان خمسة عشر عاما . لقد قدم لي تحية الضيافة . أنه هلاك حقيقي ، لا ينقص سوى الجناحين . ولقد شعرت بالشفقة نحوه وقلت لنفسى : « حساسة أن يذبل مثل هذا الغلام الوسيم داخل الدير كالخصيان » . وذهبت الى صومعة سيده الأب

ماناس ، وكان رجلا مشلولاً منذ ستوات . فقلت له يا ابنا ، أود أن أطلب منك خدمة . وإذا وافقت عليها سأعدي الدبر مصباحاً من الفضة . وأجاب الراهب : لك ما تشاء يا شيخ عدا مانول .

— انه هو بالضبط عين ما أريد . أود أن الحقة يخدمتي .

وتنهذ الراهب العجوز قائلاً :

— احبه كائني ، بل هو ابني فعلاً ، لم يرتكب معي خطأ ، وأنا رجل عاجز مقطوع عن الدنيا وليس لي من رفيق سواه . طوال الليالي أهدته عن النساك والقديسين ، وهكذا يتعلم هو وأشغل أنا وقتي .

وأجيبته قائلاً :

— اتركه يا ابنا ينزل إلى الدنيا : ينجب أطفالاً ويمشي . وبعد أن ينال من الحياة غايته يستطيع أن يصبح راهباً . وبعد الحساح شديد استطعت أن أصحب الغلام معي . وها أنذا أعطيه اليوم لينبو . اني لأدعو لهما بالحظ السعيد ! .

وتضاحك لاداس العجوز في خبث قائلاً :

— سوف تحصل منه أيضاً على ذرية جديدة . وتتساو على طرف ملحقته حبة كبريت واحدة وأخذ يعضها ، وشرب جرعة من نبيذ المسكات . وقال في ابتهاج :

— جزانا الله ثواب عليلنا ، ووقانا شر الموت جوعاً ! فيساتين الكرم والمحاصيل ليست على ما يرام هذا العام . وهذه مصيبة ! .

وقاطعه القسيس بصوته الأجهش :

— الله هو الرزاق أيها العجوز لاداس ! تشجع ! شدد الحزام على بطنك ، ولا تبتدر ، فالأفراط في الأكل مفسدة . لا تكن كثير السخاء ، ولا تضيق أموالك على الفقراء كما اعتدت أن تفعل .

وانفجر الشيخ بطرياركاس مقهقها حتى اهتزت جدران البيت .

مد يده الغليظة كأنها يتسول وقال بصوت يتصنع البكاء :

— قدموا الصدقات أيها المسيحيون ، فالأب لاداس يموت جوعاً .

وتردد وقع أقدام ثقيلة صاعدة كانت درجات السلم تتر تحت ثقلها . ونهض القسيس ليفتح الباب قائلاً :

— ها هو الكاين فورتناس ، ذئب البحار العجوز . انتظري يا ماريوري ولا تصرخي . فلنقدم له شيشة يشربه . . ساذب لأحضر له كوباً كبيراً وزجاجة عرقى . قاله يشم من بعيد رائحة الخمر .

وتوقت الكاين لحظة أمام الباب ينتقل أنفاسه . ثم دخل وهو يستسم ، لكن العرق كان يتصبب من جبينه . وظهر خلفه مباشرة ناظر المدرسة . فكان قد جرى طويلاً ليحقق به حتى تقطعت أنفاسه . وخلع فيعنه يروح بها . وفي تلك اللحظة عاد القسيس بزجاجة العرقى . وقال الكاين للأعيان الثلاثة :

— المسيح قام يا أحيائي !

وجلس على الأريكة الكبيرة بأقصى ما يستطيع من خفة . وهو يعرض على النواجذ من الآلم . ثم التفت نحو الفتاة وقال :

— يا صغيرتي ماريوري ، لست أريد مربي ولا قهوة . فهما مناسبان تماماً لعجائز النساء . حسبي هذا الكوب الصغير الذي يسميه الناس كأساً .

وأفرغ الكوب في جوفه دفعة واحدة . وأضاف :

— نخب زفافكما .

وارتشف ناظر المدرسة رشقة من فجان القهوة الصغير ثم قال :

— اليوم يوم عظيم . لن يمضي وقت طويل حتى يحضر الناس . يجب أن نشرع إذن في اتخاذ قرارنا .

وخرجت ماريوري تحمل الصينية . وأغلق القسيس الباب بالمزلاج . وفتحة اكتس وجهه الذي لوحته الشمس بسيماة القداسة ، وأبرق عيناها تحت حاجبين كثيفين . هذا القسيس آكل شرب خمر ، عنيف الكلمات إذا الفعل ، ماهر في استخدام قبضة يده إذا غضب . حتى في هذه السن المتقدمة لا تزال الدماء تنور في عروقه كلما نظر إلى النساء . فالأهواء البشرية تملأ رأسه وصدره ووطنه . ولكنه لا يكاد يسمد القداس أو يمد يده ليلبارك أحداً ، أو يستنزل اللعنة عليه ، حتى تهب عليه ريح عاتية ويصبح شيشة آخر فاذا بالأب جريجوريس الشره ، السكر ، الشهواني يتحول إلى نبي .

وبدا الحديث بصوت وفور قائلاً :

- اخوتي أعضاء المجلس - هذا يوم مهيب - الله يرانا ويسمعنا -
أذكروا جيدا أن كل كلمة تقال هنا سوف يسجلها الله في اللوح المحفوظ،
المسيح قام ، ولكنه لا يزال مصلوبا داخل أجسادنا - فلنحمله يا اخوتي
يقوم فينا أيضا - أيها الشيخ بطريرك اس في هذه اللحظة أمور
الدنيا ، لقد حصلت على كسب وقر في حياتك أنت وأهلك - أكلت وشربت
ومنتعج جسديك أكثر مما يفعل الناس - ارتفع بروحك الآن فوق هذه
الملذات جميعا وساعدنا على اتخاذ القرار - وانت يا لاداس المعجوز انس
في هذا اليوم الجليل ما تملك من زيت وخمر والجنيناه الذهبية التركية
التي تكتسبها في خزائنك - أما أنت يا أخى - ناظر المدرسة ، فليس عندى
شيء يقال لك ، فروحك تسمو دائما فوق ملذات الطعام والنفوذ الذهبية
والنساء وتتصل بالله وتتشدد رحمته - ولكنك أنت يا كابتن - أيها الأثم
القديم ، قد ملأت أرجاء البحر الأسود بظلالك - فانبجس اليوم في غابة
حياتك الى التفكير في الله ، وساعدنا بما تستطيع لتتخذ قرارا عادلا .

وصاح الكابتن في وجهه :

- دع الماضي يا أبانا ! الله يحكم يوم الحساب ! ولو أتيسح لنا أن
نتكلم بعورية مثلك فاعتقد أننا سنجد أشياء كثيرة تقال عن قدامتكم .

وأضاف العمدة حانقا هو أيضا :

- تكلم يا أبانا ، ولكن تدبر جيدا كلماتك فانت تخاطب الأعيان .

وزجر القسيس غاضبا :

- أنا أخاطب مجموعة من الديدان ، وأنا أيضا لست سوى دودة
مثلكم .. فلا تقاطعوني - ضيؤنا سيحضر بين لحظة وأخرى ، ولابد وأن
يكون قد اتخذنا قرارا - أفصتوا إذن : هذا تقليد عريق توارثته الاجيال
في بلدنا - اعتدنا أن نختار من أهل القرية كل سبع سنوات خمسة أو
سنة لنعيت في أشخاصهم آلام المسيح عندما يحل الاسبوع المقدس - مضت
ست سنوات وحل العام السابع - يجب علينا إذن نحن أعيان القرية أن
نختار اليوم من أهل بلدنا هؤلاء الجديريين بأن يجسدوا في أشخاصهم
الرسالة الثلاثة الكبار بطرس ويعقوب ويوحنا ، وهذا الذي يتجسد فيه
يهودا الاسخريوطى ، وتلك التي تتجسد فيها مريم المجدلية العاهرة - ثم
فوق ذلك كله - وسامحنى يا الهى - هذا الذى يستطيع أن يحفظ طهارة
قلبه طوال العام ليمثل المسيح المصلوب .

وسكت القسيس لحظة لينتقط أنفاسه - فالتفت ناظر المدرسة هذه
الفرصة ، وبدأت تقاحة آدم تملو وتهبط في عنقه وهو يقول :

- كان القدماء يسمون ذلك « السر » ، وتبدأ طقوسه يوم أحد
السبع في الغناء الخارجى للكنيسة - وتنتهى في منتصف ليلة سبت النور
في حديقة الكنيسة بقيام المسيح - الوثنيون كانت لديهم المسارح والملاعب
والسيحيون لديهم أسرار الكنيسة

ولكن الأب جريجوريس لم يعطه فرصة الانطلاق ، فقاطعه قائلا :

- حسن .. حسن - الجميع يعرفون هذا كله أيها الناظر المحترم !
دعنى أتم حديثي - ان الكلمات تتحول الى أجساد - وهكذا نرى يعيونا
ونلصق بأيدينا آلام المسيح - ومن كل القرى المحيطة يتوافد الحجاج ،
ينصبون خيامهم حول الكنيسة ، ينتحبون ويلطمون الصدور طوال أيام
أسبوع الآلام - ثم تنطلق صيحة «المسيح قام» فتبدأ مظاهر البهجة
والرقص وأنتم تذكرون يا اخوتي المعجزات الكثيرة التي تحدث في
تلك الايام - وما أكثر الخطاة الذين يجهشون بالبكاء ويتوبون - وبعض
السلالة الأثرياء يعترفون بالخطايا التي اقترفوها في جريهم وراء الثروة ،
فيهبون الكنيسة يستأن كرم أو حقلا ابتغاء خلاص نفوسهم - هل تسمعون
يا أب لاداس ؟

وانفجر لاداس المعجوز يقول مفتاحا :

- استمر ، استمر يا أبانا ولا تقذفني بالحجارة - ثم اعلم أن هذه
الحيل لا تجدى معي .

واستأنف القسيس حديثه :

- لقد اجتمعنا اليوم إذن لكى نختار .. بالهام من الله .. هؤلاء
الذين توكل اليهم الأدوار في هذا السر المقدس - فتكلموا بحرية ، ولابد
كل منكم برأيه ! أيها الشيخ بطريركاس ، أنت رأس الاعيان ، فتكلم
أولا - وها نحن نتصت لك .

وتدخل الكابتن قائلا في انفعال :

- عندنا يهودا : بانايوتى آكل الجيس : لن نجد أحسن منه ! شرس
وجهه مغطى بآثار الجدري ، قرد حليلى من نوع الغوريلا الش رايته في
فى أوديسا ! والشئ الأكثر أهمية هو أن شعره ولحيته متناسيان تماما
للنور : لونهما أحمر كلون الشيطان نفسه .

وقال القسيس بلهجة قاسية :

— ليس هذا دورك في الكلام يا كاتين ، لا تتعجل . فهناك من لهم أسبقية عليك . تفضل يا شيوخ بطرياركاس .

وأجاب العدة بطرياركاس :

— ماذا أقول لك يا أبانا ؟ لست أريد سوى شيء واحد : أن تختاروا ابني ميشيل لدور المسيح .

وقاطعه القسيس قائلا بلهجة جافة :

— مستحيل ، ابنك شاب ثري ، يدين سمين ، يأكل وشرب خمر ، مرفه في حياته ، أما المسيح فكان فقيرا نحيفا . أسمع لي أن أقول إن هذا لا يوافق ذلك . ثم هل ميشيل يستطيع أن يتحمل مشقة هذا الدور الصعب ؟ أنه سيضطرب بالسياط ، ويوضع على رأسه اكليل من الشوك ، ويوضع على الصليب . ميشيل لن يقوى على ذلك . هل تريد أن يسقط أعياه ؟

وتدخل الكاتين قائلا :

— الأهم من ذلك كله أن المسيح كان أشقر بينما شعر ميشيل وشارب في لون الفحم الأسود .

وقال لاداس العجوز وهو يتصاحك في خبث :

— بالنسبة لمريم المجدلية ، عندنا الشخص المطلوب تماما : كاترينا الأرملة . هذه الداعية تتوافر فيها كل الصفات المطلوبة : المهر والجمال والشعر الأشقر الطويل . وأيتها ذات يوم في فناء منزلها تمشطه ، كان يسند إلى ما تحت ركبتيها . لعنة الله عليها ! أنها تستطيع أن توقع رئيس الأساقفة في الخطيئة .

وقطع الكاتين فمه ليضيف بعض الدعايات المبتذلة ، ولكن القسيس نظر إليه نظرة عفدت لسانه . وقال القسيس :

— العثور على الأشرار سهل . يهودا وعريم المجدلية . لكن ماذا عن الأخيار ؟ في هذا أنتظر منكم النصيحة . أين نجد — استغفر الله — رجلا يشبه المسيح ؟ على الأقل يجب أن يشبهه إلى حد ما في هيئة جسمه . لا تريد أكثر من هذا . هذه الفكرة حاصرتني أباما وأسابيع وحرمتني النوم عدة ليال . لكن أحسب أن الله من علي وأخذ يدي . وأظن أنني عثرت على الشخص .

وسأل العدة العجوز كأنما أصيب بلدغة :

— من هو ؟ أين ؟

— بعد الآنك أيها العدة ، هو واحد من المشتغلين في خدمتك . وسبادتكم تكونون له الحب أيضا : مانولي راغي غنمك . إنه وديع كالحمل ، وهو يقرأ ويكتب ثم أنه كان في الدير . له عينا زرقاوان ، ولحية قصيرة صفراء في لون غسل النحل . أنه صورة صادقة للمسيح كما تصوره الأيقونات . وفوق ذلك فهو شديد التقوى . ينزل من الجبل كل أحد يسمع القدوس . وفي كل المرات التي أتى فيها إلى الكنيسة للمناولة أو الاعتراف لم أكتشف قط أنه ارتكب معصية صغيرة .

واعترض لاداس العجوز بصوت كالصرير :

— إن به لونة طفيفة ، وتتراى له أشباح .

وقال القسيس مؤكدا :

— لا شيء في ذلك . فإلهم أن تكون النفس ظاهرة .

وقال الناظر بكلمات بليغة :

— أنه قادر على احتمال ضربات السياط . ووخر اكليل الشوك ونقل الصليب . وفضلا عن ذلك فهو راجع . وهذه ميزة أخرى فيه . فالمسيح أيضا راجع لقطعان البشر .

وقال الشيخ بطرياركاس بعد تأمل :

— أنا أوافق . لكن ماذا عن ابني في هذه الحالة ؟

وأجاب القسيس في حماسة :

— أنه يصلح أكثر من غيره لدور يوحنا الرسول . تتوافر فيه كل الصفات المطلوبة فهو من أسرة كريمة ، ممثلي الجسم ، أسود الشعر ، وعينه عسلتان . وهكذا تماما كان تلميذ المسيح المفضل .

وتكلم ناظر المدرسة وهو يرقب أخاه القسيس في ارتباك :

— بالنسبة لدور الرسول يعقوب يبدو لي أننا لن نجد أصح من قسطنطين صاحب المقهى . فهو جاف المود ، شرس المظهر ، عنيد ، ضيق الخلق . وبهذه الصفات بوصف يعقوب الرسول .

وعاد الكاتين يتدخل في الحديث :

- ان له زوجة تربه نجوم الظهر . ترى هل كان الرسول متزوجا ايضا ؟ ما رأيك في ذلك يا أعلم العلماء ؟

وصاح القسيس غامضا :

- لا تهزل في الامور المقدسة ايها المجلد . لست الآن على ظهر مركبك تلقى البذامات على بعارتك . نحن هنا نتكلم عن سر كنسى .

وتشجع ناظر المدرسة فعاد يقول :

- يبدو لي ان البائع المتجول ياناكوس يمكن ان يصلح لدور بطرس الرسول : فجيته ضيقة . وشعره أشهب مجعد ، وذقنه قصيرة . وهو يفض سريعا ويهدأ سريعا كأعواد الصوفان الرقيقة التي تشتغل بسهولة وتنطفيء بسهولة . ولكن قلبه طيب ، ولست أرى في القرية أصلح منه لدور بطرس .

وقال الشيخ بطرياركاس :

- انه يفش في البيع الى درجة ما . ولكنه ناجح فماذا تنتظر منه غير ذلك ؟ لا يهم هذا الآن .

وصر لاداس العجوز قائلا من بين أسنانه :

- يقال انه هو الذي قتل زوجته اذ دس لها السم .

وصاح القسيس :

- افترأ ! افترأ ! يجب ان تسألني أنا عن ذلك . لقد أكلت زوجته في أحد الأيام بشراة ملء فدر من الحصى الفصح فأجست بعدها بمطش شديد لا يحتمل حتى أنها شربت جرة كاملة من الماء . فانتفخت وماتت . لا تستنزل اللعنة على رأسك بهذا الكلام بالاداس .

وعلق الكاين :

- « نالت ما تستحقه . هذه نتيجة شرب الماء ، لو أنها شربت عرقى لما أصابها شيء . »

وقال ناظر المدرسة :

- « لا تزال بحاجة الى من يمثل دور بيلاطيس وفيافا . ولكن يبدو ان هذا شيء عسير . »

وقال القسيس بطريقة معسولة :

- « لن نجد من يصلح لدور بيلاطس خير من سيادتكم يا عزيزي الشيخ بطرياركاس . لا نقطب جبينك ، فقد كان بيلاطس أيضا أحد النبلاء العظام ، مهيب المنظر ، مكتنز الوجه ، أنيق المظهر ، له لمحة تشبه لحيتك هذه تماما . وهو رجل صالح أيضا سعى بهذه لينتقد المسيح . بل وأعلن في نهاية الأمر « أغسل يدي من دم هذا » . وبذلك أبرأ نفسه من الخطيئة . لا ترفض هذا الرأي ايها الشيخ ، فانك تشجع لنا بذلك ان نجعل من هذا السر شيئا كبيرا . تخيل المجد الذي سيعود على قريتنا والأعواج الغفيرة التي ستندفع اليها حين تعلم ان الشيخ بطرياركاس كبير الاعيان سيقوم بدور بيلاطس . »

وابتسم الشيخ في اعتزاز وأشعل غليونه دون ان ينبس بكلمة .

وتدخل الكاين مرة أخرى قائلا :

- « الأب لاداس خير من يمثل دور قيافا . لن نجد أحسن منه . أنت يا إيانا ترسم أيقونات ، فقل لنا كيف ترسم صورة قيافا في الأيقونات ؟ »

وقال القسيس مترددا :

- « حسن ، في الحقيقة . انه يشبه الأب لاداس الى درجة كبيرة . فهو جلد على عظم ، متسخ الجسد ، غائر العينين ، أصفر الأنف ضيقة . »

وعاد الكاين يسأل بكلمات لاذعة وهو يضحك :

- « وهل كان شاربه مغطى بالقشور أيضا ؟ وهل كان يرفض ان يتصدق بقطرة ماء حتى وإن كانت لملكه الحارس ؟ وهل كان يشي وحذاءه في يده خشية أن يبل ؟ »

وانفض لاداس صائحا :

- « سأصرف . لماذا لا تأخذ دورا أنت أيضا ايها الكاين ؟ ماذا تنتظر ؟ ألستم بحاجة الى ممثل ناعم البشرة يمثل دورا إياكأن هذا الدور ؟ »

واجاب الكاين ضاحكا وهو يحرك اسمعيه كأنما يغفل شاربه :

- « أنا احتياطي لكم ، فمن يدرى ؟ نحن رجال تقدمت بنا السن . وربما يودعنا أحدكم خلال هذه السنة . أنت مثلا يا لاداس يا صاحب الشارب الكث ، أو ربما السيد بيلاطيس . واذا ذاك أقوم أنا بذلك الدور حتى نلقه السر . »

عوى العجوز البكيل قائلا :

« يا ابحتوا عن قيافا آخر . هذه كلمتي الأخيرة ، وعلى كل حال يجب أن اذهب لأرضي شئوني . سأنصرف » .

« لن أكون قيافا . ابحتوا عن شخص آخر ، وهم بالذهب مد القيس دراعيه يعترض طريقه قائلا :

« أين تذهب ؟ الناس في طريقهم إلينا . فلا يمكن أن تنصرف . ولا يرغبتك أن تكون جميعا سخرية القرية » .

ثم أضاف بلهجة رقيقة :

« يجب أن تضحي كالآخرين يا مسيد لاداس . فكر في نار جهنم . سوف تغفر لك خطايا كثيرة إذا ساعدتنا في هذا العمل الجليل الذي تؤديه ابتغاء مرضاة الله . ولن نجده خيرا منك لدور قيافا . فلا تتركنا بالرفض . سيكتب لك الله ذلك في اللوح المحفوظ » .

وصرخ لاداس العجوز مدعورا :

« لن أكون قيافا . ابحتوا عن شخص آخر أما عن هذا اللوح المحفوظ »

ولم يستطع أن يكمل عبارته . فقد كان أهل القرية يصعدون السلم . ورفع القسيس مزلاج الباب .

واندفع إلى الداخل حوال عشرة من أهالي القرية يحيون الأعيان ويرثمون الصليب . وقالوا :

« يا المسيح قام أيها السادة الأعيان » .

ثم اصطفوا لصق الحائط .

وأجاب الأعيان وهم يسترخون على الأريكة الكبيرة التي تربعوا فوقها :

« يا حقيقة قام ! »

ودار عليهم الشيخ بطرياركاس بكيس الطبايق .

وأعلن القسيس :

« اتخذنا قراوتنا يا ابنائي . لقد حضرتم في الوقت المناسب تماما . فرحيا بكم » .

وصفق بيديه فحضرت ماريوري .

« قدمي يا ماريوري لهؤلاء الغنية شرابا ، واحضري لكل منهم بيضة حمراء احتفالا بقيام المسيح » .

وشربوا ، وأخذ كل منهم بيضة حمراء ، وانتظروا .

وبدا القسيس يتكلم وهو يتحسس لحيته المشبعة :

« يا ابنائي ، شرحت لكم بالأمس بعد القداس ما ننتظره منكم . سنحتفل في عيد القيامة القادم بسركتسي عظيم . فيجب أن تساعدونا جميعا ، صفارا وكيارا . انتم تذكرون كيف كان الأسبوع المقدس في قريتنا منذ ست سنوات ، كم من الدموع سكبت في الكنيسة ، وكم من النحيب الذي يفتت الأكياد . ثم كيف كانت البهجة بعد ذلك يوم أحد القيامة . وكيف أضيئت الشموع وتعاقت الناس ، وكيف اندفعنا في حمية ترقص ونغني « المسيح قام من الأموات ، قهر الموت بالموت » . وأصبحنا جميعا أخوة . في العام القادم يجب أن يكون احتفالنا بآلام المسيح جميلا كما كان سابقه بل وأجمل منه . هل توافقوني أيها الأخوة ؟ » .

وأجاب أهل القرية بصوت واحد :

« موافقون يا أبانا . لتباركنا ! » .

ولهض القسيس وقال لهم :

« ليبارككم الله ! لقد اخترنا نحن شيوخ القرية هؤلاء الذين سيمثلون الرسل وببلاطس وقيافا والمسيح . تقدم يا قسطندي باسم الآب » .

وأمسك قسطندي صاحب المقهى بطرف مربلته وثبته في سزامه الأحمر وتقدم .

« اخترناك أنت يا قسطندي لتكون يعقوب الرسول . التليد الزاهد للمسيح . وهذه مهمة خطيرة وقدسمة ، فيجب أن تؤديها بإياه وشهم . حتى لا تلحق العار باسم الرسول . ومنذ اليوم يجب أن تتحول يا قسطندي إلى إنسان جديد . أنت رجل بار ، ولكن يجب أن تكون أكثر برا ، وأكثر استقامة وحلما ، وأكثر انتظاما في حضورك إلى الكنيسة . ويجب أيضا أن تقلل من الشعب الذي تضيفه إلى البئر . ولا تقسم قطع

الخلوى لتبنيح النصف بتمن القطمسة الكاملة ، وفوق ذلك كله احذر أن تضرب زوجك ، فانت منذ هذا اليوم لم تعد قسطندي فقط ، بل أيضا ، وهذا هو الأهم ، يعقوب الرسول . هل فهمت ؟

وأجاب قسطندي وهو يتراجع نحو الحائط ، وقد احمر وجهه خجلا :
« لقد فهمت »

وكاد يضيف : لست أنا الذي أضرب زوجي ، بل هي التي تضربني ، لكنه منك خجلا .

وسأل القسيس :

« أين ميشيل ؟ نحن نحتاج اليه »

وأجاب ياناكوس :

« توقف في المطبخ ليتحدث الى ابنتك »

« ليذهب أحدكم لاستدعائه » وتقدم أنت يا ياناكوس بهذا دورك »

وخطا البائع المتجول نحو القسيس ، وقبل يده

« كان من نصيبك يا ياناكوس مهمة صعبة ، هي تشييل بطرس الرسول . فانتبه جيدا . انس ياناكوس القديم ، فهذا تعميدها من الكنيسة . أعدك يا ياناكوس باسم الأب ، فكن بطرس الرسول ، خذ الانجيل فانت تستطيع أن تقرأ الى حد ما ، تدبر فيه صفات بطرس الرسول وأقواله وأفعاله . إن لك رأس خزير ، لكن قلبك طيب . اقطع علاقتك بالماضي ، واسلك طريقا جديدا ، طريق الرب . لا تنقص الميزان ، ولا تفتش بضاعتك ، ولا تفتش الرسائل لتختلس النظر الى أسرار الناس . هل تسمع ؟ قل « أسمع وأطيع »

واندفع ياناكوس يقول وقد تراجع بسرعة نحو الحائط خوفا من أن يستمر هذا القسيس الشيطان في نشر حيله الفتنة على الحاضرين :

« سمعا واطعنا يا أبانا »

وأشفق عليه الأب جريجوريس فسكت . واستعاد ياناكوس شجاعته فقال :

« يا أبانا ، أسألك مكرمة ، أعتقد أنه يوجد في الانجيل أيضا حمار . اظن أن المسيح عندما دخل اورشليم يوم أحد السبع ، كان يركب أتانا . نحن نحتاج إذن الى حمار . وأنا أسألك أن يقوم حماري بهذا الدور »

وأجاب القسيس وقد انفجر الجميع بالضحك :

« لك ما طلبت يا بطرس ، قبلنا أن يقوم حمارك بهذا الدور »

ودخل ميشيل في هذه اللحظة . سمينا بديننا ، متورد الوجه ، يسع خلف أذنه زهرة ، وحول أصبعه خاتم الخطوبة الذهبي وهو يتخب في الجوخ والحريز . وكان خداه ملتئمين . فقد أمسك بيد ماريوري في الطبخ وتأججت النار في عروقه .

وقال القسيس وهو يحمل باعزاز في صهره المقبل :

« مرحبا بك أيها الولد العزيز ميشيل . اخترناك بالإجماع لنسبل يوحنا ، أحب التلاميذ الى نفس المسيح . إن هذا شرف كبير لك ، وبهجة عظيمة يا صغرى ميشيل . فانت الذي تميل على صدر المسيح نواسيه ، وأنت الذي تتبعه حتى اللحظة الأخيرة على الصليب ، بينما انفض عنه كل تلامذته ، وأنت الذي يستودعك المسيح أمه »

وقال ميشيل في خجل وسرور :

« بركاتك يا أبانا . أنا معجب بهذا الرسول منذ طفولتي حين كنت أراه في الأيقونات دائما شابا وسيما حلوا ، فأحببته . شكروا يا أبانا . هل لديك نصيحة لي ؟ »

« لا يا ميشيل ، فإن لك نفسا في براعة الحسامة ، وقلبا يفيض حبا ، وأنت لن تلتحق الغار باسم الرسول ، فأليك بركاتي »

ثم قال وهو يتصفح وجوه أهل القرية واحدا بعد آخر بعين طائر جارح :

« الآن يجب أن نعتز على يهوذا الاسخريوطي »

وارتعد كل منهم وهو يشعر بوقع نظراته الحادة على وجهه . وتمتم كل منهم « ساعدني يا الهي ، لا أريد أن أكون يهوذا »

واستقرت عينا القسيس على لمية حمراء ، لمية أكل الجبس . وارتفع صوته وهو يقول :

« يا نايوتى . اقترِب قليلا . أريد أن أطلب منك خدمة » .

وهز بنايوتى كتفيه الكبيرين ، وعنتقه الغليظ ، كالثور حين يهز وأسنه ليقلت من النير . وشعر فى تلك اللحظة برغبة فى أن يصرخ
« لا ، لا أريد » . لكنه لم يجرؤ على أن يقول ذلك فى حضرة الأعيان .
فأجاب وهو يتقدم متناقلا كالدب :

« تحت أمرك يا إيانا » .

حاول القسيس أن يهدئ للموضوع فقال :

« الخدمة التى سنطلبها منك يا بنايوتى شاقة جدا . ولكنك لن
تخذلنا . فان لك قلبا رقيقا رغم مظهرك الفظ الشرس . أنت تشبه حبة
اللوز ، فشرة صلبة كالخجر تخفى بداخلها نعمة اللوز الحلوة
هل تسمع ما أقول يا بنايوتى ؟ » .

وأجاب :

« أسمع فليست أصم » .

والتهب وجهه المغطى بآثار الجدري . كان يدرك ما يريدونه منه .
ولكن الكلمات المبسولة المتنافقة أثارت نفوره .

واستطرد القسيس :

« لا صلب بدون يهوذا . ولا قيام بدون صلب . ومن ثم يلزم
بالضرورة أن يضحي أحد أبناء القرية ليمثل دور يهوذا » .

وقاطعه أكل الجبس بعدة وحسم :

« يهوذا ؟ أنا ؟ مستحيل . لن أكون يهوذا ! »

وشد على قبضته فانكسرت بيشته الحمراء ، وسال صفارها من يده .

وقفز كبير الأعيان يلوح بغليونه مهددا ويصيح :

« هذا آخر الزمان ! لا يمكن أن يركب كل منكم رأسه هنا . هذا
مجلس الأعيان وليس مقهى قسطنطينى . وقد اتخذ الأعيان قرارا فأصبح
نهائيا ، وعلى الناس أن يطيعوا . هل تسمع يا أكل الجبس ؟ » .

وأجاب بنايوتى :

« أنا أحترم مجلس الأعيان . ولكن لا نطلبوا منى أن أخون
المسيح . لن أفعل ذلك أبدا » .

وارغى المائدة وأزبد . وحاول أن يتكلم ولكنه اختنق بالفضب .
وانهر الكابتن فرصة الضجيج والارتباك فلا كأس العرقى مرة أخرى .
وتدخل القسيس وقال وهو يحاول جاهدا أن يكون حديثه بصوت
وقيق :

« أنت دائما مخالف يا بنايوتى . تنظر الى الأشياء من غير زاويتها
الصحيحة . أنت لن تخون المسيح ، ولكنك تنتظر بأنك تخون المسيح ،
وذلك يمكن أن تصلبه ليقوم بعد ذلك مرة أخرى . أنت بطى الفهم ،
ولكن انتبه جيدا وسوف تفهم . لكى نخلص العالم يجب أن يصلب
المسيح ، ولكن يصلب المسيح يجب أن يشى به أحد الناس . هكذا اذن
برى أن وجود يهوذا شيء ضرورى ليحقق خلاص العالم . بل أكثر ضرورة
من وجود أى رسول آخر . وفى الحقيقة أن عدم وجود واحد من الرسل
لا يغير من الأمر شيئا ، ولكن لولا وجود يهوذا لما تحقق شيء . يهوذا
هو الشخص الثانى فى الأهمية بعد المسيح . هل فهمت ؟ » .

وعاد بنايوتى يكرر وهو يعجن فى يده البهضة المكسورة :

« لا يمكن أن أكون أنا يهوذا . أنت تريدنى أن أكون يهوذا .
وأنا لأريد . هذا كل ما فى الأمر ! » .

وفى ناظر المدرسة :

« هيا أيها الرجل الطيب بنايوتى . افعل هذا من أجل خاطرتنا .
كن يهوذا فيصبح اسمك خالدا » .

وقال الكابتن وهو يمسح شفتيه :

« لا داس العجوز يرجوك أيضا أن تفعل ذلك . وهو يقول انه لن
يسقط عليك فى موضوع النقود التى تدبى بها له ، بل يقول أيضا انه
سينازل لك عن الفوائد » .

وعوى العجوز البهيل غاضبا :

« لا تتدخل فى شئون الآخرين يا كابتن . أنا لم أقل شيئا من
هذا . افعل ما يلهيك به الله يا بنايوتى . وأنا لا انتازل عن الفوائد
لأى أحد » .

وصمت الجميع . لم تكن تسمع فى هذا الصمت سوى صوت أنفاس
بنايوتى المتلاحقة ، بلغت كأنه يتسلىق حلا .
وقال الكابتن :

- لا تريد أن نضيق وقتنا - لنترك هذا الشيطان التعس يقرب
الامر في رأسه ويهضمه - نقتل هذا الامر ليس من اليسير البت فيه دون
تدبير - أن تكون يهوذا ليس شينا هينا - انه يحتاج الى تفكير عميق والى
عرقى - أين مانولى اذن حتى تنتهي من ٩ ؟

وقال ياناكوس :

- رأينا مع ليتيو يطارحها بعض كلمات الغزل ، فمن المستحيل
انتزاعها منها .

وقال مانولى وقد احمر وجهه :

- ها انذا ! تحت امركم يا عمدة ويا أعيان القرية .

كان قد انسب الى الحجرة فى همدوه فلم يلحظه احد ووقف فى
الركن بعيدا .

وقال القسيس بصوت يعطر حلاوة وعذوبة :

- تعال يا مانولى - تعال اباركك .

وتقدم مانولى وقبل يد القسيس - كان شابا صغيرا ، أشقر الشعر ،
خجولا ، فقير اللبس تفوح منه رائحة السعتر والبن ، وحينما الزرقاوان
تعبران بوضوح عن البراءة والصفاء .

وقال القسيس بلهجة وقورة :

- فى توزيع الادوار غزت يا مانولى بالنمرة الرابعة - الرب
اختارك أنت لتبث بجسك وصوتك ودموعك الآلام المقدسة - أنت الذى
ستضع على رأسك اكليل الشوك - وأنت الذى ستجلبد - وأنت الذى
ستحمل الصليب المقدس وتصلب - يجب اذن ألا تفكر الا فى شئ واحد
ابتداء من اليوم حتى الأسبوع المقدس فى العام القادم - شئ واحد فقط :
كيف تصبح جديرا بأن تحمل هذا الثقل الرهيب ، ثقل الصليب .

ولتمت مانولى وهو يرتعد :

- لست جديرا بذلك

- لا يوجد من هو جدير بذلك - لكن الله اصطفاك أنت .

وعاد مانولى يتمتم :

- لست جديرا بذلك - إن لى خطيئة - سميت ل أن لست امرأة .
فالخطيئة فى نفسى - وبعد أيام سأتزوج .. كيف اذن أستطيع أن أحمل
الثقل الرهيب لدور المسيح ؟

وأجاب القسيس بلهجة حادة :

- لا تعارض مشيئة الرب - بالتأكيد أنت لست جديرا ، لكن
العناية الالهية تغفر وتصنع وتصطفى - والعناية الالهية اصطفتك أنت
فاستك .

وسكت مانولى ، لكن قلبه أخذ يبق حتى كاد ينفجر فرحا ورعبا .
ومد بصره عبر النافذة - كان الرذاذ قد توقف ، والسهل المنبسطة البعيد
عاد أخضر تدريا شديد الصفاء - ورفع عينيه فأصابته رعدة مفاجئة -
شاهد خلال السحب قوس قزح كبير فى لون الزمرد والياقوت والعسجد ،
سند ليربط السماء بالأرض - فوضع راحته على صدره وقال :

- لستك مشيئة الرب !

وقال القسيس :

- ليتقدم الرسل الثلاثة - وتقدم أنت يا مانولى ! لا تخف فلن
ياكلك - تعالوا ابارككم .

وتقدم الأربعة صفا واحدا يتوسطهم مانولى - ومد القسيس يديه
وسطهما فوق رؤوسهم وقال :

- لبارككم الله ! لتسليكم روح الرب ! لتفتح قلوبكم حتى
لو كانت جذوع شجر ميت كما تفتح براعم الزهور فى الربيع - ولتحققوا
المجزة التى يراها المؤمنون فى الأسبوع المقدس فيقولون هل هذا هو
ياناكوس ؟ هل هذا قسطنطين ؟ وهل الآخر ميشيل ؟ لا ، لا ، انهم بطرس
ومعقوب ويوحنا - وليأخذهم الرب حين يرونك يا مانولى تصعد الجبلجة
وعلى رأسك اكليل الشوك .. ولتزلزل الأرض مرة أخرى ، ولنظم
الشمس ، ولينشق حجاب الهيكل فى قلوبهم ! ولتفض عيونهم بالدموع
فظهرها ليكتشفوا فجأة أننا جميعا اخوة ، وليقم المسيح من جديد ليس
فقط على درج الكنيسة ، لكن فى قلوبنا ! آمين .

وعرق الرسل الثلاثة ومانولى فى عرق بارد - وارتعدت مفاصل
أرجلهم - وأصابهم الخوف كان على رؤوسهم طيرا كاسرا ساكنا يلقى على
أرواحهم ظل جناحيه الكبيرين - وبلا شعور امتدت أيادهم تفتش عن
بعضها لتتشابك - وتكونت منهم سلسلة متماسكة الحلقات لمواجهة الخطر .
أما يانايوتى فقد أغلق قبعته ، ورفض وحده أن يمسك بيد الآخرين -
وطل يحلق فى الباب مثقل للخروج .

وقال القسيس :

« والآء اضربوا الى حال سبيلكم تصحبكم بركة الرب . امامكم طريق جديد . طريق شاق . اصبروا وصابروا وطهروا قلوبكم وليعنكم الرب » .

وتراجعوا واحدا اثر الآخر يركعون امام القسيس ويحيون الاعيان . وانسلوا من الباب في سكون . ثم نهض الاعيان واخذوا ينطلقون .

وقال العمدة :

« شكرا لله . لقد تم كل شيء على ما يرام . لقد احسنت التصرف يا ابانا » .

ولم يكد الاعيان يجتازون الباب حتى انفجر الكابتن فورتوناس ينفقه ويضرب على فخذه :

« آه . اسمعوا . نسينا ان نبلغهم اسم مريم المجدلية » .

وقال العمدة وهو يزدرد لعابه :

« اطمئن يا كابتن . ساستدعيها الى بيتي واكلمها » . ثم اضاف بايتسامة :

« وانا واتق انني سأتج في اقناعها » .

وقال القسيس مقظبا :

« اذا كان لا به وان نرني بها فافعل ذلك قبل ان تكلمها . فانت تعلم انه بمجرد ان تتحول الامله الى مريم المجدلية ستصبح اعطشنة معها كبيرة جدا » .

واجاب العمدة وهو يلتفت انفسه كما لو كان قد افلت لتوه من خطر بالغ :

« احسنت صنعتما ايها القسيس يا فادتي عن هذه المسألة » .



اخذ الكابتن فورتوناس بهبط المنحدر ويتكى . ينقله على عشاء بعد ان ترك زعماءه . وقال لنفسه :

« لتتزل لعنة السماء على رؤوسنا جميعا » . مثل هذه الامور تحتج يا رجل الى قلب ظاهر . لكن قلوبنا نحن مثل أهل سادوم وعامورة . القسيس جوفه يتلج كل شيء . افنتج حانوت عقاقير وسماه . كنيسة . بيع فيها المسيح بالدنانير والدرهم . وهذا المشعوذ يزعم انه يشفي كل الامراض . ماذا تفعل ؟ - انا كذبت - خذ جراما من السبع . يكلفك كذا قرشا . وانت ؟ - انا سرقته - لك اربع جرائم من السبع : تساوى كذا . وانت ؟ - انا قتلت - آه ايها التمس . ذاك عطر . عليك ان تتناول هذا المسار قبل النوم خمسة عشر جراما من السبع . سيكلفك هذا كثيرا . مبلغا وقدره كذا . الا تجرى لي تخفيضا يا ابانا ؟ - لا . السعر محدود . ادفع والا سيلقي بك في الدوك الأسفل من الحميم » . ويظهره على الصور التي يحفظها في حانوته . فيرى الحميم يساعد منه السنة الذهب . والزبانية يحملون المناخس المديبة . ويرتعد الزبون هلعاً فيفرغ ما في جيبه » .

« والشيخ بطرياركاس ؟ غتزر يمشي على قدمين . ليس سوى كرش من رأسه الى اخمص قدميه . وحتى رأسه لا يوجد بداخله سوى امعاء » . اذا اخذت كل ما ابتلعه في حياته ووضعته في جانب . ووضعته في الجانب الآخر كل ما اخرجته من اعل ومن اسفل . لو جدت امامك جيلين هائلين من القاذورات التنتة . وهكذا سيقب امام الله يوم الحساب بين هذين الجبلين . واحد عن يمينه والاخر عن يساره » .

حاجي تيكولا ناظر المدرسة ؟ هذا اليائس الضعيف ليس سوى نصف انسان . مسكين . قبيح الوجه . وعديد . يضع على عينيه نظارة صغيرة ومع ذلك يتصور نفسه الاسكندر الاكبر . يضع على رأسه خوذة من الورق المقوى . ويتوج رؤوس تلاميذه بمثل هذه الخوذات القديمة . ولكن ما الغريب في ذلك ؟ اليس ناظر مدرسة ؟ » .

« لاداس العجوز ؟ يتخيل جشع . القمل يملأ جسمه . مجرد من الشاعر . يموت جوعا وهو جالس فوق ما يملك من ابراميل النبيذ . وقهور اريت . واجولة الدقيق » . فهو الذي قال لزوجته عندما زاره بعض الصيوف ذات مساء : « اذهبي يا امرأة واسلقي لنا بيضة » . فسوف يتناول العشاء الليلية عندنا اربعة من الصيوف » . لا يأكل ولا يشرب سيرا دائما حافي القدمين . عاري الدبر . ولماذا ؟ ليموت ثريا ! يا للاسي ! الشاعرة الشيطان » .

« وأنا ؟ هل لي أن أعرف ؟ نهاب ياكل حقوق الناس . تستخدم قطعاً اذا اردت أن تلمسني دون أن تتسخ يديك ! كم نمتلي حياثي بالشراسة من الطعام وفي الشرب . بالسرقات . بجرائم القتل . بالمخانات الزوجية . يا الهى كيف وجدت الوقت لأمارس كل هذه الأفعال الفذرة ؟ المجد ليدى وقدمى وقمى وفعلدى ! لقد أدبتم يا أسدقائى عملكم على خير وجه . فأنتم تستحقون بركتى » .

هكذا كان الكابتن فورتوناس يحدث نفسه بينما يندق بعضاه الطريق الحجري . حتى وصل الى أسفل المنحدر . فخلع قلنسوته وأمسكها بيده . روج بها عن نفسه . ونظر الى الشمس . كان الوقت بعد الظهر . وأسرع الخطى : فالأغا دعاه صباح اليوم لتناول العشاء معه سيمعلا الإنسان كرشيهما ويسكران . وتعمم قاتلاً لنفسه :

— حيا بسرعة ، الحياة حلوة ، فلننهل منها قدر ما نستطيع .

ووقف أمام منزل الإغا ويصق . فقد اعتاد أن ينفس عن غضبه بهذه الطريقة . كان يخيل إليه أنه إنما يصبق على تركيا كلها . ويتخيل أنه يرفع راية صغيرة جدا من رايات الحرية . ويتحرر ولو للحظة واحدة .

يصبق مرة أخرى وارتاح صدره . ثم دق على الباب . وسرى في أعياه طعم لذيق : فهو الآن سيماكل ويشرب ما طاب له ذلك . فالأغا رجل طيب سخي — واذا فسوف يعقد كل منهما حول رأسه منديلا كبيرا مبدلاً لسميح آلام الصداع الشديد . وبشراب العرق بعد ذلك في أقذاح كبيرة .

وترددت في فناء المنزل قرقعات قيقاب . وخطوات قصيرة . ثم انفتح الباب . وظهرت خادمة الأغا المعجوزة مارتا . وهي امرأة حدياء . استقبلت الكابتن في ضيق قائلة :

— ان كنت تؤمن بالمسيح يا كابتن فلا تشرب الى درجة السكر كما تفعل دائماً . لقد صنعت ذرعا ولم أعد أحتمل المزيد .

وضحك الكابتن وابتدعه على حديثها وقال :

— اطيننى يا عزيزتى مارتا . فلن نسكر ، واذا سكرنا فلن نقى . أما اذا فطنا فسوف نحضرين الطشت حتى لا تتسخ الأرض . أنا أعدك بذلك .

قال كلمته هذه ودلف الى الداخل بكبرياء وشمم .

مطاردة الأخوة

سار مانولى والرسمل الثلاثة قبيل المساء في الطريق الى بحيرة فويدامانا الصغيرة . وهي غير بعيدة عن القرية . وأخذوا يترننون بما يسرى عن أنفسهم . كان كل منهم يشعر برغبة خفية لسرى في جسده كما لو كان قد انتهى لنوه من المبالاة .

توقف الرذاذ . ولعلت الأشجار والحيجارة . وتضوعت الأرض بعطر جميل . وأطلق طائر الوقتاق صيحات فرحة مسخرة . وخفت حسراة الشمس . فأخذت تروبت على الأرض في حنان كأنها قبيل عظيم . ورفقت الدنيا وسادها سكوت حسانم . كانت قطرات المطر لا تزال تترقرق على أوراق الشجر . وفي هذا الجو البدى ساعة الأمصيل . كان الوجود يضحك ويكي مماء .

سار الرفاق الأربعة يلغهم الصمت فترة طويلة . ووصلوا الى إحدى الممرات المشبية الرطبة وسط البساتين . كانت أزهار الليمون تلمع في بياض ناصع بين الأوراق الداكنة المحضرة . والأرض محملة بالزهور البايكية كان المسيح لم يلم بعد . ومترت ربح دافئة أتعشت العصارة في الفروع الوليدة . فبعثت الحياة في كل النباتات .

وبدا قسطندى الكلام قائلا بصوت خافت :

— ما أنقل الحمل الذى ألقاه القسيس على كاهلنا . فليساعدنا الله على أن نحمله حتى النهاية ! هل تذكرون المرة السابقة ؟ قام بغور المسيح

اذ ذاك السيد خرا لاصحاب الرجل ذو الاملاك سبليل أسرة كريمة . ومع ذلك بذل أقصى جهده ليقتني آثار المسيح . كادح طوال العام ليكون أهلا لحمل الصليب حتى انتهى به الأمر الى ان فقد رشده . وفي يوم الجمعة الغزينة وضع على رأسه الكليل الشوك . وحمل الصليب على كتفه . ثم ترك الدنيا زاهدا الى دير القديس جورج في سوميليا بالقرب من تريبيزون وأصبح راهبا . وحمل الحراب بأسرته . وماتت روحه . وهام اولاده في الطرقات يتسولون . هل تذكر يا مانويل السيد خرا لاصحاب ؟

طل مانويل صامنا . كان يصمت الى كلمات مسطندي بأذن غير واعية . فروحته غارقة في تأمل عميق . وفي حلقه غصة . فلا يستطيع الكلام . كان هناك شيء يحتم به منه صياء . ويضناه طوال الليالي وهو جالس عند مدعى معلمه الأب ماناس في الدير . يصمت الى حكاياته عن حياة القديسين ومعارفهم . وفجاء بحق الرب أمينة . ان يغنى آثار الشهباء والقديسين . وان يسلمح عن حسده . ويلاقي الموت من أجل إيمانه بيسوع المسيح . وان يفعل الفروسي بحمل عدة الشهادة : الكليل الشوك والصليب والمسامير الخمس .

وسال ميشيل وعلى فمه ابتسامة ساخرة تخفى فقا غامضا يحاصره في أعماقه :

— هل تعتقدون أننا نحن أيضا سنصاب بلوثة ؟ ألا ترون أننا ننصون أنفسنا رسلا حقا ؟ يا الهي احفظنا !

وأجاب ياناكوس وهو يهر رأسه الذي لوحته الشمس :

— من يدري ؟ فالإنسان جهاز دقيق يصيبه الخلل بسهولة . يكفي أن ترفع السدانة فإذا بالحياة

توقف الرفاق عند بحيرة فويدامانا . مياه داكنة الحضرة . وأعشاب كثيفة طوبلة . وبط برى . وحلق طنانان من طيور اللقلق وحيوا فوق رجوسيم في أناة ولا عبالاة . كانت الشمس على وشك الغيب .

وفي غيبة عن العالم حلق كل منهم في البحيرة التي نوارت حلف الللال دون أن يراعا بعين واعية : لقد هامت أرواحهم بتظاردها هجوم غريبة ولهم الصمت الى حين . وأخيرا تكلم ياناكوس :

— حقا يا مسطندي ان المهمة شاقة وعسيرة للغاية . لقد تمرست على عادات سيئة . فليغفر لي الله . أم كيف السبيل الى البراة منها ؟ قال

ل : * لا تنقص الميزان ولا تغنى رسائل الناس . ان ايانا يتوهم ان ذلك أمر حين . اذا لم تنقص الميزان فما سيبك الى التروة . وكيف تجعل من نفسك في يوم من الأيام إنسانا ذا شأن ؟ وإذا لم تقرأ رسائل الآخرين . لا شيء سوى الاطلاع عليها . فكيف تسرى عن نفسك ؟ تمرست على هذه العادة بعد أن رحلت عني زوجتي رحما الله . لم أكن أقصد من وراء ذلك إيداع أحد . وليحفظني الله . ولكن كم كنت أعاني السأم . وتلك كانت أسليتي الوحيدة . باستثناء حماري . بركة الله . نعم كانت تسليتي الوحيدة . أعود الى بيتي بعد تطوافي وأحكم رتاج باب الكوخ . وأغلي فيلا من الماء . وأعرض الرسائل للمخار ثم أفضها . أقرأها وأعرف أخبار هذا وذلك . ثم الصقها ثانية . وأطوف بها في صباح اليوم التالي . ولكن ما أنتذا تسمح ما يقوله القسيس لي . ولعلك تعرف يا صديقي أن ليس حينا على الذهب أن يتحول الى حمل وديع . غفرارك ربي !

وأبشم ميشيل وهو يتحسس شاربه الأسود . كان راضيا عن نفسه . فهو لم يغش . ولم يقرأ رسائل الآخرين . حتى أن الأب جريجوريس لم يجد ما يأخذه عليه . وهو فخور بذلك . وأخرج كيس التبغ ونالوه لرفاقه . قلف كل منهم لنفسه سيجارة . وأشعلها وملا رثته بدخانها مستشعرا معه بعز يد من الارتياح .

لم يطق ميشيل كتمان أحاسسه بالزهو فقال :

— قال لي القسيس انني لست بحاجة الى أن أغير شيئا من عاداتي : ومن ثم فأنتي بوضع هذا لن ألق عارا بالرسول .

ولم يكده ينطق كلماته هذه حتى علت وجهه حمرة الحجل . ولكن هيئات له أن يستردما ثانية .

والفتت اليه مانويل وحديده بنظرة قاسية . وطن أول الأمر ان ليس من حقه أن يلومه على شيء . اليس ميشيل ابن سيده ؟ بيد أنه تذكر أنه من الآن فصاعدا ليس مانويل المهود . وإنما أصبح شيئا آخر أسمعي وأشرف . وواتاه أحساس بالجرأة حينذاك . فقال له :

— بل الأمر سواء . فمن يدري يا سيدي اذ ربما وجب على معاليكم ان تغفروا أيضا بعض ما بنفسكم . أن تقلل من الطعام . وتفكر في الجوع من أهل القرية . وألا تختال بما ترغل فيه من تعيم زائده . صديريات من الملوخ الناعم . وسترات موشاة . ونعال جديدة لامعة . وتفكر في

اولئك الذين يرتجفون من زمهرير الشتاء . لانهم لا يملكون ما يسترون به اجسادهم .. وربما كان عليكم أن تفتحوا خزائكم بين الحين والآخر لتتصدقوا منها بالقليل على الفقراء .. فانت تملك ما يفيض كثيرا عن حاجتك ، والله الحميد على نعمائه .

وقال ميشيل في الارتجاع :

— وماذا لو ارتاب الشيخ في اني اقدم الصدقات ؟

ورد عليه ماثول :

— انك لم تعد طفلا ، فقد ناهزت الخامسة والعشرين من عمرك ، واصبحت رجلا ناضجا . ثم هناك بعد ذلك كله المسيح وله الكلمة العليا . انه الاب الحقيقي وله وحده الأمر من قبل ومن بعد .

وقب ميشيل امام خادمه حائرا وقد ارتج عليه . فهذه اول مرة يتحدث اليه بمثل هذه الطريقة . وقال لنفسه :

— احسب أن رأسه بدأت تمور بعد أن اصطفوه لدور المسيح .

والذي يسبحارته بعيدا في عصبية ولكنه لم ينس بيت شفة .

وقال قسطندي :

— يجب أن اشترى الإنجيل . هذا ما يشغل فكري الآن ، فهو الذي سيهدينا الى الطريق الذي ينبغي أن نسلكه .

ورد عليه ميشيل :

— نى بيتا انجيل لابي . وهو انجيل كبير ضخيم مثبت على لوح من الخشب ومغلف بغلاف مصنوع من جلد الحنيز . وله دفتان كانهما بوابة قلعة . وله أيضا قفل ومفتاح ضخيم . واذا ما فتحنه خلت أنك داخل الى مدينة اترية . والأمر سهل للغاية — إذ يمكن أن نلتقي بمنزلنا كل يوم من أيام الأحد ونقرأ فيه سويا .

وقال ماثول :

— يجب أن احتفظ بأنجيل معي أيضا فوق الجبل . فقد كنت أخشى بالوحدة . ومن ثم اعتدت أن أجمع قطعا من الخشب أحفر فيها وأشكل منها أى شئ يطرأ على خاطري : ملائق وعصى وصناديق للشعوى وقديسين وماز .. كان وقتي ضائعا . أما الآن

ولاذ بالصمت ، وحرق في تأمل عميق .

وقال ياناكوس :

— أما أنا .. فلا ضير أن احتفظت بأنجيل صغير — فيعد أن أنهى من تطواي أنا وحماري استظل لفترة تحت شجرة سبار اروع عن نفسي قليلا ، وأقرأ فيه .. سنقول لي اني لن أهي منه الكثير ، ولكن لا بأس من ذلك ما دمت سأخرج منه ببعض الفائدة .

ونداغت الكلمات على لسان قسطندي :

— أنا أوجهكم اليه . عندما يعلو صوت زوجتي بالصراخ وتتصور بانرتي فاني ألوذ به ليهدي من دوعي . وهنا سأحدث نفسي قائلا : وصبرا جميلا فليس كل هذا الا بعض ما أقدمه على طريق الشهادة . وما عساه يكون بالقياس الى آلام المسيح ؟ بل .. لا تلمني يا ياناكوس ، هي أختك لكنها لا تطاق أبدا .. ذات مرة انقضت على وقفه أمسكت بشوكة في يدها وحاولت أن تتفقا بها عيني . بل انها أول أسس رفعت من فوق النصار القدر الذي كانت تظهر فيه قولا مجروشا وأمسكت به وأخذت تطاردني وتسد على الطريق ، محاولة أن تضربني به على رأسي ، حتى قلت لنفسى هانت اليوم قاتل أو مقتول . أما الآن فاني سألوذ بالإنجيل أطالع فيه . ولتصرخ هي ما شاء لها الصراخ .

ضحك ياناكوس وقال مواسيا :

— مسكين أنت يا قسطندي . تعلم الله حقيقة شعوري تحرك . ولكن صبرا : فالما هو مقدور أن لكل رجل زوجا ، فادفع أنت بالنسي هي أحسن ولا تقل شيئا .

— وأضاف قسطندي :

— مشكلتي بأنني لا أجيد القراءة ، إذ تتشابه الحروف وتختلط على . قال له ماثول مطمئنا .

— لا عليك من ذلك . ان هذا أعظم ثوابا . ويكفي أن تقر مقطعا من الكلمة لتفهم المقصود منها . فضلا عن أن الرسل لم يكونوا أهل علم بل تاسا بسطاء مثلنا ، إذ كان أكثرهم صيادين .

وسأل ياناكوس في قلق :

— هل كان بطرس الرسول يجيد القراءة ؟

فرد عليه مانوي .

- لا علم لي يا ياناكوس . ستمثال القسيس في ذلك .

وتتمت ياناكوس :

- من الأفضل أن تسأله أيضا هل كان بطرس الرسول يبيع ما يعضد من سمك ، أم كان يتصدق به على الفقراء ؟ فانا على يقين من أنه لم يكن يتفلسف الميزان . ولكن هل كان يبيعه ؟ هذا هو السؤال . هل كان يبيع أم يتصدق ؟

وعرض ميشيل اقتراحا خطيرا له :

- حري بنا أن نقرأ أيضا حياة القديسين .

واعترض عليه مانوي بقوله :

- لا ، نحن أناس بسطاء ، ولا فيسلفيس علينا الأمر . إذ اعتدت أن أقرأ عنها حين كنت أعيش مع الرهبان ، ولكني كنت أن أفقد صوابي ، ففقد وليوت وأمراض مروعة وجماد يوجه خاص .. ألبانهم تغطيها الدماء ، وتاكل فيها الديدان أو تستحيل إلى ما يشبه ذيل السلحفاة .. ثم تقبل القواية في شكل امرأة فائنة .. لا ، لا - الانجيل وحده يكفي .

ساروا الهريسي على طول البحيرة وسط غنية الليل الزاهية . وكانت هذه أول مرة يدور فيها بينهم مثل هذا الحديث الغريب . فأحس كل منهم وكأن نبع ماء منعش مجدّد للحياة قد اتفق داخله يبحث عن مخرج . بعض منه ، ويريد أن يكسر القشرة القديمة الصلبة ليتدفق ماؤه إلى السطح .. وأخفوا يفتلون في رحوسهم كلمات القسيس جريجوريس التي لم يفهموها جيدا : - لعل الله تنفت فيكم من روحه .. ينفت ؟ ترى ما سماها تكون روح الله هذه ؟ أهى نسيم ؟ .. نسيم يحيى العصاة في النباتات ، كذلك التسميم الندي الدافئ . يهب ساعة الغسق فتخرج اليراع من أكمامها على فروع الشجر ؟ الروح .. هل يمكن أن تكون مثل هذا النسيم ؟ هل يمكن أن تنفت في روحنا ؟

وتفكر الرفاق الأربعة وتساءلوا فيما بينهم وبين أنفسهم وحاولوا أن يفهموا . بيد أن آيا منهم لم تطاوعه نفسه أن يسأل جاره ، فضلا عن أنه كان يحس في سريره بهيجة فريدة أن يتصره مثل هذا الفلق .

لذلك فقد ران عليهم حسمت طويل يرقبون في سكون هبوط الليل

ولح نجم المساء في الأفق البعيد . وعلا تقيق الضفادع عند حافة البحيرة . ومن يسارهم وقف جبل الغدرا شامخا غارقا في الظلام تكسو خضرة بائنة ، وعلى سفحه مربى الأغنام التي يرعاها مانوي لحساب سيده . وعن يمينهم جبل ساراكيئا ، فقرا موحشا يتبدل لونه البنفسجي وتنظييه عمدة الليل بلون الأزرق ، والكهوف الشثارة على سفحه تغفر أفواهها السوداء . ولكن كنيسة النبي إيليا تظلمك فوق قمته بيضاء باسمة البياض . بعد طلائها أخيرا ، دقيقة كأنها بيضة تعلوه وتحف بها صخور ضخمة

وتحت أقدامهم تمتد أرض طرية ينمو فوقها نبات السمار . وتبرق هنا وهناك بين عيدان التيات دودة سراج الليل يشع ضوءها في وداعة وأناة ، منعمة بالغب والأمل .

وقال ميشيل

- أقبل الليل . فيها بنا نعود إلى بيوتنا .

بيد أن ياناكوس الذي كان يسير في المقدمة توقف فجأة . ووضع يده ، حول أذنه وتسمع . ثمة وقع أقدام بعيدة كأنها مسيرة جمع غفير من الناس . وهبمات خائنة ولكنها تملأ سكون الليل كأنها طنين أسراب من النحل ، وبين الحين والآخر تسمع صوتا قويا عميقا تخال أنه يلقى ببعض الأوامر .

وصاح ياناكوس :

- أنظروا أنتم أيضا ، أنظروا .. ما هذا الجيش الجرار من النمل الخارج من بطن السهل ؟ يتراى كأنه موكب طويل .

ودققوا النظر عسى أن يميزوا شيئا في غيش الظلام . وارهقوا السمع .

ترأى لهم حشد طويل من الرجال والنساء ، يشق طريقه عدوا وسطا . حقول القمح وأشجار الكرم . لا ريب في أنهم يصرودا الغربة فأسرعوا الخلق نحوها .

وقال ميشيل :

- آهتوا ، ألا تسمعونهم يترايمون ببعض المزامير .

ورد عليه مانوي :

- ان صوتهم اشد به باليكاه ، فانتى اسمع تحييا .

- لا ، لا ، انهم يتولسون . اجيس افساك واخف السمح .

وجعلوا فى مكانهم يسمعون . واخيرا ترامت الى سمعهم وسقط
سكون الليل لربية يزنطه القديسه جليله مطفرة :

« الهى ، الهى ، خلص شعبك .. »

وصاح مانولى :

- انهم اخوة لنا ، مسيحيون . هيا بنا اليهم ، نرحب بهم .

وبدا الاربعه يسرعون الحظى . كانت طلائع الركب قد بلغت مشارف
القرية . واخذت الكلاب تمدو فى الطريق وهى تنبح فى جنون . وفتحت
الابواب ، واظنت النساء من فوق غثبات بيوتهن ، وخرج الرجال يركضون
والطعام يملأ افواههم . فقد كانت هذه ساعة العشاء عند اهل ليكوفريس
يتربعون فيها امام الطبايى لتناول طعامهم . ولكنهم هبوا جميعا عند
سماعهم تراتيم الترامير والبكاء وجذبة وقع الاقدام . ولحق بهم مانولى
والرسل الثلاثة .

كان آخر شعاع للشمس لا يزال يلقى بصوته على يسوت القرية
وحواريها . واقرب الركب وظهر عند مقدمته قسيس نحيل ، أسمر
الوجه ، عيناء سوداوان ، يشع منهما برق ، ويعلمهما حاجبان كثيفان ،
وله لحية شعناء مدببة غلب عليها المشيب ، وبين ذراعيه يحتضن انجيلا
صخما له غلاف نجيل موسى بالنصه . وهو يرتدى البطرشيل . وعن يمينه
عملاق له شارب أسود متهدل ، ممسك فى يده علم الكنيسة القديم مرسوما
عليه بخيوط من الذهب صورة القديس جورج بقوامه الفارع . ومن خلفه
سار خمسة شبوخ ضامرون يحملون أيقونات ضخمة صنعت على استقامة
واحدة فلا ترى فيها عوجا . وتبعهم جمع من النساء والرجال يصيحهم
أطفالهم فى بكاء ونحيب . أما الرجال فيحملون صررا وأدوات : معارف
ونقوس ومعاول ومناجل ، وتحمى النساء مهودا للأطفال وصحافا وكرامى .
تفرق الجمع فى عيذان القرية ، وتقدم ياناكوس ناحية القسيس
وانحنى امامه وهو يسأله بصوت عال :

- من انتم ايها المسيحيون ؟ من أين جئتم ؟ وما هى قبلكم ؟

ورد عليه الشيخ بصوت أجش :

- أين الأب جريجوريس ؟ أين أعيان القرية ؟

والثفت الى أهل القرية وقد نزحوا حوله فى دهشة وقلق وقال لهم :

- نحن مسيحيون يا اخوتى فلا تخشوا شيئا ، اننا مسيحيون
ريونانيون ، مطرودون من ديارنا . ادعوا رؤساء القرية فالى فى مسيس
الحاجة الى التحدث معهم .. دفعوا الاجراس .

خرت النسوة الى الأرض من فرط الانهاك . وحطت الرجال أحمالها .
ومسحوا العرق من على جبينهم ، وتطلعا الى قسيسهم فى صمت .

وقف مانولى قبالة الشيخ الذى حنته الستون وما زال يحمل على ظهره
حوالا ينوء تحت ثقله وسأله مانولى :

- قل لى يا جدى بحق الله عليك : من أين جئتم ؟

وتجلبب الشيخ :

- لا تتعجل يا بنى فان الأب قوتيس سيخبركم بالخير .

- ماذا تحمل فى الجوال يا جدى ؟

- لاشىء يا بنى . أشياء تخصنى .. قالها الشيخ وهو يحط الجوال فى
رفق وعناية على الأرض .

طل القسيس واقفا محتضنا الانجيل بين ذراعيه . وأسرع أحد الفتية
ناحية برج الكنيسة وشده اليه جيل الجرس وأخذ يدقه دقات قوية عنيفة .
وقرعت بومتان وطارتا من فوق شجرة السنار واختفتا فى الظلام .

خرج الأغا تملأ للغاية ، فنترى له الميدان غاصا بعشيد غريب ليس
من رعيته . وبدأ الطين يملأ أذنيه . وتيل اليه أن ثمة شخصا ما يصرخ
او يبكى ، وربما يقضى - انه لا يدري ولا يستطيع أن يتبين شيئا مما يدور
حوله . وما هذا الشيء الذى يحدث صريرا كصرير المحجم ؟ ربما كان ..
آه الجرس .

ورجع ثانية وهو يقول :

- تعال يا كاتين جرينهورن . أعنى على استعلاء هذا السر الغامض .
ما هذا القطيع الذى يملأ الميدان ؟ ما هذا الصرير ؟ وما صريره الاجراس ؟
هل آنا فى حلم ؟

خرج الكاتين فوروناس مسرعا الى الشرفة . كان قد لف حول رأسه
دومنه بفضاء حتى لا يتصدع . فهذه هى عادته دائما كلما قضى ليلة بتادم

فيها الأغا ويشاركة شراب العرقى ، طنا منه أن العرقى قد يفتت رأسه
ويتناثر إلى ألف قطعة ، وبين حين وآخر يك الرباط ويفسده في وهاء
به ماء بارد ، ثم يلفه ثانية حول رأسه التي تأجبت فيها نيران العرقى ؟
ومال الكابتن فوق حامة الشرفة ، ودقق النظر ، وطن أنه عرف
جلية الأمر ، ثمة رجال ونساء وعلم حول شجرة السنار
وعاود الأغا سؤاله :

— ما هذا يا كابتن، جريهورون ، هل نفهم شيئا مما يدور هناك ؟

ورد عليه الكابتن :

— انهم أباس ، يبدو لي ذلك ، وأنت يا أغا ماذا تظن ؟

— يخيل لي أيضا أنهم أناس .. ولكن من أين جاءوا؟ ماذا يريدون؟
هل أنزلهم وشأنهم ؟ أم أركلهم بقدمي وأطردهم ؟ أم أنزل اليهم بسوطي ؟
ماذا ترى ؟

— لا عليك يا أغا ، ما جدوى الصراخ أو النزول اليهم بالسوط ، أو
الثورة والغضب ؟ دعهم وشأنهم ولله نحن قليلا ، هل لنا أن نشرب كأسا
أخرى ؟

وبادى الأغا :

— يوسف أكي ، آتني يا كزى الثمن الخشاييا والأقداح ودمجانة
العرقى ، نعال والحق نظرة بنفسك يا عزيزي .. انهم روميون ، هل
تراهم ؟ يونانيون ؟ لن يضي وقت طويل حتى يتضاربوا .

وسأل الأب فوتيس ثانية :

— أين الأب جريهوريس ؟ أين الأعيان ؟ اليس هناك مسيحي يذهب
اليهم ويستدعيهم ؟

ورد مانولى :

— سأذهب أنا ، صبرا قليلا يا أبانا ، ثم استدار ناحية ميشيل
وقال له :

— ميشيل ، هل تذهب إلى أبيك لتفتشه ؟ قل له إن بعض المسيحيين
وقدوا إلى القرية ، مسيحيون أخرجوا من ديارهم يجتثون عنده قدميه
يستحيرون به ، انه عمدة القرية وهذا واجبه ، وسأقصد أنا بيت الأب

جريهوريس . أما أنت يا قسطندي فاسرع إلى بيت الشيخ لاداس . قل
له أن ثمة أناسا من قرية أخرى وفدوا إلينا ، يتضورون جوعا ، لذلك فانهم
يبيعون متاعهم مقابل كسرة خبز . قل له هذا دون أن تخبر منه حرفا
والأفانه لن يأتي . وأنت يا أباناكوس ، شق طريقك إلى كوخ الكابتن ،
قل له إن ثمة أناسا وفدوا إلينا من البحر الأسود بعد أن تحطمت سفينتهم
وقصدوا قريتنا لأنهم سمعوا عن اسمه الكثير ، وعرج في طريقك على بيت
ناظر المدرسة واستدعه . قل له انهم يونانيون يعانون القافة والموز .

وصاح صبي خبيث :

— الكابتن يقضى أمسية أنس مع الأغا ، ها هو ذا يطل من الشرفة ..
هل تسمعونني . لقد لب عصاة حول رأسه ، ومعنى هذا أن الحمر قد
لعبت برأسه .

وسمعوا وراهم صوتا طرويا يقول :

— عمدة القرية يبط في نوم عميق ولن يوقظه شيء حتى ولو كان
دوى طلقات مدفع .

وتلفت الجمع وراءه ، كانت كاترينا الأرملة قد خلعت بهم لاعتشة
الانفاس ، وكاترينا غائبة لموب ، لها شفتان مكتنزتان ، تزينت بوشاح
جديد محلى بورود حمراء كبيرة فوق أرضية خضراء ، وهي متوردة الوجنت
كانما يهديها جمرات متقدة ، وأستائها كلؤلؤ متشود تلعب من أثر غسيلها
بأوراق شجر الجوز .

وعلمت كاترينا مانولى بنظرة ماجة ، وعادت تقول :

— انه في سابع نومة ، بيتنا بالسعادة ويبط في نوم عميق .

ثم أردفت تقول ضاحكة :

— انكم تضيعون وقتكم سدى يا مانولى بأفاد الرسل إليه .

ونظر إليها مانولى ثم لفت طرفه وجلا ، وقال لنفسه :

— انها امرأة نمره .. نمره تقترس الرجال .. اليك عني أيها
الشیطان .

ودنت الأرملة منه وهي تتكلف الابتسام ، تضوعت منها رائحة
المسك ، وبنت وكانها وحش مفترس حقا قد استبد به الشيق . وسمعت
وراءها صوتا كالحوار ، فاستدارت ، رأت بابا يوتي يهديها بنظرات مقبلة

حائفة . لا بد وأنه كان يجري هو الآخر ، إذ أنه كان يلهث واستحال لون وجهه الجذور إلى لون قرمزي .

وقال مانويل في لهفة :

.. هيا بنا .. هيا بنا .

وانطلق ثلاثتهم عدوا يشقون طريقهم إلى أعلى التل ، واختفوا بين الدروب الخلفية .

وخطا بنايوني خطوة إلى الأمام وهو يتميز من الغيظ وبعض على أسنانه . ثم خطا خطوة أخرى وأصبح إلى جانب كاترينا . ومال برأسه على كتفها وقال لها :

.. ماذا كنت تفعلين هناك عند عمدة القرية يا عاهرة ؟ لماذا ذهبت إلى داره .. هه ؟ سأكل لحك يا فاجرة بيثا .

وقالت الأرملة في سخرية :

.. لست مصنوعة من الجبس .

وانسلت بين صفوف الجمع ، واحتمت بالعملاق حامل العلم .

كان القسيس يروح ويحيى بين رغبته ويصبح فيهم قائلا :

.. تشجعوا يا أطفال . تشجعوا . سيصل الأعيان توا . وسيأتي

فداسة الأب جريجوريس وسيضعون حدا لما تعانيه من عذاب . لقد أفلتنا بعون الله من براثن الموت . سنغرس جذورا جديدة لنا في الأرض . ولن تختفي مسألتنا من الوجود . لأن تختفي أبدا يا أبتائي لأنها سلاطة خالدة .

وحدثت جليلة كأنها طين في خلية نحل . ثم خيم الصمت . وفتحت نساء كثيرات صدريراتهن وأخرجن أبنائهن فالتعنهن أطفالهن ليسكنتهن . وحط العملاق علمه وركزه في الأرض . وأراح الشيخ ذو المائة عام يده المعروقة الجافة على الجوال ، والانتسامة تعلو شفتيه .

وتتم الشيخ المعمر قائلا :

.. الحمد لله . هانئنا ذا منضرب يجذورنا في الأرض من جديد .

ورشم علامة الصليب .

ظل أهل القرية طوال هذا الوقت يقدون كسيل لا ينقطع لاهتي

الأنفاس . وتعبت الكلاب من كثرة النباح . وأخذت تنقسم هؤلاء الزواجر العراء . ولا زال الفتي الذي تعلق بأبيل يدق الحرس ليوقظ القرية .

كان الليل ساجيا . وامتدت صفحة السماء اللانهائية فوق رؤوسهم أنها لوحة نسيجها من المخيل وقد أزييت بنجمين كبيرين . ورفع اللاجنون رؤوسهم . وتعلقت أبصارهم بالسماء . وانتظروا ، والثقة تملأ نفوسهم . رسول الأعيان ليقرروا مصيرهم . وخيم الصمت على الجميع . والنقطة قصيرة ساهى إلى سمعهم خريف جدول ينساب مأوذا بين الحصى كترنيمه تزلزل .

وسمع الأغا صوت تدفق الماء فقال :

.. تعال أيها الكابتن الشيطان . صب لنا الشراب . انه حار . وهذا الجدول لنا ، مأوذا عذب . املا لنا الكأس حتى لا نفيق . ولكن كن يقظا . ماذا ما تقاتل الروميون فانثني بذلك حتى أنزل إليهم بسوطي .

.. لا عليك يا أغا ، فكل عيون نقطة . سأتبشك بأمري . وما أنا برفيقهم .

.. أدع حسينا وليأت معك بالنظير . ربما احتاج إليه . وأنت يا يوسف فاني أشعل لي الغليون . وأشعل الفلام الوسيم الغليون الطويل ذا الجفنة المصنوعة من الكهرمان . وجلس الأغا على حشيشه ، يوسف فاني عن يمينه ، ودعجاجة العرقى عن يساره . وهام في ملكوت أحس معه أنه دخل الفردوس .

وعاد مانويل مقطوع الأنفاس ، بأسنانه ذراعيه إلى الأمام . صابرا على أعلى صوته .

.. أفسحوا الطريق .. أفسحوا الطريق يا اخوتي . القسيس قادم .

وعب الرجال واقفين . ورفعت النسوة رؤوسهن وتنهدن . وتمايل القلم ثم ارتفع مسامحا إلى جانب الأب فوقيس . وتصفر الشيوخ حاملو الأيقونات صفوف الجمع . ورشم قسيسهم علامة الصليب .

وانتظر في مكانه بغير حراك وتشم قائلا :

.. أعنا يا الهي .

ووصل ميشيل أيضا . اقترب من مانويل وخمس في أذنه قائلا :

.. انه نائم . يغط في نوم عميق ومن المستحيل إيقاظه . افط في الشراب كما افط في الأكل . أخذت أهزه فلم يتحرك . ناديته فلم يسمعني . لذا تركته وقلت عائدا .

ثم أتى قسطندي .

وقال وقد تملكه الغيظ :

— هذا المجوز اللعين تغلب ماكر حقاً . شم رائحة شرك ينصب له
فتظاهر بأنه مشغول ، وأن وقته لا يساعد على الحضور . يقول إذا كان
هدفكم جمع صدقات فإنه لا يملك ملياً واحداً يتصدق به . دعهم
لا يطرقون بابَه فلن يفتح لهم .

وفي هذه اللحظة وصل باناكوس .

— الفيت ناظر المدرسة يطالع بعض الكتب . وسيأتي بعد أن
يفرغ من فرائده . ويقول أن كل ما يقرره الأب جريجوريس هو عين
الصواب . هذا ما قاله لي .

وتتمتع مانول في حيرة :

— ما هم أعيان الغربة . أحدهم يغط في نومه ، والثاني تمل من
فرط الشراب ، وثالث يطالع الكتب ، وهذا المجوز البخيل يوقد على
دراهمه عسى أن تنفخ . ولكنني أتق في الأب جريجوريس القادم اليها
في الطريق . فهو — أنه صوت الرب . وله الكلمة وحده .

وبدت صرخة حادة من امرأة شابة علا الشجوب وجهها وسقط
رأسها فوق صدرها . قضت ثلاثة أيام لم تنق فيها طعاماً . انهبت قواها
بعد أن كانت تعيش حياة ميسورة . وها هي تعاني سكرات الموت .

تجمعت حولها النسوة يروحن على وجهها

— تشجعي يا دسبينييو الصغيرة . تشجعي . هانحن ذا قد وصلنا
إلى مكان وفير الخصب ، وقد ذهب أهلنا لبحضروا لنا طعاماً نسترد
به قوتنا . تشجعي للرحلة قصيرة ليس إلا .

ولكنها أمالت رأسها وأسبلت جفونها ثم غشى عليها .

وفجأة تعالت صيحات الفرح ، ودبت حركة وسط الجموع .

— انه آت . انه آت .

ورفع الأغا جفنين ثقيلتين وتساءل :

— هه يا ناعم الجند . ماذا هناك ؟

— لا زلت أقول لك يا أغا دع عنك القلق . . أنت في الفردوس
فلا تخرج منه . وأنا آتف عند بابك حارساً لا تمنعني له عين . سائبك
بنفاسيل كل شيء . أحسبه جريجوريس القسيس وقد خرج على
الناس .

وانتفجر الأغا ضاحكاً :

— وهل هذه العصابة من الوافدين الغريباء معها قسيسها أيضاً ؟

— نعم .

فألها الكاتبين وهو يملأ الكأس ثانية .

— حسن . مسترني بعد قليل ما تتصل به . سيتضارب
القسيسان . هؤلاء القساوسة المباركون أشبه بالنساء . شعورهم
طويلة ، وإذا التقى اثنان أمسك كل منهما بضفائر الآخر يشدها .
أين حسين ؟ ليتزل إليهم ويطلب منهم أن يتحدثوا بصوت عال حتى
أسمع كلامهم .

وفي هذه الأثناء كان باتاويوت يتعقب الأرملة حتى وصل إلى حيث
هي بجانب حامل العلم .

ومال يوجهه على أذنيهما وهم بصوت غاضب :

— سألتهمك الآن . ما الذي أتى بك إلى هنا وسط هذا الجمع
من الرجال ؟ عم تبحثين ؟ أترجعي إلى بيتك سريعاً . أبعدى عن هذا
الكان وسألق بك .

وانتفضت الأرملة ، ونظرت إليه في شراسة وقالت له :

— هل أنت أيضاً ميت الإحساس لا قلب لك ؟ ألا ترى ما يقاسيه
أبناء المسيح من عذاب ؟ ألا تشعر بشيء من الرثاء نحو هذا الشعب
الذي يقتله الجوع ؟

ولاذت بالصمت لحظة . ثم أدارت له ظهرها . وفجأة أحس أنها
عاجزة عن أن تتمالك نفسها أكثر من ذلك ، فبثمة كلمة قاسية تفص بها .
واستدارت إليه ثانية وصرخت في وجهه .

— « يهوذا ؟ »

فالتفتها وعلى الفور اقلعت هاربة من امامه لتختفي بين صفوف
اللاجئين .

وأحس بانايوني بالأرض تميزت تحت قدميه - شعر بدوار في رأسه .
وكان خنجرًا استقر في قلبه . أمسك بسارية العلم حتى يحيى نفسه
من السقوط . والتوى حول نفسه ، وظل في مكانه هكذا فالمرء غاي
وتعالت صيحات هنا وهناك :

وتعالت صيحات هنا وهناك

« - ها هو . . . ها هو ذا الأب جريجوريس . »

واشرأت الأعناق لتبصره . وقف القسيس جريجوريس ممثل
الرب في قرية ليكوفريس أمام الحشد الذي يتضور جوعاً - فارح
السامة - شامخاً في جلال مهيب ، يرتدى بطوشيلاً من الساتان البنفسجي
الداكن - يلف حوله حزام أسود غريض - ويستقر فوق كرشه صليب
فضي ثقيل .

وخر الرجال والنساء ركعاً ، وتقدم قسيسهم الضامر خطوات
ناحية القسيس البدين ، خادم الرب وراعي الكنيسة في القرية ،
وفتح ذراعيه ليعانقه ويقبله فوق كتفيه على عادة الرهبان . وإذا بالأب
جريجوريس ، وقد تجهج وجهه ، يرفع يده البضة اللحية يستوقفه في
مكانه . وألقى حوله بنظرة وحشية ضاربة ، ووقع بصره على أناس
يردون خرقاً بالية ، يقتلهم الجوع ، ويلاحتهم الموت . واشمأزت
نفسه : وشاق بهم صدره وأرتفع صوته مدوياً :

« من أنت ؟ لماذا تركتم دياركم ؟ ماذا تريدون منا ؟ »

وارتفعت النسوة عند سماعهن صوته ، وعرول الأطفال ليلودوا
بأهائهن وتلفوا بشياهن . وعادوا الكلاب النباح . ونبيه الكاين
في شرفته وأصاح السمع .

وأجاب قسيس اللاجئين في هدوء وحسم :

« يا أبانا - أنا القسيس فونيس راعي قرية بريمة هي قرية القديس
جورج . وهذه هي الأرواح التي التفتن الرب عليها . أحرق الأوثان
فريشاً ، وأخرجونا من ديارنا ، وقتلوا كل من وصلت إليه أيديهم ،
واستسلمنا نحن العرب ، فرحنا بقلوب مكرومة أنقلها الحزن . المسيح
يتقدمنا ونحن تقتنى آثره . أنذا نبحث عن أرض جديدة نتخذها وطناً
لنا . هذه هي قصتنا . »

وسكت هنيهة . وجف اللعاب في فمه ، كما جفت الكلمات في
حلقه .

ثم أردف يقول :

« - أنا مسيحيون ، من سلالة الإغريق ، نسل سلالة عظيمة
يجب أن يكتب لها الخلود فلا تقنى أبداً . »

أطل الكابتن من القرفة والطنين يملأ رأسه . وأصمت إلى صوت
القسيس الفاضل . وهو يتحدث بكلمات حاسمة مفعمة بالكبرياء .
ودات أبخرة العرق تتبدد رويداً رويداً ، وهو يقيق بعض الشيء .

وقال لنفسه :

« - يا لها من سلالة شيطانية . هكذا هي دائماً . عجباً
للعصب . أنها في كل مكان ذريعة لاستنفاز الهمم ! أنها كالأخطبوط .
تبتز إحدى زوائد فلا تلبث أن تنمو زوائد أخرى غيرها . . . ثم سرعان
ما تولد أجيال جديدة ! »

وفك العصاية من حول رأسه . كانت رأسه ثقلي حتى أن
العصاية كان يتصاعد منها البخار . وعلى مقربة منه كان وعاء الماء
البارد . فمس فيه العصاية ثم لفها حول رأسه ثانية وأحس
بالانتعاش .

وصاح الأب فونيس :

« - لن نبيد أبداً . لقد بقينا على قيد الحياة آلافاً من الأعوام ،
وستظل على قيد الحياة آلافاً أخرى من الأعوام بوركت ساعة
لقائنا بك يا أب جريجوريس . »

وقال الكابتن فورتوناس لنفسه :

« - إن هذا القسيس له صفات الكابتن الأسيل . عجباً لهذه الحمية
والقوة والمجسرة التي يتحلى بها هذا المخلوق . قسا بالبحر أنه على
سواك فيما يدولى . فنحن معشر الإغريق جنس خالد حقاً . حاولوا
جهدهم أن يستأصلوا شأفتنا ، وأن يحرقوا ويقطعوا رقابنا ولكن عشنا
فقد ذهبت جهودهم سدى : هيئات لهم أن تنكس العلم . أنسا تحمل
الأيقونات والصحاف ومهود الأطفال واللاجيل وتسرع الحظي . ترحل إلى
مكان قصي وتضرب خيامنا . »

وطفرت الدموع في عينيه ، ومال بجسده على حافة الشرفة وصاح بأعلى صوته :

« يرافو أيها القسيس الكاتب ، يرافو أيها الصديق المجوز » .
وأدفعت الرسوم ، وشخصت الأبصار ناحية الشرفة ، ولكن الصيحة ذابت وسط الجلبة التي أثارها كلمات القسيس . تذكرت النسوة يبهوتين ، وغمغمن بصرخات مبسوطة . وتذكر الأطفال العبيز وانخرطوا في البكاء .

ثم خفت الجلبة فجاء . فقد رفع القسيس جريجوريس يده الرخصة وبدأ يتكلم .

قال بصوت جهورى :

« ما من شيء يحدث على هذه الأرض إلا بمشيئة الله . أنه في سماواته العلى مطلع على كل شيء . يزن أفعالنا ، حسانتنا وسيئتنا ، ويقرر سبحانه أن نعم ليكوفريس بخيراتنا ، وأن ينلى قوتكم بالأحزان المفجعة . وهو العليم بكل ما أترفتن من خطايا .

وسكت هنيهة حتى يستوعب الجمع كلماته الخطيرة . ثم رفع يده ثانية وصاح بنبرة كلها لوم وتائب :

« قل الحق أيها القسيس . اعترف بما قدمت يدك حتى حق عليك العذاب من الرب .

ورد عليه الأب فويس محاولا أن يكظم لحظه الذى بدا يعتدل في صدره .

« يا أب جريجوريس . أنا مثلك أيضا خادم لله سبحانه وتعالى . وأدرس مثلك أيضا الكتب المقدسة . وأحمل بين يدي مثلك أيضا كأس القداس . فيه دم المسيح وجسده . نحن سواء شئت ذلك أم أبيت . ربما تكون غنيا وأنا فقير . ربما تملك حقولا خصبة وفيرة تسوق إليها قطعانك للرعى بينما أنا ، كما ترى ، لا أجد مكانا أتوسده . ومع هذا كله فنحن سواء أمام الله . بل وربما كنت أنا أقرب إلى الله منك لأننى جائع . وأخفض من صوتك أن شئت أن أجيب عليك .

وأصابت الأب جريجوريس غصة . وأحس هو الآخر بالفتب بظفره في صدره . ولكنه تماكك نفسه . إذ تبين له أنه يتصرف على نحو

خاطى . وأدرك أن أهل القرية جميعا يقفون شهودا ، ولا ريب في أنهم بذلك سيقرون هذا القسيس الشرس المهلهل .

فقال بصوت خفيض :

« تكلم ، تكلم يا إيانا . الرب يسمع كلامنا كما يسمعه الناس أيضا . وكلنا مسيحيون يونانيون . سنبدل كل ما في طاقتنا ، بل وما هو أكثر ، لننقذ هذه الأرواح المعلقة برفقتك .

« يا أب جريجوريس ، لقد ذاع اسمك وملا الأسماع هناك في قريتنا . وما نحن نراك الآن بشحك ولحمك وتنصت لكلماتك . سالتنى كيف حلت التوالب بقريتنا ، وما إنذا أجيب على سؤالك . فاستمع إلى يا أب جريجوريس . واسمعوا أيها الأغنياء رغم أنكم ترفعتن عن المجيء إلينا لتلتفوا بنا . اسمعوا أنتم جميعا أيها المسيحيون أهل ليكوفريس .

كان قلب مانولى يرق فى عتف . والتفت إلى رفاته الثلاثة وهمس إليهم قائلا :

« هيا تقترب منه . لتقترب منه حتى نسمع ونرى بوضوح .

وقال قسطندى :

« يا مانولى . انى أرى فيه صورة يعقوب الرسول كما تخيلتها .

وقال ياناكوس :

« وأنا أرى فيه بطرس الرسول .

وتدافعت الكلمات على لسان القسيس سريعة غنية وكأنه يهوب من الذكرى ، ويخشى أن يشكا المروج . وانطلقت كلماته تستثير الذكريات هنا وهناك ، وتقتشر معها الأبدان .

« ذات يوم تاهت إلى سمعنا أصوات من فوق سطوح بيوت القرية تصبح قائلا « الجيش اليونانى ! الجيش اليونانى ! أنا نرى ملابس أهل الجبل فوق قمم التلال . » وسرعان ما أصدرت أمرى « لتدق الأجراس لحن عيد القيامة . ليجتمع الناس فاني أريد أن اتحدث إليهم » . يبد أن الناس جميعهم تدافعوا ناحية المقابر وشرعوا ينشئون الغيسور وكل يبكي على أبيه . لقد جاءوا يابيت ! لقد جاءوا يا أبت . وأضاموا مصاصيح الزيت عند مفترق الطرق . وأراقوا الحمر

ليبعثوا الرنن إلى الحياة . وبعد أن فرغوا من شئونهم مع الرنن ، توافد الناس إلى القنيسة ، واعتليت المنبر وخطبت فيهم عائلا : يا اخوتي ، يا أطفال ، أيها المؤمنون جميعا ، لقد جاء اليونانيون والتفت السماء بالأرض ، أيها الرجال والنساء ، لحمل كل منكم سلاحه ، ولتتعب الأقدام حتى أبواب المجد .

وعسى ياناكوس في اذن القنيسى :

— أخفض من صوتك يا أيانا . لا تتحدث بصوت عال . . . الأغا في شرفه يصمت لحديثك .

في هذه اللحظة عينها هب الأغا واقفا ، كان تحت قلبه النعاس ، بيد أن أذنه التفتت بعض كلمات تدعو إلى التمرج .

— هه . . أنت يا كايث جرينهورن ، ثمة أشياء تحدث لا أقلها على الاطلاق . التفتت أذني . .

— قلت لك يا اغا لا تعبأ بشيء ، وخذ الأمور مأخذا سهلا . ثم . . وما أنا أذني وإني تتسمع كل شيء .

— حقاً يا كايث إن بي حاجة إلى النوم . . . ولكن إذا أقيمت القنيسين يتبادلان انشغائهما ويمزق كل منهما شعر الآخر حزناً وأيقظني ، وسوف أتزل إليهما بسوطي لأعيد النظام .

واستدار ناحية يوسوفاني وقال وهو يغمض جفنيه الثقيلين .

— تعال يا يوسوفاني ، ذلك لي ساقى حتى يطيني النعاس .

وخفض الأب فونيس من صوته :

— أخرجنا السلاح من مخبئه . ونطوقت بجواب الخرطوش ، وحملت صليبي ، واستعرضت أهل القرية في الميدان وقتلت لهم : يا أطفال ، هيا لنشد مع النشيد الوطني قبل أن ننطلق في طريقنا . . . ما ألدع الأصوات . كان هناك حقيقيا للمسيح ، لقد اهتزت الأرض حين انشدنا جميعا بصوت واحد النشيد الوطني . . .

وسى الأب فونيس نفسه وبدأ ينشد بصوت عال :

• بعثت الحرية من بين عظام الأعراب القديسة . . .

وعسى ياناكوس في أذنه ثانية .

— أخفض من صوتك يا أيانا ، لا ترفع صوتك هكذا .

وفي نفس هذه اللحظة ، وكأنها تسمع رجع الصدى - علا صوت الشرفة يكمل النشيد الوطني اليوناني . كان صوت الكابتن الأجش :

— لاكن مغوارا دائما . . . سلاما . سلاما ، أيها الحرية .

وتلعلل الأغا لحظة كان يرغوا لدغه ، ثم غلبه النوم ثانية .

وتب كل من في الميدان . شخصوا بأبصارهم ناحية الشرفة ، ولكن الكابتن كان قد جلس ثانية فوق حشيشه وعاد يملا كأسه بالعرق . وغمغم وهو ينتحب :

— هيا ، في صحة اليونان المقدسة التي ستكون لها السيادة على العالم .

وقال قسطندي :

الكابتن نوروناس سكران ، لقد شعنع كأنه مثلية في ليلة من ليالي عيد الأضحى . أسأل الله أن يلهمه الصواب فلا تمتد يده إلى مدس الأغا المعلق بحزامه ويطلقه على رأسه . . . والا سيكون في هذا هلاكنا .

وقال ميشيل وقد انتهت مشاعره حماسا :

سليكن ما يكون ، ولنهلك جميعا ، فإن هذا القنيس يهزى من أعماقي .

وقال مانولي الذي تعلقت عيناه بشغفى القنيسى :

— اهدأوا يا اخوتي ، اهدأوا دعونا نسمع ما يقول .

تملك القنيس الأب جريجوريس . وأخذ يفتح بكل ما أوتي من قوة . وقال لنفسه : هذا القنيس المهلول يحاول أن يبدل عواطفهم ويقلبها رأسا على عقب . باله من عمل شرير . يجب أن أبحت عن وسيلة أخرجها بها من قريتي .

وقال وكأنه يدارى موقفه :

— تكلم ، تكلم يا أيانا ، لماذا توقفت عن الكلام ؟ هانحن نهضت لك .

وتنهذ الأب فونيس . وقال بصوت فيه رنة اثنين :

لا ترفعني يا ابانا على ان اقص ما حدث لنا بعد ذلك . فان
صديقي يا ابانا يضم بين جوانحه قلبا وليس قطعة صخر ، وقلبي يكاد
ينفطر .

وبدا يبكي . واخنتق صوته .

ومال الكابتن على الشرفة ثانية ومسح عينيه بعصائه المبتلة .
ونغمم .

— ياخذني الشيطان . لقد عدت طفلا سقيما .

وقال الأب جريجوريس :

— هذه ارادة الله . والشكرى خطيئة كبرى .

واتفجر الأب فوتيس قائلا بعد ان استعاد صوته :

— لست اشكو ، فانا لا اخاف . اننا شعب خالد . انظر لقد
عادت السكينة الى قلبي . ساقص عليكم . لقد تمزقت جيوش الاغريق
وازعجت على التراجع . وبقيتنا نحن . بقيتنا وعاد الأتراك . ونحن
اقول عاد الأتراك فان هذه العبارة تعنى عن كل شيء . احرقوا ، ونهبوا ،
واتخذوا الجراح . ولم لا انهم أتراك في نهاية الامر . وسرت على
رأس كل هؤلاء الذين بقوا على قيد الحياة . ها أنت ذا تراهم جاثين امامك ،
انهم مسيحيون . عدد من الرجال ، ومثلهم من النساء او يزيد قليلا ،
وعدد فقير من الاطفال لقد اتقنا الايقونات والانجيل وعلم القديس
جورج . حملنا معنا كل ما استطعنا حمله . سرت في طليعتهم . وهكذا
بدأت مسيرة الخروج مطاردة ومجاعة وامراض . مضت اشهر ثلاث
ونحن نواصل المسير ، ولقي كثير من حتفهم على قارعة الطريق . .
واويناهم التراب ، وواصلنا المسير . نحن من بقينا على قيد الحياة .
مع النساء نحمل الرجال ، وقد اشدنا التعب . كنت امسك بقلبي بين
جوانحي ، استجمع همتي ، واقف بينهم ، افرا عليهم الانجيل ، واتحدث
اليهم عن الرب واليونان . ومتى مضى الليل تكن قد استعدنا بعض
قوانا ، وفي الصباح تبدا المسيرة من جديد ولقد علمنا ان وراء جبل
العدرا تقع قرية ليكوفريسي . وهي قرية خصبة غنية ، اهلها اناس
بررة . ولنا لانفسنا : انهم مسيحيون ويونانيون . خزانهم ملائ ،
واراضيتهم واسعة ، ولن يسلمونا ليد الملو . وهاتين ذ قد آتينا اليكم .
فسلاما عليكم ايها الاخوة المسيحيون اهل ليكوفريسي . وشكرا لله .

ومسح الأب فوتيس جيات الدرق التي لمحت فوق حاجبيه ، ورشم
علامة الصليب ، وانحنى فوق الانجيل وقبله .

ثم قال وهو يلوح يانجيله الضخم عاليا :

— ليس لنا أمل سواه . ولا عزاء لنا في غيره . .

وافاضت العيون بالدموع . واقشعرت ابدان الجمع فرعا . وانكا
مانولى على ذراع ياناكوس حتى لا يسقط على الارض . وحس ميشيل
دموعه ، واخذ يلوى شاربه في حركة عصبية . وحتى يانايوتي الموروث
عيناه بالدموع . الآن فقط ابصر الجميع الدنيا من حولهم بعين كلها حتى
وشغافية وانفطرت الامله ايضا في نحيب . كانت تبكي أبناء
المسيح واليونان ، تبكي الرجال والنساء الذين التقوا حولها ، وتبكي
نفسها وخطيئتها وعارها وهناك في الشرفة المطلة عليهم اخذ الكابتن
فورتوناس يضغط بيده على شفثيه ليخسب تشيجه حتى لا يوفت
الاعا الذي يقط في ثومه . .

اثنا فقط لم يبكي : القسيسان . . اما احدهما فلانه عاش كل
هذه المائى وبكاهها من قبل . والثاني لانه غارق في التفكير ، وقد استبد
به الهم ، بحثا عن وسيلة يتخلص بها من هذه العسبة الجائعة وقائدها
الشرس العنيد الذي يفسد عليه نفوس رعاياه .

واستطرد الأب فوتيس في حديثه ، ولكن ببرة اقل حدة هذه
المره :

— وجد بعضنا فحة من الوقت للذهاب الى المتابر ، واخرجوا
عظام المائى وبكاههم ، وحملوها معهم لتتخذ منها اساسا لبني عليه قريتنا
الجديدة . انظر الى هذا الشيخ العمر الذي بلغ عامه المائة . لقد حملها
على ظهره طوال الشهور الثلاثة .

احس الأب جريجوريس ان اعصابه لن تحتمل المزيد . وقال :

— كل هذا جميل يا ابانا . ولكن ماذا تنتظر منا ؟

واجاب الأب فوتيس :

— ارضا تتخذها مستقرا لنا ، تضرب فيها بجذورنا من جديد . قيل
لنا انكم تملكون ارضا بورا ، لاستفيدون منها بشيء . امنحنا لنا
ولنقتسم حصيلتها ، نلذذها حيا ، ونحصدها غلتها نصنع منها خبزا
نطعمه هذا الشعب من الجوعى . هذا هو مانظليه يا ابانا .

وزمجر الأب جريجوريس كانه كذب حراسة ، ماذا ؟ هل سينتزع

من هؤلاء المتسولون بعض أملاكه ؟ ولحسن لحيته ، وغرق في التفكير .
وتعلقت أبصار الرجال والنساء بشفتيه ، وخيم صمت ثقيل .

وهب الأغا من نومه قلقلًا :

— لماذا سكتوا ؟ ألم أمرهم بالصياح ؟

وقال الكاتبان :

— نم يا أغا . نم . لم يبدأ العراك بعد .

— ماذا بك . أنك تتحدث بصوت متفهم . لماذا لا هل أنت سكارا ؟

ونعتم الكاتبان وهو يمسح دموعه :

— آه ، انه العرقى ، وما أدراك ما العرقى . انه ليس بعاذ .. لقد
خرجنى هذا اللعين عن صوابى .

صاقت نفس مانولى ولم يعد يطيق صبرا . ولكن أين له الشجاعة ،
وهو الخادم ، يدفع بنفسه الى مقدمة الحشد ويتكلم أمام القوية
جميعها .

وصاح :

— يا أبانا ، أيتها القسيس جريجوريس . استمع الى صوتهم .

المسيح جائع . انه يسأل الناس الصدقات .

واستدار الأب جريجوريس ناحيته وقد جن جتونه :

— أخشى أنت .

وخيم الصمت ثانية ، وكان لا يزال صمنا قليلا . واقترب
سبستيدى وياناكوس ووفقا بجوار مانول كانما يريدان حمايته . أما
ميشيل فقد استبدت به الحيرة ، وتقدم بخطوات مترددة ناحية مانولى .
وقال له مانولى :

— اذهب أنت لتوقظ أبانا . عجل ، انه انسان ذو قلب ومروءة .
ربما يرق لحالهم . ألا ترى لحالهم ياسيدي ؟

— أثنى أدنى .. أدنى لحالهم .. بيد أثنى أخشى ان أوقفه .
وقال مانولى :

— الله أحق أن تتخشا يا ميشيل ، الله وحده وليس البشر .
وأحمر وجه ميشيل . كيف جرؤ خادمه على أن يتحدث اليك
بهذه اللهجة ؟ ما سفة هذا الذي يخادته ؟ ما شأنه هو حتى يصدر

الأوامر ؟ وتجهم وجهه ولكنه لم يبد حراكا يتم عن رغبة في الذهاب
ليوقظ أباه .

الأب جريجوريس لا زال صامنا يتفكر طوال هذه الفترة .
عذب الرأى فيما بينه وبين نفسه ، يفتش في ذهنه عما عساه أن يقول ،
وما عساه أن يفعل . ليخرج هذه الذئاب الجائعة من أرضه . وأحس
أن كل من حوله من رعيته بدأوا يتأملون ، وهم على وشك أن
يعلن زمامهم من بين يديه . ما العمل ؟ هل يدعو الأغا ؟ ولكن ماذا
يقول أهل القرية عنه لو لجأ الى تركى ليحكمه بينه وبين هذا الشعب
الذى أخرج من دياره ، لا شيء إلا لأنه حارب الأتراك لا هل يستدعى
الأعيان ؟ انه لا يبقى إلا في واحد منهم فقط وهو الشيخ لاداس . أما
عمدة القرية ، هذا المعجوز المخرف ، فانه سرعان ما يطفئ الدمع في عينيه .
انه سيطلب عليهم . وتائبهم الكاتبان . هذا الشخص القدر القليل ، فمن
المؤكد أنه سيقول نعم .. إذ ماذا سيخسر هو ؟ ومثلها ناظر المدوسة
هذا الثريار الواهم . يفسح على عينيه نظارة ويحلم بأفكار عظيمة .
ولا يعرف كيف يقسم الشعر بين حمارين ..

وقال القسيس فوتييس وقد بدأ يتفقد صبره :

— ييمو يا أبانا أن الله يحتاج الى وقت طويل حتى ينير بصيرتك .

ونارت نائرة القسيس جريجوريس ، وأراد أن يدفع الحجة بحجة
منها فقال :

— نعم ، انه يحتاج الى وقت طويل ، لأن لمة أرواحا معلقة برقبتي
أنا أيضا ، وأنا مسئول عنها أمام الله يوم الحساب .

ولكنه :
— قال له :

— كلنا راغ . وكل مسئول عن أرواح البشر جميعا . فلا وجه
للتمايز يا أبانا بين من هم . رعيته ، ومن هم . رعيته .

وتعنى الأب جريجوريس لو كانا وحدهما إذن لا نقض عليه
وأحكم قبضته حول رقبتة وقتله خنقا . ولكن ما الحيلة ، والأمر على
غير ما يهوى ؟ وكظم غيظه . وعلى أية حال لابد له أن يتكلم . فليس
بوسعه أن يظل صامتا . فانهيون كلنا معلقة به . وفتح فمه :

— اسمعنى يا أبانا .

— ها انذا أستمع اليك .

قالها الأب فوتييس وقد تشبعت يده بالانجيل الضخم وكأنه

يتعنى لو استطاع أن يرميه به على أم رأسه .

لم يكن الأب جريجوريس قد اعتدى بعد إلى ما عساه أن يقول .
وحدثت المعجزة التي يتنناها في اللحظة المناسبة . إذ دوت صرخة عابئة
سقطت على أرضها دسبينيو ، التي هدها البرال ، جثة هامدة . ولدافع
نحوها رفاق الطريق لانتشالها ولكنهم تراجعوا في فرح : علت وجهها
صفرة شاحبة ، وتورمت قدمها ، وانتفخ بطنها كرق مشدود ، وأزدرت
شفتها .

ودفع القسيس جريجوريس يديه إلى السماء مبتعلا إلى الله ،
وصاح بأعلى صوته ، وهو يحاول جامعا أن يوازي فرحته :
- يا إبنائي في هذه اللحظة المروعة تولى الرب بنفسه عنا الإجابة .
انظروا إلى تلك المرأة ، اقتربوا منها ودققوا النظر : بطن منتفخ .
وقدمان متورمتان ، ووجه عتله الزرقاء .. إنها الكوليرا .

وتراجع الجمع في فرح .

وصاح الأب جريجوريس مرة ثانية :

- إنها الكوليرا .. هؤلاء الغرباء وفدوا إلى القرية يحملون معهم
قصاصا مروعا . الويل لنا ، أنا هالكون . حذار أن نأخذكم بهم رافة .
تفكروا في أمر أطفالكم ونسائكم وفريقتكم . الأمر هنا قه وحده وليس لي .
ثم أشار إلى جثة المرأة المفلقة وسطاً : « إن وقال :

- سألتى القسيس ردا ، وهاكم الرد .

شم الأب فونيس الانجيل إلى صدره ، « اه ترتجفان . ووثب
ناحية الأب جريجوريس ، وحاول أن يتكلم فلم يستطع : فقد احتبس
الكلام في حلقه .

ومن فوفهم نهض الكابتن في الشرفة مترنحا . وقمس عصابته
ثانية في الماء البارد ، كان الدم يتدافع حارا إلى رأسه . وربط العصابة
من جديد ، وأفاق لنفسه . كان الماء يترقرق فوق وجنتيه الشاحبتين
وذقنه الأمرد وصدره الأجرد الذي دبغه ملح البحر .

وتعقم الكابتن وقد عقد السكر بعض لسانه ، فخرجت الكلمات
من فيه متعثرة :

- هذا التيسى البدين البطان انتصر على قسيس اللاجئين المسكين .
يقول الكوليرا .. آه ما أقيحه هذا المعجزة المفترس . ولكن الأمر لن
يتنهي عند هذا الحد .. أبدا . سأنزل إليهم وأصرخ فيهم قائلا :

« كاذب كاذب . أنا أيضا واحد من أعيان هذه القرية ولي أيضا الحق
في أن أدبر دفة الأمور فيها ، ولي مثله الكلمة وسوف أتحدث إليكم .

ونفض من مكانه . وسماز مترنحا يمتع ويسرة حتى بلغ الباب
ورأسه بقدمه وفتحه - ووقف ضيعة عند أول الدرج ، كان كل ما حوله
مور ويتمايل : الصباح المصفر ، والسيوف المعلقة على الجدران ،
وحسين الذي تكور حول نفسه وهو نائم ، والبساق والطرايش
الحمراء - أحسن وكان البيت كله يبيد تحت قدميه . فأسك بالبرازين
استندت ساقه إلى الأمام ، وخبيل إليه وكان أجنته قد ركبت له . وأخذ
الدرج يعلو ويهبط كأنه موج البحر .. وأرتكر بقدمه على الفراغ ،
صفط على أم رأسه وتخرج فوق الدرج . وصحا الأغا فرعا على صوت
الحلبة التي أهدأها سقوطه . وصرخ :

سأه يا كابتن من الذي جدد انف الآخر ؟

وبسط ذراعيه وسط الظلام يتحسس ما حواله داخل الشرفة
لم تقع يده على أحد . وتحامل على نفسه ليقف ، ولكنه سقط ثانية
في مكانه فوق الحشية بجوار يوسوفاكى الذي راح في سبات عميق
واللبانة في فمه . وتحسس الأغا بقدمه الجسد الدافئ العطر وايتشم .
وقال بصوت حنون :

- حبيبي يوسوفاكى ، أنت نائم يا كبرى

وأستند رأسه إلى الصدر القفص ، وأغمض عينيه ونسى كل شيء
وهام في بحر من السعادة .

وترددت أصدااء صوت الأب جريجوريس ، ولكنه هذه المرة صوت
هادئ يلوب رقة :

- سمعنا منك يا أخي حديثك عن الآمكم . وانفطرت قلوبنا لما
سمعناه . وما أنت ذا قد رأيت عيوننا تدرق الدمع سفاحا . وفتحا
لكم ذراعينا لاستقبالكم . وفي نفس هذه اللحظة أشفق علينا الرب
وأرسل إلينا تحذيره المروع . انكم يا أخوتي تحملون نعمكم موتا زؤاما .
اذهبوا عنا وليشملكم الرب بمنايته ولا تلحقوا الغرباء بقرنتنا .

وعلت صيحات الشاوه والألبن بين صفوف اللاجئين عند سماعهم
لهذه الكلمات . وشرفت النسوة تولول وتلطم الصدور . ونظر الرجال

يحيون زائفة الى قسيسهم . واستبد الفرع بأهل ليكوفريسي ، ونظروا
في هلج الى الجنة المسجاة المتصلبة وسدوا انوفهم .

وارتفعت الصيحات من كل جانب :

— ارحلوا عنا .. ارحلوا عنا .

وقال شيخ بصوت كانه النهيق :

— احضروا جيرا وألقوا به على المرأة الموبوءة بالكوليرا حتى لا يفسد
الهواء بجراثيمها .

وصاح الأب فوتيس :

— لا تخشوا شيئا يا اخوتي . هذا غير صحيح . لا تصدقوه . اننا
لا نحمل وباء وانما نحن جوعى . هذا كل ما فى الأمر . اقسم لكم ان هذه
المرأة أمانها الجوع .

وانتفت ناحية الأب جريجوريس وزار :

— أيها القسيس البطشان . أيها القسيس ذو اللحية المزدوجة . أسأل
الله العلى القدير . السميع العليم . أن يصفح عنك . اما أنا فلا أمك
الصفح . أسأل الله أن تقع عاقبة وذك على رأسك أنت وحدك .

وصاح عجز من أهل ليكوفريسي :

— استعففكم بفضل الله ونعمته أن ترحلوا . ان لي أطفالا واحفادا
فلا تكونوا سبب خرابنا .

واستبد الهلع بأهل القرية . وقست قلوبهم فهي كالحجارة . ولوحوا
بأيديهم وهم يصرخون :

— اذهبوا . اذهبوا .

وخشم الأب جريجوريس ذراعيه الى صدره وقال بصوت جهورى :

— صوت الشعب من صوت الله . اذهبوا . كان الله معكم .

وصاح الأب فوتيس ثانية :

— أسأل الله أن تقع عاقبة وذك على رأسك أنت وحدك .. اننا
رحلون . انقصوا يا أطفال .. تشجعوا . انهم لا يريدوننا ونحن نرضى
لا نريدكم . لنواصل مسيرتنا فأرض الله واسعة .

وقفت النسوة وهن يتنحنحن . ورفعن أحمالهن . ورفع الرجال
الصرد والأدوات . وتقدم حامل العلم وتصدر الجمع . وانخرط ماتولى فى
البكار . وانحنى ليأخذ بيد الشيخ المعمر . يمينه على النهوض . ووضع على
ظهره جوال العظام . وقال له :

— ثق بالله يا جدى ولا تيأس .. ثق بالله .

والفتت اليه المعمر بوجه صارم وقال :

— بمن غير الله نتق فيما نطق ؟ فى الناس ؟ أما رأيت ما فعلوه الآن ؟
أه .. أف منهم .

ولم يكده الجمع يتأهب للرحيل حتى توقف الأب فوتيس فجأة . تطلع
الى شعبه .. هياكل عظمية خائرة القوى . فانتفض قلبه . وصاح
دائلا :

— اخوتي أهل ليكوفريسي . لو كنت وحدى .. لو كنت مسثولا أمام
الله عن نفسى فقط . مارضيت لنفسى ذل السؤال فأمد اليكم يدي كشحاذ .
لو كنت كذلك لآثرت الموت جوعا . بيد أننى أشفق على التسلية
والأطفال . فلم تمد قواهم تعينهم على الوقوف ثانية . سيسقطون جميعا
جرعى الجوع فى الطريق . ومن أجلهم فقط أغض الطرف عن العزة وكرامة
النفس . وأمد اليكم يدي أسألكم صدقة أيها المسيحيون . سنبسط لكم
الطيفتنا وألقوا فيها بما تجود به نفوسكم — كسرة خبز . أو زجاجة لبن
نرضعها للأطفال . أو حنة زيتون .. فاننا جوعى .

وبسط رجلان بطانية وسارا بها عند أول الركب .

وقال القسيس وهو يرسم علامة الصليب :

— باسم يسوع المسيح نبدأ مسيرتنا ثانية . هيا يا ابنائى . تشجعوا
لنتجرع هذه الكاس أيضا . حمدا لله . مستبشرين بدروب الغيرة لنطرق
الأبواب . آمه وا أسفاه لهذا آتينا .. ستنادى : صدقة . صدقة .
تصدقوا علينا بعض ما يفيض عن حاجتكم . ببعض ما تلقونه للكلاي
عضوا على التواجد يا ابنائى واكلموا أحرانكم . تشجعوا . الغلة
للمسيح .

ثم توجه بالحديث الى الأب جريجوريس :

— الى لقائنا الثانى يا أب جريجوريس . الى اللقاء يوم الحساب .
سلفك جميعا نين بدي الله . نحن وأنتم . وسيحكم بيننا .

كانت الأرملة كاترينا هي أول من اندفعت الى الأمام بين صفوف القوم تقدم صدقتها . فكت وشاحها الجديد ، الشاح الأخضر المحل بورود حمراء كثيرة ، ووضعت داخل البطانية . ومدت يدها الى صدرها تبحث عن شيء ، ووجدت مرآة صغيرة وزجاجة عطر ، وألقت بهما أيضا في البطانية وقالت وهي تبكي :

— لا أملك غير هذه الأشياء يا أخوتي . لا أملك شيئا آخر . أسألكم الصفح

وتردد قسطنطين لحظة ، ثم تذكر أنه أخذ على عاتقه حملا ثقيلا ، أن يقوم بدور رسول ، فهب يمدو ، وفتح حانوته ، وأخذ كيس سكر وعليه بن وزجاجة براندي ، وبعض الأقداح ، وقطعة صابون ، ووضعها جميعا في البطانية .

وقال : انهما مقدمة صغيرة ، ولكنها تكفي تعبيرا عن المودة . كان الله معكم .

وطرقوا الأبواب جميعها بابا بعد آخر . امتدت يد خلسة وعلى عجل ، ألقت ببعض الطعام والملابس في البطانية ، ثم أغلقت الباب بقوة حتى لا تنسرب إليها الكوليرا .

وبلغ القوم بيت الشيخ لاداس ، وطرقوا بابه . ظل الباب موصدا . وانطلق الصباح الذي كان نوره ياديا من النافذة . ولكن ياناكوس ، الذي صاحب القوم هو والرسول الثلاثة ، طرق الباب بقوة وصاح :

— يا أب لاداس . انهم مسيحيون . انهم جوعى . كل منا يتصدق عليهم بكسرة خبز . فتصدق عليهم أنت أيضا .

وسمعا صوت العجوز لاداس غاضبا ، يقول لهم من داخل البيت :

— ما يحتاجه بيتك فهو حرام على الجميع .

وضم ياناكوس قبضتيه وقال متوعدا :

— سأصفي حسابي معك يوما ما يا عدو المسيح .

وصاح ميشيل :

— هيا بنا يا أصدقائي الى بيت العمدة الشيخ بطرياروكاس .

ثم انعت الى رفاقه الثلاثة وقال :

— هيا أسرعوا . لننتهز فرصة نومه . وتدخل مخزن المؤن ، ونستول على كل ما تصل اليه أيدينا .

وسأله ماتول ساخرا :

— وماذا لو ضاق الشيخ بفعلتنا هذه ؟

ورد عليه ميشيل :

— ليس عليه الا أن يشرب بعض النبيذ ، فيذهب عنه الهم . هيا عدلوا .

انطلقوا في طريقهم عدوا . فرحين كأنهم ذاهبون لنهب بلدة مادية .

في هذه الأثناء كانت الأرملة في طريقها الى بيتها . كنفها ترتفان إذ كانت مقرورة ، ولكنها كانت تبسم راضية مبنهجة . تقول لنفسها : وما قيمة هذا كله . إن امرأة أخرى قد تدثر بوشاحي فلا تحس بلسعة البرد .

وفي هذه اللحظة تردد وراءها ضدى صوت أجش . وأحسست بانفاس دافئة حول رقبتها ، وبدان غليظتان تطبقان عليها .

— يا عاهرة . اشتريت لك هذا الشاح بدم قلبي . ثم تنصدين به . سأخنقك حتى أردبك قتيلة .

كان الطريق قفرا . وتملك الأرملة الخوف . وأحسست بدوار من أثر الأنفاس التي تلوح منها رائحة النبيذ ، وألقت عينين متضرعتين تحدقان فيها وهيمست قائلة :

— يانايوي . أنت وحتى كاسر . بيد أنك طيب القلب . ارحمني فلي أعود الى ذلك نائية .

— لماذا ناديتني يهوذا . . . هه ؟ لقد طعننتني بخنجر في قلبي . تسأليني الرحمة ولم تأخذك الرحمة بي ؟ هل لن تدعني معك الى البيت هذه الليلة ؟

وخيم صمت مطبق . ثم قال في دلة :

— ادعني الى بيتك . ليس لي من عزاء في هذه الدنيا مواءك أنت يا كاترينا .

أحسست الأرملة برغبة الرجل الدافئة الملحة تحيط بها من كل جانب وهو غارق في العرق والدموع . وسرت في جسدها رقيقة .

وقالت بصوت واهن :

- تعال .

وسارت في المقدمة وردفاها بترجرجان . واقتفى بانايوتي اثرهما تحت جثع الظلام ، مأخوذاً ، لاخفاً ، وسار محاذيا للجدار .

بلغ حشد اللاجئين بيت عمدة القرية . كان ينتظرهم عند باب الدار أربعة رجال ، يحمل كل منهم سلة كبيرة ملئت عن آخرها .

وقال باناكوس :

- يا اخوتي . ان تسع البطانية كل هذا . اذن ليحملها اربعة من الغنية الأشداء على ظهورهم .

وقال ميشيل :

- ليحفظكم الله ويرعاكم ايها الرفاق ، ونسالكم الصفع والغفران . واصفحوا عن الشيخ بطرياركاس كذلك .

وردت عليه اصوات الرجال والنساء مفعمة بالفرح :

- مغفورة لكم خطاياكم .

ولم تكذ ايديهم تمتد الى سلة من السلال حتى بدأت استنائهم تعمل في نهم .

وقال انعملاق حامل العلم ، وقد أمسك برغيق كامل :

- ماذا نحتاج يا اطفال لتقهر الموت ؟ ماذا نحتاج ؟ كسرة خبز ليس لا .

وقال ميشيل وهو خارج من الفناء :

- لا زال الشيخ يلفظ في نومه .

وقال باناكوس :

- انه يلفظ في النوم ويعلم انه في الفردوس . تسبح امامه اربع سلال بدلا من الملائكة يفسحون له الطريق .

وانفجروا ضاحكين ، فقد خفت آحزانهم .

بلغ الرفاق اطراف القرية ، وكان الليل قد ارشى سدوله . غللات حانية زرقاء عطرة الاربع . ومكنت الكلاب الا عن نباح قليل . واخذوا

طريقهم الى بيوتهم ، نفوسهم راضية اذ ادوا واجبهم . وفجأة طالع جبل ساراكيئا الشغب المقهور : موحشا وعرا ملثنا بالوحاد .

وقال مانولي لرفاقه :

- لنذهب الى القسيس نحبيه تحية الوداع . انه ليس قسيسا بل هو موسى على رأس شعبه المقهور في الصحراء .

واصرعوا الخطي .

أمسك مانولي بيد القسيس بقبلها . وقال له :

- يا ابانا . اعرف ان قريننا اقترفت خطيئة في حقكم . امالك ان تشفع لنا عند الله كي يرفع عنا اللعنة التي تنزل كاهلنا .

وامتدت يد القسيس المحروقة الجافة لتستقر في حلقه فوق الشعر الأشقر :

- ما اسمك يا طفلي ؟

- مانولي .

- ليس في نفسي شيء ضد أهل القرية يا مانولي . فهم ناس بسيط . مسذج . لا يملكون غير الطاعة لأولى الأمر منهم . وهذا حق . بيد ان ولي الأمر فيهم ، وليغير الله لي . ليس الا شيطاناً في مسوح قسيس .

وسرح بفكره لحظة . ثم اردف يقول :

- ان ما قلته الآن قول خطير . انه ليس بشيطان بل فظ قاسي القلب . واستعلمه التواب كيف يكون رجيبا .

ثم تطلع الى ميشيل الذي كان يمسك بيده وسأله :

- وانت يا فتى - قل لي من أنت ؟

ورد عليه مانولي :

- هذا ميشيل ابن عمدة القرية .

- قل لآبيك يا فتى ان الله سيذكر له هذه السلال الأربع في لوحة المحفوظ الذي يسجل فيه أفعال البشر . وسوف يجزيه الله عنها خير الجزاء . فان الله يرمي الصدقات ويجزي المسنة بعشر أمثالها . ان السلال الأربع سيكون له مثلها في الآخرة أضعافا مضاعفة مثلما كانت الأربعة الخمسة .

واقترب ياناكوس وقسطندى بدورهما .

— أنا يانوكوس يانع متجول وآتم اقترب الكثير من السكبان . وهذا قسطندى صاحب المقي . انحنأ بركانك يا ايانا .

مسح الأب فوتيس روسهم بيده الجافة ومنحهم بركته . وقال لهم :

— والآن يا ابناي عودوا الى بيوتكم . يارككم الله .

وتطلع القسيس حوله . الليل حالك الظلمة ساج . واوراق الشجر جامدة بغير حراك . وعلى صفحة السماء جيش جرار من النجوم الساطعة . وفوق روسهم يعلو جبل ساراكيثا شامخا .

وقال ياناكوس :

— هناك كهوف كثيرة يا ايانا . ويروي . فيها سمعت . ان المسيحيين الاول سكنوا ذات يوم هذه الكهوف . وفي احد الكهوف صخرة نقشت عليها صورة العذراء والصليب . لاتزال آثارها ظاهرة للعيان . لابد وانهم اتخذوا من هذا الكهف كنيسة لهم .

وأضاف قسطندى :

— ويوجد ماء ايضا . تنساب قطراته من بين الصخر . صيفا وشتاء . تسمح خريزه بعد ان تتساقط الجبل لمسافة قصيرة . ويسكن الجبل كذلك طير الحجل . وتعلو قمة الجبل كنيسة النسي ايليا .

وقال مانولى :

— تستطيعون ان تصاعوا ليلتكم فى المغارات . وبوسعكم ان تتسلقوا النار وتعمدوا طماعكم فالجبل مليء بالمطبخ . واذا لامكم المكان فانكم تستطيعون ان تتخذوا منه مستقرا لكم وسكنا الى حين . تخلصون فيه الى الراحة . ان النسي ايليا . حامى الجبل . يحب المتهورين .

ورفع الأب فوتيس يصره يتطلع الى الجبل . وتأمله لفترة طويلة . بينما الرفاق الاربعة يرقبونه مأخوذين . وطافت برأسمه سلسلة من الأفكار ارتسمت على وجهه المتعب كآثام موجات تروج وتغسل . وتاهت عيناه فى عماء اللانهاية .

وفجأة . وكأنه اتخذ لنوع قرارا . رسم علامة الصليب . وقال :

— ان الله هو الذى يتكلم بلسانك يا مانولى . الناس يظاردونا فى

كل مكان نحل به . اذن لنشارك الوحوش سكنى هذه الكهوف . كان الله فى عوننا .

ورفع الانجيل وبارك الجبل . وتمتم قائلا :

— ايها الصخرة الشماء . يا ابنة الاله القوى القدير . ايها المياه الجارية أبدا . تنفجر من بين الصخر لتطفي طما الطير والجوارح . ايها النار الكامنة فى باطن الشجر تنتظر الانسان حتى يوقظها من مكمنها فتكون له عوناً فى حياته . يارك الله ساعة لقائنا بكم . نحن بشر يظاردنا اخوة لنا . نفوس فطة قاسية . واخرى انقلبتنا الأحزان . ايها الطيور والجوارح . نسألكم ان تحسنوا لقائنا . لقد آتيننا الى هنا بعظام الأجداد . وعدة العمل . وبذرة الانسان . ادعو باسم الرب ان تجسد سلالتنا مستقرا بين هذه الصخور القفار .

وتحس يديه فى عتمة الليل حتى اعتدى الى طريق يسلكه . ثم استدار ناحية الجمع الذى كان ينتظره فى وجوم . وصاح بهم :

— اتبعوني .

ثم قال مخاطبا الصحاب الاربعة :

— المسيح قام . اسأل الله يا ابناي ان يتم عليكم بالصحة ويشرح صدوركم .

وأجابوا :

— بالحقيقة قام .

وتساندوا على بعضهم وهم يرقبون جموع اللاجئين يملكون الجبل . سار فى طلبهم القسيس . وحامل العلم . والشيوخ حملة الأيقونات . والمعلم حامل جوال العظام . ثم النسوة واحدة وراء الأخرى وهن يحتضن أطفالهن . والرجال من ورائهن فى مؤخرة الطابور .

وسرعان ما اختفوا عن الأنظار تحت جنح الظلام .

قَدِّيسون ولصوص

أضابت الأم المسبح وقيامه المجيد حياة أهل القرية أسبوعاً كاملاً . امتلأت البيوت بكمك عيد القيامة والبيض الأحمر ، وتزوجت الحدائق بالورود ، ونعمت رموس كبار المزارعين بالراحة ، إذ طردوا عنها إلى حين هجوم مصالحهم الأنانية النكدية . وهكذا هنت حياتهم التعمسة أسبوعاً بالخلّاص من نيرها . وما هي اليوم كحيوان ضخم يحرك رأسه الثقيل ومنخرية الزبدتين ليسلم رقبته لنير العمل اليسومي من جديد .

ويانتهى العيد . نهض ياناكوس مبكراً في الصباح ودخل الحظيرة المعتمة التي يسكنها حمارة ، أحب أصدقائه إلى نفسه ، بنام فيها ويحلم . عيقت الحظيرة برائحة الروث والأبخرة العطنة التي تشبه رائحة العالم في أقدم العصور . فلا ريب في أن هذه كانت رائحة العالم أيام الخلق الأول .

فتح الرفيق الوفي في دعة عينية الواسعتين بأعذارهما الطويلة . واستدار ناحية ياناكوس ، وعرف فيه صاحبه : رفيق الطريق والتشقاء ، الذي اعتاد أن يفسح على ظهره حملاً ثقيلاً ويطوف به بين القرى ثم يعود به إلى هذه الحظيرة الصغيرة حيث يقدم له الماء القراح يشرب والتبن والشعير ليأكل . ورحب به على طريقته بأن هز له ذيله ونفق بكل قوته فرحاً .

اقترب منه ياناكوس وربت على كفه الأسود اللامع ، ووطنه الأبيض



التام ، ورفيقته الدائبة . وقضى بيد على احدى اذنيه الكبيرتين واسك
بالأخرى خطم حيوانه الحبيب وبدأ يتأجبه :

« حبيبي يوسوفاكى (وهذا هو اسم اللدليل ، سماه به سرا
ولا يعرفه الأغا) . انتهت غظة العيد يا يوسوفاكى الحبيب . المسبح
قام ! لقد قضينا اجازة طيبة وليس لك ان تشكو الآن . احضرت لك
عليقا مضاعفا . وجمعت لك عشبيا طازجا يفتح شهيتك . وقدمت لك
هدية عيد القيامة ، طوقا من الحجر الأزرق يفيك شر الحسد ، تضعه
حول رقبتك الرشيقة . وعلقت في الطوق قص توم كتعويذة ، حتى
لطمئن تماما على جعالك يا يوسوفاكى الحبيب . فالتاس نفوسهم
شريرة ، وقد يحسفونك بدافع الغيرة والحقد . ماذا يكون مصيرى
بدونك ؟ لا نسى اننا وحدنا ، نحن الاثنان . ليس لى سواك فى هذا
العالم . لم انجب اطفالا ، وماتت زوجتى لهنما فى اكل الحمص . وانت
كل ما بقى لى فى هذه الدنيا يا يوسوفاكى .

« واليوم اوف اليك خبرا سيدخل السرور على نفسك . مستغل
القرية فى عيد القيامة القادم الام المسيح . لا بد وانك سمعت بعض هذا
الحديث . وهم بحاجة الى حمار . توصلت الى اعيان القرية ان يسلموا
الى صنيعا جميلا بان تمتل أنت يا يوسوفاكى دور هذا الحمار فى الآام
القدسة . سيدخل المسيح اورشليم محمولا على ظهورك فائ شرف
سينالك . المجد لك وللرسول يا بنى . ستعيشى فى طليعة الركب حاملا
الرب ، وبفرشون لك الأرض بالغار وسعف النخيل ، وسوف تتنزل
نعمة الرب على ظهورك ، ويلمع اهابك كانه الحرير » .

« وعندما أموت ، اذا شامت ارادة الله أن تدخلنى الجنة ، أنا الائم
المسكين فسأقف عند بابها اقبل يد حارسها وأقول له : « اسألك
يا بطرس الرسوم ان تصنع لى معروفا وتدخل حصارى الجنة . أسألك
أن تدخلها معا والا فاني لن ادخل » . وهنا سينفجر الرسول ضاحكا
ويضربك على كفلك ويقول : « لك ما طليت ، سأفعل هذا ارضاء خاطرك
يا ياناكوس . هات يوسوفاكى اركبه وادخلا معا فان الرب يحب الحمير » .

« وما ادرالك بمدى الفرحه التى ستغمرك يا حبيبي يوسوفاكى .
انها فرحة خالدة . ستنتخف هناك من هذا الخرج الثقيل ، فلا احمال
ولا سروج ، وتنزه وسط حقول يغطيها الاخضر دائما أبدا ،
يعلم بقدر قاسمك ويكون فى مشاغل خطمك فلا تتجشم عناء الانتباه .
وفى السماء ستنهق كل صباح لتوقظ الملائكة . وسيضحكون لسامعهم

صوتك . وعندما يغيب ضوء النهار تنظر لى مريح بين المروج الخضراء .
حاملا فوق ظهورك اطفالا ملائكيين مختلفه ألوانهم بين الأزرق والأحمر
والأرجوانى . . مثل حمار وابنه ذات مرة فى سوق سميرنا يحمل حملا
من زهور الزنبق والليلك ويتضوع بشذى عطر جميل . . » .

« سيأتى هذا اليوم يا يوسوفاكى ، انه آت لا ريب فيه فلا تخف .
اما الآن يا بنى فعلينا أن نعمل حتى نتكسب لقمه العيش . تعال الى لاسرجك .
نعال لأضع على ظهورك خرج البضائع . علينا أن نبدأ من جديد جولتنا
فى القرية لبيع بكرات الغيط والابر والمشابك والامشاط والبخور
والمصوغات وتراجم القديسين . ساعدنى يا يوسوفاكى حتى تقوم
بعملنا على الوجه الاكمل . نحن رفيقان ، ليس كذلك ؟ وشريكان .
نحن كما نعرف نقسم فيما بيننا بالعدل والقسطناس كل ما نتكسبه -
التمتع لى ، والعلف لك . وكما قلت لك اذا ما ادبنا عملنا على خير وجه
سأشتري لك من بانايونى سرجا طريا حتى لا تنالم . ولجأنا جديدا له
شراية حمراء » .

« هيا بنا الآن . اود ان أقول لك ارسم علامة الصليب . ولكذك
لست مسيحيا وانما أنت حمار . لذا نعال مدد جسدك وباعد ما بين
سافيك الخلفيتين وكن على راحتك لأضع حملك على ظهورك . تنفس
الصباح وعلينا أن نطلق يا يوسوفاكى تحرسنا عناية الرب » .

وضع ياناكوس الحمل فوق ظهر حمارة ، وأخذ عصباه ، وبوفا
صغيرا يتنادى به على زبائنه . فتح الباب ورسم الصليب وخرجا معا
الواحد اثر الآخر . كل منهما يشعر بالانتعاش والبهجة . وبدأ اولى
جولاتهما بعد عيد القيامة .

تلا شوء النهار ، شب من السماء لينفوش السهول ويلف القرية
بأسرها . وتبسمت الأحجار والأبواب والنوافذ . وأحس ياناكوس
شهية للأكل فمد يده داخل خرجه وأخذ كسرة كبيرة من الحبز ، وحفنة
زيتون ، وبصلة ، وبدأ يأكل فى سعادة .

وقال لنفسه :

« ما أجمل العالم رغم كل ما فيه . يا الهى انه جميل مثل الخير
الطيب »

وأبصر باب بيت جارتة الأرملة مفتوحا . كانت كاترينا تمسك بدلو

نصب به الماء على عتبة دارها لتفلسها ، وقد فتحت صدرتها ، وشعرت
عن ساقها . كانت ساقها الممتلئان في اكتناز ، التامعتان الجميلتان
عاريتين حتى ركبتها ، تضيء فيهما لمعة جميلة . وكشفت صدرتها من
تدبيها : طائرين صغيرين بقبضان حيوية ، وشبان في خفة استعدادا
للهرب .

وقال ياناكوس لنفسه :

« لقاء سييء مع ياكورة النهار »

وضرب حمارة على كفه يستحثه على الإسراع في السير . ولكن
بصر المرأة وقع عليه فانتصبت وافقة وأسندت جسمها الى قائمة الباب ،
وبدا وجهها نضرا مثلثا حيوية ونشاطا .

نادته ضاحكة :

« سهو الله لك يا ياناكوس » هل تعرف يا جاري أنني معجبة بك ؟
فرغم أنك تعيش وحيدا مثل طائر الوقواق ، إلا أنك دائما تمضغ شيئا ،
مرتاح البال . كيف يتيسر لك ذلك ؟ أنا لا أستطيع أن أكون مثلك ،
لا أستطيع يا جاري السكن ، فاني أرى إحلاما موحجة ..

وأراد ياناكوس أن يغير موضوع الحديث فسألها :

« أي طلبات لك يا كاترينا ؟ امرأة جيب ؟ زجاجة ماء اللافندر ؟
ماذا تريدن ؟ »

وظهرت نمحة الأرملة عند عتبة الباب تشغو في قلق . حول عنقها
شريط أحمر ، وضربها مثلثة أثقله اللين .

وتنهدت الأرملة وهي تقول :

« تريدني أن أحلبها » ضربها مثلثة وهي تضيق به . آه انها
امراة هي الأخرى هذه المسكينة ..

اتحت ، وريبت عليها في رقة وهي تقول :

« سأتيك حالا يا كنزي . صبرا . يجب أن أفزع أولا من غسل
مدخل البيت واتخلص من آثار الأقدام الدنسة » .

دفعت النعجة برق إلى داخل البيت واستدارت ثانية ناحية
ياناكوس . عاودت حديثها وهي تنتهد :

« أرى إحلاما مرعجة يا جاري » أنظر .. في الليلة الماضية ، عند
العجر ، رأيت فيما يرى النائم مانولي . كان يقطع القمر شرائح صغيرة
كانها قطع من التفاح ويقدمها لي لأكلها .. أنت يا ياناكوس طفت ببلاد
لثيرة حتى وصلت إلى سميرنا كما يقولون ، ولابد وأنت تعرف شيئا
من الأحلام »

رد عليها ياناكوس قائلا :

« كفى يا كاترينا . كوني رحيمة ولا تعديبي الناس » انظنين أنني
لم أملك بالأمس وأنت تفهمين بعينك مانولي ؟ أتريدن يا فاجرة أن
نلعبي على هذا الغنى الوديع . ألا تشعرين بالشفقة عليه ؟ انه خاطب
هذا المسكين فلا تعترض طريقه . وهل تحسبن أن بانايوتي لن يجهز
عليك إذا شتم رائحة لذلك ؟ اسلكي طريقا آخر يا كاترينا واركزي قليلا ..
لم يحدثك الشيخ بطرياركاس عن شيء ؟ ألا تعرفين أن الأعيان فرروا
اختيارك لتمثلي دور المجذلية في السر الذي ستمثله القرية في عيد
القيامة القليل »

قالت الأرملة وهي ترفع صدرتها لتتأكد من أنه رآها وهي تكشف
عن صدرها :

« أنني المجذلية فعلا يا ياناكوس العجوز ، أنا المجذلية سواء مثلت
دورها أو لا . لا حاجة بي إلى الشيخ ليبلغني الرسالة . آه آف من هذا
الأم العجوز . ليأخذ الشيطان » يقول ذلك لأن شعري أشقر ..

وقال ياناكوس مقاطعا :

« ليس هذا هو السبب يا كاترينا .. ليس هذا .. كيف أوضح لك
الأم إذا كنت أنا نفسي لا أفهمه بوضوح » اسمعي . ستقطعين علاقتك
ببانايوتي منذ هذه اللحظة وتراقفين المسيح . ستنبينه وحده دون
سواء . ستفلسين قديمية القديستين بالعطر وتمسحينهما بشعرك ..
هل تفهمينتي ؟ »

« .. ولكنه نفس الشيء أيها الأبله » فالناس جميعا ، حتى بانايوتي
نفسه ، يمثلون الإله للحظة واحدة . إله حقيقي وليس مجرد كلام ،
ثم يعودون بعد ذلك إلى ما كانوا عليه ويصبحون ثابتة ياناكوس
أو بانايوتي أو عجوزا مخرفا مثل بطرياركاس . أفهمت ؟ »

« ياخذني الشيطان ان كنت قد فهمت شيئا يا كاترينا .. انها نهاية العالم كما يقول الشيخ بطريرك اس » .

صافت الأرملة بذلك ، وامسكت بدلوها ودعقت ماء بقوة وعنف على منية الباب حتى تطاير الرذاذ الى قدمي ياناكوس ، وهز بوسوناي اذنيه فقد مسهما رذاذ الماء ايضا .

وقالت كاترينا في سخرية :

« آف .. لست الا رجلا ، رجلا فقط . ايها المخلوق البائس كيف لك ان تفهم ؟ مع السلامة وانتي لك التوفيق في اعمالك فانت تفهم هذا على الأقل . »

ولكن ياناكوس حماله لكزة خفيفة ، ارتجف لها وركض على انرها . وجري صاحبه وراءه يصفر سميدا لانه افلت من الأرملة .

« ساقصد القسيس اولا اسأله طلباته ، فانه يستشيط غضبا ان لم أبدا به . يقسول لي ، بيتي اولا ثم الاعيان . انا ممثل الرب في ليكو قريسي » . فلنقصده رأس الدثب اولا تجنبنا للمشاكل .

والتفت وراءه . ابصر كاترينا متهمكة في لسل عتبة الباب ، ورداؤها مرفوع عن ساقها وهي تبدو نصف عارية .

ولمعت قائلا :

« المومس . ما اجمل الساقين اللتين منحهما لها الخالق المبدع ، ما اجمل بطن ساقها .. ولديها .. آه متعها آتما خلقا لغواية الرجال .. الويل لك يا ماثولي لو سقطت بين برائتها »

وبينما كان ياناكوس يتأجى نفسه وهو سائر في طريقه ابصر الأب جريجوريس في رذاته الأرجواني ، متمطقا بحرام من القبطية السوداء ، حاصر الرأس ، حافي القدمين ، يسير جيئة وذهابا في قناء منزله . يداعب بأصابعه خبات مسيحة طويلة من الكهرمان الأسود اهداها اليه الأسقف . كان الأب جريجوريس يلهث كالخدود امام الكبر .

اقبلت ماريوري في خضوع ووشمت تحت ظل تكسية الكرم صينية عليها طعام افطاره : بسكويت وقطعة جبن - وهي عادة القسيس كل صباح لفتح شهيته . وبعد ساعة يتناول افطاره اليومي بيضتين نصف مسلوقتين ، وكوبا كبيرا من النبيذ المعتق اختص به صديقه المفضل

« هكذا اعتاد ان يسمى كرشه - ثم يحدد الله على عدله وفيض اعماله الذي لا ينتهي » .

بعد ان قرعت ماريوري من خدمته ، ذهبت لتتوي زهور الربيعان والجيرانيوم والقطيفة . بدت اليوم شاحبة هزيلة . فقد أرقت ليلها هذه . وظهرت حول عينها اللوزيتين السوداءين دائرتان زرقاوان من السهاد ، وفي شفتيها صفرة وجفاف . مات أمها بداء السل ، وكنت لا أنزل في ريعان شبابها . وكانت ماريوري صورة من أمها . يتطلع اليها أبوها من حين الى آخر ويقسول لنفسه في حسرة : « يجب ان أزوجها ، يجب ان أعجل بزواجها حتى تنجب لي حفيدا ، ثم ليفعل الله بعد ذلك ما يشاء . ميشيل فتى رقيق ، صلب العود ، قوي اللينان ، سليل أسرة طيبة ، وذو جاه ، الذي سيخلدني في ذريتي ويخلق لها القوة والغنى » .

سقت ماريوري الزهور ، وتاعبت للانصراف ، فازدرد القسيس على عجل آخر لقعة في فمه وقال لها في حدة :

« انتظري هنا . الى أين ؟ أريد ان اتحدث اليك . »

لم يستطع ان يكلم غيظه ، ولا يد أن يفس عنه . اسندت ماريوري ظهرها الى الباب ، وعقدت ذراعها الى صدرها وانتظرت . وأحسنت برجة . فقد أدركت موضوع حديثه ، وعرفت ما سيفعله لها . اذ تركه يانايوني نوا ، ووصل الى سمعها أثناء حديثهما معا يضع كلمات أثارته قلقها . سمعت أبياها يقول لآكل الحيس وهو يصحبه الى الباب : « أحسنت صنعا ان قلت لي .. هذا واجبك .. سأعتقه على ذلك . »

غضبت ماريوري من طرفها وقالت :

« طوع أمرك يا أبت . »

« هل سمعت ما قاله لي يانايوني ؟ »

« لا ، فقد كنت في المطبخ اعد لك القهوة . »

« كان يحدثني من خطبك الهمام ميشيل . »

زفر القسيس زفرة عميقة ، ونفرت العروق في وجهه ، وعم بواسل حديثه .. وفي هذه اللحظة سمعا طرفة على الباب . وكبت ماريوري من مكانها وقد أحسنت بالخلاص . رنى الرب لحالها وأزاح عنها الخطر . وانطلقت تعدو لفتح الباب .

سأل القسيس في غضب وهو يتجرع آخر ما بقي من القهوة دفعة واحدة :

— من هناك ؟

سأنا ياناكوس يا أبانا • المسيح قام • سأبدا جوتنى ، وأنتك انتعلنى ببركانك •• وإذا كانت لك طلبات أو رسالة ••

قاطعه القسيس ، قائلا :

— أدخل واغلق الباب •

وقال ياناكوس في نفسه :

— إنه اليوم منحرف المراج • الشيطان هو الذى بعث بى الى هنا •
وانحنى على يد القسيس يقبلها •

— دعك من تقبيل الأيدي الآن أيها النيرير • لتحدث أولا •
سأسألك بعض الأسئلة وعليك أن تجيب • ما عدا الذى سمعته ، هه •
يبدو أنه كان لسيداتك يد فيه • بل لملك أولهم وأخطرهم شانا • لماذا
تقف هناك قافرا فلا آلا أحبك ستظاھر بأنك لا تعرف شيئا • أربانى
شخص ما واحتلنى على كل شيء من الألف الى الياء • أيها الصعاليك
المصوص منتهكو الحرمات المقدسات •
— يا أبانا ••

— الأب لن يمد لك يد العون • تسرق ممتلكاتى • وتنهب بيتى • ثم
بعد أن تفعل كل هذا تستدير لتحاول أن تقبل يدى كان لم يحدث
شيء • أيها المارق • آسف أن أخبرك لتكون بطرس الرسول • يا لقس •
أهكذا تبدأ حياتك الرسولية ؟

أسقط قى يد ياناكوس ، وأخذ يتعم :

— أنا •• • أنا •• •

— أنت • أنت ومن معك من الطيور البرينة •• صديقك قسطندى
ومانولى • وغررتهم بميشيل حمل الرب الوديع • تعرفون أنه ذو قلب
نقى ولحيته الفرسية ، وأفرغتم منزله فى السلال •• يا لصوص ••
أه يا الهى وقمت فى خيطنة اذ اخترتكم لتكونوا رسلا •••••
بحاسر ياناكوس وقاطعه :

— ولكنها لم تكن خزانك يا أبانا •

— خزان من ؟ أظنها خزانكم أنتم ؟؟ يا كوم القمل •• أنها خزانى
لأن ميشيل سيتزوج ماريورى وسيصبح البنتان بيتا واحدا •• إذن فمن
خزانى أخذتم الجبن والحبز والزيت والخبز والسكر وملام
بها السلال •• لكن توزعوها على من ؟ على حملة الكوليرا !! أنه سيدد
كل ما يملك ويوجد به على الفقراء والمتردين ويترك ابنتى معدمة • كل
هذا بسبب أصدقاء رعناء مثلكم •

وانفتت الى ابنته التى وقفت فرجة جامدة فى مكانها بفجر حراك
لا تجرؤ على أن ترفع بصرها •• وصرخ فيها قائلا :

— هل تسمعين يا ماريورى ؟ هل تسمعين العار الذى لحق ببيتنا ؟
ما العمل وهذه هى حمافات رفيقك الهمام ؟ علينا أن نتروى ونفكر
مرتين قبل أن نحسم أمرنا ••

واغرورت عينها بدموع حارقة لم تلبث أن انسابت فوق خديها
الدائنين ، ولكن ظل قمعا مغلقا •

وسأله القسيس ثانية :

— ماريورى •• أنتمعين ؟

وأطرفت الصبية برأسها فى ذلة ومسكنة وكأنها تقول :
— أسمع وأطيع •

وبدا الحمار الموثوق الى حلقة الباب ينهق • وهنا قفز ياناكوس •

— « معدرة يا أبانا • يجب أن أنصرف • إذا كان من الخطأ أن تأخذ
من الأغنياء وتمطى الفقراء ، إذن فليغفر لنا الرب » •

شمع القسيس برأسه وقال بصوت عال :

— الرب يتكلم على لسانى أنا • أتت لا تعلم أن تحاطبه مباشرة •
فكلمته سبحانه وتعالى تأتيك من خلالي • أنتم لصوص ، أنت وقسطندى
ومانولى • سادعو أعيان القرية للاجتماع لنبحث معا ما يجب أن
ننخذ •• لم يكد حملة الكوليرا يصلون الى هنا حتى تلوئت قريتنا •
— بركانك يا أبانا •

قالها ياناكوس واندفع كالسهم ناحية الباب •

واستشاط القسيس غضبا حتى احمر وجهه ولم يحرك جوابا .
واستدار ناحية ابنته وقال :

— آتني بحذائي ومغفرتي وعصاي . سألهم لأقابل عمدة القرية
والأعيان .

ودلف الى داخل البيت . والتمهم البيضتين على عجل ، بينما جرت
ماريوري لتلحق بياناكوس الذي كان يفتك رباط حماره . واسرت اليه
بكلمات خاطفة :

— من فضلك ياناكوس . اشتر لي شيئا مما يضعه نساء المدينة
على وجنانهن ليكسبها لونا ورديا . آتني بها سرا ، اما عن انثنى ..
ورد عليها ياناكوس :

— لا عليك ياماريوري . اعرف ما تقصدين . سأتيك بشيء منه .
وسمع صوت القسيس وهو يصرخ بأعلى صوته :

— سنتحدث بما فيه الكفاية من هذا ابها المنترد .
وصفق ياناكوس الباب وهو يغمغم :

— انه الشيطان في مسوح قسيس ويزعم انه ممثل الرب . نعم
لو كان الرب الرحيم على شاكلته لكان ذلك من سوء طالع البؤساء من
بنى البشر ولاتلهمنا جميعا احياء .

حك رأسه وكثر عن آتيابه وقال :

— انه يقتنع حتى الآن بالتلهمنا بعد ان توأمتنا المنية . ولكن ربعا
تسير الأمور الى ما هو أسوأ .

لكر حماره برفق وقال له :

— هيا يا يوسوفائي ، اطلق ساقبك للريح ، يا بني . اخرنا صاحب
الرأس التشبيه برأس العجل . هيا ، لا تجوع يا ولدي . فهذا هو حال
الدنيا . المهم أنك على صواب . سنذهب الى المقهى لتعرف طلبات
الناس هناك لم نطلق .. يقول أننا لصوص .. ليذهب الى الشيطان
هذا المعجوز الذي يأكل أموال الأتبية .

كانت الحانة غاصة بمن فيها ، تضح بالطنين كأنها خلية لعل هائجة .
تجمع فيها كل اهل القرية يملقون على الأحداث المفجعة التي راوها
البارحة رأى العين — جموع اللاجئين ، القسيس ذو اليأس الشديد
ومعه انجيله ، المرأة التي سقطت على الأرض جثة هامدة .. البحر الذي
غطوا به جثتها حتى لا يتلوث الهواء بوباء الكوليرا .. العصر وجسود
المقتل . آتني البعض على الأب جريجوريس لانه انتقل القرية من
الوباء ، واعتترف أخسرون صراحة بأنهم يرتبون لحبال الرجال والنساء
الذين يتضورون جوعا . وقال فريق ثالث أنهم اتسوا نارا فوق جبل
ساراكينا عند منتصف الليل .

ودخل يانايوتى مثل ثور يفتش حوله على الأرض بنظرات جسور .
ثم اتحنى زكنا وجلس فيه . ونادى على صاحب المقهى وطلب منه
لمجة فطيرة :

— « فهو سادة » .

وقال له قسطنطى :

— تبقو اليوم ميوسا يا جازى . اظنك لم تر ليلة أسوأ من هذه
في حياتك . أليس كذلك ؟ .

فقلب السروجى جيئته ، وجمع ما بين حاجبيه الكثين ، وأدار
ظهوره ، وردد ما سبق له أن قاله :

— فهو سادة .

وفى هذه اللحظة دخل الشيخ بطرياركاس وقد غطى رأسه بقبعة
الفخمة ، وأمسك بمصاصة الطويلة ، وحيا اهل القرية بيده كمن يتقهم ،
وتعضوا جميعا يرددون تحيته ويتعجبون له يوما سعيدا . لم يكن قد افاق
من نومه تعلماء ، إذ كان صوته أجش ، وميناه منتفختين ، ولسانه ثقيلًا ،
مما جعله راغبًا تعلماء عن الكلام .

احضر له قسطنطى قهوة (سكر زيادة) ، وطبقا من الحلوى
التركية ، وكوب ماء بارد ، وحياه قائلا :

— أسعد الله صباحك :

لم يرد عليه الشيخ تحيته . وازدرد الحلوى دفعة واحدة بعد أن
أضاف اليها بعض الماء ، وأتبعتها بكوب الماء فشربه ، ثم أخرج مندبلا

أبداً حتى قبة الله ونمط بصوت عال رن في جنات القاعة . أحس بعدها برأحة وبدأ يحس نبضه وهو يصعد زفات ثقيلة . ارتاح بعدها ، وزايله الانتعاش ، وأفاق قليلاً ، واستعاد سوته الطبيعي . لم أحضر له البارجلة . فلهذه هي عادة الشيخ أن يصحو تدريجياً شيئاً فشيئاً .

لغت حوله وأبصر حاجي نيكولا ناظر المدرسة . واستدعاه بإشارة من يده . فاقرب منه ناظر المدرسة وأرجلته في يده . قمتي له صباها طيباً ، وجلس إلى مائدة الععدة .

وسأله الشيخ بطرياركاس :

— ما الاختيار يا حضرة الناظر ؟ تمت البارجة يوماً قليلاً وخير لي أثناء نومى أنتى أسمع جلبة عالية ، بيد أنتى لم استيقظ . ومنذ هنيهة وأنا في طريقى إلى هنا ، سمعت عرضاً حديثاً عن قدوم بعض القروا إلى القرية ، وأمرأة أسلمت الروح ، ومشادة بين قسيسين . ما كرا هذا ؟ إنها نهاية العالم . هل لك أن توضح لى جليلة الأمر يا صديقى ؟ .

وتنحنج ناظر المدرسة ، وقد أحس بالرضا . مال برأسه على الشيخ وبدأ يتحدث إليه بصوت خفيض وإيماءات كثيرة ، فرحا بأنه يقص قصة مروعة جعلته موضع رهبة للحظات قصار . وشد إليه انتباه الشيخ حتى بات ينصت إليه فاقراً قاه .

كان باتابوي يرقبهما وهو بعض في عصبية على أطراف شاربه . واخذ يحلق بعينين واسمتين في وجه الشيخ بطرياركاس ذى اللغد الثقيل . وانتظر متوقفاً أن يرى الشيخ وقد فقد صوابه ، وتدافع الدم إلى رأسه ، وأمسك بعصاه ، وهول إلى منزله .

ولكن يا للشيطان . لم يشتعل محياه النبل بالثورة . وزمجر أكل الجيسى وتلطم فوق كرسيه كأنه جالس فوق أبر . وقال لنفسه : « أن هذا التبن المدعو بناظر المدرسة لن يجرؤ على أن يقص عليه كل شيء خشية أن يثير ثأرته . سأقص أنا عليه كل شيء ، لابد من ذلك » .

ونهض من مجلسه وقد حسم أمره . ودنا من السيدين وقال :

— عن اذنك يا عمدة . أحسب أن الأستاذ العلامة لم يقص عليك القصة بعذافرها فهو لم يحسر على ذلك . أما أنا فلا أخشى شيئاً . سأقص عليك القصة كاملة عندما اتفرد بك ، أنا وأنت .

وقال الشيخ :

— حاجي نيكولا . . اتركنا لحظة من فضلك . حتى أرى ماذا يريد السروجى أن يقول لى .

ثم قال موجها الحديث إلى باتابوي :

— تكلم وأجر . لقد حدثنى ناظر المدرسة حديثاً فارها .

ورد عليه باتابوي وقد ساءه هذا الكلام :

— أنا لا أطيل فى الحديث وأنت تعرف عنى ذلك . إليك القصة

و كلمتين : قرر مانولى بابنك وسلبه عقله . اخذا معهما قسطندى صاحب المقهى هذه ، وكذلك ياناكوس البالغ التجول ، ودخلوا مخزرك وملأوا أربع سلال وأسلوا بها وأعطوها إلى حملة الكونيرا . وكنت طوال هذا الوقت نطقت في نومك . هذا كل ما أوردت أن أقوله لك . وهما إذا سأنصرف .

في هذه اللحظة تدافع الدم كالعاصفة إلى الرأس الثقيل . نورم جفنا الشيخ لانية ، وتحشج صوته ، وصرح قائلاً :

— اذهب إلى الشيطان . لقد أحرقت كبدى بحديثك تمنى عبدا الصبايح .

والتقى بعنف خرطوم البارجلة وتلفت حوله . غامت عيناه فلم يعد يعبر الناس من بعضهم . ودارت القهوة أمام ناظره كالدوامة . ونهض من مجلسه ، وخطا خطوة إلى الأمام ، وألبعها بأخرى حتى اهتدى إلى الباب وخرج وقد أثقله الحزن وارتقى المنحدر قاصداً بيته .

وصاح بعض أهل القرية وهم يتنازعهم السرور والقلق :

— ما الذى وموس به لك الشيطان يا باتابوي وهست به في أذنه حتى جن جنونه هكذا . . هه لا تخاف الله ؟ أنه رجل مسن ، بدين . أنه سيصاب بالسكتة .

ولكن باتابوي كان قد خرج من المقهى واختفى عن الأنظار .

وسمع صوت يوق ياناكوس ساخرا مرحا .

وقف ياناكوس وسط الميدان كالدبك حتى ينشج ريش رقبته وصاح :

— يا أهل القرية . سأبدأ جولانى بين المدن والقرى . ليأتنى كل

من له حاجة • كل من لديه رسائل فليحضرها لي • لينتقم كل من له اقارب أو ابناء أو اصدقاء أو اعمال في القرى المحيطة • سأتلقى طلباتكم وارسل تم اعود اليكم باذن الله يوم الأحد وقد ليبت طلباتكم •

بعض كهنة من أهل القرية وقصدوا ياناكوس • وأبلغوه بصوت خفيض كل طلباتهم ووقف ياناكوس متوكئا على حمالة يتلقى الطلبات ويسجلها مرتبة في رأسه •

كان قسطندي آخرهم • أتى اليه بعد أن انفض عنه الناس ، وهمس في أذنه :

— أن كنت لا تبحث عن المشاكل فحسب أن تذهب إلى الشيخ بطرياركانس لتسأله عن طلباته • هذا الخنزير يهودا قال له كلاما افقده صوابه ، وانطلق على اثر ذلك إلى بيته وهو يصر عناه في عصبية • من المؤكد أنه ذاهب ليجلد ابنه •

وسأله ياناكوس همسا :

— من أجل السلال ؟

— السلال بالطبع • يبدو أن الأمر سيستوء • ستواجهنا مشاكل •

— « أعرف كل شيء ، فقد سمعت طرفا منه توا • إذ فقد القسيس صوابه أيضا • عنتني من أجل هذا بيد أنني لا أعيا بذلك على الإطلاق • كلامهم يدخل من هذه الأذن ويخرج من تلك • لا تهتم وتنتزل عليهم التوابل • لقد ادبنا واجبتنا • »

وقال قسطندي وهو يشهد :

— ولا أنا .. عندي ما يكفي من المشاكل فلا خوف على مما يجد منها • أه يا له من يوم لا ينسى • انقضت على أخنك تحاول أن تقف عيسى وأخذت تصرخ في قاتلة :

« احقق • مسرف • فاضح طريق • أعرف عنك كل شيء • خربت الدكان من أجل أولئك الصوفس حملة الكوليرا الذين سقطوا علينا لسرقوا باسم الكنيسة • نحن جوعى والمفالك يتحلهم العوز ، وانت تشبه أيها الأثافي لتتبرع بالخبز والسكر والصابون • »

وقال ياناكوس ماخوذا :

— من الشيطان الذي أتياها بذلك في أول الصباح ؟

— « أتبه الشيطان الأحمر ، من غيره ؟ تذكر أنه ظل يقتفى أثرنا طوال ليلة أمس • وانتهر أول فرصة سنحت له ليقتل الأمر على كل من صادقه • القسيس وزوجتي وأخيرا الشيخ بطرياركانس • لقد جن جنونه حين اختاروه يهودا واختارونا رسلا • »

أسف ياناكوس لحال صاحب المفى وما يسانيه من عذاب على يده أخته وقال له :

— صبرا يا عزيزي قسطندي • صبرا • تظاهر بالغياء • وفي يوم الأحد عندما أعود سننتحدث في هذا الموضوع ثانية • إلى اللقاء •

نحس ياناكوس حمالة بطرف معناه • ومضى صاعدا الدرب حتى اختفى عن العين •

لعم قسطندي وهو يرقب ياناكوس :

— أنت انسان محظوظ ، بل أنت أسعدنا حظا • الدنيا تبسم لك • لا أطفال ولا زوجة • لهذا تنعم بالسلام »

وشرط ياناكوس رقيقه على كفه ولعم قاتلا :

— أه يا يوسفأكي • أنا تعيش حياة هائلة • تعيش كأخوين • هل حدث أن تنازعنا في يوم من الأيام ؟ أبدا والحمد لله • ذلك لأننا رفيقان طبيبان • أو حماران طبيبان أن شئت فالأمر سواء • ولا يؤذي أحدا • هيا أجه يمينا متغير طريقنا اليوم • ألم تسمع ما قاله قسطندي ؟ لي نقصد عمدة القرية اليوم • اتجه رأسا إلى العجوز لاداس الذي يجب بات كثيرا ويسيل لعابه حين يراك • • تعال لنصعد إليه ونفرغ من هذه الهجمة • ثم نخرج بصعدنا من القرية • وبذلك نتخلص من الأعيان والقساوسة ، عليهم اللعنة • سنكون وحدنا أخيرا • »

اتجه يمينا فاصدا بيت الشيخ البخل • وحدث نفسه قائلا :

— لم يبق لي غير مالولي المسكين أود أن أراه قبل الرحيل لأحدث اليه عن كاترينا • أود أن أريه ليأخذ حذره منها حتى لا يقع في شباكها • اليس هو الذي اختير ليبتل دور المسيح ؟ عليه إذن أن يحتلر النساء •

كان الشيخ لا داس جالسا وسط فناء داره ، فوق متعمد من الحجر مرتديا ثيابا بالية ، حافي القدمين ، معتدل المراج • وظهرت زوجته

العجوز ، الأم بنبلوب ، وقد احضرت اليه اناه مشروباً به فهوة الصباح الصنوعة من الشعير والحمص ، ووضعت فوق القعد أيضاً كسرة خبز من الشعير وطبق فنجان به زيتون ، وبينما كان الشيخ لاداس يحشى قهونه ويتناول طعامه أخذ في الحديث مع زوجه التي جلست قبالة على مقعد حجرى واجبة ، غير مكترنة ، تفزل جوربا ، كانت امرأة قدرة ولة الشباب كزوجها تماما ، حافية القدمين مثله ، لها أنف طويل مدبب بدت معه أشبه بطائر اللقلق الشرس العجوز .

في الأيام الأولى من حياتهما الزوجية ، يوم أن كانت في ريعان شبابها ، اعتادت أن تعارض زوجها وتشتبك معه في مشاحنات عديدة ، فهي سلفية عائلة تسرية من الأعيان وكانت تعرض على أنافة مظهرها وتحب البدخ ، ولكن رويدا رويدا اتلم جد الموصى ، وسئمت الروح ، وذوى الجسد ، وانزلت الى مهابو زوجها ، ولم تعد تجد لها الشكرى ، والفك وضعه ، وبدأت الأم بنبلوب بأن أفقت عن الكلام وتعتت بالصمت ، وبدأت تحاول أن تزجره من حين لآخر ، ثم اعتادت أن تكبت في نفسها ولا تقيس بيت شقة ، وبعد أن ماتت ابنتها الوحيدة كفت حتى عن الاتصال الى كلمات الأب لا داس التي تتدفق من فمه ، وكفت عن الغضب ، بل كفت عن الاعتراض تماما ، أصبحت امرأة ميتة ، تمشى وأكلاً وتنام ولكنها لا تعيش ، وأصبح لها من صفات الموتى وقارهم وغبطتهم وخلو بالهم .

جلس الأب لاداس برؤشف عصير الشعير وربق زوجته وهي تخبيل الجورب واجبة مستسلمة ، ثم شرع يحذلها عن مشروع خضم أرقه طوال الليل حتى أنه قضى ليلته واقفا على قدميه ، مشروع يملأ به خزانته بالأفراط والحوائث والقلائد وسبائك الذهب .

— أعددت المشروع لمى راسى وتبرته من جميع نواحيه يا بنبلوب ، ولم يبق غير التنفيذ ، ولكنى لا أدري من الذى أئتمته على السر ، ذلك لأنه ليس أمراً هيناً ، ويحتاج الى اثنين ، والعالم اليوم يا عزيزتى تسوده الكلاب ، والناس المسدوم النهم ، وأصبحوا جميعاً من المخالة التي تترسب بك الدوائر ، ترى من عساه أتق به ؟ حاجى نيكولا .. افلق يحاكى العظماء من أسلافه ، ويكنى أنه ناظر مدرسة ، فماداً تتوقعين منه ؟ بل أننا نشكر الله على أنه لا يخرج الى الناس يقدفهم بالحجارة كالجنون . وإذا كنت تفكرين في أخيه الأب جريجوريس فإنه انسان متلاف ، يتفق أمواله على الأكل والشراب ، أنه داهية شيطان ، ولكنه

لا يفكر إلا في جيبه . وهو لا ينفعتى كما ترين ، ذلك لأننى أريد أن أخرج صيب الأسد .. تهرين راسك يا بنبلوب ، افنك تعنين الشيخ بطريراكاس . يا الهى أنه احق بان يقتل سقفا . انه كرش وليس اسنار . حقا هو من عائلة لوية أبا عن جد ، ولكنه لم يفعل شيئاً في حياته . العرق ؟ انه لا يعرف له معنى . سمعت قصة تحكى عن نمل كبير يسمى بالتمل الملكى ، يظل مستلقيا ليل نهار ولا يعمل شيئاً ، وله جيش من العبيد يلعنوه ، وإذا لم يلعنوه أحد مات جوعاً ... وهو مثل عدا النمل . ليعنليه الله بمعصية هذه الأرض البدينة . وهو لا ينفعتى بدوره . أما عن رابع الأعيان ، كابتن فورتوناس ، فإنه ليس بانسان بل رق خمر في حالة غليان دائم . لذلك فقد فروت البحث عن شريك آخر . ولكن من يكون ؟ ألم تفكرى في احد يا بنبلوب ؟ » .

ولكن بنبلوب التي كان يتحدث اليها لم تسمع من كلامه حرفاً ... كانت غائبة عنه مع الجورب الذي تفزله ، غائبة في غبطة وخدر سماويين . رعمت عينها لحظة ، عينين كليتين لا تسمن من حزن أو سعادة . يخيل اليك كأنها تشخص الى الشيخ لاداس بنظرة تأقية تنفذ من جلده وعظامه الى ما وراءه حيث جدار البيت ، وإلى ما وراء البيت حيث الطريق والقرية والحقول ، ثم تمتد الى ما هو أبعد ، الى جبل ساراكيئا وإلى ما وراء جبل ساراكيئا ، بعيداً ، بعيداً جداً ، حيث البحر ، ثم إلى ما وراء البحر ، الى شيء لا نهائى راكد أسود بشرى الهام .. لتستقرا على الجورب . وبدأت من جديد تفزله في عجل وسرعة مترايدتين لتفزع منه في الوقت المحدد .

وفجأة رن صوت بوق ياناكوس . وفي وثبة واحدة كان الشيخ لاداس واقفاً على قدميه ، وعيناه الماكزتان للعلن ، وصرخ :

— انها العناية الالهية قد أرسلته الى . اليس كذلك يا بنبلوب ؟ تنوف فيه كل الصفات المطلوبة . حمال وطواف ينتقل بين القرى ، تصف كاذب ونصف لص . ونحن بحاجة الى سفار الموصوس ولا حاجة بنا الى كبار المخادعين ، عميل زعيم النش . هذا هو رجلى . سيحتج لنفسه نرداً يسيراً وبعداً استحوذ أنا على الثروة كلها دفعة واحدة .

وفرك يديه اليابستين ببعضهما وقد استغله الفرح - ووقف الحمار عند باب البيت . وهزول الشيخ لاداس ليفتح الباب . وصاح :

— تحيالى يا باناكوس . أهلاً بك ومرحباً يا صديقى . انها العناية

الالهية قد أرسلتك الى هذه الساعة . تعال . أسرع . اربط حمارك وادخل .
لي كلمة منك .

وتسارل ياناكوس في نفسه :

— يا للشيطان ، ماذا يضمر الشطب المجوز ؟ الحذر ، ياياناكوس .
وعقل حماره ودخل .

— أغلق الباب جيدا . أغلقه بالرنج حتى لا يسمعا أحد
عندى أسرار أريد أن أأمنك عليها . اجلس . حظك من نار . ستكون من
أهل النار . لن تمد يدك لأحد بعد الآن . لن تكون بحاجة بعد اليوم الى
الكذ . تدرع الطرقات كالمائل تحاول بيع بكرات الحيط سافرك
في الذهب . هل تسمعن يا صديقي ؟ الذهب .

وصرخ ياناكوس في حيرة وذهول :

— لا تصعد رأسى المسكين ايها الأب لاداس . وضع . اى ذهب ؟

— افتح اذنك واسمعي . هؤلاء الناس — حملة الطاعون الذين
مروا بقريننا — كانت لهم املالك قبل ان يستولى الازداد عليها . وهم
الآن لا يملكون حتى ما يقيم اودهم . حسن ، انصت لما أقول : الشيء
المؤكد انهم اخفوا معهم كل ما كانوا يملكونه من جواهر واقرام وقلائد ،
وخواتم الزفاف وسبائك الذهب هل فعلت الى اللعبة ياياناكوس ؟
— ليس بعد . . . ليس بعد . . . فهمي ثقيل . وضع لي الامر
قليلا .

— ان ما اعرضه عليك ياياناكوس عمل يستحق كل اهتمام . انه
الهام من لدن الله . في الليلة الماضية ابصرت نارا فوق جبل ساراكتا .
وهذا هو المكان الذي آووا اليه ليمشوا فيه هناك بين الكهوف . حسن .
شد حمارك واقصد الجبل من فوق . انفع في تفكيرك وادعهم جميعا رجلا
ونساء واطفالا . سيأتون حولك . الا تاذنكم الشلفة بأطفالكم ؟ لقد فكرت فيكم طويلا
يا اخوتي حتى لم يغمض لي جفن طوال الليل ، اقلب الفكر بحثا عما افعله
لحلاسكم . نادر الله بصيرى وهداني الى الطريق . آتوني بالبوهر التي
حسنتوها معكم . اعطكم في مقابلها كل ما يحتاج اليه الانسان لكي يعيش
— قمنا وشعيرا وزينا ونبيدا . انتم تعطوني ما لا يحتاج اليه الانسان .
قبلا من الحلى التي تملكونها يقينا واذا عاد ذلك على البوار فاني

لا احب بشي . . انتم يونانيون ، مسيحيون . لذلك فان الامر غير ذي بال
... الآن واضح ما أقول . هل تفهمنى يا غبي ؟

واجاب ياناكوس في تردد :

— بدات افهم بدات

ولم يستطع ياناكوس أن يشين أن كان الرب ام الشيطان هو الذى
وسوس الى لاداس المجوز بهذه الحيلة .

— انها كما أقول لك الهام من عند الله . ولكن لا تبع بشي . يجب
الا يشم انسان رائحة هذا الموضوع تعال يا صديقي ، فكر ، مستترى
وتسمع ، حتى أنت ايها الشيطان العنصر ، انسان مثلك — كم يحز في
نفسى أن ادرك تدرع الطرقات صبيغا وشنته تبلى شبائك كم
عمرك الآن ؟

— خمسون .

قال ياناكوس ذلك وقد أسقط من عمره عامين .

— حسن . ها أنت ترى ، زهرة عمر الانسان . لا تضع حياتك هباء
يانياناكوس . بوسعت أنت ايضا أن تبني لنفسك بيتا جميلا كاي انسان
يعيش حياته . وان تنزوج أي امرأة تروك في هذه القرية ، وتنجب
أطفالا — لا أحسب أن ابنة القسيس تناسبك على الإطلاق فضلا عن أنه
سيكون بوسعتك أن تمد يد المساعدة لأصدقائك . ستصبح المواد المحسن
في هذه القرية ، يقف لك الناس وينحون عندما تمر بهم حياة جديدة
يانياناكوس . حياة غنية القوم ، وليست حياة المتسول . كم من الأعوام
تقضيها على ظهر هذه الأرض ؟ فلنحاول على الأقل أن نحيا عمرنا في راحة
وهنا . الا توافقنى على ذلك ؟ عيا تروى في أمرك . الى أتحدث اليك بما
يعود عليك بالنفع . يجب ألا ندرع غيرنا بجنى الخير الذى تحت أقدامنا .
ان أخوف من أخافه هو القميس .

وقال ياناكوس بلهجة من لم يحسم امره :

— اننى أخشى الله . أخشى الله يا أب لاداس . هل من الصواب أن
نسلب اخوة لنا مضطهدين ؟

— نحن لا نسلبهم شيئا ايها الأبله ، بل نعيد لهم ما سلب منهم
يا غبي . اتنا نلذذهم من براتن الموت انهم يريدون أن يعلموا . هذه
المخلوقات النعسة تريد الحبيسة . انهم اخوة لنا . لي قلب مثلك وانى

لحزيرين من اجلهم ... اتنا نقايضهم ولا نسلبهم ... طبعاً نحن ننظر الى مصالحنا ايضاً قدر المستطاع ، اتنا نتاجر ولسنا بلهاء . ربح طفيف ، اليس هذا امر مقبول ... نعال اقتررب منى ... خذ كسرة خير .. اليك بعض حبات الزيتون ... كل . ستكون من الآن شريكين وصديقين . لذلك يجب ان نقسم معاً كل شيء ، ونقسم بالتساوى . لقد اقيمت بعض القهوة ايضاً ، اشربها .
ورد ياناكوس :

ـ لست جوعاناً . اشعر بموار . سأجلس هنيهة على المقعد وأهضم ما قلته لى ... انك تفتح أمامى طريقاً جديداً أيها الأب لاداس . دعنى استجمع ذكائى وأفكر ملياً فى هذا العمل قبل ان أحسم أمرى .
ـ المشكلة يا صديقى ان ليس لدينا متسع من الوقت ... المسألة منحة وعاجلة . لماذا الانتظار والتفكير ؟ اذهب من فوراً الى سارا كينا . ولا تضع الوقت هباء . انى أتوجس خيفة من القسيس كما اقول لك ... القسيس هذا الطائر الجارح .

جلس ياناكوس ووضع رأسه بين راحتيه . وأسند مرفقيه الى ركبتيه ولاذ بالصمت فترة طويلة . كان رأسه يغلى كالقدر ، وصندفاه يختلجان . واختلط الأمر فى رأسه ، وتشابكت الموضوعات . الأفراس التى تحلت بها الاف الاذان ، والقلائد التى ترتبت بها الاف النحور ، وخواتم الزفاف حول الأسابع ، والعملات الذهبية ... كل هذه ينتزع من أمحابه ليتجمع ويتكدس فى الصندوق الكبير الذى تملؤه فى كوخه الملايس البالية التى كانت تمتلئها زوجه الوفاء ... وشيئا فشيئا تراءى له بيت كبير يغلو شامخاً فى الهواء ... ليس بيتاً بل قصراً منيفاً . به حدائق غناء ، وفناء ، وشرفات وسرر ناعمة ، وأمرأة فى ريمان الصبا فاتنة الجمال ، يقامب شعرها ... وانفتح الشباب الكبير . وكان صباح يوم الأحد . الشمس ساطعة . وأعلن جرس الكنيسة بدء القداس ، وخرج ياناكوس فى سروال من الكتان الفاخر ، وفوق رأسه قلنسوة من تلك التى يلبسها الأعيان ، بتوكاً على عصا طويلة من العاج . يتقدم صوب الكنيسة بخطوات كلها استعلاء . ويهب القرويون وقفاً عندما يمر بهم . ويسرفون فى انحناءاتهم تحية له ... ثم رأى ياناكوس نفسه جالساً فى الغنا . ووقف قسطنطين قبائله فى احترام شديد . وإذا به يخرج من جيب صدره كيساً متخماً بالعملات الذهبية . تعال يا عزيزى قسطنطين . خذ هذه النقود حتى أرى الانسامة ترتسم على شفتيك . لقد عشت أياماً عصبية مع هذه النقطة

المساة بشقيقتى . وأتاك لتستحق ما هو أكثر من ذلك . ثم نادى مائولى نعال أنت ايضاً يمانولى . اشترت لك قطعة من الأغنام . خذها ولن تكون بعد اليوم خادماً لهذا الشيخ القعيد بطرياراكوس ... شررت أفكار ياناكوس حيناً هنا وحيناً هناك . ونراى له برج جرس كنيسة ليكوفريسي وقد علته ساعة كبيرة . تشبه ساعة كان قد رآها فى سميرنا . ونقشت حول واجهتها الكلمات التالية بحروف كبيرة من الذهب . « هدية من الوجيه ياناكوس بابا سوبلو المحسن الأعظم » . وشردت أفكاره فى طريق آخر ، واختفت الساعة . ولسع فى رأس ياناكوس سرج مطعم مغطى بالفضة ، وموشى بالذهب . أمسك به بين ذواحيه ودخل الحظيرة وهو يصيح : يوسوفاكى . اشترت لك السرج الذى وعدتك به . أنظر . ليس له نظير عند الملوك جميعاً . انتهت أيام الشقاء . لن تفعل شيئاً بعد الآن يا صغبرى يوسوفاكى سوى أن تأكل وتشرب . تخرج كل أحد بعد القداس تخطر فى الميدان مختلاً بسرجك الجديد تستعرض نفسك ايضاً ، يا امام الحميم . سيترجع الناس أمامك اجلالاً . يحيونك كأنك انسان .

وهقه ياناكوس عالياً . وهز رأساً تضخم كالفرع . وبدا كأنه يصحو من نومه . ونظر الى المرأة المعجوز قرأى اناملها تحوكم دون توقف غارقة فى عيبتها . ورأى الأب لاداس منتظراً وعينه متبنتان عليه .
وقال :

ـ مناصفة يا أب لاداس . على توفى ٩ . ومد له الأب لاداس بدء الطويلة كأنها الخشب :

ـ يك يا ياناكوس . موافق . مناصفة . حيناً هو التنى المغلول . فى المساء تأتينى بحصاد يومك من الجواهر وأعطيك أنا القمح والزيت والنبية حسب اتفاقك معهم . ثم نصفى حسابنا معا بعد أن تكون قد انتزعا كل ما يمكن انتزاعه . وكل ما طيك ان تفعله هو أن تسجل فى كراستك ما أخذته وما أعطيتك . حتى يكون كل شيء واضحاً لك . ولا تظن أننى سأبخسك حقك . وحتى تطمئن الى تفتى بك سأعطيك مقدماً ثلاثة جنيهات تركية ذهباً تحت الحساب .

وأخرج من جيبه كيساً مربوطاً ربطاً محكمًا بخيط سميك . ودس يده فى الكيس وأخرج على مهل ثلاثة جنيهات ذهباً واحداً واحداً بيدين ترعشان . فالتفت عليهم ياناكوس مسعوراً . وامتلت عيناه الرافقتان ببريق الذهب .

وقال المعجوز لاداس :

- ساحر ايصالا توقع عليه عند عودتك . هل توافق على هذا ؟ هل تثق بي الآن ؟ ان ما قلته لك ليس مجرد كلام في الهواء بل ذهبيا . اذهب حتى لا تخسر الوقت . مع سلامة الله .

ودفع ياناكوس ، وفتح الباب . وصاح خلفه :

- رعاك الله . اذهب ومعه لنا الارض .

وأغلق الباب وراه سريعا قبل ان ينوب شريكه في الجريمة الى رشده .

ووضع اصبعه على شفثيه وقال مخاطبا زوجته :

- بنيلوب ، ولا كلية . هل رأيت كيف عاجلت للوضوح ؟ هل رأيت مدى دهائي ؟ ان علي كحد الوسى . هل رأيت كيف اصطدته بسنارة الذهب ؟ اخسر ثلاثة جنيهات واحصل على ألف في مقابلها ... تعالى الآن اعدى الصندوق . عجلي يا عزيزتي .

بيد انها ظلت جامدة فوق مقدمها . واستمرت تغيظ دون اللطاع ، عينها متبنتان على الابر ، تلتقي وتفرق لتلتقي ثانية دون ان تبين شيئا . والجورب الذي تصنعه للاب لاداس يطول بين يديها . لم تكن ترى في الجورب ساق الجوز التحيلة بل عظيمة الساق نفسها طويلة جافة ينخرها الدود .

سار الحمار في طريقه وخلفه ياناكوس غارقا في أحلامه . كان يحس بنقل حزين في جانيه الأسر ينقل قلبه . ولكن في جانيه الأيسر نقل آخر حبيب الى نفسه ينقل جيب سترته . وترنح في مشيته كأنه تمل . حينما يفلن من حجر الى حجر . وحينما يتوقف فجأة ويسبح في بحر تأملاته . واستدار الحمار الصغير ينظر الى صاحبه دهشا . ثم وقف جامدا في مكانه ينتظره .

وتشم ياناكوس :

- ليت آتى لا أرى أحدا ولا يراى أحد . سر يا يوسوفاكي وأسرع . لم توقف ؟ اتجه الى هذا الطريق . لقد غيونا طريقنا . حدث شي . كأنه حزم الرعد يا عزيزي .

وهز الحمار رأسه متحيرا . فهو لم يفهم شيئا . الى أين ينتهي بهما هذا الطريق ؟ ترى ماذا حدث لسيدك ؟ ما أقرب بنى البشر - انهم لا يعرفون أبدا ماذا يريدون .

- ليتشى لا أرى أحدا حتى ولو كان مانولى لدى عمل أهم واخطر الآن . لنذهب الى الجحيم هو وكاترينا تعالى يا يوسوفاكي . أسرع .

ولم يكد يبلغ أطراف القرية حيث لا يوجد بعدها غير الحفلول حتى وجد نفسه وجهها توجه أمام مانولى ورفيقين له ، يحمل ثلاثتهم الكابتن فوروناس . كانوا يسرون بخطى قسيرة وقد اطلقوا يردوسهم . وسار في مقدمتهم حسين مرتديا طربوشه الأحمر ، وسيفه معلق بخصره .

وشد ياناكوس حمالة جانيبا ليخسح لهم طريقا . وسار بمحاذاتهم وراى السكاكين النعس فاقد الوسى ، مشجوج الرأس . وقد ربط بغوطة بيضاء مخضبة بالدم ...

- ايه يا رفاق . ماذا أصاب قبطانا ؟ قل لي يامانولى .

أجاب مانولى :

- سقط الرجل النعس فوق سلم الألفا وشجيت رأسه لو رأيت خالتي ماندالينيا فقل لها ان تحضر لتغير له الضمادة انها تعيد هذا العمل فقد كانت قابلة قبل ان تشغل بتكفين المولى .

وتشم ياناكوس :

- مسكين لا بد أنه كان مخمورا للغاية كعادته .

واستدار حسين وفقه لسماعه هذا الكلام . وقال :

- ألا تحزن لما أصابه أيها اليونانى الفخر . شج رأسه . وسوف ييرا ثانية . اليونانيون يتخيزون بقوة بتيانهم . وبخاصة المرء منهم .

وقال ياناكوس :

- مانولى عدى كلمة لا بد ان أقولها لك .

وأجاب مانولى :

- وأنا أيضا . ولكن يجب أولا ان نذهب بالقبطان الى مخدعه . اتبعنا وانتظري أمام الباب . ساعدوك اليك .

وساروا بخطوات متأنية ، إذ كان الكابتن يش وتزوج مع كل حركة . وعندما وصلوا الى بيته أدخلوه . وربط ياناكوس حماله تحت ظل شجرة زيتون ، وانتظر .

— حقا كانت ليلتنا حيلى بأحداث جسام . ترى ما الذى ستمتخض عنه ؟
ليحفظنا الله .

أخرج كيس التبن ، ولف سيجارة ، وانكا على جذع شجرة الزيتون ،
وبدا يدخن ليزجي الوقت . كان أسفا اذ تحدث الى مانولى ، ورأى فى
حديثه مضيقا للوقت . فالعمل الخطير الذى تعهد به يقتضى السرعة فى
اتجاره . وتحسب جيبه ، وذاعب العملات الذهبية بأصابعه وأبتسم .
وتتمم قائلا :

— حمدا لله . لم أكن أحلم . كم من مرة رأيت نفسى فى أحلامي وأنا
أقبض فى يدي على عملات ذهبية . . . ثم أبحث عنها مع الصباح كالمتعوه
تحت وسادتي . ولكن الحمد لله ها هى موجودة معى هذه المرة .

وظهر مانولى عند عتبة الباب . وقف يمسح جبهته ، وأبصر
ياناكوس تحت شجرة الزيتون واقترب منه .

— صديقنا فى حالة خطيرة . لقد نال منا التعب .

وقال ياناكوس :

— انى فى عجلة . أريد أن أحدثك فى موضوعين ثم أعصرف . فعندى
أعمال كثيرة اليوم . . . اسمع يامانولى ، أول شيء ، نصيحتى لك ألا تعاط
اليوم بيت سيدك . فهو يعرف موضوع السلال . واحتاج هياجا شديدا ،
وأخذ عصاه وخرج لينكل بابنه . لذلك ابق بعيدا حتى تمر العاصفة .

— اذا كان الأمر كذلك اذن فلاذهب لأخذ نصيبي . فهى غلطتى أنا
أيضا .

— وهى غلطتى أنا أيضا ، ولكننى لن أذهب . قد تقول عار عليك
هذا . بيد أننى لن أبال . . . انتظر ، لا تصرف ، فتمه موضوع آخر .
كأثرينا الأرملة تنصب شيئاها من حولك وتتمنى أن توقع بك . وقصت
على أنها تراك فى أحلامها . وكانت بالأمس تلقى اليك بنظراتها وأنت فى
الميدان ، ولكنك لم تلاحظ ذلك منها بطبيعة الحال . غد حذر يامانولى فإن
كأثرينا شيطان فى رى امرته . أنها قادرة على أن تقوى الأساقفة
فكر قليلا فى عيد القيامة المقبل عندما تمثل دور المسيح لا تدنس
نفسك .

أطرق مانولى برأسه ، وأحمر وجهه خجلا . ذلك لانه فى الليلة

الماضية رأى الأرملة فى منامه أيضا . انه لا يذكر كيف كان ذلك . ولكنه
لاحظ بعد ما استيقظ دوائر الأرق حول عينيه .

وتتمم قائلا :

— سيغينى المسيح .

— انه لا يستطيع أن يفعل كل شيء بنفسه يامانولى . يجب أن تفعل
أنت أيضا شيئا من جانبك اسمع أنا فى عجلة من أمرى . جاء دورك .
أحسب أن لديك ما تريد أن تقول لى .

وتردد مانولى ، فهو لا يدري كيف يعرض الأمر على صديقه دون أن
يؤذى مشاعره . وأخيرا بدأ يتكلم .

— إنسالك الصفع عما ساقوله لك . ولكننا نحن الأربعة لنا نفس
الهدف ، وهو هدف شريف مقدس . من الآن كلنا شخص واحد
لو خطا أحدها خطوة خاطئة فعل الباقين أن يحولوا دونه وهذا الخطأ . اذ
أن هلاك أحدها يعنى هلاكنا جميعا . ومن هذا الفهم استمد شجاعتي . . .
بدأ ياناكوس يفك وثاق حماره وهو يقول :

— تكلم يامانولى . لا تتردد وادخل فى الموضوع فأنى متعجل كما قلت
لك .

وأصل مانولى كلامه فى رقة ، وقد أمسك بذراع ياناكوس :

— ها أنت ستعود الى عملك ستبدأ تطوافك من جديد
استحلفك باسم المسيح ألا تنسى نصيحة القسيس لنا بالأمس

وصاح ياناكوس بصوت بدت فيه خشونة مبالغتة :

— أى نصيحة قالها لنا القسيس بالأمس ؟

— أرجوك يا ياناكوس ألا تأخذ الأمر على محمل سب لا تنقص
اليزان على سبيل المثال ، ولا

— أحس ياناكوس بالضيق يشرب الى نفسه . فك وثاق حماره بعنف ،
ولوى زمامه حول ذراعيه بحركة عصبية وقال :

— حسن ، حسن . . . انه يظن الأمر سهلا ، وقد استه . . . ماذا سيفعل
القسيس لو نصحته أنا بأن يشد الحزام على بطنه ولا يتخم معدته ، وأن يتصدق
بما يقضى من حاجته على الفقراء ؟ وإن يكف عن مزج المراهم والدقيق

أرسلت حول غيبك دواتي من أثر السهاد ... ولعلما يحين الوقت
للمثل أماناً دور المسيح المصلوب إن يكون قد مضى على زواجك وقت
قويل - يسفحوك على الصليب ، بيد أن هذا سيفيني الكثير بالنسبة
لك - متعرف أن هذا كله ليس إلا لعبة تؤذيها ، وإن أذى صلب هو
أحاسيس آخر سويك . وفي اللحظة التي تصعب فيها وابتعد عن الصليب
إيلي ، إيلي ، لا تشيعني - متقول لنفسك - مساعد إلى البيت بعد قليل ،
عقب انتهاء الصليب ، وستكون لينيو في انتظارك ... أعدت لك الله
الداوي - لتغسل به ، وملابس لطيفة بدلاً من الملابس التي اتسخت ، ثم
نهران معا إلى مخدعكما بعد الصليب ... حزن بك أن تصمت يا عاتولي .
واقف عن تلقيني الدروس - فهذا لا يليق .
أسقط في يد مائولي وهو ينصت إليه ورأسه متكس فوق صدره ،
قال لنفسه :

والتوبل لم تحدثها جميعا ليعطيهما لك دواء لكل الامراض هذا الاقاق ، ألم يحدث في العام الماضي ان هذا القسيس نفسه ترك المعجوز ناتوديس لثلاثة ايام في الغراء ميتا دون ان يواره التراب حتى فاحت منه الرائحة النتنة ... كل هذا لانه اصر على ان يدفع له الفورية حقه متمسكا بوعده اخرى ثم يحدث ان يباع في المزاد العلني بستان كريم كان يملكه بروتينوس المروجي السكسين له مليون في المبلغ زهيد . وفي هذا العام نفسه على وجه التحديد - تم وقبل الاسبوع السابق - بغدلي - الم بوع اسعاره : تدفع كذا مقابل التعميد ، وكذا اجرا لمراسم الدفن ، وأعلن انه بدون هذا لن يعمد ولن يقيم قداسا لزواج أو وفاة ، ثم بعد ذلك لا يجعل ، صاحب الكرش الدين ، ان يسقى النصح لي ، انا الذي لا أجعل مليئا واحدا ...

بيد أن الغضب كان لا يزال يعتدل بداخله . فاستدار ناحية صديقه ثانية وقال له :

— على التساجر أن يسرق الناس يا مانولى . إما واجب القديس . إلا يسرقهم . هل رأيت؟ يجب عليك ألا تخلط بين الأمرين . أتمنى لك زواجا سعيدا يا مانولى ... هيا بنا يا يوسفاكى .

بقى مانولى وحيدا . كانت الشمس قد علت أفق السماء . والناس والثيران والكلاب والحير كلها مشغودة الى وقاق عملها اليومى . ووضع الشيخ لاداس نظارته على عينيه ، وبدا يادى البشر ، يخط فى تان وانتياب ايصال الجنيهات التركية الثلاثة . وفى اللحظة التى كان فيها القسيس تائرا يجد فى البحث عن الشيخ بطرياركاس أثناء شخص يسأله أن يعد قداسا ليت . وهما غير القسيس وجهته . أما السكاكين فوروناس فقد كان طريق فراشه . يئن ويتوجع . ويصب اللعنتات على الأم مائدالينا وهى تغير له الضمادة لتربط رأسه المشجوج برياط جديد .

وكانت ليتيو جالسة بجوار النافذة . تدندن وهى تخط آخر ملأمة من مفروشات الزفاف . كان قلبها يرقص بين جوانحها . يعلى الى حلقةا . ويهبط الى بطنها . ويقفز من هذا الثدى الى ذاك يدغدغها ...

سمعت ليتيو أصوات مشادة فى حجرة سيدها بالدور العلوى . كان الأب يصرخ والابن يرد عليه . يتحركان الى أمام والى خلف كأنهما مشتبكان فى قتال . والسقف يهتز من تحتهما . بيد أن ليتيو التى جلست متكئة على النافذة لم تعبأ بشجارهما . بل إنها لم تعبأ حتى بسماع صرخات سيدها . فهى مستحرة قريبا من رفة سلطانه عليها ، والقيس على وشك أن يتكسر لترحل مع حبيبها مانولى . يعيشان معا فوق الجبل بين الأغنام . فقد لقيت الكثير على أيدي العجوز بطرياركاس رغم أنه يحبها كابتنته تماما . ويبحث لها عن زوج . وأعطاه صداقا سخيا . إلا أنها تشمت منة ، ولا تحب أن تراه ثانية .

وفى هذه اللحظة ازداد غف الشجار . وتردد رنين صراخ الشيخ عاليا واضحا . وإعارته ليتيو أذنها . كان يصرخ قائلا :

— ساطل أنا وحدى ما حبيبت صاحب الكلمة لا أنت . إنها نهاية العالم .

اختنقت العبارات فى حلقة . وأخذ يتهته . واختلط كلامه ببعضه

ولم تمد ليتيو قادرة على أن تثنى كلامه بوضوح . ولكنها سمعت بعد لحظة العبارة التالية .

— لا . لا . لا أريد منك أن تتبسط فى علاقتك مع مانولى أكثر مما يلىق . لا تسأله أنه خادم وأنت سيد . حافظ على وضعك ومركزك . وغضمت ليتيو :

— هذا الشيخ الفخر . الخنزير العجوز . انه لا يحترم حتى شيمته . يأتي بهذه الماهرة كاترينا ويسيل لعابه من أجلها . وبعد هذا لا يريد مانولى حتى لا يفسد عليه ثراه ... أف له ... أريد أن أبعد عنه ولا أراه ثانية . ولا أسمع شيئا عن هذا العجوز المقرز .

هبت فجأة واقفة . وأحسنت أنها لم تعد تطيق البقاء فى الحجرة . وخرجت الى الفناء لتفلس عن نفسها وهى لا تزال تغصم :

— هذا الوحش العجوز . ليتة بيتلى بصمية .

توسعت الفناء . وأخرجت من البئر قليلا من الماء . غسست فيه رأسها . وأحسنت بعدها بشئ من الهدوء . كانت صغيرة السن . مثقلة الجسم . مكتنزة الشفتين . بسامة اللحظ فى حيوية . لها أنف اقنى كأنف سيدها العجوز . سمراء شديدة السمرة . تفيض الغراء . وكانت تقف كل مساء عند عتبة الباب . حتى اذا مر بها وجل مالت بجيدها فى دلال تستطلمه وتتلاءم فى حنان ورقية . كفل يخفى مغالبه . وينهاى للوتب . ثم فجأة يشفق على فريسته ويخليها . وينظر بنهم الى غيرها ... يحدث دوما هذا الطراد القاسى الصامت مع الفسق عند عتبة الباب . وبعد قليل . عندما يجن الليل . تكف ليتيو عن عراكها . وتثوب الى حجرتها ثانية منهكة القوى .

ولم يكد دولها يظهر عند حافة البئر وتخرجه لتفلس فيه وجهها الملتصق حتى افتتح باب الفناء ودخل مانولى :

هرولت الفتاة . مندفة نحوه بحركة تلقائية . ثم كبحته جماعها فجأة . وقالت له :

— مرحبا بك يا مانولى .

وقفت أمامه تملأ عينها منه بنظرات تتحرق ولبة فيه . وبظنرة سرية كأنها ومضى البرق . تطلعت الى دواعيه ورقبته وصدره وفخذه وركبتيه . وأخذت تقدر مدى عفوانه وشدة تحله وكأنها تناهب لصارعته .

لم ينس ماثولي بيت شفة . واجتاز القناه بغطى واسعة . اسند
غصاه في أحد الأركان وشرع يصعد الدرج الحجرى المؤدى إل حجرة
سيده . فقد سمع أثناء مروره صياحا عاليا ، وتمجل تصيبه من المعركة
بين السيد وابنه .

كان ماثولي ياتى الهم والتعب . وأسقط فى يده حين أبصر لينيو ،
فهو الشخص الذى كان يود لا تقع عينه عليه فى هذه اللحظة . وحت
أخطى قاصدا الدرج ، بيد أن لينيو لم تثبت شيئا من سلوكه هذا .

وقالت :

— إيه ، أنا هنا يا سيدى . ألم تلحظنى ؟

ورد عليها ماثولي بصوت جميل :

— صباح الخير يا لينيو . معلومة قانى فى عجلة . جئت لأرى السيد .

وردت عليه لينيو بصوت خفيض :

— دعه وشأنه . ماذا تريد من هذا المخلوق العجوز الفذر ؟ انه فى
عراك مع ابنه ووريثه . دعهما يبقا كل منهما عين الآخر . تعال هنا
واسمع ...

وأمسكت بيده لتقوده الى داخل البيت . وأخذت تحسسه وتشمه
بأنفها ، وتدور حوله ، وتمسح به ، ثم فجأة اودت الى الوراء وقد احمر
وجهها .

وقالت :

— متى سنزوج ياماثولي ؟ فقد مل الشيخ الانتظار .

وقال ماثولي وهو يحاول الأفلات منها :

— وقتما يشاء الرب .

لقها حزن فجائى ، وقالت :

— ائى أركع له سبحانه متضرعة اليه . ولكن سله أن يعجل بمشيئته .
ان مايو على الأبواب . والناس لا تزوج فى هذا الشهر . هل يجب الانتظار
حتى شهر يونيو ؟ أو يوليو ؟ كل هذا وقت ضائع .

— الوقت فى صالحنا يا لينيو . لا تقلقى . لاداعى للمجلة فلن يتقدم بنا
السن . وعندى عمل أريد أن أفرغ منه أولا . وبعد ذلك اذا شاء الله ...

استولت الدهشة على لينيو وقالت :

— أى عمل ؟ أى عمل هذا ؟ هل لديك عمل آخر غير الرعى ؟

وقال ماثولي وهو يقترب شيئا فشيئا من السلم الحجرى :

— نعم ، عندى عمل ...

— أى عمل لا مع من ؟ لماذا لا تريد أن تخبرنى ؟ سأكون زوجك بعد
قلييل ويتبعى أن أعرف .

— أريد أن أرى السيد أولا . ثم أخبرك بعد ذلك ... يجب أن أتحدث
اليه أولا يا لينيو ... دعبنى أذهب اليه .

— ماثولى . ضح عينيكي فى عيني ولا تخفضهما . ماذا بك ؟ ماذا
أصابك ؟ تغيرت فى يوم واحد يا حبيبي . ماذا فعلوا بك ؟

تظرت اليه مفتحة حزينة ، ثم استبد بها الضيق . وأخذت أنفاسها
تتلاحق سريعا ... ويكت ...

— حسدك أحد الناس وسحر لك . لا بد وأن أحضر العمة ماندالينيا .
ستحضر سمف الجملة المزينة وتحرقه بخورا . وتردد التواويد لتطرد عنك
عين الحسود ياماثولى ... تعال الى يا كنزى فعندى ما أريد أن أفضي
به اليك ...

أحس ماثولي بأنفاس القصة حول رقبته . انبعثت رائحة نفاذة من
جسده المغطى بالعرق . ورويدا رويدا اقترب منه نديها النافران المتلثان
وداعيا يده . وتدفح الدم حارا فى عروقه .

قالت له لينيو فى حزم :

— لا تنصرف . سنأتى بالأم ماندالينيا . فانا لا أطيق أن أراك
متجها هكذا .

ودخلت لينيو الى حجرتها . وسرعان ما ارتدت أحسن ثيابها ،
وعصبت شعرها بمتدبيل وملأت سلة ببعض البيض الأحمر . وقليل من
البن والسكر وزجاجة تبييض لتدفع كل هذا اجرا للمجوز ماندالينيا مقابل
أعماها . وعادت قرأت ما لوى قد ارتقى السلم ووقف مترددا أمام باب
سيده .

وصاحت به .

« لا تنصرف ، لا تنصرف ... سأعود اليك » .

خفت أصوات الشجار . لا بد أن ميشيل غادر الحجر . وكل ما وصل إلى أذن ما نولى من خلال الباب وقع خطوات المعجوز الذى يذرع الحجر جبهة وذهابا ، يقغم بكلمات من بين شفثيه .

دفع الباب ودخل . ولم يكذب بصره المعجوز حتى اندلع نحوه . وزار بأعلى صوته واقفا يده ليلطمه بها .

« انها غلطتك » أنت الذى أدت رأس ابني . أنت الذى أفسدته على ، فلم يعد به شيء من طبايعي ودمي ، أنت ايها المتشرد .

واسودت عروق صدقيه ورقبته ويديه . وفتح قميصه ، وكان صدر المعجوز يعلو ويهبط كأنه يؤذن بالانفجار . وسقط فوق حشية في ركن القاعة ، واستند رأسه بين راحتيه وأخذ يسعل ويخرج من حلقه حشرة مسوعة .

استند مانولى إلى الجدار يرقب السيد المعجوز في صمته ، وانتابه احساس بالندم وقال في نفسه :

« ما أفسى قلب الانسان . أي حيوان كاسر هو ... حتى أنت ايها السليح تمجز عن أن تحيله إلى كائن مستأنس اليق » .

وفجأة نهض الشيخ واقفا ، فقد استعاد قوته ، وأمسك بفتاق مانولى .

صاح ثانية ، واللعاب يتناثر من فمه ليفرق وجه مانولى ورقبته :

« انها غلطتك . غلطتك أنت . أتيت بك من أجل الجبل لأزوجه بعزيرتي ليليو التي أحبها كابنتي . وأبقيتك معنا طول أيام المطلة . نسيت أنك خادمي ، وأجسستك إلى مائدتي يوم أحد السعف . والان انظر إلى مدى عرفانك بجميلي يا خائن . أفسدت البيت وبلدت فيه الشقاق . أدت رأس ابني ، وتسلمت إلى مخزني وأنا نائم وسرقتني . يا لص . يا لص . ويبدو أنك لم تقنع بذلك ، فها هو ميشيل يعارضني لأول مرة في حياته . يقول لي « أصبحت رجلا الآن . سأفعل كل ما يحلو لي » .

أسمع هذا ؟ يا للوقاحة . يقول انه سيفعل كل ما يحلو له . وعندما صحت قائلا : « لا تخاف أبناك ؟ » تواتيه الجراءة ليرد على . يا للسفالة . . ويقول « أنا أخشى الله ولا أخشى سواه » . لا . هل تسمع كلامي ؟ لا احد سواه . هذه كلها حيلك أنت يا مانولى . لماذا لم تكسر ساقيك يوم

أن تولدت من الجبل لتشهد حفل عيد القيامة عندي ؟ .. لماذا لا تنطق بكلمة ؟ لماذا تنظر إلى يهاتين العينين الواسعتين ؟ تكلم انطلق فاني أكاد أنفجر » .

ولم يهدأ قال مانولى :

« سيدي . أتيت أستاذك في العودة إلى الجبل » .

فتح المعجوز عينيه وحلق فيهِ وارجلت شفتاه وتهته قائلا :

« ما هذا الذى تقول ؟ أعود إلى الجبل ؟ أعد ما قلته على سمعي ثانية إن كان لك وجه لذلك » .

« أتيت يا سيدي أستاذك في العودة إلى الجبل » .

انفتحت أوداج المعجوز ثانية وصاح يقول :

« وماذا عن الزقاق ؟ متى سيتم عقد القران ايها الاحمق ؟ ق مايو ؟ مايو هو الشهر الذى تتزوج فيه الخير . معنى هذا أنه سيمقد في ابريل . هل أتيت بك من أجل هذا ؟ أنا صاحب الأمر والنهي هنا » .

« أهملنى قليلا يا سيدي » .

« لماذا ؟ ماذا تريد ؟ ماذا أصابك ؟ »

« لم أنهيا بعد يا سيدي ... »

« لم تنهيا بعد ؟ ما معنى هذا ؟ »

« أنا نفسي لا أعرف يا سيدي .. انظر .. لست أدري كيف أعبر عما في نفسي . ولكننى أشعر اننى غير مستعد .. روي .. »

« أي روح ؟ أظنك جنت ؟ .. اسمعوا ما يقول .. انه يقول روحه .. أنت أيضا لك روح ؟ »

« ماذا عساي أن أقول لك يا سيدي ؟ ثمة صوت بداخلي .. »

« والخرس » .

مد مانولى ذراعه ليفتح الباب ، فأمسك به المعجوز .

« إلى أين أنت ذاهب ؟ ابق هنا » .

وبدا يذرع الغرفة ذهابا وجيشة ، بطولها وعرضها . ويضرب المنضدة بجمع يده ، وبعض على شفثيه .

« ساموت اليوم . ستقضيان على أنما الانسان . هذه هي النتيجة

بعد كل ما فعلت - ابني لا يخافني ، ويقول انه يخشى الله وحده . .
وهذا - هذا الخادم القذر يحدثني عن روحه . .

استدار للرأى وقد ثارت ثائرتة :

- « أخرج - اذهب الى الشيطان » أخرج - أغرب عن وجهي . اذا
لم ينم الزفاف هذا الشهر فلن تبقى في خدمتي بعد ذلك . ساطردك من
بيتى . سأتى لعزيزتى لينيو بزوج آخر خير منك . . . غر . . . هل تظن
الا نظير لك .

فتح مانولى الباب ، وفزع السلالم كل درجتين دفعة واحدة ، وألقى
نظرة فى الفناء . لم تعد لينيو بعد . فحمل عصاه وأخذ طريقه عدوا الى
الجبل .

توقف مانولى ليلتقط أنفاسه عند مشارف الغربة . على مقربة من بئر
القديس باؤل . وهو بئر قديم مشهور . تحيط به أشجار البامبو الشامخة
وله حافة من الرخام المنحول . حرت فيها الحبال التى تحمل الماء صعودا
وهبوطا حتى تركت أثرا عميقة زادت من عمقها القرون الطويلة . كانت
الفتيات تصعد ساعة الفسق ، يستخرجن منه الماء البارد . وقيل انه بئر
له معجزاته . ماؤه يشفى كثيرا من الأمراض - أمراض المسفة والتكدب
والكليلين . واعتاد القسيس أن ياتيه مرة كل عام ، فى عيد الفطاس ،
يباركه عندما تعلن الساعة منتصف الليل . ويحكى أن القديس باؤل ،
قديس سيزاريا ، الذى يحمل المعب ويوزعها على الأطفال فى جميع أنحاء
الأرض ، يمر بهذا البئر ، على حد زعمهم ، ويشرب من مائه قبل أن يبدأ
جولته ليلة رأس السنة . ولهذا السبب سماه الناس بئر القديس باؤل،
ولهذا أيضا اعتبروه بئرا يحقق ماؤه المعجزات .

بلغت الشمس سبتيا . وكانت أشعتها تسقط ثقيلة على الأرض .
كانها شلال ينهمر ماؤه دوما . وارتفعت السبائل فى الحقول ترتوى بأشعة
الشمس وتمتص منها غذاءها . وأوراق شجر الزيتون يقطر منها الضوء .
وعلى البعد بظالمات جبل ساراكيئا ، تخال الدخان يتصاعد منه . ونفثه
غلاظة شفاقة من الضوء فى لون الذهب . ووسط هذا الذهب تظهر الكهوف
فائرة أفواهما السوداء . وعلى القمة تقف كنيسة القديس ايليا . وقد
صهرها الضوء الذى يبهر الأضراس .

أمسك مانولى بالجبل وأخرج بعض الماء . وغمس وجهه فى الدلو .
وشرب منه . ثم قسح قميصه ومسح العرق من فوق صدغه . واستقر

١٠٨

بصره على جبل ساراكيئا . وطاف بخاطره وجه القسيس فوتينس الزاهد
العالمى الذى يتأرجح بارا وضيء كالشمس ذاتها . حلق مانولى فى الطيف
الذى يتراعى له . وهو لا يفكر فى شيء . ولا يسأل نفسه شيئا . وقد
ذاب هو الآخر مع أناملته الوردية ، كما ذابت كنيسة القديس ايليا ، وسط
الضوء الحارق .

ظل على حاله هذا وقتا طويلا غائبا عن الوجدان . وفجأة أحس بوخر
الأم مغزعة فى يديه وقدميه وقلبه وكأنه صلب فوق الضوء وبعد
شهور مضت ، طافت بخلفه ، على غير انتظار ، لحظة الوجود هذه التى واثته
أمام حافة البئر . وأحس فجأة أن هذه اللحظة كانت أعظم لحظات حياته
بهجة . لا ، انها ليست بهجة ، بل شيئا آخر أعمق وأقسى ، يتجاوز كل
حدود البهجة والألم عند الانسان .

وعندما مالت الشمس للغيب ، نهض مانولى ليرتقى جبل العقراء
عائدا الى كوخه حيث يرعى الأغنام .

وتتم قائل :

- يجب أن أذهب لأنام . فقد اقترب المساء .

استوى واقفا ، وشد حزامه ، واللفظ عصاه . كان متلهيا الى الحاق
برفاق وحده - الأغنام والكباش والكلاب . وآسى فى نفسه شوقا الى
رفيق الرعى نيكوليو ، هذا الصبي الصغير الشمس ، الذى لوحته الشمس
بشعره الموج .

ولم يكده يبدأ مسيرته حتى سمع فجأة صوت حفيف عيدان البامبو .
وسمع وراه صوتا صاقيا يقول فى ضراعة واغواء :

- آه يامانولى ، هل تخافنى الى هذا الحد حتى تهرب عندما ترائى ؟
انتظر ، لى كلمة معك .

واستدار ، فرأى كاترينا الأملة تخرج من بين نبات السمكاد تحمل
جرتها على كتفها . وطافت عيناها ، فى نظرات سريعة ، فوق جيدها
المرمرى اللامع . وفراعيها العازبتين الملفوفتين ، وشفتيها الورديتين
تلوحهما الابتسامة .

ونفض من طرفه وسأله :

- ماذا تريدين منى ؟

أسندت الأرملة جرتها إلى حافة البئر ، وقالت بصوت كله حنان وشجور :

— لماذا تلاحقني يامانولى ؟ أراك كل ليلة في أحلامي . لا يهنا لي نوم بسببك . وأنتك فجر اليوم في حلمي وقد أمسكت بالقمر تقطعه شرائع كما تقطع التفاحة وتقدمها لي لأكلها . ماذا بيني وبينك يامانولى ؟ لماذا تلاحقني ؟ إن رؤيتي لك في أحلامي تعني أنك تفكر في :

ظل مانولى غاضبا طرده . أنه يكاد يشعر بأنفاس الأرملة تحتويه ، أنفاسا حارة حارقة . وبدأ صدغاه يختلجان بشدة . ولم يقل شيئا .

وقالت الأرملة بصوت دافئ طروب فيه أثر بحة خفيفة :

— ها هو ذا وجهك يحمر . أنا على صواب يا عزيزي مانولى ، وأنت تفكر في حقا . وأنا أيضا أفكر فيك . . . وعندما تجول ذكراك بخاطري أحس بالخجل كأنني أقف عارية أمامك . . . نعم كأنني عارية ، وكأنك أسي وقد أبصرتني .

وأجاب مانولى دون أن يرفع بصره من على الأرض :

— أفكر فيك حقا . . . أفكر فيك وأناي آسف على حالك . لم تبرح صورتك مخيلتي طوال الأسبوع المقدس . أسألك الصلح .

جلست الأرملة فوق حافة البئر . وأحسبت بحلاوة وعدوية ، بيد أنها شعرت أيضا بفتور لا يقاوم . لم تعد ساقاما تقويان على حملها . ولادت هي الأخرى بالصمت . وانحنيت فوق البئر ، ورات وجهها فوق صفحة الماء الخضراء الداكنة عند القاع . وفي رتشة خاطفة خطرت برأسها كل حياتها الماضية : فتاة يتيمة ، ابنة لقسيس بلفة قاصية ، التقت بزوجها في عيد العذراء . كان أكبر منها سنا بكثير . وخط الشيب رأسه ، بيد أنه ثرى وصاحب أملاك ، وهي فقيرة معدمة . اتخذ منها زوجا له ، أو اشتراها بعبادة أصح . وآسى بها إلى ليكوفريسي بعد الزفاف . كان يتمنى أن ينجب أطفالا ولكن لم يكن ذلك في قدرته . ومات الزوج . وترملت كاترينا وهي في العشرين من عمرها . ولم يعد يطمئن بها فراش . وكذلك فتية القرية ، فبعد وفاة زوجها لم يعد يطمئن لهم جفن . كانوا كلما انتصف الليل يحومون حول بابها وتحت النوافذ وفي فناء الدار ، يفتنونها أغاني الغزل ، ويشهدون كالمجول . وكانت هي الأخرى تنتهد داخل بيتها . وواصلت استشهادهما عاما وعامين . وذات مساء ، في يوم من أيام السبت ، فأس بها الكيل ولم تمد تحتل المزيد . في هذا اليوم غسلت شعرها ،

وشمخته برزت شجر الغار . وتألست جسدها ، وأحسبت بالأسى من أجله . وقتحت بابها ، ودخل فتى صغير . كان أول من تصادف وجوده ببابها . وفي ساعة السحر ، وقبل أن يصحو أهل القرية من نومهم ، خرج الفتى من بيتها . وشعرت الأرملة براحة غامرة . وأحسبت أيضا أن أيام الحياة معدودة ، وأنها لحظية كبرى أن ندمها تقلت من بين أيدينا دون أن نستشع بها . وعادت فتح بابها في الاسميات التالية كلما انتصف الليل .

وتنهضت واقفة ، واختفى وجهها من على صفحة الماء الأخضر الداكن .

سألت مانولى :

— لماذا أنت حزين من أجل يامانولى ؟

— لا أعرف يا كاترينا . لا تسأليني . ولكنني أصدقك القول ، أتي حزين من أجلك كأنك أخت لي .

— هل أنت خجل مني ؟

— لا أعرف ، ولا تسأليني هذا السؤال . أتي حزين من أجلك .

— ماذا تريد مني ؟

وصاح مانولى وقد توجس خيفة وتهيبا للهروب :

— لا شيء . . . لا أريد شيئا .

وقالت بصوت يفيض فتنة :

— لا تنصرف . لا تنصرف .

توقف مانولى دون أن يلتفت إليها . وفقا لصامتة مرة أخرى . وبعد لحظة عادت الأرملة حديثها :

— أخاك يا مانولى وكأنك كبير الملائكة يريد أن يقيض روحي .

— دعيني أنصرف فأنا لا أبتني منك شيئا . أريد أن أنصرف .

قالت الأرملة وقد ضاقت به ذعرا ، وفي صمتها رنة سخوية من جديد :

— أنت في عجلة . تتلهف على الصعود إلى الجبل . تضرب اللبن وتاكل اللحم ثم تقوم من نومك ثانية . مستزوج قريبا يا مانولى وليشيو لا تحتمل الهذر .

— لن الزوج .

قال مانولى ذلك بصوت عال ولكنه أحس بالخوف مما قال . فهذه
أول مرة يفكر فى شيء كهذا .

— لن أتزوج أبدا . أريد أن أموت .

أحس براحة غامرة بعد أن قال هذا . واستدار ونظر الى الأرملة وجها
لوجه هذه المرة ، وكأنه لم يعد يخشاه . وشعر كأنه تخلص الآن من ثقل
عظيم .

وقال فى هدوء :

— وداعا ، انى راحل .

تبعته المرأة بعينها وهو يسير بعيدا عنها . وأحسبت بقلبه
ينقبض .

وصاحت وفى صوتها رنة ياس :

— لا تفكر فى ثانية يا مانولى . لا تقلق منامى بعد الآن . لقد سلكت
الطريق السبيل فدعنى وحيدى .

— انى حزين من أجلك يا أختاه . انى حزين من أجلك . لا أريد أن
تحق عليك اللعنة .

هذا هو ما دار بخلد مانولى ولكن دون أن يلتفت اليها أو يجيب
عليها .

وكان قد خطا خطوات فى الطريق الى الجبل .



مصارعة مع الكيش

أشرقت الشمس ، وألقت بضوئها على قمة جبل ساراكينيا
ولا مست أشعتها كنيسة القديس إيليا فكستها بلون وردى . وبدأت
طيور الجبل تغافى فوق المنحدرات . وزحف الضوء ، قلق الجبل من
جميع نواحيه . وظهرت أشجار متناثرة بين الصخور الوعرة . قليل
من أشجار الخروب الجذع التى عاقبتها الصخور عن النمو ، وأشجار
الكثرى البرية التى غطاها الشوك ، وأشجار السنديان التى عرتها الرياح .

لا يد أن الناسا سكنوا هذا المكان فى ماضى الزمان . فلا تزال العين
تنبئ القاضى جدار . وبعض شظايا لأوان من الفخار . وقليل من أشجار
استحالت ثانية الى أشجار برية بعد أن دخل عنها من استأنسها .
واختفت معالم الطرقات تحت أكوام الأعشاب والحجارة . وعادت البيوت
الى عناصرها الأولية . وانبثت الأشجار الأليفة أشواكا ، والذئاب
والنعالب والأرانب البرية التى فرت أمام الإنسان عادت ثانية مظفرة .
تنفست الأرض والأشجار والوحوش الصعده . فقد استعادت حررتها ،
ولن يتهددها بعد الآن خطر الوحش العابر الذى يمشى على قدمين ، ظهر
لهم لحظة من الزمان فقير ناموس الأشياء الخالدة ، ثم ولّى عنهم واختفى .

ولكن آه ، انظر ، ها هو ذلك الحيوان المتهاج دائسا أبدا يعود
أدراجه . وتوارت الوحوش الكاسرة وراء الصخور العالية ترصده . لم
تكد الشمس تبرز من مشرقها حتى خرج بعض بنى البشر من الكهوف :

رجال ونساء وأطفال ، وقصدوا بناء حيث يلفظ من بين الصخور ، وانحنوا فوقه . وزحفوا بعض الحجارة ، وأوقدوا نارا ... وشبوا على أطراف أصابعهم ، وسرحوا الطرف إلى الأفق البعيد ، تحت أقدامهم تمتد سهول ليكوفريس الفيضاء ، وحولهم بحر من التلال تغطيها أشجار الزيتون والثلث والكرم ، وعلى البعد يطالعهم جبل العذراء ساكنا في وادعاء ، أخضر غنيا في خضرته ، تغطيها قطعان كثيرة من الأغنام والماعز . ووراء هذا كله عند الأفق البعيد ترتفع إلى عنان السماء جبال تعددت ألوانها بين الأزرق والأرجواني والأحمر .

رسم الأب فوتيس علامة الصليب وقال :

— طلع الفجر ، يا أطفال ! أماننا أعمال كثيرة اليوم . تعالوا ، لنفوا حوالا . وهيا ندعو الله معا لعله يستجيب لدعائنا .

اعتلى القسيس فوتيس صخرة ، وجر الشيوخ من الرجال والنساء أنفسهم ليشكلوا دائرة حوله . هرولت النسوة يحملن أطفالهن ، ومن وراءهن الرجال ، تقدموا بخطى وثيلة حزينة ، وروس مطرقة أثقلتها الهموم ... عصابة مهلهلة الثياب ، حافية الأقدام ، غائرة الوجنت من أثر الإجهاد والجوع ، عزلا وسط أحجار وعرة موحشة وأشجار متناثرة بغير ثمار ... قد لا ينتظر المرء منهم غير شراعات وضربات ، وآفك ترتفع إلى السماء تستجدي الرحمت ... ولكن حدث ما هو يقضي ذلك . فقد علت الحناجر ، تنشد بصوت قوي طروب . لشيد النصر للكنيسة البيزنطية . وترددت أصداؤه بين جنبات الجبل :

« انتقل شعبك يا إلهي ، بآرك وركتك .

امنحننا النصر على البرابرة . »

وقاد القسيس الانشاد بحركات إيقاعية من ذراعه . كان صوته غلينا ، سباقا ، عميقا ، جسورا .

وارتفعت الروس المطرقة ، وفتحت النسوة صدرياتهن . والقمم اندمجت لأطفالهن بينما رضت أخريات على الأرض بطعمن النار بقروح الشجر ، ويضمن الجرار فوقها .

وصاح الأب فوتيس :

— يا أطفال ، هنا وعلى سفح هذا الجبل الوعر . ويعون الله تعالى مستخذ لنا سكنا . قضيتا شهورا ثلاثة تضرب في الأرض ، ونال الارهاق من النساء والأطفال ، وأحس الرجال بالعار من ذل السؤال . الإنسان

كالة مرة يحتاج إلى أرض . وفي هذه الأرض مستغرب يجذونا في التلبه الماضية رأيت في منامي القديس جورج . سيدنا وحاميها ، وعندما بنفس الصورة التي رسم بها على رايقتنا . شسايبا أشقر الشعر ، جميل الترتيب ، يمتطي صهوة جواد أبيض ، وخلفه الأميرة الغائبة التي أنقذها القديس جورج من الوحوش المروعة التي كانت تعيش حول النبع . وقد منبت يدها إليه مسككة بإبريق من الذهب تصبب له منه الله ليشرط ... هل تهللون يا أطفال ! من هي هذه الأميرة الغائبة ؟ الهسا روح اليونان . روحنا نحن . أخذنا القديس جورج معه فوق صهوة جواده ، وأتى بنا إلى هنا فوق هذا الجبل القفر حيث نحن الآن . زارني بالأمس في منامي ، وبسط إلى ذراعه ، ووضع في يدي بذرة قرية جديدة - صغيرة - صغيرة جدا ، فوق وادعي ، لها كنيسة ، ومدرسها ، وبيوتها ! وسداتها - وقال لي : « ابنها » .

وصدر عن الحشد همهمة وحفيف كحفيف الشجر بين عيدان القصب . وعندما فتح القسيس فوتيس يده ، رأت نسوة كثيرة قرية صغيرة ، صغيرة جدا ، فوق راحته ، تشبه بيضة وضعت تحت أشعة الشمس لتفرخ .

بسط القديس فوتيس ذراعيه ، وبحركة منها كأنه يحتضن الجبل قال :

— إنها هنا . هنا سنزرع البذرة التي التمننى عليها القديس جورج الفارسي . هنا بين الحجارة والكهوف والمياه الشحيحة ، وتحت هذه الأشجار البرية الجفافة . تشجعوا يا أطفال ، انهضوا واتبعوني . يوما يوم عظيم ، سنزرع فيه قريننا الجديدة . اتهم يا أب باناجوس ، أرفع جوال المعظم على كاهلك ثانية وتقدم .

رفع المعمر رأسه إلياس ، وانقدت عيناه وسط جفتي تساقطت عنهما الرموش . وقال :

— يا أطفال ، ثلاث مرات أشاهد قري نزرع وتقتلع . الأولى إبادةا الطاعون ، والثانية دمرها زلزال ، والثالثة ، هذه المرة ! ذكها الأثراك . بيد أنني شهدت في المرات الثلاثة أيضا بذرة الإنسان تنبت . حينما في نفس المكان ، وحينما في مكان آخر بعيد . قسيس منح بركاته ، والبنات شرعوا في البناء . كل إنسان انحنى على الأرض يحفر . واتخذ الرجال لهم زوجات .. ثم ما أعظم البهجة التي عمتها يا ابناي خلال عام واحد . شقت سدايل القمح الأرض وتصادد الدخان في المنازل ، وعلا صراخ

الأطفال أثناء الولادة - وأصبحت القرية تميزا ينمو ويكبر - تسبحم
يا أطفال ان بلرة الإنسان ستثبت ثانية .

وصاح الرجال في بشاشة :

- يراحو يا أب باناجوس . لقد فهرت ملاك الموت نفسه ، يا جدنا .
أنت النبي الذي ظهر الموت . ألسنت كذلك ؟ .

ورد الشيخ اعمر :

- هو ذا أنا بكل تأكيد . هو ذا أنا ، فأنا ذاك النبي .

ارتدى القسيس فوتيس في هذه الأثناء رداء الكهنوتي . وجمع
بعض أغصان السعتر والنعناع ، وصنع منها مرشة للياه المقدس ، وعلا
فرع بالما . ونادى بعض الغلمان ، وجمعهم حوله وعلمهم ترتيب المزامير ،
وترتيب الصلوات .

وقب الحشد عن بكرة أبيه ، واضطج خلف والده وفسيسه .
الرجال عن يمين ، والنساء عن يسار . ومن قوفهم ، شمس قوية عبيدة
لا تعرف الكلل . ترتقي السماء مع كل صباح لتؤدي دورها الفذ المتجدد
أبدا .

وقال القسيس فوتيس :

- باسم المسيح يا أبنائي ، باسم المسيح وباسم وطننا . لقد اجتمعت
قريتنا من فوق الأرض ، وها هي قريتنا تشيد من جديد . ان جذر سلالتنا
أبدي خالد . ماذا عساي أقول لكم يا اخوتي ؟ اني انسان كثير من
البشر . ابتهج اذا ما صادفت حدث سعيد . بيد انني ابتهج أكثر عندما
تواجهني الشدائد والساعات العصيبة . فهنا أقول لنفسي « الآن يا أب
فوتيس ستكشف عن معدنك الحقيقي » أرجل أنت حقا أم لك شجاعة
« الأرائب ! » .

وقهقه الرجال والنساء . واذ بهذه الكلمات المفعمة بقوة الرجولة ،
المشبعة بشدة النبل ، قد خفت عنهم بعض ما يشغل قلوبهم في هذه اللحظة
المهيبة . وهب في صدر كل منهم روح محارب مغوار من سالف الأيام .
تطلع الى الحجارة والأشجار الجديدة ، والأقواء الجامعة ، وشعر عن
ساعديه .

غمس القسيس مرشة الماء المقدس في الماء الذي يباركه وصاح :

- اتبعوني جميعا يا أطفال . سارسم لكم حدود قريتنا . باسم
المسيح وباسم اليونان .

رفع العملاق علم القديس جورج . وأمسك الرجال بعهدهم .
الجوارف والمعاول والفؤوس . وحمل الشيوخ من الرجال لايفرنات في
أيديهم . وتصدر الجد المعمر قومه حاملا على ظهره جوال العظام .
وتبعهم كذلك كلبان أو ثلاثة صاحبتهم في مسيرة الخروج . وشرعت
تسبح في سرور . وحدثت جلبة عظيمة . وفي هذه اللحظة تردد عند أسفل
الجبل صوت نقر ولكن لم يسمعه أحد .

غمس القسيس مرشة الماء المقدس في الماء الذي يباركه ، ويحركه من
يده على امتداد الفراخ نثر الماء على الحجارة والأجام وأشجار الخروب
وكانه يرسم في الهواء حدود القرية . كانت هذه أول مرة يؤسس فيها
قرية جديدة ، وارتجل الصلوات عن قلب يقبض تلوى وإيماناً .

- يا الهي ، يا الهي . اني أحد بالما المقدس حدود قريتنا . تساك
اللهم ألا تطأها أقدم الأتراك . وألا يدمعها وباء ، وألا يدمرها زلزل .
ستصنع لها بوابات أربع منيعة . تسالك يا الهي أن تضع عندها أربعة من
الملائكة يحرسونها .

وصمت عنيبة . ونثر الماء المقدس على هيئة صليب فوق صخرة
كبيرة ثم التفت الى رفاقه وقال :

- هنا ناحية الشرق سنشيد إحدى بوابات القرية . بوابة المسيح .
ورفع يديه الى السماء وقال :

- يا الهي هذه بوابتك . من هنا ستدخل سجناتك حين تنلطب بنا
لتسمع صوتنا ، وحين تنزل على الأرض في ساعة الخطر . تعرف يا الهي
أنا يا بشر ، لذلك فإن لنا روحا وصوتا استدعوك به . وإذا أحفنا في الدعاء
فلا تغضب علينا . نحن بشر ، مخلوقات معذبة ، أثقلنا الهموم ، وثية
لحظات تلم بنا ، ينوء فيها القلب بحمله ولا يطيق المزيد ، فينفطر ، ويلفط
بما يعيب ويفرج عن كربته . الحيلة يا الهي عبث تقبل . ولولاك لأمسك
كل منا بيد الآخر ، رجالا ونساء ، وذهبنا للثق بأنفسنا في هوة سعيقة
ما لها من قرار لتخلص من الحياة . ولكذك موجود ، وأنت يا ربنا
الفرحة والعزاء وحامي القهورين . ها هي ذى بوابتك . فادخل .

وتحرك القوم صوب الجنوب . ومرة أخرى رسمت الحدود في الهواء . ورتل القسيس مزموراً ، وحفت بصوته العميق أصوات الاطفال الواعنة كأنها شفتقة الصافير .

وتوقف القسيس هنيهة أمام صخرة مجوفة مملوءة ماء قراحاً وقال :
- هنا سنبنى بوابة العذراء حامية السلالة البشرية . ضمعوا علامة هنا .

وبسط ذراعيه وقال :

- يا أما العذراء . يا زهرة نضرة أبدا . تزهري نبات العنبر الذي يخف بشجر السنديان البروي . يا سيدتنا . نحن شعب بار مغلوب على أمره . اسمعي دعائنا . اخترنا لك مقاماً هنا على الأرض قريباً منا . وحجرك عش ختون يحنى به البشر . أنت أم تعرفين معنى الحشرات والطوى والموت . وأنت امرأة تعرفين معنى الصبر والحب . يا سيدتنا . أظلي من عليناك على قريتنا . وانجعي نساءنا الصبر والحب . عسى أن تنبت أقدامهن في هذا الصراع اليومي . وأن يحتملن بغير شكوى . مع آبائهن وأزواجهن . عناية الأطفال وغذابات البيت . انجعي الرجال القوة على العمل ، والأمل المتجدد دائماً ، والانتصار على الموت بأن يملأوا الفناء بالأبناء والأحفاد . يا سيدتنا انجعي شيوخنا من النساء والرجال خائفة مطمئنة مسيحية لحائهم . ها هنا بوابتك . أنت حاميتنا ياسيدتنا . فادخلي .

في هذه اللحظة ظهر خلف الموكب حمار يحمل على ظهره أحمالاً . ولكن لم يلاحظه أحد . وقف الحمار فجأة مأخوذاً ، وأدار عينيه الواسعتين المملكتين إلى صاحبه يسأله عما يفعل . وظهر ياناكوس بدوره خلف الحمار ، لاحظ الانقاس غارقاً في غرقه ، لاحظ الشمس والحجارة .

وتوقف هو الآخر مذهولاً كصديقه يوسوفاكى . سمع ترانيل القسيس وكلماته الأخيرة . وتلفت حوله حائراً . أنه يقول : ها هنا البوابة . أين . أين ههذه البوابة ؟ ما هي تلك القرية التي مسيبيدونها ؟ بأي شيء ؟ من الهواء ؟ أم في الهواء ؟ عليهم اللعنة . ما بالهم يقتلهم الجوع ومع ذلك يتحدثون عن بناء قرية ؟ أقدامهم لا تقوى على حملهم . ومع ذلك يرتلون مزامير الحرب : ها هنا النصر على البرابرة رجلك يا رب فإن بهم لجنة .

ربط حماره إلى شجرة سنديان ، بدعاء . واتخذ لنفسه مكاناً بين الموكب في صمت وخفية . وأخذ يتطلع إلى ما حوله بعينين واسعتين ، وأذنين مرهفتين ، وهو لا يستبين من أمره شيئاً أضحك لذلك أم يبكي . اقتلى أثر الآخرين ، يرقب القسيس يمشي وتياً ، ومرشة الماء المقدس في يده . وهو يخط الحدود في يلقن يأخذ بالأكلياب ، وكأنه كان يصبر حقاً في الهواء شوارع المستقبل ، والبيوت والكنيسة ومسالك الأعيان .

وتوقف القسيس للمرة الثالثة عند الجانب المقابل لبوابة المسيح . بعد بصره صوب الغرب ثم اعقل صخرة شماء شققتها شجرة كمثرى برية مزهرة . وقال :

- ها هنا سنبنى بوابة القديس جورج العامل الكادح . انه مثلكا نحن الرجال يتحنى على الأرض يفلحها . ويسوق الماعز والأغنام إلى المرعى . ويقود الثيران . ويشذب الأشجار ويطعمها . لم يكن القديس جورج محارباً مغواراً فحسب بل كان أيضاً كادحاً عظيماً . اننا نضع ثقتنا في تأييدك لنا يا حامى قريتنا . نسألك أن تمنح الخصب لما نملك من ماعز وحملان ، حتى تفيض ضروعها لبناً طعماءاً لأطفالنا . وتوجد علينا بلحماً غذاء لأجسادنا لتجد فيه عوناً على حمل نفوسنا . وتسخر علينا بصورها حتى لا نفهرنا تلج الشتاء . أيها القديس جورج ، نسألك أن تبارك كل المخلوقات التي تناس إلى الانسسان وتعيش خدمته - الثيران والحير والكلاب . والدجاج والأرانب نسألك أن تنحني على الأرض وتباركها أيضاً . سنلقى بذرنا الثبات بين أحشائك وسوف تسوق لها المطر عند الحاجة عسى أن تنمو وتثمر الأرض والناس والقديسون ، كلهم جيش واحد مع الرب أمامنا في المقدمة يهبطون إلى الطريق . أيها القديس جورج ، ها هي ذى قريتنا ، وها هي ذى بوابتك . أودناها لك عالية حتى تدخل منها وأنت على سهوة جوادك . فادخلي .

ظل ياناكوس ينصت غافراً فاه ، وفرك عينيه بأصابعه وتلفت حوله . لا شيء غير الصخور ونباتات الثوت الشوكي والسمار والسعتر وغوايين فوق شجرة خروب تملكها خوف فلحقاً في الفضاء يدفان بأجنحتيهما وينعبان في حزن .

وتسائل في فزع :

— ما هذه المخلوقات ؟ هل هم من البشر ؟ أم حيوانات برية ؟ أم قديسون ؟

نطلع الى الرجال يشواربهم المنهدلة ، والى النساء بفسفاتهن الغزيرة ، وازدافهن الثقيلة ...

« هونك يا الهى ، لقد أصابتهن جنة أذهبت عقولهم تماما » .

وانتجه القسيس شمالا صوب مكان مقابل لبوابة المدراء ووقف ثانية أمام جدار متهدم غطته الأعشاب . لوح يمرشة الماء المقدس ، وبابوك الحجارة ثلثا ، ثم استدار الى رفاقه وقال لهم بصوت متهدج :

— هنا ... هنا يا اخوتى سستينى بوابة آخر ملك لنا من ملوك بيزنطة ... قسطنطين باليولوجوس . واني على يقين يا احبائى انه سيدخل من هنا يوما ما رسول ينصب عرفا يعلتنا : « يا اخوتى ، عادت اليها القسطنطينية من جديد » .

لم يشارك الحاضرون أنفسهم ، وتعالحت صيحات مهتاجة . واستداروا في ذهول ناحية الشمال . يحدقون بأبصارهم الى الأفق البعيد صوب القسطنطينية مدينتهم المقدسة : انهم يرون الرسول رأى العين قادمة تحمله اليهم الرياح .

ونادى القسيس :

— يا أب باناجوس . تقدم وحط عن كاهلك جوالك ، عند عتبة بوابة الملك باليولوجوس .

ثم قد مخاطبا الرجال الذين يحملون العدة :
— احفروا .

وفعلوا ما أمروا به . ضربوا بمعاولهم ضربات قوية ، وحفروا قبوا واسعا ، عميقا ، يسع انفساها على امتداد قامته . ونزل فيه الرجل المعمر . ومد يده الى الجوال يخرج منه العظام وأخذت يده أخرى جماجم وعظام فك وضلوع ، وكوهم في الحفرة في صمت وشوشوع . ونثر القسيس فوتين على العظام ما بقى في المرشة من ماء مقدس ، ثم ألقى بها في الحفرة وصاح :

« يا أبانا ، صبرا قليلا . لا تتحللوا وتصيحوا ترابا : انظروا ،
ها هو الرسول قادم » .

ومسح باناكوس عينيه . وأحس بجفاف في حلقه .

وأصدر القسيس امره :

— هيا اخرج الآن يا أب باناجوس . اخرج فاننا سنبردم الحفرة .

وأسرع فتياح يمدان اليه أيديهما ليعيناه على الخروج .

وقال لهم الشيخ في ضراعة :

— أتركوكى يا ابنائى . انى راض بمقامى هنا . لماذا تريدون منى أن أكل خبزا لا حق لى فيه ؟ لم أعد قادرا على العمل ، ولم أعد قادرا على الانجاب . أتركوكى فلا نفع لى .

وقال القسيس بنبرة قاسية :

— يا أب باناجوس ، لم تكن ساعتك بعد ، فلا تتعجل .

ورد عليه الجند متوسلا :

— أتركوكى يا أبانا . فانا حيث ينبغي أن أكون . سمعت فيما يقال لو لم يدفن انسان تحت أساس القرية فانها سرعان ما تنقض . ومن أين لى بميتة أفضل من هذه ؟ ادفنوكى .

وقال القسيس محتجا :

— هذا لا يمكن أن يكون . وعبك الرب حياة . وهو القادر وحده على أن ينتزعها منك . ليس هذا من حقنا يا أب باناجوس ... اخرجوه يا ابنائى .

وانحنى الفتياح ، ومدوا أذرعهما ليخرجاه ... ولكن المعمر كان قد وقف فوق العظام وهو يبكي :

— أتركوكى يا ابنائى ، أتركوكى ، فانا حيث ينبغي أن أكون .

لم يعد باناكوس قادرا على كبج جناح نفسه . انحنى فوق الحفرة وشاهد الرجل الكهل . كان مستلقيا على ظهره ، ساكنا بغير حراك ، متجها بوجهه ناحية الضوء ، ميتسما في سعادة ، عاكفا ذراعيه الى صدره ، لا يفتأ يشغم بكلمات :

— أنا راض بمقامى هنا ... أنا راض بمقامى هنا ...

لان خلق ياناكوس بعد جفاف ، وتردد صوت تشيخ .

التفت القسيس ، ورأى ياناكوس ، وتعرف عليه . وصاح :

— افسحوا يا ابنائى . هاكم رجل بار من اهل ليكوفيسى .
أتى لبرانا ويشد من أزرنا فى بلوانا . رحبوا به يا اخوتي . انه أحد
الأربعة الذين أحسنوا الينا بالسلال .

تذكر القسيس اسمه ، وامسك بيده يهزها بانفعال وقال له :

— مرحبا بك يا ياناكوس . لن يحرق الله ليكوفيسى بناره بفضل
حيك أنت وأصدقائك .

لم يعد ياناكوس قادرا على كبح جماح عواطفه ، واجهش بالبكاء .

عانقه القسيس وقال له :

— ماذا يبكيك يا اخى ؟

— اقترفت خطيئة يا ابانا . اقترفت خطيئة .

— تعال معي .

— ماذا يبكيك يا اخى ؟

— اقترفت خطيئة يا ابانا . اقترفت خطيئة .

— تعال معي .

امسك بذراعه وانتهى به جانبا .

— ماذا يبكيك ؟ أى خطيئة ؟ حدثنى يا بنى عما بثقل قلبك .

تم أدرف قائلا وهو يبسط ذراعيه يشير بهما الى قرية المستقبل .

— أنت أحد مؤسسى قريتنا .

ولكن ياناكوس خائنه فقام وسقط على الأرض فوق صخرة .
ووقف القسيس يحمل في يصره هموما . وسأله :

— هل أنت بحاجة الى شيء ؟ هل اقترفت اثما ؟ لا تبك .

— اقترفت خطيئة يا ابانا . أريد أن اعترف لك بكل شيء حتى
يذهب عني الحزن .

تساقطت الكلمات من فيه متعثرة الواحدة فوق الأخرى . وتلاحقت
انفاسه ، قصيرة لاهثة . وبدأ يقص عليه سبب ارتفاعه جبل ساراكتينا ،
وانفاقه مع الأب لاداس ، والجنيئات الذهبية الثلاث التى قبلها منه
تحت الحساب .

اصغى اليه القسيس بانتباه شديد دون أن ينسى بيت شفة .
وتطلع اليه ياناكوس فى فرح .

وأخيرا قال بصوت مرتجف :

— ماذا ترى يا ابانا ؟

— أرى أن الانسان وحش ، وحش كاسر .. لا تبك . فأتى ارى
أبسا إن الله كبير .

وغمغم ياناكوس قائلا :

— بل أن الانسان أكثر شرا من الوحش .

ويصق على الأرض كأنه أحس بدوار . واستطرد يقول :

— الانسان دودة تعيش فى الطين .. دودة قلرة ، حقيرة ، دنسة
... لا تلمسنى يا ابانا . الا تشتمنى ؟

لم ينس القسيس بيت شفة ، وسحب يده من ذراع ياناكوس ،
وغشى من طرفه ، وتأوه فى حيرة .

ولب ياناكوس من فوق الصخرة التى سقط فوقها ، ودس أصابعه
في جيب سترته وأخرج الجنيئات الذهبية الثلاثة .

— يا ابانا ، هل لى أن اطعم فى كرمك . فتقبل منى هذه الجنيئات
الذهبية الثلاثة وشترى بها بعض الاغنام للقرية .. من أجل الأطفال ،
فهم بحاجة الى اللبن .. وإذا تفضلت على ، فتضع يدك على راسي
وأصغح منى .

ظل القسيس جامدا في مكانه بغير حراك .

— اذا لم تقبلها منى : فلن تعرف روحى معنى السكينة أبدا
وبعد لحظة صمت قال :

— قلت لى أن الانسان وحش كاسر ، فهل لك أن تروضه يا ابانا .
كلمة طيبة منك تكفينى . خلاصى في هذه اللحظة معلق بين شفتيك .

القي القسيس بنفسه بين ذراعي ياناكوس وانخرط بدوره في
التيكاد .

وصاح ياناكوس :

— هل هذا من اجلى ؟ هل تيكي من اجلى ؟ .

غمغم القسيس فويس وهو يمسح دموعه .

— من اجلك ، ومن اجلى ، ومن اجل العالم اجمع ، يايتي

وقبل ياناكوس بين حاجبيه ، وريت بيده على شعره الاشيب
الكث .

— مغفورة لك خطاياك يا ياناكوس . ان بطرس انكر هو الآخر المسيح
ثلاث مرات ، وانقذته الدموع في المرات الثلاثة . الدموع يايتي اشرف
ماء للتعميد .. اقبل منك ذهب الخطيئة الذي تقدمه لي . ستتحول
خطيئتكم الى لبن لاطفالنا الجوعى . اتي اباركك يا ياناكوس .

خر ياناكوس راكعا امام القسيس ، وحاول ان يقبل قدميه ، ولكن
سرعان ما انحنى عليه القسيس وانفضه . وقال :

— لا . لا . اننا على مراءى منهم ، وها هم قادمون .

وتعالت صيحات هلوغة :

— يا اباتا ، يا اباتا ..

وقال القسيس فويس منزعا :

— ماذا حدث يا ايتاني ،

— يا اباتا ، الشيخ ياناجوس اسلم الروح . حاولنا ان نخرجه من
القبير .. الفيناها ميتا .

رسم القسيس فويس علامة الصليب . وقال :

— ادعو الله ان يغفر له مات سميذا ، وها هو اصبح ليبة في
اساس قريشنا .. ندعو الله يا ايتاني ان يحسن خلدنا مثله .. ساتي
لامنحه بركاتي .

ثم قال مخاطبا ياناكوس :

— انصرف يايتي ولا تضح شيتا . المسيح معك .

وانحنى ياناكوس على يد القسيس وقبلها ، وانطلق ليحضر
حماره .

واحسن بالفرحة كانها جناحان يحملانه ، واخذ يعدو وتيا من
سفرة الى اخرى مثل فتى في العشرين من عمره . وشعر بحققان عند
ظهوره كان جناحين قد نبثا فيه .
وغمغم :

— ليذهب المعجوز لاداس الى الشيطان . الى الجحيم بذهبه .
اتي اشعر بنفسى خفيفا كائن ايطر .

وربت على حماره الذي كان ينتظره في قلق تحت ظل شجرة
سندبان ، وفك وثاقه وهو يتنرم بلحن .

وقال :

— سنصرف بايوسفاكي . انتهى عملنا نهاية طيبة . حمدا لله .

واستدار ، فوقع بصره على الصخور الوعرة ، والكهوف الممتعة ،
والرجال وقد انحنوا فوق قبر الجدة تحت بوابة المستقبل التي ستنشئ
باسم الملك باليولوجوس . ينصتون لقداس الدفي ، ويرسمون علامة
الصليب .

وغمغم :

— ادعو الله ان يجعل من قريتم حقيقة واقعة . لقد اسهمت في
تأسيسها بثلاث جنيهاات ذهبيا .

وبدا ينزل المتحدر وهو يتنفي .

وقال لنفسه :

— حقا ما قلت « الانسان وحش كاسر » .. نعم ، انه يفعل
ما يختار . انه يسلك الطريق الذي يختاره لنفسه . امامه بوابة
الجحيم وبوابة الفردوس متلاصقتين ، وهو يدخل ايهما يختار ..
الشيطان لا يدخل سوى النار ، والملاك لا يدخل سوى الفردوس . اما
الانسان فاته يدخل ايا منهما حسب اختياره .

وضحك واردف قائلا :

— سلاما ايها الوحش القدس يا ابن آدم .

ثم ترنم بلحن أغنية قديمة معروفة منذ زمان لا يعلم الا الله
مداه . وها هي الآن تتردد على شفثيه ثانية :

أنا ابن البرق ، وحفيد الرعد

بمئشيتي يومض البرق ، ويقدم الرعد
ويسقط الثلج .

- أني جائع . سأخذ شيئا أكله . ويوسفاني جوعان أيضا .
سأذهب لأتبه بيمض العشب الأخضر ، حتى لا يفار مني إذا ما وآني
أكل . لنجلس أنا وهو جنبا إلى جنب كأخوين ، ولنأكل لقمة سويا .
وسار بضع خطوات ، وجمع بعض الحسك ، ووثب فوق سور ،
وقطع بعض أوراق الكرنب ، وربط هذا وذاك في حزمة واحدة وقدمها
لرفيقه :

- خذ . كل يا حبيبي يوسفاني . سأكل أنا أيضا . غداء هنيئا .
فتح خرجه ، وأخرج منه خبزا وزيتونا ويصلا ، وبدا يلوك طعامه .
على مهل وفي أطمئنان على نحو ما يفعل الأرنب .
وتمتم قائلا :

- جميل جدا هذا الخبز . أخال أنني اطعمه لأول مرة في حياتي .
بيد أنه ليس بخبز ، أنه كسرات منه ، ولكنه يسرى إلى العظام توا
ويمنحها قوة .
وأخرج من الخرج زجاجة تبيد نقش عليها صورة سقر له رأسان .
ومال بطرفها إلى فمه ، وتردد صوت كركمة طروب .
وقال :

- ها أنذا أشعر كأنني أشرب التبيد أيضا لأول مرة . ياله من
شراب عرييد ، يشق طريقه ثوا إلى القلب ، ويشبع فيه نشوة . خلق
الله الكرم والتبيد لحكمة بالغة ، وبورك من فكر في هرس الكرم لتخرج
منه التبيد ... هاتها ... جرعة أخرى .
وضم الزجاجة على فمه ثانية وانغمض عينيه .
وخال صوت بادى الانتعاش :
- في صحتك يا ياناكوس .

فتح ياناكوس عينيه ، فأبصر كاترينا ، وعلى كتفها سرة لقيلة .
ومن ورائها نعلتها وقد التفت شريط حول رقبته .
وصاح :

- هيه ياناكورينا ، ماذا وراك ؟ ماذا أتى بك إلى هنا ؟ إلى أين
بصمتك هذه ؟ هل تبصمتها ؟
وابتسمت الأرملة وهي تقول :
- نعم .

- تعالى . اجلس لحظة وكلي واشربي . القسيس فوتيس كان
يرغب في شراء نعلية تدور للأطفال لبنا .. أن الله هو الذي أرسلك إلى
هنا .
جلست الأرملة على الأرض . ومسحت بمنديلها الأسود العرق
من فوق وجهها وعنقها . وكانت عينها تفيضان سعادة .
وقالت :

- ما أشد حرارة الجو . حل الصيف يا ياناكوس .
أخذ ياناكوس كسرة خبز وحفنة زيتون وناولهما للأرملة وهو
يقول :

- كلي شيئا . هل يروقك البصل ؟
أخذت الأرملة منه الخبز والزيتون وقالت :
- لا . فانا لا أطعم البصل أبدا .
وقال ياناكوس ضاحكا :

- حتى لا يفسد رائحة فمك يا خبيثة ؟
- نعم .

قالتها وقد تغير صوتها بفتة . إذ بدت فيه رنة حزن . ثم واصلت
حديثها :
- تعرف يا جاري أننا نفضل أن نفوح منا رائحة الصابون المعطر
واللافندر .

وأزاحت الخبز والزيتون جانباً .

وقالت :

- آسفة . فليست أشعر بالجوع .

وخجل ياناكوس من نفسه . وأبتلع ما في فمه .

وتعتم :

- بل أنا يا كاترينا أحق بأن أكون آسفاً . أنا حمار .

التفتت الأرملة ورقة عشب ووضعتها في فمها لتستطيعها دون أن تبتس بكلمة .

وخيم عليهما الصمت لحظة ، وأحس ياناكوس بعزوف عن الأكل . فاعلق خرجه .

وشاء ياناكوس أن يقطع الصمت الذي أثقله . فسألها :

- ما الذي جئت به في صرتك يا كاترينا ؟

- بعض ملابس للأطفال ، لا حاجة لي بها .

- هل كنت ذاهبة لتتصدقني بها عليهم ؟

- نعم .

- والنعجة ؟

- والنعجة أيضاً ، لنادر لهم لينا .

وأطرق ياناكوس خجلاً . وأردفت الأرملة بعد لحظة كأنها تلتمس لنفسها المآذير :

- تعرف يا جاري أنني لم أنجب أطفالاً ، وأشعر كأن كل أطفال الدنيا أطفالاً أنا .

وأحس ياناكوس بجفاف في حلقه . وقال بصوت مخنوق :

- كاترينا .. أود أن ألقى بنفسى عند قدميك أقبلهما .

- استدعاني بطرياركاس ، هذا الفاسق العجوز ، قبل أول أمس فزيارته . وأتاني بقرار مجلس الأعيان ، بأننى سأقوم بدور مريم المجدلية في العام القادم . وكنت قد سمعت بعض ما يروى عن مريم المجدلية . وهذا هو ما أصبحته أنا - مريم المجدلية لهذه القرية ..

وعندما أتاني بذلك أحسست بالخجل . أما الآن ياناكوس فأنسى ما عدت أشعر بالخجل . فلو أنني التقيت بالسيح . ومعى زجاجة عطر ، لأرقتها على قدميه أغسلهما بالعطر وأمسحهما بشعوى .. أظن أن هذا ما سأفعله ، وسألزم مريم العذراء دون أن أنسى في نفس خجل . وهي بدورها لن تخجل من مصاحبتى لها .. ترى هل فهمت بعض ما قلته لك الآن ياناكوس ؟

أجاب ياناكوس والدموع في مآقيه :

- أفهمك يا كاترينا .. أفهمك .. بدأت أفهم اليوم فقط ، ومنذ هذا الصباح يا كاترينا .

ثم أردف يقول بعد صمت قصير :

- أنا آثم كبير . خطاياى تفوق خطاياك يا كاترينا . ولهذا السبب أفهمك .. قبل اليوم كنت سافراً كذوباً إلى حد ما ، وكل هذه لم تكن كياناً بل صفاتاً .. ومع هذا الصباح كنت مجرماً أثمياً .. أما الآن .

ولاذ بالصمت . وطار قلبه من بين جوانحه . أمسك بزجاجة النبيذ وقال :

- في صحتك يا كاترينا . أسأت إليك الآن فاعفري لي . الحمار لا يفعل غير ما تفعله الحمار .

بعد أن شرب ، مسح عنق زجاجته بعناية .

- اشربي أنت أيضاً يا كاترينا حتى أطمئن إلى أنك عفرت لي . وقالت الأرملة بعد أن مالت بجيدها إلى الورداء .

- في صحتك .

ومسحت فمها ونهضت واقفة .

وقالت :

- سأنصرف . النعجة قلقة ، وها هي تشكو كأنها لا تحس بالسعادة . لم أحلبها هذه المسكينة . أريد أن يحلبوها هم هناك فوق الجبل .

- هل لن تفتقد بها يا كاترينا ؟ فانا أعرف مدى حبك لها .

- ترى لو أنك تصدقت عليهم بحمارك هل كنت تفقدته ؟

اقشعر بدن باناكوس لسماعه ذلك وقال :

- لا تقولي هذا يا جارتى فان كلامك يمزق قلبي .

- ويمزق قلبي ايضا يا باناكوس . وداعا . اعني لك حظا سعيدا .

وترددت لحظة ، ثم تجاسرت على القول :

- هل ستري مانولى ؟

- سأبدأ جولتي بين القرى .. واحسب اننى عند عودتي قد ارجع عليه واذهب لراه .. هل تريدان منى ان اخول له شيئا ؟

كانت الامة قد رفعت صرتها فوق كاهلها ثانية وبدأت تشد بقوة
النفخة الحرون .

وردت عليه قائلة :

- لا ... لا شيء .

واخذت سبيلها صاعدة .

في هذه الاناء كان مانولى قد بلغ الجبل . وسعت الكلاب رائحته
من بعد فاخذت تعدو نحوه ، نهز ذنبها ووراءها نيكوليو . ونيكوليو راغ
صغير السن ، لوحته الشمس ، وله اذنان مدينتان . خف الى مانولى .
يشب من صخرة الى اخرى كأنه جدى . نعا ولرمح بين الجبال مع الماعز
والاغنام . وهو اسمر شديد السمرة ، شرس قليل الكلام ، فحياته كلها
لغاة مع الاغنام والكباش . وشعره الفوج ، الذى خالطه الراتنج
والروث ، مجدول على شكل صغيرين ، بدما كأنهما قرنان صغيران
مدينان . انه يناهز الآن الخامسة عشرة من عمره . ينظر الى الاغنام
بوجه عابس كوجه الكيش .

عندما بلغا ساحة الرعى . وضع نيكوليو فوق الذكة الحجرية
خيزرا وجبنا وقديدا ، وقال :

- كل .

- لست جوعانا ايها الهمام نيكوليو . كل انت .

- ولماذا لا تشبع بالجوع ؟

- لا ارجب .

- هل آذوك هناك تحت ؟

- نعم .

- ولم ذهب اليهم ؟

لم يجب مانولى واستلقى على مخدعه المستوع من العشب . وانغمض
عينيه . حقا : لماذا ذهب اليهم : اعتاد قبل ذلك ان ينزل الى القرية
صباح كل احد ، يسمع القداس . ويناول القرى . ثم يعود من فوره
الى الجبل . كان يحس بالاختناق هناك فى السهل . يضيق صدره اذا
ابصر النساء . وتعتصر حلقه رائحة التبغ والثار جيلة كلما مر بالقرب
ورأى الرجال مقبلين على الشراب ولعب الورق . لذلك كان يمر بهم
سريعا . يحث الخطى عائدا الى الجبل حيث الفواء النقى . والان ...

تذكر ليتيو ، ونظراتها الماجنة . وايتسامتها الساخرة . وصوتها
الساحر . ثم ، وقبل هذا كله ، تذبذبات النافيرين يدفعان صدرتها الوردية
الى الامام حتى تكاد تنمزق . ونفث جالسا على الحصى . احس
بسخونة شديدة . فتزع عنه قميصه الذى يبلله العرق .

وقال لنفسه :

- يجب ان اتجدد واحافظ على تقاى ولا المس امرأة . ساقدم
الحساب من الآن فصاعدا فان هذا الجسد ليس ملكا لى . انه ملك
المسيح .

وطافت بمخيلته صورة المسيح كما رآها يوم وصوله الى الدبر
مرسومة على ابواب الكنيسة المحلاة باليقونات : اثار اذرق طويل ،
وقدعان عاريان يمسان الارض برفقة متناهية حتى تكاد اوراق العشب
الا تميل من تحتها . نبلا ، شغافا ، رقيقا كالطبيب . ومن يديه
القدسيتين ، وقدميه وصدره المكشوف ، يسيل خيط رقيق قان من
الدم .. وامرأة فى ريعان الشباب ، بهيف شعورها الذهبى حول كتفيها ،
تهزول نحوه ، تحاول ان تلمسه ، ولكنه يرفع اليها يده فى حزم ليوقفها .
ومن فمه المقدس تخرج باقة من الكلمات كأنها كتاب منشور . قراها
مانولى دون أن يتبين معناها . وسأل رئيس الدبر : « يا ايانا ماذا يقول
المسيح هناك ؟ » واجابه بقوله : « يا امرأة : لا تلمسينى » . ومن هى
المرأة يا ايانا ؟ « مريم المجدلية » .

« يا امرأة لا تلمسينى » . وانغمض مانولى عينيه . وفجأة رأى

الأرملة كاترينا نهز رأسها ، وتطوح عنها متديها الأسود . انحل شعرها الأشقر ، وتهدل إلى ركبتيها وستر ما بان من سوانها . وإذا بهبة ربح تطوح شعرها ، فتكتشف عن ثدين مدورين مكتنزين .

وهب واقفا فوق مخدعه وصاح :
- النجدة .

كان نيكوليو ، الرامى الصغير ، لا يزال جالسا إلى طعامه ، يأكل بنهم لا يشبع . فالتفت إليه في هدوء وقمة مقلان ، وقال له :

- هل تحلم يا سيدى ؟ هل هناك من يتعقبك ؟ أنا أيضا يترادى لى فى أحلامي أناس يتعقبونى . لا عليك ، فالأحلام كذاب . ثم ولا تكن أبله .

- أوقد النار يانيكوليو ، انى مقورور .

كان الرامى الصغير عاجزا عن أن يثاى بنفسه عن الخبز واللحم ، فرد عليه معترضا :

- ولكن القبط خالق ..

عاد مائولى كلامه وأسنانه تصطك :

- انى مقورور ..

نهض الرامى الصغير وهو لا يكتف عن المشغ . واتجه يادى التلمس إلى ركن فى الحجرة ، وأخذ بعض الخشب والأغصان ووضعها فى المدفاة وأشعل فيها النار . واقترب من مائولى ، ونظر إليه مليا ، وهز رأسه :

- حسدوك يا سيدى .

قال ذلك ، وعاد إدراجة ليأكل فى نهم .

جر مائولى جسمه إلى أحد أركان الكوخ ، وتدثر بأسمال بالية ، وتكوم حول نفسه . أخذ يرتب النار وهى تاتى على الخشب . وتراوت له لينيو ومرمر المجذلية والمسيح يتراقصون مع السنة الذهب ، يغتربون ثم يغترنون ليقتربوا ثانية .. وتراقصت السنة الذهب ، واحتجبت النسوة وراء الدخان المتصاعد ولم يبق غير المسيح مصلوبا فوق الشرور . رآه واضحا جليا بوجهه الشاحب مائلا على صدره ، ويداه مسمرتان فوق الخشب .. وتراقص الذهب وبعثت الحياة فى المسيح وخرج من

بين الرماذ . . أخذ يتضائل شيئا فشيئا ، وانحنى على نفسه ، وبعدها شب واقفا ، ثم اختفى وتوارى فى الدخان .

نال الانهالك من مائولى كل مثال ، ولم يعد قادرا على متابعة الخيالات التى تتراعى له ، وسقط رأسه بين ركبتيه ، واحتواه النوم .

كان نوما نقيلا لرجا . حاول مائولى جاهدا طوال الليل أن يتخلص منه . أحس كأن أعشاش البحر وتعاين الماء تعيط به من كل جانب وتعلق به . . وتراعى له عند الفجر شلال من سفائر شقراء ، تندفق عليه ، تشب نحوه ، وتتناثر وتغطي من كل ناحية . ويصرح بصوت مخنوق . النجدة . . ولكنه لا يزال غارقا فى سباته عاجزا عن أن يفلت من النوم . وما هو ذا الآن يطوق على ظهره فوق ماء نهر . يش ويتوجع .

استيقظ الرامى الصغير مرتين أو ثلاثا على صرخات مائولى الحادة . وعند سماعه لها يغمم :

- لا يزال يحلم بأنهم يتعقبونه . ياله من مسكين . . ثم يتقلب على جنبه ويستسلم للنوم ثانية .

عند مطلع الفجر فتح مائولى عينيه ، وطالعت من فتحة النافذة سماء صافية . فرسم علامة الصليب . وقال بصوت نصف مسموع :

- حمدا لله أن اتقى الليل ونعمت بالخلاص .

كان يشعر بألم فى مفصله ، والتهاب فى عينيه ، ورجفة فى جسده . خدمت النار ، وأحس بالعطش . كان يتوق إلى بعض اللبن الساخن . ولكن نيكوليو كان قد خرج ليرعى الماشية ، وهو لا يشعر برغبة فى النهوض . وتطلع حوله كأنه يرى لأول مرة مدة مهنته : الأواني واسطال اللبن ، وملاقق خشبية معلقة على الجدار شكلتها وحفرتها يدها بحسق ومهارة . فهو منذ صباه كان إذا وقعت يده على قطعة خشب أمسك بسكين وأعمل يده حفرا وتقسا فيها ليشكل منها طيورا وأشجارا سرو . ثم بدأ يشكل منها بعد ذلك تماثيل نساء ، وبعدها رجالا على صورة جياذم ، وأخيرا ، وبعد أن ذهب إلى الدير ، قديسين ورجالا على الصليب ..

وذات يوم مر به راهب فى المرعى وقال له : « يابنى كان أحرى بك ألا تعمل راعيا . خير لك أن تكون راهبا . نعطيك الخشب ونصنع لنا أيقونات .

تسللت الشمس من النافذة . خرج إليها مانولى . وجلس تحت
اشعتها ليديب ما يبدنه من تصليب . وبعد أن استعاد اليقظة ، عاودته
أحلام ليلة البارحة . . نهر من الشعر الذهبى ، وأتشعر بدنه .

وغفم :

— يسوع ربى . . لا تدعنى أستسلم للغواية .

أحس ببعض السكينة . ونهض من مكانه ، وأوفد نارا ، ثم اغترف
قليلا من اللبن من الدلو ووضع على النار وشربه . استرد بعض قوته .
وخرج بعدها وجلس فوق مقعد حجرى فى فناء الحظيرة . كانت الشمس
على بعد ذراع من الأفق . وبدأ المساء يصحو من نومه . وتالق الجبل
لحت ضوء الشمس . وتناهى إليه على البعد صوت تيكولير يسوق
الأغنام .

ونعم :

— ها أنا على ما يرام الآن . والغواية تاتى ليلا . وما هى
الشمس أشرفت والحمد لله .

وتلف حوله ، ووقع بصره على كتلة خشب عند الباب مقطوعة
من ساق شجرة وخفق لها قلبه فرحا . والحنى عليها وأخذها بين يديه
وأسندها إلى ركبتيه . ومسح عليها بيده . كانت كبيرة مستديرة
وكانها رأس . وبدت اليافها معوجة ومتشعبة كأنها العروق فى علما
الراس .

أحس مانولى بأكلة تدغدغ أطراف أصابعه . ونهض فجأة ، ودلف
إلى الكوخ . وأحضر منشارا صغيرا وأزميلا ومبردا . ورسم علامة
الصليب فى عجلة . وقبل قطعة الخشب وبدأ يعمل فيها يده .

أفترت الشمس من سمتها ، ولا يزال مانولى متصرفا إلى عمله ،
متكبا على قطعة الخشب التى احتضنها إلى صدره . لقد نسى تماما
ما يعانيه من إرهاق . والهواء الطلق نقى الأرض نساها . وحاكمت فى
نقاها السماء . وولت الغواية الأدبار . كانت ليتيو بعيدة عنه ، بعيدة
جدا إلى ما وراء الشمس . وكذلك الأرملة ولت عنه . انتحت ركنسا
قصبا مثلما فى أرض المرعى على هيئة لسيح العنكبوت .

كان مانولى يحفر حائسا بوجوده مع قطعة الخشب . عيناها
تبصران إلى مكتون ذاته . واشتت روحه كلها عينا يبصر بها . .

يتأمل فى سويداء قلبه وجهها عادئا ، كله رقة وسكون وأسى . حاول
مانولى أن يصور بصدق وأمانة ما يراه بعين بصيرته . . الوجنيات
الفائرة ، والنظرات الحزينة المثالة . والحين العريض وقته انفتحت
عليه فطرات غليظة من الدم . . وجرحا بين الحاجبين . لا تراه فى
الأيقونات وإنما يبصره مانولى وحده .

كان العرق يتصبب من جبهته . جرح أصبعه بالأزميل . وصنع
دعما الخشب بولون أحمر . ولكن لم تفتقر هيمته . كان متلهفا على محاكاة
الوجه المقدس وتثبيتها على الخشب قبل أن يتوارى من أمامه .

بينما كان يعمل فى الخشب حفرها بصورة محسومة ، ظهرت عند
أول الطريق امرأتان . . فتاة يانعة الصبا تتبعها عجوز لفت وجهها
بمنديل أبيض . عندما أصبحت الفتاة مانولى . استدار إلى العجوز
ووضعت أصبعها على شفتيها . وتقدمت الإثنان خلفه وعلى حجر .
شغوفتين بمعرفة ما الذى يفعل مانولى وأستولى على ليه . ولكن
حدث أن تعثرت قدم المرأة العجوز ، فتدحرج حجر . بيد أن مانولى
كان غارقا فى عمله حتى أنه لم يسمع شيئا .

لم تستطع الفتاة أن تكبح صياحه مشاهرها . فأسرعت الخطر
ولست كف مانولى وصاحت :

— أعلا بك يا مانولى .

وثب فى مكانه . وفارقه الصورة المقدسة . أحس بتفسه خائر
القوى متهاككا فاستند إلى الجدار . وراشه ملقى إلى ظهره .

— ماذا بك يا مانولى ؟ لماذا تنظر إلى هكذا بعينين زائفتين كأنك
تبصر غفرتا ؟ انسى أنا يا مانولى . . أنا ليتيو خطيبتك . وما هى خالتك
الأم مائدا ليتيا . أنت لتريقك .

وتقدمت العجوز لا هنة الأنفاس . وقالت :

— مؤكدا يا طفلى أن شيطاننا أو ما شابه ذلك قد مسك بأذى .

تطلع إليها مانولى فرحا .

وأخيرا سألهما وهو يقبض كتلة الخشب ليدير وجهها إلى أسفل :

— ماذا تريدان ؟

كانت المعجوز على وشك أن تجيب ، إلا أن لينيو دفعها جانباً ،
وقالت :

- أتركنا يا أم ماندالينيا ، اذهبي أنت واجمعي ما تحتاجين
إليه من العشب ودعينا وحدنا . أريد أن أقضي إليه بكلمة على انفراد .
وانصرفت المعجوز بادية التأفف ، تبحث عن ثيابها . وانزلت
لينيو بجسدها فوق المقعد الحجري وجلست ملاصقة خطيبها .
امسكت بيده وقالت بصوت رقيق :

- مانولي ، ادر لي وجهك وانظر إلى . ألم تعد لهوانى ؟ ألم تعد
تجنبي ؟ وأجاب مانولي بصوت هادئ .
- أحبك .

- متى ستزوج ؟

لأذ مانولي بالصمت . فما أبعد الشقة بين زواجه وأفكاره التي
كانت تشغله في تلك اللحظة ، الإله القوى القدير .

- لماذا لا تجيب ؟ أنبأني السيد بكل شيء .

قال مانولي وهو يشب واقفا :

- وددت لو أنك لم تأتي هنا .

وصاحت لينيو وقد توقدت وجنتاها :

- أحسب أن الأفضل أن استأذنك أنا أولاً . فلم تعد زوجي بعد .
ولا زلت خلية .

ونهضت من مكانها ووقفت قبالتها . وبسطة ذراعيها ، وقالت :

له بصيغة أمر :

- لا تنصرف .

استند مانولي إلى الجدار وانتظر . وأخذت لينيو ترقبه ، وبين
جوانحها حب وكراهية يتصارعان . وأخيراً قالت بصوت مختوق :

- لم تكن أمي سوى خادم . أما أبي فقد كان نبيلاً . لن افرض
نفسى على أي إنسان . أملك صداقي ، وأملك شبابي ، وسوف أجد من
هو خير منك .

ضم مانولي كتلة الخشب المحطوة إلى صدره بقوة حتى ألمته .

- كما نشأتين يا لينيو .

قالها مانولي يهدو ، طاهر . بينما قلبه يندق بشدة وكأنه يوشك
أن يتفجر . ولم يكذب بلفظ بكلماته القاسية حتى أحس بالأسى لما قاله .
ووهنت عزيمته .

وتكس رأسه وعاد يقول :

- لينيو . . دعيني وحدي هنا لأيام قلائل حتى أحسم أمري .
إن كان حبك لي صادقاً فافعلي ذلك من أجلي .

- آه . . . هل تحب غيري ؟ من ؟ أين لي ثم اتصرف .

- لا . لا . لا يا لينيو . أقسم لك أنني لا أحب سواك .

- حسن جداً . وإذا ما حسمت أعرك فانيشني بما انتهيت إليه .
سانظر . . ولكن من أظن أن تعرف . ربما أحبك ما حببت ، وربما
أكرهك ما حببت . . وهذا يتوقف على كلمة منك . . إن نعم أم لا . .
ولك أن تختار .

واستدارت ناحية المرأة المعجوز ونادت عليها :

- هيا يا أم ماندالينيا ، فإننا سننصرف .

وانطلقت ، سارت لينيو في المقدمة مهشجة لم تحاول أن تلتى
وراءها بنظرة واحدة . وثارت في مروجها دم الكبرياء الذي ورتته عن
أبيها .

تساوى مانولي فوق المقعد الحجري . وأخذ يتطلع إلى كتلة
الخشب التي أمسك بها بين يديه . لم تعد به أدنى رغبة في معاودة
الحفر . فقد حبت النار في نفسه واختفت من مخيلته الصورة المقدسة .
وعاد إلى الكوخ . ولت كتلة الخشب بخفة بالية متاياها كأنها
يوارى جلد برماد يخشى أن تنطق . لم يعد يطبق البقاء وحيداً .
أذ بدأ يشعر بالاختناق . فتناول على عجل عصا الرعي ، وأخذ طريقه
إلى حيث يلحق بنيكوليو والماشية .

كانت الشمس تصب أشعتها عمودية على الجبل . همدت الأنفاس ،
وتوارت الظلال فرقة تحت أقدام الأشجار . وقبعت الطيور في أوكارها
خرساء تنتظر زوال النطق .

وأحسن نيكولوي فجأة أنه يفيض قوة وعنفواناً . تلفت حوله بحثاً عن إنسان أو شيء . ينفس معه عن هذا العنفوان العظمي . لا شيء . ولا أحد . لا رجل يعاركه ، ولا امرأة يطرحها على ظهرها فوق العشب . والمأشئة دوعها القبط فلاذت بظل شجرة سندريان ، وعار عليه أن ينزلها . ولكن ها هوأت زعيمها الكيش داسوس يقرنيه الطويلين اللطوفين ، واليثة الثقيلة الشحيمة ، وجرس الزعامة الكبير حول رقبته . ألقى نظرة جامدة إلى اغنامه الغافية تحت الظل ، ولغا راضياً ، ثم أنصرف عنها متناقلاً في مشيته ، ملكاً متأنياً متفطراً في خطوته . وغيق الجو برائحة الذكورة . والتفت عليه نيكولوي كأنما فقد سوابه فجأة ، وضربه ضربة معيطة بعصاه على رقبته وظهره وبطنه .

وفي كبرياء وتعال ، استدار له الذكر المستهين . بدا له خصمه جرواً - لا فرون ، ولا ألية نفيلة ، ولا شيء سوى قدمين يمشي عليهما . يكتفيه نظحة خفيفة تطرحه أرضاً . لذا فقد أتر ، مترفعاً ، أن يوصل تطوافه بين الأغنام .

تبعم نيكولوي ، وأمسك بقرنيه ، ومال على ظهره . ومنا ضاق به داسوس ، وهز رأسه ، وألقى بالراعي الصغير على الأرض .

ساح نيكولوي . وهو يحاول أن يشبوا فغماً ، والدم ينزف من مرقبيه :
- يا خنزير .. ذبل لك .

ثني رقبته بين كتفيه ، وأحنى رأسه ، وألقط عليه لينطحه . وكذلك فعل داسوس . وداح نيكولوي من أثر الصدمة . دار حول نفسه وبدأ الجبل يدور معه أيضاً . بيد أنه استطاع أن يحتفظ توازنه . والتقط عصاه . واندفع حائفاً نحو الحيوان ، وضربه كأنما يريد أن يحطم قرنيه

وفي هذه اللحظة ظهر مانولي . وضع أسبعية في فمه وصفر . استدار نيكولوي وأبصره ، بيد أنه كان ثائراً محتاجاً . ولم يستطع أن يكبح جماع نفسه ويقف ، فالتفت ثانية على الكيش . التفتل مانولي حجراً ولفذه به .

وصاح

- آيه يانيكولي . هل أنت في مصارعة مع الكيش ؟ تعال هنا .
جاء نيكولوي ، متدعراً متوجعاً متصبباً عرفاً . استدار الاثنان ظهرهما إلى صخرة ، وكان الراعي الصغير يصعد زفرات الغضب وتغوج منبه

رائحة الكيش . وبين الحين والحين يصغر بغمه أو يقذف بحجر ، في محاولة منه لكي يخفي غضبه الذي يخدم أوارده في أعماق نفسه . انتصر عليه داسوس وأذله .

كانت نظرات مانولي نالمة في السماء . يحاول جاهداً أن يستعيد لنفسه هدوءها وطمأنينتها ويسترد قلبه الصورة المقدسة التي كان يحفرها على الخشب . سحر هذا الصباح .. نسيان آلامه .. غياب وجدانه عن العالم .. كانا جدهما بين السماء والأرض . هو وكتلة الخشب ، ثم سمع فجأة صوت امرأة وشفتان مكتنزتان .

- « آيه يانيكولي .. انزع الناي من حزامك وأعرف لنا شيئاً .. فاني لست على ما يرام يا صديقي . روحي نالمة ، أضناها الهم . اعرف لنا شيئاً ، لعل في ذلك شفاء لروحي » .

وضحك الراعي الصغير وقال :

- وأنا مثلك يا مانولي . روحي نالمة أضناها الهم أيضاً . نلم ير لحظات أشعر معها آبي على وشك الانفجار . الجأ إلى آبي . امزق عليه ، فلا تجد روحي شفاء في ذلك . ولهذا صغرعت الكيش .

- « وماذا يضنيك حتى تكون وروحك نالمة ؟ أنت لا تزال حدثاً لم يسود فوداك » .

وأجاب الغلام بحماسة ملتصبة :

- لياخذني الشيطان إن كنت أعرف . ولكن عندما أكون وحيداً يا مانولي .. آه بلم بي الحزن .

وترجع الناي . ووضع أطراف أصابعه البرنزية فوق نغويه .

- « هل يحضرك لحن يا نيكولوي ؟ » .

- « أنا ؟ أبداً . آبي أعرف اللحن كما يواتيني » .

وضع طرف الناي بين شفتيه وبدأ يعزف .

لغمت الماعز والأغنام المنحدرات ، وتردد بين جنباتها رنين الأجراس : خرج الجيل إلى الرعي . دبت الحركة بين أهل القرية . وانساب ماء الجدول صيدحة . ثقب من حجر إلى حجر . ورويدا رويدا خففت أصوات الجدول وأجراس الماشية والجيل ، لا ، لم تخفت أصواتها ، بل كان يعمل بداخلها ضحك حلو طروب متعش . فعلى مرمى البصر

يمتد بحر متناغم الأمواج ، وشاطئه تنأثرت فوقه الأصداغ .. ولمة
نساء باسمات الثغر يستحمن .. السيقان والأذرع على امتدادها
متباعدات .. القين بأنفسهن في الماء ، وعكرون صفو الأمواج ، فطوحت
بين فوق الشاطئ ، وندت صيحات قصيرة ، والشاطئ دغدغته فرحة ،
وشاركهن الضحك .

أرهف مائولي السمع منطويا على ذات نفسه مبهورا . ترددت
أصداء ضحكات النساء مجتونة على طول الشاطئ ، تملو وتهلج . ثم
تتناهى إلى سمعه ثانية مزوجة بأصوات الموج . وأخيرا سكنت كل
شيء ، وخرجت كاترينا من البحر عارية .

صاح مائولي وهو يشب في مكانه

« حبيك .. كفى هذا » .

أدار نيكولاي رأسه بنظر إليه ، ولكنه واصل المزف . فقد هامت
روحه هو الآخر مع الموسيقى . كان يمسك بالثأى بقوة ، يضغط عليه
بين شفتيه .

وعاود مائولي كلامه :

« قلت لك كفى » .

رفع نيكولاي الثأى عن شفتيه وأراحه على وكتفيه وقال :

« قطعت على سياق اللحن في أحسن لحظاته » .

وقاضت عينا مائولي باللمع .

« أوتد الراعي الصغير إلى الوراء وصرخ :

« ماذا يا مائولي ؟ أليكن ؟ تعال . لا تحزن ، انه الثأى ولا شيء
آخر ، كل هذا ليس من الحقيقة في شيء ، انه مجرد هواء » .

أراد مائولي أن يخطو بضغ خطوات ولكن خائنه ركبته .

وغمغم قائلا :

« أشعر أنني لست على ما يرام » .

وسأله الراعي الصغير ميتسما :

« هل سمعت صوت المياه ؟

.. أي مياه ؟ » .

« سرح خاطري إلى الماء أثناء المزف .. مياه كثيرة ، ذلك لأنني
كنت طمأنا » .

لم في وثية واحدة كان عند أسفل شجرة السنديان ، حيث علق
عليها محجته . كل مائولي قد أخذها له ، ونقش عليها سورة جدى
وقال مائولي لنفسه :

« سأذهب حيث أنام فاني ارتجف » .

ونادى نيكولاي :

« تنبه للماشية فاني ذاهب لأستع الجبن » .

وأجاب نيكولاي وهو يمسح عن شفتيه وصدرة الماء الذي تساقط
عليهما .

« لقد أمددت النار .. أقل اللين ، وسوف أليك الآن » .

تطلع إليه وهو يسير مترنحا فوق الحجارة ، وأحس بالأمى عليه .
وصاح ثانية :

« إذا كنت على غير ما يرام فتم ، ودع لي الجبن أستمعه أنا » .

« لماذا تقول لي هذا الكلام ؟ » .

« ذلك لأن قدمك يا سيدى تدوران حول بعضهما . وتبدو شاحبا .

وأخذ يرقب مائولي وهو يسير في طريقه مترنحا حتى غاب عن نظريه
دواء أشجار السنديان . وأتت في نفسه تعاطفا معه وتمتم قائلا :

« مسكين .. ابصرت لينيو قادمة على البعد .. عليها اللعنة .
ستمتصك حتى التضاع يا سيدى العجوز » .

والتقط حجرا وقذفه بعيدا في الحطب . وساح بأغل صوته .

« اللعنة على الإناث » .

أبصر داسوس يمشي أمامه بخطوات استفرته . أمسك بقرنيه
ولوى رأسه الضخم بعيدا عنه ، ثم ألقي بنفسه فوق ظهره .

عندما وصل مانولى الى ارض الحظيرة ، اضرم النار ليمنع الجبن ، ولكنه كان متهاكاً . جلس على المقعد الحجري تحت الشمس ليستعيد الدفء . اذ كان يرتجف . كانت الشمس تميل ناحية الأفق . وبعد دقائق سمع اصوات اجراس تقترب وصيحات نيكولوي وصغيره وهو يحوط حول البهائم يسوقها الى الحظيرة ويقذفها بالحجارة .

خلقت افكار مانولى بعيداً ، وهبطت الى القرية . طافت بالبيوت والمقهي والميدان . ثم اخذت طريقها الى المتجر ، وانسلت داخل بيت القسيس . ورأى الاعيان يوزعون الادوار - من يقوم بدور بطرس . ومن يهودا . ومن المسيح . ثم رأى ثابثة القسيس فونيس والمسيحين الذين انتزعوا من ديارهم ، ومبارزته الكلامية الاليمية مع القسيس الآخر ، والمرأة التي صرخت لم اسلمت الروح . ورتت في سمعه من جديد كلمات ياناكوس الساخرة القاسية « ها انت ستتمثل دور المسيح وفي نفس الوقت تنهى للزواج وتدنيس نفسك . يا للرياء » . وارتقى السلم الى حجرة سيده وراه . ثم نزل الى الفناء ، تعلقت به ليبو . تدبها يرتكان على صدره ، تساله بصوت كله زلفى والاحاح « مانولى . متى تتزوج ؟ متى ؟ متى ؟ » ثم . . . لم بعد ان غادرها في طريقه الى الجبل توقف لحظة للتعط انفاسه عند البئر . . .

وذاب قلبه .

وغصم .

« اشعر بالاسى عليها . . . آسف لها . . . سلكت طريق الشيطان . انها هالكة . . . »

أشرقت صورتها في ذاكرته - وشاح اسود . جيد مومرى . شغلت رقيقتان عنيت بهماهما بأوراق شجر الجوز . . . وسمع من جديد صوتها يستعطفه في يأس :

« لا تذهب يا مانولى . . . لا تذهب .

كانها تظن خلاصها رهنا به وحده .

وفي ومضة خاطفة تذكر حلمها ، وخيل اليه ان تأويله بات واضحاً . نعم ، نعم ، كانت على حق هذه المرأة العنسة . انه وحده المتأخر علم خلاصها . هتف لها الله بنفسه في منامها بذلك . مانولى يسكن بالقرى بين يديه كأنه تافحة ، يقطع شرائع ويقدمها لها لتأكلها . . . وفجأة وضع له المعنى الحق للحلم ، وارتجف . القبر عند النور المائل .

كلمة الرب التي تتر طلمة الليل . . . انه ارادة الرب . وأمر من لعن الله ان يشاركها مانولى فيه ، انه هو الذي قدر له ان يخلص مريم المجدلية الآثمة .

وغصم .

« يجب ان اراها . . . نعم . يجب ذلك سريعاً . فكل دقيقة امر قد تدفعها أكثر الى هاوية الخطيئة . . . يجب ، يجب . . . هذا واجب .

انه يستطيع ان يرى الدرب الضيق الذي تسكن فيه . ويدخل البيت المبني على هيئته قوس . وملاءه الأخضر . والطوق الحديدى . . . ويستطيع ان يرى قبة السياب الحجرية بطيعة لامعة . . . لم يسبق له ان اجتاز هذه العتبة ، ولكنه تذكر انه ذات يوم . من ايام الاحاد ، مر بالباب وكان مفتوحاً ، واسترق نظرة الى الداخل . . . لاحظ فناء صغير رصفت جوانبه بقطع من الحجارة مفسولة . وبعض اصص الورد - ربحان جميل - رصت على الجدار الواحد ، الذى يحيط بالفناء . ومجموعتين كبيرتين من القرنفل الأحمر قرب البئر . . .

اتخذ فكر مانولى طريق الجبل عابداً ، وبلغ القرية . وسار عبر الدرب الضيق ، واجتاز العتبة ودخل . . .

ملق برودة بينه وبين نفسه :

« يجب ان اراها . يجب ان اراها . . . هذا واجب .

استشعر شدة غربة . عرف الآن ان رؤيته لها امر لازم . انه امر من لعن الله وليس من ذاته . وأرتاحت نفسه . أدرك الآن لماذا كانت لحامسه وتلح عليه ليل نهار الرغبة في الذهاب اليها ورؤيتها . . . كان يستشعر الخجل ويقاوم . وختماً كان يعتقد ان الشيطان هو الذى يحضه على ذلك ، اما الآن . . .

هب وأفقا . لم يعد يشعر بالبرد . وكفت ركبته عن الارتداد . أوقف النار ووضع عليها القدر ، وغلى اللبن . . . وقال لنفسه :

« ما أعجب السبيل التى يتبعها الرب لينير روح الانسان استحالت برادته هذه المرة الى حلم ونزول على وسادة الأرملة . . . قبل نيكولوي . . . وبغات الأهتمام لتصل حظيرتها . وامتلا الجو بنفائهما .

كانت الشمس تاذن بالقلب راضية مطمئنة ، أنهت يومها ، وها هي عائدة الى خدوها ..

صاح مانولى من داخل الباب بصوت ساف :

« أهلا نيكوليو . اذهب واحلب النعاج ثم جهز لنا الطعام . انى جوعان . »

لم يأكل شيئا سحابة نهاره ، اذ كان حلقه متقبضا لا يستطيع أن يمر خلاله طعام . أما الآن ، وقد تراخى ، فقد عادت اليه شهيته .

نظر اليه نيكوليو وفقه عاليا :

« عادت اليك الحياة يا سيدى . هل من اخبار سارة ؟ »

« انى جائع . عجل . ساعاونك . »

احضرا الدلاء النحاسية ، واقبعا جنبا الى جنب . وشرعا يحلبان النعاج ، الواحدة بعد الأخرى . وقت النعاج عادة مسرورة اذ تنفخ من حملها الوفير . وخالت الاصابع الماهرة شفاها حبيبة ترضعها .

والتسلا بعد أن فرغا من عملهما . ورشما علامة الصليب ، والجوع بعضهما ، ثم اقتضا على الخبز واللحم واللبن الأبيض . ولا زال نيكوليو مهيموا يفكر فى الكباش القوي ولينيو . كلاهما معا موضع حفيظته . لا يفصل أحدهما عن الآخر ، زعيم القطيع ، والفئة اللحيمة . أصبحا الآن شيئا واحدا . أحيانا يرى لينيو وهو فوقها ، ركبها وباعد بين ساقيه ، وأحيانا مستلقية تحته وهو يتنسم ..

ولغفم متألفا :

« عليها اللعنة .. عليها اللعنة .. »

والتقط حجرا وطوح به بعيدا فى الهواء .

وسأله مانولى مبتسما

« ايه يانيكوليو ، علام الغفمة ؟ من الذى تقذفه بالحجارة ؟ »

وأجاب الراعى الصغير مبتسما هو الآخر :

« الشيطان يحوم حولى ، وأنا لرحمه بالحجارة . »

« هل رأيته يا نيكوليو ؟ »

« نعم . رأيته رؤيا وهمية . »

« ما شكله ؟ »

« هذا سر . »

واندفع الراعى الصغير الى دلو الماء وغمس فيه وجهه الذى تدافع اليه الدم .

بعد أن فرغ مانولى من طعامه رسم علامة الصليب ونهض من مكانه . فقال :

« نيكوليو . سأنزل الى القرية لهذا المساء . اتمنى لك حظيا سعيدا . »

وصاح نيكوليو غاضبا :

« القرية ثانية ماذا ستفعل هناك الآن ؟ اعتقد يا سيدى أن الشيطان كان يحوم حولك أنت أيضا . »

« ليس الشيطان بل عزيرى نيكوليو ، لنحفظنا السماء ، انه الرب . »

وأخرج مواء صغيرة من جيبه . وبلى شعرا ومشطه . لم ارى أحسن لباسه ، ثياب يوم الأحد .

ودس مرآته الصغيرة ومشطه ومتدبلة فى حزامه . لماذا ؟ ما حاجته اليهما ؟ هل يعلم ؟ كل ما حدث أنه أحدهما . بلا سبب ، وأخفاهما فى حزامه .

وعادو الغلام كلامه غاضبا ، وهو يرقب مانولى بحمل نفسه .

« انه الشيطان كما أقول لك . »

وردد مانولى ما قاله :

« انه الرب . الرب . »

ورسم علامة الصليب ورجل عنه .

ولغفم نيكوليو :

« مؤكد أنه داهب الى لينيو .. ليأخذ الشيطان كليهما . »

وبسقى فى اشتعزاز .

الشيطان وقناع المسيح

كان الليل يرمى أسناره • وطيور الليل تصدح • لا تدري جوعا
أم عطشا • وبواكير نجوم المساء تسطع في السماء •

سار ماثولي الهويني • هابطا الطريق اللتوي • وقال لنفسه :

— يحسن أن أنتظر حتى تشتد ظلمة الليل إذ يجب ألا يراني من
في القرية • وبينما كان سائرا في طريقه أخذ يعيد على سمعه ماذا عصاه
أن يقول حتى تبلغ كلمة الرب نؤاد الأرملة • كان يخبئ قائلا :
• سأطرق الباب • وتأتي لتفتح لي • • • • • ستهبت لرأى • وتعلق الباب
بالزجاج • ودخل سويا • • • • • سبق له أن رأى الغناء • وأزعاج القرنفل
والريحان • وحافة البئر — ولكن ماذا بالداخل ؟ وتملك الخوف ماثولي •
فوقف ملتقط أنفاسه • وسرت قشعريرة في بدنه • وقال لنفسه
« هناك بالداخل • • • سيكون الخدع • • • »

وتشوش فكره • لم يعد يعرف ماذا ينبغي أن يقول • ولا حتى لماذا
يهبط من الجبل في مثل هذه الساعة ليطرق بابها عند منتصف الليل •
ستره وقد علت وجهه حمرة الخجل • ونقير سخنة • فتضحك
لذلك • ربما تقول له « ها أنت ذا يا ماثولي • ولعلك أنت نفسك لا تعرف
ما الذي جاء بك إلى هنا ؟ ترى هل رأيت حلما في منامك إمت أيضا ؟
هل تراهي لك الشرير في منامك يا ماثولي ؟ أم ترى كانت مريم العذراء ؟
أو ربما كلاهما معا • • • • • فلن مثل هذا يحدث أحيانا يا ماثولي • ولكن



ها أنت قد أتيت ، وستبدأ كلامك معي بالحديث عن الرب والغردوس .
ثم بعد ذلك ، رويداً رويداً ، دون أن الحظ أنا أو أنت ذلك ، سنجد
أنفسنا يا مانوي وقد جمعنا مخدع واحد ، والتصقنا ببعضنا . . .
فأت رجل ، اليس كذلك ؟ وأنا امرأة . هكذا خلقنا الله ، وهكذا أراد لنا .
فهل يكون خطأنا نحن إذا ما حدث ، ونحن ملتصقان ، أن دارت ريموسا ،
وطاش سوابنا ، ففتحنا ذراعينا وساقينا وأصبحنا جسداً واحداً . . .
أحس مانوي بالدم يتدفق إلى رأسه . فقد ربت هذه الكلمات
الفاجرة في رأسه ، وسمع الأملة تنفوخ بها بوضوح كامل . وهي تيسم
وتفترب منه حتى تلتصق به . . . ها هو يتشم أنفاسها بقوة بمطر
السك والترنفل . وتنفوخ من صدرتها المفتوحة رائحة جسدها الدافئ .
معزوجة برائحة العرق وجوز الطيب . . .

وفجأة أحس بالأعياء ، وخافته ركبناه ، فخر منهوك القوى فوق
صخرة .

وسأل نفسه في حلق « من ذا الذي كان يتحدث إلى بداخلي ؟ من
ذا الذي كان يشجك ؟ ركية من تلك التي لا تستنى فجعلت ركبتي
تفوزان حول بعضهما ؟ » لقد سمع حقاً تلك الكلمات ، وونت في أذنه
ضحكات الأملة ، ولا زالت رائحتها تزكم أنفه .

وصاح وهو يرفع عينيه إلى السماء مبتهلاً :

« عونك يا الهي »

ولكن بدت له السماء هذا المساء عالية شاهقة ، تفصلها عن الإنسان
مسافة بعيدة غاية البعد ، خرساء غير مبالية ، لا هي بالصدق ولا هي
بالعدو . واستبد به الهمع . النجوم ترقبه . ونجم قلب مانوي . كان
في بعض أمسيات الشتاء يصر حول الحظيرة وبين الأغصان التي غطاها
الثلج عيون الذئاب جامدة ساهرة يقظي في حذر . وبدت له النجوم هذا
المساء وكأنها عيون الذئاب .

عابودته ذكرى الأملة من جديد ، تسرى في شمه حلوة كأنها العسل .
وجد فيها عزاء جميلاً أراه ما يعاتبه من أحاسيس بالكابة وهذه العالم
له . لقد سمعت الآن عن الكلام أو الضحك . واستلقت فوق مخدعها
جدلة تهمل كورقاء تذكر الجميل .

سب مانوي أذنيه . كالت رأسه نظن وشرايين رقبته تبرز وتنتفخ .
أنه يكاد يشعر بالدم يتصاعد خاراً منها إلى رأسه . صدغاه يختلجان

في عنق ، جفناه يتقللان ، وأحس بوخز يغطي صفحة وجهه وكان الآفا
من التمل تمض وجنتيه يذقنه وجنتيه ، وتنبش لحمه .

وتصيب عرق بارد غطي جسده كله . ولحس وجهه براخته .
وهب واقفاً .

« يا الهي »

حاول الصراخ فلم يستطع . عاد ثانية يتحسس وجنتيه وشفتيه
وذقنه ، بدت له منتفخة متورمة ، شفتاه مبطومتان حتى أنه عجز عن
أن يفتح فمه .

« ماذا دعاني ؟ لماذا تورمت ؟ »

كان يسأل نفسه ، ويتحسس في يأس صفحة وجهه من أعلى إلى
أسفل نازلاً إلى عنقه . أصبح وجهه كله كآله طيلة ، ولكنه لم يكن يشعر
بألم . كل ما شعر به أن عينيه قد التهبنا وبدأ يغيض منهما الدمع .
وأخذ يلهث .

« يجب أن أرى ، يجب أن أرى . . . أريد أن أعرف »

أخرج المرأة من حزامه ، واتحتى عليها ، وأشعل غصنا ، ونظر إلى
نفسه . . . لح وجهه على ضوء اللهب المتراقص وصرخ ، الفاء منتفخاً كله ،
عيناه خرزتان صغيرتان ، وفمه تقب ، وألفه ضاعت ملامحه وسط
وجنتيه المتفتحتين كالبالونة .

لم يكن وجهه يشتر ، بل فتاعاً منفرداً قد من لحم بهيمة . . . لا . لم يعد
وجهه ، أنه وجه غريب التصق فوق وجهه .

وخطرت بذهنه فكرة مياقة .

« يا الهي هل هذا هو الجدام ؟ »

وهوى إلى الأرض .

وأمسك بالركاة ، وأشاح بوجهه على الغور في فرع . « ماذا ؟ أهذا
خمس ؟ لا ، إنه شيطان . ونهش . لا أستطيع الذهاب الآن . كيف يمكنها
أن تنظر إلى وجهي ؟ كيف يمكنني أن أتحدث إليها ؟ شكل مروع . سأعود
من حيث أتيت . »

واستدار ، وارتقى الطريق عدواً كأن ثمة من يطارد .

وتوقف عند الحظيرة ودخل حلسة ، يرتعد فرقا كلما ظن أن نيكوليو قد يستيقظ ويضيء المكان ويراه . . . غدا صباحاً ، ربما أبرا مما أنا فيه بحق الله . . . وأطمانت نفسه قليلاً لهذا الحائط .

وافترض الحصير ، ورشم علامة الصليب . وتضرع إلى الرب أن يرأف به وقال «الهي اقتلى إن كانت هذه مشيتك ، فاموت عندي خير ألف مرة من حياة الذل أمام الناس . . . لماذا شامت قدرتك أن تلصق هذا اللحم على وجهي ؟ انزع عني يا الهي ، اطرحه عني بعيداً . أسألك أن تعيد وجهي مع الصباح إلى سبرته الأولى ، نظيفاً أنسياً . »

بعد أن وضع يده في الله ، استشعر بعض العزاء ، أغمض عينيه ، ورأى فيسما يرى النائم امرأة متشعبة بالسواد - لا بد أنها العذراء المقدسة - انحنت عليه ، وبرتت على وجهه بيدها في رفق وحنان ، وسرعان ما أحس به غشا خفيفاً ، ومد مانولى ذراعيه وأمسك باليد المقدسة وقبلها . ولكن رنت ضحكة ساخرة حلوة ، وسقط الثياب الأسود ، واستيقظ مانولى من نومه سارخاً ، لم تكن العذراء بل الأرملة .

وفي الركن المقابل ، سمع نيكوليو الصرخة واستيقظ عليها : قد فأبصر سيده ووجهه إلى الحائط . وبدأ يضحك . وقال متبرماً :

« لماذا عدت يا مانولى ؟ هل فرغت من مهمتك ؟ »

ولكن مانولى أمذ يتجنس وجهه الذي اتجه به إلى الحائط . أحس باليأس . لم يزليله الورم أبداً ، بل لا بد أن ثمة جروحاً ظهرت عليه ، إذ أن أطراف أنامله قد يلبها سائل لزج كثيف القوام .

واستلقى على بطنه ، ودس وجهه في الوسادة .

ولكن نيكوليو لم يمد في سؤاله :

« هل استمتعت يا سيدي؟ هل سارت أمورك على خير ما تحب ؟ »

نعم ، بالطبع نال منك التمتع أيها الصديق المسكين . . . ثم .

وعغم مانولى :

« لقد هلكت . . . هلكت . . . لا بد أنه الجذام . »

شفتق الصباح . وهب نيكوليو من نومه على الفور ليسوق الأغنام إلى المرعى . كان الراعي الصغير على وشك الخروج من الباب حين استدار

ورآه . كانت شعاعات النهار الأولى قد انسلت من الشافطة وأضابت الكوخ . قال له :

« مانولى . . . إلى اللقاء هذا المساء . »

استدار مانولى ليحيب ، وكان قد غفل تماماً عن الحالة التي كان عليها . أبصره نيكوليو وقفز إلى الفناء . ثم عاد إليه وهو يصرخ :

« يا سيدتنا العذراء . »

كلن وجه مانولى يقطع بالقدارة ، لكسوه غشون يسيل منها الصديد . حاول أن يتكلم ليهدئ من دوع الراعي الصغير ، ولكنه عجز عن أن يتفوه بحرف واحد . كل ما استطاع أن يفعله هو أن لوح بيده ليطمئنه .

استدار نيكوليو وجنته إلى قاذبة الباب ، وجسمه إلى الخارج مستعداً للاروب . أحس أنه عاجز عن أن يصرف نظرائه الفرقة عن ذلك الوجه ، وروبداً روبداً ، استعاد جرائه ، وأطمانت نفسه . وقال :

« هل أنت مانولى بحق السماء ؟ أو شتم علامة الصليب حتى أكون على يقين من أمرك . »

وشم مانولى علامة الصليب . استجمع نيكوليو شجاعته من جديد وأخذ يشم علامة الصليب على العتبة ، مرة بعد أخرى ، ولكن دون أن يقترب .

وسأله في حنان :

« ماذا دهأك يا رفيقي المسكين ؟ لا بد أن الشيطان تلبسك وترك عليك هذا القناع . اللهم احفظنا . انه الشيطان كما أقول لك . هذا مؤكد . حدث نفس الشئ لجدي . »

هز مانولى رأسه واستدار ناحية الحائط حتى لا يخيف رفيقه الصغير . وأوما إليه بأن يتصرف .

وعاد نيكوليو يقول في وجل :

« إلى اللقاء هذا المساء . »

وهروا خارجاً كأن ثمة من يتعقبه .

تأوه مانولى بعد أن أصمبح وجيهاً ثم نهض من فراشه . أحس

بقوة في يده . وزايله الالم . فارقت الرعدة . ولكن الأغرب من ذلك . أنه أتى في نفسه بهجة غامرة لا يجد لها تفسيراً . . . عاد وأمسك بمرآته الصغيرة والترقب من السائدة ونظر إلى صورته : تشق الجلد المتورم . وسال منه سائل أصفر لزج . تجلطلت بعض قطرات منه على شاربته ولحيته . كان وجهه كله احمر في لون الدم كأنه قطعة لحم .

وشم علامة الصليب . وقال بصوت خفيض كأنه مناجاة :

— يسوع ربى . إن كان هذا من عند الشيطان فأى أسالك أن تطهرنى منه . وإن كان من عند الله فمرحبا به . فأنى على يقين أنه لا يقصر ل شرا . لا بد أن ليواى حكمة لا أعلمها . سأجعل بالصر حتى يمس يده سبحانه وجهى .

استشعر السكينة بعد أن أعطى ليلواه هذا المعنى . وأخذ نارا . ووضع عليها القدر . وصب فيها اللبن الذي احتلبه البقرة . كان يسحر بالحواس قدامه ملققة . لم يستطع فتح فيه . لذلك أمسك بوضعة وغمسها في اللبن وبدأ يمتص بها اللبن ويشربه في شراهة . ثم خرج وجلس على المقعد الحجري .

كانت الشمس قد أوقظت الطيور في نوكارها . وملاأت خلوقها الصغيرة بالغفم . وبعد أن اعتلت قمة الجبل . بدأت تحرف في هسوده وسكينة . . . نشرت أشعتها فوق المنحدرات والسهل . وفتحت أبواب القرية وانسلت منها . رأت الأرملة لا تزال في مخدعها بعد ليلة مسهدة . يعلو وجهها الشحوب . وتسللت خلسة إلى شعرها . وراى ماريورى في فناء بيتها منهكة في روى زهورها . فطبت على جيدها قبلة خاطفة . ثم أخذت طريقها إلى كل نساء القرية تتطلع اليهن بنفس الطريقة . تدلهن كأنها عاشق .

وأخيرا اتخذت لها مكانا على المقعد الحجري قبالة الحظيرة . ومد إليها مانولى يديه مرحبا . وتساءل :

— من أين لي هذه البهجة التي أحس بها ؟ ما سر هذه الراحة ؟ لست أدري .

ومسح يديه وجهه المتورم . الذي كان ينز في حرارة الشمس . — لست أدري . . . لست أدري . . .

فطس يردد ذلك بإسقاط يديه المرة بعد الاخرى يعرضه للشمس حتى يجف .

ذات مرة حدثه معلمه في الدبر عن ناسك تشقق جلده . وخرجت منه الديدان . وكان كلما سقطت عنه دودة . انحنى عليها . وأمسك بها في رفق وأعادها إلى الجرح . ويقول لها . كل . . . كل اللحم يا اختاه نصل روحى تتخفف من ثقلها . . . مضت أعوام لم يذكر فيها مانولى تلك القصة . ولكن أى عزاء جميل يستشعره اليوم . وأى درس يتعلمه عن التحمل والصر في أمل .

نهض من مكانه وعاد إلى السكوح . والنظف بين ذراعيه الحارقة التي لف فيها كتلة الخشب وأخذ الميرد والأزميل . وأخرج ثانية حيث كان يجلس تحت الشمس . وقبلة أشرفت بداخله الصورة المقدسة . تملأ قلبه . أنه يتبينها في وضوح . ويتأمل كل قسماتها . واستقر عليها بصره . وعاد من جديد يشتتها على الخشب بأنفعال وحماسة .

مرت الساعات خفا . وبلغت الشمس لحظة سمتها . ثم بدأت تميل رويدا رويدا . . . تنازرت السطاي على الأرض . وخف معها ثقل الخشب . ووضع وجه المسيح . ودعا . مثالا . وقيفا . مستسلما . حاول مانولى طويلا أن ينفض قم المسيح المرتجف . ولكن ياء بالفشل . حينما يرى القم يبتسم . وحينما يتغضن ويبكى . وحينما يزعم شقيقه كأنه يتهميا لعمل فيه جهد وليس للصراخ من الألم .

وقرب الغسق . عاد نيكولوي بقطيعه . التي مانولى لا زال جالسا في مكانه فوق المقعد الحجري وقد أسند إلى ركبتيه وجه المسيح منقوشا فوق كتلة الخشب . لم يبق أمامه إلا أن يعوف الرأس حتى يتمكن من أن يضعه على وجهه . وبذلك يكون القناع الذي يخلق به أن يضعه على وجهه يوم الصلب .

توقف نيكولوي . واسترق نظره خاطفة إلى سيده . ثم ولى عنه سريعا . أحس أنه لا يطيق النظر إليه . فقد تجلط الصديد الذي غصن وجنتيه فوق وجهه ولحيته وكون قشرة فوقها . بدا له وكأن الجالس على المقعد الحجري شيطان يحمل فوق ركبتيه وجه المسيح .

وصاح والحواف يملأ قلبه .

— لا داعي لحضورك ومساعدتى . ساحلها وحدى .

مال مانولى برأسه إلى الحلف وأسند إلى الجدار . وأغمض عينيه . كان منهك القوى ولكنه مرتاح النفس . وضبط على قطعة الخشب المحفورة بين راحتيه . واستشعر سعادة أن وقف في نقش الوجه الذي أشرق في

فليه يصدق وأمانة . أن يتوارى بعد الآن ليصبح صورة مرتعشة في الهواء . لقد ثبت روحه فوق كتلة الخشب . أمسك بالوجه المقدس بين يديه . ووازنه في رفق . وأعجبه في الرب . إذا نظر إليه من أمام رآه ميتسما . وإذا نظر إليه عن يمين رآه باكيا . وإذا نظر إليه عن شمال رآه متقبضا مستسلما في كبرياء . وأغمض مائول عينيه . وبدأ يربت بأطراف أصابعه على وجه المسيح برفق وحنان مثلما كانت مريم تربت على الطفل المقدس .

وحرص لا نهائي طوى الحرقه حول كتلة الخشب المحفورة ولها بها كأنها طفل ولبد في قماطه . وحملها بين ذراعيه .

فرغ نيكولي في هذه الأثناء من حلب النعاج . وعاد الى كوخه . وهو يتحاشى النظر الى مائول . وبدأ يعد العشاء . قال لنفسه وقد آس في نفسه سعادة خفية .

— مسكين هذا الرفيق . عريس جديد يمثل هذا الوجه ؟ أه لو تراه لينيو اذن لصرخت فرحا وولت الأديار .

وخرج الى عتبة الباب .

— هل ستأتى يمانولى لتناول العشاء ؟ هل تستطيع أن تفتح فمك للطعام ؟

نهض مائول . كان جوعانا ونسى أن يأكل ساعة الظهر . ملا قدحا كبيرا لبنا . وأخذ البوصلة . وجثا على ركبتيه . واعتصم اللين . ثم عاد وملا القدح ثانية .

وعندما أظلمت الدنيا لم يشعل المصباح وهكذا أعمت العتمة نيكولي من رؤية الوجه المتوهم . ووزيله الخوف . كان في حالة مزاجية راضية . ولا يدرى سببا لذلك . وما أن فرغ من طعامه حتى اتخذ مجلسه قرب المذفاة وأخذ يقلب جمراتها بعصاه .

وبدا حديثه سعيدا :

— كنت أقص عليك في الصباح كيف أصبح جدى ناسكا . بعد أن قتل ونهب واقترب كثيرا من الموت . ولست أدري ان كنت سمعت ما يقال عن الشيطان . انه اذا ما طعن في السن فانه يتحول الى عابد زاهد ؟ وهكذا فعل جدى — ليفغر الله لى — اعتزل الدنيا وقصد دير

القدس بأند ليون . وهو نفس الدير الذى قصدته أنت أيضا ناسكا . وفضى به شهرا قمريا . . . ولكن . ومن عجب . كانت ثمة قرية بالقرب من الدير . وكانت فى القرية نسوة .

ثم أردف قائلا وهو يمسك فى الرماح .

— آه . لا يخلو مكان منهن هؤلاء المعاصرات .

واستدار يحاول أن يتبين وجه مائول على ضوء وشمع الذهب . وسأله :

— هل تسمعنى ؟

هز مائول رأسه وكأنه يريد أن يقول :

— ها أناذا أسمعك .

— حسن . انظر ذات يوم حدث كما قلت لك أن تقمصه الشيطان فغال لنفسه « أين لى بامرأة ؟ أين لى بامرأة ؟ ساقصد القرية حيث أجد يفتى . لقد قاض بى الكيل . لتكن متزوجة أو طليقة . عجوزا أو صبية . عرجاء أو حدياء . فلست أبالي ما دامت امرأة . وهكذا . فذات مساء . وبعد أن استسلم النساك للنوم . تسود صاحبتا جدار الدير وخرج يسرع الحطو لتتلقفه الجحيم . عقد العزم على أن يقضى حاجته . هل تتصور ذلك ؟ ثم يعود أدراجه قبل الثانية صباحا . حتى لا يعلم بامرئه أحد . . . أطلق ساقيه للربيع ممسكا بذيل ثوبه بين أسنانه . يتغو كما يتغو الكيشق فصل الصيف اذا ما أبصر النعاج . . . ولكن الرب رآه . وأشفق عليه . ومن عجب ففي اللحظة التى وطئت ذبيسا قدما مشسارف القرية . ابتلاه الرب بمرض خبيث . . . الجذم — لعلك سمعت شيئا عنه . وغطت جسده معامل كبيرة كأنها حبات البلق . . . لا . ماذا أقول ؟ بل حبات الجوز أو الشمش المعن . . . ثم تشققت ونزت صديدها . . . وهل هذا لا تفوح منه رائحة النتن ؟ ياله من شيخ مسكين . استبد به الهلع . . . غفر الله له . وسأل نفسه « الى أين اذهب الآن ؟ هل يسكن أن تسمى امرأة لأن العود أحمد . . . »

كان مائول ينصت بكل جوارحه . وفي جسده رجفة . مد يده وربت بها على ركية نيكوليو يحركه تنبى أن « استمر » .

وقال نيكوليو ضاحكا :

حواديت عجائز النساء . اعتادت أمى أن تحكيها لى . وفقها الله .

رغم أنها كانت تضحك لها - لك أن تتخيل صاحبنا السافل ... أنهم نساك حقاً - عاد أدراجه إلى الدير - تسور الجدار ثانية ، وتواري في صومته ... وفي الصباح التالي ألقى النساك وجهه مثل قرية ماء .

وعاود مانول الخافه على الراعي الصغير بأشوات من يده .

- أظنك تريد أن تعرف كيف انتهت هذه القصة ؟ كيف لي أن أعرف ؟ كنت آنذاك طفلاً ولم أكن أهتم ... لقد سار إلى لحد من زمان طويل ، هذا الشيخ المسكين - وارتاحت النساء من مشاكله .

وفهقه نيكولوي - ثم شرد بفكره ، وبعد لحظات بدأ يتناهب وقال : - النعاس يغالبني - سأخرج إلى الغناء حيث أنام هناك - الحر يكاد يقتلني .

لم يكن يشعر بالحر على الإطلاق ، وإنما كان يخاف البقاء مع مانول داخل الكوخ - ونهض من مكانه .

- مهدت لك فراشك - قم لتنام ، وغدا ستكون أحسن حالا .

أخذ البساط البالي وفرشه في الغناء ، وتوسد حجرا ، وأغمض عينيه - تذكر لينيو والنهبت حواسه - يسد أنه كان متعباً فاستدار واستغرق في النوم .

ألقى مانول بحزمة حطب أخرى في النار إذ كان يخشى الوحدة مع الظلام - وأرهق سمعه ، ينصت إلى أصوات الليل آتية من الباب المفتوح : اليوم تنعم ، والحشرات تنبش الأرض ، والفئران تصر صريراً جادا ... وبداخله الصوت الرخيم الملح ، لا يسمعه إلا في الظلام مع سكون الليل والوحدة .

ونهض من مكانه حيث وقف عند عتبة الباب يتطلع إلى النجوم - الطريق اللبني ينساب في همدوء ، والمشاري يتأجج قاراً ، والسماء المرصعة تتلألأ على البعد في صمت وحيور ... أحس مانول نشوة وسكينة كأنها السماء هبطت عليه واحتوته بينها - وعاد ثانية حيث جلس أمام المدفأة ... وعلى حين غرة عاودته كلمات الراعي الصغير وخفق لها قلبه بشدة .

وقال لنفسه :

- يسوع ربى ، هل هذه معجزة ؟ ألسنت أنت الذي بسطت لي يدك لحظة أن اندفعت ، مثل الناسك المعجوز ، لألقى بنفسي إلى التهلكة ؟

ووضع راحته على وجهه ، ولكن هذه المرة دون خوف أو بغور . وتحسس وجنتيه المتفتحتين ، وطمع المشقق ، وفي نفسه عرفان بالجبل .

وقال لنفسه وهو يربت يده على موضع الداء :

- من يدري ؟ ... من يدري ؟ ربما كنت مديناً لك بالخلاص ...

وهباً روعه ، وأبست ظهره إلى الجدار - كانت تنبعت من المدفأة سخونة لطيفة - وأحس برغبة في النوم - فقد اعتاد أحياناً ، إذا ما عانت نفسه صراعاً أثناء الليل ، أن يتراعى له حلم يهديه سواء السبيل - ودار بخلفه : - ربما ينتزل على الله في منامى هذه الليلة أيضاً ويحلوني هذه الغمة .

ألفض جفنيه ، وسرعان ما وراح في سبات .

خسفت النار - وانقضى الليل - وبدأت الديكة صباحها عندما فتح مانول عينيه اثر احساسه بخدر في جسمه مع برودة الصباح - لم يذكر أن تراهي له حلم وهو نائم - ولكنه كان مطمئن السواد - وشتم علامة الصليب - وتحركت شفتاه - فآذاه ذلك كان جرحاً نكاً من جديد - وحاول أن يقول متوخياً وضوح اللفظ : - المجد لله .

ونهض من مكانه وقصد المقعد الحجري بأخارچ ليجلس عليه .

ظهرت الشمس عند الأفق ، نضرة متوردة الوجه ، مستديرة جدلة - ها هي عاتمة إلى مملكتها الغنية الوفيرة - كل شيء أصبح على حاله كما تركته بالأمس : السهل المحصب ، وجبل العفراء الأخضر ، ومنحدرات ساراكيئا الوعرة ، وبحيرة فويدهامانا مستديرة مصقولة كالمرآة ، وقرية ليكوفريس ، التي آثرتها بحبها ، ودروبها الضيقة تعج بكائنات كالتمل تسمى بشرا .

تعمم مانول ثانية : - المجد لله . - ومسح بتمديله وجهه المشقق .

على المرتفعات : كان مانول يعيش فوق الجبل في نصب ومعاينة ، حيناً مع كتلة من الحشب يحاول تشكيلها وحيناً مع الرب أو الشيطان ، وحيناً مع لينيو والأرملة ... وفي نفس الوقت كان القسيس فوتيس يحاول تدبير أموره فوق جبل ساراكيئا - حدد عملاً لكل واحد من رجاله : البعض يحرق ويبيسر الحب في رقعة صغيرة من الأرض بين الحجارة ، والبعض يبنى ويشيد ، وفريق ثالث تولى مهمة القنص ، ... صيد

الأرانب البرية وطيور الجبل طعاما للجميع . واشترى ثلاث نعاج بالجنبيات الذهبية الثلاث عطية ياناكوس وأعادها إلى نعيمة الأرملة ، وهكذا حصل الأطفال على حاجتهم من اللبن . وعزم على أن يجعل أيقونة القديس جورج المتبقية ويطوف بها بين القرى والأديرة ، يسأل الناس عونهم . سيفعل لهم : « نحن يونانيون مسيحيون ، سلالة خالدة ، لن نبدي أبدا » .

وفي الوهاد : لم يكن ليوكوريس ، كان الكاينس فورتوناس لازال طريق فراشه يش وبثوج : رأسه المشجوج بحاجة إلى زمن طويل حتى تلتئم الجراح . والألم ، الذي تملك قلبه الرافعة ، لا يفتأ يرسل مع حارسه المراهم الناجحة ، ويحمله الرسائل يسأله فيها أن يجعل بالشفاء استعدادا لليلة منكر مترعة . والشيوخ بطرياركاس لم يكن أحسن حالا . تهيبه نوبة سعال يشق معها تنفسه ، وتلازمه رعشة . يستوى بعدها جالسا في فراشه . يحشو يطنه كفنيز حتى يقى ، ثم تنكب ثانية على طعامه وشرايه في نهم . لا يفتأ يرسل إلى كاترينا يسأله أن تأتي إليه وتلكه . ولكن الأرملة أعرضت عنه في ازدراء ، وبغيت إليه من يقول له أنها هي الأخرى مريضة ، وهي بحاجة إلى تدليك .

القسيس جريجوريس نفسه عموم ذاتية خطيرة تتعلق بابنته الوحيدة ماريوري . ها هو يراها تزدوي وتجنح يوما بعد يوم كالشجرة . كان يتلف أن يلقي بها بين ذراعي مبشيل . حتى تنجب له حفيدا بأسرع ما يكون . وقد باتت هذه هي آخر آمانيات حياته . إذ يرى فيها القسيس سبيله الوحيد للانتصار على الموت .

وبانابوتي ، أكل الجيس ، يعيش فريسة لحالة من الكآبة المصبة . انقضت ليال ثلاث حتى الآن لم تفتح الأرملة فيها له بابها . فهي لا تريد أحدا من أمثاله بعد الآن . لا يد أنها ترمي بعينها إلى غيره . أنها - هذه المسماة بمریم الجديدة المقدسة - تخرج في كل أونة قاصدة الكنيسة وتضيء الشموع هناك . وأقبل بانابوتي على الشراب يلتبس معه النسيان . وبات يذهب إلى بيته مع كل مساء مخمورا تماما . يتهال على فوجه وابتنته خربا . ثم يتفرش أرض الفناء وسرعان ما يملؤه بفضيل . يتجمع حوله صبية القرية كلما أصبحوه مخمورا . يتمسكون خطاه . ويستفرونه ببذاءاتهم : « يهوذا . . . يهوذا ! » . يحاول أحيانا أن يندفع نحوهم ليمسك بهم ، ولكنه يترنح ويستهتر ويسقط على الأرض سطوحا . والمعوز لاتاس اعتاد كل صباح أن يلقي المحاضرات على مسمع زوجة المالسة قبالة تفزل الجوارب . لم تكن تجيب عليه أبدا بل لم تكن

تسمع ما يقول . . .

— لقد تأخر يا بيبيلوب . لقد تأخر هذا الياناكوس المخادع . ولا زال إصبال الجنبية الثلاث بغير توقيع . حتى الآن لم يأت اليشا حاملا ولو بعض الأقراط . . . ماذا ترين يا بيبيلوب ؟ هل ثمة امرأة مهيا بلق بها الفقر لا تملك ولو قطعة واحدة من الجواهر ؟ لا ، لا ، لا يوجد أبدا . إن الله يواسع رحمته لا يرضى بذلك . وسوف ترين . سمعوا اليشا ياناكوس بالجواهر ، دعى عنك الفلق يا عزيزتي .

كانت أذنا الشيخ لاداس في طنين دائم . يوائيه إحساس مع كل لحظة بأن ثمة طرقا على الباب ، ولا يباحوه الوهم بأنه سمع هقيق حمار . يهرول حافيا يفتح الباب ويدقق النظر في الطريق من أوله إلى آخره . ولكن لا أثر لياناكوس .

كان ياناكوس يتجوز تطوافه بين القرى : يشتاع الأمشاط ويكرات الحيط ومرايا الجيب وتراجم القديسين مقابل القمح والصوف والديجاج . انهك في تجارته رغم أن ثمة أمورا أخرى تشغل فكره هذه المرة . أمور جعلته حريصا أشد الحرص على أن يكيل الكيل بالقسط ولا ينفق الميزان فقد مثل شيخ مسلم ذات يوم : « كيف للإنسان أن يتجنب الخطيئة » فأجاب الشيخ : « عندما تكون عينه على الجنة ساعة البيع والشراء » . وهكذا كانتا عينا ياناكوس على الجنة ساعة البيع والشراء .

وكان بين الحين والحين يذكر الأب لاداس ، ويتخيل صراخه ونواحه في انتظار عودته . وتذكر أخته أيضا ، تلك المرأة الناشز التي تسيب قسطنطين المسكين سوء العذاب . وما نولى ، الذي لا بد أنه عاد إلى مقامه فوق الجبل ، وربما تؤرقه مشكلة التوفيق بين المسيح ولينيو . بين الأرنب والثلث ولكن كل هذه كانت خطرات عابرة تطوف بفكره . وانما تركز فكر ياناكوس حول القسيس فورتيس والجبل القاحل الموحش ، وتلك الأرواح التي تشبشت بالجحارة حتى أن ملاك الموت نفسه يعجز عن أن يفصل بينهم وبينها .

وفي مقهى آخر قرية من القرى التي تطوف بها التقي ياناكوس بصديقه كرو جيورجيس . وهو صاحب المقهى ، ويعرف أيضا باسم كونيوس . رحب به ، وأحسن استقباله ، وأعانه على أن ينزل أحماله ، وساق حماره إلى الحظيرة ، ثم أسرع بالعودة إلى صديقه يؤانسه ويثرثر معه . وتجمع كل أهل القرية الصغيرة في هذه الأثناء ، والتفوا حول ياناكوس التاجر الطواف ، الذي يتجول من قرية إلى أخرى ، وباتهم بالمجديد من

الأخبار ، ويلتسون عنده جوابا على كل سؤال . وصاح صاحب المقهى
« اسألوهم يا أصدقائي ، اسألوهم فانه راحل غدا صباحا ، ولا تنسوا ان
تطلبوا القهوة » .

تجمعوا حوله ، وشرعوا يطرحونه في لهفة باسمئلتهم عن أحداث العالم
- المول الكبري ، والبلاشفة ، والحرب ، والزلازل ... وخصوا من أصواتهم
وارتجفوا : « يا سيدى ياناكوس ، هل تعرف شيئا عن فرق اليونان التي
جاءت ثم اختفت ثانية كأنها مضى البرق ؟ ماذا يحدث هناك على أرض
اليونان من حيث أنتى اخوتنا أبناء الإغريق ؟ ما هي أخبار المذابح والمرايق
والكوارث ؟ انسا هنا - ليكوفريسي والقرى المجاورة - بعيدون عن كل
هذا ، ونادوا ما نسمع شيئا عنها - ان نواجههم لم يصل اليها ، ولكنك
أنت يا ياناكوس تطوف بالقرى ، وتستطيع ان تلتقط بعض أخبارهم »
أبنتنا بأخبارهم قائلة في لهفة من أمرنا ونحرق شوقا لمعرفة هذه « الأخبار » .

وانقبضت نفس ياناكوس أيضا . انه لايفتح بفكر في القسيس فونيس
وقربته التي أحرقتها الأتراك انتقاما ، وشردوا أهلها هنا وهناك ... ان
قرى باكملها تمتد من سميرنا حتى فيرو - كارا - ينسار وما بعدها
أصبحت خرايا يبابا ، يتصاعد منها الدخان وأصبح اليونانيون مقهورين
مطاردين ، وباتت اليونان في خطر .

ولكن ياناكوس كان يشعر بالأسى لهم ولم يشأ أن يكدر صفوهم .
وقال ياناكوس :

- هونوا عليكم يا أصدقائي ، اذكروا آلاف السيدن الخوف التي
عاشتها اليونان . انها لا توث أبدا . يقولون ستحرق قرى حتما حتى
تأتي عليها البران ، وسيلقى بعض الناس حتفهم . ولكن سيعود أحفاد
الإغريق ثانية . يتنون القرى من جديد ، وينجبون للعالم أطفالا جندا ،
ويبعث شعب أناتوليا من جديد . هيا لشرب شيئا على حسابي .

وصاح شيخ جالس في أحد الأركان ، مستندا ذقنه الى عصاه ، منصتا
فانحرا فاه ، مرعفا السمع لكل كلمة من كلمات التاجر الطواف :

- بورك فيك يا ياناكوس ، بورك فيك يا ياناكوس . انه لأمر محزن
لو توقفت عن زيارتك لقريننا . اننا نرحب بك دائما لانك تأتينا بأخبار
عن العالم الواسع .

وسكن صوت النازجيلة عندما دخل المقهى على الماسولتزداد . كان

كبير القرية ، تتدل من منطقتهم حلقة علق بها مفاتيح البيوت التي يؤجرها .
ومقهى كوتيلوس واحدة منها . علم بقدم الرحالة الشهير فسرعان
ما اتصل خلفه الأحمر ، واختطف غلبونه الطويل ، وخرج لينتحدث الى
التاجر المعروف . فقد كان ثمة هم مضى يعذبه . ولعل هذا اليوناني
اللمين يوضع له جلبة الأمر .

نهض ياناكوس ووضع يده على قلبه وشفتيه وجهته بحبيبه النجبة
الرسمية الكاملة . فقد كان أحسن زبائنه ، وله عدد كبير من الحريم ،
وزوجاته وبناؤه وحفيداته مولعات بالتوايل وأحمر الشفاة والعطور
والخلوى . لذلك نهض واقفا وحياء وطلب له قهوة .

- ثمة هم تقيل يؤرق فكري يا عزيزى التاجر .

- أتيتني به يا آغا ، وكل ما أستطيع عمله ...

- ما هي بالذقة تلك التي يسمونها سويسرا أيها اليوناني الصغير ؟

هرش ياناكوس رأسه . لقد سمع هو الآخر شيئا كهذا ولكنه
يلتبس عليه تماما .

أراد أن يعطى نفسه فسحة من الوقت للتفكير فقال :

- ولماذا السؤال ؟

- لأن ابني كوريليس ذهب الى سويسرا ليدرس هناك ويصبح طبيبا .
وأحب أن أرسل اليه قدرا به أرز وسباتج وقدرا به لحم يشعل به
فارجيلته ، ولكنني لا أدرى أين هي سويسرا هذه ، ولا كيف أبعث بها
اليه .

وبيتمما كان الأغا مسترسلا في كلامه ذهب عن ياناكوس بعض
ما التيس عليه ، وتذكر :

- آه ، سويسرا . سويسرا بلد في آخر الدنيا تصنع اللبن
والساعات .

وصال الأغا في قلق :

- وهل تصنع أطبا أيضا ؟

- طبعاً . وأطباء أيضا . أحسن أطباء في العالم . اذا ما لمحهم ملاك
الموت ... كيف أعبر لك يا آغا دون أن أسدم كل من في المقهى ؟
نعم انه يقبى ينظفونا .

- حسن أيها اليوناني الصغير . أنت ابن حلال . ولكن ماذا عن
القدريين ؟

- حسن ، سأقول لك . سويسرا تمنع دخول الفهم الثباني ، ولكنك
تستطيع أن تعطيني الأرض والسباغ وأنا أعرف طريقة ...

كان ياناكوس قد تدبر أمره بالفعل . سيحصل معه الأرض والسباغ
إلى ساراكيثا ، ليعطي الشعب المانع شيئا يطعمه أكراما لحاطر كوزينيس .

قام الشيخ وقال :

- سأتيك بها حالا .

وتوقف مترددا عند باب المقهى . ثم استدار إلى ياناكوس :

- وما هي تكاليف إرسالها إلى هناك ؟

رفع ياناكوس يده وقال له :

- أترك هذا لي . خدمة مني لعل لها .

وما أن خرج إلاغا حتى صاح صاحب المقهى :

- أرجو ألا تحتجزها لنفسك وتاكلها أنت .

ورد عليه ياناكوس محتجا :

- هذا ما حرمة الله . إنها معاملات إيمنة يا صديقي .

ثم استدار إلى الفلاحين وقال :

- معذرة يا أصدقائي . نال مني التعب بعد رحلتي الطويلة وإلى رغبة
في أن أنام . لكم أن تسألوني ما شاء لكم السؤال غدا ، وأعطوني طلباتكم
ورسالتكم . ادعوا زوجاتكم وبناتكم أيضا عند سماعكم صوت البوق حتى
يأتين إلى ويشترين حاجتهن . طيتم مساء .

وأسد طهره إلى الخائط ، ومد ساقيه وراح في سبات .



حان وقت الظهيرة ، ودرغ ياناكوس من تجارته في القرية ، وأخذ
طريقه إلى ليكوفريس . كان غبار يركض سرورا ، فيها هو يشم راضيا
رائحة حظيرته الدفئة ، ومزودة الملى بالعلف ومسقاته المثرعة بالماء القراح .
قلبه يخفق كقلب بشر . ورفع ذيله لينهق بكل ما أوتي من قوة .
ولكن صاحبه شد لجامه وخفض من سرعته .

- لا تكن عجولا هكذا يا يوسوفاتي . اتجه ناحية الجبل . مستنصدا
مانولي أولا لنراه .

كان ياناكوس قد عامله بجفاء في ذلك اليوم ، وأغلظ له القول ،
وسلك معه سلوكا سيئا ، وأسف لذلك . ومن ثم كان راقيا ، متلها في
رغبته . أن يسأله الصفع .

وتتمتم قائلا :

- كنت على حق . ولكن لم يكن من اللائق بي ذلك ... مانولي رفيق
حساس . من النوع الذي تجرحه لمسة ريشة . كم كنت حمارا إذ تخصصمت
معه .

ثم خطر بباله على التوالى القسيس جريجوريس والعجوز لاداس ،
وميشيل ، والأرملة . طاف ذهنه بالقرية كلها ولكنه عاد إلى مانولي ثانية .
وتتمتم مرة أخرى :

- لم أحسن التصرف معه . جانبني التوفيق تماما ... نسيت أننا
نحن الأربعة يجمعنا عمل واحد طوال هذا العام . يمكن أن أقول أننا
شركاء : لا ابتغاء جمع المال وإنما ابتغاء الجنة - متاع الآخرة ، لا متاع
الدنيا .

وضحك لنلاعبه بالألفاظ ، ثم غرق في تأملاته وقال لنفسه :

- إلى الشيطان بمتاع الدنيا والآخرة ، أليسا شيئا واحدا تماما ؟
لا ، ليس هذا هو المرجح ، والا لكان الرب والشيطان في هذه الحالة سواء .
غفرانك ربى .

وسمع خلفه نهيق حمار ، فاستدار ناحيته . كان كريستوفيس
الذي أيسل من القرية على ظهر حماره . وكريستوفيس شيخ عتيده ،
خفيف الظل . تزوج ثلاث زيجات ، وأنجب للعالم كثيرا من الأطفال ،
حتى أنه لا يذكر عددهم . مات بعضهم ، واختفى آخرون ، وما هو اليوم
طليق . يذرع الطرقات بوزع النكات ويسل الجو بضحكاته .

توقف ياناكوس وانتظره . وقال له :

- طاب يومك يا شيخ كريستوفيس . هل لك أن تصنع لي مكرمة؟
هل تريد أن تعمل عملا طيبا ؟

- قل ما هي وسوف نرى . فقد تعبت من كثرة ما قدمت من الأعمال
الطيبة يا ياناكوس .

— فب قليلا عند ساراكنيا — فهي في طريقك — واعط هذا القدر للقيس فوتيس . وإذا سألك من أعطاه لك قل :

— رجل آثم ... هذا كل ما في الأمر .

رجل الشيخ كريستوفيس وقال :

— ماذا بها يا ياناكوس ؟ انها ثقيلة .

— أرز وسبانخ .

ثم قص عليه القصة كاملة . وفهقه الشيخ كريستوفيس وقال :

— بورك فيك يا ياناكوس . لو كان لرب يواهيك لما كان هناك أطفال جوعي ولا أرامل يائسات . ساذهب من قوري الى هناك .

— على رسلك ... على رسلك . غبت طويلا عن القرية . فهل من أخبار جديدة ؟ هل لا زال الشيخ لادس على قيد الحياة ؟

— هذا القصد يهرب من الموت . ألا ترى أن الموت يكلفه كثيرا . انه لن يجني ربحا من الجساسة . أما الكابتن فورتوناس المعين فحالته خطيرة .

وقال ياناكوس صاحكا :

— العرقي آزهد لئلا .

ورد الشيخ كريستوفيس :

— آه . ولكن الخلاقي افسسوا .

— وماذا عن القسيس جريجوريس الناعم ؟

— ليأخذ الشيطان . لا زال حيا يروق . يتمتع بالنعيم . اكتشف علاجا جديدا للعوافي من النساء . يقال انه طويل مثل السجق . ويبيعه حسب القياس . لو اخذت منه البقرة المعجزة ذراعا فانها سرعان ما تلد .

واغرقا في الضحك .

— أطال الله عمرك يا شيخ كريستوفيس . لو مت لمات مصك الضحك . مع السلامة . ساذهب لأشتري مائة ذراع من ذلك السجق وأملأ القرية بئينا وبناثا .

— مع السلامة يا ياناكوس . أتمنى لك التوفيق في تجارتك .

وافترقا . وعلى بعد خطوات زن صوت الشيخ كريستوفيس كأنه صليل جرس .

العشاش . اهتدى الى ذلك السجق منذ عهد آدم .

قال عبارته هذه ورددت المتحدرات أصدا . ضحكته .

بينما كان مانولي واقفا أبصر ياناكوس يرتقى الجبل قادما اليه . ممسكا بزام حماره يشده وراءه . فاستجمع شجاعته وقال لنفسه : الآن تبدأ مجنتك يا مانولي . فكن لها .

خطر بذهنه لحظة أن يدخل الكوخ ويتخذ لنفسه مطبعا في الركن المغم . فجلا من أن يفتضح أمره في ضوء النهار . فقد عاد يتفحص وجهه هذا الصباح في المرآة . ولغغم قائلا :

— الشيطان وحده على مثل هذه الصورة من الفبح . كان فمه هو الشيء الوحيد الذي فث وزمه قليلا . وهكذا أصبح أخيرا قادرا على الكلام .

كان ياناكوس يتروم بلحن وهو يرتقى الجبل . انه متشوق الى رؤية مانولي واصلاح ذات بينهما . فتنة حمل يجب أن يزيجه عن كامله . وسوف يتخفف منه ...

وقف مانولي ينتظره بقلب واجف تحت أشعة شمس الأميل الذهبية . تذكر شففى المسيح مزمومتين حتى لا يبين ما يعانيه من الآم . فزم شففى قدر طاقته . وقال لنفسه « سأعاهد ذلك . انه لأمر عسير في ميده . ولكن رويدا رويدا ... أسألك العون يا يسوع » .

بدأ اللحن الذي يترنم به ياناكوس يسي ويتضح أكثر فأكثر . وفجأة دوى صوت النفير جلا مزجوا . كان ياناكوس قد اعلى صخرة . ووقف بنفخ في نفيره ليعلم لصديقه عن وصوله .

وقال مانولي لنفسه « ما هو ذا يقترب ويصبح على مدى البصر . انه سيصيرني . تشجع يا قلبي » .

وصاح صوت طروب .

— ايه يا مانولي ... أين أنت ؟

خطا مانولي الى الأمام ورد عليه بجهان ثابت قدر استطاعته .

— ها آنذا .

رفع ياناكوس رأسه ، وفتح ذراعيه ، ولكن لم تكده عينه تقع عليه حتى تسمر في مكانه فافرا فاه مأخوذا . لم يصدق عينيه ، مسحها بيديه ، واقترب منه ، وحدق فيه ، ثم صرخ :

— مانولي ... مانولي ... ماذا دعاك ؟

تظاهر بأنه يريد معانفته ، ولكنه توجس خيفة ، فترجع عنه وهو يرتجف .

وقال مانولي بصوت رقيق :

— ارجع يا ياناكوس ان كان هذا فوق ما تحتمل .

وانجه صوب الحظيرة حتى يعنى ياناكوس من رؤية وجهه .

ربط ياناكوس حماره الى شجرة سنديان وتبعه . وسمع مانولي صديقه يقترب منه .

عاود حديثه اليه :

— ارجع يا ياناكوس ان كان هذا فوق ما تحتمل .

وأجاب ياناكوس :

— احتمل ... احتمل ... لا تذهب .

رسم مانولي علامة الصليب عند عتبة الكوخ ثم دخل وأغلق الباب الخلفي والجنى على نفسه في ركن معتم . وقال لنفسه .

— حمدا لله ان احتملت المواجهة .

دخل ياناكوس ، وجلس القرفصاء عند الباب . خلع قلنسوته ، ومسح جبينه . وخيم صمت طويل .

وأخيرا سأنه ياناكوس ، وعيناه متبثتان على الأرض :

— ماذا أصابك يامانولي ؟

ورد مانولي :

— لا شيء .

وصاح ياناكوس :

— كيف تقول لا شيء ؟ ان شيطاننا استقر على وجهك يامانولي . انه شيطان لا أنت .

وأجاب مانولي في هدوء :

— بل أنا . في حياتي لم اكن صادقا مثلما أنا الآن .

ولاذ بالصمت لحظة . ثم عاد يقول وهو يمسح بمنديلته وجهه الذي ينز دون انقطاع :

— في حياتي ... في حياتي ...

وصاح ياناكوس ثانية وهو يقاوم خوفه :

— كما اقول لك ، ان شيطاننا قد استقر على وجهك . عندما تطلع اليك فاني اخافك ... قم واركب الحمار ، ولتذهب معا الى القرية .

— لماذا القرية ؟ اني راض ها هنا .

— ستذهب الى القسيس جريجوريس ليرقيق بك قداس يذهب به عنك الشيطان .

— لا . لا . لي خدمة واحدة أسألك اياها يا ياناكوس : ألا تبوح بشيء عني لأحد .

— سأبني القسيس وحده يامانولي . اذا كنت تخجل من النزول الى القرية فانه سيصعد اليك ويقرأ قداسه هنا .

وتب مانولي مهتاجا وهو يقول :

— لا . لا . اني راغب فيما أصاب وجهي يا ياناكوس ... اني راغب فيه ...

ووثب ياناكوس بدوره وصرخ :

— أنا لا أفهم ما تقول . لماذا أنت راغب فيه ؟

— ابتغا خلاصي يا ياناكوس . ولا تفلن أنعم بالخلاص ... لا تنتظر الى كلامي على طاهره ، فاني عاجز عن أن أبين .

— هل هذا سر ؟

جلس مانوي ثانية في ركنه ، وقد احس بمزيد من الهدوء .

وأجاب :

- سر يعلمه الله وحده ... الله وحده وأنا ... ونحن على وفاق .

وتجاسر ياناكوس على القول :

- هب انه الشيطان ؟

- انه الشيطان ياناناكوس . وأنت صادق الحس . انه الشيطان الذي تلبسني . وحدها لله على ذلك . ولولا هذا لكنت مع الهالكين ...

ورد ياناكوس يالسا :

- أنا لا افهم شيئا ، لا افهم شيئا ؟

- وأنا لم افهم شيئا بادى الأمر . لم افهم شيئا ياناناكوس ...
ثم فهمت أخيرا . كنت يالسا اول الأمر ، ولكنني الآن هادى البال .
لست هادى البال بحسب ، بل اني أرفع يدي الى السماء أمجد الرب .

احس ياناكوس فجأة بتوفير لمانوي وتمتم قائلا :

- أنت قديس ...

ورد مانوي محتجا .

- بل آثم ، وآثم كبير ... ولكن الله واسع الرحمة .

ولاذ بالصمت . وعلى البعد رنت أجراس القطيع ، ونجت الكلاب .
وبدأت الشمس في المغيب ، واقتضت الكوخ ظلال زرقاء كبيرة . وضاق
الحمار بغياب صاحبه فشرع في تهيق حزينا كأنما يستدعيه .

وصاله ياناكوس :

- هل تستطيع أن تأكل ؟

- اللين فقط ، اعتصم بالبوصة .

- هل تشعر بالحم في أى مكان ؟

- لا ، لا أشعر بالحم أبدا ... انصرف ياناناكوس . في رعاية
السماء . حسينا هذا . ولكن عدني بأنك لن تبوح بشئ لأحد . هذا
ضرورى ... هل تفهمني ؟ حتى أبقي هنا وأكابد وحدي .

- ضد الشيطان ؟

- ضد الشيطان .

- وإذا انتصر ؟

- لن ينتصر . لا تخف . الله معي .

وغمغم ياناكوس :

- أنت قديس ... لست بحاجة الى عون أحد . أتمنى لك صحة
طيبة . صاعودك ... ليس عندي ما أقوله خيرا من ذلك .

- إذا لم يكن هذا فوق ما تحتل ياناناكوس ؟

- بل أحتمل ... سأراك قريبا .

وشعر للحظة بدافع يدفعه الى أن يمسك بيد مانوي ويقلبها .
ولكنه أحجم . وخرج حيث فك عقال حماره الذي عز ذيله في سعادة .
واتخذ طريقه نازلا الى القرية ، شارد الفكر ، دون أن يلقي بنظرة الى
الوراء .

وتمتم وهو يهبط المنحدر :

- العالم ملئ ... ما أشد لموضه ... يعجز المرء فيه عن أن
يميز الشيطان من الرب الرحيم ... كثيرا ما يتشابهان ... استغفر
ربي .

في اليوم التالي قام مانوي قبيل الفجر واتجه الى حيث كان نيكوليو
نائما في فناء الحظيرة ، مستلقيا على ظهره في غبطة وهشاشة . وركله
لبوفله .

- نيكوليو . قم . أريد منك عمل شئ .

ارتفع رأس الراعي الصغير ، الحلو التقاطيع ، وهو لا يزال غائبا .
وانفتح الجفنان ، ولح بياض العينين قليلا في قبش السحر .
وهمهم وهو يتشأب .

- ماذا تريد ؟

- قم . قم . صاخر بك بعد أن تستيقظ ... هيا انهض .

نهض الغلام متأقفا . وما أن شب على ساقيه حتى كشف عن بطن عار برنزي . وأبان عن ذراعين وفخذين وحماتين يغطيها شعر أسود لامع . وكانت تفوح منه رائحة السعتر والماعز .

وقال مانول :

ارسم علامة الصليب . حتى وإن كنت لا تفعلها ، فيجب عليك أن تفعلها اليوم .

وقال نيكولوي وهو لا زال يتسلى ويطلق مفاصله :

— دعك من هذه يا سيدى . أى خير فيها ؟

فقد عاش حياته فوق الجبل ، نشأ وترعرع بين الكباش ، ومن ثم لم تواته يوما الرغبة فى رسم علامة الصليب ، ناهيك عن الذهاب إلى الكنيسة . إذن ما حاجة نيكولوي إلى هذا كله ؟ كل ما كان يبتغيه أن يكون صحيح البدن ، ويتزوج وقتما يحين الأوان ، وينجب أطفالا ، ويمتلك بعض الماشية ، ويتقدم به السن وهو لا يزال قوى المود مثل شجرة سنديان مورقة . أما علامات الصليب ، والصدراء المقدسة ، فهذه كلها أمور تخص أولئك الذين يسكنون السهل .

جلس مانول عند عتبة الباب ، منتظرا نيكولوي إلى أن يغتسل ويصحو من نومه تماما . لقد اتخذ قرارا مروعا أثناء الليل . لم يغمض له جفن طوال الليل ، كان الرب والشيطان يتصارعان بداخله . وانصر الرب عند مطلع الفجر . ونهض مانول ساعتها واتجه إلى الراعى الصغير حيث ركله بقدمه ليوقظه .

قال نيكولوي وهو يسوى شعره براحيته :

— ها أنذا قد صبحت . أبلش الآن بما تريدنى أن أفعله .

وقال مانول بصوت خفيض :

— اسمعنى يا نيكولوي واضح إلى ما أقول . إن كنت تخافنى فلا تنظر لى ، بل تطلع إلى بعيد . ولكن اصغ جيدا إلى ما سأقول .

وقال نيكولوي وقد أشاح بظفره :

— انى مصغ اليك .

— ستنزل إلى القرية ، وتقصد بيت السيد ، ستجد الباب اليوم مفتوحا ، فادخل . ستجتاز اللنا ثم تتجه يمينا إلى الطابق الأرضى حيث يوجد النول . ستلقى هناك خطيبتى لينيو .

وانتفت نيكولوي نحوه بانفعال ، وبرقت عيناه وقال :

— لينيو ؟

— ستلقى لينيو وتقول لها . . . اصغ إلى كلمائى جيدا يا نيكولوي ، أنتقصها فى رأسك : « إن مانولى يبعث اليك بتحياته ، ويسألك أن تتكرمى بالصعود إلى الجبل . لديه ما يريد أن يقضى به اليك » هذا كل ما فى الأمر . تبلفها هذا وتنصرف بعدها توا . . . هل تفهمنى ؟

— فهمك ، هذا أمر سهل . سأذهب الآن .

هم بالانصراف ، متعجلا النزول إلى القرية .

أمسك مانول بذراعه وقال له :

— انتظر أيتها العزى البرى . إذا سألتك عن حالى فقل ابنى بخير . أستحلفك بالله ألا تقصص عن مرضى . حذار والا فالويل لك .

— لا عليك يا سيدى . سأقول لها « انه على مايرام » ثم أولى الادبار .

— اجر من فورك .

اندفع نيكولوي كالسهم وغاب عن الانظار .

كانت لينيو قد نهضت من نومها بالفعل . أعدت شرب التيزان الممزوج بالروم ، وارتقت الدرج لتقدمه إلى سيدها الشيخ بطرياركاس . كانت ترتقى الدرج الحجرى مشرقة الوجه ، مرسله الشعر ، تغرد كطائر الزمير .

كان السيد المعجوز جالسا على حشية يتطلع بتأطيره من النافذة إلى سطوح بيوت القرية من تحته . وطاف بخاطره على كل أهل القرية ، طرق أبوابهم ، ودخل بيوتهم ، وألقى إلى كل منهم بكلمة مجاملة تواضعا ثم ولى عنهم خارجا . وارتقى الجبل ، وألقى نظرة عجل إلى الماشية حتى التقى بمسانولى ففقد صوابه . هل سمعت مثل هذا ؟ هذا الخادم القدر يعارضنى . يقول : روحه . . . روحه غير مهياة . . . حسن أيها النعس ، إذا لم تتزوج بلينيو حتى آخر أبريل فانك مطرود ، سأدفع بك ثانية إلى الدير لتعيش هناك حياة الخصيان . تدوس على النعمة التى أنعمت بها عليك أيها الخنزير الحفير . انك أنت الذى أدت رأس ابنى ، انه أنت يا شحاذ الذى تأخذك الرافة بالفقر . . . يقول لى أنهم بشر أيضا مثلنا ،

انهم اخوة لنا . هذا كله جميل حين يقال في الكنيسة . وحين ينطق به القسيس من على المنبر في يوم احد . اما انت ايها القرد فلا بد وانك قد جنت تماما اذ تريد ان تطبق هذا الكلام عليا في دارك .

افتتح الباب . ودخلت لينيو حاملة شراب التينان . ومرة ما ولت افكار الشيخ بطرياركاس عن ابنه وراعيه لتستقر على الفتاة التي تقيض خفة وغواية ، تحمل اليه شرابه المفضل . تحضر في مشيبتها فيهتز ردفاها . حلق اليها يتسلاها بعينييه وهي تقترب منه . يمتنع ناطريه معجبا بالندى النافر ، والخصر النحيل . والأطراف البضة . وحدث نفسه قائلا « ما حياك معك ايها العاهرة المباركة وأنا أنظر اليك كابنتي » . كانت أمك في صباها تحساكيك خفة ومرحاً . . . وحسبها الله . قلى ذات ليلة . . . وتحسس الشيخ شازيه وتهدد .

وقالت لينيو في تملق :

— كيف حالك اليوم يا سيدي ؟ علام التهدد ؟

— وكيف لا أنتهد يا عزيزتي لينيو ؟ اني معذب بين ابني ومانولي . قبل لي انك قصدت الجبل لول أمس لمقابلته . ترى ماذا قال لك هذا الاحق ؟ جلست لينيو على حافة السرير عند قدمي الشيخ ونهدت بدورها . وقالت له :

— ماذا تنظن انه قال لي ياسيدي ؟ أخاله مسحورا . . . حدثني عن أمور لا أتبين منها شيئا ، أعياء الكلام . . . وبدلا من أن ينظر الى وجهي على نحو ما يفعل الرجال ، كان يرخي عينيه الى الارض . أو يرفعها الى السماء مسبلا جفنيه . . . ماذا أقول لك يا سيدي ؟ من يدري لو أخذته الى القسيس جريجوريس ليقرأ عليه التعاويذ ؟ لا تضحك . ان مانولي مسلوب العقل . يا سيدي .

كان الشيخ الحثيث يربق لينيو ملوثة خفي . وبدأ يرتشف شرابه بصوت صاخب وسألها :

— هل تحبينه ؟

— وماذا تنتظر يا سيدي ؟ لقد زوجته بي وهو رجل . ولو زوجت آخر بي لكان ذلك الآخر رجلا . والرجال عندي سواء كما تعلم .

وسألها سيدها . وهو يغمز لها بأحدى عينيه :

— والمعجزة أيضا يا لينيو ؟

وردت الفتاة بطريقة قاطعة رادعة :

— حقيقة لا . . . الفتيتان فقط .

ودل عليها المعجوز قائلا :

— حتى كم من العمر ؟

— طائفا وأنهم قادرون على الإنجاب .

قالت ودعا هذا في غير تردد . بدت وكأنها تدبر كل هذه التساكلى من قبل وقطعت فيها برأى .

— ان لك عقلا ماضيا كحد موسى . تذكرى ما أقوله لك : أنت تعرفين بفيتك . سترحلين عن هنا . ضحكك الفتاة ونهضت من مكانها . أخذت القدح الفارغ وعادت الى الباب ولكن المعجوز أوقفها .

سألها :

— ما هو التاريخ اليوم ؟ كم من أبريل . . .

وعدت لينيو على أصابعها الأحد ، الاثنين ، الثلاثاء . . .

— السابع والعشرون يا سيدي .

— عليك بالانتظار ثلاثة أيام آخر ، حتى يتسائل صاحب السعادة مانولي ويبلغنا اجابته . لو بلغ به السفه الى الحد الذي يرفض فيه مثل هذه الجورة . فلا تجزعي بالينيو ، ساجد لك زوجا خيرا منه . رجلا بكل معنى الكلمة . ليست له روح ولا ما شابه ذلك من الترهات التي بعدتنا بها . . . زوجا يعمل فناء بيتك بالأطفال . هيا اجر . يحسن أن أتخص اليوم وأقصد الكنيسة . ثم أبدأ بعدها جولة في القرية . . . أنتى ملايس نظيفة .

تمتمت لينيو وهي تنزل الدرج . وتعتدل بصدورها عسكرة حبيبة كان تمة من يدغدغها :

— يا له من شيخ ينير الاستشراق . . . كان يلثموني بعينييه . . . قسما بايماني لو لم يكن هذا الشيخ أبى لعرفت كيف أغريه بالزواج بي . ولا بأس ان أعجز عن إنجاب أطفال . وماذا يهم في ذلك فتاة أخرى قادرون . ولكن الشيطان قلب الاوضاع كلها رأسا على عقب . ولكن . لا بأس . ان مانولي ليس سيئا الى هذا الحد .

في هذه اللحظة ظهر نيكولاي عند عتبة الباب . نال منه الحر ،
وتصاعد من جسده البخار ، وعيق الغناء برائحة الماعز والطين . كان
يشبه جدبا واقفا على قدميه الخلفيتين ، أو ربما ملاكا صغيرا في سورة
غضب .

ما أن أبصرته لينيو حتى توقفت ، واقشعر بدنها وتمتمت :

— من هذا ؟ ما أطيب رائحته .

ثم صاحت

— ماذا تريد ؟ هل أنت نيكولاي ؟

ورد الرائي الصغير بصوت متكسر كأنه رجع الصدى :

— أنا نيكولاي .

— أنا لا أكاد أصدق ، أصبحت الآن رجلا بمعنى الكلمة ، ونحضر
شاربك . ما الذي أتى بك إلى هنا ؟

— بعث بي مانولي مع الصباح الباكر لأخبرك شيئا ، ولهذا جئت
إلى هنا .

اقتربت منه لينيو بقلب واجف . وقالت :

— مانولي ؟ لا تصرخ فلست فوق الجبل . تحدث هنا بصوت رقيق .
ماذا قال لك لتخبرني به ؟

— قال لي ما يلي : « اليك تحيات مانولي . هل لك أن تنكرني بالعودة
إلى الجبل . لديه ما يقوله لك » .

— هل هذا كل شيء ؟ حسن . قل له إنني قادمة ... انتظر .
لا تنصرف . وكيف حاله ؟

— أنه بخير . أنه بخير تماما .

قال نيكولاي ذلك بصوت عال ، ثم ولى عنها مسرعا تاركا وراءه
غيبرا نفاذا .

في هذه اللحظة خرج ميشيل إلى الغناء ، يرقل في ملابس يوم الأحد
الناعمة ، حلق الذقن ، مشط الشعر ، فقد نهيا للذهاب إلى الكنيسة
يستمتع فيها لبعض كلمات الانجيل ، ويزور ماريوري . توسط الغناء

يادي الفلق ، كأنه ملاك . جمدت لينيو في مكانها لحظة من الزمان مسلوكة
اللب من فرط الإعجاب . وحدت نفسها « لا بد وأن أبي كان على هذه
الصورة في شبابه ، كأنه القديس جورج » .

وضع ميشيل على رأسه تلنسوته التي كان يمسك بها في يده ، وقال :

— صباح الخير يا لينيو . اني ذاهب إلى الكنيسة .

أجابت لينيو مداعبة

— في رعاية الله . اذهب إلى هناك توا يا سيدي . اياك أن تحيد
عن الطريق .

ورد عليها ميشيل وكان قد لمح الرسول الذي اختفى سريعا
عن الأنظار .

— يقينا مستحيدين أنت عن الطريق . ستذهبين توا إلى مانولي .
فما حاجتك إلى الشكوى .

أحسست الفتاة كأن كلماته لدغتها ، فدفعت عن نفسها الاتهام قائلة :
— « لست أشكو . من قال ذلك ؟ أنفا معشر الخدم بشر أيضا .
إن الله بواسع رحمته يقينا من ذلك الشكوى . ولو ارتدى مانولي ملابسك
يا سيدي لبدأ هو الآخر سيدا أتيقا ههنا » .

وأجاب ميشيل وهو يجتاز عتبة الباب :

— « أنت على حق يا لينيو . نعم أنت على حق . الملابس هي الشيء
الوحيد الذي يفرق بيننا » .

وبدأت الأجراس تدق معلنة بدء القداس .

— « حسن . اني ذاهب يا لينيو . آتينا بأخبار طيبة من الجبل » .

وأجابت لينيو بملسانها السليط :

— وآتينا أنت أيضا بأخبار طيبة من بيت القسيس » .

عبرت الكنيسة برائحة الشمع والبخور . وتلايلات الأيقونات في
وداعة فوق أعمدتها . وأضأت صور القديسين وللثة المنيحة بأثوابهم
المتعددة على جدران الكنيسة ، من أول الدور الأرضي الذي كسته الأعلام
حتى القبة . يشعر المرء عند دخوله هذه الكنيسة البيزنطية القديمة كأنها
يقيم في رحاب جنة تمج بطيور رائعة الحسن ، وأزهار تسامق الإنسان ،

وملائكة كانوا محل عملاق يملأ فوق الأزهار ، ينقل بينها ليحيى منها
الرحيق . واعتلى الإله القوى القبة متربعا على عرشه . عاتيا ،
متوعدا ، يطل من عليائه على ربوب البشر .

ومن تحت وقع المؤمنين على البلاط يطنون هم أيضا ، الرجال في
الصدارة ، والنسوة من وراءهم . ودعوا إلى الكنيسة وانحنوا أمام
الأيقونات . ونسبوا بانوفهم تم استغافوا هانمين في مفكوت
السوات مصفين إلى الترانيم . وامتندت مقاعد الأعيان وراء النضد الذي
صفت عليه شموع وصحاف من فضة . لم يكن ثمة من يتوقع حضور
الشميع بطرياركاس . أما الكابتن فوروناس ، هذا النمسي ، فلا زال طريح
فراسه يش ويتوجع . ثم يحضر من الأعيان سوى ناظر المدرسة بنظارته
وياقنقه البيضاء ، وإلى جانب الأب لاداس قايما في ركنه يتمتم بشفتيه .
كانت الكلمات التي يلوها بين أسنانه تطبع على شفتيه طعما غرا . لقد
أتاه ياناكوس البارحة بأخبار سيئة . فإن أولئك الناس ذوي الأسعمال
البالية الذين غاموا على وجوههم زهاء شهور ثلاثة في الطرقات والدروب
قد باعوا ، على حد زعمه ، آخر ما كان معهم من اللجوهرات . ولم يبق لهم
سوى أصابع عارية . رأى تقع للأصابع يا أب لاداس ؟ أنها لا تقبل
الأذان بغير أقراط . ولعن القدر . ووقف وراء النضد يش بالشكوى
« أني تعس ، لا حظ لي ، ليت القرية المتكوية كانت قرب ليكوفريس حتى
كنت أبدا صفتني في الوقت المناسب .. ما فائدتها الآن بعد أن أصبحت
خرابا ؟ ليأخذها الشيطان » .

كان المؤمنون لا زالوا يتوافدون ، يضعون بعض ما يتصدقون به
من مال في الطبق ، ويأخذون شمعة ويرسمون علامة الصليب . ثم
ينجھون إلى الحجاب . كان الأب لاداس شارد الذب . « من حسن الحظ أن
وقع هذا الأبله أيضا الجنيهاث الثلاثة . لو كنت مكانه .. »

لم يجد نسخة من الوقت ليتابع سلسلة أفكاره . إذ دخلت جثة
ضخمة ، حطت بجواره ، وأز المقعد تحت ثقلها . واستدار متبرما ، فأبصر
الشميع بطرياركاس ، صاحب الوجه ، مترهل الوجفات ، جامد النظرات ،
أصفر الشفتين وفيهما جفاف . وقال لنفسه « هذا الخنزير الضخم البدين
لن يموت أبدا » واستدار ناحيته في كيامة وحياء .

وهمس بصوت كليل « أتمنى لك صحة طيبة يا عمدة » ثم
استغرق في همومه .

أضأت الكنيسة بنور ميشيل حين أشرق عليها . جاء متأخرا ،

لقد عرج على بيت ماريوري التي كانت في انتظاره . كانت وحدها في
البيت ، فيما عدا الحربة العجوز الصماء التي كرست حياتها لخدمتها .

قالت ماريوري التي وقفت وراء الباب مسندة ظهرها إليه :

« غبت عني زمانا » .

ارتدت هي الأخرى أحسن لباسها . تنللا حول جيدها قلادة من
العملات الذهبية البيزنطية ورتبتها عن أمها . ومست وجنتيها في رقة
بخضاب الزينة الأحمر الذي اشتترته بالأس من ياناكوس . ولكن عينيها
كليلتان كأنما كانت تيكى ، تحيط بهما دائرة زرقاء شديدة الزوقة .
أمسكت بمنديلها تضعه على فيها بين الحين والآخر .

وسألها ميشيل الذي ساورته الهموم :

« لماذا بعثت في طلبى ؟ ماذا يرعذك يا ماريوري ؟ » .

غضت ماريوري من طرفها وأجابت :

« أرى في عجلة من أمري . يريدنا أن نزوج » .

« ألم تنفق على عيد الميلاد يا ماريوري ؟ لم يبق عام بعد على وفاة

أمي . وهذا لا يليق .. »

وعادت الفتاة حديثها بصوت خافت :

« انه عجل . كل يوم يدور خصام بيني وبينه . يهب من لومه كلما
التصفت الليل ويدرع الحجرة جيئة وذهابا . ويستعصى عليه النوم .

« لماذا ؟ وما سبب تعجله ؟ »

تمتمت ماريوري بصوت مرتجف :

« لا أعرف يا ميشيل .. لا أعرف » .

كانت تعرف تماما سر قلق العجوز ولكنها لا تجرؤ على الانصاح .
وهي تدرك في أعماق نفسها أن أباه على صواب ويلزم الإسراع .

وقال ميشيل :

« لم يكن أبي يحب أمي ، إذ كانت تكويه سنا . وعاشت حتى
تقدمت بها السن . واعتادت أن تزجره .. وسئم حياته معها ولذلك لم
يحزن على موتها . وأيا كان الأمر فإنه لا يجرؤ على الخروج عن التقاليد

ولما مضى عام بعد • هذا فضلا عن أنه عمدة القرية ورئيس أعيانها ويجب عليه أن يضرب المثل •• هل تفهميني يا ماريوري ؟ ••

— أهفك • أهفك •• ولكن أبى فقد صبره كما أقول لك • ويلومنى •• ولم أعد أحتمل المزيد ••

وأحسنت بالسعال يغالبها • ولكنها كظمت • ووضعت مندبلها على قمها • وبدأت يدها الصغيرة ترتجف بين راحة ميشيل • ويلها العرق •

وفجأة تطلع إليها ميشيل منزعا • لقد أصابها الهزال بصورة تنير الحرف • وتنتاد عظامها من تحت جلدها الناعم • وبات وجهها يشبه الجمجمة •

خسفت على يدها • ثم ضمها إلى صدره وغغم :

— ماريوري •• ماريوري ••

خيل إليه كأنها ستفارقه وهو عاجز عن أن يبقيها • كأنها ليست سوى حفنة من الرمل في راحته • تنساب حبيباتها من بين أصابعه تودعه •

قالت الفتاة وهي تحاول أن تمسك عبراتها :

— •• حبيبي ميشيل •• يجب أن تنصرف الآن • اذهب إلى الكنيسة • سأأتى أنا أيضا بعد لحظة •• تأخرنا • اذهب • لعل الله أن يسلطنا ببركته ••

أمسكت برأسه بين يديها وضمته إلى صدرها فترة من الوقت • كان بدننها كله يرتجف •

وتتمت ثانية • لعل الله أن يسلطنا ببركته •• ثم ولت مسرعة إلى الداخل • وألقت بنفسها بين ذراعى مربيتها كأنها غشى عليها •

فتح ميشيل الباب في هدوء • وحث الخطى قاصدا الكنيسة • منقبض القلب • ضيق الصدر •

ظل واقفا قرب مقعد أبيه • والتفت إليه الشيخ معجبا به • وقال لنفسه • هكذا كنت يوما •• هكذا كنت يوما •• أينها الحياة المضنية • تمسكين كاستورة من أساطير الجان ••

في هذه الأثناء كانت لينيو قد فرغت من تسريح شعرها • ورشّت عطر ماء البرتقال على شعرها وداخل صدرها • وسوت حول رأسها مندبلها الأصفر ذا الأهداب الحمراء • الذى أهداه لها سيدها في عيد القيامة • ثم خرجت تشق طريقها بين الدروب ميمّة شطر الطريق الصاعد إلى جبل العفراء •

انتهى القداس • وتفرق أهل القرية في الميدان • بروحون ويجيتون • عليهم ملابس يوم الأحد • ويدخلهم تقوى يوم الأحد • أم بعضهم مفهى قسطندى يشربون ويضحكون •

وكان الأغا كمادته جالسا في شرفته يدهن نارجيلته • عن يمينه حسين يسك بالنفير • وعن شماله يوسوفاكى يصب له الشراب ويضع اللبن • ضيق الأغا عينيه الدامتين يرصد بهما أهل القرية في الميدان من تحته كراع يطل على قطيعه في حذب ولهفة • كان يؤمن أنه إنسان ومن عده أغنام • يأكل اللحم ويأكلون هم الحضر • وتقضّل عليهم الأغا إذ سمع لهم أن يطعموا في سلام حتى يقرؤوا له حاجته من الصوف واللبن واللحم •

وكانت لينيو ترتقى الجبل بقلب استخفه الفرح • توهجت ما يريد هانوى • سيعقد قرائتها هذا الأسبوع • انتهى انتظارها الطويل إلى غير عودة • والحياة الحقة على وشك أن تبدأ • سيكون تهاوى عملا في البيت والطبخ وليل قبل وأحضانا • وبعد تسعة أشهر •• طفل أهدعه •• لن أكون خادما بعد اليوم • ساكون زوجيا وأما ••

كانت تحب مانوى : فتى وديعا • مجدا في عمله • وشيما • أشقر اللحية • أزرق العينين • رقيق الملامح • صورة صادقة للمسيح •

استخف الفرح قلبها فصار له جناحان • سيقها بهما إليه وارتقى الجبل سريعا • حتى بلغ أرض المرعى وحوم حولها • ثم حط على كنف مانوى كطائر حجل أنيس يدين أحمر المخالب • داعب بمنقاره في هيام عنقه من أمام ومن خلف •

وحدثت نفسها قائلة :

— • لا بد وأنه جالس الآن فوق الصخرة الناتئة عند أول الطريق ينتظرني • أحسب أن قلبه كقلبي طار فرحا ••

وكانت على حق • فقد جلس مانوى فوق الصخرة الناتئة • طفق يمسح وجهه المتورم • الذى نكأت جروحه وعادت تنز •

وقال لنفسه :

« .. انى حزين من أجل هذه المخلوقة النعسة .. انى حزين من أجلها .. ولكن قضى الأمر .. بات لزاما على أن أحرر نفسي من الفوارة ، وأطهر النفس والبدن حتى أكون جديرا .. »

وأدرك السبع ، فقد تنهى الى سمعه وقع خطواتها ، خفيفة سريعة ، وتنسم شذا زهر البرتقال الذى تضيوع به الهواء ، انه شذاها .. تنسمته أنفه على البعد ..

وحدث نفسه :

« .. انها قادمة .. انها قادمة .. ها هي ذى ، ها هي ذى .. »

ظهر المتديل الأصفر على البعد .. وتوقفت لينيو عنيها ، وأطلت عينيها براحتها .. ابصرت خطيبتها جالسا فوق الصخرة الناتئة ينتظرها ، منكس الرأس .. وضعت يخطوات وثيدة ..

عاد مانولى جديده الى نفسه :

« .. ها هي ذى .. »

رفع رأسه واستوى واقفا وظل جامدا فى مكانه ..

تظاهرت لينيو بأنها لم تبصره ، أملا فى أن يتب نحبوها كمادته ويسك بها من خصرها يعينها على الصعود كما كان يزعم لها .. بيد أن مانولى اليوم ليت مكانه ولم يبد حراكا ..

لم تطق صبرا .. وصاحت به :

« .. مانولى .. »

لم يجيب مانولى .. ظل واقفا فوق صخرته واجما جامدا بغير حراك .. بدأت لينيو تعدو حتى اقتربت منه ، ورفعت رأسها وأبصرته فصرخت مولولة :

« .. يا سيدتنا العذراء .. »

وخزت الى الأرض ..

نزل مانولى انتشلها من على الأرض .. غطت عينيها بذرعاها الأيسر ، ومدت ذراعها الأيمن تتحاشاه ..

وصرخت بصوت أجش :

« .. اليك عنى .. اليك عنى .. اليك عنى .. »

وقال مانولى بصوت رقيق :

« .. أنظري الى ثانية يا لينيو .. أنظري الى وبعدنا ستعافى نفسك الى الأبد ويكون خلاصك منى .. »

ولولت الفتاة النعسة :

« .. لا .. لا .. اليك عنى .. »

تراجع مانولى ، وعاد الى صخرته ، وجلس فوقها ..

طلا كلاهما واجبين لفترة غير قصيرة .. وكانت لينيو أول من قطع هذا الصمت حين صاحبت :

« .. ما هذا ؟ أنبشى بحق السماء .. ما هذا ؟ .. »

وأجاب مانولى فى عدو :

« .. انه الجذام .. »

وارتعدت لينيو ، وأشاحت بوجهها ناحية القرية .. وقالت :

« .. الى راحلة .. ألهذا بعثت فى طلي ؟ .. »

وأجاب مانولى وهو لا زال محتفظا بهدوئه :

« .. نعم ، لهذا السبب .. هل تستطيعين الزواج منى الآن ؟ .. لا .. لأن تستطيعين .. هل تريدن أطفالا مصابين بالجذام ؟ لا .. لا تريدن أثر كيتى .. »

مرة أخرى طلا صامتتين .. وفجأة أجهشت الفتاة ببكاء عنيف حز كيانها ..

أدار لها مانولى ظهره لينهب الى المرمى .. وقال لها :

« .. مع السلامة يا لينيو .. وداعا .. »

لم تجب لينيو .. مسحت عينيها بمنديلها الأصفر الناعم ، وتلفتت حولها وقد ومن جسمها ، لا تقدر الى أين تذهب .. واختفى مانولى ، وبنت الأرض صحراء قفرا تدور لغير هدف ..

بلغت الشمس سمتها وهدمت الأصوات فيما غسلا رنين أجراس
الملائكية وهي في طريقها إلى شجرة السنديان ترقد تحتها ، تستظل بظلها .
وللحظة من الزمان سندح ناي بلحن شجي في هذه الخلوة ، ولكنه خفت
فجأة .

ظلت لينيو تردد بين نفسها في حلق :

« الجذام .. الجذام .. »

وسرت في جسدها رجفة ورغم قيظ الظهرة اللالح .

ترى كم من الوقت مكثت هناك قابعة في مكانها بين الحجارة مطوية
حول نفسها .. أنها لا تدري ، تخالها دحرا وهي لاتعد دقائق معدودات .
ذلك لأنها حين نهضت من مكانها لتتصرف كانت الشمس لا تزال جامدة
بغير حراك تمتلئ كبد السماء .

عاد الناي يردد من جديد لحنا فيه شجو وطرب ومناجاة .. كأنه
روح أخرى لا تطيق الوحدة .

سأرت لينيو مسلوكة اللب في غير وعي ، واتجهت صوب الناي
كأنه يدعوها . خيل إليها كأنها سمعت اسمها يناديها به . سارت مترنحة
المطو ، لاهة الأنفاس ، وبعد خطوات قليلة أرهفت السبح . أصبح الناي
أكثر قربا ، وأوقع ملاطفة ، وأمن تضرعا أنه يناديها ويجذبها إليه ..
لم تعد قادرة على الممانعة ، وواصلت المسير شاردة الحس .

وعلى حين غرة طالعنها الأغنام ، وراقة تحت شجرة سنديان سامقة ،
نبتت داخل تجويف في الجبل . أراحت الأغنام وقايها على الأرض تستمتع
ببعض رطوبتها . لم يبق منها غير اثنين كأنهما يتأهبان للطراد والمناطحة .
ووقف بالقرب منها الراعي الصغير نصف عاري شب ويرقص مهمما ، وبين
شفتيه ناي طويل .. يرفع طرف الناي من بين شفتيه بين الحين والحين
ليصرخ صرخات وحشية ويصفق يديه ، ويصدر عنه صياح كأنه تغاء ،
ثم يعود إلى العزف ثانية ، وينساب اللحن عاليا أكثر فأكتر .

تقدمت لينيو مسحورة ، مترددة المطو . كان الراعي الصغير يوليها
ظهرا ، ومن ثم لم يبصرها . وما هي لينيو الآن تستطيع أن تتبين كل
ما حولها : كبش له آلية ثقيلة وقرنان ملفوفان يلاحق نعجة بيضاء ، يحاول
أن يعتليها وهي تقلت منه . يشب الكبش على قسميه الخلفيتين مهتاجا ويعود
ليمسك بها من جديد بحافزيه الامامين ويطرح نفسه فوقها ويصدر عنه
أنين خافت كأنه يتوسل إليها .. والراعي الصغير يتابع معركة الحب يشب

في مكانه ويرقص ويصيح صيحات رقيقة يعضد بها الكبش في توسله .
وصرخ :

« هيا يا داسوس .. اقفز عليها يا داسوس .. »

ثم عاد إلى الناي ثانية يعزف .

وقفت لينيو مبهورة النفس وراء الراعي الصغير مباشرة . كانت
تأثت وقد تدلى لسانها من فيها مثل النعاج . وأحسنت بالأم في تديبها .

وقد حادت النعجة في مكانها ، منهوكة القوى ، وكأنها هي أيضا
لم تعد قادرة على كيح جناح شهوتها . واعتلاها داسوس بوتيرة واحدة ،
ونطأها تماما . تدلى لسانه وبدأ يلحق رقبته ويمضها خفيقا في حنان .
تصيب الكبش عرقا حتى ابتل صوفه ، وعيق الجوز برائحة الذكورة .

القي نيكوليوي بالناي جانبا ، ونزع عن جسده ما بقي من ملابس حتى
أضحى عاريا تماما ، والعرق يغطي جسده . وبدأ يرتقص ويتمايل مقلدا
حركات الكبش .

تقرت العروق في عنق لينيو ، وغامت عينها ، وبغنة استدار
نيكوليوي وهو يرتقص . أبصرها فانقض عليها ، وطرحها أرضا قبالة الكبش
والنعجة . وقنعت لينيو بالاستسلام .

كان الأغا جالسا على حشيشته غاميا ، منتفخ الجفنين ، متهمل الوجهين ،
حافى القدمين ، أشعث الشعر ، لم يغسل وجهه بعد ، ويشرب القسوة
ليذهب بها عنه أثر التعاس . كان ينصت الى الأم ماندالينا كما ينصت
المرد لحرير ماء المطر . وعندما سكنت فتح الأغا فمه في تراخ وكسل وسأها
وهو يتثاب :
- « وماذا عن منه ؟ »

- « انه يعمل على خير وجه يا أغا ، ساعة منتظمة » .

وصمت ثانية : أحس تراخيا في جسده فتثاب مرة أخرى وسأها
ولا زال فافرا فاه :
- « هل هو خائف ؟ »

- « انه لا يشعر بقدرة من الخوف ، هذا العزيز ، لا يشعر بقدرة منه ،
يفضحك لحدينك عن الله ككسا يفضحك لحدينك عن الشيطان . انه ،
أستغفر الله ، لا يعيا بهذا ولا ذاك على السواء » .

- « هل يشرب ؟ »

- « يشرب ولكن في غير افراط » .

- « حسن » قولى له عندما أصبح من لومي ساذعب اليه أودعه .
قولى له أيضا أنتى سأتى بحسن حارسى لينفتح في النفر . وسأتى
بيوسوفاكى ، قولى له هذا ، ليقتيه أغنية أمان المحببة اليه - وهو يعرف
أى أغنية أقصد - ها انذا قد فرغت من القهوة وسأدخن غليونى وأشرب
قليلا من العرقى ، ثم يأتى بيوسوفاكى ليذكك ساقى ، وبذلك اكون قد
صحوت تماما . وبعدها أنزل .. انتظرى ، اسمعى : قولى له لا تتعجل
الرحيل وتموت قبل أن أصل اليه .. قولى له ذلك ا عليه أن ينتظرنى .
هيا انصرفى الآن .

وقد الكابتن على فراشه موليا ظهره للحائط ، هادى النفس ،
رابط الجانش ، ثابت الجنان ، شاحبا أضواء الهزال . نسات عظامه من
بين جلده المذبوح . وحول رأسه ضمادة محكمة عريضة ، حمراء يابسة
من أثر الدم الذى تجلط فوقها . وعبداء الضيقتان قلعبان في خبت
ونشاط مثل عيني القرد الذى رآه ذات مرة فى أوديسا .

الكابتن يموت

الكابتن فورتوناس المسكين حالته سيئة تماما يا أغا . عظام مجتمته
لن تلتئم ثانية . حاولنا الكثير ! المراهم والدهانات - بل إن القسيس
جريجوريس ذهب اليه بنفسه ليقرأ عليه الصلوات . وزارته أيضا امرأة
من نساء الفجر ، وقرأت له الطالع . وأشعلوا له شمعة في دير القديس
ياند ليمون صاحب المعجزات فى ابراء المرضى . وأكل بعض لحم القطط -
اذ يقال ان لها سبعة ارواح - وكل هذا لم يجيد فتتلا فلا الرب الرحيم ،
ولا الشيطان الرجيم يريد لقبطاننا المرحوم شفاء .

أفنت كلمة المرحوم ، من لسان الأم ماندالينا عن غير وعى منها ،
فعضت شفتيها . وتمتعت :

- « لعل ياذن صاحبنا وقرأ فلم يسمعى » .

ثم عادت وانطلق لسانها فى غبطة وسرور :

- « بعث اليوم فى طلب ميشيل ابن عمدة القرية ، حتى يعايه وصيته
على حد قوله . وأنا الآن يا أغا ذاعبة الآتية بالقسيس جريجوريس ليقدم
له المسحة الأخيرة . لقد رفع القبطان مراسيه وها هو يتأهب للإبحار .
دعاني منذ فترة وجيزة وقال لى : يا حالة ماندالينا ، أكرمينى واذمى
الى الأغا ، قولى له : تقبل خالص تحيات كابتن فورتوناس جرينهورن .
انه ينشر قلاعه ، هكذا قال ، ويتأهب للإبحار ، فالى اللقاء ، ولهذا آتينك
يا أغا - فانا الأم ماندالينا » .

وعلى منضدة صغيرة بالقرب منه ترى غليوناً وزجاجة العرقى وكذلك تمثالاً تصفياً صغيراً من الجبس للملكة فيكتوريا . اشتراه ذات يوم من ميناء بعيد . قال لنفسه عنها آنذاك : « فحلة ، حسنة ، وبلة ، لدى ناهد مثقلى » . أحبها . . . واشترى التمثال . ومنذ ذلك الوقت وهو يحتفظ به الى جانبه . كان يقول أحياناً : إنها زوجى ، لها شارب ليس لى مثله . ولكن أى بأس فى هذا ؟ أنتى أحبها . ثم يهقه بعدها عالياً .

جال بعينيه يستطلع محتويات عشة المتواضع . حوافل منسجة ، وعوارض خشبية يغطيها العنكبوت ، وأرفف خاوية ، وصندوق طويل ملى بالملايس القديمة ، وتمال بالية ، وصدايات من الفائلة ، وحيال ، وقلة ماء وضعت داخل كوة فى الحائط ، ودمجانة عرقى فى ركن من أركان الحجيرة . استقرت عينه فترة على صورة فوتوغرافية قديمة سموت على الحائط المواجه لسريره . إنها صورة سفينة الغابرة - منشورة القلاع ، يرفرف فوق مؤخرتها علم اليونان ، ويعلمو فوق مقدمها تمثال لامرأة من نساء الأساطير عارية الصدر . ويقت هو هناك بجانبها يسكن بالدفقة وقتما كان يناهز الثلاثين من عمره . وتحيل نفسه وقد اعتلى ظهر السفينة التى لوحت صورتها براز الذباب . رفع مراسيه واتخذ سبيله فى البحر . ولكن ضباباً كثيفاً أحاط بها - واستطاع كايث فورتناس - بمشقة كبيرة ، أن يميز أمامه جزراً وسواحل وتراكا ينفون فوق الرصيف وعلى رؤوسهم الطرايش الحمراء ، ونسوة عازيات الصدور ، يشبهن التماثيل التى توضع عند مقمى السفينة ، وعلى الميناء حانات عجبت بسحايات من دخان السجاير والغلايين والسبك اللقى . . .

كل شيء طواه النسيان ، الفراحه وأتراحه فى الحياة . جراحه التى أصابته فى حرب ١٨٩٧ حين تطوع لتهريب المؤن والذخائر على ظهر مركبه الى داخل ايونان . . . حبه الذى كاد يسلبه عقله - فتاة تركية لا يذكر اسمها الآن ولا أين . . . فى القسطنطينية ؟ أم فى سميرنا ؟ أم فى إيطاليا ؟ أم فى لاسكندرية ؟ وهل كان اسمها أم كلثوم ؟ أم فاطمة ؟ أم أمينة ؟ . . . انه لا يذكر شيئاً من هذا كله ، فإن مستارا كثيفاً من الضباب يحجب كل هذه الأحداث العابرة . ولكن مدناً واحداً من بين كل أحبيات حياته الماضية ، ظهر من خلال هذا الضباب الكثيف غارقاً فى النور . كان ذلك فى باطوم فى شهر أبريل ، يوم عيد القديس جورج . دخل يومها مع ثلاثة من أصدقائه حديقة غناء ملائى بالأزهار الحمراء الفاقعة الكبيرة . جلسوا فوق الحصى ، وشربوا فى أكل وشراب وغناء . ولغوا ورمسهم بعمائم ذات أهداب . وكانت الشمس ساطعة ، والبحر رخاء عطر الأريج ،

وليس من امرأة تؤنسهم . كلهم رفاق انس وطرب ، أحدهم أشقر الشعر والأخر أسود ، وكان أحدهم ويدعى جورج وكان هذا يوم عيد ميلاده . ومن عجب فيفسا عم فى أكلهم وشرابهم وغنائهم إذ تساقط الرذاذ رقيقاً حانياً ، يفسل أوراق الشجر العريضة . ويرفش الحصى المتثورة فى الحديقة . وتضوعت الأرض بشذا عطر وحاكى السحر رقة وجملاً . ودخل المدينة ثلاثة من الأرمنيين معهم ماندولين ومزمار ورق . جلسوا القرفصاء تحت الأزهار الحمراء الدكنة وشربوا يغنون أغنيات آمان . . .

ما أبهجها تلك اللحظة وما أرقها ! كانت الحياة بين راحة الإنسان تغرد كطائر صغير عاشق . . . أجهد كايث فورتناس فكره . ولكنه لم يستطع أن يتذكر شيئاً آخر . لا شيء آخر . تبددت حياته كلها وسط سحابات الدخان . لم يبق منها سوى ذكراه عن أصحاب الأناس والرذاذ الحانى فى باطوم .

وتتمم قائلاً :

- عجباً ! حل هذه هى كل حياتى ؟ حياتى كلها ليست سوى ذلك فقط ؟ رذاذ رقيق حان ، وأصدقاء ثلاثة وبضع زهور حمراء . . . عجباً ! لا شيء آخر أذكره عن حياتى ! أنا يا من طنتت أنتى ابتلعت العالم كله . . .

ومد يده ليرفع كوب العرقى من على المنضدة الصغيرة ، ولكن فى هذه اللحظة فتح الباب ودخل الألفا . كان يرتدى زيه الرسمى الفاخر كأنه ذاهب الى عرس . السروال الأحمر ، والمسدس الفضى ، وطزلق جديد زاه ، ومعدنل حريرى يرفرف تحت ذراعه وشارب مصبوع . وقدم وراءه يوسوفاكى ، أبيض فضا كالخيز الطيب ، نصف نائم ، يضع شيئاً فى فمه . ووراءه حسين ومعه نظيره ، شرسا عجوسا . وقال الألفا فى لهفة :

- أتمنى لك رحلة هادئة وريحاً رخاء يا كايث فورتناس . أتبانوى أنك اعتليت ظهر السفينة وأزمعت الرحيل .

- الشراع منشورة يا أفا ، فى انتظار أول ريح قادمة . وداعاً .

قال الألفا ضاحكاً وهو يلقي بجسده فى تناقل وصخب فوق الصندوق القديم :

- والى أين عقدت العزم بحق الشيطان أيها المقدس جرينهورن ؟

هل تنوى الرحيل الآن عن هذه الدنيا ؟ تريث قليلا . احضروا لى مند أياهم
قلائل بعض العرقى . . رائع يا صديقى . مزوج بقيق التوت الأسود .
هذا كل ما قصدت أن أخبرك به . انتظر قليلا لتكون نديسى فى شرابه
ثم لك أن ترحل بعد ذلك .

« وداعا يا أغا ، هذا هو قول لك ، انتهى كل شىء . رفعت حراسى ،
وأمسكت بالدفة ، وها أناذا متصاحب للابحار . لكن نديم نفسك فى
شرابك .

« والى أين عقدت العزم يا صديقى المسكين ؟ هل تعرف وجهتك ؟ »
« الشيطان وحده يعلم ذلك . كل ما أعرفه أننى ذاهب الى حيث
تغذف بى الريح . »

« وماذا عن ديانتك الرومية ؟ ماذا ترى هي فى ذلك ؟ »

وأجاب الكابتن وهو يلوح بيده :

« أوه لا لا لا . لو أخذت بما تقوله ويأتى فأننى ذاهب نوا الى
حيث يكون الشيطان . »

وضحك الأغا .

« لو أخذت أنا بما تقوله ديانتى فأننى ذاهب نوا الى الفردوس .
إنها أغنية بالقطير والمور العين والفلمن من أمثال يوسوفاكى . ولكن أنيتنى
يا كابتن . ماذا لو كانت ديانة كل منا تسخر بنا ؟ إن هذه الدنيا حلم ،
والحياة خمر ، يعب منها المرء ويسكر بها . لقد حار فكركنا : أنت تمثل
دور الرومى ، وأنا الأغا التركى . . دعنا من هذا . جرينهورن - لا أكتفك
القول ، إن هذا يحيرنى . »

والتفت الى القلام الوسيم :

« قم يا يوسوفاكى . لمحت عينى دمعانة عرقى هناك فى الركن .
قم وصب لنا الشراب . »

دخلت الأم مائدا لينييا ومالت على الكابتن وهمست فى أذنه :

« يا كابتن ، سيكون القسيس هنا بعد لحظة ومعه القربان المقدس .
لا داعى لشرب العرقى . »

« أى قسيس تحذيتننى عنه أيتها العجوز الميزيون ؟ آخرسى .
غذى الدمعانة ودورى علينا بالشراب . »

وزمجرت العجوز . وملأت الأقداح بيد مرتعشة . وقف الأغا ،
واقترب من السرير وبادل الكابتن تحية الشراب بأن قرع كاسه .

« رحلة ممتعة يا جرينهورن . »

« رحلة ممتعة لك أيضا يا أغا . »

وضحكا . وأحس كل منهما بالرضا .

وقال الأغا وهو يمسح شرابه :

« تدبر يا كابتن وانظر كيف أصبحنا أنا وأنت صديقين . . هه ؟
ألم نلص معا وقتا طيبا ؟ ألم نأخذ الأمور معا مأخذا سهلا ؟ »

وقال الكابتن الذى بدأ يشعر بغوار فى رأسه :

« ها هو القسيس آت ليقدم لنا التناول يا أغا . وداعا . »

« انتظر يا صديقى . . الى أين ؟ لا تتجمل . أتيتك يوسوفاكى
ليغنى لك قبل الرحيل أغنيتك المفضلة آمان . لن ترحل عنا قبل سماعك
أغنية يا عزيزى الصديق العجوز . . تعال يا يوسوفاكى ، اسمعنا يا صغرى
صوتك وغن آمان ! »

أخرج يوسوفاكى كرة اللبان من قمه ، والصقها بركبته ، ورفع
راحته اليمنى فى فنور وأسندها الى خده . وما كاد يفتح فمه حتى مد
الأغا ذراعه وقال :

« انتظر يا كنزى . يجب أن ينفتح فى النفيير أولا . »

ثم التفت الى حارسه الخاص وأمره :

« افتح الباب وقف عند عتبة والنفخ فى النفيير لمن التساهب
للهمجوم . »

« فتح حسبت الباب ، ووضع طرف النفيير بين شفتيه وبدأ ينفخ
بقوة وعنف . »

وصاح الأغا :

« كفى . الآن دورك يا يوسوفاكى . اسمعنا أغنيتنا آمان . »

ومرة أخرى ارتفع صوت القلام وخيم صايقا جياشا . انصتت
الكابتن فى صموعة ، وفاضت جوانحه أسى وعلوية . « دنيا تاير ، رؤيا
تاير . . الدنيا والحلم شىء واحد آمان ، آمان . »

لم يشعر الكابتن في حياته قط بمثل هذا العمق الشديد كيف أن الدنيا والحلم شيء واحد ... لا بد وأن سنة من اليوم قد أخذته ، وحلم بأنه كان يعمل ريانا ينتقل بين موانئ البحرين الأبيض والأسود ، وأنه تطلع في الحرب وأنه كان يونانيا مسيحيا ، وأنه الآن يحتضر ... ولكن لا ، انه لم يكن يحتضر وإنما كان يصحو من نومه ، فقد انتهى الحلم وطلع النهار .

وبسط يده في رصانة :

— شكرا لك يا صديقي الأغا ، أنت وحدك الذي فهمت آلامي التي تعذبني . وداعا أيضا يا يوسوفاكي ، ليت فمك الصغير الجميل لا يصيبه البلى ، ليتنه يتحول تحت الثرى إلى فم من الياقوت .

هاجت شجون الأغا . ومسح عينيه .

— مع السلامة يا عزيزي الكابتن . وإذا كنت أدعوك أحيانا جرينهورن فأنت تعرف أن هذا كان مني حبا ومودة . يجب أن تصفح عني . ايه ... أتمنى لك رحلة طيبة .

وانحنى عليه وقبله . وفاضت عيونهما بالدمع .

وقال الرجل المسجى على فراش الموت ، بنبرات تفيض أمى :

— آه لا أستطيع أن أخبر لك يا عزيزي الأغا عن مدى حبي لك .

واقترقا ... وبعد هدية أثلث الأغا لي حارسه وقال له :

— أنفع في النعير ثانية لمن التاعب حتى يسمعه الكابتن ويشد من أزره ... أريد أن يعلم كل من في القرية أن عليه أن يشهد دفنه . إن عمادا من عبد القرية ينفض ... وغطت صفحة السماء سحابات صيف رقيقة . وتساقطت قطرات رذاذ .

وصرخ الأغا :

— هيا تسرع يا أولاد ، فاني ارتدى ملابس الجديدة .

واسرع ثلاثتهم الخطو .

التقى بهم ميشيل . كان يغد السبع ، يحمل معه ورقة ومحبرة .

— كيف حال كابتنتنا يا أغا ؟

— آه يا فتى ، انه بخير ، رابط الجاش ... في الحقيقة انه أضعف حظا منا نحن الأحياء . يبدو كامل الوعي .

فتحت الأم مائدة ليتايا الباب على مصراعيه . كانت تتوقع قدوم القسيس حاملا الغريبان المقدس . وبدلا من القسيس ظهر ميشيل لاهت الألفاس .

هستت له المرأة المعجوز :

— لا حاجة بك إلى العجلة يا بني ... لأزال صامدا . انه كامل الوعي وهو طريح فراش الموت ، له سبعة أرواح كما يقولون ... أدخل .

ودخل ميشيل وأغلقت وراءه الباب .

كان الكابتن واهن القوى ، مغمض العينين . وعاد الدم يسيل فوق وجنتيه ، تتساقط قطراته فوق الفراش . دلت منه المرأة المعجوز ، ومسحت قطرات الدم وأسرت في أذنه قائلة :

— كابتين ، حضر ميشيل ومعه القلم والحبرة . تحامل على لمسك قليلا .

رفع الكابتن رأسه المشجوج وفتح عينيه وقال :

— مرحبا بالفتى صاحب السيادة .

ثم أغضض عينيه ثانية وأغفى . جلس ميشيل فوق الصندوق ووضع الأوراق بجانبه وانتظر .

وقالت المرأة المعجوز بصوت واهن وهي تمسح عينيهما وأنفها الذي كان يبرش :

— كان رجلا طيبا صامدا هذا المسكين . كان رجلا طيبا رغم كل سلوكه المروع . زوجي المرحوم أيضا ... ثم شرعت تحكى بصوت خفيض قصة التواكب التي حلت بها في حياتها . وأحست براحة في هذا . ولف ميشيل سيجارة وبدأ يدخن ، فله كوارث في حياته هو الآخر ، ولكنه لم يمر بها إلى أحد ... كان ينصت إلى المرأة المعجوز ، بينما روحه عنها شاردة ...

ونبح كلب بالقرب من البيت نباحا كثيبا فهبت المعجوز من مكانها حائفة :

— باله من حيوان ملعون ! لا بد وأنه رأى ملاك الموت حتى ينبح بهذه الصورة .

وفتحت الباب ، والتقطت حجرا قذفته به ثم عادت ثانية .

فتح الكاتب عينيه وقال :

- ميشيل ، أين أنت ؟ أدن مني . لا أستطيع التحدث الآن بصوت عال . هات ورقة واكتب !

وقال ميشيل :

- هون عليك يا كاتين . لا داعي للعجلة .

- اكتب ، واحتفظ بعزائك لوقت آخر . لي سبعة أرواح استنفدت ستة منها ولم يبق غير واحدة ، ها هي على شفتي توشك أن تنتهي هي الأخرى . ثنیه جيدا واكتب ، فلم يبق لي من حياتي غير أنفاس معدودات .

دنا ميشيل من الوسادة ، وبسط ورقته وغمس قلمه في الحبر .

- ها أنذا أصفي اليك يا كاتين .

- اكتب أولا أنسى في كامل وعيي ، وأنتى مسيحي ارتودوكسي . واسم أبي نودور كايانديس . ليس لي أطفال ، ولا ذري قربي أو أرحام ولا كلاب . لست متزوجا ، فقد أسعدني الحظ بأن أقلت من هذا والحمد لله . كنت ذا مال وأكلته كله . كنت أملك بعض الحقول وبعثتها جميعها واكلت ثمنها أيضا . لا لم أكلها بل شربتها . كان لي مركب وهذه هي صورته : تحطمت قرب تريبيزوند وغاصت في قاع البحر . ثم أشار الى بقايا حطام الأثاث الذي يحيط به وقال : « وهذا كل ما بقي لي ولا شيء سواه » . أريد أن أقسمها بين الفقراء وأصدقائي حتى يذكروني بها . يا أم مادلينيا اجلسي بجانبى واذكريها لي واحدة واحدة كما تريها . وكل ما أنسا فهو لك . هيا ، اكتب يا ميشيل . هل أنت مستعد ؟

- مستعد يا كاتين .

- دمعانة العرقى الموجودة في ركن الحجرة أوصي بها للأغا : دعه يصير في سجن . السنة الذمعية الموجودة في قمى ، انزعوها وأعطوها للأرملة كاترينا لتصنع منها قرطا ذهبيا . وعلبوني ذو الطرف المستوع من الكهرمان أهيه لقلبي فسطندى : حتى اذا وفد على القرية غريب من ذوى المكانة يدخنها فتنسبه غريته . وثمة عشرة كيلو من الشعير أوصي بها لشار ياناكوس : يأكلها عشية دخوله أورشليم حاملا المسيح على ظهره . . . بعض عملات فضية في حافظة نقسودى - ليأخذها القسيس

جرجوريوس والا فإن هذا المعجوز ذو اللحية التي تشبه لحية التيس لن يسمح بدفني وستترك جسدى يتعفن في العراء . هذا كل ما عندى بالنسبة لهذه الاثنية . أما الصنعوق الذى تجلس عليه ، فبداخله أسماك بالية وجلد من السمك وقبعات قديمة ، وأحدية وبائية وفانوس معتم وبوصلة ، وقطع من الحبال . تصدقوا بها جميعا على الفقراء الذين يسكنون كهوف ساراكيئا . أعطوهم أيضا ما لدى من جوار وآنية للطبخ والموقد والصحاف والملايس . نعم وأعطوهم كذلك البن والسكر والبصل وزجاجة الزيت والجبن وقدر الزيتون كل شيء . كل شيء . فاني حزين لهذا الشعب المسكين !

هل كتبت كل هذا يا ميشيل ؟

- انتظر لحظة حتى الحق بك . لا تسرع يا كاتين .

- انى عجسلي يا فتى خشيعة ألا يسعفنى الوقت اسرع في كتابتك عندي أيضا كتاب « ألف ليلة وليلة » اعتدت أن أقرأ منه قصه كل ليلة من ليالي الأحد : أسرى به عن نفسى وقتما كان الآخرون يقصدون الكنيسة . يمكن لقسطندي صاحب المفى أن يأخذه ، وفي ليالي الأحد ، عندما يؤم أهل القرية فقهاء . بعد سماعهم للإنجيل ، يعطيه لأحدهم يقرأ عليهم بعضه بصوت عال . انه سيقنع عبوتكم أيضا النفوس النعسة الإنجيل كتاب رائع تماما ، ولا اعتراض لي على ذلك . ولكن « ألف ليلة » كتاب جميل أيضا . هل كتبت هذا يا ميشيل ؟

- كتيته يا كاتين . استمر ولكن لا تشق على نفسك

- تلفتى حولك يا أم مادلينيا . تلفتى حول البيت . هل ثمة شيء لمين نغلت عنه ؟

- نعلاك يا كاتين .

- لقد يلينا تماما ولا يصلحنا الا ليلقى بهما وسط القمامة انتظر ، أوصي بهما للشيوخ لاداس . هذا الشاي النعس . مامن مرة ذرته الا والفتنة حافى القدمين . ليأخذها هذا اليخيل المسك حتى لا يصيبه البرد بادي ويلقى عتيته ، فانه ذرة قريتنا ! - اتى نظرة أخرى يامادلينيا .

- الصورة القوتوغرافية .

- آه . هذه سأخذها معي . ضعوها في اطارها على قبري . سأخذ معي أيضا كأس العرقى . لقد أبلى معي بلاه حسنا ، ولا أطيق هجره .

أه ، وثمة أيضا هذا التمثال النصلي الصغير ليأخذه أكل الجيس فهو وحده دون الآخرين قادر على أن يأكل ملكة إنجلترا .

وقال ميشيل :

— لا زال هناك أهم شيء ... المنزل .

— المنزل أوصى به للعجوز الموجودة هنا ، ماندالينا التي توفرت على خدمتي كأخت لي بمعنى الكلمة . تعرضت لكثير من المضايقات بسببي هذه المرأة المسكينة ، وأغلقت لها القفل كثيرا . بل أحسب أنها تحملت بعض ضربات مبرحة بالعصا أيضا . لا تلوميني يا أم ماندالينا ، لا تبكي — ما لم يكن بكأؤك عن فرح وسرور .

حاول أن يضحك ولكنه لم يستطع . فقد اشتد عليه الألم . وبدأ دمه ينزف من جديد .

— هذه كل ثروتي . اختتم ما كتبت وناولني الورقة أوقع عليها .

قدم ميشيل الورقة ، ودفعت المرأة العجوز الكابتين وأمسك ميشيل بيده يعينه على التوقيع . ووقع بالكلمات التالية :

« كابتين ياكوميس كابانديس بن تيودور » .

وترامى إلى سمعهم صوت ترانيم دينية .

وقالت العجوز :

— ها هو القسيس قادم ، حاملا القربان المقدس .

وأسرعت نحو الباب تفتحه على مصراعيه .

وغنم الكابتين :

— طراز آخر من المضايقات . هيا حتى نفرغ منه أيضا .

كان قواص الكنيسة العجوز هو أول الداخلين حاملا مصباحا مضئاً ، ومن ورائه القسيس جريجوريس مرتديا رداءه الديني ، رافعا كأس القداس بيده ، وقد غطاء بغطاء من المخمل الأحمر الموشى بالذهب .

رسم القسيس علامة الصليب وهو يجتاز العتبة ، وقال بصوت وقور :

— أتى الرب . أترونا وحدنا .

رسم كل من ميشيل والأم ماندالينا علامة الصليب ، وقبل يد

القسيس . ثم انسحبا من الحجرة . وخرج القواص ومعه مصباحه . وانتظر الثلاثة بالخارج .

وقال القسيس وهو يدنو من الرجل الذي حضره الموت :

— كابتين فورتوناس ... حانت اللحظة الرهيبة التي ستمثل فيها بين يدي الرب . اعترف بخطاياك ، وطهر روحك . تكلم .

وأجاب الكابتين غاضبا :

— كيف لي أن أقص عليك خطاياي يا أبانا ؟ تحسبني قادرا على أن أتذكرها ؟ للرب الرحيم سجل يثبت فيه أعمالنا . وليس عليه إلا أن يمحو ما أتيت به هناك إن شاء هو ذلك . ولكن ثمة شيئا أود أن استطعت أن أقدمه إليه ، سبحانه ، هدية من الأرض . فاني أشك أن نجد مثله هناك في السماء .

كان القسيس ينصت إليه حائرا ، وقد أثارت لهجة الكابتين حنقه .

وعاد الكابتين يؤكد له ما قاله :

— شيء واحد فقط أود لو استطعت أن أقدم به هدية إلى الرحمن .

وسأله القسيس متجهما :

— ماذا ؟

— اسفنجة .

— ألا تخجل ؟ ألا تشعر بالخوف حتى في هذه اللحظة الرهيبة

أيها الفاسق ؟

واصل الكابتين حديثه رابط الجأش :

— اتنا نعل ، أكلنا حبة قمح صادفتنا في الطريق ، أو ذباية ميتة أكثر من نصيبنا — أي ياس في هذا ؟ أمحها . ألا تخجل من ثأبينا نحن معشر النمل ؟ أنت أيها الغيل البدين ؟

وقال القسيس بلهجة جادة :

— كابتين ... احترم الله . انك تلقف الآن على عتبة بابك أيها الشقي المسكين ، لن يلبث أن يفتح لك وتتشهده سبحانه . ألا تشعر بشيء من الهلع ؟

قال الكابتن وقد صم أذنيه :

- اى متعب يا ايانا . جاني الاله هنا للادمتي ، تم جاء ميشيل بدون وصيتي ... وعلى ذكرها فاني اوصيت لك بكل ما تركت من مال حتى تسمح بدفتي ولا تترك جسدي للعلن مثلما فعلت مع آخرين .. وها انت جئت الآن بصحبة شيطانك الراهب ... انا لا استطيع الآن ، فاني متعب كما اقول لك ، وداعا .

واستدار ناحية الحائط ، والغضب عينيه . وبدأ يتنفس بصعوبة والتم ، ثم انتابته فجأة حشرة خبيثة .

وتحامل على نفسه وقال في صعوبة :

- طيتم مساء .

وغطى القسيس ثانية كأس القديس بالخل الأحمر وقال :

- لا استطيع ان اناولك جسد المسيح ودمه . ليغفر الله لك

وعغم الكابتن ثانية وهو يلفظ آخر انفاسه :

- طيتم مساء .

ثم انتفض جسده مرتين او ثلاثا ، وان اثينا واهنا ، وكأنه أصيب بغصة ، وفتح فمه : والناس الدم على الوسادة والفرش .
ورسم القسيس فوقه علامة الصليب .

وتتم قاتلا :

- ليس لي ان اغفر لك ، وانما ليغفر لك الله .

وفتح الباب ونادى المعجوز مائديا لتتولى مهمتها في تكفين الميت .

وفي اليوم التالي ، وبينما كانوا يدفونوه ، تساقط وذاذ مثل ذلك الذي تساقط في ياطوم يوم عيد القديس جورج ، وقتما جلس على الحصبة في الحديقة يمتع النفس مع أصدقائه . وهدت سحابات شفاقة تبحر تحت أديم السماء ، ودف جرس الكنيسة لحن الحداد ، وانبعث من الجبانة الصغيرة شذى جلو لنبات الكاموميل . وشهد أهل القرية جميعا جنازه . سارت الأم مائديا في المقدمة تلوح وتولول وتشد شعرا . وأراد ياناكوس ان ياتي بحماره ليسير مع الركب بعد ان سمع من ميشيل ان

الكابتن أوصى له بما يملك من شعير . ولكن ثارت ثائرة القسيس جريجوريس .

واحتج ياناكوس على ذلك قائلا :

- اليس هو أيضا واحدا من مخلوقات الله ؟

ورد عليه القسيس جريجوريس مقيظا :

- ليس له روح خالدة .

وتشم ياناكوس :

- لو كنت أنا الله لأدخلت كل الحمار الجنة أيضا .

ودفع القسيس ياناكوس بعيدا وساح قائلا :

- الجنة ليست حظيرة ، انها موطن الرب .

وطفق ياناكوس ، وهو يسير مع الركب ، يتحدث نفسه في عناد ، يادي القدر :

- لو كنت أنا ... لأدخلتهم الجنة ، لأدخلت عزيزي يوسف فيها ... ولكن بشرط واحد وهو ألا يروت هناك فتتسخ السماء .

وبعد ان تمت اجراءات الدفن ، وألقى كل انسان بحفنة من التراب فوق القبر ، انحنى ياناكوس جانبا بصديقه ميشيل وقسطندي ، اذ لم يعد يطبق كتمان سره :

- أريد أن أقضي اليكم بخير يا اخوتي ، ولكن يجب ان تحتفظا به سرا . اذ ليس هناك من يعرف شيئا عنه بعد ... أصيب مانولي في وجهه بمرض خبيث . أشبه بالخلوب أو قنصاع اسطيخ بالدم ، وكأنما استقر شيطان على وجهه ... لا أدري ماذا اقول لكم يا أصدقائي ... لري هل مانولي قديس ونحن وحدنا القادرون الآن على أن نشهد ذلك ؟ فقد سمعت أن القديسين والنساك وحدهم تصيبهم أمراض من هذا النوع .

وقال قسطندي :

- لا يد أن هذا أصابه لأنه قديس ... انه قديس ، أجل ، قديس ولم تكن تعلم عنه هذا طوال الاعوام الماضية .

وقال ميشيل الذي أزعجه الخير :

- لا تتعجل في أحكامك هكذا يا قسطندي • تريث • يجب أن نهم
الأمر أولا ونأتي له بطيب

اقترح عليهما ياناكوس :

- الرأي عندي أن نذهب ثلاثتنا يوم الأحد لنعود مانوي ... هذا
فضلا عن أن ممي حذبة له •

وبينما كان يقول ذلك أخرج من جيب صدره كتابا صغيرا ملطيت
حواشي بالذهب •

- الانجيل • أرسله الى مساء أمس القسيس فوتيس مع الشيخ
كريستوفيس • قال عليتا أن نطالعه نحن الأربعة • رجال السلال ...
هكذا يسمينا ! انه رمز صداقته لنا كما يقول • ويرسل بركاته إلينا
مع الانجيل •

وخطا خطوات فوق أرض المقابر المغطاء بأزهار الكاموميل حيث يرقد
أسلافهم • وتضوعت الأرض برائحة طيبة بعد أن أتدها المطر • وتوقفوا
هنيهة يتسبون الأريج الدافئ الندي ، وغشيت رؤوسهم بعطر زهر
الكاموميل الليل •

وتنهذ ميشيل • فقد سرح فكره فجأة الى ماريوري خطيبته ، بوجهها
الشاحب القابل ، وعينيها الواسعتين تحيط بهما دائرتان زرقاوان ،
ومندبلها الأبيض الصغير تضغط به على فمها ... وتذكر يوم أن كان
طفلا صغيرا وأتى الى هذه الجبانة في صحبة أبيه : كانوا يومها يخرجون
من القبر جنة فتاة صغيرة سبق له أن رآها في بيته ، جميلة ، نظرة ،
زرقاء العينين ، موجة الشعر ، تفيض بشرا ... وقسف الى جوار أبيه
مترددًا عند حافة القبر المفتوح • وكان حمار القبور يحفر الأرض بمحوله ،
يرفع التراب ويكومه حول القبر بحثا عن أشلاء الفتاة • ووقف أبوها
ممسكا بصندوق خشبي يجمع فيه أشلاءها • وفجأة دس الحفار كلنا يديه
في التراب وأخرج جمجمة • وانخرط ميشيل الطفل في تشييع • هل هذه
الجمجمة هي الرأس الجميل ذو الشعر الموج للفتاة الصغيرة ؟ كيف حالت
عينها ؟ أين شفتاها وجنتاها المتوردتان الضاحكتان ؟

ومنذ ذلك اليوم ، وبعد مضي عشرين عاما ، لم يحدث أن وطئت قدم
ميشيل أرض الجبانة دون أن يتذكر الفتاة الجميلة وتلك الجمجمة ...
وسأله ياناكوس :

- علام التنهد يا ميشيل ؟

ودون أن يجيب ميشيل دفع البوابة التي يعلوها صليب حديدي •

ثم قال مكتئبا :

- هيا بنا •

واتخذوا طريقهم الى القرية واجمين • وسمعوا وراهم وقع خطوات
ثقيلة • فاستدأروا •

وقال قسطندي :

- بانايوتي ! حتى هذا الدب شهد الجناز •

وقال ياناكوس :

- لا بد وأنه سمع بأن الكابتن أوصى له بشي • هو الآخر • انه
يسرع الخطو ناحية بيت التنوفي ليأخذ تمثال ملكة انجلترا ويأكلها ...

واقترح عليهم ميشيل :

- لنستوقفه ونصطحبه معنا ، فإن هذا يرضيه قليلا •

وتوقفوا • لم يجيب بانايوتي وإنما حث خطاه ليتحاشاهم • فمضد
أن اختاره شيوخ مجلس الأعيان ليقوم بدور يهوذا يسبب لميته الحمراء ،
كما زعموا له ، لم يعد يطبق رؤية أولئك الذين اختيروا ليتمثلوا دور
الرسول المؤمنين بالمسيح •

كان لا يفتأ يحدث نفسه قائلا : رغم مظهرى الفظ ، الا اننى
خير من تلك الوجوه التي اختاروها لتمثل الرسل • ذلك لأننى قاسيت
كثيرا ، قاسيت فعلا أكثر منهم داخل بيتي وخارجي ، وداخل نفسى ...
أبكي اذا ما اخلت بنفسي ، ويبتكون حينما يراهم الناس جميعا ...
أعرف ما هو الحب ، هذا النوع من الحب الذي يجعل منى أشعوكه
القرية جميعها ، وإذا أحبوا هم انسانا اجتهدوا لذلك وتندروا به ...
انى أعافهم ، ليهتليهم الله بطاعون • أحدهم يملك حمارا ، وآخر مقهى ،
وثالث له أبوه الغنى وماريوري ... أما أنا فلا شيء أملكه • كم من مرة
راودتنى نفسى على أن اضرم النار فى دكانى والطرد زوجى وأطفالي وأقتل
المرأة التي أحبها • حسن ، أين اذن يهوذا ؟ هم الشياخ المالكون لكل ما
يريدون • أم أنا ؟

وناداه ياناكوس بصوت عال :

- هيه يا يانايوتي ، هل عظم قدرك حتى ترددينا ؟

وخار آكل الجبسى :

- نعيانى الى الرسل الزيفين ، ماذا عن مسيحنا الكذاب ؟

وقال قسطندى :

- ألا زلت متافرا بذلك حتى الآن ؟ ولكن المسألة لا تعدو أن تكون تمثيلا يا صديقى ، ألم تتحقق من هذا بعد ؟

وأجاب السروجى :

- تمثيل أم غير تمثيل ، فقد غرستم خنجرا فى قلبى ، زوجى تدعوني يهوذا ، والصبيبة فى الطرقات يعبروننى ، والنسوة تغلق أبوابها فى وجهى كلما أبصرتنى ، ليبتليكم الله بطاعون ، فأنكم مستجملون منى يهوذا الى الابد .

وقال ميشيل :

- الجميع يحبونك ، فلا يحزنك هذا ، وكيف لا ، وما هو الكابتن تذكرك وهو على فراش الموت وترك لك ارتا .

- ائت من الجبسى لأكله ، حتى آكل ملكة انجلترا أيضا . . . اليس كذلك ؟ ليحرقه الله فى نار جهنم .

وقال ميشيل محتجا :

- لا تجلب اللعنة على روجك ، فلا زال جسدك دافئا - اسحب هذه الكلمات .

وأحمر وجه يانايوتي المجدور وصاح :

سليحرقه الله فى نار جهنم ، وأنتم أيضا هل تريدون منى أن أذعن عليكم بأن يقذف بكم فى الجحيم ؟

ثم انطلق يعدو بخطوات واسعة وهو يتمتم بكلمات مدغمة .

وقال ياناكوس :

- كيف لك أن تمسك بشوك البحر دون أن يؤذيك بوجوه . اننا كنا نحسن صنعا لو أننا لم نتكلم معه .

وقال ميشيل فى حزن :

- أصاب الجرح منه مقتل .

وقال قسطندى يفسر سورة غضبه :

- هناك الأرملة أيضا ، والزوجة ، سينطلق الآن الى زوجته ويناته وينهال عليهم ضربا ، انه دالم النهديد أين بان بلقى بين الى قارعة الطريق .

وقال ياناكوس :

- تقصص يهوذا ، وبدأ يأتى أفعاله ، ستواجهنا المتاعب ، انى أخاف على مانولى ، أشاك الله أن أخطئ . الظن .

وقال ميشيل فى قلق :

- بالنسبة لمانولى ؟

وأجاب ياناكوس :

- أحسب أن الأرملة تضع عينها عليه : منذ أيام قلائل أبصرها شخص ما تحدث إليه هناك عند البشر ، وشم يانايوتي رائحة ما حدث ، وثارت نائوته . وكلما سكر يصبح : ساقته ، ساقته القدر ، وشحذ سكينه فوق الحجر .

واقترح عليهم ميشيل :

- ماذا لو نذهب لزيارة مانولى هذا المساء ؟ فإن ما يقوله يثير

قلقى يا ياناكوس .

وقال ياناكوس :

- هيا نذهب إليه توا ، فاني أخشى أن يسبقنا إليه يانايوتي . أحسب أنه كان قاصدا جيل العذراء .

وقال قسطندى :

- ليس علينا إلا أن نأخذ طريقنا من هذا المنحنى ولسرع الخطو ساعدين . فكلما أسرعنا كان ذلك أفضل .

وغيروا طريقهم ، وانطلقوا صاعدين ، كفوا عن الكلام ، وأسرعوا
الخطو كأنما يتوجسون شرا .

أبصروا يانايوتي جالسا فوق صخرة عند سفح الجبل ، شارد
التفكر ، والفتحا رأسه بين راحتيه ، لم يبصرهم ، ومروا به دون أن
يتحدثوا إليه .

توقف المطر ، وتمزقت السحب ، وبنت صفحة السماء من خلال
قطع القمام هنا وهناك زرقاء زاهية ، والشمس لا زالت في سمتها
متوهجة .

وتردد صليل أجراس ، وصدح ناي طرويا فرحا ، ومروا ببعض
الأغنام ، ورفع نيكوليو الناي من على فمه ، وحدهم بنظرة .

وصاح ميشيل :

— إيه يا نيكوليو ، هل معلمك في الحظيرة ؟

— ليس هناك ، لم أره ، اذهبوا لتروا بأنفسكم .

— كيف حاله يا نيكوليو ؟

وأجاب الراعي الصغير وهو يهقهقه :

— كسرطان البحر حين يوضع على الجمر ، يفتى وهو يحترق .

وقال ياناكوس :

— انه صافي المزاج هذا العنز ، هيا بنا نحن نواصل طريقنا .

وبدا ميشيل يضحك وقال :

— عندي سر لكم أيضا ، ذهبت لنيو البارحة لزيارة أبي ، انها
شيطان في توب التي هذه الفتاة ، لست أدري كيف علمت بمرض
مانولي ، فاجأت الشيخ بقولها :

— لا أريد مانولي .

— لماذا ؟ هل تحبين غيره ؟

— نعم .

— من ؟

— نيكوليو ، الراعي الصغير .

— هذا ؟ ولكنه لا زال غرا ، لم يبصر شاربه بعد ، هل فيه نفع
لن ؟ هل يستطيع أن يمتحك أطفالا ؟
وقالت :

— يستطيع ، يستطيع ، هو عين من أريد ، انه يستطيع كما أقول
لك ، هو عين من أريد .

وبدأت تدلك الشيخ وتسلقه .

وقال الشيخ :

— لك ما تريد ، خذيه وأتمني لك أن تجدى فيه خيرا كثيرا .

وقال ياناكوس :

— تلك الفتاة اختارت عنرا ، استغفر الله .

وتذكر قسطندي زوجه فقال :

— حمد الله أن أفلت مانولي من الزواج ، فقد أراد الله به خيرا .

ما أن وصلوا الى الحظيرة حتى دخلوها ، لا أحد ، طافوا بكل
أرجائها ، واعتلوا الصخرة النائنة ، ونادوا بأعلى صوتهم ولا مجيب .
وتتمتم ياناكوس :

— اللهم احفظنا ، ترى هل انتحر ؟

وقال ميشيل الذي استبد به القلق :

— ما هذا الذي تتمتم به ؟

وأجاب :

لا شيء .

وعادوا الى الطريق ثانية منكسي الرووس ، كانت الشمس تميل الى
الى الغيب ، والتحف الجبل بالظلال ، ومالوا في طريقهم ليمروا بيسانب
الكنيسة الصغيرة القائمة فوق الصخور ، وهي كنيسة مهجورة ، يذكرها

الثاني مرة واحدة كل عام - في الثامن من نوفمبر - وهو يوم عيد القديس ميشيل - يقام بها في ذلك اليوم بعض الطقوس الدينية المتواضعة احتفالاً بذكرى القديس - ويضيء الوافدون الشموع التي تكشف عن بعض التصاوير الباهتة على الجدران - وترف من جديد أجندة كبير الملائكة ميشيل بأهدائها الملونة باللونين الاسود والاحمر - وينصرف الحجاج مع الغسق ، وتنطفئ الشموع ، وتسكن أجندة الملك في انتظار العام القادم لظهي ثانية .

ودخلوها - كانت عبلة برائحة الارض الندية - تشبه قبراً - وثمة شجرة كبيرة تحترق أمام أبقوة للمسيح كادت تبل معالمها ... وشقوا طريقهم عبر الهيكل - وجالوا يعبونهم : لا أحد وقال ياناكوس :

- كان هنا يقينا ، لا بد وأنه هو الذي أشعل هذه الشجرة ولكن بعد ذلك ، بعد ذلك الى أين ذهب يا ترى ؟

رسم ميشيل علامة الصليب وتمتم قائلاً :

- لعل الله أن يكلاه بعنايته .

كان مانولى قد مر حفاً بالكنيسة الصغيرة - أضاء الشمعة - وجنى على ركبتيه في ضوئها الكافي - يتأمل المسيح سحابة نهاره - متردداً في الحديث اليه ، ولا تواتيه الجراء - لم يكن يدري كيف يعبر عما يريد أن يفضي به اليه ... والمسيح من جانبه يرقبه ولكن في صمت خشية أن يتبر في نفسه الفزع .

قضى نهاره كله هو والمسيح ، وجها لوجه ، دون أن ينبس أحدهما بكلمة ، كغاشقين يرحمهما الجوى ، وعقل الحب لسانهما عن أن ييوحا بما يجيش به قلوبهما .

وعندما حل المساء - قبيل مجيء الرفاق الثلاثة - نهض مانولى - وقبل به المسيح - استودع كل منهما الآخر مكنون نفسه ولم يبق شيء . يقال - وفتح مانولى الباب الصغير وأخذ طريقه الى القرية .

واستشعر السكينة - وحفت نفسه قائلاً :

- أفضيت اليه بكل ما في نفسي ، ونحن على وفاق - منحني بركانه .

وليس على الآن الا أن أنصرف .

أشقى وجهه بتمنيله الكبير الا عينيته - كان الليل يرعى سدوله حين دخل القرية - واختار الدروب المهجورة - يذرعها مسرعاً في خطواته - وبعد يده في عزم وتصميم وطرق باب كاترينا .

وعلى الفور كان ثقباب الأرملة يطأ أرض الفناء في خفة .

وسأل صوت حلو :

- من بالياب ؟

وأجاب مانولى مبهود الفؤاد :

- افتحي .

وعاد الصوت ثانية :

- من بالياب ؟

- أنا ، أنا مانولى .

وفتح الباب على الفور - وهدت له الأرملة ذراعها - وصاحت فرحة :

- انه أنت يا مانولى - آلى لي بهذا الشرف ؟ أي ربح طيبة حملتك الى ؟ أدخل .

دخل ، وأغلقت أنياب وراءه - توجس خيفة فتوقفت هتية تطلع فيها الى أصص الريحان في فئس الليل - ثم الى البلاط الأبيض الذي رصفت به أرض الفناء - كان قلبه يخفق في عنف .

وسألته الأرملة :

- لماذا نضج لسانا على وجهك ؟ هل نخشى أن يراك أحد ؟ هل تاحمر بالحجل ؟ أدخل - أدخل يا مانولى ولا تخف - فلن آكلك .

ووقف مانولى جامداً وسط الفناء لا ينبس بكلمة - انه يكاد يميز وجه الأرملة ، وذراعها المرمين ، وصدرها نصف العاري -

وكالت الأرملة تقول له -

« افكر فيك ليل نهار يا مائولى . لم يعد يغضى لى جفنى . وإذا الغفيدة ، أراك فى منامى ... ليل نهار اصرخ أناديك تعال ! وها أنت آتيت فرحيا بعزيرى ما نولى ! »

وقال مائولى فى هدوء .

« آتيتك يا كاترينا حتى تتخلصى منى والى الأبد . حتى لا تفكرى فى أبدا بعد اليوم . ولا تنادينى ثانية . آتيت لتتفرز نفسك منى يا اختى كاترينا . »

وصاحت الأرملة

« أنا أتفرز منك ؟ أنت أملى الوحيد فى هذه الدنيا . فدون ان تعرف . وعلى غير إرادة منك ، ... على غير إرادة منك أصبحت أنت خلاصى ... لا تخف يا مائولى . فليس جسدى هو الذى يتحدث اليك بل روحى . فانا أيضا لى روح مثلكم يا مائولى . »

« مصباحك مضاء . لندخل . اذ يجب أن توينتى . »

« أمسكت الأرملة بقرع مائولى فى رقة وحنان وقالت .

« لندخل . »

كان سرير الأرملة عريضا . منسقا . نظيفا للغاية . يملا الحجره كلها . وتعلو أيقونة العذراء المقدسة يضيئها مصباح صغير . وفى أحد الأركان على اليمين مصباح زيتى موقد .

تقدم مائولى . واتخذ لنفسه مكانا تحت ضوء المصباح . وقال .

تشجعى يا كاترينا . اقتربى منى وانظرى لى . »

وبينما كان يقول ذلك بدأ يرفع متديله فى هدوء من على وجهه .

وظهت شفتاه المنتفختان بصورة مقلعة . ثم وجنتاه المنتفختان يسيل منهما سائل أصفر لزج . وأخيرا زالت جبهته المشوهة بلونه القرمزى كأنها قطعة من اللحم .

تطلعت إليه الأرملة بعينين واسعتين حائرة . وفجأة اغمضت عينيها . واندفعت نحو مائولى وهى تتنحب .

وصاحت :

« مائولى . مائولى . يا حبيبى . »

ودفعها مائولى عنه فى رقة .

أخذ يتوسل إليها قائلا

« افتحى عينيك وانظرى لى . لا تيكلى لا تأخذينى بين ذراعيك . انظرى لى وجهى يا اختاه . »

احسنت الأرملة أنها عاجزة عن أن تخليه من بين ذراعيها . وأخذت تصبح باكية :

« يا حبيبى ! يا حبيبى ! »

« ألا تتفرز نفسك منى ؟ »

« كيف أتفرز منك يا أحب الناس لى ؟ »

« بل يجب . يجب يا كاترينا ... يا اختاه ... يجب حتى تتخلصى منى ... وأنجو أنا . »

« لا أبغى الخلاص منك . الانفصال عنك فيه هلاكى . »

وفى يأس سقط مائولى فوق كرسي قرب السرير .

تضرع إليها

« ساعدينى يا كاترينا . ساعدينى لأجد خلاصى ... أنا أيضا افكر فيك ولا أريد ذلك ... أعينينى حتى لا تتدنس روحى . »

تساندت الأرملة إلى الحائط وقد امتنع لونها . أخذت تتطلع إلى مائولى بقلب منقطر وكان ملقها يتأدبها وسط ظلام الليل وقد أحفق به خطر ...

وأخيرا غمضت قائلة :

« ماذا عسائ أن أفعل من أجلك يا أعز انسان لى ؟ ماذا تريد منى أن أفعل ؟ »

« كان مائولى واجما . »

وقالت الأرملة :

- هل تريد مني أن أقتل نفسي ؟ هل تريد مني أن أقتل نفسي حتى يكون بذلك خلاصك ؟

وصاح مانولى فزعاً

- لا ، لا ، بهذا ستلقين بنفسك في الجحيم ، وهذا ما لا أريده لك

ثم رأت عليهما صمت من جديد . وبعد قليل قال مانولى :

- أريد أن أخلصك . فخلاصى رهن بخلاصك يا اختاه . وأنا

مستول عن روحك كما تعرفين .

وقالت الأرملة وهي ترتجف :

- أنت مستول عن روحي يا مانولى . خذها وأمسك بزمامها تقودها

إلى حيث تشاء . ففى لك ، وأذكر المسيح ، فهكذا كان أيضاً مستولاً عن روح مريم المجدلية .

استشعر مانولى بغتة مزيداً من السكينة . وقال :

- إنه هو من أفكر فيه . هو من أذكره آناه الليل وأطراف النهار يا اختاه .

- أسلك سبيل المسيح يا مانولى . كيف أنقذ مريم المجدلية العاهرة ؟

هل تعرف ؟ فانا لا أعرف كيف . افعل بى ما تشاء .

وتهض مانولى

- انى متصرف . قلت الكلمة التى اعتقتنى يا اختاه .

- وأنت يا مانولى قلت الكلمة التى أنقذتنى . وأدخلت السكينة إلى نفسى اذ دعوتنى اختاً ...

عصب مانولى وجهه ثانية ، فلم تعد ترى غير عينيه .

وقال :

- وداعاً يا اختاه . سأتيك ثانية .

وأمسكت الأرملة بذراعه مرة أخرى لتقوده عبر الغناء . وفى عتمة الليل مدت يدها وفطقت باقة من زهر الريحان .

وقالت :

- خذ هذه . كان المسيح معك يا مانولى .

ووضعت باقة الريحان فى يده . وفى هدأة الليل فتحت الباب وأطلت منه ، لا أحد فى الطريق .

وقالت الأرملة :

- لن أفتح بابى لأحد بعد الآن . سأنتظر مجيئك الى ثانية
باركك الله .

احتار مانولى عتمة الباب وتوارى فى الظلام .

الرَّبُّ صَارِنَ خَرْفٍ يَصْنَعُ مَخْلُوقَاتِهِ مِنْ صِلِين

اليوم أول مايو • والصيف على الأبواب • اتخذت الأرض زخرفها
والزيت • فالسهل لازال أخضر يانعا • والقمح يستطبخ بلون الذهب •
واشجار الزيتون تنكوز حباتها وتكبر • والكرم ينزير بعناقيد صفيرة
حمضية المذاق • وحيات التين الخضراء يسرى فيها لمن لاذع الطعم ليصبح
عما قريب عسلا مصفى • وأهل ليكوفريس يأكلون حبات التوم • فقيه
سحة لأبدانهم • وعينت القرية كلها برائحته • وبدأ البشر يعود إلى
الشيخ بطرياركس من جديد • فقد امتلا كرشه • وغلظ الدم في عروقه •
زاره صبايح أمس أندونيس الحلاق وعمل له كاسات دم ليتنقله من مرض
السكة • والمعجوز لاداس قايع في ركن يضخ هو الآخر غصن ثوم •
وقد تحول فكره عنه إلى الدخيل والتصرف • كم ستكون حصيلته هذا
العام من الزيت والبنس • والقمح • من مدين له بعال • ويكم • وكيف
يسترد الدين ؟ ويفكر أيضا في جنبات باناكوس الثلاثة • انه بنوى
بيع بضاعته في المزاد ويستولى على حماره •

والخطيبة يضيها النعم • ففي شهر مايو لا يعقد قران • وفي
يونيو يكون الحصاد • والعمل في الحقول لا يحتمل التأجيل • فلا وقت
لحفلات الزواج • والشهر الذي يليه موسم الدرس • ثم فيما بعده حتى
الكرم • إذن لا مناص من الانتظار حتى عيد الصلب في سبتمبر • وقتما
تخف أمساء العمل ويسد بيع الحبوب • ويومذاك سينتظر القسيس



ويبارك العروسة الذين نكحوا عن كليهما كثيرا من الهوم ، وتواجر
لديهما طعامهما من الخبز والزيت ، وتراهما من النية ، ويستعجلا
هذا كله القدرة على الاحساب وانجاب الأطفال .

والقيس جريجوريس يؤرقه هوم كثيرة . مازيوري لم تزوج
بعد . ويميل سلك سبلا سيئة . لم يكن قطنا بالقدرة الكافي فقد تحايل
عليه مانول وامندافوز . وقرروا به ، عثروا فيه على لقمة سائفة . وما هو
الآن لا يكف عن توزيع الدقيق والزيت على الفقراء دون علم أبيه . وبين
سبب وآخر ، اذا بخار ياناكوس - امانه الله شريفة - يحصل سلالا
جديدة مملوءة بالاطعمة الى الملاعين فوق جبل ساراكيئا . ويهدر
القيس جريجوريس شكايا . هذا الأبله . انه يتفكره للعوج هذا
سياني على ثروته سريعا . ثم ماذا سيكون من آخر ابنتي ؟

ولكن شر الأمور كلها قيس ساراكيئا . ذلك القيس يلقى قداسا
كل أحد في كهف فوق الجبل ويحول له الإغراق في تقديم الماعظ . وبدأ
بعض أهالي ليكوفريس يصرفون عنه . إلى الأب جريجوريس ، ليستمعوا
إلى هذا القيس المنترد اللثا . ولا يغتا القيس جريجوريس
بجدته نفسه قائلا . كل قرية من القرى أشبه بخلية نحل . والخلية
لا تسع ملكتين . أولى به ان يغارقنا . ويجمع حريمه في مكان آخر .
فساراكيئا عيشي !

وأهل شهر مايو أيضا على جبل ساراكيئا ولكن حيث الأسماك
المائية والبطون الخاوية . وقيل من الأذهار البرية المنتشرة هنا وهناك
بين الصخور . وبعض أزهار نبات العليق والعصاة . وآلاف السحالي
الحضراء والزمارية التي زحف خارج جحورها لتتعمق بدفء شمس مايو
الجانبة . لا أشجار ونبات هنا . ولا كوم أو بساتين . لا شيء غير
صخور موحشة نارية . وعلى مسافات متباعدة . شجرة أحنتها الرياح
التي حول صافيا معددة بما تحده من إمار لاذعة لا شيء فيها غير
البذور . شجرة زيتون برى . أو شجرة خروب أو كمثرى برية . غطتها
الأشواك . ولا تحمل غير الكراهية اللسان .

اليوم الأحد . ملا الصو . الكهف ذا التصاوير الباهية على الجدران .
واستيقظ السك ، البعض له ذوق أو لم تأكلت بفعل الرطوبة والزمن .
وآخرون مبتورة دموعهم أو أندامهم . وعلى الصليب لم يبق سوى وجهه

المسيح علامة صعد أرق وفطر . رقيقة من الصليب عليها قدمان زرقاوان
ينظر منهما الدم

لخص الكهف طوال الصباح برجال . وساء يترنمون بالترانيل
وبعد أن قرئوا من تريليم خرجوا ليجلسوا تحت الشمس . ولحق بهم
الأب فوتيس . فقد اعتاد أن يخطف في يومه كل أحد بعد القداس
ليشبه أفئدتهم ينادهم بالنجبة . وينبش عن كلمة طيبة لكل منهم .
ثم يبدأ موعظته ليبلغهم كلمة الرب . وكلمته . كان يستهل حديثه إليهم
دائما بصوت هادئ . ثم رويدا رويدا يندب فيه الحماس . وتبدو كلماته
وكانها تهبط عليهم من مكان ما في السموات العلى . من غير مكان تقتدر
كلماته على أرواح البشر .

كان منشرح الصدر وهو يتحدث إليهم في ذلك اليوم مواسيا .
وبعد على سمعهم ما سبق أن قاله لهم .

ـ نحياي يا أطفال . فلا زلنا على قيد الحياة . ولم نياس .
كان أحيانا يضرب لهم الأمثال . وأحيانا يحدثهم عن حياته وعن كل
ما رآه وعاناه . وأحيانا أخرى يمسك بالانجيل ويفتحه بطريقة عشوائية .
ويقرا منه بعض آياته فيكون منطلقا لحديثه إليهم . وتتفتح أمام أعين قومه
الكلييلة سموات مثاقلة بتجوهمها . وتتحوّل أسماهم البالية إلى أجنحة . حتى
يطونهم الحماوية تنسى ما تعانيه من الطوى .

بدأ القيس فوتيس حديثه إليهم في ذلك اليوم بقوله .

ـ نحن نعيش عن الحقيقة بالأسطورة . وسوق أقص عليكم أسطورة .
حيا اقربوا مني يا أطفال . وأنتم أينما السوسة اللاني نذوق الموعود .
ان حديثي موجه اليكن فاقربوا .

تجمعت السوسة مع بعضهم ومعهم أطفالهم وديقتن على الأرض
وأصطن به . وظل الرجال وقوا وراهم . وانكا التسويج على عسيهم
وكلهم أذان صالفة .

وبدا القيس فوتيس كلامه .

ـ يحكى أنه كان من سالف الأزمان صيادان . تساقا جلا . ونصبا
شباكهما . وعادا بها في اليوم التالي . فنادا زابا . كانت الشباك تعج
بحمام ملقوة . وكل واحد من هذه المخلوقات التسعة أرف يحتاجها

حاول في يأسه أن يفلت من أسارها ، إلا أن عيون الشباك كانت ضيقة - فكيف لها أن تنفذ منها ؟ لم تكومت حول بعضها في حلق ، وانظرت - وقال صياد : ما أسوأ هذه الطيور ، إنها جند على علم - كيف يبيعها في السوق ؟ وقال الآخر : ليس علينا إلا أن نطعمها أياما فلائح حتى نكسبن - ومن ثم اتفوا اليهسا بكيمات وفيرة من الحب ليجروش وأحضروا له ماء - وبدأ الحمام المطوق يأكل ويترب في شهية ولهم - إلا واحدة لم تكثرت بذلك ولم تطعم شيئا - وفي كل يوم يأتي الصيادان يزيده من الحب المجروش - وهكذا سمى الحمام يوما بعد يوم - إلا واحدة أضاعها التحول - وانضلت في عناد لتنفذ من الشبكة - واستمر الأمر على هذه الحال حتى جاء الصيادان ذات يوم صفت سناؤه وأخذوا الحمام لبيعه في السوق - ولكن الحمامة الطوق التي قضت أيامها هذه بغير طعام - كان الهزال قد نال منها كل نال حتى استطاعت بعد جهد أن تنفذ من بين عيون الشباك وتفلت - وهكذا أصبحت طليقة -

تلك هي القصة يا أطفال - ولكن لماذا قصصتها عليكم ؟ من منكم يدرك مغزاها ؟ أنت أيها الشيخ ماذا ترى ؟ هل لكم أن تكلموا فنتكلم قليلا ؟

وصمت الشيوخ من الرجال جميعا - وفجأة وقف المعلق حامل الراية -

- يبعد لي يا أبانا ذلك تشير بها إلى جوعنا - وأنه سيعطينا على أن نجد حريتنا ... تقصد أننا مثل هذه الحمامة التي أتت أن تطعم شيئا ... ولكن ماذا بعد ؟ إن الأمر غير واضح لي ... آسف فإن فكري قاصر عند هذا الحد -

وقال القسيس

- لقد أدركت جوهر القصة يا لوكاس - إنني أباركك - سأوضح لكم يا أطفال بقيتها - بدأنا حياتنا في قرينتنا الحبيبة - ونحوونا كل المنمود - افترقا في العلم ، وأنفلقنا أرواحنا بالغداة - كانت حياتنا كلها دعة وأمانا وسلاما - وانطلق المسند حتى استعبد الروح - كنا نحدث أنفسنا - كل شيء يسير على ما يرام - العدالة تسود العالم - ليس ثمة جائع ولا مفروود - وعالمنا خير العوالم قابلة - وأشفق علينا الرب - أرسل إلينا الأثرال - فظفرونا من ديارنا - وفردونا لنهيم على وجوهنا

في الطرقات - اضطهدنا وتعلمنا أن العالم مليء بالمطالم - أصبحنا جوعى ومفرودين - وثلاثة غيرنا يربون الزلازم ولا نطقنا لهم غار - يصحكون إذا ما وقع بصرحهم على شعب مهلهل ينظرون جوعا -

فتحت النازلة عيوننا ونهمننا - بسط الجوع أجنحتنا - وهربنا من شباك الظلم - كما نحررنا من حياة الدعة المريبة - وهاتحن هنا أحرارا - والآن نستطيع أن نبدأ حياة جديدة والحمد لله -

ورأى عليهم صمت - فلم ينسب أحدهم بيتة شقة - عز الشيوخ رؤسهم - وعادوا التسوسة نواحيها الكتوم - فيما عدا الرجال وحدهم كانوا ينطلقون إلى عتبي القسيس ويستشعرون في أعناق نفوسهم قوة وعنادا لا يقهران -

ومرة أخرى كان حامل الراية هو الوحيدة الذي رفع صوته

- حديث طيب يا أبانا - أشفق علينا الرب فابتلانا بهذه النازلة - تماما مثلما يفعل الفارس إذا جمح حصانه - فإنه يلجئه بسوطه ... لقد ألهمت النازلة دما - وفتحت أفئدتنا - وأصبحنا أحرارا -

ثم صاح وعيناه تفيضان من الدمع - فقد تذكر جورج - طفله الصغير - الذي مات في الطريق -

سولكن الآن كيف السبيل إلى الخلاص من هذه النازلة ؟ هذا ما يجب أن نتحدث عنه - أما أن نقضى عليها أو نقضى هي علينا - أنها تكاد تهجر علينا -

وأجاب القسيس -

- لا نخش شيئا يا لوكاس - فإنا سنظفر بهذه النازلة - سنرى كيف أنها ستعود علينا بالحير - العمل والصبر والحب - نلكن هي أسلحتنا - تقوا بالفسكم - إنني إذا أغضبت عيني أبصر بيوتا من حجر تحيط بي من كل جانب - وكتيسة يعلوها برج الجرس - ومدرسة ذات طابقين وفناء واسع يفض بالأطفال - وحول القرية حدائق وإسائين كرم وحقول قمح ... وقد بدأنا مسيرتنا بالعمل - امتدبتنا إلى قطعة أرض صغيرة - وبدلنا فيها الحب - وأسرنا المياه الشمرودة - وستعنا لها الفتوات - وطعمنا الأشجار البيرة - بل بدأنا تشييد المباني بالعمل ... وفي تلك القرية المشكيرة ليكوفريس - التي أعنى ببع القلب - لا زال فيها عصبة من

الرجال لهم بين جوانحهم أفلدة ، وهم يفكرون فيشأ : ذات يوم أتاني
 بعضهم بكل لورته . ثلاثة جنهات ذهبا ، وفي اليوم التالي أرسل لنا
 آخر سلال طعام ، وقدمت لنا امرأة آمنة نعينها وأتم غيرها مات
 قبل أول أسي . تذكرنا لعملة أن حضرة الموت . وتوصي لنا صندوق
 مليء ببعض الحاجيات . أسأل الله أن يصفح عن روحه الآتية ! ها نحن
 يا أطفالنا نصير بيجودونا في الأرض ، ها نحن مرة أخرى نجد لنا مكانا
 على الأرض نبت فيه بدونا من جديد لننمو ونستوى على عودنا ونستوى
 لروحنا . تقوا بأنفسكم !

وصاح شاب خشن الظاهر ، شاحب الوجه من أثر الحرمان ، منبسطا
 بخرقة بيضاء .

يا أبايا . هل سسمعد حياتنا صيرتها الأولى من جديد ؟ نفس
 التي دائما وأبدا يا أبايا . هل يجب أن تبدأ كما بدأنا أول مرة يا أبايا ؟
 تذكر جيداً أن لم يكن في قريتنا أغنياء فقط . بل فقراء أيضا . مات
 أمي جوعا وقتما كانت القرية تسبح في الزيت والنبيل . وأقران الجيران
 جميعهم موقفة . تحبز صفوا متراصة من الأرفة . وكانت رائحة الخبز
 السامع كافية وحدها لتسبب أمي بدوار وهكذا يا أبايا عود عن
 يده وتتردد نفس الأغنية القديمة ؟ مرة أخرى غني وفقير ؟

وأطرق القسيس قوتيس برأسه . وظل غارقا في فكرة متسرة
 طويلة . ثم قال أخيرا :

أت واضح وصريح يا بطرد . لا نواري في حديثك . وأنا أحب
 منك هذا . أن ما تسألني عنه أسأل أنا عنه الله أجل نهار . أتضرع إليه
 سبحانه أن ينير بصيرتي . أعوده قائلا : الهي لنا نيتي أسأ جديته
 تقم علينا قريتنا الوليدة . حسنا ما عايننا من الظلم . إذا شئت
 سيجانك فليكن كل منا جاعا مقرورا . أو لينعم الجميع بالطعام واللبس
 والنسب . الهي هل تعجز عن أن تحقق العدالة على الأرض ؟

وسأل الفتى بطريقة فظة

وماذا كانت إجابة الرب الرحيم ؟

حناياك . امهنتي . فإن فكرى الكليل ينتقي النور وويدها
 وعلى قدم طاقته . أن النازلة التي أحدثت بنا . ولكن منصفين في حديثنا
 عنها . قد جعلتنا جميعا سواسية . أصبحنا جميعا فقراء ليس فيما من

يملك لونا يخبز فيه خبزه . أو من يجد فرصة ليقع في الحطينة حتى يمتع
 الخبز من جاره الجائع . لتعمل على تحقيق ما كان عسيرا على النفس فيما
 مضى . ها هي اللحظة الثاقبة يا أطفالنا ولتتكاتف متويا . تحررت
 الروح من البطون المتخمة . وهي الآن قادرة على الطيران .

والفتى ال شبح كان يصغي إليه وقد استظل بشيء فوق رأسه
 عاكفا يديه . عتكبا بهما على عشاءه وقال له :

يا أب كاريلوس . ماذا لو أنك مثلت مبد تهبور ثلاثة مفسد
 أن تقسم ما تملك من كرم وأشجار زيتون بينك وبين الفقراء ؟ ترى هل
 كنت تفعل ؟

والجواب الشبح

أبنا وليغفر الله لي . ترى هل كنت تقبلون أن تطفئوا إيديكم
 وأرجلكم واحتياكم وتصدقوا بها على جيرانكم ؟ كان زيتوني وكرمي نفس
 التي بالنسبة لي .

وأتت يا أب يافيليس . لعل معاليك ماكنت لتقبل أبدا أن تفتح
 خزائنك لتقسم ما فيها من العملات الذهبية بينك وبين المعوزين .

وتجهم شبح يلقب قبالة القسيس . ولم يجب . واكتفى بأن سمعه
 دفرة عميقة حين تذكر خزائنه .

وصاح القسيس قوتيس في ثورة مفاجئة :

أن من يملك أرضا وأشجارا يصبح الأرض والأشجار هي ذاته .
 وتفقد روحه صديقا القدسية . ومن يملك الخزائن تصبح الخزائن ذاته
 فأنت يا يافيليس النعسي . لم تكن سوى خزنة حال . وأنت يا كاريلوس
 البائس لم تكن سوى قطعة أرض وحقة من تراب حتى قيل أن يرافيك
 الأجل . ولكن حمدا لله أن كنت لنا النجاة ! ها أنتم أخيرا أيها الأغنياء
 دأبتم بأعينكم وعرفتكم معنى العري والجوع . ولستم بأنفسكم عذاب
 الفقير .

وتنهى الشبح يافيليس وهو يلول :

حقا عرفت .

واستطرد القسيس قوتيس قائلا :

والآن ستمحو كل ما سبق . سيكون كل شيء قسمة بيننا . لن

يكون بعد الآن شيء أقول انه ملكي أو ملكك، لا حدود ولا أسوار ، ولا أقاليم ولا خزان . هنا مستعمل جميعا ، وتآكل جميعا ، وسيعمل كل منا قدر طاقته . سيذهب أحدكم للصيد من بحيرة فويدامانا ، ويذهب آخر للنقص ، وثالث يقطع الأرض ، ورابع يرعى الحيوانات التي سيمس عليها بها الله . نحن اخوة . أليس كذلك ؟ اننا أسرة واحدة ، ولنا أب واحد هو الله .

وسيط القسيس فو تيس ذراعيه لهم جميعا وصاح :

— لنرى أسسا جديدة في قريتنا الوليدة ، وكذلك في ورونا . انها مهمة شاقة على النفس عسيرة ، ولكن أعيتوني على ذلك يا اخوتي . العمل والصبر والحب — والايمان بالله ... ماذا فعل المسيحيون الأرائل ؟ كانوا ينشقون في المقابر تحت الأرض وارسوا دعائم يدينة للعالم . وهذه الكهوف من حولنا في باطن الأرض هي المقابر التي مستلقت في فيها . ونحن أيضا معنا للمسيح . عرفنا الظلم وسوف نعيد الأمور إلى نصابها . أي بئرو ، لا نخشى شيئا يا بني ، نسي الماضي وامن آثاره من نفسك . لنعاون كلنا يدا واحدة من أجل بناء عالم جديد .

هبوا جميعا واقفين ، العزم والأصرار يملأ نفوسهم ، وتدافعوا حول قسيسهم .

وصاح القسيس ثانية :

— كلنا يد واحدة ... كلنا يد واحدة ! تلك هي كلمة السر الجديدة وفيها خلاصنا .

وصاح الرجال والنساء وقد دفعوا أيديهم كأنهم يرددون القسم :

— كلنا يد واحدة

ورسم الشبيخ كاريلوس علامة الصليب ، واغرورقت عيناه بالدموع وقال :

— جعل الفقر مني إنسانا ذا قلب كبير . اللهم اسألك أن تقبلي شر الشراء ، فاني سأرتد شيئا كما كنت .

وصاح بترو ضاحكا :

— لا تخف يا أب كاريلوس . اعتمد علينا في ذلك فلن نسبح لك يا لثراء !

وخيل القسيس ردهاه اللذين ، وطواه . ثم ناوله لامرأة عجوز ضامرة عهد اليها بمهمة الخدمة في كنيتهم .

وقال :

— اليوم الأحد ، وهو يوم الراحة يا أطفال ، وغدا نبدأ العمل من جديد . دعوا الصبية يلعبون الكرة ، وليجتمع الرجال ، يعقدون قريبا بينهم مجالس يتبادلون فيها الرأي ، وتلتقى النسوة ببعضهن يترلرن ، وتواس كل منهن الأخرى . أما أنا فيجب أن أصعد الجبل المقابل حيث ينتظرن هناك استدقارنا أصحاب السلال . ألي اللها يا أطفال مع النساء ، كان الله معنا .

وبعد أن فرغ من كلماته هذه ، تثلث عصاه وانصرف .

التف حول مانولي الرسل الثلاثة بطرس ويعقوب ويوحنا . فتحوا أمامهم الانجيل الصغير الذي أحضره لهم يا ناكوس في ذلك الصباح . وكانوا ينتهيون للقراءة .

ألقوا وجه مانولي المنتفخ ، وزايلهم ما كانوا يحسون به من فرح في بادئ الامر . وواتهم الجراحة على أن ينظروا اليه مباشرة . دون شعور باستئزاز أو خوف . كان ياناكوس قد طلب من القسيس فو تيس ، على غير علم من مانولي ، أن يأتيهم ويرى الفمة التي حلت بصديقهم ، ويبدى لهم رأيه فيها . لقد رأى القسيس الكثير . كما عانى الكثير في حياته ، وعرف كل آلام الجسد والروح ، ومن يدري ربما يعرف دواء ... وربما يحتاج مانولي إلى شيء آخر غير المراهم والعقاقير . وربما كانت هذه الفمة المفاجئة واجعة لأسباب أخرى ، إذ قد تكون من عمل الشيطان ، فيطرد القسيس بتعاونه الروح النجسة .

وهكذا صعد ثلاثتهم في ذلك اليوم إلى الجبل ، كل يحمل هدية إلى صديقه المريض : ياناكوس الانجيل الصغير ، وقسطندي صندوقا من الحلوى التركية ، وميشيل أيقونة صغيرة تمثل الصليب ، وهي أيقونة عتيقة جدا ووثها من أمه . ترى فيها المسيح على الصليب ، وقد رسم حوله عدد لا يحصى من عصافير الجنة — لم تكن ملائكة وإنما عصافير جائئة فوق ذراعي الصليب ورأسه ، قائرة مخلوقها الصغيرة كأنها تشمو ... وأزهر الصليب ، إذ تحف به أزهار قرنفل صغيرة بدا معها كأنه شجرة لوز مزهرة ، والمسيح

المصلوب يتسبب ونسب الرخود والطيور - ونحن قدمي الصليب مريم
المجدلية العاهرة ، وحدها - حلت شعرها وهي تمسح قدم الذي يسيل
من قدمي المسيح -

جلس مانوي فوق المقعد الحجري أمام بناء الحظيرة ينتظروهم - غسل
شعره ، وارتدى ملابس يوم الأحد - كان يمسك بفتاح المسيح الذي حفره
ينظر اليه حيناً من أمام وحيناً من يمين وحيناً ثالثاً من يسار - ويتأمل
عينيه الباكيتين - والظم الثالث ، والاشمامة الحزينة -

أخذ مانوي الهدايا - قبل الأنجيل - ونظر طويلاً إلى أيقونة الصليب -
ونتم قاتلاً :

- ليس هذا هو الصليب وإنما الربيع -

وربما إلى المرأة الجالية أسفل الصليب وشعرها الذهبي المتفرق ،
وتلاوه -

وضع شفتيه عند قدمي المسيح - ولكنه جفل بغثة في حلق - خيل
اليه أنه قبل شعر العاهرة الأشقر وجدها العاري -

وأخذ ياناكوس الأيقونة من يدي مانوي وقال :

- تعال يا مانوي ، المنح الأنجيل واقرأ -

- ماذا سقرأ يا ياناكوس ؟

- افتحه كيقرأ الفلق - وما استغرق علينا مناقشة حتى يبين

أخذ مانوي الأنجيل - وانحنى عليه بقبلة لم فتحه -

وقال :

- باسم الآب والابن والروح القدس -

ويقرأ على مهل يحاول أن يفصل المقاطع -

« وثا رأى الجوع سعد إلى الجبل - فلما جلس تقدم اليه تلاميذه -
فتفتح فاه وعلمهم قائلًا طوبى للمساكين بالروح - لأن لهم ملكوت
السنوات - »

وقال ياناكوس مسروراً -

- هذا سويل - الحمد لله أي أفهمه - وأنت يا قسطندي ؟

كان قسطندي في ريب من أمره - فقال :

- ماذا تعني ؟ المساكين بالروح ؟

وفسر له ياناكوس

- كل أولئك الذين لم يتعلموا - كل أولئك الذين لم يذهبوا إلى
المدارس العليا ليحلقوا أمكانهم -

وقال مانوي مصححاً :

- لا ، ليس المصد أولئك الذين لم يتعلموا - يمكنك أن تكون متعلماً
مثل الأب فوتيس وتداول ملكوت السنوات - ويمكن أن تكون جاعلاً مثل
المعجزة لاداس ولا تدخل - انها تعني شيئاً آخر يا ياناكوس - ماذا ترى
يا ميشيل ؟

وعرض ميشيل رأيه :

- أولئك الذين لا يسيرون السوء ، والذين يتحلون بمقول بسيطة
تقية - لا يتجملون وإنما يؤمنون ، ونفوسهم مفعمة بالبراه والشفقة -
هذا ما أراه أنا - سنسال القسيس فوتيس -

وقال ياناكوس في ضجر :

- ما بعدها ، فاتها ستوضح ما سبقها - ماذا بعد -

واصل مانوي قراءته :

- طوبى للحراني لأنهم يتعززون -

وقال ياناكوس وهو يهرش رأسه :

- آه ، هذه أصعب من سابقتها - ما معنى « يتعززون » ؟

وقال قسطندي مفسراً :

- انه سيعزيم -... ولكن من العزاء ؟ ومن - من ؟ أنا لا أفهم -

وقال مانوي :

- أخالها واضحة لي إلى حد ما : « الحراني » هم البؤساء الذين
يعانون في حياتهم - وأولى هؤلاء ألا يقتنهم لهم ، فإن الله سيعزيمهم
وبواسمهم -

وقال ياناكوس الذي كان في عجلة لتأنيته القراءة :

- وهذه أيضاً يجب أن نسال عنها القسيس فوتيس -... ما بعدها -

وقرأ مانوي :

« طوبى للودعاء • لأنهم يرون الأرض » •
وصاح ياناكوس مزحوا :

« هذه على أية حال واضحة تماما • ليتفتح الودعاء • أي ذئب النفوس
الطبيعية الرحمة المسألة • هؤلاء هم الذين سيفوزون في نهاية الأمر وتكون
الأرض لهم • أي لا يكون ذلك عن طريق الحرب وإنما ستكون لهم السيادة
على العالم بالحرب • لتسقط الحرب • لتسقط الحرب ! كلنا أخوة !

وتردد قسطندي في قبوله لهذا التفسير وتساءل :

« وماذا عن الأتراك ؟ »

ورد ياناكوس في حماس :

« والأتراك يا ثقل • والأغا • ويوسفوفكي وحسين والكل
جميعا !

وسأل قسطندي في عناد :

« وأولئك الذين دمروا قرية الأب فوتيس !

وهرش ياناكوس رأسه ثم قال :

« لا علم لي بهذا • سأسأل الأب فوتيس ... اقرأ ما بعد ذلك !

« طوبى للجياع والعطاش إلى البر • لأنهم يشبعون » •

وصاحوا جميعا :

« آه • لعل هذه هي إرادة الله • فانتا ستشبع بالبر •

ووقف ياناكوس مهتاجا وصاح :

« طوبى للجياع والعطاش إلى البر ! هؤلاء هم نحن • كان المسيح
يتحدث إلينا نحن يا أصدقاء • نحن الأربعة يا أخوتي جياع عطاش إلى
البر • قلبي يكاد يطير فرحا • كأننا المسيح التفت إلى بوجهه وكلمتني
... تشجعوا يا أصدقاء ! ... اقرأ ما بعدها يا مانوي !

« طوبى للرحماء • لأنهم يرحمون » •

وقفز ياناكوس ثانية وهو يصيح :

« اسمع هذه يا أب بطرياركاس • اسمعها أيها الأكل الشريب •
يا من ترفض أن تحيينا في الطريق لأننا رحماء نصدقنا بأربع سلال من

الطعام على الفقراء ! اسمع هذه يا أب جريجوريس أيها الدنيء المسعوز •
يا من تطرد الجياع بعيدا عن مائدتك الحافلة بأطياب الأطعمة واللحوم !
سلا كرثك حتى لتخيه • ولو انفضر لأغرق القرية كلها بما فيه من
نخن • اسمع هذه يا أب لاداس أيها البخيل المعجوز • يا من تأتي أن تقدم
كوب ماء لمعتشان حتى ولو كان ملاكك العارس ! براغو يا مشيل إذ لم
تشابه أباك • مستغل ملكوت السموات • مع السلال الأربعة فقد كان
الطعام طعامك أنت لاطعامنا نحن ! ... ما بعدها •

« طوبى للأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله » •

وقال قسطندي :

« أنا أفهم معنى هذه الآية جميلة • وإن كنت لا أفهمها تفصيلا •
فيحسب كلمتها غامضة • أو بالأحرى فإن كلمة • يعاينون • هذه يستعصى
على فهمها ... ما المقصود بها ؟

وقال ياناكوس :

« معناها يشهدون الله • أولئك الذين لهم قلوب نقية حسيشدهون
الله ... هذا كل ما فيها •

وقال قسطندي في حيرة :

« أتني لك عليك بتفسير كل هذا ياناكوس ؟ أحسب أنك أوتيت
حكمة سليمان !

ورد ياناكوس :

« آنا لا أقسرها بعقبي أيها المعجوز بل أقسرها بقلبي • قلبي هو
الملك سليمان ! استمع يا مانوي ... اقرأ ما بعدها !

« طوبى لكم إذا غيروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من
إجلى كاذبين • افرحوا وتهللا • لأن أجركم عظيم في السموات • فأنهم
هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم » •

وقال ياناكوس :

« أعد يا مانوي • ولا تسرع من فضلك • إذ تبدو لي هذه الآية •
استغفر الله • غامضة إلى حد ما •

أعاد مانوي قراءة الآيات ثانية وقال :

« أمثالها واضحة تماما • كل أميان القرية واغنياؤها وكاذبوها

وحولها سيعتقون أننا إما ما نحن الأريمة . ويطاردوننا لأننا نقول كلمة الحق . سيحركون اتباعهم على الشهادة ضدنا . قد يقتلوننا بالحجارة . بل قد يقتلوننا . ألم يفعلوا نفس الشيء مع الأنبياء . ولكن يجب أن نسر لذلك غاية السرور يا اخوتي . لأننا بذلك نهب حياتنا محبة للمسيح . ألم يهب حياته محبة لنا ؟ هذا هو معناها .

وقال يناناكوس وعينه تنفذ شروا :

— أنت على صواب يا ماثولي . اخذ الفيس جرجوريس يسير في المقدمة مثل قبانما . ومن وراءه لاداس يصيح : اقتلوه ! اقتلوه ! فتحوا حرائقنا عنوة وفسدوا ذمينا بينهم . وأكد أري الشيخ بطرياركاس — لا تضيق بكلامي يا ميشيل — يقوم يدور بيلاطس ويقول : « أقبل يدي من هذا . إذ لا حيلة لي . اقتلوه » . ولكنه في أعماق قلبه سرورا لأننا نسينا في ازعاجهم . لم نتركه في سلام يلثم لحم خنازيه الرضيع . وينتسب أطافره في خادمية ويدعو الأرملة كاترينا إلى بيته لتدلكه لأنه — كما يزعم — أصيب بالأم البرد . . . إبه أيها العجوة . أيها البؤساء . أيها الباحثون عن النعمة . أن عدالة الرب آية . أنها آية لا ريب فيها . هاهي مائدة خفا .

استكرته الكلمات . فاطل على القرية . ووسط إليها ذراعية متوعدا . واستنار . وفجأة رأى أمامه القسيس فوكيس فابتلع الكلمات في حلقه .

وقال في ارتباك :

— فتوك يا أبانا . ولكننا كنا نقرأ الانجيل والتهب قلبي حماما .

كان القسيس فوكيس قد اقتررب منهم وهو يسير على أطراف أصابعه . ولم يلاحظه أحد من الأساقفة الأربعة إذ كانوا هائمين مع كلمات الانجيل . وقف على مقربة منهم بعض الوقت ينصت لهم وعلى شفوية استماعه .

قال وهو يدنو منهم :

— سلاما يا ابنائي . كان الله معكم .

نهضوا جميعا متلهئين ، وأفسحوا له مكانا فوق المقعد الحجري . ولكن ما إن وقع بصر القسيس على ماثولي حتى صاح :

— ما هذا يا طفلي ؟ ماذا أصابك ؟

وأجاب ماثولي منكس الرأس :

— عاقبتني الرب يا أبانا . لا تنظر إلى . أنظر إلى الانجيل وفسره لنا . كنا في انتظار قداسكم لتصوروا به . كيف نفهم ولستنا أهمل علم وثقافة .

وأضاف قسطندي :

— إن عقلنا أشبه بجهاز قياس معوج . هيا يا أبانا لنقومه . فقال القسيس فوكيس :

— أنا الذي أساعدكم ؟ أولي يحكماء العالم جميعا إن يأتوا إلى هنا يفتوا وينصتوا لكم حتى يستنى لهذه المخلوقات النعمة أن تفقه أغريا كلمات المسيح . أنت على صواب يناناكوس . الانجيل ليس كتابا تقراء بفعلنا . فاعقل فاسر عن أدراك العالي الشريقة السامية . الانجيل كتاب تقراء بفعلنا . والقلب يعي كل شيء . هي يوم من أيام الأسمه ياناناكوس ستأتي إلى كنيسة . وسعد الفانير التي نسكنها . ونفسر لنا كلمة الرب . لا تضحك فالتى أعنى ما أقول .

والتفت إلى ماثولي :

— كل الأراجاع يابسي مصدرها الروح . فهي التي تسوس البدن . روحك مريضة يا ماثولي . وخسفاء الروح هو دوازك . ثم يكون شفاء البدن شتما . ولكن لنحدث موبيا أولا . لماذا بعتم في طلي ؟ كيف لي أن أعينكم ؟ اطلبوا ما تتشاورون وأنا في خدمتكم . وبعد ذلك لي حديث معك على الأفراد يا ماثولي .

وأجاب ميشيل :

— بعثنا في طلبك يا أبانا بسبب مرض ماثولي . قلنا لأنفسنا : « ربما استقر على وجهه شيطان . وقد تعرفون قداسكم رقية تطردونه بها . » وأضاف يناناكوس إلى ذلك قوله :

— ولما أشياء أخرى كثيرة يا أبانا لا أفهمها . ليس كل ما يصينا هو من عند الله ؟ فلماذا حل ذلك بماثولي دون الأشا . . . و لنقل مثلا القسيس جرجوريس أو العجوز لاداس ؟ أي عدالة هذه ؟ أنا لا أفهم . لم استدار ناحية ماثولي :

— لماذا لا تترغى أنت أيضا ؟ لماذا لا ترفع صوتك إلى الله

تسأله « افانح انت بينافك همالك عافدا دراعيك ، منكسا راسك » فأتا
 « الرب يعاقبني » : « ماذا انترفت ؟ لماذا يعاقبك ؟ تكلم واحج فلسفت
 يسائية ، وانما انت انسان فاسأله . فهكذا يكون الانسان .. كائن حي
 يتكلم ويعترض ويسأل » .

وقف القسيس فونيس وعده ذراعيه ووضع راحته على فم
 ياناكوس . وقال :

« تجاوزت الحد في اسئلتك . انك ترفع صونك عاليا جدا
 ياناكوس . سأل الله ان يهبط الى الأرض ، ويمثل لملك ، ليقدم لك
 الحساب . من انت حتى تطلب من الله ان ينزل الى الأرض ؟ »
 واجاب ياناكوس في حلع :

« أنا .. ولكنني اريد ان افهم » .

وقال القسيس فونيس فرحا :

« تريد ان تفهم حكمة الله ياناكوس ؟ ولكن الانسان ليس الا دودة
 ارض عماء عند قدمي الله ! وحى لاشيء بالقياس الى عظمة الله سبحانه .
 ماذا تستطيع انت ان تبلغ من حكمته ؟ أنا ايضا اعتدت في سبيلى ان
 احجج واسأل مثلك . ولم افهم . وذات يوم تحدث الى معلمى الشيخ
 في دير مونت ت لوى وضرب لى مثلا . كان كثيرا ما يضرب الأمثال ليعبر
 بها عما في نفسه . طلب الله ثراه » .

قال لى :

« يحكى انه كان فى سالف الأزمان قرية صغيرة نائية فى الصحراء .
 كان أهلها تلم من العميان . ومن بعدهم القسرية ملك عظيم على رأس
 جيشه . كان الملك رافيا ذكيا قسما . سمع به أهل القرية العميان .
 وكان قد سبق لهم ان سمعوا الكثير من الغيلة وتحرفت نفوسهم رغبة
 في ان يخلصوا هذا الحيوان الخرافى حتى تتكون لديهم فكرة عنه . وخرج
 عشرة من رجالهم ، ونقل لهم احيان القرية . فوصلوا الى الملك ان يأذن
 لهم بنفس القليل . وقال الملك : « اذنت لكم فامسكوه » لمس أحدهم
 خرطومه ، وآخر قدمه ، وثالث بطنه ، ورابع أحدهم على قدميه حتى
 يمس اذنه . واعتلى آخر ظهره . وعاد العميان الى قريتهم مسحورين .
 ونزاحم حولهم بقية العميان من أهل القرية . يسألونهم في لهفة عن
 حقيقة هذا الحيوان الخرافى الذى يسمى بالقليل . فقال أولهم : « انه
 انوبة ضخمة ترفع نفسها بقوة وجبروت وتلتف حول نفسها والويل

لن تمسك به » . وقال آخر : « انه جدار اشبه بجدار الحصن يغطيه
 الشعر » وقال من لمس اذنه : « لا . لا انه ليس جدارا على الإطلاق ،
 انه سجادة من صوف مسيك نسجت بطريقة فجة . تتحرك كلما لمستناه .
 وصاح آخرهم : « ما هذا الهراء الذى تنطقون به ؟ انه جبل شامخ
 متحرك » .

وتهمه الرفاق الأربعة :

وقال ياناكوس :

« نحن العميان . انت على حق يا ايانا . أسألك الصغح . اتنا
 نكتشف ظفر أصبع صغير من أصابع قدمه المقدسة ونقول : « الله قاس
 كالحجارة » لماذا ؟ لأننا عاجزون عن ان نتجاوز هذا الحد » .

وقال ميشيل :

« ليس لنا ان نسأل . لابد وان لله حكمة لا نعلمها حين ابشلى
 مانولى . اتنا فقط لا نراها لأننا عميان » .

وقال مانولى وهو يرفع رأسه :

« ثمة رباط يجمع بيننا نحن الأربعة بهذا العلم . وليس لأحدنا
 ان ينفصل عن الآخرين . ومن لم اوى ان من الملام تماما لى ان اعترف
 امام الجميع ، حتى نحاول معا ان نسين لماذا يعاقبني الله . واعترف
 كيف ابرا معا اصابني .. أنا نفسي اعتقد انه طالما ظل هذا الشيطان
 مستقرا على وجهي ، فعمتي هذا اننى لم اتب بعد توبة نوحا ، وان
 الله لن يقبلني .. »

وقال القسيس :

« اى مانولى ، انت على حق يا ينى . هكذا كان المسيحيون الأوائل .
 اعترفوا بخطاياهم قبل ان تربطهم رباطة الأخوة . حاولوا معا الاعتداه
 الى طريق الخلاص .. وهال نحن باسم المسيح ننصت لك ياناولى .
 لا ننى اتنا جميعا خطاة ، وان الرب الآن فى السماء يرانا ويسمعتنا » .

جلس مانولى فترة طويلة يستجمع شتات فكره . مروت امام بينية
 حياته كلها . فغير معلم فى البيت . ثم يتركه أبوه بنينا وتقول خالته
 مائدة البنية تربيته وذاق معها الأمرين ، وأخيرا عرف طعم الخلاوة والدعة
 فى الدير . معلمه مانولى يصوته الوقور الحنون يقص عليه قصص
 القديسين فى صومعته هناك فى تبييد ، ويحدثه عن حياة الرسل على

شاطئ بحيرة جيسارت ، وأخيرا المسيح الصليب .. اى بهجة كان يستشعرها آنذاك كان ملكوت السموات تنزل الى الأرض . ثم ذات صباح أقبل الشيخ بطريرك أنطاكية القريه ومعه بطانته يملأون غمام البير بملأا وسجاجيد حمراء وصيحات متلهله ..

رفع مانولى رأسه وقال :

- لست أدرى كيف أبدا يا أبانا . طافت حياتى كلها بمخاطري ..
عولك يا أبانا ، سئلى وأنا أحبيب . أمالوتى أنتم أيضا يا اخوتى .

وأجاب الأب فوتيس :

- لا تبحث عن بداية يا مانولى . ليس نمة بداية ولا نهاية ! تكلم .
قل كل ما يرد على خاطرك . المعنى عينك يا مانولى ، ماذا ترى ؟ أجب دون تفكير : ماذا ترى ؟

- « فى بيت القسيس جريجوريس . اجتمع الأعيان بكامل هيئتهم واتخذوا قرارا . حددوا لكل منا دوره فى اسبوع الآلام فى العام القادم ..
لتعطي السر الالهيب تحت سقف رواق الكنيسة .. يقتررب منى القسيس جريجوريس ، يضع راحته على رأسى ويباركنى ، يقول لى :
« اسطقك الرب يا مانولى لتحمل نعل الصليب .. » وقفاثر قلبى شعاعا »

فتح مانولى عينيه . كان جفناه يرفان وعادات افكاره الى وفاقه .

ثم عاود حديثه قائلا :

- حقا ما أقول ، ففي تلك اللحظة تنائر قلبى شعاعا مثلما تنائرت رجاجة العطر التى كانت تمسك بها مريم المجدلية العاهرة وكبرلها عند قدمى المسيح ..

« وعندما كنت صبيا كنت تنوئنى خيالات كثيرة ، إذ اعتسدت تراءة حياة القديسين وكانت نفسى مولعة بهم . تمنيت أن أكون قدسيا .. وعندما ذهبت الى الدير لم يكن يشغلنى هناك سوى شيء واحد : التنسك .. كنت نواغا الى أن أذهب بنفسى الى تبييبه ، زاهدا يا اخوتى نزون أننى منذ طفولتى وأنا أدين نفسى ، الشيطان يحاول أن يهزم النار فى قلبى وأنا أحترق بها . تجرات نفسى إذ رعبت فى أن تعثت المعجزات على يدي . أنا أيضا ! استغفرك يا ربى ! »

« وبعد أن عاشرت بيت القسيس جريجوريس أحسست برأسى يطن .. بدت لى القريه شيئا شبيها جدا ، لم تعد شيئا أقنع به ، وأننى لم أعد مانولى : الراعى الوضيع عند الشيخ بطريرك أنطاكية . المجال البالى ، بل غفوت أنسا ان استطاع الله ليحمل رسالة عظيمة : عليه أن يقتضى النار المسبح ، وأن يشبه به ! »

وقعقم قسطندى :

- يا للجرأة المروعة . أنت يا مانولى بأمر انصفت بالركة والتواضع ..

وقال القسيس :

- قسطندى . يابنى . إن قلب مانولى يفيض بمكنونه . دعاه يفرغ ما فيه ، ثم لك أن تحكم بعد ذلك .

وتتم مانولى :

- أسألكم الصصح يا اخوتى . تمكك غواذى ابليس ، شيطان العزور .. أنى خجل إذ أقول هذا ، ولكنى اعترف ، مولدا العزم على أن أقصص من كل شيء فى وضع النهار ، والله على ما أقول شهيد .
وقال القسيس :

- تكلم ، تكلم يا مانولى . لا تحجل . إن فؤاد السر برز مع بلا ماسى والضدادع والخنازير . افرغ قلبك حتى يتخفف معا فيه .
واستجمع مانولى شجاعته ثانية وقال :

وانتفخت اوداجى وتكررت كتركي . أحدث النفس فى روحانى وغدواى مزعوا : « اسطقك الله يا مانولى ، أنت من اسطقك الله ! حسنا ، وذات يوم - وانفضل لك يا ياناكوس واتى اشكرتك .. »
وامسك بيد صديقه وكاد يقبلها ، لولا أن سحبها منه ياناكوس قسرا :

- ماعدا يا مانولى ! تقبل يدى ! بدى أنا ؟

وقال مانولى :

- نعم يدك أنت يا ياناكوس . لائك أنت الذى فتحت عيني .. وتبييت أننى مرأى كدوب . وقلت لى : باركك الله . « كدوب كدوب ! فريد أن تشبه بالمسيح وانت تنهى للزواج .. بعد أن تكون على الصليب ستاتيك لينيو بالله الدافى لتغتسل به . وتحضر لكه ملابس نظيفة تغير بها ملابسك ثم تأوى الى فراشك معها بعد أن كنت على الصليب ! »

القي ياناكوس بنفسه بين لداي صديقه وهو يكي :

- اغفر لي يا ماتولي . انت لا تعرف اي شيطان كان يحرضني يومذاك . في يوم ما ساعترف انا ايضا ، وسترى كم كنت مغرورا ..
القييس يعرف .

اجلس القيس ياناكوس وعاد يقول من جديد :

دعوه يا اخوتي يفرغ كل ما في سميتهم صساء آل يتخفف . تكلم يا ماتولي . لا بد وانك تستشعر الآن بعض الراحة .

- « وأنا اتحدث يا ابانا ، اشعر ان الكلام يخفف عني .. ان الاعتراف سر ، سر عظيم ! الآن قد استعدت شجاعتي ، ساكشف عن كل شيء ، كل شيء ! »

وضع القيس راحته على كتف ماتولي كأنما يريد ان يهدئ يبعض القوة وقال له :

- انا نصغي اليك يا بني ، تكلم يا ولدي !

- ليت الي رشدي منذ تلك اللحظة التي فصح فيها ياناكوس حقيقة مشاعري عارية . ابصرت الهاوية ، ووقفت . حدثت نفسي : « الا تخجل يا ماتولي ؟ اتحسب الصليب لهوا ولعبا ؟ أنتوم انك قادر على ان تضادع الله والناس على هذا النحو ؟ تحب ليني . ونهوى مضاجعتها لم تريد ان تصديق انك المسيح ؟ عاز عليك ايها الدعي . تغير امرك ايها المرائي واختر ايها ! ووطدت العزم منذ تلك اللحظة » ان تزوج ! ان ايس امرأة ! ساظل طاهر الدليل ! »

مرة اخرى لم يشارك ياناكوس نفسه وصاح قائلا :

- قدسي انت يا ماتولي ، هذا ما كنت اعتقده ، وصرحت به يا ماتولي .

وقال ماتولي :

- انتظر انتظر . ستري ما يقف له شعر وامك . لم افرح بعد من سرور كل خطايي .. اتخذت قراري بالنسبة ليني ، وحدث نزاع بيني وبين سيدي . وقصدت الجبل اشد الخلو بعيدا عن الغواية . قلت لنفسي « هنالك فوق الجبل حيث الهواء نقيا ، سالتد نفسي للمسيح » . ثم في اللحظة التي نهيت فيها لانيخذ طريقي صاعدا وكنت قلب قوسين او ادى من الملاس .. آه ويا للمعجب .. هنالك عند بئر القديس بازل ، عند مشارف القرية كان الشيطان ينتظري .

وتنهذ ماتولي . بدأ وجهه ينز ثاقية ، ومسحه بمنديلته . ظل واجما لغترة طويلة ، وبداء ترتجفان كان بهما حمى .

وقال القيس :

- تشجع يا ماتولي فاني اتم كبير ، خطايي تنسوق خطاياك . ساعترف لكم يوما ما ، وسوف نشعر ايمانكم فرقا . انا . هذا القيس المائل امامكم ، لطخت يدي بدم انسان . تملكني الشيطان ذات يوم : كنت لا اذلت في ريعان شباني ، وحرارة الشباب تسري في دمي . كنت راعيا ، ونزلت الي القرية لاحتفل بعيد القيامة مع بعض اصدقائي . واخذت معي حلا لنشوية على السفود (كان الوقت ظهرا) . والاشجار مزهرة ، والأرض تتسوق عطرا . واتخذنا مجلسنا مع اهل القرية فوق العشب . اوقفنا التيران ، ونهانا لكي نشوي حلمان عيد القيامة على السفود . وبدانا كما هي العادة بوضع سفوطنا فوق الجمرات حتى ناكلها أولا الى حين يتم السفود . واكلنا الكبد والامعاء مرة مع كتوس النبيذ ، ومع الشراب اشتدت حميتنا . وبعد ان نضج الحبل طرخناه على ظهره فوق العشب ، امسكت بسكين كبير وشعدته . ثم عصمت لاشق البهيمة . وفي هذه اللحظة عينها وسوس الي الشيطان يان اصبح . انا افهقه عاليا : « آه . لو ان ثمة قيس هنا لقطعتم رقبتك ! » كان الشيطان كما اقول لكم ، هو الذي حرضني على ان اقول هذا ، وهو الذي تحدث لبساني . ذلك لاني قيس . وكنت اجل القيسين . اعتدت كلما ابصرت احدهم في الطريق ان اهرول نحوه واقبل يده . ولكنني قلت ذلك وبهذه الصورة على سبيل الدعابة ، فقد شربنا وانتشينا . واذا بفلاح يجلس الى جوارى مخمورا متلي ، سمعني وصاح بي شاكا : « ثمة قيس وراك . لقد كلمتك ان كنت رجلا ! » واستندرت ، وابصرت قيسا ، فاتفقت عليه وقطعت رقبتك .

دم القيس فونيس علامة الصليب . وظل الجميع صامتين في وجل . خاص كل منهم في اعماق نفسه ، يبصر ذاته ويرتجف .. كم من جرائم القتل ، وكم من الفضائح ، وكم من الاعمال المشينة تضطرم في اعماق نخوسنا ! انا نلتزم اقير خوفا . تقبل شهواتنا طوال حياتنا ذليلة مهتاجة محتدمة الاوار لسم دمننا . ولكننا تكبح جماح النفس ، نخدع جيراننا ونعوت كرماء فضلاء . لا نتعرف انما في وضع النمل طوال حياتنا . ندعي الفضيلة خدعا ولكننا لا نخرج الله فاش خير الماكزين .

وأخيراً قال ميشيل بصوت مخفوق تنكزه عليه :

— أنا ، أنا أكثركم شراً يا إيماناً ، إذا سقطت أين مريضاً استشرع بهجة شيطانية . بهب شيطان بداخل ويرقص طرباً . ذلك لأنني خفيق يا بني . أراهم عقبة في طريق ، وأنتى له الموت . ليست . هذا الرجل الذي أتى بي إلى العالم والذي أحبه ! لست أدري كيف يكون نفس التبرير . ولكن نفس الرجل الأنيب . الرجل الصالح هي الجحيم ! جحيم تسكنه الشياطين . أن كل من يغني الشياطين داخل ذاته . وبحول دونها والغفر إلى خارجها تنصرف أفعالا متكررة . أن تسرق أو تقتل ، كل هؤلاء نسميهم أناساً أبراراً . ومسيحيين مخلصين . ولكننا جميعاً في أعناق نفوسنا . استغفر الله ، مجرمون وقذلة ولصوص !

وأجهش ياناكوس بالبكاء . نظر هو الآخر إلى أعناق ذاته فلاناع من هول ما رأى . ومد القسيس يده وقال :

— يا أطفالى ! سيأتي دور كل منا لنعترف . . الآن دور ماتولى . لقد فتح لنا قلبه ، فاحلقوا قلوبكم . دعوه ينهي ما بدأ . . تكلم يا ماتولى . هل رأيت الآن ؟ هل فهمت ؟ كلنا أسوأ منك . أنا القسيس ، وميشيل الرجل البار المحسن ، وفخر قريبكم !

مسح ماتولى عينيه اللتين أغروهما بالدموع . واستجمع شجاعته ، وواصل حديثه :

— كان الشيطان جالساً يا اخوتي عند حافة البحر يتشمس لي . كاترينا الأميلة ، ماهرة فريتنا . زينت شفتيها بالخضاب . وفتحت بعض صدرتها ، وأغنت بصري حتى لمح حلمتي لتدبها . وتدافع اللحم إلى راسي ، وأصابني دوار . تحدثت إلى في سراجة . ولم تكن في نفسي رغبة إلا في شيء واحد فقط . أن أحم بها وألصق بنفسى فوقها . أولاً خوفي من الناس ، وخوفي من الله . . ففررت هارباً . . هربت من أمامها ولكنني أخذتها معي في فكري ودنى . ولم يفارق قلبها أحلامى ليل نهار . وتظاهرت بأننى أفكر في المسيح ، كذب وبهتان . أنها هي من كانت تستغل فكري .

وذاث مساء أحسست اننى لم أعد أطيق سبوا ، واشتعلت ، وتمشلت . وأخذت طريقى إلى القرية . . كنت فأصدا الأميلة . حدثت نفسى ثانياً : « اننى ذاهب إليها لألقاها روحياً . سأحدث إليها وأعديها إلى طريق الرب . . » كذب ! كذب ! كنت ذاهباً إليها مثلها على مضاجعتها . ثم

وتوقف ماتولى ثانية عن الحديث ، كان يلهث . التفتوا كلهم نحوه وتطلعوا إليه في حنان . نغفر ماتولى أمام عيونهم . إذ كان يسيل من لحم وجهه المتفتح سائل عكر يتجمع ويتجلط نظرة قطرة فوق شاربته ولحيته .

لمسك القسيس بيد ماتولى بين راحتيه . يرت عليها ، وقال لينهى كلامه :

— تم جاء الخلاص . . افهم الآن يا ماتولى . أدركت الآن الطريق الخفى الذى سلكه الرب لخلاصك . أنها لمجردة عظيمة يا اخوتي ! من ذا الذى يستطيع أن يرحم بالغبى ويظن بنفسه القدرة على معرفة السبل الخفية الغريبة التى يأتي منها الخلاص لأرواحنا . . .

ثم فجأة اكمل حديثك يا ماتولى . فقد نال منك التعجب . ثم فجأة أحسبت بوجهك ينتفخ ، يكسو لحم مقزز . ويصير جرحاً كريهاً . . ليس بشيطان يا ماتولى هذا الذى استقر على وجهك . ان الله هو الذى ألحق هذا القناع على وجهك لينجيك . أنه كان بك وموفاً رحيماً .

وتتمت قسطندى :

— أنا لا أفهم شيئاً . لا أفهم شيئاً .

وتتمت كل من الصديقين الآخرين :

— ولا أنا . . ولا أنا .

أما ماتولى فقد ظل وحده صامتاً يشهد .

ورب القسيس فوئس على يد ماتولى . كأنه يود لو استطاع أن يشركه الآله .

— كنت في طريقك إلى الهادية يا ماتولى ، كنت على شفا حوة ونوشك أن تتردى فيها فلبت الله هذا اللحم على وجهك ليوقفك . كنت في طريقك تنصرف انما ، تدخل مخدع الأميلة ، ولكنك الآن كيف لك أن تتطلع إليها بوجه كذا ؟ وكيف لها أن تتطلع هي إليك ؟ أحسست بالحجل فقلت عائداً من حيث آيت . وتحققت لك النجاة لحظة أن عدت أدراجك .

أخفى ماتولى وجهه في منديلته الكبير . ولاذ بالصمت . كان صدره يهتز من أثر النشيج . ونغمهم قالوا :

— الحمد لله .

ثم لا بالصمت ثانية .

نكس الأصمغاء الثلاثة رؤوسهم أيضا والهلع يقتلهم . اقتشعرت
أبدانهم ، إذ أحسوا أن الله يسد علينا السبل كليت بحاصرنا . تحس
أحيانا بأنفسه ، ونسمع زئيره ، وقرى ميثبه الثاقبتين تخترقان الظلام .
ويبدو أن القسيس نحن ما يدور بخاطرهم . فقال لهم :

— يا أطفال ، تمتعوا حين بداخلنا مفتوحة ليل نهار ترقبنا ، وتمعنا
الذين مفتوحة في سويداء قلوبنا نسمعنا : هي الله .

وصاح ميشيل :

— كيف يتركنا الله نعيش على ظهر الأرض ؟ لماذا لا يقضى علينا
ويطهر الخلق ؟

وأجاب القسيس :

— لأن الله يا ميشيل صانع خرفه ، يصنع مخلوقاته من طين .

ولكن ياناكوس أحس بصبره ينفلد .

— جميل جدا حديثك يا أبانا . ولكن معنا الآن رجل مريض . ألا
نستطيع أن نضع يدك عليه ونصلي من أجله ؟ ألا نستطيع نحن جميعا
أن نصلي معا وندعو الله الرحيم أن يشمل برحمته ؟

وأجاب القسيس قوتيس :

— مانولى ليس بحاجة إلى صلاة مثل ما هو ليس بحاجة إلى
تعاون أو تعاضد . إن صلوات الآخرين لن تجدى معه . فالخلاص يعمل
بداخله ليل نهار ، في بطء ودأب . ألم تروا يا اخوتي كيف تدخل الدودة
شراقتها المحكمة الغلق وتخفى بداخلها إذا حل فصل الشتاء ؟ يشوه
راسها وتصير ففة المظهر ، وتلبث في مكانها جامدة ، ويتم خلاصها ويولد
رويدا وسط الظلام وفي داخل أحشائها . إذ يخفى وراء كل عسلا
القيح وبر خفيف ، وعينان براقتان ، وجناحان . وفي صبيحة يوم من
أيام الربيع الجميلة تثقب الشرقة وتخرج منها فراشة . وهكذا يعمل
الخلاص بداخلنا وسط الظلام . تشجع يا مانولى ، سر على دربك ،
فوداه وجهك بكن الخلاص . تشجع وكن على ثقة !

ورقع مانولى عيتين ضارعتين تطلع بهما إلى القسيس وسأله :

— والى متى أنتظر يا أبانا ؟

— هل تتعجل يا مانولى ؟

وأجاب مانولى في خجل :

— لا ، لا ، وقتما يشاء الله .

وقال القسيس :

— إن الله لا يتعجل أبدا . إنه ساكن ، يرى المستقبل كأنه ماض .
إذ أنه يعمل في نطاق الأبدية . المخلوقات الزائلة التي لا تدرك ماذا
سيحدث لها هي وحدها التي تتعجل بدافع من الخوف والقلق . دع
الله يعمل في صمت ، ولكن مشيئة . لا ترفع رأسك ولا تسأل .
فكل سؤال خطية .

كانت الشمس في منتصف طريقها ، تسقط أشعتها عمودية قطرة
قطرة فوق الرؤوس الخمسة المتداية ، إذ اقتربوا من بعضهم البعض
في مودة سلمة .

وفجأة صباح ناي نيكولوي فوق المنحدر الآخر للجبل ، طربوا ،
دفاقا ، شجيا . وقال ميشيل وعلى شفثيه ابتسامة :

— نيكولوي . هو الآخر يقاسي ويحاول أن يخفف عن قلبه .

أرهبوا جميعا السمع وأنصتوا . كان لحن الرأى يتكلم ويضحك
ويرن وسط هذا الهجير . وإذا بفراشة مرقشة بلون يرتفلي ترف
بجناحيها لحظة حول الرؤوس الخمسة ثم تهبط فوق شعر القسيس
قوتيس . حققت بجناحيها ، ودست خرطومها بين الشمر الأثيب إذ
حسنته توتا شوگيا مزهرا . ثم طارت عنه وحلقت عاليا جدا واختفت
في ضوء الشمس .

وبعد لحظات ارتفع صوت مانولى :

— يا أبانا ، يا اخوتي . أسألكم الصلح ، وعسى الله أن يغفر لي ا
اني آس راحة الآن وكان ثقلا عظيما قد الزاح عن قلبي . ها أبدا
بفضلك يا أبانا أرى وأفهم وأرضي ! أخال أوجاعى الآن كأنها صليب
أحمله ، وأضعده به راضيا مستسلما . وأعرف أن الصلب بعده القيام .
ترى هل ستكون لدى القدرة على حمل صليبي ؟ أمبولي يا أصمغائي
حتى لا أسقط !

ونهبش الأب قوتيس وهو يقول :

— كلنا يد واحدة . كنت أتحدث هذا الصباح إلى مشرقي فوق
الجبل ، لأننا أيضا نصلب الجبل راضين مسلمين وعلى كتفنا صليبا

الثقليل ، تنعثر وتنسكو وتبلى .. تحدثت اليهم وصحت بهم قائلا :
« كلنا يد واحدة ، فبذلك يكون خلاصنا ! » .

وقتل ياناكوس :

- ولكن في هذه الحالة فان الالم والمرض والمطبعة

فقال القسيس :

- وهكذا نستطيع البديان داخل شرفتها ان نتحول الى فراشات .

وتذكر ما كان يتراءى الاسدقاء الاربعة فقال لهم :

- « طوبى للحزاني لانهم يتعززون » .

وقفز مانولى في نشوة غامرة : فالقسيس سيفسر له الكلمة السعيدة

- يا ابنا - ما معنى « يتعززون » .

- اولئك الذين سيجدون المسلوب . سيجهنون فداه لاسباب

معاناتهم .. اى طوبى لاسلك من يعساؤون لانهم سيمعمون برحمة الله

الواسعة . اما اولئك الذين لا يعرفون المعاناة فلن يتعمقوا بتلك البهجة

السماوية . انظروا اى خير قدسى فى المعاناة .. هل تعنى ذلك يامانولى ؟

ولكن مانولى اشدد به الاعياء فترك نفسه يسقط فسوق كتف

ميشيل . اغمص عينه واسترخى لم اغشى واستسلم فى وداعة للنوم .

رفعه رفاته فى حضان وآفنده على حصير لم يخرجوا فى هتو ..

وقال القسيس :

- تنزل العناية الالهية على مانولى فى صورة نوم . لنتركه وحده

يا ابناي فى رعاية الله .

واخذوا طريقهم الواحد وراء الآخر ونزلوا صامتين ، القسيس

يتقدمهم . حاصر الماسى . وشعره الاثيب يرفرف فوق كتفيه .

قبيل المساء فتح مانولى عينه فابصر رجلا جالسا بجورا قراشه

يرفقه فى الضوء الكايبى ، يحدق فيه بعينين ضاربتين مسجورتين منفرستين

فى حذر واستغراب . وكانت تلوح من فمه رائحة الحمر نقاذة قوية .

استسم له مانولى وقال :

- مرحبا بالاخ يانايوى .

لم يجب يانايوى . والعا سال براسه الضخم الاشقر فوق مانولى

يحدق فيه بعينيه ، ويمطأ شفته السفلى . فتكشف عن أسنان كبيرة
صفراء حادة .

وسالته مانولى وهو يرتجف : اذ حسبا نفسه فريسة حلم
كثيب .

- هل تريد حتى شيئا ؟

فتح يانايوى فمه بصعوبة . وخرجت كلماته مدفوعة متعثرة :

- انا هنا منذ ساعة متحنا فوقك اوقبك .

واعاد مانولى سؤاله :

- هل تمة ما تريد من يا اى ؟ لماذا تنظر الى هكذا ؟

وخار يانايوى فى غضب :

- لا أستطيع ان انظر اليك الا هكذا ... لا أستطيع .

ثم قال على الفور :

- سيكون مولى على يدك يامانولى ؟

جلس مانولى على حصيره وقال :

- انا انا ؟ ماذا فعلت لك ؟

- فعلت أسوأ ما يمكن ان يفعله بى انسان . عليك اللعنة . قتلت

فى نفسى كل بهجة عرفتها فى حياتى . انا الانسان النعس . لم أعد أطيق

احتمالا . اتيك بهدية . انتظرتك حتى تصحو من نومك ثم اقدمها لك

- خذها .

ودس يده فى قميصه واستل ممكينا كبيرا ، ووضعه على ركبتي

مانولى .

وغمغم قائلا :

- خذها . خذها عليك اللعنة واقتنى .. صبح خاتمة لعلتك التى

بدانها . انك ستعمل عالا طيبا . اقتنى !

وصاح مانولى

- يانايوى . اى . ماذا فعلت بك ؟ لماذا تتحدث الى هكذا ؟ انا

اقتلك ؟

وحاول ان يمسك بيده . ولكن يانايوى دفع فزاع مانولى بعيدا

فى هياح - وزار :

- لا تلمسني - ذبح كلماتك الرقيقة قالها تسير استمرازي
أقتلني - قلت لك ضع سائمة لفلنك التي بدائها - ماذا أفعل بحياتي
الآن أقتلني ! -

واجبش مانولي بالبكاء .

وتتم ثانية :

- يا مانولي . ماذا فعلت . ماذا فعلت لك يا أخي ؟ -

واجاب بالايوني :

- لي اناس يعملون لحسابي . يتبعون كاترينا حيثما يذهب . ثمة
امراة عجوز تسكن بجوارها استاجرنا . فتوازي وراء بابها ليل نهار
ترصدنا . وانت في ليلة قريبة تدخل بيتها مثلثا . مكثت معها ساعة
وبضع الساعة . ومنذ تلك الليلة ترفض كاترينا ان تفتح لي بابها .
وهي دائمة البكاء . هكذا قالت لي المرأة تنكبي من ؟ من اجل من
عرفت عن الطعام وبنات تدوي ؟ من اجل من نأبي ان تفتح بابها لي ؟ من
اجلك انت . انت . ايها الشيخ . يا من تعافك نفسي كل من ينظر اليك .
انت ! انياوني بحالتك التي صرت اليها . ومررت لساعتي الثيا .
حدثت نفسي قائلا : - الآن تخلصت من هذا الولد الذي يلعب امامنا دور
القديس . عندما تراه كاترينا ستستمر لرآه وتخلص منه . وهكذا
سأتخلص منك أنا ايضا . -

- ورغم هذا لم تخجل من ذهابك اليها وانت على هذه الحال .
ومكثت عندها ساعة ونصف . اي سحر هذا الذي سحرتها به . هه ؟
ها هي بدلا من ان تستمر منك اذا بها لا تستطيع ان تسلك . تلم
ونكبي مذابة باسمك انت ايها المجرم القذر ! لا جدوى من شرب
زواجي كل يوم . فلم يعد هذا يخفف عني شيئا . اظا ابنتي تحت قدمي
دون ان استشعر راحة . اقلقت ورشني . وادعنت الشراب . واصبحت
أهيم على وجهي في الطرقات والسيب في ذيل يقدفوني بكلمة تحزن في
لشني كانها سكين وانت تعرف هذه الكلمة تعرفها ! لمن الله
لك الساعة التي ناداني فيها هذا القسيس . ذو اللحية التي تشبه
لبه النيس . بذلك الكلمة هناك في حانوته القذر . تمتد ذلك اليوم وأنا
محطم النفس .

- اني محطم النفس . لم أعد اطيع احتمالا . وانيتك مع النساء

بهذا السكين . قم يامانولي ان كنت رجلا واقتلني ! اني اقبل يدك .
أقتلني في ذلك راحتي .

أحنى مانولي رأسه بين ركبتيه ولم يعد قادرا على ان يكتم نحيبه .
وسأل نفسه :

- ماذا أستطيع ان أفعل . كيف لي ان انقذ هذه الروح الضاربة
التي تكابد الحب ؟

وصاح بالايوني وقد جن جنونه :

- ذبح البكاء ايها الدمية . خذ السكين كما أقول لك ولا تخف .
لقد شجعتها جيدا وعاك عنني فاطمعه .

ومد رقبته الطويلة الى مانولي .

وسأله مانولي :

- لماذا لا تقتلني انت ؟

واجاب بالايوني في قنوط :

- اي خير لي في قتلك ؟ ستزداد نعاسي . سأخسر بذلك كاترينا
ال الابد . قتلك لي فيه وحده خلاص . وسأخفك معي الى الجحيم .

والخرط في لحجب .

يكبي كسيرا وهو يخور كبا يخور المعجل . وربته لا زالت
ممدودة .

واخذته مانولي بين ذراعيه وهو ييكبي مع بكائه وتحدث اليه قائلا :

- يا مانولي . اسالك الصبح يا أخي . اسالك الصبح . لن أرها
بعد اليوم . لن أقب ببابها ثانية لادخل بيتها . أنا الذي سامعت وتخلص
انت عني . أنا . أنا . أنا . أقسم لك . أنا الذي سامعت . لا تروى حال
التي صرت اليها ! لقد تهرأستدي . أنا الذي سامعت يا أخي . لا بك .

ولكن بالايوني استمر في حوار . والزرع رقبته في عنق من بين
ذراعي مانولي . وهب واقفا . وخطا خطوات ناحية الباب وهو يترنم .
حاول ان يجتاز العتبة بيد انه تثر وسقط على الأرض سطيحا .

واندفع مانولي نحوه لينبشله . ولكنه صهف واعتدل واقفا . وسار
يترنم مخمورا للغابة حتى بلغ الباب وهو يخور .

وفي هذه اللحظة ظهر نيكولاي مع قطيعه • اندفع بانايوتي نحو
الأنعام وأخذ يتعقبها ويلفها بالحجارة وهي تجري أمامه متعورة •

وصاح نيكولاي في غضب •

- إيه • إيه • دع أغنامي في سلام •

ولكن بانايوتي أخذ يتقطط بالحجارة من على الأرض • يثقف بها
الأنعام وهو يسب ويلعن •

واستصرخ الراعي الصغير كلابه •

- عليه ••• عضوه • عضوه •

وأخذت الكلاب تعمد وراه • ولسانها ينتل من بين فكها •

الدغمت الكلاب نحو بانايوتي الذي استند ظهره إلى صخرة لينفط
بعض الحجارة الكبيرة ويقلنها بها • أهدت الكلاب بانايوتي رضى
تنبح • ويذا هو الآخر يتنبع • واندفع نحوها • ولكن حالته قدماه وخر
إلى الأرض • تعامل على نفسه ليقت • بيد أنه سقط ثانية • انقضت
عليه الكلاب المتعجة • تشب كلب أنيابا في ساقه ولم يتركه يفلت من
بينها • ووثب آخر فوق رقبتة وعض ذقنه • واضطربت لحية بانايوتي
بلون الدم الأحمر •

وصاح نيكولاي في ثورة •

- عليه ••• عليه •••

سمع مانولى الصياح والنباح • فقف مسرعا إلى بانايوتي لتجده •
كان الراعي الصغير يتطلع إلى المشهد ضاحكا •

وصاح مانولى •

- دعها يا سيدى • دعها تأكله •

نادى مانولى الكلاب وأمسك بعضها وطردوا بعيدا ثم استدار إلى
بانايوتي ليأخذ بيده • ولكنه كان قد لاذ بالفرار ينزل المنحدر وهو
يصرخ •

اعتلى نيكولاي الصخرة المرتفعة • ووضع راحتيه حول فمه وصاح
بأعلى صوته •

- يهوذا ••• يهوذا •••

وزدد الجبل صدئ صيحته •

وصاح مانولى •

- أمسكت • ألا تشعير بالأسى له •

وعاود نيكولاي صياحه وهو يثقف حجرا دلال ما أوتي من قوة •

- يهوذا •

كان الليل يزحف • دهم سفح الجبل • وأخذ يتقدم صاعدا إلى
قمته • وبدأت الظلمة تلف الكون • وربضت الكلاب عند قدمي نيكولاي
تلحق جراحها • ووقفت الكباش الكبيرة داسوس باليته الشحيمة عند
مدخل المرعى • أخذ يصل يجرمه بطريقة أبوية • وينتظر القطيع حتى
يتجمع ثانية خلفه ليبدأ رحلة العودة إلى الحظيرة •

عاد مانولى إلى الكوخ • وأغشى السكين المستونة تحت وسادته •
ثم علق أيقونة الصلب على الجدار فوق حشيته •

وتمتم قائلا •

- يا الهى • ضح يدك عن قلبه وامحه الشقاء • هو أيضا يعانى •
وأنت صاحب القوة المكنى • ارفع عنه العذاب وعبه من لديك العزاء •

خلق حياة الترف والحس الخفة وزوجات الآخرين . أنت عار أسرنا يا ميشيل .

يراه يخرج بين حين وآخر لزيارة ماريوري خطيبته ، ولكنه يعود كل مرة أكثر حزنا ووجعا . ويهز الشيخ رأسه في الزدراء . ويحدث نفسه : « اعتاد أبي أن ينطلي صهوة جواده ويطوف بالقرى حيث يلقي عشيقاته . يعلق دابته في حلقة بالياب ، وإذا أبصر الزوج عطية أبي فانه يغير اتجاهه وينتظر حتى ينصرف أبي ثم يعود الزوج الى بيته . وأنا أيضا كانت لي عشيقاتي ، اعتدت أن أذهب اليهن في هدأة الليل كلس واستمتع بحظي من الجون . أما هذا الولد فله خطيبة أحسب انه لم يلمس منها . استغفر الله ، أكثر من اطراف اناملها . كيف لها هذه المخلوقة النضة أن تحتل الذبول . وصديها المريض ؟ المرأة وبخانة جميلة : اذا لم تنعدها بالرى ، ذبلت . » يقينا ستتنتهي سلالة بطرياركاس الى مال سى . لقد محبت معالها ، انها على وشك أن تزول !

والمجوز لاداس لا يرى ياناكوس حتى يستوقفه ويقول له :

« هات ياناكوس الجنيهات الثلاثة ، هاتها بفوايدها . والا فمن الخير لك أن تعرف أيها الصعلوك أني سأجبرك على بيع حمارك . أنا أيضا فقير منكس ، فلا تحاول أن تخرب بيتي . »

وساعت الأحوال في بيت القسيس جريجوريس . مضت شهور على القرية بغير زواج أو تعميد ، ولم يستجب واحد من أهل القرية لداعي الموت . وحفار القبور لا يبرح واقفا عند مشارف الجبانة يضع راحته فوق عينيه ينطلق الى القرية ، فلا يبصر أحدا ، ويرحف السمع : وأجراس الحداد خرصاء .

وهيم قائلا :

« آل يقر الشيطان في النزاع روح واحد أو اثنين . سيفشل الجوع أطفال . »

ولزمت الأمثلة بيتها ، وأغلقت بابها عليها ، فلم تعد تفتح لأحد . ويانايوتي يطوف بيبتها مضمورا ، يلقي بتعديدهاته عن يمين وعن شمال . وتملك الفتية شهوة حارقة ، وما عاد أمامهم منفذ ينفسون به عن غفوتهم فبدأوا يشكمون حول بيوت المحصلات من النساء .

وضج بالشكوى كل من لهم زوجات حسناوات

جريمة قتل في القرية

انقضت أيام مئة أحد الاعتراف - كما آمنوه فيما بعد - وهو اليوم الذي فتح فيه مانولى قلبه ، وتخلف مما يفعله .

كانت الشمس في عليائها والأرض من تحتها تملآن معا في توافق وداب طوال هذه الفترة على انضاج الحب . بيت السنايل المثلثة ليئا . وصيغ الحشعاش المقول بكونه الأحمر - وجمعت الطيور المقردة شعرا وقشا وطنيا لتبني أوكلارها . رفدت الأتني فوق البيض بأسطة عليه جناحيها ، وجثم الذكر أمامها فوق عصف شجرة يقن لها مشجعا . وبين حين وآخر يتساقط الرذاذ ، عزيزا بعد طول انتظار ، فينبش الأرض ببعض الرطوبة . ولكن سرعان ما تعود الشمس الى الظهور ، تطارد السحب لتواصل عملها القديم قدم العالم في خدمة الناس الطير .

آكل الشيخ بطرياركاس وشرب ، وتشاجر أيضا : حيثما مع لنيو التي استبدت بها رغبة مجنونة في الزواج ، فاهملت أعمال البيت ، لتلظى كل وقتها فوق الجبل ، وحينما آخر مع ابنه الذي أقبل على القراءة كانه شيخ من فضلاء المجتمع أو راهب فاضل .

كان يزرجه قائلا :

« القراءة جعلت لعامة الناس والمدرسين . أما ابن كبير الأعيان فقد

- الملعنة على الأرملة ! تلعب الآن دور المرأة المحصنة ، وليس ثمة من يدفع الناس الآن عن بيوتنا . لم تعد نسمع سوى أغانى التشبيب تحت نوافذنا بالليل وأطراف النهار . ان شرف القرية فى خطر !

وكل يوم يلتقى أهل القرية ساعة الأصيل فى مقهى تسطندى . بعد أن يكون التعب قد نال منهم كل نال فى نضالهم مع الأرض . ومن أجل رفع الماء لرى الحماق وإسباتي الحضر خوفا من الجفاف . كانوا يدخلون النارجيلة ، ويتبادلون بضع كلمات قليلة فى أعياى شديد . ثم مرعسان ما يحيم عليهم صمت ثقيل . ولم يشأ الحظ أن يوائى القرية ولو يمجنون يلهو أهلها بمشاكلهم ، ويضحكهم . بل ولا حتى يغراب أو شحور يصر كما يصر الانسان ويعينهم على الجزاء وقتهم . لا شيء غير التلاقي كل مساء فى المقهى ، واليوم كالأمس .

كان بابا يرنى أحيانا يمر بهم مخمورا تماما . بيد أنه لم يكن مصفر واحة لهم . وذلك لانه شرس الطباع . اذا ما أثقلت عليه يلتقط الحجارة ويغذق بها فى وجهك . ألم يحدث بالأمس فقط أن حطم نقاشاة ناظر المدرسة التى تصادف وجوده فى المقهى . وتلقى منه حجرا أصابه بين حاجبيه .

وكان الأغا بين الحين والحين اذا ما أصابه اكتئاب وآثم به حتى غامض يدعو أهل القرية الى الرقص تحت شجرة السنار . ولكن كيف لهم أن يرقصوا يتلوب فارغة مكرهة ؟ ومن ثم كان رقصهم يفقد البهجة . فسرعان ما يملأ أهل القرية . وينصرفون عنه ليدخلوا النارجيلة ويملأوا المقهى بهمسات كثيفة . واذا مكر أحدهم أو كسرت ساقه أو وجد لصا فى سنانة . يعلو الضجيج حول هذا الحدث ، ولكن للحظة قصيرة . ثم سرعان ما يخفت الضجيج . وترتد القرية الى صمتها الثقيل .

لكن وباللهول . فذات صباح جميل . طلع على الناس خبر مروع . سرعان ما تناقلته الأسن وطرق الأبواب يملأ الهلع . وجد يوسفافى مقتولا فى مخدعه عند الفجر .

وعندما أسفر الصبح . اسلست من بيت الأغا مايزنا . جازيته الميجوز . خرجت وجسها يرتعد فرقا . فاسدنة صديقة حياتها الحاة مالداليتيا .

وما ان أغلقت الباب وراها حتى صاحت قائلة :

- هلكت القرية .- هلكت القرية يا عزيزتى مالداليتيا ؟ وجسد يوسفافى مقتولا .

- من ذا الذى جرؤ على قتله ؟ انك انتيبتى . بخير كانه الصاعقة ستحرقنا جميعا . من فعل ذلك يا عزيزتى ؟

- لم يكن فى البيت أحد مساء أمس : لا أحد سوى الأغا ويوسفافى وحسبى وأنا . لا أحد سوانا ؟ يسرعى كي لتدري المسيحيين ليأخذ كل منهم حفره . ويهرب كل من يستطيع منهم الهرب ليحو نفسه . فى نفس شكوك .- اشك ولكتنى لست على يقين . لماذا لا داعى للكلام .

وما ان فرغت من كلماتها هذه حتى اسلست عائدة مقوسة الظهر . تسير بحفاضة الجدران الى أن دخلت بيت الأغا وأغلقت الباب بالرتاج .

أمسكت الميجوز مالداليتيا يديها الأسود وخلفت الى أهل القرية . تنتقل من باب الى باب تيلد الفرع مزوجا ببهجة خفية مستترة . مكر الرجال أعمالهم وتجمعوا فى المقهى ليرى ما قد يحدث . كانوا يخلسون النظرات الى شرفة الأغا . الأيوات والنوافذ كلها موصدة . وبين الحين والحين تتناهى الى سمعهم أصوات صرخات حادة غائبة أو معلقة مسدس أو قذعة شيء يتحطم تحت الأقدام . ثم يعود الصمت نالبة .

ولتقى الأعيان وشيوخ القرية فى بيت القسيس جريجوريس والهلح يتكلمهم . وقلب الشيخ بطرياركاس يكاد يتصدع من الروع .

طلق يقول وقد زادت تهتته :

- اذا لم نعتز على القاتل فانا هالكون . سيلقى الأغا بنا جميعا فى السجن . واذا كان مخمورا فربما يرسلنا الى المشقة .

وتنهذ الميجوز لاداس :

- سيلزم كلا منا بدفع دية القتل .

وقال ناظر المدرسة :

- سيفلق المدرسة والكتيسة ويضطهد سلاله الاغريق .

وكان القسيس جريجوريس يلوح الفناء ستة ولعابا . ويحرك حبات مسيحته فى عصية . أحس وكان القرية كلها معلقة بقرنته . ظل يحدث نفسه قائلا :

- انا مسئول عن هذه القرية . اتمنتى الله على ارواح أهلها . أمرنى

سبحانه قائلا : « خذ حملاني واربعها » اذن لا تناس من البحث عن القاتل ومعرفته .

طاق بكل أهل القرية يسألهم الواحد بعد الآخر لعله يهتدي إلى قاتل هذا الغلام التركي اللعين . ولكن دون جدوى . وتفكر وتدير ولكن عينا . الشيء المؤكد أن القاتل مسيحي . فليس ثمة بالقرية سوى ثلاثة من الأتراك - الألغا وحارسه ويوسفواكي . ومن عداهم فهم مسيحيون : « الويل لنا لو كان القاتل مسيحياً » مستظرم النار في القرية كلها وتعمها المذابح .

ووصل قسطندي مقطوع الأنفاس :

- الألغا يجول بناظره بين البيوت . يلوح بفسدته ويطلق النار على كل ما يتصوره عينه . ويحطم كل ما تصل إليه يده في بيته - المقاعد ودمجانات العرق والجرار - ثم يلقي بنفسه فوق جثة يوسفواكي ويتخبط في نواح وعويل . هذا ما أتيتني به مارثا المعجوز .

والفتح الباب مرة ثانية ودخل ياناكوس .

- خرج حسين إلى الشرفة ونفخ في النفر .

وظهر ثالث :

- أرسل الألغا منادياً يجوس خلال القرية . إنه الآن بالبيدات ليعلم شيئاً ما .

- ماذا يقول ؟

- لم أع شيئاً عما قال يا أبانا . التفتت أذن بعض أسماء ولكنني لا أذكرها .

وزجر الشيخ بطرياركاس وقد انتفضت عروق رقننه حتى تكسأد تنفوق :

- اذهب إلى الجحيم .

وقال القسيس جريجوريس أمراً :

- ليذهب أحدهم ويأتينا بالأخبار . اذهب أنت يا ياناكوس .

في هذه اللحظة تراسي إلى سمعهم صوت المنادى يقترب . وهوول الجميع إلى الباب وفتحوه . توقف المنادى عند مفترق الطرق . ولتلتحم

ليجلو صوته . وضرب الأرض بعصاه . ثم انقلب بمنفله . وارتفع صوته متوجهاً كزمار رتيب . وفتح الجيران قوجة من أبواب بيوتهم خلسة :

- اسمعوا يا أهل القرية . اسمعوا يارعايا . افتحوا آذانكم واسمعوا جيداً . أمر من الألغا : القسيس جريجوريس والأعيان . بطرياركاس . ولاداس . وحاجي نيكولا ناظر المدرسة ومعهم يانايوتي السروجي وشهرته آكل الجبس ويعرف أيضاً باسم يهودا . عليهم جميعاً أن يمشوا فوراً أمام الألغا في بيته . يجب على بقية الرعايا أن يلزموا جميعاً بيوتهم . يحظر التوجه إلى الحفل . كل منكم يلزم بيته وينتظر . اسمعوا يا رعايا . اسمعوا يا أهل القرية . ألا قد بلغت فاحفظوا !

أوشك الشيخ بطرياركاس أن يخر إلى الأرض منهزماً ولكن أسلته قسطندي . وأجلسه على الأريكة الحجرية . وغشت إليه ماريوري تهوى له . وارتس لاداس على المائط أصغر الوجه مثل الليسونة . فافرا فاه - أشفق عليه ياناكوس فدنا منه وقال له :

- تشجع يا سيدي يا عضو مجلس الأعيان . هل من وصية توصيني بها ألفلهذا لك ؟

نظر إليه المعجوز نظرة بلهه . وسأله والملمب يسيل من فمه :

- هل هو أنت يا ياناكوس ؟ من أنت ؟

- طبعاً هو أنا . أنا ياناكوس البائع المتجول . كنت أسالك إن كان ثمة ما توصيني به لأحصله من جلك .

ودبت الحياة في عيني لاداس المعجوز ثانية وقال :

- أيها التعس . هات الجنيهات الثلاثة وألا فالويل لك عني !

دخل القسيس في هذه الأنباء . واضعاً حول رقبته صليبه القضي الذي نقتس على أحد وجهيه صورة الصليب . وعلى الوجه الآخر صورة القيام . وكان ممسكاً بعصاه الطويلة ذات القفص المصنوع من الصدف . ووقف أمام أيقونة المسيح . ورسم علامة الصليب . وتتم قائلا :

- يسوع ربي . هذه لحظة عصية . أعني وأعن المسيحيين . أبسط يدك المقتسة فوق القرية . أشدد من أزرى وقني شر الهوان .

وخر راكمها أمام الأيقونة . وأخذ يحرق بعينيه في وجه المسيح الهادي الخالم .

وعاه يقول :

- أعوذ بك يا يسوع من شر الهوان .

ثم رسم علامة الصليب ثانية ، وخرج إلى الغناء .
وقال بصوت يتصنع الوفاق والهدوء :

- هيا يا اخوتي . تقدمنا يا شيخ بطرياركاس . لا ننسى أنك عمدة
القرية ورئيس أعيانها . سيد القوم ليس من يأكل ويشرب أكثر من غيره
والأما من يتصدد قومه في ساعة الخطر ليؤدو عنهم . وعنده حتى اللحظة
التي تثبت فيها أنك سيد القوم حقا . تقدم وأنت يا شيخ لاداس لا لتجلب
العار إلى القرية ، كن شجاعا لاتصاكي أمام الأغا ، فمناستك كرجل شجاع .
نحن أبرياء ، ولكن إذا اقتضى الواجب أن نموت فداء القرية إذن ما أطلب
الموت . أنا أيضا أحب منافع الحياة الدنيا ولكنني أوثق عليه حياة السموات .
نحن على العتبة الآن . الأرض من ورائنا ، والسماء أمامنا . ولكن مشيئة
العمل القدير . أما أنت يا حاجي نيكولا فليس عندي ما أقوله لك . أخيت
حياتك تقص على الأطفال قصص أبطال الاغريق وشهداء المسيحية . وحانت
اللمحة التي ينبغي أن تذكر فيها كل ذلك وتنبه عملا . لا تدع تلاميذك
ينظرون اليك فيروك منتفع الوجه . ترتجف فرقا . واجه الموت كبطل
وشهيد ! هل نحن مستعدون يا اخوتي ؟

قال الشيخ بطرياركاس وهو يتحامل على نفسه كيهنيس :

- مستعدون . لا تجزع يا أبانا . الجسد في خوفه أما الروح ..
لا . لن أجلب العار لاسي .

واستعرض القسيس جريجوريس رفاقه : « الأب لاداس حزامه
مفكوك . وسرواله يوشك أن ينزل . تعال يا ياناكوس ، اربط حزامه وشده
إلى خصره بقوة حتى لا يجعلنا سخرية أمام الناس » .

اقترب ياناكوس ، وشده الحزام بقوة حول خصر الشيخ لاداس الذي
وقف واقفا يديه إلى أعلى كطفل أسلم نفسه لن يلبسه علابسه .

ثم عاد القسيس وأصدر أموره ثانية :

- امسح له غمه أيضا يا ياناكوس لأنه يريل . إلى اللقاء يا صغيتري
ماريوري متمنيا لك الصحة .

وقال حاجي نيكولا :

- نحن رجوس القرية وإن العالم كله لينظر إلينا . هيا بنا باسم
المسيح والاسكندر الأكبر !

ورسم كل منهم علامة الصليب قبل أن يجاز العتبة . القسيس في
المقدمة وخلفه الأعيان الثلاثة ، وفي المؤخرة ياناكوس وقسطندي .

وقال ياناكوس للقسطندي :

- لماذا بعت الأغا في طلب يانايوتي المسكين هو الآخر ؟ ما شأنه هو
بالأعيان .

- قيل إن هناك من رأه في منتصف ليلة أمس وهو يطوف ببيت الأغا
مخمورا ويصرخ متوجعا .

- ولكن ما علاقته هو بيوسوفاكي ؟ انه يلاحق الإرملة .

- أي لي أن أعرف ياناياكوس ؟ لقد فقد الأغا صوابه وهو لا يدري
ماذا يفعل . أبلغتني جاريتي عارلا أنه يهدد بأنه سيخرج إلى القرية على
ظهر حواده ويطلع رأس كل من يلقاه من الكفار . اللهم احفظنا .

كانت الأبواب تفتح خلسة ليشهد الناس أعيان القرية يتقدمون ببطء
في طريقهم إلى بيت الأغا . وكان الجميع يرسمون علامة الصليب كانوا
يسم بهم موكب جنازي .

وقال رجل عجوز :

- اني اغفر هؤلاء الأعيان كل ما أكلوه أو افترقوه في حياتهم . ما هم
الآن يدفعون ثمن كل هذا دفعة واحدة . لهم يردون ديونهم .

كانوا يسجلون في تودة وتأن كأنما يودعون . وكان القسيس
جريجوريس يتلفت حينا إلى باب فتح خلسة . وحينا يرفع رأسه إلى نافذة
ويقول :

- لا تخشوا شيئا أيها المسيحيون . الله أكبر .

وتعلق الأب لاداس النص بفراخ الشيخ بطرياركاس ، وكان يقول
له وقد أشرق بالسمع :

- يا عيني الرجيم . كن بجاني حتى تكون سندا لي .

ورثي حاله العمدة الشيخ . فقال له :

- أخالف أنت ؟

وأجاب الأب لاداس بصوت واهن :

- نعم أنا خائف .

وقال العمدة :

- وأنا خائف مثلك ولكنني أنظركم بكنس ذلك . فهذا ما يقتضيه
واجبي .

وعز الشيخ الخليل وأمه دون أن ينسب بنبذ شقة .
ها هم الآن يمشون بببيت الأرملة ، فتحت كاترينا الباب واستشعرت
رغبة في أن تصرخ قائلة :

- تشجعوا يا سادتي ، تشجعوا ، ولكننا لم نجسر على ذلك .
لم يمرحوا أحد من الاعيان الثلاثة . بل على العكس حثوا الخطي كأنهم
يجتازون دربا دسسا ، ووضعوا راحتهم على أنوفهم .
لم يتوقف غير ياناكوس وقسطندي .

وقال قسطندي :
- صباح الخير يا كاترينا ، ألم تسمعي المسادي ؟ ادخلي ، وأغلقي
عليك بابك .

وسالها ياناكوس بصوت خافت :
- هل رأيت يانابوتي ؟ استعداه الاغا أيضا .
واجابت الأرملة :

- لم أراه منذ زمن طويل يا جاري . ولكن لا بد وأنه يستكع قريبا من
هنا . فقد سمعته يصرخ منذ حينه . كان في جدال مع حسين الذي حاول
أن يقبض عليه .

وعاد قسطندي كلامه لها :
- ادخلي وأغلقي عليك بابك .
وواصلوا سيرتهم . وعندما اشرفوا على الميدان ظهر ميشيل يمدو
نحوهم ، واقترب من أبيه .

وقال الشيخ :
- ميشيل ، وداعا يا عزيزي .
وقال الابن وهو ينحني على يد أبيه بقليلها :
- تشجع يا أبت .

واستدار القسيس جريجوريس وقال :
- عد يا ميشيل الى البيت ، وأنما أيضا ، ياناناكوس وياقسطندي ،
فانما سيدخل عرين الأسد ، ولكن الله سيدخل معنا . لا تخافوا .

كان باب بيت الاغا مفتوحا على مصراعيه . وقال القسيس :
- باسم المسيح !

ثم خطا بقدمه اليمنى ليجتاز العتبة . وبعده الآخرون . وزلت قدم
لا داس المعجوز لكن العمة الشيخ أمسكت به .

كان القناد الواسع مهجورا بقطيع البغال والعشب . وبغلة الاغا
تظل يرأسها من باب الحظيرة وهي تفعل . وكلب طويل الشعر يتمرغ في
الروث مد اليهم رقبته وبيع لياحسا عنيفا لكن دون أن يجشم نفسه عنه
الذهبي من مكانه .

وظهر حسين الحارس الخاص عند مدخل البيت ، متلعج الوجه . أحول
العين ، كانت ذقنه ترتجف ، وظهرت بشازبه غيوط بيضاء ، إذ أنه لم
يجد في ذلك اليوم فسحة من الوقت ليصيفه بالصيغة السوداء . كان
مرتديا زيه الرسمي كاملا كأنما اليوم يوم عيد . وتدل سيفه الكبير من
حزامه الأحمر العريض .

وتجهم لراحم وعوى :
- اخفوا احذيتكم يا كفرة . الاغا ينتظركم .
وأقبلت حارثا المعجوز المدهاء وأعانت الاعيان على خلق احذيتهم ثم
صفتها أمام الباب .

وهمست لهم قائلة :
- تشجعوا يا سادة ، تشجعوا .

وتساندوا على بعضهم . وارتقوا سلما خشبيا ضيقا حتى بلغوا القاعة
الكبيرة . كانت النوافذ كلها مغلقة بإحكام . فلم تستطع عيونهم أن تسيّر
شيئا في بادئ الامر . ولكنهم استشعروا جميعا خوفا كأنما ثمة وحش
كاسر يتبع في ركن من الأركان يحدق فيهم بعينيه وينتفح للثوب عليهم .
وتشبت الشيخ لاداس وهو يرتجف بذراع الشيخ بطرياراكاس .
وخطا القسيس جريجوريس خطوة الى الامام ثم انبعها باخرى . وعيناه
تبحثان في الظلام عن المكان الذي يتربص فيه الاغا . كانت القاعة عبقة
برائحة العرق والشيخ ، وتوق فيها رائحة جسد بشري عفن .

وفجأة دملع صوت مروع كأنه الرئذ انبثت من ركن قصي على اليمين :
- يا كفرة !
والتفتوا جميعا ناحية الصوت ، وتبينوا مكان الاغا . كان جالسا فوق

حشية كبيرة . مسندا ظهره الى الحائط . ومسددة القضي الكبير معلق بحزامه
وامامه زباجة كبيرة من العري .

واجاب القسيس في هدوء :

- طوع امرك يا ألغا .

وزار الصوت ثانية :

- يا كفرة ! تعال يا حبيب !

كان الحارس واقفا بالباب ينتظر أوامر الألغا . خف اليه . ووقف امامه
يتلقى أوامره .

- هات سيفك وانظر !

وبدا القسيس يتكلم ثانية :

- سيدي الألغا ...

ولكن الألغا لم يعمله حتى يتم حديثه .

- يا كفرة . اهدكم غرس سكينه في قلبي . حبيبي يوسفواكي .

ولكن صوته احتبس . حنقه استسبح . وجف دموعه بحركة مهتاجة .
وعلا كأس العري وإفرله في جوفه دفعة واحدة . وتنهده . ثم قفف الكأس
فارتطم بالحائط وتهدمت وتناثرت شظاياها .

وصرخ :

- من الذي فعله . هه ! لا يوجد في القرية سوى الكفرة . ومن ثم
فان قاتله كافر من بينكم . هل عو انت يا بانابوتي . أيها البهيمة السكير !

وانبعثت من خلفهم في الركن المقابل صوت كانه الشوار . فاستداروا
واستطاعت عيونهم أن تميز وسط الغيش بانابوتي الضخم ملقى على
الارض متوقفا الى حفلة متينة في الحائط . لا بد ان رأسه قد شخ لان ناظر
المدرسة الذي كان يقف في المؤخرة أبصر الدم يقطر من جبهته وزرقته .

وعاد الألغا يخاطب الأعيان بصوت مثل النباح :

- سألني بكم جميعا في السجن . سألتمكم فوق شجرة السنار
الواحد بعد الآخر كل صباح حتى أعتدى الى القاتل . سأبدا بكم . فالأعيان
أولا ثم أبعكم باخرين وآخرين وهكذا . ثم يأتي دور النساء . سألتموهن
جميعهن حتى أفضي القرية عن آخرها . هذا اذا لم تدلوني على القاتل .
هل تسمعن يا صاحب الحجة الشبيهة بلحية التيس ؟ هل تسمعنوني

يا رعايا ماذا حتى حبيبي يوسفواكي حتى تقتلوه . هه . هل من أحدكم
بادي ؟ هل قال كلمة سيئة في حق أحده ؟ كان بعض وقته جالسا في
الشرقة ينضخ الليان ويقني . هل فعل بكم شيئا يا كفرة ؟ لماذا تقتلونه ؟

وعاود القسيس جرجوريس حديثه .

- أقسم لك يا ألغا بالعلي التقدير .

- اخرس . سأنتف شعرتك شعرة شعرة . انت لن أشتكك .
سأضغك على حازوق أيها الحرير الجبان ! ماذا فعل بك حبيبي يوسفواكي ؟
ثم : انحرف في البكاء .

وحجل الشيخ بطرياركاس من أن يترك القسيس يواجه العاصفة وحده
فعال :

- يا ألغا . تعرف يا ألغا أنني كنت دائما ثابت الولا . لك .

وصرخ الألغا في غويل :

- اتفلق فمك يا خنزير . اترك لك الحبل على الغارب أيها الكرش
الضخم . سأقطعك أربا أربا بسكين حدي . سأنسل بتقطيعك أسبوعا
كاملا حتى أضع منك بدي . أنا واثق تماما أيها الكافر القدر أنت أنت
قاتله . ولكن يغيبني أن أراك حيا وحبيبي يوسفواكي ممددا في الحجرة
الجواردة مقتولا سأقوم لأضرم النار في القرية كلها . لن أترك منها
شيئا واحدا . سأحرقكم معها يا سفلة .

ووقف الألغا مقيظا حائفا :

- من ذاك الذي يقف في المؤخرة يا بطرياركاس ؟ هذه بيرني
بفسه .

ارتعدت فرائض الال لاداس حتى كاد يفتي عليه . وتنهده بالكلام :

- انه ذاك يا ألغا .

وعوى الألغا :

- آه . . . آه . . . سأقيم جنازا ملوكيا لحبيبي يوسفواكي . سأبعث
في طلب مفرقين من اسطيول ليرتلوا له الغزل . وسأشتري له شموعا
من سميرونا . ونابونا مصنوعة من خشب البرو ليكون عطر الرائحة . . .
وأنا بحاجة الى مال وفيه لأوفي به كل هذه الطلبات . . . سأفتح خزائني

يا متحم الذهب العتيق ، واقرب كل ما فيها من الذهب .. هل تعرف لمن
كنت تكس الذهب طوال كل هذه السنين ، هه ؟ حبيبي يوسفواكي !

انهار المجوز لاداس وخر الى الأرض - واجهش بالكاء -

- الرحمة يا ألما - اقتلنى أولا قبل أن أشهد هذا الهلاك المروع -

ولكن الألما كان يتحدث الى حاجي نيكولا :

- وأنت يا ناطر المدرسة ، تجمع صبية الروم لتفتح أعينهم .. أنت
ساقط لسانك وألقى به الى كلبى .. لماذا تبكون على قيد الحياة .. لماذا ؟ هل
تعيشون وحبيبي يوسفواكي ميت ؟ لا ، قلبى لا يحتمل ذلك - إن هذا
يقتلنى كندا ! .. حسن ، مات السوط -

واسرع الحارس وأزول السوط من على متجبه وناول له الألما -

- افتح الشباك حتى أرى وجوههم !

ورفع الألما السوط فى هياج - ومع ضوء النهار الذى اتسسل من
النافذة ظهر وجه الألما مجمعا ، عاتيا فى السن ، كالخا - ساعات قليلة من
الحزن غيرته تماما - وابيض شاربه وتهدل حتى أخفى شفثيه - وأخذ يقسم
أطراف شاربه بين أسنانه ويعوى -

وانهال بسوطه على الرعايا الأربعة يطلدعم ، حيناً على الوجه ، وحيناً
على اليدين ، وحيناً على الصدر - وسرعان ما ارتسى الشيخ لاداس فوق
الأرض يتدحرج - ووطئه الألما تقدميه - ثم وقف فوقه حيناً يركى ، وحيناً
يقفقه ، ثم انهال عليه ضرباً مبرحاً دون أن تأخذه به رحمة ، وهو يسب
ويعوى -

فاضت الدعوى من عيني الشيخ بطرياركاس ، ولكنه زم شفثيه حتى
لا يسمح له صوت - واستند ناطر المدرسة الى الحائط واقفا رأسه ، والدم
يسيل من صدقيه وذقنه - والفيس فى وسطهم عاقدا ذراعيه الى صدره ،
يتلقى ضربات السوط ويتمتم :

- يسوع ، يسوع ، أعوذ بك من الهوان -

وارغى الألما وأزبد ، وتناثر لمابه فوق وجوههم ، وأخذ يضرب هنا
وهناك كالمجنون - وأخيراً وبعد أن كادت ذراعاه ألقي بالسوط بعيداً -

ثم صاح من جديد :

- الى السجن .. الى السجن - وغدا نبداً السنق -

ودنا من يانايوني ويصق على وجهه وقال له :

- سأبدأ بك يا آكل الجيس -

ثم استدار الى حسين وقال بصوت مختوف :

- آتسى حبيبي يوسفواكي ...

فتح الحارس باباً ، ثم مسح بعمق قليل وهو يجر السرير المعدنى الصغير
الذى وجد فيه الغلام عند الفجر غارقاً فى دمه -

ارتسى الألما فوق الجنة وانهال عليها تليلاً وهو يشن ويتوجع -

فك الحارس وثاق يانايوني من الخلفه ، والتفتظ السوط من على الأرض
وطرق به فى الهواء ، ثم صاح :

- الى السجن يا كفرة -

وصاق الحصة أمامه وهم يمشرون فوق الدرج -

جثم الرعب فوق القرية ، فأصبحت الطرقات مغلقة ، والمواثيق مغلقة -
ودفن الرعايا نفوسهم داخل بيوتهم - فلم تعد تسمع لهم همساً ولا تكلية ،
ينتصنون للصمت فتشعر منهم الأبدان - وبين الحين والحين ينسل شيخ من
باب الى باب يهفس بالأخبار : لم يفرج الاغنيان بعد .. يقال ان هناك من
سمع دوى طلقات مسدس .. وبعد قليل تسرى إشاعة أخرى : زج الألما
بالأشغال فى السجن .. نزل حسين الى الميبدان وكان معه حبل وقطعة
صابون ووضعها تحت شجرة السنار .. ثم لا يلبث أن يحمل رسول ليا
آخر - الألما يهدد بإشعال النار فى القرية كلها إذا لم يعثر على القاتل ،
وسيجرقنا معها -

احتضمت النسوة أطفالهن وصحن :

- لقد هلكنا .. لقد هلكنا -

ونكس الرجال رؤوسهم يلعنون اليوم الذى ولدوا فيه وهايا -

والأم يتيلوب وحدها فقط هى التى ظلت جالسة تحت التكمبية تفزل
المجرب هادئة غير مكترفة - سمعت من قال لها ان زوجها مقبوض عليه
وأن الألما سينشله ، أو هكذا قيل ، فوق شجرة السنار وأنه سيمحو

القرية عن آخرها .. فبرزت رأسها لحظة ثم حدثت نفسها في غير ميلاد .
وهذا أيضا قدر مقدور .. ثم انكبت على عملها تغزل الجيوب .

ولاد ياناكوس بخلطه يحدت حماره ؟

— واثت يا يوسوفاكي ماذا ترى في كل ما حدث ؟ اننا في وروطة . واثل
ان الامور متسوء اكثر واكثر .. يقال ان الالغا سيحرق القرية . وسيعرقك
معها يا يوسوفاكي .. مارايك في هذا ؟ ماذا لو انسلنا تحت جناح الطلام
نحن الاثنين ؟ اننا لا نعمل احدا . لا اطفال ولا كلاب فما الذي يبعدنا ؟
ولكن ليس من العار ان نهرج القرية في لحظة الشدة ؟ ما رايك يا حبيبي
يوسوفاكي ؟ ليس لي من سمر غيرك احادته . افضيت اليك بكل ما يدور
بخلطى . فما رايك يا يوسوفاكي ؟

ودس الحمار رأسه حتى اذنيه في مذوده . وبدا فكاه يملان في نهم .
وصوت سيده يتناهي الى سمعه كأنه صوت نبح يفيض .. وظن ان ياناكوس
لا زال كعادته به يردد على سمعه كلمات التذليل . فبرز ذيله في حيز .

ومع المساء بدأت الابواب تفتح حلقة وتطل من فرجتها بعض الرموس .
كان ميشيل اول من فتح باب بيته . وصعد على الفور الى بيت القسيس
جرجوريس ليواسي خطيبته . وخرج قسطندي ليقتح مغفاه . ولكن لحظة
ان وضع المفتاح لح تحت شجرة السنار كرسيا وفوفه اشياء لم يستطع
ان يتبينها على البعد . اقترب منه ثم سرعان ما جعل في هلع : حبل
وقطعة صابون ! اعاد المفتاح الى جيب حزامه . وفعل راجعا يسم بمحاذرة
الحائط .

كانت عادة الالغا في مثل هذه الساعة من النهار . عندما يبدأ الليل
يرخي أسناره ويسود الكون سكوت حلو ودع . ان يجلس الى شرفته واضعا
ساقا فوق ساق والى جانيه يوسوفاكي يصب العرق ويشعل له الغليون .
اما هذا المساء فالابواب والنوافذ مغلقة . والشرفة مهجورة . كان الالغا يثن
وينوح . آه ما ألقى الأفنية المحبة الى نفسه وما أشد بطلانها : الدنيا
والحلم شيء واحد انخضن بين ذراعيه الجسد الميت الصغير . وحدثت
نفسه قائلا : لا انه ليس حلفا . أبدا ليس حلفا .. ثم أجش باليكاد .

ومسح حسين أيضا عينيه المولائين . وأخذ يروح ويحي . وهو يتنهد
وينوح بصوت خفيض : حبيبي يوسوفاكي .. ثم برتعد خشية ان
يسمعه سيده . وكان بين الحين والحين يمسك بالسوط في هياج وينزل الى

اليدوم وينهال بسوطه في ثورة وجنون . ويقول على نحو ما يفعل
الالغا ..

وبعد ان يستنصر بعض الراحة . يصعد ثانية ويطوف حول السبريز
المعدني الصغير . وأحيانا يجد الالغا وقد مال فوق الجسد البارد لعلامه . وراح
في اغفائه من أثر الحزن وشمدة السكر . فيتحنن هو الآخر فوق يوسوفاكي
ويقبل فمه قبلة حارة شهوانية وبعض بحرقه شغفه المكتنزتين اللتين غلاصا
الشحوب وان كانتا ٧ لزالان تنضوغان برائحة المياك . ثم يرتقى على
الأرض يتدحرق فوقها .

وجلس القسيس جرجوريس في زيارته . وهو يانا يوربي . وقال له :

— هل أنت الذي قتل يوسوفاكي يا يهوذا اللعين ؟ اعترف حتى تنجو
وتنجو القرية معنا ..

فقال آكل الجبس بصوت كأنه النياح وهو يسبح الدم الذي يسيل من
رأسه المشحوج :

— الى المجيع جميعا ! ولتذهب القرية الى المجيع أيضا . كلكم وأنا
معكم .. فقمي ذلك شفاء نفسي .

واستند الشيخ بطرياركاس ظهره الى الحائط وهو يلهث . وتمتم
بفوره :

— أنت الذي قتلته يا ملعون . أنه أنت . أنت يا يهوذا .

وعاد السروجي يجاز قائلا :

— يا ولقد . ما شأني أنا به ؟

وسكت ولكنه كان يضطرم أيضا . فصاح ثانية :

— انما لمظنكم عليكم اللئمة . جميعكم ! هذا القسيس القذر واتسم
أعيان القرية وناظر المدرسة . أتمم والأرملة التي تتأني على الآن ولا تفعلني
بيتها . انتم جميعا .

ولم يلبث ان عاد يصرخ قائلا :

— أردتم ان تجعلوا مني يهوذا .. وما انما أصبحت يهوذا !

وعاود القسيس حديثه متكلفا الرقة :

المسيح يضلك من جديد - ٢٥٧

- اعترف يا باناتيوني بأنك قاتله وسوف يغفر المسيح لك خطاياك .
كنت زنا المشلول حتى هذه اللحظة عن أرواح أهل القرية ، أما الآن فانك
أنت يا باناتيوني المشلول عنها - قم واعترف لتتغفر .

وهنا ضحك أكل الجبس ضحكة عالية ساخرة .

- بحق الشيطان أنها فكرة رائعة تلك التي اقدمتموني بها الآن .
وددت لو أنني كنت قاتله حتى أشرككم معي في جريمتي ! ولكن سيقتني
اليها غيرة .. بورك يدها .. سيقتني غيرة ! ولكن لا بأس ! سيذهب
معي إلى المحيم رؤساء الأعيان والقساوسة ونظار المدارس -

ورفع لاداس المعجوز رأسه التي ادمتها ضربات البسوط - وصبر
بصوته :

- اسمع يا باناتيوني . اعترف وسوف أعطيك ثلاثة جنيهات ذهباً .
سأبيع حمار ياناكوس فهو مدين لي بها . سأبيع الحمار وأعطيكم الجنيهات
الثلاثة .. هل تسمعون ؟

بسط له باناتيوني يده بحركة استهزاء وقد تباعدت أصابعه الخمسة
وقال له :

- خذ أيها البخيل المعجوز ، هاهنا خمس جنيهات .

في هذه اللحظة فتح الباب ودخل لاثا . وصرح :

- يا كغرة ، غدا موعدكم مع المشنقة . أعددت الخيل والصابون
والكرسي تحت شجرة السنار . غدا الأربعاء ، سنبداً بأحضركم شاماً :
باناتيوني أكل الجبس . وموعدها أيها البخيل القدر يوم الخميس .. وأنت
أيها الناظر موعدها الجمعة يا أعلم العلماء . وأنت موعدها يا صاحب
الغنامة ، أيها الوغد باطرياركاس . والأحد موعد القسيس ، ساعة قداسك
أيها الكلب القدر . وهكذا يكون الجموع خمس رقاب . ولقد أعددت لكم
خمس حبال لتنزلكم تحت شجرة السنار . هذه هي الوجبة الأولى .
وبعدنا ساضطاد خمسة آخرين . أول من تقع عليهم يداي - ثم يأتي بعدهم
غيرهم وغيرهم وهكذا .. حتى أغرق على القاتل . لن أدفن حبيبي يوسوفاكي
ولن أسبل غنفيه . بل ساضعه تحت شجرة السنار حتى تنعم روحه
بمراكم .

وما إن فرغ من كلماته هذه حتى خرج وصفق الباب ورماه بقوة
وغضب . وأبصر حسينا ينظره ممسكاً بالبسوط . فقال له :

- حسن . أتبيكي أنت أيضاً يا صديقي المسكين .. فكفت دموعك .
ولا يلقى بنا أن يرانا الكفرة نيكى . اذهب وانثنى بياناكوس البائع
التجول . مرة أن يغف إلى المدينة ويشتري لي بخوراً من أجود أنواع البخور
واغلاها ثمناً . وشموعا ، وقماشاً من الجوخ الأسود ، وكمكاً . قل له أن
يضر لي كل هذا غدا صباحاً مع أول النهار .. أه ، وأيضاً حزمة من
الحبال الفليطة . لأن القسيس النيس ضخم البعثة لتقيل الوزن ، وهذا
الشيخ بطرياركاس أضخم منه وأثقل وزناً .. اذهب .

وطرق حسين باب ياناكوس بقوة وعنف ولكن عبثاً . كان ياناكوس
قد غادر بيته قاصداً الجبل ليحضر مانولى من الزول إلى القرية والا فيسب
عليه .

فرغ مانولى من حلب الشعاع ، ووضع قدر اللبن فوق النار . وجلس
ليكويو بجواره مسلحاً بملقعة خشبية كبيرة ، يحرك اللبن ، ويدلفن بلحن .

كان مانولى يعجب لمساعدته ، فهو دائماً خفيفاً لسطاً صافى المزاج .
وكثيراً ما كان يسأله : لماذا أراك يا نيكويو دائم الغناء ، تكتب هنا وهناك
مثل الجد ، لا تطحن بك مكاناً كأنما خاق عليك الجبل ؟

ويجيب الراعي الصغير :

- هل نسيت يا مانولى أنني في الخامسة عشرة من عمري ؟ لماذا لا تتوقع
أذن أن يبعد العالم صغيراً جداً في الناطري ، ولاطمئن بي مكان ؟

ولكن ليتني لم تكن في عينيبة صغيرة جداً . إذا ما صنعت اليه خلسة
لنلتقي به فوق الجبل كان نيكويو يرتدي بيج ذراعها ، وتقمه اليها .
ويتمني لو لم تحله أبداً .

على اللبن . وما هو مانولى جالس الآن بجانب الوقد ، يقرأ في الانجيل
الصغير ، ويلقب صفحاته على ضوء اللهب .. كانت هذه هي متعته الوحيدة ،
وكثيراً ما كانت تستعص عليه معاني بعض الكلمات . بيد أن قلبه يهتدي
إلى تأويلها ، فتعصف معانيها واخبة في يقين . وتسرى الكلمة القدسية
في عروقه برداً وسلاماً كأنها ماء يفيض من لبع .

أي الهام قدسي كان يستشعره . وتهيم معه روحه وجداً . يخال
كأنما كشف عنه الحجاب شهيد المسيح لأول مرة وسمع صوته . أحس
وكأنه شهيد المسيح حقاً ، يرنو إليه بعينيته ، ويتحدث إليه بصوت هادئ

حنون يأخذ بالألباب ، يقول له : « اتبعني » وعند ذلك اللحظة صار مانويل في مسكون وشهوة غامرة وراء المسيح - حينما فوق عشب الجليل الأخضر ، وحينما على الشاطئ الرمل لبحيرة جينيسارت وحينما ثالثا فوق الطرق الحجرية لليهودية .. ومع العشق يستلقي عند قدمي المسيح تحت شجرة زيتون - يرقب من خلال أوراقها الغضبية اليوم المرتعشة ، ما أبدع الوجود في صحبة المسيح ، النساء زاهية عميقة ، والهواء صاف عليل كروح نقية ، والأرض تتنوع مسكا .

و ذات يوم ذهبوا سويا لحضور عرس في قرية كتمان . دخل المسيح البيت في لباس عرس - وابتهج الحاضرون لرؤيته ، وعنت وجوههم حمرة خجل كعداري مخطوبات . ونهض العروسان ، وتبادلا قسم الزواج ، ثم أربع الضيوف فوق الحشايا ، وشعروا يأكلون ويشربون . ودعى المسيح كائنه بيارك العروسين ، وتكلم كلمات قليلة بسيطة واضحة ، ولكن أحس معها العروسان فجأة أن زواجهما سر عظيم ، وكان الزوجين ، الذكر والأنثى هما العمادان اللذان تقوم عليهما الأرض فيمتاعها من السقوط .. كان الحفل بهيجا صاحبيا ، وفرت الكتوس من خرها تشبه المزيد . والتفتت أم المسيح الى ابنتها وقالت له : « يا بني لقد فقدت الخمر .. » واعتملت في صدر المسيح قوة جبارة ، وعلى الفور بسط يده ، وأمر الطبيعة أن تغير مسارها . ونهض المسيح من مكانه متائبا كواحد من فرائخ النور يجرب جناحيه الضعيفين لأول مرة للطيران ، ويرق بهما في خوف وحذر ، وخرج الى الغاء والحني فوق جراد الماء البست ، وتطلع الى وجهه فوق صفحة الماء فيها . وما أن انعكس على صفحتها وجه المسيح حتى استعالت خمرًا - ثم استندار المسيح لمانويل الذي تبعه ، وأبسم له ..

وتذكر مانويل يوما آخر ، خرج فيه مع المسيح . كان القيل شديدا . وتجمع آلاف البشر على شاطئ البحيرة . وركب المسيح سفينة ، وتبعه فيها مانويل . وأودع مانويل قلبه الكلمة الطيبة ، واستمرت فيه كحبة قمح .. وأحس مانويل كأن قلبه أرض طيبة كبدل فيها الحب فيخرج نبتة ، وتكون النبتة نصلا ، والنصل سنبلة ، والسنبلة خبزا محطوا عليه بخطوط عميقة ضليك كبير .

وفي يوم ثالث طارا خلال حلول القمح . كان الوقت طهرا ، وأحسا بالجوهر . مع المسيح يده وقطفت سنبلة - وقطفت تلاميذه كل منهم واحدة ، وكذلك فعل مانويل . وبدأوا يأكلون ما فيها من قمح حبة بعد أخرى . ما أطمعها هذه الحبات الخضراء التي تفيض لبنا ، لقد أشتيت لجسد والروح

ودوق درسهم زفزقت العصافير ، واقتفت أثر المسيح كأنها بعض تلاميذه . ولحت أقدامهم كشائر النوار يديها زاهيا على نحو لم يصره سليمان في كل

مصادره

ودعاهم أحد الغريسين الى بيته . فوقف مانويل عند الباب يرقب ما حوله - لم يستقبل الغريس المسيح بها هو أهل له من التمجيد - لم يغسل له قدميه ، ولم يسكب العطر على يديه وشعره . ولم يقبله قبلة السلام .. ويا للعجب ، فبينما هم يأكلون في صمت ، تضوع الجو عطرا . لقد دخلت امرأة عازية الصدر ، شقراء الشعر ، تحمل بين يديها صندوقا من المرمر مملوءا عطرا . ما أن وقع بصر مانويل عليها حتى توجس خيفة .. ترى من تكون تلك المرأة ؟ حيق له أن راعا في مكان ما ، ولكنه لا يذكر أين كان هذا اللقاء . وبحث المرأة عن ركبتيها عند قدمي المسيح ، وكسرت الصندوق ، وسكت ما فيه من عطر فوق القديسين المقدسين ، ثم أرسلت شعرها ، ومسحت به قدمي المسيح وهي تتعجب .. وعال عليها المسيح ووضع يده القنسة فوق الشعر الأشقر ، وقال بصوت غلب حنون : « مغفورة لك خطاياك يا اختاه ، لأنك أحببت كثيرا »

فأحس قلب مانويل ، وأفاق الانجيل الصغير . كانت النار لا تزال موقنة ، تراقص ألسنتها جذلة ، والكلوخ تسود عتبة زرقاء وتكويلى بروج ويجرى يندلبن بأنفية وقد انهمك في اعداد الطعام .

كان قلب مانويل يفيض حيا وحنانا وسعادة . أحس بعواطف الجياشة تعوق طاقته ، ولا بد أن يتقاسم العالم فرحته . واجتمعت في نفسه رغبة عازمة في أن يفرج الى الدنيا لينبغ الكلمة الطيبة للناس والحجارة والماشية فصاح :

« ايه يا نيكوليو . هناك من الغداء وتعال اجلس الى جانبي . يجب أن تسمع آمت أيضا كلمة الرب لتكون السانا كاملا - فلتست حتى الآن سوى وحتى يري »

استندار الرافعي الصغير ، ونظر الى مانويل وانعجز ضاحكا :
« لا حاجة بي اليها يا شيخ مانويل - دعني وشأني فاني بما أنا فيه .. هل تريد أن تمكرو صغر مزاجي ؟ »

« سائرا عليك بعض آيات الانجيل لتلنسي بنفسك ما فيها من طلاوة - لك ذلك اذا مرضت ، أما الآن فلا حاجة بي اليها كما قلت لك .. لقد أعددت الطعام ، تعال لتأكل »

- لست جوعانا - كل آت

بعد هذه الكلمات فتح ماثولي الانجيل الصغير ثانية . والنحن عليه قرب النار وبدأ يقرأ .

« ان اولاد اجدانكم ان ياتي ورائي فليترك نفسه ويحمل صليبه ويتبعني فان من اراد ان يخلص نفسه يهلكها . ومن يهلك نفسه من اجلي يخلصها .
لانه ماذا ينتفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ؟ او ماذا يعطي الانسان قدام عن نفسه ؟ »

ادرك ماثولي معنى هذه الايات بوضوح تام . واغلق الانجيل . وانغمض عينيه ايضا . - آه . النفس في كفة والمالم كله في الكفة الأخرى . لكن النفس اعر قيمة واكبر وزنا . اذن لماذا الخوف من الموت ؟ لماذا نضل امام سطوة الارض ؟ لماذا نغترق ابداننا اذا ما خطر ببالنا اننا سنخسر الحياة الدنية ؟ لماذا الخوف ولنا روح خالدة ؟ وهي احق بالخلاص .

كان ياناكوس واقفا بالباب منذ لحظة يرقبه . لم يلحظه احد . كان نيكوليوي يوليه نظره متعبا على طعامه . يأكل بينهم ثعل الطعام يمتعه القوة اذ ربما تأتي ليليو هذا المساء . من يدري ؟ وهو بحاجة الى القوة لتكون له زادا في صراعه معها . وكان ماثولي مغضض العينين . هائما في سعادة تجعل عن الوصف .

وحدث ياناكوس نفسه قائلا :

- ان روحه هائمة في الفردوس . اذا لزمت الصمت فلن يخرج منها . ليس لي الا ان اتحدث اليه .

واجتاز العتبة وهو يصيح :

- ايه ياماثولي . ماثولي . طبت مساء . اني سعيد برؤيتك .

وتب ماثولي مدهورا لسماعه صوت بشر .

فتح عينيه . وحلق بهما وسأل :

- من هناك ؟

- هل نسيت صوتي ياماثولي ؟ انا ياناكوس .

- مدبرة يا عزيزي ياناكوس . كنت غالبا عن الوجود . لم ادرك انه آت . أي ربح طيبة ساقطك الى هذه الساعة فوق الجبل ؟

- بل هي ربح سموم يا ماثولي . انت تعيش في الفردوس . وانا - استغفر الله - آتيك بأخبار من الجحيم .

- عن القرية ؟

- نعم . عن القرية . وجد يوسف اناي هذا الصباح مقتولا . ومن جنون الأنا : ألقى القبض على القسيس جريجوريس والافيان وبنايوني . ربح بهم في السجن - وغدا موعدهم للشنق الواحد بعد الآخر - علفت الخيال بسجرة اسنار - عقد الأنا عزمة على ان يبدا غدا يشنق يانايوني المسكين . كما هي العادة دائما . - ويقول انه سيتبعهم بأخرين وآخرين وهكذا . - سيقتل الموت في القرية حتى يهتدي الى القاتل . حل الدمار بالقرية فلا نسمح فيها بغير النواج . الابواب موصلة . انا هالكون - آتيك ياماثولي كي آتيك بالخبر حتى لا تنزل الى القرية خشيما الى يقض عليك . انت هنا بامن ولا ريب .

لمح وميض في عيني ماثولي . قال نفسه : ه واثنت اللحظة التي تثبت فيها ان روحي خالدة : ه ولكنه حرص على اخفاء سروره . كان يصفي الى صديقه وهو يتحدث اليه لاهتا . يبيننا لا يقنا يكره بينه وبين نفسه . ها هي ذي اللحظة الحرجية . ها هي ! اذا افلحت مني فقد خسرت حيرانا ميينا .

وسأل :

- هل آكلت ياناكوس ؟

- لا ياماثولي ولكنني لست جوعانا .

- وانا ايضا لم اكن اشمع بالجوع . ولكن الشهية تأتي مع الاكل . مشاكل مما ونحن نتكلم . وسوف تنام الليلة هنا - وغدا عندما يطلع النهار باذن الله . نرى ما قد يكون .

وتطلع ياناكوس الى صديقه مشدوها :

- كيف تتكلم يا ماثولي بمثل هذا الهدوء الشديد ؟ ألم تفهم ما القول ؟ قريننا في خطر .

واجاب ماثولي :

- اعرف القاتل . لا تغف فلن تهلك القرية .

واسقط في يد ياناكوس . وقال :

- تعرف القاتل ؟ وكيف كان ذلك ؟ من هو ؟ من ؟

وقال ماثولي وهو يتنسم :

• لا تمنعني • لماذا المعجزة ؟ غدا تعرف كل شيء • • • اصبر قليلا • لنأكل الآن ونتمتع سوية ثم ننام • مستبصر الامور سيرا حسبا بإذن الله •

ثم صاح قائلا :

• ايه يا نيكوليو • افصح لنا مكانا • فنحن جوعى مثلك •

لربما على الأرض • ورسما علامة الصليب وأقبلا على الطعام • كان ياناكوس يرفع عينيه بين القبة والغنية ينطلق بهما الى مانول • انه يستطيع أن يميز من خلال هذا اللحم المشقق الذي يغطي وجهه عيني غائرين للعدا في هدوء وسعادة • وحملت نفسه •

• لا أفهم شيئا • • لا أفهم شيئا •

جثم عليهما صمت أثيل حاق به ياناكوس فمزم على الكلام •

• كيف تقضى وقتك وحيدا هنا يا مانول ؟ •

وأجاب مانول وهو يشير الى الانجيل :

• ولكنني لست وحيدا • المسيح معي •

• وماذا عن مرضك ؟ •

ارتعد مانول مأخوفا • إذ كان قد نسيه تماما •

• أي مرض لقدس ؟ أه • نعم • لا زالت ألتصق يا ياناكوس فلم يزلني بعد معنى هذا أن وحي لم تبرا بعد عما فيها من شر • لعل الله يشملني بواسع رحمته •

وقال نيكوليو وهو يمسح فيه •

• أما أنا فسأستصرف • الفجر هلال • ولن يغمض لي جفن • سأتحول قليلا •

والتفت عصا الرعي ودخل عنهما وهو يصغر •

وقال مانول :

• هيا بنا الى النوم يا ياناكوس • إذ يجب أن نستيقظ غدا في ساعة مبكرة • والنوم يكشف البصيرة • هذا بعض ما علمتني حياة الوحدة هنا • فانه يحدث لي النيام أكثر مما يتحدثني الايقاظ •

اخترشا بسماطاً عريضا في الفناء ليستمتعا ببرودة الجو • كان الهواء

سيفا برائحة السعتر • وارتفع صوت الليل حتى غمر السكون • وبدأ الهلال يعلى سفحة السماء •

وقال ياناكوس الذي جفاه النوم :

• أنا دائم التفكير في يانايوتي المسكين •

وقال مانول بصوت خفيض •

• سوانا أيضا • أفكر فيه أكثر من غيره •

• نفس الشيء بالنسبة لي • هو أكثر من سوانا • ولكن لماذا ؟ •

• لأنه أحب كثيرا يا ياناكوس • وحطه الحب • روحه كبيرة ومعمونة كان عبدا لمواطنيه وشهوته فتورط في كثير من المشاكل • وأنان هذا حنقه • والدفع يناطح برأسه محاولا الهرب ولكنه سيئ الحظ • فلم يزد ذلك الا تورطاً • • • النص ايذاء من حوله • ولاذ بالغم والسباب لعله يجد في ذلك بعض الراحة لنفسه • ولكنه كان يغوس أكثر فأكثر • • • لو أنه أحب قليلا • • •

ثم استطرده مانول مصححا ما قال :

• لا • لا • ليس قليلا • بل لو أنه أحب أكثر وأكثر ربما كان في ذلك خلاصه • • •

أحس ياناكوس برغبة في أن يطيل الحديث • فقال :

• أراهن بعباتي انه ليس هو قاتل يوسوفاكى • أديوك يا مانول أن تصبح لي حتى بهذا خاطري • هل هو يانايوتي ؟ •

• هيا لي النوم يا ياناكوس • لا • ليس هو •

وقال ياناكوس :

• الحمد لله •

ثم أغمض عينيه وعادوه الهدوء •

وكان مانول متلهفا الى أن يخلو بنفسه فاستسلم هو الآخر للنوم • كان طوال الأيام الاخيرة يؤثر أن يلقى منض العيين حتى ولو كان ذلك في وضع النهار • إذ كان يخيل اليه أن هذا خير ما يعينه على أن يستيقظ ذاته على نحو أوضح •

فلمة قصة كان قد سمعها في العير من معلمه القسيس ماناس • وكثيرا

ما تظنون يخاطره في هذه الأيام وتلج عليه . اذ زاره ذات يوم راهب وقضى معه ساعة نهاره . ففتح عينيه للحظة ثم عاد وأغمضهما . فقال له ماتاس :
• افتح عينيك يا ابانا • افتحهما لتشهد بدع خلق الله • • فأجاب الراهب :
• أنا المص عيني فأشهد الخالق ذاته • •

وهكذا كان مانولى يغمض عينيه ليشهد المسيح . ويسمع صوته . يقرأ آية من الانجيل ثم يغمض عينيه . ويهيم بروحه معها . وفي هدأة الليل . اذا كان الجو رطبا منعشا . فإنه يستطيع أن يرى يوحنا المسيح في ثياب بيضاء يتقدم تلايمده . ويلحق به مانولى خلسة . يمشي وراءهم في صمت وسكون .

وتعتم وهو يغمض عينيه :

— غدا ينتظرنى عمل كبير . عمل هام وعسير . عونك يا يسوع .

ثم تنهد وعاد يقول : • عونك يا يسوع • كأننا يتاجى المسيح يدهو اليه في سكون الليل .

وتنزل عليه المسيح . اذ استيقظ مانولى ساعة السحر ورسم علامة الصليب . كان الحلم لا زال يشغل فكره . ساطعا متألعا كنجمة الصباح :
ترأى له أنه يمشى على حافة بحيرة لازوردية . كان في عجلة من أمره وشق طريقه في لهفة وقلق بين عيdan الغاب وأوراق الصفصاف . مسرعا في خطواته . ويبد أن تقدم قليلا اذا عيdan الغاب وأشجار الصفصاف تستحيل بشرا . آلافا من الرجال والنساء . ساروا جميعا خلفه . وهبت ريح . وصاح معها الجميع : • اقتلوه ! اقتلوه ! •

حاول الهرب . واذا بيد تلمس كتفه . وصوت يقول : • هل تؤمن ؟ واجب مانولى : أومن يا الهى . وعلى الفور سكنت الريح . وعاد الرجال والنساء سيرتهم الاولى . عيdan غاب وأشجار الصفصاف . وارتفعت امامه شجرة سنار تغطيها المصافير . وبدت له الشجرة تصدح وتغرد . واذا بجنة معلقة على احد فروعها تتأرجح في الهواء . وتوقف مانولى مبهوتا . ثم ففر في مكانه كأننا يحاول الهرب واذا بالصوت يتناديه من جديد :

• لا تقف . تقدم •

وصرخ مانولى صرخة أيقظته :

— لا تقف . تقدم • انه صوت الرب فلاواصل السير .

وحب واقفا . اغتسل . ومشط شعره . وارتدى أحسن ثيابه . ودس الانجيل في صدرته . وهز ياناكوس .

صاح به فرحا مسرورا :

— ايه ياناكوس • • استيقظ أيها الكسول •

فتح ياناكوس عينيه . وتطلع إلى صديقه متحميا .

وقال له :

— أراك ترتدى لباس عرس يا مانولى . وعينك تلمعان . أى حلم جميل ترأى لك ؟

وقال مانولى :

— هيا بنا . لا نريد أن نضيع الوقت . فكر في الحلم الذى يحيق

ببانا يوى . فكر في الموت الذى يتهدد القرية . هيا اسرع !



الفداء

أى نشوة غامرة يستشعرها المرء حين يستيقظ مبكرا ذات صباح وقد أضمر في نفسه قرارا حاسما وخطيرا . اتخذ مانوئيل طريقه إلى القرية نازلا من الجبل ، خفيفا كأنه ملاك ، معلقا فلا تكاد قهقهة تسمعان الأرض . أحسن قبلة كان الملايكة بأسطة أجنحتها ، تحمله فوقها ، وتطير من صحرة إلى أخرى . كان أشبه بسحابة تسوقها ريح رخاء .

ووداعه ياناكوس يعدو لاهتا ، عاجزا عن اللحاق به . وصاح قائلا :
- قل لي يامانويل ، أراك مسرعا كان لك أجنحة تطير بها . . . تمهل قليلا حتى ألق بك !

ولكن مانوئيل أحسن كان أجنحة تحمل قفصيه ولا يقوى على الانتظار . ماذا عماء أن يقول للأجنحة ؟ هل يقول لها : « اسكني ولتنتظر ياناكوس ؟ » .

وصاح قائلا :

- أريد أن ألتظرك يا ياناكوس ، ولكني لا أملك ذلك . لا تبطئ .
أسرع أنت أيضا .

كانت نفس الأجنحة التي حملته حين تبع المسيح مقمض العينين يطوف خلال المديار بيدرك الكلمة العظيمة في الأرض الطيبة وبين الحجارة . كان يتبع المسيح ولا يملكه المؤمن ، ظالوا خفيفا جدلا ، من جيسارت



الى اليهودية ، يحوم فوق القرى الصغيرة الحبيبة : كفر ناحوم ، وقانا ،
والمجدل ، والناصرة . ثم انطلق دفعة واحدة الى السامرة ، واجتازها
حتى بلغ أرضه الحبيبة حول اورشليم - بيت عينيا ، وبيت صيدا ،
وأريحا ، وعمواس . وما هو اليوم يحلق مثلما كان مع المسيح . كأنه
عاد يتفنى أثر المسيح الذي يتقدمه الى انكوفريسي . أحس بجسمه
خفيفا ، بقل وزنه شيئا فشيئا . وبينما هو كذلك شعر بوخر يملأ
صفحة وجهه ، وقصور تتساقط تباعا من فوق جديده وقفه . خيل
اليه وكان لحم وجهه يتخلص من اساره كرهرة يتفنى عنها كلها ،
ليصبح وجهه غضا مثل الحمار .

توقف مانولي مبهورا . كان فليه يخفق بشدة . رأى يعينى رأسه
يدا تنصفيج وجهه ، تربت عليه في هدوء وعلى مهل ، يدا حانية كنسيم
الصباح فوق الجبل .

كان واقفا من ذلك ولكنه لم يجسر على رفع يده ليلمس وجهه
ويطمئن الى ما رأى . وارتجف ، وحدث نفسه قائلا :

- المعجزة ! المعجزة !

لحق به ياناكوس لاهتا . رفع عينيه الى مانولي وتطلع اليه ،
ولدت عنه صرخة :

- مانولي ! مانولي !

وارتمى بين ذراعيه .

رفع مانولي يده يتحسس صفحة وجهه بأصابع نهمة مثوقة .
ذاب عنه اللحم النشع مثلما يذوب الشمع . التام الجلد النشع وعاد
وجها بشريا أملس من جديد . وتعمت مانولي وهو يرسم علامة الصليب .
- الحمد لله . الحمد لله أن غفر لي خطايي .

وصاح ياناكوس وقد غاضت عيناه بالدمع :

- عزيزي مانولي . دعني أقبلك . انتصرت على الخواية ،
وتطهرت روحك . وزال عن وجهك أثر الشيطان !

مد ياناكوس يده الخشنة وتحسس براخته وجه صديقه ، وظل
يربت عليه في صمت فترة طويلة .

وقال مانولي :

- هيا بنا . لا تريد أن نضيع وقتنا .

اشرفت الشمس ، وعلا صياح الديكة في الحقل من تحتها .
وبحت كلاب القرية . وراحت لهما بيوت القرية من خلال غلالة رقيقة
من الصليب .

واستدار مانولي لرفيقه وقال له :

- عليك يا ياناكوس أن تسلم دون اعتراض بكل ما أقول أو أفعل
هناك في القرية . اعلم انني لست أنا الذي أتكم ، وإنما افعل ما يأمرني
به المسيح . امثل لأمره ولا شيء سواه . هل تفهم يا ياناكوس ؟

أحس ياناكوس فجأة وكان صديقه يودعه . فسأله في قلق :

- ماذا ستفعل ؟ وماذا تنوي أن تفعل ؟

- قلت لك كل ما يأمرني به المسيح ولا شيء سواه . أنا نفسي
لا أعرف تماما ما سيكون ، بيد انني على يقين منه . وأنت أيضا
يا ياناكوس كن على يقين من ذلك وأنتي، ميشيل وقسطندي بما أقول
حتى يلزما الصمت .

توقف ياناكوس مترجعا . وعاد يسأله من جديد :

- ماذا ستفعل ؟ وماذا تنوي أن تفعل ؟

- لا تقف ، تقم . هذا ما قاله لي المسيح في منامي البارحة .
- لا تقف يا ياناكوس كن مؤثما وتقدم . ألم أر نوا كيف زال عني خاتم
الشيطان ؟ هل تعرف لماذا ؟ لأنني سمعت نداء المسيح واستجيت له .
وهانذا أتقدم منذ مطلع الفجر . وأنا لا أفعل ذلك عن غير رغبة مني ، بل
أرغب طريا . وكنت تناديني : قف ، ولكن كيف لي أن أقف يا ياناكوس
والمسيح يتقدم أمامي بخطوات واسعة ؟

ولكن ياناكوس هز رأسه وقال :

- أنا أتق بك يا مانولي . لمست يدي المعجزة التي تجلت على
صفحة وجهك . ولكنني لا أتق بنفسي . لو فعلت شيئا خارقا يفوق
طاقة البشر سأصرخ حتما . سأصرخ يا مانولي . انني بشر ، ولو
أصابك شيء ، فمن أتخطى عنك بل سأقاوم .

— وإذا كان هذا هو أمر الله ؟
عائد ياتاكوس يقول :

— سمعترض وأقام - استغفر الله -
وقال ماتولي بصوت آمر :

— ألا نخجل ؟ ألا نخاف ؟ لنذع هذا ، خير لك أن تصمت ،
لنتقدم .

أسرعا في خطوهما - وما إن اقتريا من القرية حتى رآيا قسطندي
وقد خف اليهما - وصاح بهما حين أبصرهما :

— يا اخوتي ، إلى أين ؟ عودا من لوركما - كنت ساعدا الجبل في
طريقي اليكما احدىكما من النزول إلى القرية - ستحدث اليوم هناك
أحوال .

وساله ماتولي :

— تفقد ياتايوتي ؟

— الجبل ينتظره فوق شجرة الستار - نفتح الحارس في النهر
ساعة الفجر - أمر أهل القرية بخرجا وتساء ، أن يتجمعوا حول شجرة
الستار ليشهدوا بأعينهم حتى يستبد البلع بقلوبهم .

لملك الخوف ياتاكوس ، فاستعار ناحية الجبل وقال :

— هيا بنا نعود من حيث جئنا ، تعال معنا ايلا يا قسطندي .

— أنا .. لي لوج وأطفال لا أقوى على تركهم . أما أنتما فاني
استحلفكما باسم المسيح أن ترجعا .

وقال ماتولي وهو يواصل السير ابتعادا ملكوت السموات :

— لا - بل باسم المسيح يجب أن تواصل السير - وسوف نواصل
حننا . تعال يا ياتاكوس ولا تخف - ثمة من يسير أمانا ويشير اليها .
إلا تستطيع أن تراه ؟ إنه المسيح ، فلننتبه .

وفي هذه اللحظة فقط لح قسطندي وجه ماتولي سافيا تقيا .
فصاح قائلا :

— ماتولي . كيف حدثت المعجزة ؟

وأجاب ماتولي مبتسما :

— مثلما تحدثت المعجرات ذاتها . في هدوء شديد وبساطة لامة
أهل غير انتظار . لا داعي للتباطؤ يا اخوتي . هيا بنا أسرع .

أمسك بفتراف قسطندي وحننا خطوئهما نحو القرية . ومن وراءهما
ياتاكوس متأففا .

وقال ماتولي :

— لا تخف يا قسطندي فلن تهلك القرية . فانا اعرف القاتل .

ولهذا أسرع اليها .

توقف قسطندي وقد نهال فرحا :

— من هو ؟ من يكون ؟ على أرواحه الله في ممالك ؟ من هو ؟

وقال ماتولي بصوت آمر حنون :

— لا تسألني عن شيء . لا تتوقف . تقدم .

واندفعوا ثلاثهم - وسرعان ما بلغوا القرية كأنهم حيول واكتفة .
كان نهر حسي يندى يستحث أهل القرية بدمرة غاشية . ففتح
الأبواب وخرج أهل القرية رجالها ونساءها . وشتموا جميعا علامة
الصليب وأسرعوا في جبل إلى المدان .

وصاح بهم ياتاكوس :

— تسجعوا يا اخوتي . أن الله كبير .

وهمهم فجوز وهو يجري ممسكا بيده حفيده :

— إلى الشيطان أيها الآلهة الجنون . لو كان الله كبيرا فهدم
الملحظة التي ثبتت لنا فيها ذلك . سله أن يكشف لنا عن القاتل .

وقال الأب كريستوفيس وهو يندو :

— انوايوسوفاتي وطرحوه تحت شجرة الستار . وصلوا حوله
الشروع والبخور والكلمك . نامل الأنا وطار سوانه .

كان المسيحيون يسرعون إلى الميدان المواجه متلاحقة . وأبصر
يشيل على البعد ماتول ورفيقه خفف للمقاتل . كان ضاحيا يائسا .
ولكن ما إن رأى وجه ماتولي حتى صاح فرحا ومائمه .

— شغيت يا ماتولي ، شغيت . أ . الحمد لله .

وسأله ماثولي :

— ماذا من بانايوتي ؟

— سيجيئون به بعد لحظة . لقد أوسعوه شرباً ، هذا المسكين .
اقتربوا من الميدان . كانت الشمس تطل على الأرض من فوق
حافة الأفق ، والتسيم يهب طليلاً رخياً ، والقرية يفرها نور يحدد
الحياة . وشجرة السنار موزقة خضراء باعثة . تسمح لأوراقها خفيفاً
جداً حين بداعها التسيم . ورفع الشيوخ أبصارهم يتطلعون إليها
في غزع . كم من مرة كانوا يستيقظون من نومهم مع الصباح يتطلعون
إلى غروبها ليروا يونانياً معلقاً عليها لأنه تجاسر على أن يرفع رأسه
مطالباً بالحرية ؟

وارتفع صوت الحارس فظاً قاسياً :

— أقسحوا .. أقسحوا بالكفرة !

وسار في المقدمة بخطوات واسعة يشق الطريق بكل ثقله ، ومن
ورائه حمالان يحملان السريز المعدني الصغير وقد تعدد ثوقه جثمان
الغلام القليل . فضاء الأثام من رأسه حتى الخمص قدميه بالورود
والياسمين . لم يظهر منه سوى وجهه الأصفر وشعره المجعد ، وشفتاه
المشوهتان من أثر العنق . ووضع بجانبه حفنة لبنان ليضعها في عالم
الأرواح .

وسار في المؤخرة بانايوتي متجاهلاً على نفسه ، يدها مولوكتان من
خلف ، ورأسه تغطيه الجروح ، وجسده أزرق من أثر شربات السياط ،
عيناه وحدها تدب فيها الحياة . يحملن بها في أهل القرية ينظرات
ملؤها الكراهية .

وصاح به واحد من أهل القرية :

— أيها الوغد ، ألا ترسم نساء القرية وأطفالها ؟ اعترف .

لوقوف بانايوتي لثأراً مهتاجاً وجار :

— ومن منكم كان يحس بالرحمة نحوي ؟

وبلغ شجرة السنار وقد خارت قواه فأسند ظهره إلى جذعها
الفلظ . حاول أن يمسح بكنفه الفرق المتصيب من جبهته .

وفي هذه الأثناء وضع الحمالان يوسفآكي تحت ظل شجرة السنار .
وانسلا شمعتي كبيرتين عند قدميه ، والقوا بحفنة من البخور في مبخرة
بها جمرات متوهجة .

انسح ماثولي ورفاقه لأنفسهم طريقاً بين الحشيد ، وانخلدوا مكاناً
من الصدارة بجوار جنة الغلام . وسرعان ما لحقهم بانايوتي . نظر إليهم
بعينين مسجورتين ، وحرك ذراعيه كأنما يريد أن يكسر القيد ، وخطاً
خطوة نحوهم ثم صاح فجأة :

— عليك اللعنة يا ماثولي !

ثم عاد وأسند ظهره إلى شجرة السنار خائر القوى .

وأجاب ماثولي :

— تشجع يا أخي . لئق بالله !

ولم يكذب بانايوتي يفتح فمه ثانية حتى دوت صيحة مزعجة خرجت من
باب الأثام وتناقلتها الأفواه وكان لها صليل يثير الهلع .

— الأثام !

وتقدم الأثام وحده حاسر الرأس ، متورم الجفنين من حرقة
البكاء ، مرندياً سروراً موشى بالفقس وحول وسطه حزام أحمر غريبيش ،
وسدس فضي ، وسيف غريبيش له مقبض أسود . كان يمشي بخطوات
بطيئة متناقلة ، ينقل قدميه بجذر ، خشية السقوط فيكون سخرية
القوم . فالروميون جميعهم عيونهم مثبتة عليه ، ومن الغار أن يروه
مخبوراً أو مفتاحاً ، أو متهاكلاً في مشيته . صغ شاربه وحاجبيه يصبغة
سوداً غليظة . كان يرفع يده اليمنى بين أولة وأخرى ينتف بها شعرة من
شاربه ويلقي بها إلى الأرض . كان عايس الوجه متجهماً ، مسجور
العينين ، يحقد بهما كتور تنهياً للهجوم . ضمخ شعر رأسه وأبطيخه
بالسك ، وجبى الجوا أثناء سيره برائحة وحش يرى هاليع .

تعاثى النظر إلى يوسفآكي خوفاً من أن تغلبه عباراته على غير
إرادة منه . وألججه مباشرة حيث وقف في مكانه تحت شجرة السنار .
واقرب الحارس من بانايوتي . وأمسك به بكنتا يديه . ودفعه بوحشية
إلى الأرض ، فتدحرج عند قدمي الأثام . ووطئ الحارس جسده
السروحي الهلعد ليثبت على الأرض . وانظر ..
رفع الأثام يده . وأعلن على الملأ بصوت أبع :

- يا كفرة ! ساشق واحدا منكم كل يوم ، حتى تكشفوا لي عن القائل . كل القرية سيأخذ طريقها إلى هنا تحت شجرة السنار .
حبس يوسفالي في كفة ، والعالم كله في الكفة الأخرى . ساشق العالم كله ، يا كفرة .

احتجم غضبه ، وازداد هياجاً أثناء الكلام ، وضرب الأرض بقدميه على نحو ما يفعل الحصان . وتفرس القوم رجالاً ونساءً بعينين تفحصان من لغة لأبادتهم جميعاً . وفاجت رائحة من فمه وشعره وأبطيه .
توقف عن الكلام وبدأ يركل يانايوتي . ويطاء بقدميه . وغطى شفتيه زيد أصفر .

وصرخ فيه :

- هل أنت قائل يوسفالي أنها الكافر الدنس ؟ هل أنت قائله ؟ اعترف !

لم ينس يانايوتي بيت شفة وقنع بالآتين .

وتصيب الأغا عرفاً . وأحس بالتصيب . واستدار ناحية حارسه حين وصرخ .
- اشتغقه .

وفي تلك اللحظة دوى صوت يقول :

- انتظر ! انتظر ! أنا أعرف القائل !

وفج الحارس يده عن رتبة يانايوتي . ولدافع الناس ، وصرت بينهم سيحات فرحة . بينما استدار الأغا ناحية الصوت وصاح :

- من المملك ؟ ليتقدم ويبرئ نفسه .

تقدم مائولي في صدره شديد حيث وقف أمام الأغا . ووثب الحارس في مكانه وأدفع السمع . كانت ذقنه ترتجف ، وحلق لونه كليمونة صفراء .

وقال الأغا وقد أمسك بلذراع مائولي وهزه في هياج :

- هل أنت الذي تعرف القائل ؟

- نعم أعرفه .

- من هو ؟

- أنا .

وسرت هزة كبيرة بين القوم تتم من الفرح ، فقد أنواح المم عن قلوبهم . ووشمت النساء علامة الصليب . واشترقت الوجوه . واستردت المرأة أنفاسها . فقد قدر لها النجاة .

وصاح الأغا وهو يلوح بالسوط :

- امسكوا يا كفرة .

لوح ياناكوس بذراعه وهو يصيح :

- غير صحيح ! غير صحيح !

وصاح قسطندي وميشيل وهما يحاولان الاقتراب من الأغا . ولكن الجرح ألقت بنفسها فوقهم ، وكتمت أسوأهم :

- امداؤا . امداؤا . انه هو . انه هو . لا تقولوا شيئاً حتى ننجوا !

وشحك حين شحكة مججلة اهتل لها كياله . واندفع ليصك بمائولي ويضع الحبل حول رقبته . بيدان الأغا دفعه بعيداً عنه ، ودنا من مائول . وحلق في عينيه . . . وزار :

- هل هو أنت يا كافر ؟

- أنا .

- أنت قائله ؟

- أنا كما أقول لك . اشتغقي . أطلق سراح يانايوتي فإنه بريء . وحلق يانايوتي في مائولي بعينين واسعتين . فتح فمه : لم ألقه . كان هلعاً ، وأخس صوته . لم يدر شيئاً مما يدور حوله . . . هل مائولي هو القائل حقاً ؟

وصاح به صوت في أعماق نفسه : « لا ! لا ! مستحيل ! لو كان يفعل هذا ابتغاء نجاتي إذن فعليه اللعنة . فأنا لا أريد ذلك . »

حاول أن يشب ويصرخ . « لا أريد » ولكن الحارس أمسك بالسوط وصاح :

- كفى هذا يا كافر .

أتاق الأغا تماماً ، وتفرس في مائولي يحاول أن يفهم شيئاً . وقال :

— ولكن لماذا ؟ ماذا فعل بك ؟

— لم يفعل شيئاً يا أغا . ولكن الشيطان اغواني وحرمني على قتله . إذ بينما كنت غارقاً في نومي أثناء الليل سمعت صوتاً يقول لي « اقتله » . نزلت إلى القرية قبل الفجر وقتلته . لا سألتني عن شيء أكثر من ذلك . اشتقتني .

اندفع حسين نحوه والجعل في يده . أمسك بفراخ مانولي . وفي هذه اللحظة نادت من بين صفوف النساء صرخة مولولة :

— انه برىء يا أغا . لا تصبغ إلى كلامه . انه برىء ! برىء ! برىء !

ودوت صيحات من حول كالريتا :

— اخبرني يا عاهرة .

وقد اذقت النساء تحوها يردن كنم انفسها .

وساحت الأرملة :

— انه يدين نفسه لينتقل القرية ! إلا نأخذكم به رحمة ؟

ولكن النسوة كن قد طرحنها أرضاً ومضين يظانها بأقدامهن .

وجاهدت الأرملة لتخلص نفسها وهي تصيح :

— مانولي ! حبيبى مانولي !

وصاح الأصدقاء الثلاثة بدورهم بعد أن شقوا لأنفسهم طريقاً ووصلوا أمام الأغا .

— انه برىء ! برىء ! برىء !

وقال ميشيل :

— يا أغا أراهن براسي أن كان هذا الفتى هو القتال . انه راضى اغنامنا . وهو قديس بكل معنى الكلمة . فلا تمسه بسوء .

استبدت الحيرة بالأغا وهو يتفكر في مانولي . بينما الصيحات تفرع أذنيه . ثم تطلع إلى يوسف أكي ، فاحتدم الغضب في صدره ، وفقد صوابه . لم يعد يستبين شيئاً ، وأحس بدوار . وسأل نفسه وهو يحلق في مانولي : « هل هو قاتل ؟ أم مجنون ؟ أم قديس كما يقولون ؟ لياخذني الشيطان فلم أهد أدري من أمرى شيئاً ! »

تملكه الغضب . وجن جنونه . ثم استدار إلى حسين وأصدر إليه أمراً وهو يشير إلى مانولي :

— إلى السجن . سأنتقل قرارى غداً .

ثم وجه حديثه إلى الحشد :

— عليكم اللعنة يا كفرة . اغربوا عن وجهي .

ونفزع الجمع ، يتنازعهم شعور بالخوف والسرور . وتلاقى الجيران من النساء والرجال يتسائلون الرأي فيما شاعدهم من أحداث . ويشكرون الله أن عرفوا القاتل .

كان كل منهم يسأل الآخر :

— هل تظن انه مانولي ؟ ولكنه قديس حقاً ..

وأجاب آخر :

— لا تشغل اليال بذلك يا حنري . ماذا يهم أن كان هو أم غيره ؟ لقد اعترف وهذا يكفي . ميشنق ونجور نحن ، وهذا هو المهم . وما عدا ذلك ليس إلا ترهات لا تأبه لها . ليفر الله له .

— ولكن لماذا يدين نفسه ؟ أنا لا أفهم شيئاً . ليس هو القاتل يتقينا ، حتى وإن زعم ذلك ..

— أه ، مانولي . أنت لا تعرفه ، انه ملثام ، هذا المسكين ، تنزادى له أحياناً أوهام وخيالات . يزعم انه يفعل ذلك لينتقل القرية .. لا ، هل تصدق ذلك ؟ أبهك نفسه ليخلص غيره ؟ .. هل لو كانت لديه قوة من عقل كان يقدم على مثل هذا ؟ أبداً . ولكن دعه وشأنه أن كان هذا هو ما يريد به لنفسه .

والتقى الأصدقاء الثلاثة في بيت ميشيل . ظل بالاكوس يشرب رأسه بجمع يده .

— أنها غلطى ، غلطى أنا ! كم أنا أبله ! كان أولى بي أن اسمعه من النزول إلى القرية . كان أحقرى يتا لو لم نتيهه بشيء . ولكن هل كنت انصور ذلك ؟

وتعتم ميشيل :

— انه قدس يهب حياته فداء للقرية لينقذها .

وصاح قسطندي :

— يجب ان لنقذه . يجب . . . يجب .

وقال ميشيل :

— لو اني اوتيت القدرة على ان افعل ما فعله ماتولي ، لما رقت في ان ينقذني احد . . . ألم تر كيف كانت ميثاء للمعان ؟ وكيف كان وجهه مشرقاً ؟ كان كمن يسكن الفردوس . فلماذا نرده الى الأرض ثانية ؟ اينما نكون معه .

وصاح باناكوس في حماس :

— انما نستطيع ذلك . ليس علينا الا ان نذهب لثلاثنا الى الاله ونقول له اننا نسلنا ليلا الى بيته وقتلنا يوسوفاكي . وليشتقا جميعا ويعلقنا على شجرة السنار . عيا بنا نذهب جميعا الى الجنة الواحد في ال آخر .

وهو ميشيل رأسه وقال معترفاً :

— أنا لا اقوى على ذلك يا باناكوس . كيف لي ان اترك ماريوري ؟

وقال قسطندي :

— ولا أنا ، فلي زوجة والطفل .

وتردى باناكوس وتدير امره وقال لنفسه :

— ولا أنا ايضاً ، فلي حملي ولا أطيق البقاء منه !

ولكنه لم يصرخ بذات نفسه .

في هذه الاثناء كان الايمان الاربعة قائمين في السجن . مستدين ظهورهم الى الحائط في انتظار ما قد يجد . تكلموا بجوار بعضهم داخل الطابق السفلي ، ولم يكن في استطاعتهم وهم في هذا المكان الضيق ان يسموا شيئاً مما يدور في الخارج . وانسل شعاع ضوء كاهي من طاعة مستديرة في اعلى السقف .

وتأوه الشيخ بطرياركاس :

— اتي جالغ . .

وقال القسيس جرجوريوس :

— كلنا جوعى وقمداً ولكن يجب ان ندخل التجربة بفسير وجلد .
الله معنا في عرين السباع . لقوا بالله .

لم استدلوا الي من يجواره وقال :

— لنسجع يا اب لاباس . عا أنت ترى الآن انني كنت على حق ؟
لم من مرة قلت لك : « لماذا تكثر الأموال يا شيخ لاداس ؟ لي تأخذ مراثيت مملكت الى القبر . افعل خيراً : فالخير وحده هو الباقي لك حتى يوم الحساب ، وهو شفيعك امام الله . ما رايتك الآن ؟ الا ناسي على اذناك ؟ »

وتهد الشيخ لاداس . وادار رأساً طويلاً كرأس طائر تنفد ريشه ، وحج ناطر المدرسة بنظرة كلها كراهية ، ولكن دون ان يلبس بكلمة .

وقال القسيس جرجوريوس :

— موعظك قد يا شيخ لاداس . ستعمل بين يدي الله غدا . يجب ان تعترف . ارفع ويدك كل ما اقترفت من آثام . واسأل الله الصفح والامعان . لا زالت املك شحنة من الوقت .

واجاب الشيخ لاداس الذي بدا عليه الهم :

— لم اقترف العا في حق احد ، كما لم افعل خيراً لاحد . لم افعل احداً . أنا بريء .

وصاح الشيخ بطرياركاس :

— ألم تقترف العا في حق احد يا شيخ لاداس ؟ سامشي كل اسرارك ايها البخل العجوز في هذه اللحظة التي تلف فيها على حانة القبر ، ان لم اعد اطيعك كتماتها . لم ترتكب العا في حق احد ، عه ؟ من الذي باع بيت الأرملة اريتا ؟ ومن الذي باع كومة العجوز استي ؟ من الذي عرسها في الزاد ؟ واليتاني الذين يهدسون على وجوههم الآن يتسولون في الطرقات . من الذي دفعني الى هذا السبيل ؟ وابنتك ارجيرولا التي هي من دمك وعينك . من تسبب لي موتها ؟ أنت ، أنت نفسك ، بسبب بخلك ومسعارك ! اذهب اليوم لتقتل بين يدي الله يحاسبك وترد ما عليك من ديون ! .

جن جنون الشيخ لاداس ، ودبت فيه الحياة من جديد ، وابتعد بظهره عن الحائط . وقال بصوت كانه الصرير :

— نرى القشة التي في عين اخيك ولا ترى القشة التي في عينك . هل بلغت بسيادتكم الجرة الى حد اتهام الآخرين ؟ ولكن للأسف ،

لو سمحت لتفسي أن أشتر عسيك القدر فلن أنته من ذلك غدا . ماذا فعلت أنت في حياتك على الأرض إنها الخنزير النبيل ! أكلت على نحو ما يأكل الغول ، وشربت كالكعب في قرية متقوية ، واغتصبت النساء وملأت القرية بأبناء السفاح . وكذلك فعلت في القرى المجاورة . قضيت حياتك تبيلا كسولا ، لتعاون مع الأثراك ، لتداهنهم وتذلهم وتقدم لهم فروش الولاء والطاعة . الأحيان والقساوسة بل والأساقفة يوددون لكهم إلى الأثراك وكنتم يدا لهم . زوجك أنت ، وقد كانت زوجة قديسة ، الست أنت الذي قصفت صومها ! ضاقت ذمرا بنزواتك وملاحقتك للنساء . أنت الذي سقتنا إلى حقننا ، تلك المسكنة . وهب الشيخ بطرياركاس واقفا : حاول أن يمسك بتلابيب لاداس ، ولكن تدخل زميلاهما ويأخذا بينهما .

تأثرت ثائرة الشيخ لاداس . اعتاد طوال حياته أن يترك الناس يقول عنه ما يشاء ، ويصمت هو ، ويتظاهر بالقباه . فقد دل هو الآخر للأثراك ، وقدم لهم فروش الولاء والطاعة ، ويقول على الناس وكذب ، كل هذا ليتودد إلى أصحاب السلطان . ولكنه الآن يقف أمام الموت وينفجر . أراد أن يفشي بكل شيء ، أن يفيء كل ما يشاء في حياته . ويثأر لنفسه ، ويبطل دعوهم أنهم خير منه . لذلك فقد قال ما قال وأصيا به حامدا متعمدا . إذن ليوضح كل بدءاتهم ، وأي بأس في ذلك ؟ هل به حاجة إليهم بعد اليوم ؟

واستدار ناحية القسيس جريجوريس وبدأ صوته يصغر :

- وأنت أيها القسيس العتيق ، يا من تطالبنا بأن نعرف على يديك . حدثني بأي وجه ستتمثل بين يدي الله ؟ تروح ونجى بين القرية مزها مختلا كالديك . وقد استكم أيضا تأكلون بينهم كأي شرم مسخور ، وإذا طرقت مسكنين بابك وأنت جالس إلى طمسانك تحس كرسبك ، فإني نجيبه بصوت يدوب خلوة ووداعة : « حن الله علينا يا أخى ، فإني جائع مثلك » . كل ذلك بينما الدمس يقطر فوق شعر لحيتك التي تشبه لحية القيس ! الويل كل الويل للمسكين الذي نوافيه منبته ولا يملك ما يدفعه أجر دفنه : نتركه في الغراء حتى يتعفن . دائما يدك ممدودة تبيع المسيح بشمن غال ، مبلغ وقدره كذا نظير المباركة ، ومبلغ وقدره كذا أجر التعميد ، مبلغ وقدره كذا لقاء عقد القران ، مبلغ وقدره كذا أجر التناول . بل وصل بك الأمر إلى حد أن سلكت سلوك الموابين ووضعت تمرغرة لدخول الجنة يا مصاص الدماء : « يا رعابا

ادفعوا والا فلن تدخروا » يا لوقاحة حين تطالب الاعتراف من الشيخ لاداس ، هذا الرجل القديس الذي عاش حياته جائعا ، محروما من لاس نبيذ يشتهي ، مهمل الثياب ، حافي القدمين ، خاوي البطن كأنه رسول حقيقي . هذا هو أنا - هل رأيت ؟ ثم تطالبني أنا بأن اعترف لك أنت أيها البطان .

كان القسيس جريجوريس ينصت له منكرا رأسه في تواضع مسبح زائف ، بينما كان الغضب يطرطم في صدره . كان يود لو استطاع أن يلقى ذلك العنق اليابس . يرى أين كانت نغمه هذه الجبقة كل ذلك الحق لا إذن هذه هي سريره التي كان يشمرها طوال تلك الأعوام . هذا الكرية المعجوز . ها هو الآن يفيء ما في نفسه ويغضخ دخيلته .

ولضع الحيرة وقال :

- استمر ، استمر يا عزيزي لاداس . عانى المسيح أكثر مما أعاني أنا الآثم المسكين . منحروا به واغتربوه وجلدوه وصليوه ولم يشك . فهل لي أن أشكو أنا ؟ استمر ، استمر يا عزيزي لاداس .

لم يكده الشيخ لاداس بهم يفتح فمه حتى تدخل ناظر المدرسة صالحا :

- عار علينا يا أخوتي . لم يبق من عمرنا غير سويغات وإذا بنا تقصينا في الحديث عن شئون الدنيا والآخرة بدلا من أن نتوجه بأرواحنا إلى الله . اهدأ يا شيخ لاداس ، أفضيت بكل ما في قلبك ، وحسبك ما قلت . اهدأوا يا أخوتي واقلموا عن المازعة . أن خطايا البشر بغير حدود .

وضحك الشيخ لاداس تهكما وقال :

- أيها الناظر النعس ، ماذا عساي أن أقول لك ؟ النظافة والقدارة عندك سواء . لست واسع الحيلة وراجح العقل ، ومن لم فالك لا تقوى إلا على عمل الموزر اليسير خيرا كان أم شرا . أحييت أن تقدم خيرا كثيرا يا صديقي المسكين ولكنك عجوز . وأحييت أن تقترف شرا كبيرا ولكنك عجوز أيضا . لا شيء سوى تفاهاات لا يؤبه لها . لك روح تاجر وضيع . تبيع بشمن بخس الألوام والطباشير والورق الشفاف والكراسات . ناظر مدرسة وكفى . هذا هو أنت - كنت أيضا تبيع الطباشير كمن يبيع الجبن - كلمات طنانة جوفاء تؤمن بها احتفظ بها لنفسك .

كان يتعجل أن يقول كل شيء ويربح نفسه . فاستدار إلى الياقين :

وعوى والغضب في عيته :

— مالي أراك تنظر الى عابس الوجه ؟ حاق الفعل السيء بأهله ..
وها أنت حاولت أن تنسي الى قارند السيف الى تحرك . ولعل في ذلك
عبرة لك .

رفع القسيس جرجوريس عينيه وأومأ الى الشيخ بطرياركاس وقال :
— لا ترد عليه .

تكلم رئيس الاميان فيظه وازم الصمت .

وهب ناظر المدرسة واقفا اذ سمع وقع خطوات تقترب . جمد الدم
في عروقه ، وثمت قائلا :
— ها هم ..

استدار القسيس جرجوريس الى الشيخ لاداس وبسط اليه
يده بباركه . وقال بصوت وفور :

— ليفر الله لك يا اخي . ليفر لك كل ما تقوهت به . افرغت كل
ما في نفسك من قذى وتخلصت منه . وها أنت ايها النعس قد اعترفت
عن غير قصد منك . ليفر الله لك كل ما تقدم من ذنبك . انهض ياشيخ
لاداس . حان دورك . وهذا موعدك .

ولكن الشيخ لاداس خر الى الأرض منهرا وجسده ينتفض .

تردد صوت سباب وصياح ووطء بالأقدام . ودفع الحارس الباب
بمكتبه ففتح على مصراعيه ، ولقد ببنايوتي وماتولي الى داخل الزنزانة
بقوة حتى انهما ارتطما بالجدار . ثم اطلق الباب .

وصاح بطرياركاس :

— ماتولي !! .. ماذا جاء بك الى هنا ؟ لماذا أتوا بك ؟
وقال ناظر المدرسة :

— ألا زلت حيا يا بنايوتي ؟ ألم يشنوك ؟ حمدا لله .
وجار بنايوتي وهو يغطو ناحية الزكن الذي يقع فيه :
— لا زالت حيا . لمن الله من كان سبيا في ذلك .

ودفع الشيخ لاداس عينيه وحمل بقوة في بنايوتي ، وسد يده
بشحمه .

— ألا زلت حيا حقا ؟ لماذا لم يشنوك ؟ هل أسف الأبا على ما فعل ؟
هل غير رأيه ؟

كان قلبه يخفق بقوة حتى كاد يتصدع وهو يطرح أسئلته .
ولم يجب عليه احد .

وقال القسيس جرجوريس :

— اسئلق يا ماتولي حتى تسترد أنفاسك .

وطلب منه العمدة بطرياركاس بصيغة أمره :

— حدثنا يا ماتولي ، فلم نعد نطبق الانتظار . هسل عتروا على
الأساقفة ؟

وأجاب ماتولي :

— نعم ، عتروا عليه .

وصاح الأربعة بصوت واحد ، وقد لدافوا نحوه :

— من ؟ من ؟ من ؟

وأجاب ماتولي :

— أنا .

— أنت ؟

وجعل الأربعة ، وتراجعوا الى الوداد محملتين في ماتولي ، فانوين
أخواهم . وخيم عليهم الصمت لفترة طويلة .

وصاح الشيخ بطرياركاس أخيرا بعد أن استمرض في رأسه
حياته ماتولي :

— مستحيل ! مستحيل ! لا ، هذه نهاية العالم !

وقال ناظر المدرسة :

— أنا أيضا لا أصدق . لماذا قتله ؟ هل تستطيع أن تقتل يا ماتولي ؟
لا ، أبدا ، أنت لا تستطيع ذلك .

كان القسيس جرجوريس هو الوحيد الذي ظل يتطلع الى ماتولي
دون أن يتيس بكلمة .

وسأله بطريرك اس:

- لماذا لا تجيب يا ماثولي؟

وقال ماثولي وهو يمسح العرق الذي تصب من جبينه:

- أجييب من أي شيء يا سيدي؟ أنا القتال وليس عندي ما أقوله غير هذا. ليس في ذلك الكفاية؟

وصاح الشيخ لاداس:

- نعم، حينئذ هذا يا ولدي! عشروا على القتال ونجونا نحن.
إن الله موجود.

زحف ماثولي حيث جلس تحت شعاع الضوء الذي ينسل من الكوة. وأخرج الإنجيل من جيب سترته وفتحه كيفما اتفق وبدأ يقرأ. ونسى كل ما حوله. دخل السفينة مع المسيح، واندس بين الرسل، وأبحروا فوق بحيرة جينيسارت. ومع المساء هبت ريح هوجاء. وكان المسيح متعباً، إذ قضى سحابة نهاره يعلم الجموع. فاستلقى على الشباك عند مؤخر السفينة ونام. ولكن ريح الشمال هبت عيفة عابية أكثر وأكثر. كانت تهب من فوق جبال جيلاد، ترتطم بمساء البحيرة، وهاجت الأمواج، وبدأت تطرب السفينة الصغيرة في ثورة وغضب. وتملك الهلع تلاميذ المسيح. كانوا يتمتمون قائلين:

- أنا هالكون! أنا هالكون! لو كان السيد يستيقظ. ولكن لم يجسر أحدهم على أن يقطع النوم المقدس. واقترب منه بطرس، واتحنى فوقه، وتطلع إليه على ضوء وميض البرق، فإذا وجه المسيح هادي، سعيد مبسم.

تجمع التلاميذ خلف بطرس وصاحوا به:

- ايقظ! ايقظ!

استجمع بطرس شجاعته، ومد يده، ومسى كتف المسيح في رفق. وقال:

- يا سيد، نحن غافنا هالكون.

فتح المسيح عينيه، وتطلع إلى تلاميذه وهم يرتعدون قرقاً. هرأسه وقال لهم في مراة:

- بعد كل هذا الوقت بينكم ولازلتم لا تؤمنون بي.

وتهدأ، ونفض من لومه، ووقف عند مؤخر السفينة، ورفع رأسه، وانتهر الرياح قائلاً:

- اهتدي.

وأشار إلى البحيرة الهالجة وقال:

- اسكني.

وأصار هدوء عظيم. هدأت الريح، وسكنت الأمواج، وسطعت النجوم ليلية، وعاد الوجود بسلام المحيا.

هر ماثولي رأسه وحديق في رفاقته الخمسة. كانت عيناه الزرقاوان براقتين فرحتين هائلتين مثل مياه بحيرة جينيسارت.

بدأت الحياة تلعب من جديد في الأب لاداس. ها هوذا يقف الآن على قدميه، يروح ويغدو، ويفرك يديه ببعضهما سعيداً.

- «حدا لله أن عشروا على القتال ونجونا نحن». مسكين أنت يا ماثولي. أنا حزين عليك ولكن أيا كان الحال فليس الأمر شراً إلى هذا الحد. فانت فقير معدم خادم. ثم لا زلت حدثاً. لم تلق حلوة الحياة بعد. فلا بأس أن تقيت حنكك. إنه لمن حسن الحظ أن اعترفت أنت ونجوت أنا.»

وقف في مكانه، ونظر بظرف عينيهِ إلى رفاقته. وزم شفتيه. وحدث نفسه قائلاً:

- كيف لي بحق الشيطان أن أصليح ما بيني وبينهم؟ كيف لي وقد نجوت أن أصليح ما بيني وبين هذا القسيس التيس، وبطريرك اس اللعين الذي دعوته بالخزير النيبيل؟ أما عن ناظر المدرسة فأنا لا أعيا به. ولكن ماذا عن الآخرين لقد تسرعت وسبق السيوف العذل، ولكن لازالت هناك فرصة. ومن حسن الحظ أنني نجوت.

كان الشيخ بطريرك اس يحسك في ماثولي الذي انكب على قراءة الإنجيل. كان متعباً من أمره. ومال على القسيس وعمس قائلاً:

- يا أبانا، عندي فكرة.

أدرك القسيس جريجوريس ما يعنيه، وتنحنج ثم قال:

— لا تسأل عن شيء يا معلم — مع الأمور تجري كما يشاء لها الرب .

— ولكن ماذا لو كان يريثا ؟ ماذا لو كان فعل هذا من أجل خلاص البشرية ؟ هل سره وشأنه ؟ أليست هذه خطبة ؟ هل تتحدث وزير ذلك ؟

وقال القسيس :

— إن الله غفور رحيم — سيغفر لي خطيائي .

— قد يغفر لك الله ، ولكن ماذا عن الناس ؟

قال القسيس وهو يفتح مناقفا :

— إذا كان ما بيني وبين الله عمار فلا يعطيني أمر البشر .

— ثم ...

وتدبّل ناظر المدرسة الذي كان قد دنا منهما واستمع إلى حديثهما ، فاقفأ قوله :

— لا داعي لأن نرحل أنفسنا بالبحث في ذلك ، ولندع الأمور للخالق ... فكل شيء بمشيئته ... ثم يجب ألا ننسى أن مانويل يخلص روحه أيضا ، وهذا شيء له قيمته بكل تأكيد .

وزايد القسيس على ناظر المدرسة فقال :

— بل هذا أقيم شيء ، سيخسر الحياة الدليبا ويكسب الحياة الأخرة ... مثل ذلك كمثل من يعطي مليشا من النقاش ويجزى عنه مليوناً من الاحتياجات ذهباً ... لا تجزع ، فإن مانويل يعرف جيدا ما هو مقدم عليه .

وقال ناظر المدرسة وهو ينظر إلى مانويل مبتسما :

— إنه فرد ذكي حقا .

ورفع مانويل عينيه عن على الانجيل ، وكان وجهه وضاه مشرقا . وفي هذه اللحظة دخل الحارس حسين واتقن عليه ، وأمسك بتلابيبه .

وصاح به :

— تعال هنا يا كافر ، ألافا يريد أن يراك .

وقمت مانويل :

— باسم المسيح .

كان الألفا في حجرته متريعا فوق حشية ، يدخن غليونته الطويل ، يوسفواكي مسجى بجواره ، الوعت طيسرا ، والخبر هجير ، وجشة يوسفواكي بدأت تفوح منها رائحة العفن ... دخلت مارينا الحدياء إلى الحجرة في مسكون ، فمناظرة حسنة من الورد والياسمين وذعر العسل . القف بحلها كومة واحدة فوق الحشة التي بدأت تتعطل ، ثم ولت مسرعة ، إذ لم تقو على تحمل الرائحة .

كان الألفا غارقا في حزنه ، فلم يشم الرائحة ، يدخن غليونته شاردا الفكر في فاعل عميق ، مكتوبا ، ساكنا ، لا يفتأ يردد منذ الصباح قوله : « قددر مكتوب ... قددر مكتوب ... » والتبس في تأمله هذا عزاء هذا من روعه . « ألقى بمستولية خطايا البشر على الله ، وإرتاح لذلك » وهل لنا أن نعبرس على الله ؟ هكذا أراد ، وهكذا كتب علينا في لوحة المخفوظ . فما من شيء يحدث إلا ياذله . ليس لنا إلا أن نكسك الرأس خصوعا ، وضمت اذعانا ... أليس هو الذي كتب منذ الأزل أن يلتقي أفا ليكوفريسي بيوسفواكي في سميونا ؟ أليس هو الذي قدر في سابق عليه من الذي سيفعل بيوسفواكي ؟ أليس هو الذي كتب في لوحة المخفوظ أن يعتر على القائل : « كل شيء مكتوب علينا » .

أبصر مانويل بدخل ، فوضع غليونته على الصحح الذي كان جالسا عليه ، ثم عقد ذراعيه .

وقال في هدوء :

— اصنع جيدا يا مانويل إلى ما ساقوله لك الآن .

ثم التفت إلى حارسه وقال :

— ليس بي حاجة اليك الآن ، انتظر خارج الباب .

— رأيت في منامي الليلة أنك لست قاتل حبيبي يوسفواكي ... أسكت يا كافر ، دعني أتكلم أنا ... أنت أقدمت على ذلك لكي تطمس الغوية ... لا بد أنك قدريس أو محبون ... ولكن هذا شأنك ... ثم إن كل شيء سيتم حسب ما أردت ، سانشقك ، ولكن ثمة شيئا واحدا أريد أن أعرفه يا مانويل : هل حقا أنت الذي قتلت غلامي يوسفواكي ؟

استشعر مانويل أمي لحال الألفا ، لم يسبق له أن رأى حزنا كهذا . لم يعد الألفا ذلك الوحش الكاسر الهائج ، أماله الحزن الساسا ، وتردد لحظة ، ولكنه سرعان ما نمائك نفسه ورفع رأسه وقال :

- يا ألما ، إنه الشيطان الذي حرصنى على فعلنى . فخر مكتوب على
أن أكون أنا قاتله .

أسند الألما ظهره إلى الحائط وأغمض عينيه . ولم يسمع :

- الله .. الله .. العالم حلم . أصبحت يتما .

وفتح عينيه . وصفق يديه . ودخل حسين . فقال له :

- خذ . اسلفه على شجرة السمار ساعة العروب .



فى هذه الأثناء كان الزقاق الثلاثة . ميشيل وقسطندى وياكوس
يطوفون بيوت القرية ، يطرقون أبوابها ، ويتوسلون إلى أهلها ألا يدعوا
بريتا يلقى حتفه .

طل ياكوس يصبح قائلاً :

- مانولى برى .. برى ! انه يفعل هذا انتفاء خلاص القرية .

ورد عليه عجوز من رجال القرية :

- حسن . ماذا تريد منا أن نفعل . اذهب إلى الألما وقل له ان مانولى
ليس هو المقاتل .. ولكن ماذا منحت بعد ذلك ؟ سبيدا الألما فى شبق
أهل القرية الواحد بعد الآخر حتى يغنى القرية عن آخرها . ومن ثم يلقى
آلاف من الأبرياء حتفهم بدلا من برى واحد .. هل هذا عدل ؟ وهل فى
ذلك خير لنا ؟ اليس من الخير أن يموت واحد فقط بدلا من آلاف ؟ فضلا
عن أنه هو الذى أراد ذلك لنفسه . دفع يموت لتنجو نحن وأطفالنا ثم
تصنع له بعد ذلك القبوة نقى حولها التسويع وتمجده كقدس . أما
الآن ليلقى ميتته أولا .

وتحدث رب أسرة كبيرة إلى ميشيل . وسأله فى صبح :

- أيها السيد الشاب . هل لك أطفال ؟

- لا .

- حسن . إذن ليس لك أن تكلم ودعنا فى سلام .

ولتقت إلى ياكوس امرأة عجوز تهدهد حفيدها فوق ركبتيها .
وقالت :

- مالى أراك تلح هكذا يا ياكوس ؟ ليست ألف مانولى فداء حفيدى .

وسمع ياكوس عينيه وقال فى حمرة :

- انهم وحوش كواسر ، ذئاب ولعالب .

واجاب ميشيل :

- لا ، ليسوا وحوشا كواسر يا ياكوس . بل هم بشر وكفى ..

حيا بنا لا تريد أن تضيق وقتنا ولكن مشيتة الله .

واستاء ياكوس لذلك فقال :

- أنت تفكر فى أهلك . إذ سبغت الشيخ بهذه الطريقة .

نظر ميشيل إليه بعينين دامعتين .

وصاح ياكوس :

- آسف يا ميشيل . لم أجد أدنى ما أقول .

وما أن بلغا الميدان حتى أبطأ كاترينا فى أجمل زيتها . كانت
قد غسلت شعرها من فورها . وارتدت أحسن لباسها . خلت اليهما كأنها
بخت ملكى تأسر شراة يمدح عباب البحر بأقصى سرعته .

وسألها ياكوس :

- إلى أين يا كاترينا ؟

وصاحت الأرملة مولولة وقد فاضت عينها بالدمع :

- يا جيناه . هل ستفركون مانولى فريسة للموت . أنا لن أفعل

مثلكم . سادع لاقابل الألما .

وصرخ قسطندى :

- الألما ؟ ماذا تريد منة ؟ هل تتوون العودة إلى مضاجعتي ؟ بدأت

تحبني إلى عشاقك القدامى ؟

وقال ياكوس :

- حتى أنت يا كاترينا . ذهب الحزن يعقلك .. اذهبي إليه وافعل

ما تقدرين عليه .. وعاك الله ..

وقال قسطندى الذى أسف لسخرته بها :

- ولكن قد يفتك الألما وهو فى سيرة غضبه . أرجى يا عزيزتى

المسكنة كاترينا ..

وردت الأرملة :

- سلمت الحياة - حسبى أن أخلص مائوثى .

ثم السلت الأرملة داخل فناء بيت الأغا وغابت عن الانظار .

وتتمت ميشيل حين أبصرها تدخل بيت الأغا مرفوعة الرأس . وقد كان الباب مفتوحا على مصراعيه .

- انها خير منا جميعا ..

كان البحر حاراً ، والزمن قليلاً ، وابيعت من الغاعة الكبيرة رائحة خائفة لفوج من الزهور والجنة المتحللة .. أسند الأغا رأسه الى السرير المعدني الصغير وراح فى ميته . كان ينسم وهو نائم . لابد أنه يحلم ، تتراعى له مأساته كابوسا عابرا . وسيجد نفسه فى صحراء جالسا فى شرفته وبجابه يوسفواكى يملأ له كأس العرقى ..

وتمة حسانان تجومان فوق الشرفة . ثلثيان وتقبلان بعضهم بعضا يتقاربهما ثم تهدلان . يتردد مدبلهما فى سمع الأغا وهو نائم فيقسم . وفى الفناء من تحتها كان الصنوبر مفتوحا ينساب منه الماء فتسمع لصوته خريرا . والكلب بأسط ذراعيه بالوصيد فوق الحجارة يلهث . وقط أسود كبير سمين . لاذ بالظل وغيداء الفطراوان للبعان فى سحر وقلق .

اجتازت كاترينا الفناء بسرعة حافظة خشية أن يلمحها الحارس أو أن يكشف سرها نباح الكلب . ولكن الحارس لم يلمحها . والكلب شم رائحتها فنعرف عليها . ومن ذنبه راضيا مرحبا . والنقطة الأرملة انطاسها . وأحسّت برائحة غريبة مفرقة تسمك بغناها . فالتجو عين برائحة عطرية وكريمة مما .. كانت كاترينا تعرف مداخل البيت ومخارجة جيدا . فكم من مرة فتحت لها مارتا الباب خلسة أثناء الليل وقتما كان الأغا لا زال وحيدا . كان هذا قبل رحلته الى سميرنا . تلك الرحلة التي عثر فيها على حبيبته يوسفواكى فى سبي تركى . رأى يوسفواكى جالسا فوق مقعد صغير مضمم بالصدف وسط مقهى ويغنى أغاني أمات . وما أن وقعت عليه عينا الأغا حتى فقد صوابه . ومنذ تلك اللحظة لم يتركها تماما . ولم يعد لها مكان فى قلبه . وكثيرا ما حاول الحارس أن يذكره بالأرملة . ولكن الأغا كان يضحك من كلامه . وذات يوم قال له . أيها العجوز الطيب يحكى أن الباشا دعا ذات يوم أحد أسدقائه ليكون له نديما فى شرب العرقى . ولم يقدم له مرة سوى الماء به زيتون وكأس يه كافيار . وإذا بالصديق لا يأكل غير الكافيار . ولم يغرب الزيتون . فقال

له الباشا : كل زيتونا أيضا يا سعادة السيّد . وأجاب الصديق : الكافيار لا يدايه شيء يا سعادة الباشا . وأنا مولع به حيا . حل دوت يا حسين ؟ حبيبي يوسفواكى هو الكافيار .. وأمسك الحارس مائة لسانه . ولم يذكر له الأرملة منذ ذلك اليوم .

كانت كاترينا قد اجتازت الفناء ودخلت الى البيت . وتوجست حياء : المرأة الكبيرة والحشاييا والكراس المبطنة والمفاتيح النحاسية الضخمة والأريكة . كلها كانت عددا للأغا . نفس فيها عن غضبه وأحالتها الى خطايا .

وسرت فى جسدها رعدة . وحدثت نفسها قائلة :

- هكذا فعل بابايوتى أيضا من أجل ..

سمعت وقع خطوات . فتوارت خلف خشية نهضة . ظهر الحارس عند الباب - أصبح شبحا حقيقيا - تعقست وجنتاه . وغارت عيناه فى محجربها . وسأل لعابه من بين شفتيه . توفقت هنيئة وثقلت حوله دون أن يعي شيئا مما براه . وتنهت ثم خرج الى الفناء يترايح . قيع بجوار الكلب وأجهش بالبكاء .

وشمت الأرملة علامة الصليب . وتمتمت قائلة :

- يسوع ربى . أنت وحدك من يفهم المرأة ويعفر لها كل خطاياها . عا أنتا مهياة لكى أمثل بين يديك . كانت قد استنجحت وارتدت أحسن ثيابها وضمخت شعرها بماء الورد .. وعادت لتتمتع . يسوع ربى هالانقا مهياة ...

- كاترينا يا عزيزتى . ماذا تفعلين هنا ؟ عدّدين من فورك الى بيتك . ماذا تريدن يا منكودة الحظ ؟

استدارت الأرملة فرأت مارتا متباطلة خزمة زهور ونهم بالصعود الى الحجرة . كانت شاحبة الوجه . شعثاء الشعر .

فكالت الأرملة :

- مارتا . أريد أن أرى الأنا ..

- التحسين على ذلك ودم يوسفواكى لم يجب بعد .. انه سيقتطع أربا أربا أيتها النسوة .

وعادت الأرملة تقول :

- مارثا ، أريد أن أرى الأغا .. أريد أن أفضي إليه بسر خطير .
فأنا أعرف القاتل .

وضحكت العبداء المعجوز في تهكم وقالت :

- مانولى ؟

- لا ، إنه شخص آخر سواء .. ستعرفين فيما بعد ما يقتصر له
بذلك ..

حطت العبداء المعجوز حزمة الزهور فوق الدرج وصعدت إلى حبت
تلقب الأرملة ، وضمت على قدميها .

وقالت لها حمسا ، وعيناها يوحى فيهما يريق :

- من ؟ هل شككت فيه أنت أيضا ؟ وأنا أيضا .. وأنا أيضا .

وقالت الأرملة وقد أسلط في يدها :

- من ؟

تفرست المعجوز في وجهها ، وحرزت رأسها ، وانحنت على الدرج
ورفعت حزمة الزهور ، وقالت :

- لا شيء . أنا لم أقل شيئا .. سأذهب لأضع الزهور فوق هذا
الغلام اللعين . بدأ يحتل . ليأخذ الشيطان !

وبصقت على الأرض إذ أحسست بحرق . وفجأة انجر ما في نفسها
من حقد وضغينة :

- وانت أيضا يا جميلتي ستأكلك العبداء . وأنا مثلك . لك أن
تزهي ما شاء لك ذلك . فكلنا سواء .

وتردد في القاعة صوت دوى غليظ سمعت بعده صيحة غاضبة .

- من هناك تحت ؟ مع من تتكلمين أينها العبداء المعجوز ؟ اخرسى .

انكمشت المعجوز العبداء بينما تقدمت الأرملة في جراءة ترتقي الدرج .

- أنا كاترينا يا أغا .

ولول الأغا

- يا عاهرة . اخرجي من هنا .

ولكن الأرملة أفرغت عن كلامه وارقت الدرج في هدوء .

ونادتها العبداء حمسا من تحت الدرج :

- يا كلبية ألا تخافين ؟

هرزت لها كاترينا كتفيها وواصلت سيرها ترتقي الدرج . وفجأة
أصرها الأغا قبائلته .

ألتفت الأرملة بنفسها عند قدميه وصاحت به :

- عفوك يا أغا ، عفوك !

ركلها الأغا في جنون ، فالتفتت على بطنها ثم انقضت عليها ليلقى بها
من فوق الدرج . ولكن الأرملة استكبت بحاجز السلم وبطنها إلى الأرض
راحت تصرخ :

- اسمعني يا أغا . لم أعد أطيق كتمان السر . أتيت لأرسلني عند
قدميك . يا أغا أنا التي قتلته !

جار الأغا .

- أنت ؟ أهو أنت يا عاهرة ؟

واستدار . عيناها تطوفان فوق الجدران بحثا عن سيفه :

- أنا يا أغا . أنا ، كم أنا شقية . أنا الذي قتلته بدافع الحب ..
والغيرة .. كنت أغار منه . منة أن وطئت قدماء قصرك وأنت متصرف
عني لا تنظر إل . لم تعد ترسل مارثا تدعوني إليك .. كنت أيتي ..
استأني السلم .. كنت أقف خلف بابي أنا ، الليليل وأطراف النهار
انتظر .. ولا شيء .. لا شيء اليه . سلا يوسوفاكي عليك حياتك
وليسيتي .. قصعت العرافين على اختلاف شاكلتهم التمس منهم العون ..
وذاث ليلة استعنت بشيء من السحر ووضعت عند عتبة بابك وانتظرت
.. ولكن عينا . يوسوفاكي ملا عليك حياتك وليسيتي .. أنا يامن أحبيتك
كتسيرا وأحرقتنى نار الوجد ، وأكلتنى جحيم الغيرة حتى أذهبت عقلي ..
وعندما انتصفت الليل استلكت سكيناً ..

وزحفت على بطنها حتى دنت من قدمي الأغا . ولتمضتنتها .
ورمات تعول :

- يا أغا ، أقتلني يا أغا ؟ ما جدوى الحياة لي ؟ أقتلني !

كان الآن لا زال يبحث بعينيه فوق الجدران عن سيفه دون جدوى .
بدأ البيت يدور أمامه ، ولما استعياها فلم يعد يستطيع شينا .

واستلقت الأرملة سكينها من داخل صندوقها ، واعتصمت لتجتو على
ركبتها ، وقالت :

— ها هي يا أبا السكين التي قتلته بها .. ثم عادت تقول وقد
كشفت عن نحرها :

— ها هي ، بهذه السكين يا أبا .

تدافع الدم إلى رأس الأبا ، واحمرت عيناه ، واستدار فوق بصره
على يوسوفاكي مسجى خلفه فوق السرير . أصفر ، مفتوح العينين فأغرا
فاه ، وذباب ضخم فيه سواد وذرفة خط على شفتيه ، يدخل ويخرج من
فمه ومنخاريه .

عاد ينتظر أمامه فأبصر الأرملة ، فالتفت عليها ، وأمسك بالسكين
التي كانت في يدها تناولها له ، ولوح بها في الهواء ، ثم بقعته واحدة
فخرس نصلها في قلبها حتى مقبضها . ثم ركلها بقدمه فتدحرجت فوق
الدراج من أعلاه إلى أسفله .



الصَّرِيقُ الصَّاعِدُ

أثار دم الأرملة تأثيراً الأبا من جديد . فقد رأى لونا أحمر ، وطارير
الدم إلى رأسه فعضه . واستيقظت في نفسه رغبته الأولى في ذبح أهل
الغربة جميعا ، رجلا وإنساء ، حول الجنة التي كان يهيم بصاحبها عشقا
وأزدهو فتبلا . أمسك بالسكين ثانية والدم يغطي ذراعه حتى مرفقه .
ونادى حسينا .

— انزل إلى الزنزانة واقبض على مائول . سلفه أمامك إلى شجرة
النسار . وانفع في النفر وادع الكفرة ليحيطوا المشهد! أحضر يوسوفاكي
تحت شجرة النسار حتى يعاين المشهد أيضا .. أشفق هذا السافل سواء
أكان هو القاتل أم لا . آتني السود ، سأزول اليهم بنفسى أعظم عظامهم
لأشفي غليل ! ربما أشفق الخمسة جميعهم هذا المساء ، الواحد بعد الآخر .
مدنين كانوا أم غير مدنين ، ولكن سأشتقهم جميعا . لماذا يقولون على فيه
الحياة وحسبي يوسوفاكي ممدد هناك قتلا ؟ أسرع .

وفاضت عينا الأبا بالدمع ثانية . واستدار ، ووضع السكين الملتصقة
بالدم بين الزهور فوق حنة يوسوفاكي . وقال :

— خذها معك يا حبيبي يوسوفاكي . ثم أقم إلى جانيه . وانكأ على
السرير المعدني الصغير . وبدأ يدخن . أشفق عينيه . وطاقت بمخيلته
حقول وجبال وقرى . تراءى له أنه اتخذ طريقه من جديد في رحلة من
ليكوفرسي إلى سميرنا . حيناً راكبا غربة . وحيناً متعلقا صهوة نعلته .

وحينما على ظهر تلك الآلة الشيطانية التي ألى إليها القرينة ، عليهم
اللعنة جميعا . وفجأة حدثت معجزة ذات صباح : قصور وأسواق وجوامع
وبشر يصعدون بالآلاف ، وبموسيقى وجدان وأبحر ! لم اخشى كل شيء .
لم يبق سوى مقهى نطل على الشاطئ . أبوابها مفتوحة ، والجو حار .
والشمس تاذن بالغبوب . كان الأعوات هناك . فرغ كل منهم من حمامه
وترين وصبح شاربه . جلسوا جميعا فوق حصير في شكل دائرة ، وبدروا
بمحدثون التاريخ . ودخل أغا ليكوفريسي . فماذا رأى وسط القاعة ؟
غلما متربعا على كرسي كانه العرش ، هو يوسوفاكى ، وكان يقف : « دنيا
تاتير . روبا تاتير . آمان ، آمان ! » وفي لمح البصر اخشى كل شيء .
المقهى ، والأعوات ، والحصير ، والتاريخيات . لم يبق من سمعنا كلها إلا
هو وحيد يوسوفاكى أحدهما جاث على ركبتيه يتفرع وينوسل ،
والآخر يتدال وينسج والثلاثة في قمة بلوكها . . .

دخل حسين والسوط في بدء ، وروصه على ركبتيه الأغا . بكس
الأغا رأسه ، وحملني بعينيه من تحت حاجتي كنعين ينظر إلى السوط ،
شارد الفكر . إلى أين يذهب ؟ لماذا يتروك مكانه حيث هو على شاطئ البحر
في حجة يوسوفاكى ؟ فأغضض عينيه ثانية وعاد إلى سميرنا .

دوى صوت الثغير في الخارج . . . قاربت الشمس الغيب ، ولم تخاف
حرارة الشمس . وسكنت أوراق الشجر . وجمدت القرية عزلاء منكسرة
على نفسها تنقل فوق حرارة الأرض .

فنبعث الابواب ، وخرج أهل القرية على لواء الشفير ، الواحد اثر
الآخر . وتجمعوا حول شجرة السنار . البعض ألقاه ألم ، فلاذ بالحصن ،
والبعض مهتاج غيب الصدر ، يروح ويحيى في نقاش دائم . ترى هل
فله مانول حقا ، أم لا ؟ هل هو المحرم أم سواء ؟

قال أحدهم وهو يهز رأسه : « لا يخدمك السهو ! أنا لم أكن أئن
ابدا أخدم مانول . حينما مع الأرملة ، ولأن مع يوسوفاكى . . . لف ! ما أبجده !
ليأخذه الشيطان . »

وبوصل خادم الكنيسة المعجوز لاهنا . كان يحمل اليهم أخبار : تنر
الملك . ولكنها تنلج صدره .

« كنت آمن أمام بيت الأغا ، هل تعرفون ماذا رأيت ؟ » العبداء المعجوز
نظم صدرها وتزوج . قلت لها : ماذا بك يا أمه ؟ « قتلوا الأرملة . »
من هم ؟ « الأغا ! نحرها كما تنحر الشاة . ثم قلب بها من فوق الدرج . »

ال للمسيحيين أن يأتوا ليدفنوها فهي مسيحية أيضا ولها روح . هذه
الكنيسة . . .

وقال عجوز صغراوي في تهكم وصخرية :

« تدفنها ؟ وماذا أيضا يا شماس ! ليحرقها الله في نار جهنم . »

أدلت الشمس بالغبوب . وحومت الإطيار حول شجرة السنار تبيحت
عن مانول تسكن إليه لتفنى ليلتها . ولكنها أبصرت تحت الشجرة حسدا
من البشر يقود بيته لقط مزعج . تلكها خوف ، فشردت تحلق هنا وهناك
في تردد وقلق ، تنتظر أن ينفض هذا الحشد اللجب وتأنس إلى أوكارها .

وفجأة دوى سرير الباب الثقليل ليبت الأغا . فتح الباب ، واشترابت
الإعناق . ولدت آفة . سرت بين الجمع كموجة تردد صداها في الهواء .
ظهر مانول فوق عتبة الباب هادئا ، مبتسما . موثوق اليدين من خلفه ،
دامي الوجه والفراغين .

توقف لحظة كمن يريد أن يودع أهل القرية . لم يمهله الحارس الذي
كان في الزو ، وعاجله بضربة موجعة بالسوط . واجتاز مانول العتبة في
صمت . ومن وراءه رجلان يحملان السرير المعدني الصغير يرقد فوقه
يوسوفاكى تحت أكوام من الورد .

تقدم مانول بخطى ثابتة . كان يحول بعينيه في هدوء بين الوجوه
التي تحيط به ، والنازل والاشجار ، وينظر على البعد إلى حقول القمح وقد
انحلت سنابلها تحت ثقل حباتها الناضجة ، تنمع في بريق كبريق الذهب
تحت أشعة الشمس الغاربة . وحدث نفسه قائلا : « حمدا لله الذي من
علينا بمحصول طيب هذا العام . سيجد الفقراء حاجتهم من الطعام . »

وفجأة وقع بصره على رفاقه الثلاثة تحت شجرة السنار . ينظرون
إليه بعيون دامعة . انبسم لهم مانول ، وأوما اليهم برأسه مودعا . ولوقفت
لحظة ، ونظر إلى الناس من حوله وصاح قائلا :

« وداعا أيها الأصدقاء ، فاني راحل عنكم . »

ثم دار بعينيه ونظر إلى أصدقائه الثلاثة وقال :

« أيها الأخوة ميشيل وباباكوس وفستندى إلى راحل . وداعا .
وصاح الأصدقاء الثلاثة بأصوات مختوفة :

« بوى ! بوى ! بوى ! »

وصاح بالأكوس بأهل القرية الذين لزمو الصمت وهم يشهدون
ما يدور أمام أعينهم :

- هل مانت مشاعركم ؟ أولي بكم أن تخروا أمامه وكما أيها المجاهدون .
انه يموت من أجلنا وإتفاء حلاص القرية . ألا تفهمون ؟ انه يحمل خطايانا
جميعا مثلكم فعل المسيح . أيها الأخوة ...

لم يسهل الحارس : اندفع نحوه والوسط في يده . والنف السوط
حول رقبته .

ظهر الأغا عند عتبة الباب . وسرعان ما حيم السكون . المسيح له
الجميع طريقا . وتقدم الأغا : تغسل الخطوات . مكثب الوجه . منكس
الرأس .

توقف عند شجرة السنار . وذن أن يلقي نظرة إلى مانول أسد
أمره إلى حارسه :

- المشيقة .

وانفض الحارس الضخم فوق مانول وأطبق بكثا يديه على رقبته .
وفي هذه اللحظة دوت صرخة مولوة :

- يا أغا ! يا أغا !

كانت مارنا المعجوز تجري نحوه لأهنة الانفاس . متأنطة صرة من
الملابس . وامتقع وجهه حين . وسقط الحبل من يده . واستند ظهره إلى
شجرة السنار وهو يرتجف . وغرت الحدباء المعجوز إلى الأرض عند قدس
الأغا وصرخت :

- يا أغا ... أنظر . أنظر :

وفكت الصخرة عند قدس الأغا . وصفت فوق الأرض فميصا وصروالا
وتلعلى . كلها مملوطة بالدماء . انحنى فوقها الأغا وصاح :

- ملابس من كل هذه ؟

وأجابت مارنا المعجوز :

- ملابس حسين . حارسك يا أغا .

واستدار الأغا . وحده حين نظرة . كان قد سقط على الأرض
تحت شجرة السنار . وبهت أهل القرية .

وانفض عليه الأغا بوثية واحدة . يهزه في عنف وهو يقول :

- حسين مختار !

تكون الحارس على الأرض . وأخفى وجهه بين يديه الضخمتين
المتعرجين . وأخذ يخور كما يخور العجل :

- الرحمة

أغربت الاصدقاء الثلاثة . وقنوبهم تخفق في عنف حتى لوشت أن
تصدح . وتحرك الحشد كعوج بشرى . احاط بالأغا والحارس ومارنا .
ودنا بالأكوس خلسة من مانول . وفك وثاقه . وأمسك بيده وقبلها .

ودع الأغا رأسه . ونظع إلى أهل القرية . ورأى وجوههم منهلة .
قلوب بسوطة وصاح :

- * انصرفوا يا كفر . أغربوا عن وجهي والا فالويل لكم .

واندفع نحو الحشد . وأهال عليهم بسوطة رجالا ونساء . كأنهم
لا يميز شيئا . وبدأ الزيد يغطي لمة .

أففر الميدان في لمح البصر . تفرق الجمع مشغورين . كل إلى بيته .
أما أكثرهم جرأة فقد توارى وراء روابي الجدران يرقب ما قد يحدث .
وانصرف الرفاق الثلاثة ومعهم مانول . واتخذوا لهم مجلسا بجانب حائط
في الطرف المقابل من الميدان حيث يمكنهم أن يشهدوا ويسمعوا كل مايدور
هناك .

كان الأغا يجاز :

- انه أنت يا كفر ! انه أنت يا كلب !

كان واقفا فوق الحارس بقاء بقدميه ويصق عليه . واستل سيفه .
ثم أعمد ثانية . وانحنى على الأرض والتقط بعض الحجارة وأخذ يقذفه
بها فوق رأسه . لقد فقد صوابه فلم يعد يدرى أي مينة يختارها له .

كانت المعجوز مارنا تجري هنا وهناك . تفرق . وترقص . فرجة
منهلفة . لجمع الملابس داخل الصخرة . ثم تيسطها على الأرض كأنه عن
يقع الدماء فيها . لا تكف عن تزويد نفس الكلمات وكأنها تفتى بموال :

- سمعته يا أغا وهو يرتقي السلم عندما التصلب الليل ... وترامت
إلى سمعي يا أغا صرخة واحدة كصرخة طير ذبيح ... ولكن كيف لامرأة

بالسنة متى أن تجرد على فتح فيها ؟ وما أنت ترى بعينيك الآن الملابس والدم !

وعادت تصف الملابس من جديد تعرضها على الأرض كاشفة عن بقع الدم ...

وفجأة سمع الأغا ترددها : قرفسها في كليتها وتدحرجت المعجوز فوق الأرض ، تصرخ صرخات معولة كلفظ ذبيح . ثم تحاملت على نفسها هاربة من أمامه إلى بيت مبيدها . وقبعت عند عتبة الباب كخفاش ، عيناها مثبتتان على الأغا والحارس ترقيهما .

وعقمت قائلة :

- الآن ليغدا كل متكما عين الآخر أيها التركيان الغدران ! حسبي أني عثرت على بغيتي وليذهب كل شيء بعد ذلك إلى الجحيم .

جنا الأغا على الأرض ، ولكم حارسه بجماح يده ليكمة قوية أفعدهته أمامه وجها لوجه . الفاهما متلاصقان . وجمدا في مكانهما فترة طويلة يغير حراك . غابت الشمس ، وتعاشرت الطيور ، إذ اختفى الخشد عن أنظارهما ، وعادت إلى أوكارها فوق شجرة السنار .

ظل الرفاق الأربعة راغبين في مكنتهما قبالة الحائط في وجل . كانوا ينتظرون حدوث مشهد مروع يوشك أن يقع .

وتتمت مانوي :

- أي أشفق على هذا الحارس المسكين .

واجاب ياناقوس :

- أسكت . إن الله لا يشفق عليه .

وفجأة حب الأغا واغفا وزار كالاسد .

- قف ، يا كلب .

قفر الحارس واقفا على قدميه . استل الأغا سيفه ثم هوى به مرتين ولانا فوق الحارس . يتر أنفه وأذنيه ، وطوح بهم الأغا بعيدا . لم يجر الحارس ساكنا ، ولم يصرخ . ظل واقفا في مكانه جامدا كأنه جذع شجرة يغلها بستانى . ونزف دما ، وسال الدم على الأرض ليصنع بركة من الدماء مزوجة بالنطين .

ولوح الأغا بالنسوط وصاح :

- اجر حول الشجرة .

وبدا حسين يمدو مترنحا حول شجرة السنار .

وزار الأغا من جديد :

- قف .

وتوقف الحارس . انقش عليه الأغا ، وقرق عنه سرواله ، وأمسك بمعضو ويتره بضربة واحدة من مبيده . وطوح به فوق حشة يوسوفاكي وسط أزهار الياسمين . وهنا نادت عن الحارس صرخة مروعة خر بعدها إلى الأرض . أمسك الأغا بعنقه ، ورمعه وأقعده فوق الكرسي ، ووضع الحبل حول رقبته ، وركل الكرسي ، وفارجح الحارس في الهواء بعد أن قطعت أشلاؤه في وحشية والدم يغطي جسده .

فشح الأغا العرق الذي تصب من جبهته يبيده المظلة بالدماء فاصطبغ وجهه كله بلون الدم . وخر إلى الأرض لاهنا محملا بعينيه في حارسه فاغرا فاه . وظل الأغا هكذا فترة طويلة . وبعد أن شفى قلبه نهض من مكانه . ودون أن يلقي نظرة إلى الرجل المعلق . أو إلى يوسوفاكي . عاد إلى بيته يترنح في مشيته . وفتح الباب برفسة من قدمه وخر إلى الأرض سطيحا مفتشيا عليه فوق بلاط الفناء . وكان لسقوطه دوبا .

في هذه الآونة كان الشيخ بطرياركاس يسأل رفاقه :

- ترى ما الذي يحدث الآن فوقنا ؟

كانوا جميعا مستلقين على الأرض . وقد استمدوا ظهورهم إلى الحائط وادأروا رؤوسهم ناحية الباب استغل منتظرين ما يحدث .

واجاب الشيخ لاداس الذي بدأ يسمى لاصلاح ما بينه وبين ذوي السلطان ، بداههم ويترلف اليهم .

- سأقول لك أنا يا عمدة . مانوي الآن - ليفقر الله له - معني في الهواء . سواء كان هذا خطأ أم سويا . ولكن ماذا يعني في ذلك . المهم أن نفلت نحن وننجو بأنفسنا . وبعد لحظة مبيت الحارس وصيبح أخرجوا يا كفرة . انطلقوا إلى بيوتكم ! . سيركلنا بقدمه . وسوف يعود إلى النور وإلى أعمالنا . أما فيما يتعلق بما ذكر بيننا من حديث هنا ، فليذهب أذواج الرياح وعفا الله عما سلف . ليس كذلك يا عمدة . أنت سمع أنت أيضا . يا أب جريجوريس !

وقال القسيس جريجوريس لنفسه :

« نسما لأفان عينك أيها الخنزير القذر » .

ولكنه لم يفصح عن سريره . إذ تذكر أنه مسيحي وفسيس .
فأبدي له البشاشة تكلفا . وحدته بصوت موصول :

« لنفجر أولا بعون الله يا شبيخ لاداس » . وما عدا ذلك سيطويه
النسيان . نحن رجال عشنا معا لحظات عصيبة . وما بدر منا ليس إلا هتات
لا يؤبه لها . أنا عن نفسي نسيت كل ما كان » .

وقال الشبيخ بطرياركاس يادى العصب :

« لن أسي لك أيذا أنك دعوتني » الخنزير النجيل » .

إذ كان هذا التندة طعنة له في الصميم لأنه يصدق عليه تماما .

وقال الشبيخ لاداس متظاهرا بالهشاشة :

« هل تقوحت بشي كهذا يا عمدة » أنا تسحب هذه الكلمة .
ما أعصبي . ذهب الخوف يصوأي فخلطت في الكلام . فصحت أن أقول
« السيد النجيل » فقلت « الخنزير النجيل » .

ورفع بالأيوتي رأسه الضخم المصاب بالرصوص . وصاح :

« اذهبوا إلى الشيطان يا عصبة من الجن » . كل منكم بعش الآخر
ويستلزم منه . ولكن يخاف البوح بما في نفسه . نهادون يا حفنة من
الكسالى ابتغاء نهب الفقراء من الناس . ولكنكني أنا البغض إلى نفوس
الناس جميعا لا أخافكم . أيها الفساسة والأساقفة والسادة العمدة والأعيان
وناطر المدرسة إلى أصبغ عليكم جميعا » .

« كان ناطر المدرسة على وشك أن يفتح فيه ليدهي . من حدة الحديث
عندما اقتنع الباب » ودخلت مارثا المعجزة . ولعت غيظا في القو . الكني
تبرق بنظرات حادة » .

وصاح الشبيخ بطرياركاس وهو ينهض من مكانه :

« أيه يا مارثا ماذا ورائك من أخبار عن العالم العلوي ؟ » .

كشفت المعجزة عن أسنانها في ضحكة غليظة . ومدت يدها على نحو
ما يفعل الشحاذون وأجابت قائلة :

« لن أروح بشي . حتى تملأوا بصر هذه بالعملة الذهبية » .

وقال الشبيخ لاداس وهو يتباكى :

« أينها السليطة المعجزة » ألا تأخذك بنا رحمة ؟ نحن فقراء
معوزون . هل تريد أن تفتني دعائنا ؟ » .

وسأله القسيس جريجوريس :

« هل تحملين لنا أخبارا طيبة أم سيئة » يجب أن نعرف أولا .
ثم نتفق بعد ذلك » .

« قلت لك يا أبا أنا لن أروح بشي » . ألا تفعلون فداستكم نفس
التي . تمدون يديكم قبل أن تبدأ لربيل » كيرالاسون » ؟ لماذا تريد مني
أن أكون خيرا منك ؟ افتحوا حوافظ نفوسكم يا صادة باسم ما أشده لكم
من خير » .

كان الشبيخ بطرياركاس أول من فتح حافظه بقوده . وأخرج منها
حبيبا ذهبيا . ثم التفت إلى القسيس وقال له :

« حيا يا أبا أنا » انهم يدعونك القسيس النجيل فلا تتواني . وأنت
يا شبيخ لاداس افتح جرابك وادفع . يا من دعوتني باسم « الخنزير النجيل » .
من الخير لك أن تعرف بعض ديك حتى يستند ساعدك للهجوم أيها النعس .
وأنت يا ناطر المدرسة تعال وادفع شيئا . حقا لمست ثوبا ولكن
ما تجرد به حتى تنتهي مما نحن فيه . إن المرأة المعجزة تحمل إلينا أخبارا
طيبة . ألا ترى ذلك في عينها اللامعتين ؟ » .

دس كل من القسيس وناظر المدرسة يده في حافظته يتلب فيها .
ونله الشبيخ لاداس وقال للمرأة المعجزة في توسل وصراعة :

« لو قلت لك أي مدبر لك بهذا الشبلخ » ألا تعطين أيذا الأم
الطيبة مارثا ؟ سأكتب لك ابصلا بذلك » .

« يا الله ؟ حيانك لا تسأوي في نظرك عملة ذهبية صغيرة أيها
النجيل ؟ حيا تشجع قليلا وافتح حافظه نفوسك » .

واستندت ناحية بالأيوتي وقالت له في منخبة :

« أما أنت يا آكل الخيس فلا انتظر ملك مليدا . لا بد أن الأرملة
تركنت خاوي الوفاض مقلبا » .

وعوى بالأيوتي :

« أخترسي أينها الحسارة المعجزة » انتظري حتى أقيس حديثك

لاصنع لك سرجا يحى ظهورك ، أينها المعجوز الحيزيون .

- لا تغضب يا أكل الجيس المسكين - أينك بأخبار أميك أنت أيضا : لقد نجوت - نجوت أيها العاشق النمس ! وانتقلت : كاترينا إلى العالم الآخر .

جعلت عينا بانايوتى ، وحاول الكلام فلم يستطع . فيها يعوى ويتب .

وواصلت المعجوز كلامها :

- قتلتها الأغا منذ لحظة . غرس سكينه في قلبها وقدمها حدية إلى الشيطان .

تعرغ بانايوتى على الأرض . وأخذ يضرب الحائط برأسه . وبدأ يزار كوحش مقترس ينادى الأرملة .

قبعن الحدياء المعجوز عند عتبة الباب تحاول أن تستغفر :

- من قال لها أن تكون جميلة ؟ من طلب منها أن تكون عاهرة ؟ من طلب منها أن تذهب إلى الأغا ؟ نالت ما تستحقه . غرس سكينه في قلبها ثم قذف بها من حائق فسقطت تتدحرج فوق الدرج .

ولكن بانايوتى لم يسمع ما قالت ، كان يتسلوى . يعض الأرض وينادى الأرملة بصرخات معولة .

فرغ الشيخ بطرياركاس في هذه الأثناء من جمع الأموال . وبلا بها راحة المعجوز الحدياء . وسرعان ما انطلق لسانها لنص عليهم القصة كاملة . كانت تتحدث إليهم وهي تضحك وترقص وتقلد الأغا والحازم . حينما تعوى ، وحينما تضحك فى سخرية . ورسم القسيس جريجوريس علامة الصليب وقال :

- هيا بنا نخرج . مبارك اسم الرب . دخلنا إلى هنا أناسا بسطاء مكتوب علينا الموت . وما نحن نخرج ابطلا ونشهدا للشيخ .

وقال الشيخ بطرياركاس بدوره :

- هيا بنا . لقد قرنا .

وقال المعجوز لاداس :

- كلفتنى هذه المشكلة جنينا . ولكننى سأستعيد مالى عندما أخرج .

ولابدأ بهذا الكلب المدعو ياناكوس .

وقف القسيس جريجوريس عند عتبة الباب ، ورسم فوقها علامة الصليب ثم التفت إلى رفاقه وقال :

- غدا يا اخوتي يجب أن يدخل كل منا بنفسه ويصل صلاة الشكر . لند كنا ابطلا ومسيحيين فى سلوكنا . وخرجنا مظفرين من هذه الحنة المروعة . الحمد لله .

وقال ناظر المدرسة :

- أما أنا فسوف أكتب للنامية موضوعا شاميا عن الشهادة والبطولة عند سلامة الاغريق .

خرج القسيس جريجوريس أولا . شامخ الرأس . مختالا كئيب يتصدر القطيع . وسار من ودائه الشيخ بطرياركاس كالحال الوجه جوعان . وفى اثره ناظر المدرسة مزحوا فخورا أن أبهى بسالة . ولم يصدر عنه ما يشين أسلافه . وجاء فى المؤخرة لاداس المعجوز واقفا بيديه سرواله الذى قطعت فكته .

وصاحت المعجوز الحدياء التى كانت تنتظرهم قرب الباب والمفتاح فى يدها :

- هيا يا أكل الجيس . اخرج أنت أيضا . أصبحت أرمل أيها النمس . وكذلك أصبح الأغا فكى رفيقا له .

وجاز الحروحي :

- ليخرج كبار الحىع أولا . سأخرج وحدى .

ونفض على يده ونهض :

- أيها القسيسون والأساقفة والسادة العمد والأعيان وناظر المدرسة . انى أصق عليكم جميعا .

لم يستطع القسيس أن يكبح جماح نفسه أكثر من ذلك فرماه بقوله :

- يهوذا .

قال كلمته هذه ثم ولي مسرعا .

وحق وراءه بانايوتى يريد اللحاق به ويشده من الخيطة . ولكن

القسيس كان قد سبقه الى خارج البيت يرسم علامة الصليب في الغداء .
وتبعه زرافته الثلاثة ينفذون السير .



اقبل اليسل . واقفرت الطرقي . وآوى اهل القرية الى بيوتهم .
وجلسوا الى مواضعهم ياكلون ويشربون . وازدادوا لانفسهم هذا المساء
كاسا على غير العادة احتفالا بهذا اليوم المشهود . وتجاذبا اطراف الحديث .
تجرو على السننهم أسماء مانولى وحسين والأزمنة والألما ويوسفواكي ومارتا
المجوز . الشيوخ من الرجال يستعيدون ذكريات الماضي . والنساء ينثرن
بالليل والقال . والأطفال يتخذون مما حدث مادة لذكريات المستقبل .

جلس الشيخ بطريار كاس الى مائدة حافلة بأطياب الطعام . استحم .
وغير ملأه . وتهدم . ولبيرو تروح وتجي . في نشاط وبشاشة . متوردة
الوجنات . أعدت حاجة مسلوقة لسيدها . وحساء بالبيض والليمون حتى
يسترد قوته . وجلس ميشيل قبالة أبيه يرقبه وقد أقبل على الطعام كذئب
نهم . يلثم ما امامه في سعار . والعرق يتصبب فوق جبهته . وكله رغبة
في أن يستعيد ما خسره من قوته . كان يرقب الشيخ في ذهول . وينصت
له وهو يتحدث ويضحك ويصفح . ثم يقول بينه وبين نفسه :

— ها هو ذا أبي ! ها هو ذا أبي !

كان الشيخ يقول والطعام يملأ فمه :

— لقد أفلتنا . الآن يا ميشيل . بعد أن وفقت وجهها لوجه امام ملاك
الموت . عرفت ما هي الحياة . . . يجب ألا تترك لحظة واحدة من الحياة دون
أن تقتنصها يا بني . عليك يا بني أن تقتنص كل لحظة من حياتك . كل والترب
ومع نفسك قبل قوات الأوان . . . تخيل مثلا اني لم أتح فمادى كان مصير
هذه الدجاجة . كنت سأخبرها .

وظل ميشيل ينظر اليه صامتا حزنا . ويحدث نفسه :

— ها هو ذا أبي ! ها هو ذا أبي !

وجلس القسيس جريجوريس في الغداء تحت التكمية التي تدلت
منها عناقيد الكرم . انكب بدوره على الطعام . ياكل ولا يهدأ جوعه .
وحبت لسمية صيف عليقة . وتضوع عطر الريحان والياسمين . وأقبل عليه
القط . وير يشمخ بساقية . وقفت ماريوري بجانبه مسكة برقي

السيب . تملأ الكأس بعد الكأس لأبيها . ودعوى الفرج تجرى فوق وجنتيها
الشاحيتين .

أكل الشيخ المطمان وشرب وتحدث .

— لم يهن قلبي لحظة واحدة . تصرفت كقائد وممثل حتى للرب في
ليكوني سي . تحدثت الى الأغا رابط الجأش . ثابت الجنان . ودافعت عن
المسيحية . وواجهت الموت في السجن ببسالة . . . يعنى لك يا عزيزتى
ماريوري . ان تكونى فخورة بأبيك .

واتخذ لاداس المجوز مجلسه فوق الأريكة الحجرية في فناء بيته .
حافى القدمين . بغير حزام حول وسطه . أخذ يلوك خيرا بغير ادم . ويسك
بين الحين والحين بزيوتة يمسحها في ثآل وعلى مهل . ويتحدث بطلاقة الى
زوجه بنيلوب . قص عليها ما حدث بكل تفاصيله . فقل هو كذا . وفعلوا
هم كذا . قال كذا . وقالوا له كذا . وأن المحنة كلفته كثيرا .

تأوه حين تذكر ذلك . وتملكه غضب . وعاد الى حجرته . فتح
خزانته . وأخرج منها دفاتر الحساب . ودنا بها ليقرأها تحت ضوء
شمعة . نلل اصعبه بلغايه . وبدأ يقلب الصفحات لوى من مدينته له سال .
وكم يبلغ دينه . وتاريخ السداد . وقيمة الفوائد . وابتسم في رضى .

— عدا صباها يا عزيزتى بنيلوب مناسترد كل أموالى . أفلت من
بين براثن الموت وهأنذا قد نجوت . وحسبى ما قدمت من أفضال . انا
مدين لك . اذن لك أن تأكلنى . أنت مدين لى . اذن لى أن أأكلك . . . بسرعة
ودون إبطاء قبل أن تمضى بنا الحياة ! ما رأيك في هذا يا عزيزتى بنيلوب ؟

ولكن عزيزته بنيلوب لم تكترث بما يقول . عينها البليديتان تنظران
في هدوء الى ابن التريكو وهي تعمل بها . بدت وكأن ملاك الموت يقف
قبالتها . وتتأمل الانتهاء من عملها قبل قوات الأوان وتفرغ من الجيوب الذي
في يدها . لم تستشعرها لغياب زوجها . مثلما لم تستشعر بهجة لعودته
اليها . حين أقدم يظا بقدميه أرض الغداء من جديد . ويسك بسروله .
يهرش ويتحدث دون توقف .

طال الحديث بالتاس في تلك الليلة . ظلت الصبايح مضامة حتى
انتهى الليل . ثم أطلعت الصبايح الواحدة بعد الآخر . والتمضت القرية
عيونها ثم أغقت واستسلمت للنوم .



بعد أن أطلق سراح الأعيان ، ترك ميشيل اصدقاؤه وخلف للقاء أبيه
واقترح قسطندي على رفيقه :

- ما رأيكما لو ذهينا ثلاثتنا لفاكل معا في بيتي ؟ ستكون فرصة
نحتفل فيها بقيامك يا مانول .

كانت زوج قسطندي معتدلة المزاج ذلك المساء ، إذ قضت يوما من
أيامها الصافية ، فلم تزود عنهم حين أصرتهم ، شعرت عن مساعدتها .
وأوقعت القرن ، وانهمكت في إعداد العشاء - مدت السباط ، وأحضرت
البيد ، ووضعت جرة الماء في الهواء لتبرد .

وحس قسطندي في أذن ياناكوس :

- أختك لا تطير لها الليلة ، الهأ ثقيل على عملها في البيت كلما كانت
صافية المزاج ، وهي لا تطير لها أيضا إذا ما تكدر مزاجها - حمدا لله أن كان
حظنا سعيدا الليلة .

ثم قال بصوت عال :

- مرحبا بكم وأهلا يا اخوتي .

وأجاب الطيبون :

- أهلا بك - تحيانا لينتك وزوجك .

لم أبق ثلاثتهم ، وقد غلبهم الجوع ، على الأكل والشرب ، وولفت
بجانبهم سيفة البيت تخدعهم .

رفع ياناكوس وقسطندي كأسيهما ، وقرع كل منهما كأسه بكأس
مانول .

وقال كل منهما وهو ينظر الى مانول نظرة ود وحنان :

- المسيح قام .

- ولكن مانول لم الصمت ، لم يتكلم ، ولم يتنسم . كان غارفا في
فكره ، لا ريب أنه كان سعيدا بنجاةه ، فلا زال على قيد الحياة يشاوك
اصدقاؤه الأكل والشرب . يتجاذب معهم أطراف الحديث ، وينعم بيزودة
تسيم المساء حين يمس جهته التي يتصبب منها العرق . - رغم أنه كان
يتوقع لنفسه الليلة مكانا آخر غير هذا المكان ، وارتسم على وجهه حزن
مماوى .

وقال ياناكوس :

- لا تحزن يا مانول - الجنة جميلة حقا ، ولكن الأرض لا تخلو من
جمال أيضا .

ثم أضاف ضاحكا :

- عن الأقل لن تجد في الجنة قسطندي وياناكوس . ذلك لأن كلينا
يا عزيزي الهام قسطندي ، سينذهب الى المجيم كسا تشير بذلك كل
الدلائل - ولكن لن نكون في الدرك الأسفل منها ، وإنما على السطح .

وضحك الثلاثة ، وعادوا بملأون الكنوس .

وقال قسطندي بصوت خفيض خشية أن تسمعه زوجته :

- أنا حزين على الأملنة المسكينه ، اهني على مثل هذا الحال . أي
مصير ينتظره .

قال ياناكوس :

- من يدري ؟ ربما نتمكن كاترينا الجنة مع مريم المجديلة الآن في هذه
الساعة التي نتكلم فيها - نتأبط كل منهما ذراع الأخرى ، وتترنسان فوق
العشب الخالد - نطلان على الأرض من عليانها وتضحكان .

وقال قسطندي :

- بل ربما تتحسنان ، لأن كليهما أحبت الحياة الدنيا كثيرا . ماذا
ترى يا مانول ؟

وأجاب مانول :

- أنا أقبط الأملنة ، أقبطها ولا أحزن عليها - لماذا الحزن ؟ يقبلا
أنها الآن تسير في الجنة تعف بها الملائكة ، لا تحسرن على الأرض ولا تنسم
لها - لقد تسببتا تماما ، ومحي هذا العالم الأرضي من ذاكرتهما ، مثلما
محا الله الخدام من على صفحة وجهي فلم يبق منه أثر .

ترامت هذه الكلمات الى مسح زوج قسطندي فتطلعت الى وجه مانول
لأول مرة - كانت قد سمعت أنه يودم ولطاف الخدام ، ولكنه الآن نظيفا
وهنا للعبا - كانت على وشك أن تسأله كيف حدثت هذه المعجزة ، لكن
الرجال استرسلوا في حديثهم ، وهي اليوم ذات مزاج معتدل فلم تشأ أن
تعكر عليهم صفو الحديث ، وتعتت بأن توليهم إذنها تنصت لما يقولون .

وما أن تطرق حديثهم الى الأرملة حتى تاملت في مكانها ، وكشفت عن أنيابها لتعضهم بأستانها ولكن ما لبثت أن رمت شفتيها ، وأفلحت عن عزمها .

وتسأل قسطندي :

— وماذا عن حسي الحارس المسكين يا مانولى ؟ كان كلبا مسعورا رغم أننى آسى عليه في أعناق نفسى ..

وأجاب مانولى :

— لو كان مسيحيا وثاب وأتاپ ، فمن يدري ؟ فإن الله قادر أن يضع يده سبحانه على رأسه ويقول له : « مقصورة لك خطاياك لأنك أحببت كثيرا » .

وصاح ياناكوس :

— لو كان الأمر كذلك وعلى نحو ما تقول ، إذن سيدخل الجنة فور خاتمة المطاف كل الخطاة واللصوص والقتلة ..

وتتمم مانولى :

— الجنة للخطاة .

وقال قسطندي الذى بدأ ينشئ :

— إذن لشرب في صحبة حسي الحارس ، لشرب أيضا في صحبة الأما ، هذا الأمر التمس . ذلك لأنه هو الآخر أحب كثيرا . لشرب في صحبة يوسفاكى الذى مات ميتة طالحة ! هل اقترف أما هذا المسكين ؟ كان يضيع الليالى ويقتى أمان ، ماذا فعل غير هذا ؟

وقال ياناكوس وهو يفقه :

— وحتى لو كان فعل ما هو أكثر ، فإنه لم يمس غيره بضر ، وربما يعود ذلك عليه بالخير العظيم .

أوما اليه قسطندي بالشارة من يده ليستكن ، ولعز له بعينه ناحية زوجه التى كانت تطل من النافذة وتنتظر بانها تنطلع الى النجوم . وقهم ياناكوس ما يمليه ، ولزم الصمت .

وقال قسطندي :

— لشرب نخب من تشابون فيما عدا ذلك المعجوز لاداس أو القسيس جريجويس . فهذا محال .

وصاح ياناكوس وقد لعبت الحمر برأسه :

— ولم لا ؟ إن ليبيك جيد يا قسطندي ، وسأشرب نخبهما أيضا .

وعاد يملأ الكأس ، وأفرغه في بوفه دفعة واحدة وقال :

— في صحبة الأب لاداس ، ولتكن المجيم متواء .

ثم ملأ الكأس ثانية وتجرعه دفعة واحدة وقال :

— في صحبة القسيس جريجويس ، ولتكن المجيم متواء أيضا .

ثم عاد يقول :

— هل ثمة آثم آخر لحتفى به ولشرب نخبه ؟

شربوا ليبيدا بوفرة ، وقامت قلوبهم عاطفة ، وامتلات جوانحهم حبا .

وتحدث مانولى الى نفسه قائلا :

— المسيح ، مثل النبيذ ، يفتح قلب الانسان حتى يسبح العالم كله . وهكذا يفتح أبواب الجنة حتى يجد كل الخطاة مكانا لهم فيها ..

وتطلع الى رفيقه في مودة وحنان ، وقد تماصكت أذرعهما ويضحكان في صخب .

وقال ياناكوس :

— وبانابوتى ! لقد لسبنا يهودا . في صحته يا يعقوب الرسول .

وأجاب قسطندي :

— في صحته يا بطرس الرسول .

وتجرعا كاشيهما .

امتدادت اليهما روح قسطندي . فقد أوشكا أن يما كل ما لديها من ليبيد . وبدأ الغضب يعرف طريقه اليها .

وقالت بلهجة صارمة :

— أفرطت في الشراب يا قسطندي .

وانكمش قسطندي على نفسه وقال :

- حقا . لا تغضبى يا زوجى . آتينا جرة الماء لتبرد بها .

قصدت اثرأة البشر . ووضع قسطندي اصبعه على شفتيه . وقال
عامسا :

- حذار يا اصدقائى فقد بدأت تغضب .

وقال ياناكوس :

- هيا انصرف . لنصرف من هنا . لا داعى لان نورطك فى
مشكلة .

- لا . لا . لا . أمكنا ولنلزم الهدوء . لنشرب ماء فى صحتنا ربما تطيب
نفسنا لهذا ونهدأ . أنت لا تعرف النساء يا ياناكوس .

وعادت زوج قسطندي تحبل للمرة . أخذت الاكواب وغسلتها ثم
ملأها بماء بارد . وضع الرجال اكوابهم وشربوا نخبها .

قال ياناكوس :

- فى صحتك يا اختى العزيزة . سقاك الله من رحمتى الجنة وأتلج
صدرك مثلما سقينا اللبلة وأتلجت صدورنا . لا يوجد فى الدنيا اخت
ولا زوجة خير منك . حيثما ذهب قسطندي قاله يتفتى بصفاتك .

وقال قسطندي فى حين :

- فى صحتك يا زوجى .

ثم غمز يظرف عينه الى اصدقائه وقال :

- انسم لك اننى افضل ان اذهب معك الى الحميم ولا ابقى وحدى فى
الجنة .

وقال مانولى :

- فى صحتك يا سيدينى . عورك . يومئذ يوم عظيم اذ تحت
قرنتنا . سيغوصك الله خيرا عن هذا اليوم الذى ازعجناك فيه .

وشربوا وأحسوا بالانعاش . وخبت النار فى عروقهم شيئا ما .
وأخرج قسطندي كيس الشح من جيبه ولف سيجارة ثم تناول الكيس
لرفيقه . ونهضوا من مكانهم بعد ذلك وخرجوا الى الفناء حيث جلسوا فوق

الأريكة الحجرية . وبدأت الزوجة تنظف المسائدة وهى تنغمم بكلمات
مبهمة .

كان الجو عطرا . نفوح من السهل رائحة القمح الناضج . وفى وسط
الفناء تعلو شجرتان . وتضوع الليل برائحتهما .

ترامى الى سمعهم وقع خطوات ثقيل عند الباب واذا بطارق يظرفه .
ونهض قسطندي دهشا .

- آنا يا قسطندى . افتح . آنا ميشيل .

تهلل قسطندي وفتح الباب وباعت ملامح ميشيل فى غيش الليل .
وقال :

- تركت أبى الشيخ بعد أن أكل وشرب وتام . تركته وأتيت اليكم
من فورى .

واتخذ ميشيل مجلسه فى هدوء بجانبهم فوق الأريكة الحجرية .
وسرعان ما أحس بسكون رقيق يحويه ، فأثر الصمت . إذ لم يرغب فى
أن يعكر صفو هذا السكون .

أسند مانولى رأسه الى الجدار . وبدأ يحلق فى النجوم . وأصبحت
نفسه كصفحة السماء الساطعة بضوء النجوم . ثم علا صوته رقيقا وسط
سكون الليل :

- العيد فى تفكير والرب فى تدبير . لم يشأ أن أموت هذه الليلة
وأرحل عنكم يا اخوتى . من يدري ؟ لله حكمة فى ذلك . لعل لنا بقية من
حياة على هذه الأرض . ولا زال مقننونا علينا أن نجاهد ابتغاء خلاص
الروح . . . ايه . . . أتخلت يا اخوتى هذا المساء قراوا حاسما .

فرغ من كلامه هذه ثم رفع نظيره الى السماء ينطلق الى الطريق
اللبنى .

بدأ قسطندي وياناكوس يرفقان . أخذت آخره اللبنة تصاعده
الى رأسهما تسرى فى جسدهما ويشيع معها دفء حنو . لمس ميشيل
ركبة مانولى كأنها يريد أن يقول له :

- وأنا معك أيضا .

كانوا وحدهم وسط هذا الظلام فى عزلة عن العالم كله . النسيم
عليل . والنجوم من فوقهم تنعكس ضوؤها الواهن على صفحة وجوههم
تضيئها . والظلام يلهم حتى لا يكاد يميز أحدهم الآخر .

استجمع مانولى شجاعته وقطع السكون بصوته :

- فى أول عهدى بالدير ، وقبيل أن يأتى الشيخ بطرياركاس

ليخرجني منه الى الحياة الدنيا . كنت جالسا ذات يوم الى جانب معلمى
الأب ماماس - اتنى له حفا منعيدا ان كان لا يزال حيا . واسكنه الله جميع
جناته ان كان ميتا - . . . قص على فى ذلك اليوم مقامرة قال لي انها
حدثت لصديق له من الرهبان . وقد تسببت هذه القصة طوال الايام
الماضية . ولكننى هذا المساء ارجوا ان تعود الى ذاكرتى ولا ترحها . ولعل
الله وحده هو الذى يعلم لماذا . . .

ولحظة قطع مانولى كلامه . اذ التفت رفاقة صاعدين وهو لا يكاد
يستبين وجوههم وسط ظلام الليل . فقال :

- هل بكم رغبة فى النوم ؟

احس تسطنى كان فى قوله هذا هانة .

فقال :

- حاشا لله . لماذا تقول لنا ذلك يا مانولى ؟

وقال ياناكوس بغيره :

- كلنا آذان صاغية كما لم تكن كذلك من قبل يا مانولى . لا نخرج
من هنا . استمر .

- حسنا . كان حلم حياة هذا الراهب - صديق معلمى - ان يبن
الله عليه يواسع رحمنه ويزور القبر المقدس . ويسجد امامه . فهذا
يطوف بالقرى يجمع الصدقات . ومضت السنوات وهو على هذا الحال
حتى أصبح شيخا . وجمع خلال هذه الفترة ثلاثين جنيها . وهو قادر من
المال على محاكاة للقيام برحلته . واعترف . واستاذن معلمه . فاذن له .
وبدا رحلته .

ولم يكده يخرج من الدير حتى ابصر رجلا فقيرا . مهمل الشب .
شاحب الوجه . حزينا . منحني على الأرض يجوع الأعشاب . وما ان سمع
الفقير حشا الحاج تدب على المجاعة حتى رفع رأسه وسأله :

- الى أين يا اباتا ؟

- الى القبر المقدس يا اخى . فى اورشليم . سأطوف به ثلاثا ثم
أسجد امامه .

- كم من المال معك ؟

- ثلاثون جنيها .

- أعطنيها . فان لي زوجا وأطفالا يتضورون جوعا . أعطنيها وطف
حولى ثلاث مرات . ثم اركع امامى واسجد . وارجع بعد ذلك الى الدير .

أخرج الراهب الجنيهاات الثلاثين من حافظته وأعطاهما كلها للفقير .
وطاف حوله ثلاثا . وركع وسجد امامه . ثم عاد يعدها الى الدير .

أطرق مانولى برأسه وصمت . وكان رفاقة الثلاثة لا يزالون يصقون
الى صدى كلماته داخل نفوسهم . ولزموا الصمت أيضا . وقلوبهم تفيض
وحيدا .

رفع مانولى رأسه وقال :

- علمت بعد ذلك ان الراهب الذى عزم على السفر ليحج الى القبر
المقدس هو معلمى نفسه . الأب ماماس . وأبى . تواضعا . أن يقول لي ذلك
صراعا . وما أذا القيلة . وبعد هذه السنين الطويلة . عرفت من هو ذلك
الفقير الذى التقى به معلمى فور مغادرته للدير .

صمت مانولى . اذ بدأ صوته يتهدج . ودنا رفاقة منه وهم جلوس
فوق الأريكة الحجرية . وسأله فى لهفة :

- من هو ؟

وتردد مانولى لحظة . واخيرا سقطت كلمته من فمه كنزة ناضجة
لسقط فى المدينة وسط سكوت الليل :

- المسيح !

رحب الرفاق الثلاثة وتوقوا . خيل اليهم وكان المسيح ظهر امامهم فى
عنة الليل . حزينا . فقيرا فى لباسه . مضطهدا من البشر . داس القدمين من
طول السير . طريدا بغير مأوى . والسوا فى نفوسهم رغبة وفرحا من
هذا الحضور الخفى . ولينوا ساعا لا يتنبسون بيت شقة . اذ ماذا
يقولون ؟ والى من ينظرون أو يوجهون الحديث ؟ لم يهضروا أحدا . ومع
ذلك شعروا به يملا عليهم وجدانهم كأنهم لم يروا كائنات واقعا محسوسا
مثل ما كان هذا الحضور الحق الذى جلس بينهم فى شكل انسان متواضع
غاية التواضع .

وكان ياناكوس أول من فتح فاه . وصاح وعيناه تدققان النظر فى
الظلام .

- من هناك ؟ من هناك ؟

قالها وكان ثمة طارقا بالباب . ثم عاد يسأل ثانية ويده مفعوفة
فى الظلام :

- من هناك ؟

تحركت أوراق شجرة التين . فسمع لها حفيفا . وتضوع الليل

ثانية يشق الفصح ويهر العسل والثمن وملأوا صدورهم بهذا الأريج .
وشعر كل من الرفاق الأربعة كان الحضور الخفى يسرى في جسدكم من
رأسهم حتى أخضع القدم . وتذكروا طفولتهم . يوم أن كانت القلوب
تقية ، وكيف كان هذا الحضور الخفى ذاته يسرى في نفوسهم ويستحوذ
عليهم بعد تناول في يوم الجمعة الحزينة .

أحسن ميشيل برغبة في أن يعانق صديقه مانولى ، ولكنه أمسك
عن ذلك وقال له :

« مانولى .. في اللحظة التي رأيتك فيها تخرج من بيت الألفا موتوق
البيدين من الخلف تسير هادئا طويلا ، ثابت الجفان لتواجه الموت من أجل
خلاص القرية ، أحسست بأن عواء جديدا ونورا غريبا يحف بك . خلتك
وكانت أصبحت سامعا ، وقيفا كالذهب . ووطدت عزمي منذ تلك اللحظة :
حيثما تذهب ستأتيك ، وحيثما تقودني سأكون وراءك . وبأى شيء تأمرني
به سأكون طوع أم ربح . »

وصمت لحظة .. وبدأ عليه التردد . ثم عاد يقول بنبرة حازمة
ويعصت بكاد يكون عسفا :

« الآن بعد أن رأيت أبى وهو يأكل ويشرب وينام أحسست أبى
أقرب اليك منه يا مانولى ، وأكثر ارتباطا بك . انى مدين لك من الآن
بالطاعة دونه . »

حاول ياناكوس وقسطندى الكلام ، ولكن اختنق صواتهما فانخرطا
في اليكاه .

ظهرت روح قسطندى عند غتبة الباب . سمعت تشجيعهم . جهزت
أسبها ، ودخلت ثانية . وأمسك مانولى بيد ميشيل ، وعضط عليها بين
واحية . وقال :

« يا أبى أنت خير منى ، وأكثر نفا . واقرب الى المسيح . لا تزعجك
وساوس الشيطان ، وتهندى الى الصراط المستقيم على نحو أكثر منى
بساطة ويقينا . كان دون ما أبنى مجاهدة نفس ومكابدة لا ينتهان . ورغم
ذلك لم أبلغ العاية . أما أنت فقد بلغت غايته بخطوات ثابتة ودون أن
تقطع منك الانعاس . وتضحيتك عزيزة المثال : لك بيت شريف ، وأب
هو سيد القرية ، ولك جاء ثروة ، وحسب ونسب . أما أنا فليس عندي
ما أصحى به قربانا للرب ، ومع ذلك فأتى أفوق العذاب ألوانا من أجل
التضحية بهذا اللاشيء . .. وها أناذا مثل معلن الأب ماناس . أنا الانسان
الحقير الشائن ، أضع نفسي خططا طويحة تقصر دونها همتى . ضاقت على

الرمعى . كما ضاقت على القرية . كنت أنتحرك تنوفا لكل أركب سفينة
محنة أبحر بها الى نهاية العالم بحثا عن الخلاص . توهمت أن القبر
القدس هناك في الطرف الآخر من الدنيا . تفصلنى عنه بحار وقفار .
واحتقرت هذا الركن من العالم الذي أبنيت فيه الرب . .. أما الآن فقد
أدركت الحقيقة : المسيح موجود فى كل مكان . بحسب القرى ويشرق
الأبواب . يقف أمام قلب كل منا يسأله الصدقات . انه فقير جائع شريده
هكذا هو المسيح وهكذا يقف على مشارف قريتنا التي يسكنها ويتم
بغيراتها أناس مثل الأغا ولاداس والقسيس جريجوريس . انه فقير وله
أطفال جوعى . ينسول ويطلب الأبواب ويناجى القلوب . فلا يلقى غير
الصمود جوابا ، يطردونه من باب الى باب ، ومن قلب الى قلب .

نهض مانولى مشرق الوجه وسط غمرة الليل .

وصاح برفاقة قائلا :

« يا اخوتى أولى بنا نحن أن نرحب به . ونفتح له أبوابنا ودوننا .
لم أكن أريد أو أسمع قبل ذلك . أما الآن فأتى أراء وأسمعة . بالأمر حين
أتانى ياناكوس يزورنى في خلوتى . كنت أسمع يناوئى باسمى واضحا
ونزلت الى القرية . حسبته دعائى الى الموت . ولكن لم تكن لهذا دعوته لى .
وعرفت السبب الآن واتخذت لذلك قرارى . »

وارتفع صوت وسط الظلام . يبدو أنه كان صوت قسطندى يقول :

« أى قرار هذا يا مانولى ؟ »

وقال مانولى بعد لحظة تأمل :

« أى قرار ؟ كيف لى أن أعبر عنه بالكلمات ؟ انى عاجز عن ذلك .
أحسب انى لا أستطيع أن أعبر عنه قولا بل عملا . اذا ما شئت اودع الله
ذلك . يا اخوتى . وطدت العزم على أن أغير حياتى تماما . وأقطع صلتي
بالأشئ . وأرحب بالمسيح ، وألزم صحبته على طول الطريق . سأكون
المشي به . وأمشى أمامه أفتح فى التقير وأصبح بالناس . أما ماذا سأقول
فهذا ما أجهله الآن . ولست أعيا بذلك . فعندما أفتح فسى . يسضع
المسيح كلماته الصادقة على لسانى . هذا هو قرارى يا اخوتى التي وطدت
العزم عليه . »

وصمت . وانقضت فترة طويلة من الزمن لا تسمع فيها نامة من
الغناء سوى حفيف أوراق شجرة التن . ثم عادت الأصوات تملو والأسئلة
تتردد من جديد .

فسأل ياناكوس :

- وماذا عنا نحن ؟ أنا وحماري وبضاعتى وتجارتى التى أتكسب منها ؟

وقال قسطنطين :

- وأنا ماذا عن زوجى وأطفال ومقهاى ؟

وقال ميشيل :

- أنا لا أطرح سؤالاً - فقد اتخذت قرارى مقدماً - اتخذته هذا المساء قبل أن أتيتكم - سأترك بيت أبى .

لزم مانولى الصمت - أنه يستطيع أن يعجز ياناكوس وقسطنطين على ضوء النجوم بتفحصان وجهه فى تساؤل - ويتلهفان الحصول على الإجابة ولكن بماذا يجيب ؟ كيف يتخذ لهم قراراً بنفسه ، ويقبض حياتهم رأساً على عقب ؟ فكلل امرئ ساعة موقوفة بيد فيها الخلاص لنفسه - وكل إنسان هو الحكم - وحده دون سواء - وهو وحده القادر على أن يقرر كيف ومتى يكون الخلاص .

وتكلم أخيراً وقال :

- يا اخوتى - قرار الإنسان مثل ثمرة الشجرة - تنضج فى صبر وأناة ، متأثرة بأشعة الشمس والمطر والرياح - ونسقط إذا ما حالت صاعقتها - نجعلوا بالصبر يا اخوتى - لا تسألوا أحداً سوى أنفسكم - مستعينين بمعنكم المباركة أيضاً - وهنا مستمعون أنهم لستم بحاجة إلى سؤال الإنسان - سجدون أنفسهم فى هدوء وسكينة ، تهجرون الزوجة والأطفال والأقارب والتجارة - مستمعون أنفسهم من كل هذه الجواهر الثاقبة وتهتدون إلى الموهبة العظمى ، إلى المسيح .

وقال ياناكوس :

- انت أنت الذى تهتدينا إلى الطريق يا مانولى - أريد أن أبعثك .

وقال مانولى وهو يضبط على يد صديقه الشروع :

- لا تتعجل يا ياناكوس - دعنى أناضل وأكابذ وحدى - ولاكن أول من يبدأ .

وبسط قسطنطين ذراعه كأنما يريد أن يستوقفه وقال :

- لن نتصرف - لن نرحل عنا ؟

- والى أين أذهب يا قسطنطين ؟ هل نسيت أين أمتدى معنسى إلى

القبر المقدس ؟ إن من يناضل ويكابذ فوق قطعة من الأرض فإنه يناضل - يكابد فوق الأرض كلها - سأكون معكم دائماً - هنا فى ليكوفريس - ودون الجبل - فوق أرضنا نحن - اختار لنا الرب بواسع رحمته هذه النعمة من الأرض وأمرنا بأن نكافح هنا ونجاهد - كل بقعة من بلاء الأرض منى أيضاً قبر مقدس .

مرة أخرى خرجت زوج قسطنطين - ووقفت عند عتبة الباب - وسغمت بيش - وقف مانولى وأطلع إلى التجوهم وقال :

- يا اخوتى - انصتف الليل - حال الوقت لكى أعود إلى الحبلى - كان المسيح معكم - فإلى اللقاء .

وقال ياناكوس :

- مستصرف نحن أيضاً - أحسب أن اخى تريد أن تنام .

وقالت هى فى ضجر :

- تجاوزنا منتصف الليل .

حيا الثلاثة سيده البيت نحية المساء وحاولوا أن يلاطفوها بكلمات ودود - وأسفوا إذ سير كون قسطنطين أعزل بين يرائنها .

وقال قسطنطين وهو يصحبهم حتى باب البيت :

- طيبم مساء يا أصدقاء - إلى اللقاء - وعالم الله .

وتنتم ياناكوس بعد أن أغلق الباب :

- مسكين أنت يا قسطنطين ! لا أتمنى لنفسى أن أكون مكانك .

كانت القرية غارقة فى نوم عميق - يتلفا ليلى الربيع الساسي الأبيض - وبعث كلب على البعد - ووضعت النجوم كفضائل السيوف فوق رجلى الرفاق الثلاثة .

ساروا طريقهم كله فى صمت تام - إذ حاذق بقى لهم من كلام لعد قالوا كل شيء .

وأخيراً سار مانولى وحده - بخطوات خفيفة سريعة - كأنما حملته أجنحة الملاك ثاقبة - فاصداً الجبل - واتخذ الطريق الصاعد .



عَرَبَةٌ مِنْ نَكَار

بينما البعض من بني البشر أصلته الحياة الدنيا وأهمته الشهوات ، والبعض الآخر يكابد في نصب ليعلو فوق طبيعته البشرية ويتغافل عن ملكوت السموات ، كانت سنابل القمح تنضج على عودها في هدوء ووداعة وأنتظار الحب فاحتمت إلى الأرض تنتظر الحصاد .

ومع مطلع الفجر خرجت الفتيات حاملات مناجل الحصاد ، وتفرقن وحمل السهل ، وقد عصين رؤوسهن بمسندليل يقيهن لثقلهن حرارة الشمس ، وتلوي النسيان الخطي الذي أحلق بالقوية وعزها من الأعماق . وبنات الفتيات يلترن بأصوات خفيفة ونند عينين ضحكات عالية ، حنا يذكرون الأرملة ، فتحس وجناهن للذكرها ، وحيناً يذكرون حسينا وكيف رأينه صباح الخميس معلقا على شجرة السار غاريا من أسفل ، حسينا بصورة مخجلة ، وكانت الشدة المعلقة على الشجرة اهتزت مع حركة الريح ، فيسمع أهل حبرير ، وقد عسى الفصيل على لسانه الذي تقلب من فم أحمر قانينا .

وتألفت بوجوههن عندها جاء ذكر مالوتى على اللسنين . وتذكرى كيف طارد الألفا أمهاتهن من الميدان وعروا في هلع إلى ميونين ، وطعن بعدا يتحدث عن مالوتى وكيف ظهر عند باب الألفا عزيزا منكرا . وشيئا أشقر الشعر كأنه ملاك ، وقلن يومها ، شمع أهل السوء عليه حين زعموا أن المدام شوه وجهه ، كذب ويهتاك يا عزيزتى ، كلها أكاذيب واقتراعات ، كذب وقضاء العجا كأنه شمسي الضحى .



شفت العنيت طريقهن وسط الحقول وأقبلن على عملهن بالمناجل
 حصن الفصح حتى يمتلئ ، أحسنهن بالحب ثم يكسبهن أواماً عالية
 حلفهن . لم يتوقفن أبداً ، رغم العمل ، عن الترتبة وتبادل التكاتبات الخاصة
 عن شباب القرية . ويتحدثن من فلتاضهن مادة للدعاية والمزح . هذا له
 حديدية . وذاك مقوس السافين ، وآخر مصاب بتأتاة في الحديث . ويضحكن
 من أعيال قلوبهن .

وخرجت زوجة بانايوتي أيضاً ومعها ابنتها بيلافيا وكريستولا لحصاد
 حقلهن الصغير المتواضع . ترى الزوجة وقد أثقل قلبها الحزن ، مترهلة
 الجسد ، زاعة شفتها في مرارة . طاعة في السن قبل الأوان ، مرتدية
 ثياب الأرملة التي فقت زوجها فعصبت رأسها بدمدمل أسود ، سارت في
 المقدمة كسيفة البال وأحمة . لاذا حامت إلى الدنيا ، وماذا جنت في حياتها
 حتى يعاقبها الرب الرحيم ويسلبها ما هي فيه من شقاء ؟ أي ذنب جناه
 زوجها حتى يلقى به إلى الحضيض ويصبح الإنسان السكر الملعون أضحوكة
 القرية ؟ كان في شرح شبابه جديراً بكل خير ، مقلداً في كلامه ، مجداً في
 عمله ، حبيبا لا يجرؤ على أن يرفع عينيه إليها إذا ما تصادف مرووه أمام
 باب بيتها وهي من يطعم في الزواج بها . كانت الامة الوحيدة لأسرة
 واسعة الثراء وهو الفقير ، وذات يوم أرسل إليه أبوها ، الذي رحل عن
 الدنيا الآن ، وقال له : اسمع يا بانايوتي ، اني احبك ، أنت فقيير جسد
 ولكنك سيد ، وفي ، أمين . أعرف أنك تحب ابنتي ، خذها فهي لك واني
 أبارك زواجكما . وتزوجها ، وسارت الأمور على خير وجه ، حتى كان ذلك
 اليوم المشؤم حين اعترضت الأرملة طريقه .

ونتمت قائمة

عليها القصة هذه الزانية ، هي سبب كل ما حدث . . . الهى هل تسمح
 دعاء الصالحات المحصنات من النساء ، إن كان كذلك فانسجم دعائي :
 . أسألك اللهم أن تلقني بها إلى المجمع لتخفف مع يهدأ خالدة فيها أبداً .

ولكنها لم تكن تتقوى بهذا الاسم حتى المشعر بدنها . خيل اليها
 وكأنها تدعو الرب أن يجمع بين الأرملة وزوجها الذي يلقى الناس يهودا
 وأن يكون لقاء خالداً إلى أبد الأبد . حتى ولو كان هذا في المجمع . وجدت
 في مكانها في حيرة وحلم . وخلفها ابتهاجا ، سمرارين ، حلفوقتي القوام ،
 شموعتين ، يظن وجباتهما وتشتبههما العلوتين زلف أسود رقيق . وأغوى
 منهما رائحة غرق لغادة ، تترنجان وتضحكجان .

وقالت كريستولا وهي الأخت الصغرى :

— أمي عاودتها بعض أفكارها التي تنوشتها . انظري اليها كيف
 حلت في مكانها .

وقالت بيلافيا صاحبة :

— أراهن أنها تذكرت الأرملة .

وحصنكت الاختان بمل فيها .

مر بهما الأب لاداس ، حافي القدمين ، مقوس الظهر ، غارقاً في فكرة .
 وحانت منه التفاتة فوقع بصره عليهن وهن يطان أرض الحقل الهزيل .
 ومناجل الحصاد في أيديهن .

فسال الأم :

— هل هذا حقلكم ؟ أليس لكم غيره ؟

وأجابت الأم وهي لتنهض في حيرة :

— هذا كل ما تملك يا أب لاداس . بقنا كل ما كان لدينا ولم يبق
 لنا غير هذا .

القي الأب لاداس نظرة إلى رقعة الأرض ، وقدر مساحتها بعينيه ،
 وضمن ما يمكن أن تطفه من حبوب ، وحر رأسه المرفوعة ، وسار في طريقه
 دون أن ينبس بكلمة . كانت اعانات بانايوتي لا زالت تطفن في رأسه .
 تطوف بخاطر كل صباح ، ويقسم مع كل صباح أن يستولى على كل ما بقي
 لديه من أرض أو كرمه تنب . . سألتهك دوساً في معنى الأمانة والوفاء
 أيها الكلب القذر . حتى تعرف من هو لاداس على حقيقته .

سار في طريقه ، يلف قليلاً عند كل حقل ، ويقدر في ذهنه تمنية
 وغلته . إذ اعتاد أن يخرج كل عام مع موسم الحصاد ليقوم بجولة استطلاعية
 بين الحقول ، ويعيد الكرة مع موسم قطف العنب ، ويكررها مع موسم جمع
 الزيتون ، وأصبح عقله سجلاً يثبت فيه كمية الفصح والتبذير والزيت الذي
 يحثيه كل واحد من أبناء القرية ليعرف إن كان سيجني ما يكفيه مؤونة
 عامه أم أنه سيضططر إلى الاقتراض . ويدبر الأب لاداس أمره . ترى هل
 يغرض هؤلاء ؟ وإن كان كذلك فكم وبلى فائدة ؟

هكذا كانت عادته كل عام . وخرج الشيخ لاداس اليوم ليبدأ جولته ،
 ولكنه هذه المرة تساوره رغبة محسومة في الاستيلاء على كل شيء . فتمسك
 اليوم الذي أثقلت فيه من بين براثن الموت استبد به جنون التملك ، تملك
 أكبر قدر ممكن من الحقول وسباتين الكرم وأشجار الزيتون . وجمع كل
 ما فصل إليه يده من عملات ذهبية في خزائنه ، ما دامت هناك بقية من حياة

شه على ظهر الأرض . وقد حزمه حول بطنه أكثر من ذي قبل . وبدأ مند الباردة بأن اقتطع جزءا من الزيتون الذي يتناوله كفاتح للشهية . ويتكفى الآن بشرب الماء الذي يمن به عليه الرب الرحيم . وقر عزمه على أن يصرف النظر عن الملابس حتى لا يتفك ماله بغير وجه حق . وطق يكرر على مسامع رفيقة حياته التي تجلس قبالة واجهة غير مكترثة بشيء في الحياة . لم يعد هناك وقت ياعرزني بنيلوب . قد توافيتي المنية . لذا لا بد وأن أنعجل . عادت ترين في هذا يا عزيزتي بنيلوب . ؟



وبينما كان الرعايا وبناتهم مقبلون على العمل في الحقول لحصاد القمح تحت وابل المطر الذي يتساقط هنا وهناك فوق السهل . كان الأما حبيبس داره . لزم القاعة الكبيرة . يعيم على وجهه فيها . يلوح القاعة جنة وذهايا مضيوا . حينما تمش قدمه فيسقط على الأرض سطحا . وحينما آخر يتربع فوق حشيشه ويغضى سحابة لهاره عازفا عن الأكل والشرب . مقبلا على تدخين غليونه . متاعلا الحياة الدنيا بالمطلة وعينها وهو ينعم بالنظر إلى سحابات الدخان تتصاعد من غليونه خلقت متتابعة ثم تختفي في الهواء .

وذات صباح نهض الأما فجأة . وارتدى ملابس . ودعا المجوز الهدايا . وقال لها :

— اسمعي يا صديقتي . أصرخي الغرس . وضعي زادا من الحيز واللحم في الخرج . ولا تنسي زجاجة العرق . اني مسافر إلى المدينة . ومن هناك سأستقل الآلة الشيطانية إلى سميرنا . ارجعي البيت . ولا تسمعي لأحد بالدخول . وقبل كل شيء . حذار أن تشم قطة رائحة عن مسرني . والا فالويل لك إيتي النعمة . سأطعمك أنفك وأذنيك وحديثك . هل تسمعين ما أقول ؟ وأحبات المجوز مارنا :

— سمعا وطاعة يا أما . مسافر على بركة الله . ورددت في سريرتها : مسافر ليأتي بيوموفاكي آخر من سميرنا . عليه اللعة .

وبعد أن جن الليل . وأطمان الأما إلى أن لن يراه أحد . امتطى سهوة فرسه وسرى خلسة إلى خارج القرية . وتعم الأما بكلمات لمم معها خذ :

— ليعلم أنني قضيت أياما طويلة قبل أن أفكر فنيا أن ذاهب إليه . انه يستحق كل هذا .



بعد أيام انتهى الحصاد . ورفق الفلاحون الثوام القمح إلى حيث آلات المدرس . وبدلوا عرس الحبوب وتذويتها ثم تغزيتها . وأخذ بانايوتي كلى حصيلته من القمح إلى الطاحونة وطحنها . وحمل الدقيق إلى بيته . وأمر زوجته وابنته أن يبدأن صحن الطحين وخبز . وبعد أن تم له ما أراد أخرج مسدسة من مخبئه وتوسط فناء البيت وشرع يطلق مسدسة في الهواء . ففد عرفت القرية بغياب الأما . وتجرأ بانايوتي ولم يعد هناك من يخشاه . وكان بين كلى طلفة وأخرى يصيح في وجه زوجته وابنتيه .

— بره . اخرجين . الخربن عن وجهي . إلى الشيطان . أريد أن أبقى وحدي .

وتدخلت جاراتهن وجثون عند قلمية يسترحمنه بمائلته . بينما وقفت زوجته وابنته ينتجن . ولكن كل هذا ضاعف من ثورته وبدأ يصيح في هياج : بره . اخرجين وأمسكن بهن من شعورهن . وجرحن إلى خارج البيت . وأغلق باب بيته عليه بالقفل والمزلاج . وبعد أن أصبح وحده أخرج سدجاة المرحى من الخزن وبعض السجق والجبن . وصفت الإزفة الساخنة حوله في شكل دائرة واستلقى وسط الفناء تحت ظل شجرة الزيتون .

وبدا يأكل ويشرب . وبين الحين والآخر يستل مسدسة ويطلق طلقة في الهواء . يستلقى بعدها على ظهره نصف عاري . ويخرج لسبانه إلى السماء ويصيح : خذ هذه لك . أيها الخنزير . ثم يقبل على الأكل والشرب من جديد .

اعتاد الجيران سماعه أياما وليالي متصلة وهو يخور ويطلق الرصاص في الهواء . وبين الحين والحين يرفع عقوفه بالفناء . ويص صوته مع الأيام وتناقصت طلقات الرصاص . وذات يوم اختلس النظر إليه من خصاصة الباب فرأوه مستلقيا على ظهره . غاريا تماما . وقد لطم القى لحية الحمراء . ويصرخ بصوته الأبح متحديا السماء : خذ . هذه لك . أيها الخنزير .

وفي صباح اليوم التالي لمسه . فير طلقة واحدة من المسدس تهبطها أثناء خروا . وتهبطا مكتومة ثم كان صمت مطبق ثقيل . وتجمع الجيران ونظروا من خصاصة الباب : كان بانايوتي متكئا على وجهه . جامعا بغير حراك وحوله القى والطعام وسط بركة من البول .

وقال اندوليس الخلاق :

— عيا تكسر الباب وتفتحه . إذ لو كان ميتا لأرجته سيصيحها إلى والعلن وتشر الأرض في كل اتجاه القرية .

وقال الشماس :

- يجب أن استدعى أولا القسيس جريجوريس .
والطلق يمدو لي الحال .

كان القسيس جريجوريس لا زال يذكر الاعانات التي وجهها اليه
باناويوتى في السجن ، فأصدر أمره قائلا :

- اكسرو الباب واتحوه عنوة ، لا بد وأنه أسلم الروح وأخذها
الشیطان . ادفعوه أتبم ، فليس عندي ما أقدمه له .

كسرت زوج بانايوتى وابنتها الباب ، وانتشلت السروجى من وسط
النذر التي أحاطت به ، وحملته الى داخل البيت ، وأوقدته فوق حشية .
كان شاحبا شحوب الموت ، هزىلا إذ فقد نصف وزنه . ويبدو أنه ترمغ فوق
شطاي من الزجاج المكسور ، إذ لظفي جسمه جروح كثيرة . ولكن لازالت
فيه بقية من الحياة ، وأقبلت زوجة عليه تغسله كما تغسل حسنا ، وابنتها
تعملان دلاء الماء من البئر وتصبانها فوقه . وبدأ يقيق رويدا رويدا ، وفتح
عينيه ، ولم يكذب بصره يقع على زوجته وابنتيه وهن يحطن به حتى تارت
تأثرته من جديد وصاح غامضا :

- أخرج . - أخرج . -

وذهب حالبا يبحث عن مسدسه ، ولكن خائنه قواه فهو على
الأرض .

واقترح انبوليس عمل كاسات دم له طوعا ، إلا أن النسوة من
جيران بانايوتى منعه من ذلك .

- وأين هذا الدم الذي ستأخذونه منه يا القنوتيس ؟ انه أسفر كالليونة
سندو الأم مائدا لينايا ترقبه وتطرد عنه الشيطان الذي تغصه .

وأطلق صبي سافيه ليربح ليذبح الطيبة العرافة العجوز .

وبينما كانت النسوة في انتظار قدوم مائدا لينايا اقترحت احداهن أن
يقمن له خراب الليبون يدون مسكوه واقترحت أخرى أن يضعن قالب طوب
ساختن فوق بطنه . وأكدت لهن امرأة عجوز أنه إذا ما بصفت كل واحدة
حنت ثلاث مرات عليه فإن العفريت سيتولاه الغزع ويؤلى الأديار .

وقيل أن تنتهى النسوة إلى قرار ، وحملت الأم مائدا لينايا تهرول في
شفت وبمها صدقات العمر من عدة النطيب : ثلاث حقائب صغيرة : الأولى
بيضاء تحوى كل أنواع النباتات العطرية ، والثانية سوداء وبها أنواع مختلفة
من المساحيق وقوارير صغيرة ، والثالثة زرقاء وتحوى على خيوط سوداء

وشطاي زجاج اتضرر وبعض القار . وقطعة من الصليب المقدس ، وبعض
ازهار اخذتها من الكنيسة يوم الجمعة الكبيرة ، وعطية خفاش . واتخذت
المعجوز فوق بانايوتى ، وحملت فيه باهتمام شديد ثم هزت رأسها ،
وانتحت يزوجه جانبا في أحد الأركان .
وهست لها قائلة :

- أنت امرأة نعمة يا ابنتى . قلبى يكاد ينفطر حزنا عليك . - ليس
هدا يا نسان ، انه شيطان مرید . هو الآن خائر القوى ، لذلك نرينه هادئا
ورديا . ولكن بما أن يلق على قدميه ثانية حتى يعود الى ما كان عليه من
جديد . كان زوجي الراحل مثله تماما ولكن حمدا لله أن اختطفه الشيطان
سريعا . - ساقول لك كلمتين ، ولكن القسسى أولا أن حديثي اليك
سيكون سرا . فليتأمل أن يوحى به لأحد حتى ولو كان لثله نفسه .

وقالت المرأة العجوز وهي ترتجف قبل أن تسمع شيئا :

- أقسم لك على هذا .

وقالت المرأة العجوز وهي تشير إلى الحقيبة السوداء .

- انظري إلى هذه . - بها مسحون محرق يفعل المعجزات . أعطه جزءا
منه على طرف أصبعك فإنه يسلم الروح بعد أيام قتال في عبوة وأمان .
ما رأيك في هذا ؟ وهذه الطريقة تتخلصني منه يا عزيزتى المسكينة .

وصاحت المرأة البائسة :

- يحق النساء لا تحذرين عن شيء كهذا .

وأجابت العجوز وهي تهر كنفها :

- كما يحلو لك . لا أبهى غير مساعدتك ، ويؤسفنى أنك ترفضين
ذلك .

وفي غيظ شديد شمت الحقيبة السوداء في صدرتها وأخرجت الحقيبة
البيضاء التي تحوى الأعشاب وبدأت بعد دواها . صنعت نقيعا من الأعشاب
وصبته في قم الرجل المريض . وأخذت قطرات من زيت مصباح العدواه
وخلطته بعبات من الفلفل الأسود وذلك بسند . ثم وضعت حجرا ساخنا
فوق بطنه . وأخرجت الحقيبة الزرقاء وتناولت منها قطعة من القمار
وصهرتها ورست صبيا فوق العبة . وبعد ذلك أخرجت النسوة كلهن
خارج البيت وأغلقت الباب ، ودلت من الرجل الذي كاد يفارق الحياة وبصفت
على وجهه ثلاث مرات . وصاحت في وجهه ثلاث مرات كذلك .
- ليأخذك الشيطان يا يهوتا .

وهرولت الى خارج الدار .

وقالت للنسوة .

- دعه في سلام . لقد رقيته . وبعد ثلاثة أيام سيكون صحيحا
صعالي .

وجمعت كسرات الخبز التي تركها في الفناء . والسجق الذي بقي
معلقا على شجرة الزيتون . وأخذت كل هذا اجرا على عملها . ثم رسمت
غلامه الصليب وانصرفت .

سارت في طريقها وهي تنتم قائلة :

- الرجال كلهم وحوش مفترسة . عليهم اللعنة . آه لو كان الأمر
يبدى لأعطيتهم جميعا الواحد بسد الآخر هذا المسحوق الذي أعرف سره
ليذهبوا جميعا الى الشيطان .

وبينما كانت تدبر المفتاح في القفل لتدخل بيتها . أصبحت ياناكوس
يمر أمامها ساخطا وقد أمسك بزمام حماره . وصاحت به :

- هيه . انظر لحظة ياناكوس عليك اللعنة . ما الذي أصاب ابن
أختي ؟ ألا نأخذكم به رحمة ؟ أدركم رأسه . وها هو الآن يمشي وحيدا
فوق الجبل هناك كطائر الوقواق . وانكب على الانجيل يقرأه . أو هكذا
يقال . . . هل سمعت بشي كهذا في حياتك ؟ الانجيل . . . بدلا من
اتجلب الأطفال من لينيو . . .

- هل هذا هو غرفتكم بجميل الرجل الذي هم ليجود بروحه من
أجبل خلاص القرية ؟ ظننت أنني مساري من يفر ساجدا عند قدميه
يعيلهما . الى المجيم أينما الرجال والنساء الأقدار . . . حفنة من الكلاب
والقطرة .

كانت المرأة المعجوز داخل بيتها قبل أن يتم ياناكوس كلامه . ولكنها
قفزت الى الخارج ثانية وقالت :

- انتظر حتى تسقط مريضنا يوما ما . وعندئذ مانتشب منجلي
فيك وأخذ يشاري منك .

ثم صفقت الباب وهي تفقهه .

لم يكن ياناكوس راغبا في المشاجرة مع أحد . إذ كانت روحه
معلقة بجبل ساراكيئا . فهو غائد لتوه من هناك وراى مانقطعت له رياط
قلبه . ثم بناه عدد قليل من الأكواخ . ولكن اللاجئين بحاجة الى الحطب
لتسقيفها . والأطفال يجلسون أمام الكهوف . وقد أسقمهم الهزال .
وغلا وجوعهم الشحوب . وسمتوا كل شيء حتى اللهب . وارتسمت على

جباههم علامات الهم . وراغت منهم الأبدان كأنهم شيوخ تقدمت بهم
السن . وعلى مرمى البصر منهم . تحت سفح الجبل . سهل أخضر وافر
الحصول . أقيمت إليه فتيات يمناديلهن البيضاء لحصاده . وسمعت بعض
الأمهات من اللاجئين يصعن الأعشاب وتغريبات يشملن النار . ولكنهن
لا يجدن الزيت والزيتون . . . لا شيء على الإطلاق . قوتهم فوق الجبل
أعشاب يتسجونها في الماء . وانطلق الرجال الى القرى المجاورة بحثا عن
العسل . وحمل القسيس فوتيس الانجيل . ووضع زكيسة على ظهره
وخرج يتجول بين القرى كشعاذ يجمع الصدقات لشعبه .

وأبصر ياناكوس شيخا صنبا يستخرج الماء من تجويف في صخرة
ليروي بها رقعة صغيرة من الأرض زرعت خضراوا .

- كيف حالك يا عمي ؟ وكيف حال قريبتكم الجديدة ؟

وأجاب الشيخ :

- حمدا لله . لا زلنا صامدين .

- الأطفال أسقمهم الهزال . واستحالمت حبيباتهم الى عصى تحيلة .

- أيه . . . لا يحزنك هذا . غدا سيكوى عودهم . قد يموت
البعض . وهذا شيء محزن حقا . ولكن الرجال . بارك الله فيهم . سينجبون
غيرهم . بذرة الانسان خالصة كما تعلم . هل لك أطفال ؟
- لا .

لا ؟ ماذا تنتظر إذن ؟ أسرع وانجب بعض الأطفال . نحن لانقصنا
النساء والحمد لله . عند غورك وأسهم بهصبيك بوضع لينة في البناء .

وانتقل ياناكوس الى مكان آخر . وتعرف عليه بعض أهالي ساراكيئا
فنفخوا للقاءه والترحيب به . وأحاطت النسوة بالحمار . ينظعن في غبطة
ونهم للخرجين الملبئين . ومدت فتاة صغيرة يدها وبسطت شريطا أحمر
وحملت فيه بيصرها . وتحسست بأطراف أمالها . وتنهت في حيرة .
ثم أعادته مكانه في المرح . . . وامرأة سرراء حامل . مدت يدها وأخرجت
من المرح مشطاً أبيض مصنوعا من العظم وتفرست فيه ولم تستطع أن
تحول نظرها عنه . أحسنت أنها عاجزة عن أن تردده الى مكانه ثانية . أخذت
عينها الملهوفتين تتنقلان بين ياناكوس والمشط الذي في يدها . غابت
مع أحلامها حيناً من الوقت . تخيلت أنها اعتلكت المشط وهربت به دون
أن يلحظها أحد . وهي الآن تجلس أمام الكهف تمشط شعرها فرحة جذلة
تحت أشعة الشمس .

أخذ ياناكوس في الحديث مع الرجال . وكان بين الحين والحين ينظر

يعطرق عينيه إلى النسك وقد أحطن بحماره ، وأيديهن تنقب في شهوة
وشطف داخل المرح لم ترتد فارغة كثيرة . ولست عينا ياناكوس وولبي
مكانه ، وأمسك بغيره ونقع فيه ، ثم وضع راحتيه حول فمه كمكب
للصوت وبدأ ينادي :

- أمشاط ، مويات ، قطن ، إبر ، مشايك ، قماش ، أشرطة ...
خذن ما يحلو لكن أيتها النسوة الطيبات ، لا أريد نفودا ، سندقم في
التمن في العالم الآخر .

لم تصفق النساء آذانهن ، تحفرن أول الأمر لكي ينفقن ناحية
الخرج ، ولكنهن أجفن وتراجعن . وقالت أعضائهن :

- انه يمزح ، ستكون سخيرة ، ارفعن أيديكن .
وقالت المرأة الحامل :

- لا أظنه يمزح .

واختلطت اللشط وفسدت إلى صفوها وولت مسرعة .

واقبلت الفتاة الصغيرة على عجل واخططت الشريط الأحمر وهي
تصيح :

- وأنا أيضا فزت بهذا .

وفزت من حجر إلى حجر كأنها غيرة صغيرة .

وضحك ياناكوس وهو يتأمل هذا المشهد ، وأعطى صخرة ، وقال
بصوت عال :

- تعالوا ، خذوا كل ما في المرح ، كونوا شجعاناً يا أحيائي ،
التي جاد ولا أهول - لن أمالككم فيما عليه ، سائقاض التمن في الآخرة ،
وأي على لغة .

وانقضت النسوة على المرح كأنهن الطير . لم يسعهن الوقت للاختيار ،
كانت كل منهن تأخذ أول ما يقع عليه يدها ، وتجري بعيدا بأقصى
سرعتها . وتماثلت صيحات متهلفة ... وفي لمح البصر اختفى كل
شي .

وصاح به شيخ :

- ترى هل أنت مجنون أم قديس ؟ أيها انت يا إني ياناكوس ؟
وضحك ياناكوس وقال :

- لا ، بل أنا مزاحي . سيدة في الرب الرحيم تمن كل هذا مع
الفاثلة أيضا .

- سمعت يا بني أن أجدادنا كانوا إذا ما أقرعوا مالا يتسلمون
أيصالا بذلك إلى أن يدفع لهم التمن في المسالم الآخر . ولكنكم كانوا
أصحاب إيمان وعقيدة .

وأجاب ياناكوس :

- وأنا أيضا صاحب إيمان وعقيدة .

وشد لجام حماره ، وقال لهم :

- طيتم سلاما ، وإلى اللقاء .

وانصرف والغبطة تملأ جوانحه .

وفي طريق عودته ، وقيل أن يلقي بالأم ماندا لينيا ، التقى عند
صلح جبل ساراكيثا نيكولوي حاملا شاة فوق كتفيه متجها إلى القرية .

ناداه ياناكوس :

- هيه يانكولوي ، كيف حال مانولي ؟

استدار نيكولوي وهو يضحك وقال :

- انه دائم القراءة والتأمل ، هذا الرفيق المسكين ... إما أنا
فسوف أتزوج وها أنا أحمل هذه الشاة إلى سيدي .

ودار على عقبيه ، فأنار سحابة من الغبار حوله ، وبدأ يرفض
والشاة حول رقبته . كالأوجه يتألق تحت أشعة الشمس كأنه قطعة
من البورز ، وأسمانه يضيأ متلألئة .

واردف قائلا :

- سأزوج لينيو أيها الشيخ ، هل سمعت عن لينيو ؟

وضحك ضحكة صاخبة - وقال :

- هل لك في حكمة ياناكوس ؟

- قل يا نيكولوي فأت عتري مبدع .

- الحياة قرحى يفتنهما السباعون .

ثم انطلق يحدو صوب القرية .

حقا ما قال نيكولوي ، فقد انقطع مانولي للانجيل ، يقرأ ويتأمله
أبدا الليل وأطراف النهار . انكب على الكتاب المقدس ، وكان في أول
أمره يتكابد في عناء ويتصيب عرقا أمام كلماته ، يتعجى حروفها في محاولة

منه لكي يسير نحو صايبها الحقة . وكل كانت شابة وعسيرة تلك المهمة كانت كل كلمة من كلماته تشبه بحجة اللؤلؤ . وكونه والتموه الخلوة يداخلها جهد وعناء . فلا بد له أولا أن يكسر القشرة الصلبة التي حولها . ورويدا رويدا مع الأيام ومع عاطفة الحب العائرة لانت القشرة الصلبة . تصورها أنفاسه الحارة فتفتش الكلمات رجدها وتكشف عن معانيها في سهولة ويسر . وفجأة وضع أمامه كل شيء . لقد استحال المسيح الى جسد بشري ذاتي . تنزل الى الارض يعطى الودعاء والبسطاء من الناس ويبلغهم الكلمة الطيبة . ويبدأ مائول منذ تلك اللحظة يقتفى اثر المسيح . يتبعه خطوة خطوة في غير مشقة أو عناء . منذ أن ولد في بيت لحم وسط الرعاة - ومائول أحدهم - وهم يرتلون : « أوصانا في الأمان . مبارك الآتي باسم الرب » . واقتفى الأثر القدسي للمسيح حتى يوم الصلب . وشاهد الصليب المخضب بالدماء . وعان القيام المجيد عندما قام المسيح من القبر في يوم سبعت شمسه ودخل قلب مائول .

وكان مائول يمسك بين اليدين والأخرى بكثرة الخشب التي نقش عليها وجه المسيح . يجوها بحيث تصبح قناعا يلائم وجهه . وذات يوم وبينما كان مقبلا على عمله هذا . متكبها عليه . طاشت بخاطره ذكرى عالم اللاهوت الذي أتى الى الدير من اسطنبول ليحتفل بعيد القيامة . وكان مائول آنذاك لا يزال حديث عهد بالدير . ففي صباح يوم سميت التور ارتقى هذا العلامة المسير منابيط أصاير ضخمة . وتحدث الى الرهبان البسطاء على مدى ساعتين كاملتين . واستخدم في حديثه اليهم ألفاظا غريبة متعمرة مما يستخدمها المتفكرون عادة ليفسروا بها سر القسام . وكان الرهبان حتى ذلك الوقت يرون قيام المسيح حدثا طبيعيا جفا وبسيطا للقاء . ولم يسألوا أنفسهم أبدا كيف كان هذا أو لماذا حدث . . . كان قيام المسيح يبدو لهم بسيطا مثل السلخ النهار من الليل . وشروق الشمس كل يوم بعد الظلام . ولكن اذا بهذا العلامة اللاهوتي الخفيف يخرج عليهم بكل كنبه وعنه ليشوش أفكارهم . . . وبعد أن عاد الى صومحته قال له الأب مائول :

- ليفعل الرب يا مائول . فلهذه أول مرة في حياتي اقتنعه فيها الاحناس بقيام المسيح .
وبين الفينة والفينة يسبح مائول اللذان على وجهه ليتبين ان كان قد اللام مع وجه أم لا . وذات مرة لما جاء نيكولاي والفضاء على وجهه فخرق في الضحك وقال :
- أعمالك يا شيخ مائول ارتدت الى طفولتك ثانية . ما أنت تغمض

بالاقنعة والعرائش . ماذا فعلا ؟

وابتسم مائول . وقال في هدوء :

- لا . أنا لا أغمض .

كان نيكولاي يحوم حول مائول منذ أيام عدة . يود أن يقضى اليه شيء . بيد أن الكلمات كانت تجف على لسانه ويحس بضقة في حلقه . ولكنه حسم أمره اليوم . دنا من مائول وجلس بجواره وانحنى عليه يتطلع الى كتلة الخشب المحفورة . بينما كان يفكر في شيء آخر . وأخيرا لكر ركبة مائول بركته . وصاح بعدها بأعلى صوته كأنه يتناديه من فوق الجبل المقابل :

- مائول . اسمع يا مائول .

- تكلم يا نيكولاي فاني أسمعك . ولكن لا تصرخ هكذا . تحدث بصوت خفيض فليست أسمع .

- سأقول لك شيئا . ولكن أسألك ألا تغضب . هل توافق ؟

- لن أغضب يا نيكولاي . فل ما تشاء . ولا تلكنني في ركني فان هذا يؤذي .

وصاح نيكولاي . وهو يقبض على عصاة الرعي بقوة . وينتهي لضرب مائول اذا ما حاول أن يهجم عليه .

- سأزوج بليبيو .

وابتسم مائول وقال :

- أعرف ذلك .

واتسمت عينا نيكولاي دهشا . وقال :

- أعرف ذلك . أعرف ولا تنتفض على تسلك بختاني ؟ قسما بهذا الحيز لو أنني متأكد لقتلتك .

- اني ابارك زواجكنا . أتمنى لكما الصحة والسعادة . وأتمنى لكما حياة مديدة . . . أن تبدا بكما الحياة حتى يتقدم بكما السن وتنجبا أطفالا كثيرة . ويكونوا رجالا برة القياء .

واطرق نيكولاي لحقة برأسه متأملا . ثم تمت قائل :

- هذا . . . هذا ما لم أكن أظنوه . انه فوق طاقتي ! ان ألت لا تريد قيل ؟

يسف مائول ذراعيه واحتضن الرائي العجيز .

ولكن ساور الراعي الصغير القلق . وعاد يقول :

— هل سقا لا تريد قبل ؟

وصحبك مانولى وهو يقول :

— لا ، لا يا عزيزى نيكولايو . لا أريد قتلك .

وحب نيكولايو واقفا فجأة وقد تسلكه الخوف . وألقى نظرة مودعة إلى مانولى الذى انكب على عمله من جديد يعطر كتلة الخشب . وحدث نفسه قائلا :

— مسكين هذا الفنى . انه ليس على ما يرام . لقد أصابه مس من الجن .

وبدا يقفز من سخرة إلى أخرى ، ويضع اصبعيه فى فمه ويصغر . وأقبلت الكلاب تعذر . وتجمعت الأبقار . واستعاد نيكولايو هدوءه وسط الحيوانات التى عرفها وألفها ، وعرفته وألفته .

وظافت ليلى بخاطر مانولى لحظة من الزمن . ورأى غمازيها . كانت خفيفة نضرة صيل لها العلاب . . . وأسند كتلة الخشب إلى ركبتيه . وعام مع أفكاره فترة طويلة من الزمن . وأخيرا تتم قائلا :

— انى أباركهما . استننا الطريق الذى رسمه الرب الرحيم للإنسان على الأرض . أما أنا ، فانى أكاد لأشقى نفسي طريقا آخر . لا زوجة ولا أطفال ولا متع . سأنهض فى الحياة الدنيا وأنفض الأرض من تحت قدمي . . . هل أنا على صواب فى ذلك ؟ كان يسوع المسيح على صواب . وهو الرب الهنا . هكذا كان . أما الإنسان ؟ ليست هذه خرافة منه تفوق طاقة البشر حتى يحاول أن يقف أثر الرب ويتشبه به ؟

لم يهتم إلى إجابة فى نفسه على سؤاله هذا . وقد اعتاد أن لا يسأل نفسه فى اللحظات الخطيرة المرحلة ويأمر أن يتقدم بخطى ثابتة وفى إيمان . وان كان فى غير هذه اللحظات يسأل ويتردد ويترنن الأمور ويندبرها . ولكنه لم يشعر فى يوم من الأيام بمثل ما يشعر به اليوم من إيمان يملأ قلبه . وسعادة خالصة تقوده . اللهم الا يوم أن خرج يسوع إلى حلقه نطقه وهو مؤثق اليدين من خلاف .

وعند أيام قصد جبل صاركيا . يسأل القسيس فوتينس العون والمساعدة فى بعض ما يحس عليه . فربما صادفت القسيس فى أيامه الأولى نفس الحنة التى يعانى منها مانولى الآن . وربما استطاع أن يمد له يد المساعدة . ولكنه لم يجد القسيس هناك . إذ كان قد خرج فى

سولنه بين القرى المجاورة يجمع الصدقات . وعاد مانولى إلى خلوته . وأمسك بالإنجيل . فهو ملاذه الذى يلهمه الإجابة على كل سؤال .

فتح الكتاب الصغير متلصقا بفح الناس أبواب بيوتهم المطلة على البحر على مصراعيها فى يوم قائل . واستغرق مع الآيات القدسية . وأحس بالراحة والانتعاش . ونسى الأسئلة التى كانت تلح عليه وتؤرقه . لم لعد أفكاره تنهال عليه بالأسئلة . إذ كان قلبه يفيض بالإجابة على كل ما يمن له . وأثار الله بصيرته .

ونفض واقفا بعد أن فرغ من الكلمات الأخيرة لغناح المسيح . ووضعه على وجهه فكان ملائما تماما .

وقال :

— حمدا لله أن فرغت منه .

وقبله . ثم دخل الكوخ . وعلق الفناع فوق الجدار بجوار الأيقونة العتيقة التى تمثل الصلب وعصافير الحنة حول الصليب .



إن تصعب كاترينا الأمثلة هذا العام لاحتفال بعيد القديس إيليا كانت قد اعتادت فى مثل هذا اليوم من كل عام أن تنفض من نومها وتضجح تسرحا برزيت العار . ولذاتك أسنانها بورق شجر الخبز . وتنفذ عنقها بقلادة من الأحجار الكريمة الزرقاء تقيها عن الحسود . ثم تأخذ الطريق الجبل الصاعد إلى القديس إيليا . تصعد إليه وحدها دون رفيق . فلا أحد يرضى بالانتراب منها . وتفر مناجاة . كغيرها من الناس . إمام الأيقونة . وقد يزدجها النسي العاتى المهول . وينظر إليها غامضا . ولكنه يعجز عن التذلل من البحر الذى نقش عليه . أو أن يخرج من تحت تدور الفضة التى تكسدت فوقه وسحه لحنها أولياؤه . ولكن الأمثلة التى كانت تعرف عنه ذلك . كانت نواحيها الجافة على أن تستخدم نحوه وتلقه دون خوف بشفتيها المصوغتين بالحضاب ولكن ها هي الآن ترتد تحت الثرى . واختفت ممها آلتاها . الشعر المصنح بالعطر . والتشفاه المصبغة بالحضاب . والوجوات المتوردة . والجديد المرمى اللامع ربما لم يبق منها لم أصانها لا زالت تلمع كما يلمع الحصى الأبيض على شاطئ البحر .

وبانايوتى عاجز هو الآخر عن مشاركة الناس استقبالهم هذا العام . لا زال طريق القرائن . يهدد ويتوعد كمثل أصابه حسي . ولكن ابتداء فحشا باب دارهما . وما الآن تصعدان الجبل مع الصاعدين . سمراوان جيلتان . بستان . يعلى شفتيها زغب أسود رقيق . ويتصببن من تحت أنفيهما

العرق ، ومع العرق تفوح رائحة المسك . كأننا أشبه بانثنين من انات الذهب . أحدهما موسم التساعد . تطلقان نظرات لهمة متضرعة يمينا ويسارا تحرقان شهوة بحثا عن ذكر . أم لو كانتا بقرتين إذن حارنا في حزن ، أو ليؤتينا إذن لزارنا ليلا وسط الغاية ، أو تفتتين إذن لنمرغنا على ظهرهما فوق الرغام وتسلفنا الأسطح وهما تموءان . ولكنهما امرأتان لذلك فانهما تفسدان من طرفهما في خبث اذا مر بهما فتى ، حتى اذا ما تجاوزهما غرقنا في شجوك كله دلال ، وتتحقان منه مادة للسخرية . انظري اليه هذا المسكين ، انه مقوس الظهر . هل رأيت ساقية؟ كأنها ديومين ... أين لنا بقى وسيم ! تسخران منه ، وتثيران حفيظته ، لا لشيء الا لانه من بهما كريما دون أن يهرول نحوهما ملهوقا .

وخرج اندونيس الحلال أيضا ليشارك في الاحتفال . لحيته طويلة . فقد تزاوج عليه الناس وتضاعف عمله فلم يجد وقتا ليحلق لحيته . وهو يقبض النسي ايليا ويكرهه : فكل رجال القرية يقصدونه للتزين قبل ذهابهم للاحتفال . ويصاحب أكثرهم بعضى آلام البرد عند عودتهم فيلحون في طلبه لعمل كاسات الدم ، وهو مصدر دخل مضمون له .

اذن لماذا لا ينظر الى النبي ايليا نظرة اكبار واجلال ؟ وهو خير في صنع الأسنان ، ويعرف الناس عنه ذلك . ولكن الأشقياء من أهل القرية استعانهم بقوة قادرة على تكسير حبات الجوز . وتملأوا طريقة جديدة طلع الإنسان اذا ما تخلخلت احدها ، ففن يكلفهم ذلك أكثر من خيط يربطون به السنة ويجذبونها بقوة فتنتزع من منبتها ... ترى لى شيطان هدهم الى هذه الحيلة ؟ وليس عليهم بعد ذلك الا أن يشربوا بعض العرقى . وبعد ساعة يعودون الى تكسير حبات الجوز ويأكلونها مزة مع الشراب .

وسار اصداقنا الهوينى في مؤخرة الركب يتجادلون أطراف الحديث في دفة . كان ميشيل وباتاكوس في بداية الأمر يسيران خلف القسيس جريجوريس ، أحدهما غيباء على حمالة الذي انتطع ماربوري يحته بين حين وآخر ينداه محب اليه ليطنن ياله الى انه بجانبه ... والآخر يجانب ماربوري يرافقه في مسيرتها . ويبدلها نظرات مشوقة لهوى . فيستبيل محب بحفيظته ... يبتاض بشرتها ورشاقة عودها وحياها . وهي معجبة به أيضا . لا تمل النظر الى محياه الجنون الوديع وشعره الأسود الموج ، وهيته الوقورة المهيبة . وتحت اشعة شمس الأصيل الحانية ، وضوئها الخافت الذي يقرى بالحليقة ووسط هذا الخشد اللجب الذي يرتقى الجبل ، غاب الجيبان عن الوجدان ، وذاقا في صمت مع الحيال طعم القيل وأحضان المستقبل .

فتحت ماربوري عينها الكليلتين على الساعها وثبتت نظراتها في الهواء فأبصرت ماربوري أخرى تحنن طفلًا وتلقه تديها . وما أن وقع بصرها على قمة الجبل الصلدة حتى تمتعت قائلة : - يا نبينا ايليا ، انى أطمع في رحمتك . وأمالك أن أتجيب طفلا مثلك .

وأنى قسطندي وراهم ، هو وعالمته ، يسير على مسافة غير بعيدة عنهم . زوجته في الممدية تمتطي صهوة بغل وطفلاها خلفها ، وقسطندي يسير على قدميه صامتا . ماذا عساه أن يقول ؟ وعن أى شيء يتحدث ؟ لقد قالوا كل شيء وأعادوا قوله مرار ومرات ، حينما حديثا كله مودة ، وحينما آخر خصاما وشجارا . ولا زالت الزوجة حتى الآن تتور في وجه زوجها ، وتدخل معه في شجار . ولكن قسطندي الذى السلاح ولاذ بملوك السوات كما قال من قبل وقتع باليست .

ووجد الرفاق الثلاثة أنفسهم ، عن غير قصد منهم أو تدبير ، وقد انفصلوا عن الركب وساروا في المؤخرة .

وتسأل قسطندي : - أين مانوى ؟ ألم يأت معكما ؟ أم ترى انه تخلف عن الاحتفال ؟ وأجاب ميشيل :

- ذهب لزيارته بالأمس في المرحى ، بيده ألتي لم أحده هناك . ناديت نيكولوي وسالته عنه فقال لي : خرج مع مطلع الفجر فاصدا النبي ايليا . حمل معه حرة ماء وحزمة من اغصان شجر الغار ولم يرجع بعد . انه غريب الأطوار . لم يعد سويا مثلكا كان ... وغدا يتبين لك صدق كلامي يا سينتي ... سينتي به الأمر الى الجنون ... بل انه بدأ يفقد عقله بالفعل . قلت له اننى اغتصبت منه لبيو فلم يقتلنى لذلك . وهو اليوم متكبد على القراة والترثيل . وغدا سينقلب الناس بالحجارة .

وتعرق الرفاق الثلاثة في الضحك . وقال ياناكوس :

- حقا تغير مانوى ، فلم يعد كما تهدناه سابقا . صدقوني ان شئتم يا اخوتي ، وربما ارى الأشياء على غير حقيقتها ... ولكن حدث ذات ليلة ، وكنت معه وقتذاك ، ان كان جالسا فوق الأريكة الحجرية . مستندا رأسه الى الحائط ، فرأيت حالة من النور حول رأسه . كانت اكليلا من النور مثل هالات النور التى تحيط بالقدسيين فى أيقوناتهم ... هل تصدقون ما أقول ؟

وقال ميشيل :

- أنا أصديق ما نقول .

وقال قسطنطين :

سوانا أيضا .

ثم لفهم الصمت .

أصبحت الكنيسة الصغيرة على مرمى البصر الآن ، بوضوح تام .
فقد ظلت يالخير منذ أيام قلائل ، وتحيط بها الصخور شاهداً . وهذه هي
الصورة التي يبدو عليها النبي الموقود فوق الأيقونات ، يظهر بين صخرتين
كبيرتين ميسوطين كاهنهما عن يمين وعن شمال . وبالفعل فقد
أصبحت هاتان الصخرتان الوعرتان أشبه بجناحين للنبي إيليا في وحدته
فوق قمة الجبل الشاهقة يحملان الكنيسة بعيدا إلى عتبات السماء .

وترى يجالِب الكنيسة أطال صومعة كانت في قديم الزمان سكنا
لرهب زاهد لا بها ليكفر فيها عن خطاياهم . ولا زال هناك المقعد الذي
كان يجلس عليه وقد نخره السوس الآن . وترى مسجته معلقة بسمار
فوق صخرة كبيرة . وحسب متخفا كان يستخدمه كحزام يشده حول
وسطه ، وصلبها صغيرا له شراية موداه نظرفه ، وعلى مسافة غير بعيدة
ترى صليبا معدنيا يشهد على مكان رمسه . وحجرا نقش عليه اسمه الذي
منحه الأيام .

ومع مطلع الفجر ارتقى الشمس الجبل فاصدا الكنيسة الصغيرة
لينظما استعمالا للإحفال . . . يضيء المسامح ، ويرين الكنيسة
بأفصان شجر الغار . ولكنه لم يكن يفتح الباب حتى صرخ صرخة عالية ،
وجند في مكانه مأخوذا . وطق ينتم : « كيريا لا يسون . . . كيريا
لا يسون . . . كيريا لا يسون » ويرسم علامة الصليب القرة بعد الأخرى
في لهفة وخوف . كانت الكنيسة الصغيرة نظيفة تماما ، متألقة . أرضها
مكتوبة ومفسولة ، وحدرانها أزرق عليها الغار ، والشمعانات نظيفة ،
والصايح ملئت زينا ، والأيقونات مزينة بأفصان شجر الغار . . . ونار
موقدة أجرت فيها عيدان البخور . فتضوعت الكنيسة عظما .

صبح الشمس جهته يديه وقد ألجمه الحوف فلم يحضر على الدخول
كان يخشى أن يكون ذلك لا يزال بداخل الكنيسة مختبئا وراء المذبح .
وتذكر ما حدث له ذات صباح في كنيسة القرية حين ذهب لينظما فوق
بصره على كبر الملائكة ميخائيل بداخل الكنيسة على يسار الحجاب ، وبسط
الملاك جناحيه في بده . وفي بدها غفيا ثم غاب عن الأنظار . ومنذ تلك
اللحظة وهو يفرح لرؤية الملائكة والمعجزات .

وجلس عند عتبة الباب . وكان بين القبة والقبة يجلس نظرة
رحلة إلى داخل الكنيسة . ومضت الساعات نياما ، ولم يظهر للأحد .
وجاء الشمس يسترد شجاعته وريدا وريدا . وشعر بالجوهر . ففتح
برابه وأخرج منه كسرة خبز وقطعة جبن . ولكنه أحس القياضا في
حلقه يعوق مرور الطعام . فتناول زجاجة الشيد وعب جرعات منها .
فأشبع ذلك قليلا ، واليسطت عضلات حلقه . وأقبل على طعامه . وبعد
أن فرغ الشمس العجوز من طعامه وشبع ، استجمع شجاعته ورسم علامة
الصليب . وأجاز العترة في حراة وأقدام ، ودخل الكنيسة . وعر
ساجدا أمام النبي إيليا . وفي تواضع ذليل أزاح ستار الحجاب وجال
بعينه فلم يجد أحدا .

وقال :

- حمدا لله أن نظم كل شيء ، ولغادر المكان ونجوت منه .

وأراد أن يزيى وقته ، ليبدأ يكس ويسبل البلاط وينفض القبار ،
ويطعم الشمعدانات ويصف الصحف القوية فوق النضد . كان الشمس
العجوز مقوما بهذه الكنيسة الصغيرة ، إذ أنها ترتبط بحياته ارتباطا
وثيقا فهو الابن الوحيد لأبيه الذي توفي منه لغا طويلا . وسعدت أن
ألم به مرض وهو لا يزال في العهد صبيبا . وقصد أبوه النبي إيليا . بعد
أن ينس تساما من شقائه . ولذا لم يطفه الوليد أن يعمل شماسا في
خدمته إذا برى من مرضه وعاد صحيا معافا . وقد كان شفى
الطفل واستعاد صحته ، وأولى أبوه ينزله .

وتذكر الشمس حياته الماضية وتنهذ . ظهرت علامات غريبة يوم
ميلاده . ولد منذ خمس وسبعين عاما . ظهر يوم الجمعة الكبيرة . وفي
نفس الساعة التي صلب فيها المسيح . وأعلنت القابلة أن الطفل يسوع
أسقفا يوما ما . وكان أبوه مسيحيا تقيا ورجا . سليل أسرة عربية ذات
جاه . لذلك فقد آلى على نفسه منذ تلك اللحظة أن ينظر ابنه الوحيد
لدراسة اللاهوت ليحقق هذه النبوة التي أصبحت أمل حياته . وسارت

الأمر وفق ما يحب ويهوى . فقد بر أسقف المستقبل أقرانه . وتبين
عليهم في دراسته ، وكان ذكيا تقيا . وأتم دراسته بمدرسة المدينة .
وحاز تقديرا جيدا . وتهيبا للسفر لدخول معهد اللاهوت العالي في
القسطنطينية . . . ولكن . وبينما كان يتأهب للسفر . حدثت ذات مساء
أن خرج . وكان الليل صاميا . وسار في درب مفر . وفجأة اغترض
السيطان طريقه . كان اسمه كيرياكولا : سراه . قصيرة . تناهز الثانية
عشرة من العشر . ناخرة الشدين في امتلا . علو شلتها حال الحسن

والجمال . وقد استقبل المستقبل صوابه . ودارت رأسه . وتعقب الفتاة . أسره عواما . وسياه خال الحسن والجمال على شفتيهما . توسل إليه الأب المسكين ألا يجحد عن طريقه الموسوم الذى اختاره له الرب . وذرف الدمع . ولكن عينا . لم يجد كل هذا فتبلا مع أسقف المستقبل . وأمر على الزواج بها ولا أحد سواها هي أو لوث انتحارا وتزوج بها .

وكثيرا ما يعزى نفسه قائلا :

— حمد الله أن أصبحت شماسا ولم أضل الطريق .

وهكذا مضت الساعات تباعا وهو غارق حينما مع ذكرياته عن حياته الماضية . أو مكيا حينما أصر على عمله المالكوف . وبدأت الشمس تميل ناحية المغرب . وعاد الشماس إلى حيث كان يجلس يسوق العتة يمتع نفسه بالنظر إلى الحجيج وهم فى طريقهم صاعدين إلى الكنيسة . ظل فى مكانه لا يبرحه كأن اليوم يوم الاحتفال بميلاده هو . وما هم أسدقاؤه يفلتون إلى داره يهتولونه ويمتنون له عمرا مديدا .

وترامى إلى سمعه نقيق الحدير . يكاد يسمعه واضحا . وتهض من مكانه . وأمسك بالجل . ودق الجرس الصغير عن العيد .

كان القسيس جريجوريس أول من ظهر من الحجيج . متعبا صهوة بغلته . تخاله متربعا على العرش . وهرول إليه الشماس ليحبه به ويعينه على النزول .

وقبل أن تمس قدما القسيس الأرض . سأل الشماس قائلا .

— هل كتبت الكنيسة وطلبت الشعمدان ؟

وفى خضوع وذلة أجاب من كان يود أن يصبح أسقفا يوما ما :

— كل شيء على ما يرام يا أبانا .

لم يجزئ على أن يرض عليه المعجزة . إذ أراد أن ينسب الفضل إلى نفسه .

— هل وضعت الصحف فوق النضد كما أمرتك ؟ قلت لك ثلاث صحاف : واحدة للبابا . والثانية للقسيس والثالثة للشعوب

وأعاد الشماس إجابته الأولى بصوت ذليل :

— كل شيء على ما يرام يا أبانا .

فى هذه الأثناء وصل الحجيج . وتوافدوا على الكنيسة . ووضخوا منابيل القمح وعنايق الكرم فوق النضد . وأخرج كل منهم حافظة تقوده

ودفع تقدمته فى صفحتى البابا والقسيس . ثم اشترى شمعة وذهب فى شوارع ليخبر ساجدة أمام النسي المهيول . ظهر النسي فى إيقونته واكبنا مرة من نار . تشدها أربعة خيول أرجوانية اللون . وتقف به عند حافة حادبة مسجفة . ومركبها وراه كهنوتيا أرجوانيا أيضا . وألحسة اللهب تصاعد من رأسه . تراه مندفعنا بسرعة مروعة فوق الجبل حتى تتحالف العربة معلقة فى الهواء . وسقط منها ناسك وسط جلايد الصخر .

ودفع راحته فوق عينيه وهو يحلق مذهورا .

وهست امرأة شابة استحوذ عليها الاغراب بالنسي :

— إنها الشمس إنها الشمس . يا عزيزتى .

وقالت أخرى :

— بل إنها القديس إيليا . لا تخشى تقواك يا عزيزتى ماريورى .

وقالت ثالثة :

— كلاهما سواء . عيا نركع له وننتهى من ذلك .



غربت الشمس ولم تسطع النجوم بعد . فلا زال النهار يقاوم فى رأس . تسلق الجبل ولأ بالغم المرتفعة . ولكن الليل يفتى أثره . يسلمق خلفه ويتعقبه من صخرة إلى صخرة حتى بلغ مقلته الأخير فى الكنيسة البيضاء الصغيرة . كنيسة النسي إيليا . وانهار النهار ولم يمه يقوى على المقاومة فقفز إلى السباوحتفى هناك .

وفى هذه اللحظة وصل لاجئو جبل ساراكتيا ليحتفلوا بدورهم . نساء يتبرون الرثاء . ثيابهم مهلقة . وجناهم غائرة من أثر الجوع . يتقدمهم القسيس فوتيس مسكا فى يده بعضا الرأعب المعدنية الصغيرة . وكانوا آخر من وفد إلى الكنيسة . لا يملكون ما يضعونه فى السحاب . فاكفوا بالنجوة صغر الديدن ناحية القديس وخرخوا أمامه سجدا عظاما .

ولغرس الأب فوتيس فى القديس وتمتم : . تسالك الصلح والمغفرة أيها النسي المهيول . كنت مثلكا فغيرا مهلهل الثياب . لم تكن تملك غير النار الملطية . ولا لنا لملك بقىس منها . نحن معشر اللاجئين إلى جبل ساراكتيا . نسمدا أن تحييك يا رفيق .

وسجدوا ثانية . ثم خرجوا وتفرقوا بين الصخور وراء أهل ليكوفريس ذوى القوة واليسار . وخف إليهم أسدقاؤنا الثلاثة . وحبوا بهم وقبلوا يد القسيس .

وقال له ميشيل ججلا :

- سنالك الصلح من أهل قريتنا . فإن حقايبهم مليئة .

وقال القسيس فويس :

- بل ليغفر الله لهم . انه هو المغفر لا أنا .

وصمت . ولكن عيناه كانتا تطلقان لهيبا . إذ عاد من جولته اليوم خاوي الوفاض . لم يتصدق عليه أحد . وكان يتأمل في غضب . من فوق الصخور العالية . العقول التي حصدت حتى تخالته النبي إيلسا يخلو وسط الاله .

وقال القسيس فويس :

- الأرض أرضهم . فليمتنعوا بها . وليمنعنا الرب السماء فتكون نصيبنا .

ثم لا بالصلح .

وسط الحجيج مناجيد مختلفة ألوانها حول الكنيسة الصغيرة . وفتحوا حقايب مملوءة طمانا . وبدأت أسنانهم تعمل مضغاً في الطعام . ومالت زجاجات النبيذ على ألوانهم . ومالت معها الأمتعة . وتوزعت صوت كركرة النبيذ . واستنحات خنوة النبي الجادة إلى مكان يجمع بالضحكات والصفحة .

وأضأت بعض المصاييح بنورها وسط الحجازة . والغت بضوئها على وجوه النساء المفضية بلون أوجواني . وتحوير الفتيات الرخصة الرشيفة . وشوارب الرجال الغسنة . وغلق فالوس كبير فوق حائط الكنيسة فأضاء نوره الوجحات البضة والفتحة المنيعة للصداء بطريارتكاس . وظهرت إلى جوارزه حبة بيفدا شائكة مع الفككي وحسا يصفغان الطعام . جلس رئيسا القرية وكبيرها . العمدة والقسيس . جنباً إلى جنب . وفي بعض الأحيان كان يسقط شعاع من ضوء المصاييح على يدى ماربوري الواسعين النجيبين وهي تشوي اللحم . وتختم الميندلين النهمين اللذين لا يشبعان أبداً .

وحبت المصاييح والظلمات الواحد بعد الآخر . وزحلت الظلال . وغطت المنطقة المحيطة بالصخور المقدسة . وتاهت كلها في الظلام . ولم تعد تسمع غير ضحكات غنجة للفتيات وتواوهات ذات دلال . ثم سرعان ما خيم الصمت . وبدأت كائنات من البشر تزحف كالعقارب بين الصخور مشي مشي لتحفل بيني الشار عن طريقها الخاصة .

ودعا الرب النهار فليس الدعاء . وظهرت الشمس في غربة من نار . أما ينظر النبي إيليا تماماً . ونهض البشر على أقدامهم وتناهبوا وتملأوا . مازاً ومسحوا عيونهم بأيديهم . واحتسوا الفتوة ليكمل مسجوعهم . دون التافوس الضني الصغير فذات سريعة جذلة رن حسداها الواهن من حنيات الجبل . وانتشر الصوت في كل الأرجاء يقطر تباها كأنه شلال تساقط مياهه دفقا ثم تنتشر لتغير السهل .

وظهر مانولى وسط الأكام . متكئا على عصا الرعي . عادثا . متسما . وتقرص بعينه فيمن حوله حتى وقع بصره على رفاقه والقيين فوق سحرة شاحقة يحولون بنظراتهم القلقة بحثا عنه ناحية الجبل حيث يكفم صاك . وأحس بالغبطة لمراحم . وخف اليهم يلفز فوق أجساد بعض الحجيج الذين لمددوا على الأرض . وفتح ذراعيه وضنهما إلى قلبه . ولنت عنهم صيحة عالية .

وقال ياناكوس :

- قضينا الليل يطوله نتنترك . - فإذا لم تحضر ؟ قلت لنا ...

وقاطعه مانولى متسائلا :

- هن كل شيء . معدا

ثم يصفق الرفاق الثلاثة أذانهم وقالوا .

- معد ؟ أى شيء كان ينبغي أن يكون معدا ؟

وقال مانولى متسما :

- الأرواح السقيطة . والظهور لتتلقى الضربات . والأمواد تصرخ !

وأصك ياناكوس بذراع جديدة ومسالمة :

- هل ثمة لسكوة جاهزة في رأسك ؟ أتى معك رهن الموت والحياة .

وأجاب مانولى :

- ليس ثمة فكرة في رأسي . ولكن ربما الرب يوسع رحمة لديه . ما يشاء أن ينفذ . لذلك يجب أن تكون على أهبة الاستعداد .

وفارت عيناه فيما حوله . ثم قال :

- أحب قمة الجبل هذه . وأحب هذا النبي الذي اتخذ النار مطبة له . وضرب الأرض بقدميه وأزلق عنها بعيدا إلى عنان السماء

أشهر اليوم إلى أحب أهل القرية ، أيدانهم لطيفة ، عيونهم لامة ، ثيابهم مهينة أريقة . ويبدو أنهم على أعية الاستعداد . البعض لتستعمل فيه النار . والبعض الآخر ليشتعلها . ترى هل نحن على أعية الاستعداد أيضا ؟

وفي هذه اللحظة ددعت صوت كهرزيم الرعد عند الهيكل . هو صوت القسيس جريجوريس . بدأ القدامى فصمت الرفاق .

وتراهم الناس داخل الكنيسة حتى لم يبق فيها موضع لقوم . ووقف من لم يسعدهم الحظ . خارج الكنيسة فوق الصخور . وتسللت الترابيل إلى الخارج من الباب الأمامي ومن النافذة الصغيرة في الخلف . وتردد صوت شحي حنون كان رجع صدى أرواح أسلافنا الأول الذين أبدعوا هذه الترابيل لاله الرب .

انتهى القداس ، وخرجت الجموع . واعتلى ناظر المدرسة صخرة كبيرة . كان شاب الوجه . وشرع يتحدث إلى الناس بصوت أجش يمدد لهم فضائل النبي إيليا ويتغنى بمآثره . وسرعان ما انتقل فجأة ودون أية مقدمات إلى تعديد مناقب سلالة الاغريقي . وبدأ يقارن بين أيوللو والنبي إيليا . ثم قارن بين النبي إيليا ونور الشمس . وأخيرا بين وبين الروح الخالقة لشعب اليونان التي تعلبت ظلام البرابرة ودحوته تماما . وفي مهارة خالقة انتقل من حديثه هذا إلى الكلام عن الاحتلال التركي . كان حريصا غاية الحرس في حديثه أول الأمر . وفجأة أفلت منه الزمام . وأطلق لعواطفه العنان . وفي صراحة متناهية ودون مواودة بدأ يشند النشيد الوطني .

وبهت الحجيح أول الأمر . ولكن بدأت تسرى حرارة النشيد في دمعهم . وأنشدوا معه في قوة وانفعال وحماس بطولي :

أيتها الحرية ، أعرفك من وضعة سيفك البتار ...

وفجأة رأت الجموع النبي إيليا وقد تحول إلى فرق من المفدائيين الذين حاربوا الاحتلال التركي الطويل على قمم الجبال الوعرة وقد ارتفعت تلك الفرق الزرى الوطنى الذى يتميز بخليق أحمرين ليشين ، وتسلحت بالبنادق .

ومال مانول على رفاقه الثلاثة وأعاد سؤاله من جديد :

هل أنتم على أعية الاستعداد ؟

وأجابوا جميعا فى صوت رجل واحد :

— نعم . نحن على أعية الاستعداد . تقدم باسم يسوع المسيح . لم تكن لديهم فكرة واضحة عما ينوى مانول أن يفعله أو يفعلته . أو لآى شيء ينبغي أن يكونوا على استعداد . ولكنهم شعروا أن أعماقهم أن أرواحهم يقظي متأهبة لكل شيء .

وفرع ناظر المدرسة من حديثه . وبدأ ينزل من فوق الصخرة ودمه يغلي فى عروقها من حرارة الحديث . وأغزورت بالدمع عينها الشبيخ بطرياركاس ، ورفع القسيس جريجوريس يده ليبارك فطيعه . فلأن وقد انتهوا من أداء فريضتهم تجاه الرب بحق لهم أن يرحلوا . ويطلقوا لأنفسهم العنان للاحتفال بالعيد .

وفي هذه اللحظة تقدم مانول وانحنى أمام القسيس وقبل يده وامتنانه فى الحديث إلى الجموع .

وأبصر القويون مانول ، فحفظت قلوبهم لمراءه . انهم اليوم أنقيا النفس يتحلون بخلق يوم الأحد . وتذكروا أن هذا الغنى الأشرف كان من الشجاعة إلى حد أن وضع روحه على كلمة استمداا ليجود بها من أجل خلاصهم . وصدرت عن أفواه الناس جميعا تسمعات مرحة مشرقة تعبر عن ترحيبهم واحتفالهم به .

وتجهم القسيس جريجوريس ومال عليه وماله :

— ماذا تريد أن تقول ؟ هل يمكنك أن تخطب فى الناس ؟ وعن أى شيء ؟

وأجابه مانول :

— عن المسيح .

وزاد القسيس إلى الزاد مدعولا وقال :

— المسيح !!! ولكن هذا صميم عقل أنا .

وقال مانول فى إصرار :

— . . . أمرنى المسيح أن أتحدث إلى الناس .

وقال القسيس جريجوريس ساخرا :

— ألم يحدث بالثمانية أن أوضح لك المسيح ما تقول .

— . . . ولكنه سيعمل على ما أقول عندما أبدا الحديث .

وخطا ميشيل خطوة نحو القسيس وقال :

— يا أبانا ، يريد مانول أن يتحدث إلى أهل القرية . ونحن جميعا نتوسل اليك أن تأذن له . أن من حقه أن يتحدث إلى الناس . فقد تقدم

ليهب ذروحه ابتعاد نجائنا وقتما كان الخطر يحيط بالقرية كلها -

وقال الشيخ بطرياركاس يدوره :

- انزل له يا ابانا ، انه ولد طيب حمام .

واعرض القسيس بقوله :

- انه سيحدث عن أشياء ، لا علم له بها .

ولمحق ياتاكوس :

- هذا لا هم . قد استكم تعرفون هذه الموضوعات حق المعرفة

وسوف توضحونها له .

وصاح قسطندي :

- دعه يتكلم ، دعه يتكلم .

ولشجع أهل القرية نهض ديمتري الحزاز والدونيس الحلاق
والشيخ كريستوفيس وبدأوا يصفقون ويصيحون :

- دعه يتكلم ، دعه يتكلم .

وهر القسيس جرجوريس كتفيه استخفاً وقال :

- لكم ما تريدون - أسكتوا ولا داعي لهذه الضوضاء .

وفي تأفف واشتمزاز وضع يده على رأس مانولي وقال له :

- أسأل الله أن يلهيك الصواب وينير بصيرتك ...

ثم عقد ذراعيه الى صدره وانتظر ليسمع ما عساه أن يقول .

تقدم مانولي بضغ خطوات الى الامام حتى توسط الجمع . ودرج
باتاكوس وقسطندي جرد كبيراً ليقف فوقه مانولي . وأحاط به أهل
القرية رجالاً ونساء . واقترب منه أيضاً القسيس فوتيس وشعبه . وأومأ
هذا برأسه لمحبة للقسيس جرجوريس فتظاهر بأنه لم يره .

واستدار مانولي ناحية الشرق ورسم علامة الصليب . ثم بدأ
حديثه :

- اخوتي ، أحب أن أحدث اليكم عن المسيح . واتى أمتيكم
غداً ، فليست بالمتقف الذي يعيد صياغة العبارات الى شقة الفضيحة .
عدت ذات مساء ، وبينما كنت جالساً عند حظيرة الرعي والشمس تاذن
بالغيب أن اتاني المسيح . وجلس الى جوانبي فوق القفد المجري . جلث
في منساة وهندوه كأنه حار أيس . كان يحمل على كاهله كنية

فارغة . وفيه فيل أن يتركها يسقط عن كاهله الى الأرض . كانت
قدماء مترتقين ، والجروح الأربع التي أصابت جسمه المقدس من السباع
قد انتكأت من جديد وعاد الدم ينفذ منها . وقال لي بصوت خزين :
« هل تحبني ؟ » واجبت : « أجل يا سيدي . مرني أن أموت من أجلك . »
وهر رأسه المقدس واينسم . ولم يفعل شيئاً . واجتوانا الصمت لفترة
غير قصيرة . وانتابني خوف عقد لساني ، فلم أجرو على الكلام . وبعد
قليل قلت له : « هل أنت متعب يا سيد ؟ فمماك علاهما التراب والدم . »
من أين أتيت ؟ « واجابني قائلاً : « فرغت من جولة بين القرى . ووزرت
ليكونفريس أيضاً . أطفال جوعى . أخذت معي هذه الزكية لأجمل فيها
المصنفات . أعطي هاتدا أعود أدراجي والزكية فارغة تماماً . اسي
متعب ... »

وصمت ثانية . وشخص كل منا بصره الى الشمس الغاربة .
وفجأة ارتفع صوته القدس الذي قلته النهم :

لماذا نلغي حبي ونرضى بالفضول هنا هاتدا . عاقبنا ذراعيك
الى صدرك ؟ هل تطمح في الراحة ؟ تنعم بالأكل والشراب ونقرأ كلماني
كما يحلو لك . وتبكي لساعات قصة صلبى . ثم تذهب بعد ذلك كله
الى السرير لتنام قريح العبي حادي . الجال . ألا تهمل من هذا ؟ أهكذا
يكون حيك ل ؟ هل هذا هو ما تسيه الحب ؟ قم .

وقمت . وألقيت بنفسى عند قدميه القدستين ياكيا وأنا أقول :

- الهى وقعت في الخطيئة . أسألك الصلح والغفران . مرني وأنا

عبدك الطيع

فقال لي :

أسألك بعضاً الرعي وأذهب الى النساس . اجتمعهم حولك وتحدث
اليهم ولا تخف .

- وماذا عساي أن أقول يا منيد ؟ لست مثلقاً . كما اننى فقير
خجول . عندما أبصر حشود الناس ينشأني خوف وأندو حارياً . والآن
ترسلنى لأتحدث اليهم . ماذا عساي أن أقول لهم ؟

- اذهب قل لهم انى جئت أطرق أبوابهم وأند اليهم بدى وأصرخ
صدقة أيها السحيون .

ضاق صدر القسيس جرجوريس . وبدأ يحتاج لهذا الحديث .
ولمعدل في مكانه . وثئاب الشيخ بطرياركاس . وبدأ يدير فى نفسه
وسيلة ينسل بها من وسط هذه الجوع ويلأى بعيداً عنها . إذ أنه

أحس بالجوع . واقترب الشيخ لاداس من القسيس وأمر إليه بكلمات :
- ستمنتهى هذه المسألة نهاية سيئة . مرة بالسكوت .

ولكن أهل القرية كانوا يصنفون إليه فاعزبين أفواههم . ثملاً
صدمهم التعلات حياتية . وبدأ يستبد بهم خوف غريب رويداً رويداً . خيل
إليهم وكأنهم رأوا المسيح حقاً ، ضامراً تحليلاً . شريداً حافى القدمين ،
يترك أبوابهم يسألهم الصدقات فيصدونه ويصرخون في وجهه من وراء
أبوابهم : « أليك هنا ، من الله عليك » . ألم يطردوا القسيس فوثيس
على هذا النحو منذ أيام عندما أتى إليهم حافى القدمين يحمل زكبية فارغة
على كاهله ؟

التفت مائول ألفاسه . ونساقطت حبات من العرق فوق جبينه .
جال بعينه بين الجوع ، وفقرس وجوعهم الواحد بعد الآخر . وارتمست
على وجهه أمارات التآبيب والمرضات ، وكذلك سيماء العزة والكبرياء ، حتى
أن الجوع كانت تشخص إليه في حيرة ودعشة .
ورسمت امرأة عجوز علامة الصليب . وهمت في إذن جارتها :

- رحسك يا رب . هل هذا هو مائول حقاً ، داعي غشم الشبيخ
بطرياركاس . وابن أخ الأم مائدة الينا ؟ أبداً ، لا يمكن أن يكون هو يأت
حال من الأحوال - افقر لي يا رب خطيتي هذه - هل تنزل المسيح إلى
الأرض ثانية بسبب خطايانا ؟ ما رأيك في هذا يا جارتى ؟
- اسكتي يا أم يرمسيغون . اسكتي فإنه سيتحدث ثانية .

يسط مائول ذراعيه عن يمين وشمال وصاح :

- اخوتي ، يا أهل ليكوفريس رجالاً ونساء ، انني لم أت
إليك بدافع من نفسي . إذ كيف لي وأنا الخادم اللضيع ، والفقر المعظم
أن أجرد على الحديث إليكم ، وألقن الدروس لآسادة القرية الأثرياء ذوي
الحسب والنسب ، والأعيان أصحاب المقامات الرفيعة ، وإلى من هم أكبر
منى منا ؟ لم آتيكم بدافع من نفسي وإنما أرسلني إليكم للمسيح . وكل
ما أفعله أنني أرد على سمعكم الكلمات التي أمرني أن أبلغكم إياها . إنه
يستصرخكم قائلاً : « صدقة أيها السحبيون فالي جائع » أن من يوجد
بما عنده على الفقير غائباً يقرض الله قرضاً حسناً . ومنذ أيام ذهب واحد
من أبناء قريتنا لزيارة اخوتنا اللاجئين فوق جبل ساراكنيا . كانوا جاعاً
لا يجدون ما يسدون به معدتهم ، امرأة لا يملكون ما يسترون به أجسادهم ،
بلا مأوى لا يجدون مكاناً يتوسدون به . وحمل إليهم كل ما يملك من حطام
هذه الدنيا ، وتنادى عليهم : « تعالوا يا اخوتي ، خذوا ما يحلو لكم ،

لنقسم معاً كل ما أملك لا أسألكم عليه ثمناً . ولا تحسبته منة . وإنما
أقرضه الله ليخزي عنده خيراً يوم الحساب .

صاح الشيخ لاداس ولم يمه يحمّل المزيد . وأحس بفصصة في
حنقه . وأشار إلى القسيس جريجوريس أشارات تعني أن يخرسه .
ولكن دون جدوى . وأخيراً تدخل هو بنفسه . وعوى بأعلى صوته .

- معنى هذه أن سيدتكم تظلمونا أن نوزع كل ما جمعناه رزقاً
حلالاً يفرق الجيئ ، ونحصل مقابل ذلك على كمبالة تسدد لنا في العالم
الآخر ؟ يالله !! أي تفكير هذا ؟ ابتداء العمل الطيب لا غير لتظلي به
جدران بيوتنا . سأقول لك كلمة واحدة يا بني ولا تضيق بها : أنت لم
تفهم على وجه الدقة ما قاله لك المسيح . عصفور في اليد خير من عشرة
على الشجرة . هذا هو رأيي .
وقاطعه ياناكوس :

- دعه يواصل حديثه يا أب لاداس . لقد عرفت من الذي أرسله
إلينا . المسيح هو الذي يتكلم بلسانه .

وثارت ثائرة الشيخ لاداس وصاح :

- هل هو أنت يا ياناكوس الذي تواليك الجراءة على أن ترفع
صوتك ؟ ألا تخجل ، انتظر حتى تسوي حساباً سوياً .
وأراد ناظر المدرسة أن يلقى ببعض الأفاوية التي اعتاد أن يهدى
بها الأمور إذا استنفحت .

- كل ما تقوله يا مائول كلام طيب وجميل ، ولكن لا يمكن تحقيقه .
أفك تجرث في البحر يا صديقي . لسنا آلهة وإنما نحن بشر . ومن ثم
يتبقى أن نقومنا حسب مقاييس البشر .

وأجاب مائول :

- وهذا هو عين المقياس الذي اخترته . هذا هو المقياس الذي أقيس
به . وأنا أسأل كل من جشم نفسه مشاق الحضور إلى هنا للاحتفال ،
من منكم المسيحي ؟ للمسيحيين جميعاً يؤمنون بالعالم الآخر . وما معنى
الإيمان بالعالم الآخر ؟ معناه أن أعمالنا في هذه الدنيا سينزلها الرب إلينا
في العالم الآخر ويقدرها حق قدرها . سيمآتب المسى . وينيب الحسى .
أن من يقدم حسنة لأخوته في هذه الحياة الغالية سيحزيه الله عنها خير
الجزاء في الحياة الآتية . ولهذا يا أب لاداس أقول لك أن عشرة عصفافير
على الشجرة خير من عصفور واحد في اليد .

وتتم الطائر الخارج الجوز : • لك لأحق حقا •

وصاح بعض أهل القرية من ذوى النفوس النقية الطاهرة :

— حسنا • ما الذى يجب علينا أن نعمله ؟ بماذا أمرك المسيح ؟ تحدث
الينا يا مانولى بوضوح وبساطة حتى نفهمك ونرى إن كان هذا ممكنا
أم لا •

وقال شيخ لأزال قوى البدن صحيحا معافى :

— لا تطلب منى أن أجود بكل ما عندى وأتخلى عن كل شيء • فهذا
عين الاستحيل ودونه غرط القناد •

وقال مانولى :

— ها نحن فى موسم الحصاد يا اخوتى • ونحمد الله أن بارك لنا فى
حصاد هذا العام • وبعد أيام بعين موسم قطاف العنب • وبعد قليل
يكون موسم جمع الزيتون • حسنا • لنستمع معا الى صوت المسيح الذى
تقطع له نياط القلوب : • يا أهل ليكوفريسى الأبرار • يقف بياكم اخوة
لنا مضطهدون طردوا من ديارهم • والشتاء على الأبواب وسيلفون حفهم
من أثر الجوع والبرد والعز • • • • • والاب الهنا الرحيم ييسر لوحة
الحفوظ ويشهد أهل ليكوفريسى • ونبئت فى لوحة أسماعهم جميعا
وتوديع ميلادهم وكم من الأموال يملكون وكم من أموالهم جادوا على
المساكين • فيكتب على سبيل المثال : أنستاسيوس لاداس بن ميخائيل •
فى يوم كذا يملك كيت وجاد منها بكذا • وفى يوم القيامة سيرد له الرب
ما جاد به بفائضة قدرها كذا •

عاد الشيخ لاداس ينظر اليه وهو يضحك فى استخفاف وقال
مناخرا :

— إذا اعتمدت على هذا فحصادك الريح • • •

وواصل مانولى حديثه :

— وهكذا يا حضرة الناظر ينصح لك اننا نستلجم المقياس البشري
الذى طالبتنا به • على كل صاحب أرض أن يفرض الله عشر محصوله
بعد كل حصاد كما يأمرنا بذلك المسيح • لتساعد اخوتنا فوق جبل
ساراكينا عاما أو عامين حتى يبقوا على أقدامهم • وثمة شيء آخر • هناك
من يملك أرضا زراعية هائلة أو أرضا بورا أو أرضا لا يجد متسعا من
الوقت ليزدها ولاحتيا • ليست هذه خليقة فى نظر الرب ؟ لنعطها لهم
يتولون بدها وحرقها ونقسم ثلثها معهم مناسفة : وهذا من شأنه أن

يؤد بالثراء على القرية • وبالميز على هؤلاء الجوعى ويتوفر لهم طعامهم
الذى يحتاجون اليه • نعمنا لكن من أرزقنى لنفسه من أهل ليكوفريسى
أن يقطع حتى ينضم ولا يفكر فى أطفال ساراكينا • كل انسان يمو
موعا فوق أرضنا معلق برقبائنا وبشدنا الى الدرك الأسفل من النار •
كم عدد سكان ليكوفريسى ؟ ألفان • كل من يموت جوعا فى ساراكينا
سينحول الى الفى جنة تتملق حول رقبائنا كأنها عقد يحيط بها • وذات
يوم سنمثل أمام الرب الهنا وبحول رقبائنا هذا العقد الذى تتألف حياته
من جثث الجوعى •

سرت رجفة بين أهل القرية • ورفغ البعض يده عن غير وعى منه
بتحس وقبته • وراى البعض يصيبه الفتن من أهالى ليكوفريسى معلقين
فى الهواه يساقون زمرا الى الحميم يوم الحساب • كل منهم يحذل حول
رقته مسحة حياته من البحث بتفاوت عددها • بعضها عشرة أو خمس
عشرة أو عشرين • وللاكلة صفات من حولهم تسعد انوفها من حول
الرائحة التنتنة التى تنبعث منها •

وصاح اندونيس الحلاق الذى لا يملك سوى بطح اقتحار كرم
وحقل صغير •

— لك ما تريد • أمسك أنت أيضا بكتاب يا مانولى واكتب فيه :
أنا أندونيس يانديس بن تراسيفولوس • حلاق ليكوفريسى • أتعهد بأن
أقدم عشر محصول لاخوتى اللاجئين فوق جبل ساراكينا • وأقدم ذلك
فرضا للرب الهى • أكتب ذلك عنك يا مانولى • والرب الرحيم يسجل
ذلك فى كتابه أيضا وأنا آمن به •

وعلت أصوات كثيرة ولوحت أبهى هنا وهناك •

— وأنا أيضا • وأنا أيضا • اكتب يا مانولى •

واشرقت عيون بالدمع • وفاضت أخرى خوفا وجزعا • وحملت
عيون فى مانولى حقدا وكراهية • وانسل الشيخ بطربايركاس خفية
وتوارى وراء صخرة كبيرة ووضع أمامه فوق أوراق الليمون خنزيرا
رصيعا مشويا يقى منه بعد عشه البازجة •
وتتم وهو يلوك طعامه فى نهم •

— لا أمل فيه هذا المسكين مانولى • إن يمضى وقت طويل حتى
يطاردونه ويقذفونه بالطعام القاسية •

وفى هذه اللحظة رفع القسيس جريجوريس يده غاضبا • وحاجبا

يرتعدنان في حركة هستيرية تخال لو أنك لستهما تطوف أصبعك لتطائير
منهما الشرور . وصاح :

- يا إلهي أهل ليكوفريس . استمعوا . استمعوا إلى . لا يصدقكم
كلام هذا الألفاق فتصعدوا في حباله . هذا حذركم . تذكروا أن العالم
يرتكز على أربع أعمدة . الأعمدة الثلاثة الأولى هي الإيمان والوطن
والشرف . والعماد الرابع العظيم هو الملكية : لا تحاولوا الإخلال بها .
الله يوسع حكمته يوزع الثروات حسب ناموس لا تعلمه نحن لأنه ناموس
الرب يعرفه هو وحده . وعدالة الرب شيء . وعدالة الإنسان شيء آخر .
خلق الله الغني والفقير . ونعسا لكل من يتجرأ على الإخلال بهذا النظام
فانه بذلك ينتهك إرادة الله . وإلى نادم أن أدت لك بالكلام يامانويل .
أيها المارق الزل وأذهب لترعي غنمك . فهناك مكانك الذي حددته لك
الرب . عليك أن تلتزم مكانك هناك ولا تبرحه . ولا قطع فيما هو أعلى
من ذلك . لا تحاول أن تنمو في مكان غير المكان الذي وضعت فيه بلدوتك .
واغلم أن كل هذه الترهات التي تفوهت بها هي كلام ضد إرادة الله .
فهو اللبر صاحب الأمر والنهي . وكل ما يحدث في العالم يحدث حسب
مشيئته .

وبدا القسيس جريجوريس يخرج عن الموضوع . إذ استدار ناحية
القسيس فوثيس الذي ظل طوال ذلك الوقت يستمع إلى ما يقال مطرقا
براسه . وصاح :

- اسمعني أيها القسيس فوثيس . كنا نعيش في هدوء وسلام .
نعم بالوقاي في قربتنا ويسود النظام حتى آتيت بعضايك . وبمدا عم
الشقاق . فلم تعد تسمح الآن غير الشكوى والفصائح والسرقات . ونجرا
الافقار . يجادلون رفع رءوسهم والأغنياء لم يعد بها لهم يوم . ولكن صرا
سيمود الأما قريبا . وسيترك مجلس الأيمان عند قدميه . يتوسل إليه
أن يطردك بعيدا حتى يسود السلام ربوع القرية من جديد . اذهب إلى
أبي مكان آخر . تصحباك غفابة الرب . ولكن ليكن مكانك بعيدا عنا .
وها أنا قد أبلغتك كلامي .

ورفع القسيس فوثيس رأسه وقال في هدوء :

- أنت على حق يا أيها فيما تقول . فكل ما يحدث في العالم إنما
يحدث بمشيئة الرب . وعندما تكلم مانويل إنما كان ينطق بكلمات قاض
بها قلبه . وكانت هذه إرادة الرب . وانتقل الحزن لقلوب بعض أصحاب
ليكوفريس حين سمعوا قصة الأمان . وقاضيت عيونهم بالدفع . وفتحت

بعض خزانة الطعام . . . كل هذا حدث لأن الرب أراد ذلك . وإذا كنا
بد أنينا إلى هنا لننقص عليكم حياتكم الهادئة الوادعة فقد حدث ذلك
أيضا لأن الرب أراد . لأن الحياة التي نطل راكمة زمنا طويلا لا بد وأن
نفسه . وكذلك الروح . لنفسه إذا عاشت في دعة وسكون زمنا طويلا .
وقد أرسلنا الله اليكم لتكون الروح التي تثير العاصفة فتتحرك صفحة الماء
وتبث فيها الحياة من جديد . وتنب الحياة في النفوس الميتة من جديد .
والثفت ناحية أهل ليكوفريس

- اخوتي . كنا من قبل مثلكم . أصحاب أراضي وأملاك . نمش
حياة رغدة . واليوم أصبحنا معذبين نمد أيدينا بالسؤال . قمت بجولة
بين القرى . طرقت الأبواب كلها الواحد بعد الآخر . وعدت بعد ذلك إلى
شمسي صفر اليدين . لو كان الأمر يتعلق بي وحدي ما كنت أبالي أيضا .
فقد عاشوا حياتهم . ولكنني حزين من أجل الأطفال . كل يوم يموت
أحدهم جوعا . ومن بقي منهم حيا لا تغري ساقاه على حمفه . ترى ما الذي
يحتاجون إليه ؟ كسرة خبز . وقطرة زيت . وخرقة يتدرون بها .
توفرت لهم هذه التوافه التي تلقون بها إلى الكلاب أو بين النمامة تستكتب
لهم الحياة من جديد . إن كنت أسأل صدقة فأنني أسألكم من أجل هؤلاء
الأطفال . من أجلهم أمه يدي وأصبح بأعلى صوتي : « صدقة أيها
المسيحيون » .

وأطرق الأب فوثيس براسه ثانية . وعاد إلى صمته . أصغر الوجه
في لون الشمع . واسع العينين . عاقدا ذراعيه إلى صدره . ترى ذراعيه
تلمعان وقد تنأت عظامهما تحت هذا الجند الرقيق الشفاف .
وتردد صوت لشجب بين الناس هنا وهناك . انخرطت ماربوري في
البكاء وهي تحاول جاهدة أن تكتسه . وإذا بفناء عروس تخلع عقدتها
الذهبي من حول جبينها وتواريه في شجل كأنها سرقته . واستمع ديمتري
الحزاد إلى صوت الرب يتحدث إليه بين جوانحه قائلا :

- عيني عجل مسيح كنت أعده لأذبحه يوم الأحد القادم وأبعده
للقرية . سألته به الآن إلى أهل ماراكتينا وأقتسمه معهم هناك . أنك
على حق يا مانويل . اني لاستحي أن أرى الطعام أمانا لعل منه البطون
بينما أخوة لنا يموتون جوعا بجوارنا .
وانخذ الحماس بقلب أندوليس :

- صاصعد إلى جبل ماراكتينا عشاء السيت وأطلق لهم جميعا مجانا .
واخلع لهم أسنانهم مجانا لن شاء منهم ذلك .

وجرف التيار ناظر المدرسة ، وتقلب على خوفه :

- عندى بعض كتب الهجاء ، وغيرها من كتب الأطفال ، وعندى بعض الألواح والأفلام ، وخريطة لليونان العظمى ، ماضعهما تحت تصرف أهل ساراكيثا .

وتمتم الشيخ لاداس فى حلق شديد :

- لياخذك الشيطان .

وحاج القسيس جرجوريس أخاه بنظرة مفيتضة دون أن يفتس بكلمة .

ودنا مانولى من القسيس فوتيس وقيل بهه . وقال بصوت عال :
- ها أنت يا أبانا ترى بعينيك . يجب ألا تياس . لا زال المسيح حيا . ولا زال يسقى على الأرض . تفتحت له القلوب تحتى به . تشجع يا أبانا .

وتقدم الأسقفاه الثلاثة . ومن ورائهم ديمتري الجزاير . وأندونيس الحلاق يسيران فى وجل . ثم تقسم من بعدهم بعض القرويين بخطوات مترددة . وأخيرا هذا حذرهم ناظر المدرسة وفى نفسه خوف وقلق وتردد .

واستدار القسيس فوتيس اليهم ورسم الصليب وقال :

- لتصرف يا أبناي . فحنن أيضا لنا كنيسة صغيرة أقمناها داخل كهف قديم كان كنيسة فى قديم الزمان . لتذهب معا لمجد الرب . يوما يوم عظيم . اوليف له قلب الإنسان ولأن معه .

وانفذت إلى الناس الذين تفرقوا وبدأوا يفتحون حقائبهم التى أثقلها الطعام . يخرجون منها لحما وخبزا . قال :

- إلى الكهف يا أهل ليكوفريس . كلوا واشربوا هناك وصحة وعافية . وامتنحوا بركاتك يا أب جرجوريس .

وزار القسيس البدين :

- بل لعناتي أيها المردود . واللعنة على كل من يتبعك أيها الأقيم .

ورد عليه القسيس المهمل الجائع بصوت هادى رقيق وهو يشير بأصبعه النحيل إلى السماء :

- أهل الرب الذى مايز بين الظلمة والنور أن يكون حكما بيننا . فهو وحده من نثق به .

لعنة القسيس

كان القسيس فوتيس وأصدقائه الأربعة أمام الكهف الذى تحول الآن إلى كنيسة . جلسوا فوق أرائك حجرية لتحيا المسيحيون الاول يوم أن هربوا من اضطهاد عبدة الأوثان . فلاذوا بهذه الكهوف واتخذوا منها مآوى لهم .

وبقى الجو برائحة النعناع والسمندر . وبدأ الليل زحفا . والذى يطله على الأرض أزرق شفافا . وساد السكون . غير أنه بين حين وآخر يطرر أصابعهم آتني طائر من طيور الليل يرحله الجوى . أو صرخة آخر يجد بحثا عن دودة أو فراشة أو فار ينقض عليه ويلتهمه . وذبت النجوم هذا الساء حتى تخالها معلقة بين السماء والأرض .

وراء الصمت على الرقاق الخمسة فترة طويلة من الزمن .

فصروا نهارهم ينتقلون من كهف إلى كهف . يتحدثون إلى اخوتهم الذين غلبوا على المرحم . فحلا الأعجاب جوانهم بيولاء الرجال : اذ كيف لاموا حياتهم مع هذا المكان الموحش . وكيف يعمل القسيس فوتيس فى داب لا يعرف الكلل . يسأل الناس الصدقات . وبشاور قومه فى الرأى . ويشد من أزهم . ويبتهل إلى المسيح أن ينزل إلى الأرض فوق ساراكيثا وليكوفريس ليشهد ويحكم .

وبعد أن اضاعهم التعب والاسى . اتوا إلى حيث جلسوا فوق الأرائك الحجرية التى تحت فى الصخر يتأملون الليل وقد هامت أرواحهم .

وجاشت صدورهم هذه الليلة بانفعالات غريبة ترتجف معها أجسادهم .
احسوا كأنهم طردوا من كل الديار ، فلدوا أخيرا بهذا المكان حيث قبوا
لعمام الكهف وكانهم يدبرون مؤامرة . ما هي مؤامرتهم ؟ انهم هم أنفسهم
لا يعرفون ، ترى ما الذي ستفعله هذه الأرواح الخسنة ؟ ما الذي في
استطاعتهم أن يطرحوا به ؟ ما هو العالم الجديد الذي يستطيعون بناءه ؟
وكان الجو الذي يحيط بهم ما زال يخفق ساخنا . واحسوا بأن ثمة وجودا
مساويا قدسيا حاضرا معهم ولا يصرونه .

وأراد ياناكوس أن يخفي انفعاله فقال :
« ليلتنا ليلة جميلة حقا . »

وارتجفوا فرقا لسماعهم صوت السعال ! إذ كان السكون أشبه يعلم
جميل صدى ذلك الصوت فانتفض مدعورا يوشك أن يفر حاربا .

وتجرا قسطندي وقال :

يا أبانا ، مضت أربعة شهور منذ أن اختارنا مجلس الأعيان وحدد
أدوارنا لتمثيل السر في رواق الكنيسة . إلا أن مشاغلنا ومتاعينا اليومية
أبعدتنا عن الطريق المرسوم طوال هذه اللمة ، ونسينا هدفنا . وهذا هو
الوقت الذي اجتمع فيه شملنا لتدبير أمرنا . ولكن ماذا نحن فاعلون ؟
وكيف ؟ لابد وأن قد استكم تعلمون ذلك حتى العلم . لنا لسانك العون .

مضت فترة دون أن يجيب القسيس فويس . بدا وكأن فكره يحلق
بعيدا وتأخر حينا حتى يعود .

وأخيرا دنا القسيس من أسدقائه ، وسمع السؤال وابتهتم ثم
قال :

« ما الذي ينبغي أن تفعله يا قسطندي ؟ استمر فيما أنت عليه ،
ولا شيء آخر . لقد سلكنا يا ابنائي الطريق السوي ، الذي يؤدي إلى
الآلام القدسة وصلب السليح . وليس ثمة طريق خير منه . »

واحتج مانول في خضوع :

« ولكن ما الذي نفعله ؟ نحن لا نفعل شيئا يا أبانا ... »

وتنهذ ميشيل في حيرة وقال :

« لا شيء ، لا شيء البتة . »

وضغط القسيس على يد المعدة الصغير في حثان وأجاب قائلا :

« هل سميت السلال يا ميشيل . وهل سميت ياباناكوس يوم
دعوت الملاكين ليقامسوك بضاعتك ابتغاء أن يدخل على قلوبهم النيرة ؟
وانت يا قسطندي ، أنت الإنسان البسيط الذي كان يلبس صاحب
مهم متواضع ، ألم تترك عملك لتسعد إلى التجميل وتنامو الظلم ؟
وما أنت على استعداد لملاقاة الموت من أجل فكرة تؤمن بها . ثم يحل
مانولي كل خطايا قومه وسعى راضيا إلى الموت لخلاص قومه ؟ حتى
يانايوس . هذا الرفيق المتس . ماذا يفعل سوى أنه يعد نفسه لهذا
الدور الرهيب ، دور يهوذا ؟ انكم تعدون أنفسكم يا ابنائي ، تعدون
أنفسكم دون أن تعلموا ذلك ، وهذا هو الطريق السوي . »

ثم خيم صمت طويل . وللهذه مانول ، وهو يحلق في نجم
يتراقص متسما على صفحة السماء . فصدقتا الراعي يعرف جدا
النجم حق المعرفة وحيه . كثيرا ما كان ينظر إليه وهو راع صغير ،
يسخر منه النجم ويظنه مانولي نجم الصباح حتى أنه كان يجمع أغنامه
ويسوقها إلى القرى ، أنه المشتري . وقال مانولي لنفسه وهو ينظر إلى
النجم كأنه رفيق سبأ : « أولي بنا أن نسميه النجم الخداع » .

أطرق قسطندي يراسه ، وغشي قلبه حزن عميق . أحس أنه
هو الوحيد الذي لم يفعل شيئا ، لا شيء على الإطلاق . وأنه كثيرا
أن يكون هو آخرهم جميعا ، حتى يهوذا سبقه في ذلك .

وهو ياناكوس وأسه غير قانع بما قدم . وقال لنفسه : « لم افعل
شيئا . قدمت بعض التقدود ، جذت بعض بضائتي هدية لهم ، ولكن
هذا كله شيء لا يستحق الذكر . التضحية الحقبة هي أن أجود بحبيبي
يوسفواكي . وهذا هو ما انتظره منك ياباناكوس . ترى هل تطبق ذلك ؟
كل ما عدا ذلك هباء . »

مرة أخرى هامت روح القسيس فويس بعيدا . حلت فوق
ربوع وطنه ، وتنقلت بين أماكن يأنس إليها ويعرفها حق المعرفة . ثم
عادت أدراجها حتى استقرت أخيرا فوق جبل قفر يسمى جبل
ساراكينا . كان الظلام دامسا ، وضوء النجوم شاعبا هزليا ، فلا يكاد
يميز في وضوح الوجوه الأربعة الحبيبة والصخور ترتفع خلفها .

وارتفع صوت القسيس عميقا قويا مفعما رقة وحنانا :

« يا ابنائي ، يبدو لي أحيانا أن روح الإنسان تشبه زهرة الليل . »

تظل داخل أكشامها طوال النهار وتفتح مع ظلام الليل وتلاذ بها العطر . وهذا ما يحدث معنا الليلة ، فبرغم غمة الليل التي تحوينا حتى لا أكاد أراكم بوضوح أشعر كأن روحي تفتح . وعندكم ذات يوم فوق الجبل الذي يعينى عليه مانولى أن أقص عليكم قصة حياتي . نرى جل تذكري ذلك اليوم ؟ أحسست ذلك المساء بالجبل عندما التحيت أمامي تقولون يدى وأنتم لا تعرفونى من أنا وأى يد تلك التي قبلونها .

وتأثر مانولى من هذا الكلام وقال :

— ونحن أيضا تفتحت أبوابنا لليلة يا أمانا . كنا أذان صاغية .

وبعد القسيس فونيس حديثه على نحو ما يبدأ الرواة عادة :

بطيئا في أيقاع وقال :

— قرب بحر مرمرة وعلى الجانب المقابل لمدينة القسطنطينية تقع قرية صغيرة ساحرة الجمال غنية بالحدائق الممتدة على طول الساحل . اسمها أوبانكي . وهي مهبط رأسى . كان أبى قيسا صارما . صموئا ، فلما طلقا . . يشبه وجهه وجوه الزهاد النقوشة فوق جدران الكنائس القديمة . وكان جدى قيسا كذلك . ورغبيا في أن أصبح قيسا بدوى . بيد أننى كنت رافيا عن هذا كراهاته في أعماقى . كنت أهتم بالأسفار والتجارة . وأن أملا خزانتي ذهبا لأشتري به بعد ذلك بنادق أسلح بها رجال . وأحذر زناكى من الإنراك . ولدت ثائرا كما نرون . وأعتلا رأسى بأمانى تقصر دونها الهم .

لم أكن أحظى أحدا في حياتي غير أبى . كنت أتعبد منه فرقا ، وإذا كنت قد انتظمت في دراستي بالدرسة وبرزت أقرانى فلم يكن ذلك من حب للدراسة وإنما عن خوف . وأتممت دراستي بالمدرسة . وحرمت أبى حقائلي (وقد كانت أبى رحمة الله امرأة نقية ورعة) وضمت في الحقائق ملابس ، وأيقونة لعميد المسيح وبعض البسكويت . وجوزا وعنيا وتينا جاننا ممزوجا بالسمسم . وأرسلوا أبى إلى القسطنطينية حيث معهد اللاهوت .

ولكن والسفاه . من أين إلى الصبر والنقوى زادا أتزود بهما فيكونا في عوننا على مواصلة دراسة اللاهوت ؟ كنت لائرا متوردا لا يهدأ لي بال . قضيت حياتي هناك أذرع القسطنطينية طولا وعرضا كمن أصابه مس . مسحورا بجملاتها التي يخطف بريقه الأبصار . تسلطت على فكرة واحدة : كيف لي أن أحرر هذه الأرض والمياه المقدسة من الإنراك . .

وذاذت يوم نشبت حرب ١٨٩٧ (١) وشب معها طريق في وأبى . فعضيت أصرخ : « وقت الساعة لتلقى بالإنراك إلى الجحيم » وقررت أن أسبسل سرا فوق ظهر قارب . ونجحت في ذلك . ورسوت عند ساحل اليونان . وأرتديت ملابس النوار . وتسلحت ببندقية . وتسلطت بحزم من الأعره النارية . وانطلقت في طريقى مع بعض النوار إلى حزب الإنراك .

وصعد الأب فونيس زفة حارة . ثم قال بصوت ساخر بغضب مرارة : — « اد . كانت حربا غير متكافئة . كنا كمن يقرب في حديد بارد . » لمة الله على الدولة يا أبسانكي . نعم عليها القصة . فبى التي أخفت بسلطاننا القمار .

وأمسك من الكلام لحظة . وصرح فركه . لم لوح بيده كمن يلقي بحار الوطن وراء ظهره . وعاد إلى حديثه :

— كعد إلى حديثنا من معارف أبى . أن اليونان بلد خالد . بوسعها أن تحاطر بأعمال كثيرة . ولديها الوقت الكافي لإصلاح ما فسد . ولكن هل بوسعى أنا . المخلوق الوضيع الرائل . أن أحلق في الفضاء وحدى ؟ ولكن باختصار . بعد أن حققت فدمائى . غشيت الخدوع وترحل بطنى حتى أسبح كالبالونة الفلرقة . حدث ذات يوم وبينما كنت أتسكع على عل أرضة يديه نحتا عن غارب محملتى إلى الرلاكى أن وقع بصرى على بعض اللاجئين اليهود . رسوا بزورقهم على رصيف الميناء . ونظرا لأبى ابن قيس . أبى عن جد كما قلت لكم . فأننى ما كنت أرى يهوديا حتى أذكر أن اليهود هم الذين غسلوا المسيح . يغلى الدم في عروقى . وقضيت يومى في سوق الرصيف أمتع نظرى برؤية هؤلاء اليهود بانوفهم الطويلة القوسية . وأحلمهم الجراء الشعاء . وقبوعهم السوداء الكثرة . وعبائهم الكالحة البالية . فضاؤا وفهم في صياح وصراخ . يدفع بعضهم بعضا في سباق . من أجل التزول إلى البحر . وفجأة لفت مبرعة جادة . لقد زلت قدم فتاة يهودية وسقطت في الماء وغاصت في المي كما يعوس الحجر . ولم يد واحد منهم جرالا لانتقالها . ولم أحمل ما رأيت . وجددت بغبى : « أنها بشر مثنا . فلها روح هي الأخرى . والقت بغبى إلى الله كما أنا . وأمسكت بها من شعرها وأنتشلتها

(١) سلات اليونان في تلك الفترة حركة فكرية قوية دفعت العلمانية اليونانية إلى التناول في حرب ضد الإنراك عام ١٨٩٧ لاستعادة الأراضي اليونانية التي كانت خاضعة آنذاك للاستيطرة العثمانية . وبلغت تلك الحرب انتصرا يوريا اليونان . . . من الترجمة الفرنسية .

خارج الماء ، وصعدت بها إلى الرصيف . وسرعان ما تقافعت النساء لاستعافها وتليقها حتى تليق . ووقفت تحت الشمس اجفقت ملابس . وفي هذه الأثناء التفت لأحبتها ورايتها : شعراء ذات أنف اقنى ، وجلد غطاء الشمس . وفتحت فنيها الرذاذوين ورئت إلى كأن هناك من قال لها إنها مدينة في بجانها . ورايت عينيها وامتنع بي فرح . إذ سقطت بدوري في بحر أزرق أغوص في مائة ولا متقد .

وتلجج صوت القسيس . وهز رأسه . وقال بعد لحظة صمت :

— هذا العالم سر عادي . وعقل الإنسان قاصر عن بلوغ حكمة الله في تدبيره لصفون خلقه . فالخلاص واليهلاك يأتيان من حيث لا يتوقع الإنسان . حتى أننا لا نعلم أي الطرق تؤدي إلى الجحيم وأبها إلى الفردوس . خيل لي أنك أنسى قدمت على عمل طيب . إذ أنفست نفسا بشرية . ولكن العقيدة أنني منذ تلك اللحظة وطئت بنفسى الطريق المؤدى إلى الجحيم .

لم أكن حتى ذلك الوقت قد دأبت على يامراء . اسم شياص أصغر مني سنا . وقبته أجمل من الحديث اليكم عن طبيعة شهوة الجسد . ولكنني سأعترف أمامكم في صراحة وبساطة . وقعت في الخطيئة مع هذه الفتاة . وبعد ذلك الوقت تغير طعم كل شيء على لساني . الماء والكسب والخمر والنهار والليل . أصبحت كلها ذات مذاق حديد لم أحبه منها قبل ذلك . واختفى الله من أمامي . واختفى مع الرب إلى أبي والمضيعة والأمل . ورأى رجل من أبناء قريتي وأخير أبي بكل ما رام . وأرسل لي القسيس الشيخ رسالة أخرى حوافها الأربع علامة على الغضب . قال لي فيها : « إن كنت تغتر بالخطيئة مع هذه اليهودية فقد حقت عليك لعنتي ولا أريد أن أراك ثانية أمام عيني » . وفراة الرسالة مع خليلتي اليهودية وأقرقنا في الضحك .

وحدث لي ذات يوم . وسبق لي أن قصص عليكم هذا — أن ذهبت إلى قرية صغيرة لي بها بعض الأصدقاء لتحقل معا بعيد القيامة . وصحبني إلى هناك خليلتي اليهودية . وقصدنا حديقة اتخذنا فيها مجلسنا لأكال ونشرب . وعندما أمسكنا بالسكنين لأقطع الشاة صحت بأعلى صوتي . على سبيل المزاح لا غشير : « أه لو وقع بصرى الآن على قسيس فاني سأقطع رقبتة » . وصاح بي جاز يجلس مع المجموعة : « لمة قسي يجلس خلفك » . واستندت ورايت القسيس

فانقضت عليه وقطعت رقبتة . لماذا لأن اليهودية كانت معي وخجلت أن أبعد أمامها فشارا لا يبر يكلمته .

ولج بي إلى السجن . وكانت اليهودية ترورني كل يوم . وتفعل لياني . وتحضر لي الطعام والسجائر . وكانت تمد يدها من بين القضبان لتربت بها على وجهي وشعري دامعة العينين . كانت تبكي ليلى نهار حتى أصابها النحول وأضبابها السقم . ذات يوم لم تحضر كما دأبت . وانظرتها في الغد ولكنها لم تأت . لا في الغد ولا بعده . . . ورايت فيما يرى النائم القديسة العذراء مشححة بالسواد . وخيل لي أنها تترامى لي عن بعد . صغيرة جدا لم يبدت تكبر وتكبر رويدا رويدا كلما اقتربت مني . وكانت شفاها ترتجفان . إذ كانت تتمنى بكلمات لم اسمعها لأنها كانت لا تزال بعيدة عني . وارهفت السمع . وانضح لي صوتها . وارتفع رويدا رويدا . والعلاء تكبر وتكبر أمام عيني كلما دنت مني . وأخيرا وقعت قبالي . وسمنت كلماتها واضعة تقول : « انها سموت . . . انها سموت . . . ماتت » وفقرت من نومي فرعا . وفهمت ما تعني .

كانت ليلة حالكة السواد . والمطر ينهمر مدرارا . وتسللت إلى فناء السجن . لم أكن أعرف على وجه التحديد ما أنا مقدم عليه . وتلاشت أمامي حدود القدرة البشرية . كنت على ثقة أنني قادر على فعل أي شيء . أستطيع أن أتسلق سور السجن وأهرب . وأمر بالمحارس دون أن يراني . وإذا رأياني وأطلق الرصاص فلن يصيبني . أعماني الحب والعجز . رفقت معها صواحي . استعرضت في ذهني موضع السجن وتخترت المكان الذي يسكن الجنون أو يأسي أن يخشاه ليتسور منه جدار السجن . وتحسنت طريقي وأهديت إلى ذلك المكان بحث جنح الظلام . ولعلقت بالحجارة . وبدايت أنسلق كقطعة مفترسة . كنت أخشى ضوء النهار . ولكنني كما قلت لكم نسيت حدود طاقة البشر . تسورت الجدار ومبسط إلى الحساب الآخر . كان المطر يهطل مدرارا كسيل متهم . ولم يكن هناك من يراني . فاطلقت ساقاي للروح .

نفس الصباح مع وسولي إلى بيتها . طرقت الباب ولكن كيف يسمعي أنسان وسط هذا الطوفان العاصي : تسورت الجدار . واجترزت الفناء . وانسلت خلسة إلى مكان السلم . وصعدت الدرج . وفتحت باب حجرتها . وناديت عليها بصوت هائل خفي . ولكن لا ميب . . . ستكون مطبق . أشعلت عود ثقاب . فألقيت الفناء اليهودية مسجاة فوق سريرها شاحبة جامدة بغير حراك ملتوية الشفتين جاحظة

العيني في حلق .. تجرعت السم في تلك الليلة ذاتها . لم تعد تقوى على احتمال الفرفة اكثر من ذلك فانتحرت .

ونهض القسيس فويس ونظر حواله كمن يبحث عن مهرب ، ثم جلس ثانية خائر القوى كأنه عائد من رحلة طويلة من الطرف الآخر للعالم . ولزم الصمت فترة طويلة .

وسأله الأربعة وهم يلتفتون انفسهم بصغرة :

— ثم ماذا بعد يا أبانا ؟

ولعل القسيس :

— هذه هي قصتي .

وسأله مانولي :

— ثم ماذا حدث لك ؟ كيف عدت الى طريق الرب ؟

— روح الانسان سر غامض . أسكني الحب وأبعدني عن الرب . أما الحزن ، يبارك الله فيه . فهو الذي أعادني اليه ثانية . قصدت جبل آنوس . وكانت الخلوة مصدر خير لي أول الأمر وانتحرت لها . وهدأت روحي قليلا . ولكن اليهودية افتحت على خلوتي مرة أخرى . وسأغ اليهدو . وقصصت على وحدتي صيحات الفرح وآيات المسيح . ولم أفر على احتمال ذلك وذهبت الى سيدى وأعلنت له أنني غيرت رأيي وأريد العودة من جديد الى الحياة الدنيا . ومنحتني بركاته ، وغادرت الدبر . وطألت بي المسيرة . حتى وصلت الى قرية صغيرة . وسمعت صوتا يشفق بداخلي . « ابقى ها هنا » . وأذعنت لهذا الهاتف . وتزوجت بعد ذلك ورسمت نسبا هناك . وفورثت أن القى بنفسى بين أحضان العذاب والآلام في هذا العالم . التمس فيها السأوى والتيسان . وفعلت ذلك . ودهم المرض حياتي . إذ أصاب زوجتي ووافتها المنية . ومات أطفالى من بعدها . ووجدت نفسي وحيدا من جديد . أقف جرحها أمام الرب وجها لوجه . ثم جاء اليونانيون ومن بعدهم الأتراك .. وتعرفون بقية القصة . حمدا لله على كل مكرهه ابتلائى به . وكل خير أنعم به عني .

وأبحث الأصدقاء الأربعة ليقبلوا يد القسيس المعذب .

ولمتم القسيس وهو يشهد :

— انى متعب . نال منى التعب . عشت حياتي معكم مرة ثانية .

أن رحيق هذه الدنيا عذبة وعزير من اللذائ . أتأجى الرب أحيانا :

« الهى حياة الدنيا حليم لا يطاق . لولا هذا الأمل العظيم الذى يرادونا شعما في ملكوت السموات .

ورأى عليهم الصمت من جديد . وانهض القسيس فويس ورنه بحاء الشرق . ورسم الصليب فقد تفسخ الصياح .



قضى الشيخ بطرياركاس ليلته تلك أرقا جالسا فوق سريريه يصيح السمع للسياح الخارجى عسى أن يسمع خطوات ابنه عسما يدخل الى الغاء .. ظل يتعت طوال ليلته . وكلما سمع وقع أقدام في الطريق نهض واقفا وأكل من البافقة . ولكن لا أحد . وأشعل سيجارة . وأتبعها غيرها وغيرها . ثم ألقى بنفسه بكل ثقله فوق السرير ثانية . وعند فجر غلبه النعاس : ورأى فيما يرى النائم لسرا يلبس من غيائه الى الغاء ويختطف ذبكه الأبيض . أحب شيء لديه . والذي احتفظ به لئلا . أنشب النسر مخالبه في الدبك واحتفظه وارفع به الى عنان السماء . فوقفما كان الدبك يصيح انتحاجا بمقدم الصباح ..

ونهض من رومة مدعورا . وأحس برعشة تسرى في جسده .

ورسم الصليب وتعلم :

— اللهم اجعله خيرا .

وصفق بيديه ونادى لينيو . أمت اليه والنوم لا يزال يغالبها . مرتدية لباس النوم . فبدت شبه عارية . شعلاء الشعر . لامة العينين . نافرة الثديين كأنهما يحاولان الفكك من صدرها البيضاء . وقال لها :

— اسمعنى يا لينيو . هل عاد ميشيل ؟ أين قضى ليلته ؟ أين نام ؟

— لم يعد ياسيدى . نظرت داخل حجرته وأنا في طريقى اليك فلم أجد بها أحدا . وقراشه كما هو لم يتم عليه أحد .

وتسحكت تسحكة العاروف ببواطن الأمور وقالت :

— ماتت الأرملة . الله أعلم أين يذهب الآن شباب القرية الذى يقضى ليلاته خارج بيت .

— أخبريه نور وصوله اننى أريد أن أراه .. انتظرى .. ما الذى فعلته بالأمرى أثناء الاحتفال ؟ إذ لم يقع بصري عليك .

وأحمر وجه لينيو خجلا . وتسحكت في دلال . ولم تجب على السؤال .

— أيتها العاهرة الفاجرة . لا تطيقين صبرا لأيام فلائى ! اتفقنا

على أن يتم عند قرأتك يوم الأحد القادم حتى تلمس نفسك ، ثم لا تظنن صبرا . ستعلمين بالهدوء الذي سيقتده نيكوليو أينما الابتنة النصبة .. هل تسمعين ما أقول ؟ أراك شاردة الف ، ترى أين تهبين ووحك الآن أينما الرعاء ؟

وضحكت لينيو وهي تمس بقدها في دلال ، وأجابت :

- فوق الجبل .

وحقا ما قالت . اذ شرد فكرها الى الجبل ، عساالك تحت ظل شجرة سندبان غطراء مورقة .. كانت قد عادت من جبل ساراكتنا متصبية عرفا ، متقدمة الوجنت . وما ان سمع نيكوليو وقع خطواتها حتى استدار ناحيتها ، ونفا كما ينفر النيس ، وتلقى بجيدها وطرحها أرضا في وحشية وصمت .. ودنا منها الكيش الكبير ، وتحسبها بقمه . وسم رائحتها تعرف عليها ، ونفا عو الآخر مثلما فعل سيده . ولبت بالقرب منها وهو يلقي شفتيه .. وفجأة طرقت سمعا الصوت الأجنس لسيدة العجوز . فوثبت في مكانها .

- أين سرحت فكرك أينما العاهرة الصغيرة ؟ ألم تسمعي حديثي إليك ؟ ألا زال فكرك هائما هناك فوق الجبل ؟

وأجابت لينيو :

- طوع امرلك يا سيدي .. معدلة فلم اسمع ما قلت .

- ظلمت منك قهوة (سكر زائدة) .. أشعر بدوار . فلبست على ما يرام .. ربما كان الجوع سبب ذلك ..

ولكن لينيو كانت خارج الباب قبل أن يكمل الشيخ كلامه . تلب فوق الدرج وهي تقفم بقفاها .

وأغمض العجوز عينيه ، واستعاد حلمه من جديد : « النسر .. ترى ماذا يعنى ؟ لا أعرف . أسألك اللهم أن تكلأنا برحمتك وتقي بيتي الشر .

انشرت الشمس ، وانفتحت دروب القرية بأصوات الرجال ونفاه المائبة ولطيق الحمير . خرجوا جميعا بشرًا وحيوانات الى العمل ، وكلام يحى مطلع اليوم الجديد .

أحضرت لينيو القهوة المحلاة بالسكر . وجلس العمدة قرب

مريجوديس البانحة وأخبره انه بينما كان يستمتع بأكل الخبز الرقيق من همداء وغبطة استغفر مانولى الفلاحين . راعيا أن السبع يامر كلا منا ان يقدم نصيبا معلوما من دخله الى شعب ساراكتنا . والأدهى من ذلك ان بعض السدج صدقوا ما قال . وذلك لتعلق العجوز المدعو بالقسيس مويس . حبيبة القمل ، الذي يمثل دور الباسك . اسهم بدوره في نائب الناس ويدم الشقاق . وانقسم أهل القرية الى معسكرين : الحثالة في جانبه واكابر القرية في الجانب الآخر .. « انتظر ، انتظر . هناك ما هو ادهى وأمر : ابنك ميشيل كان أول من انحاز الى الرعاغ . وأخذ يتوعد القرية . وما نحن الآن وقد اتينا بهذا الملعون المدعو مانولى ، هذا المرائي الحظير ، يخرج علينا ويرفع علم الثورة والعصيان . يرى في نفسه الزعامة ، ويضم ابنك الى عصابته . ثم هذا النيس العجوز الذى يعلمهم . هل سمعت ما أقول يا عمدة ؟ اذا لم يتولنا الرب ويعيد الأمور الى نصابها فانا هالكون .

وتتم العمدة بطرياركاس :

- يا صديقي أنا الذي سأضع الأمر حذا بيدى ، فان الله لا يابه لتل هذه اتوافه من الأمور . هل تحسبن أن لمى الله سمعا من الوقت ليبحث مشاكل البشر جميعا فردا لا أنا المسئول هنا عن وضع الأمور في نصابها في قرية ليكوفريس . وسوف أعرك إذن ابني الآن . وبعد ذلك يأتى دور هذا الأبله مانولى .

في هذه اللحظة اتفتح الباب الخارجى وأتسل ميشيل خلسة .

حب العجوز من مكانه . وأطل من النافذة وصاح :

- نعمت صياحا يابنى . حتى طاب نومك الليلة ! لعلك تتفضل بالصعود اليها للتمتع برؤيتك . وقال الفتى لنفسه :

- حذار يا ميشيل . اسألك عليك لسالك .. لا تنسى انه أبوك .

وأجابت :

- الى قادم يا أبت .

وصعد الدرج الحجرى ، وحيا لشيخ فحة الصباح . ولكن الشيخ لم يتفضل حتى بالنظر اليه . الا حاول التظاهر بالغضب . كان

حتى تلك اللحظة يتوعد ابنه . ولكن ما إن رآه يسأل خلسة إلى الداخل حتى تذكر الشيخ أيام شبابه . كان يسأل خلسة إلى الداخل وقتما كان في مثل عمره . وقتما في هذا المنزل ذاته . بعد شهرة ممتعة مع خليلاته . وما إن تذكر الشيخ هذا حتى يرق قلبه لأنه وقال لنفسه : كنت مثله تماما . ولكنني اعتصمت . أن أقضي ليلتي في الخارج مع شهورتي . أما هو فإنه يتبادل القصص عن الرب الرحيم مع أصدقائه الجالسين . . . بالسماء . من يدري . ربما كان هذا أيضا نوعا من شهوات الشباب . أنه شاب . وعسى أن يبرأ من ذلك قريبا . . . وبينما كان يفكر في هذا ظل موليا ظهره لابنه . محاولا أن يستثير في نفسه الغضب . ولكنه أحس أن الغضب لا يستجيب لندائه . وإنما يأتيه على مهل فاستدار إلى ابنه فجاءه غاضبا من أنه لم يوفق في استئثار غضبه . وصاح :

— ما هذا الذي أسمعه الآن . هه ؟ ألا تخجل من نفسك ؟ ألا تحترم مركزك ؟ هل نسيت من أنت . وابن من . ومن جلدك ؟
وأحس بالسعادة . إذ أنه ما إن بدأ الحديث حتى سرى الغضب في عروقه . وصاح بصوت جهوري :

— أمتعت من أن ترى مانولي بعد ذلك .
وتردد ميشيل في الإجابة . وقال في نفسه :
— صبرا أنه أبوك . ليس القوي من ينور ويفضب وإنما القوي من يملك نفسه عند الغضب . فمالك زمام نفسك .

— لماذا لا نجيب ؟ أين قضيت ليلتك هائلا على وجهك ؟ فوق جبل ساراكيئا ؟ مع هذا القسيس الضعولك . ومانولي الخادم باث التهنئة صريحة جميلة حقاً . هل انحدرت إلى هذا المستوى أبها التعس ؟

وأجاب الابن في هدوء :
— أبى . لا تسب أباسا هم أفضل منا . .
وهنا هب الصدمة وانفقا وقد احتاج حفا .
— ماذا تقول ؟ هل فقدت صوابك ؟ أفضل منا ؟ هذا القسيس الملهول ، وخادمنا !!

— هذا القسيس الملهول كما أسميه إنما هو قديس . ليس فينا نحن سلاطة السيد بطريركاس من يستحق أن يفك رباط خذاله . طوح المجوز بسيجارتته بعيداً . وتذاقق الدم إلى رأسه الثقيل . وواصل ميشيل حديثه في هدوء ودون شفقة :

— أما عن مانولي . فإن شئت أن تعرف فانت تعلم حال العلم أنه بينما كنتم جميعاً . أميانا وعيدا وفلسوة ونظارا . . . لمون في خوج وترنم فرائصكم فرقا داخل السجن . لا تفكرون في القرية بل في أنفسكم وكيف تفتنون بجلدكم . فإن هذا الخادم هو الذي هرع لينقذ الناس جميعاً حين قال : « أنه أنا . أنا قاتل التركي . اشتقوني » . من إذن الرجل الذي أتيت من جدارية في مثل تلك اللحظة الحرجة . أنه رئيس هذه القرية حقاً ؟ هل هو أنت يا صاحب السيادة بطريركاس . أو ربما صاحب القداسة القسيس جريجوريس ؟ لا . لا . أنه مانولي . ومنذ تلك اللحظة أصبحنا له أتباعا فهو رئيسنا وعمدتنا .

وارتفع المجوز على ظهره فوق السرير . وذراعه ميسوطان على امتدادها . وفي حلقه لصة .

وأطبق ميشيل شفتيه خجلاً . إذ لى النصائح التي أسداها إلى نفسه ورد على أبيه وألفظ له القول على غير إرادة منه . فاقترب من أبيه الشيخ يسوي له الوسماته . وسأله :

— هل تريد شيئاً يا أبت ؟ هل تقب أن تمد لك لينيو عصر ليمون ؟ وحملت المجوز في ابنه بعينين دهشتين وتيمت قائلاً :
— أنت مثل أمك تملأ . نعم . أنت صورة مطابقة لها . طاهرلك رحيق مصول . وباملك سم زعاف .

وطرفت عينا ميشيل . وغمام الهواء الفاصل بينه وبين أبيه . وقناة تراتت له أمه . شاحبة . آسية . كلها نبيل ونواضع . وشخص ميشيل يصيره إلى ذلك الطيف الذي تراهي له بفتة . وتتمت « أماء » . وخفق الهواء . وارتعش الضوء . وسرغان ما توارى الطيف القدسي كأنه ومض اليرق .

وسأله الأب :
— قيم تفكر ؟
وأجابه الابن :
— أمي . أمي . أسأت معاملتها . يا أبت .
ورد الأب غاضباً :
— أنا رجل . ويجب أن أعامل النساء بخشونة . هذا هو

ما يرضيهن . ولكن عسيرا عليك أن تفهم ما أقول فلا زال لبن أمك بين شفتيك .

— أسأل الله أن يبقي هذا اللبن أبدا بين شفتي .

مرة أخرى ظهر طيف الأم بينهما ، غاضبا متجهمًا هذه المرة .. وهزت الأم رأسها وهي تنظر إلى ابنتها راضية مؤمنة على ما يقول . ومدت اليه يدها كأنها تباركه . وإذا بصوت هو صوت أمه ينبعث من بين أعناق ميشيل يقول له : « ارفع رأسك يا بني فأنت رجل ، وليس لك أن تخشاه مثلبا كنت أخشاه أنا . خذ بئرا أمك يا ميشيل وفل له كل ما كنت أخشى أن أقوله له . اني أباركك .

وأحس الابن بالعزم والتصميم يملآن قلبه ، وأسندت مرفقه إلى الشباك وانتظر .

ونفض الشيخ وهو يتنهد . « دنا هو الآخر من الشباك وقال : — اسمع .

ورد الابن وعيناه في عيني أبيه :

— هاأنذا أنصت لك .

— اتخذت قرارا ، ولك أن تتخذ قرارا أيضا . لك أن تختار بيننا ، أما أنا أو مانولي . أما أن تترك مانولي وعصابته ، أو تترك بيتي .

وأجاب ميشيل :

— بل أترك بيتك .

ودارت عينتا المعجوز في محجريهما مدحولا . وصاح :

— أتحب هذا الخادم أكثر من حيك لأبيك ؟

أنا لا أحب مانولي أكثر منك ، أبدا ، ما شأن مانولي بهذا ؟ انني اخترت المسيح . هذا هو سؤالك لي على حقيقته دون أن تدرك معناه . وهذا انذا أجبتك على سؤالك .

صمت المعجوز ، وأخذ يدرج الحجرة بخطوات واسعة . ثم توقف ثانية أمام ابنة .

وقال بصوت أنقله الأسى :

— ما اعتراذك على ؟

— لا شيء ولكنك أكرهتني على الاختيار ، وقد اخترت . ولا أمك غير ذلك .

وتهاوى المعجوز بكل ثقته متهاكبا فوق السرير . وأمسك برأسه المحموم بين يديه . وشعر كأن كبداه يحترق . ثم قال بعد عذبة بصوت خفيض :

— اذهب ، اذهب ، لا أريد أن أراك ثانية .

واستدار الابن . فأبصر أباه وأحسا ، خالق القوى ، رأسه بين راحتيه ، وأحس بالأسى نحوه . ولكن صوتا بداخله يصيح به آمرا في عصف ، اذهب .

ودنا من أبيه ، وجثا أمامه على ركبتيه ، وقال :

— يا أبت . اني ذاهب . ولكن هل لك أن تباركني ؟

وأجاب الشيخ :

— لا .. لا أستطيع .

ونفض ميشيل وذهب ناحية آتيا وشعر الأب برغبة في أن يناديه « يا فتى » ولكنه خجل من أن يدل نفسه ، فأثر الصمت ..

وفتح الابن الباب واستدار ناحية أبيه ثانية وقال :

— وداعا يا أبت .

وأجثا عذبة الباب .

عشت فترة طويلة ولينعلو لا تسمع شيئا من الحوار . فصعدت الدرج خلسة ، وأمسدت أذنها إلى قلب المفتاح تسترق السمع . سمعت غليظا عميقا ، تتخلله تنهدات متقطعة ، وصريرا يصدر عن السرير .

وقامت قائلة :

انتهى الشجار ، ونام الشيخ ، ولما كايوس بعده . سينفض من نومه وقت الظهيرة جوعا .. كأنه قول لهم . الآن لأذهب وأذبح له دجاجة .. آه من هذا الكرش الواسع ، ضاقت جيلتي معه .. نطل نعشوه ولكن دون جدوى . لا يشبع أبدا . انه حفرة مألها من قرار .

وولت الدرج ، ودخلت عشية الدجاج لتنتقي دجاجة تذيبها . وقع بصرها على الديك الأبيض يختال مزوها يعرفه القرمزى ، والدجاجات من حوله تنقر الأرض وتفساق . وقفت لينبسط برهة تتحرق شوقا لرؤية دجاجة ترقد على الأرض في استسلام ويعتليها

الديك الأبيض - لم ينهض بعدها ورفع الى جانب الدجاجة مخالا ،
وسبط عليها جناحيه وبسبح بصرته في صباهة ، فقد اعتادت أن
تضع نازليها بملء المشهد أحوالا طويلا ، وتستشعر معه تسوة غامرة ،
ويصير وجهها حتى أذنها - كانت تسقط مشايرها على هذا المنظر ،
فتحنس كأنها من التي طرح نفسها أرضا وفوقها تنقل - كذلك ممنوع
مثل نعل الرجل - ولكن أي رجل لا أول عهدا بهذه المشاعر وهي
سببه ضجرة لم تكن تبين وجه ذكر وأصح المعالم معروفا لها على وجه
التحديد - وبعد ذلك كانت تراء ما تولى ، وأصبح الآن وجه ليكولي .
ومضت شهوة عمدة ولم يتبدل هذا الوجه بعد .

بحت بنظرها على الدجاج ، ووقع اختيارها على دجاجة كبيرة
وفظاء - لم تكن تبين فيها لفسك بها حتى جثمت الدجاجة الرطبة على
الأرض ، وسقط الديك جنابه فوقها يحنس الدجاجة ويخفيها تحتها ،
ولعلت لينيو شفتيها اليابستين بلسانها ، ونأحت النار في عروقها -
وانشغلت على الدجاجة فاختارت غيرها .

أعقب المائدة وقت الظهيرة ، ووضعت بيضة في الحساء ، وانظرت
أن يناديها سيدها ، فقد تأخر عن الوعد المعتاد .
وانتمت :

- أخذ زمانه هذا المعجوز الشر - لم يبق الا أن يرسل الى العالم
الأخر -
وأجست بفق هذا الحاضر .

- أماك اللهم أن تمهله حتى مساء الأحد القادم أو صباح الاثنين
على أكثر تقدير - والا ماذا يحدث لأرواحنا ، ومنى يتم ؟ لم أعد أطيع
الإنسان أكثر من ذلك .

وصعدت الدرج ثانية ، وفتحت الباب في هدوء ، ودققت النظر
داخل الحجرة - كان العمدة مبددا فوق السرير - ساكنا بغير حراك ،
وعيناه مفتوحان لعملاق في السقف - خيمت حركته كما خيمت آثاته .
ودخلت لينيو الحجرة مدفوعة : ترى هل مات ؟ ولكن الشيخ طرقت
بجانبه :

وأرادت أن تطحن نفسها فنادته :

- سيدي ، وضعت البيضة في الحساء - حان وقت الغداء -
ودارت عينا الشيخ تنظرها ، وزم قائلا :

- لا أشعر بالجوع - أنت على ما يرام يا لينيو - أمست من القيسين
جريجوريس .

وجلس المعجوز - متلعج الوجه أذرقه ، وقد ارتسخت عليه خطوط
حمراء - وضربت لينيو .

- لا تخافى - لم امت بعد - وانما أريد فقط أن اتحدث إلى
القيسين في موضوع ما - هل ميشيل في الدور الأرضي ؟

- لا - دخل حجرته ليغير ملابسه ، وارتدى الملابس التي يرتديها
كل يوم ، ثم خرج من البيت حاملا صرة .

- ألم يقل شيئا ؟

- لا شيء .

- أرسل من يستدعي مانو من الجبل ، ليأخذ الشيطان ، يجيبان
يحضر لمقابلي فوراً - قبل غروب الشمس - هل سمعت ما أقول ؟
أعصرنى .

- أين تأكل ؟

وتفكر المعجوز لحظة ثم قال :

- ماذا أعدت من الطعام ؟

- حساء الدجاج المفضل لديك .

- أعصرى كثيرا من الليمون في الحساء - سائزلى الآن .

وأصرفت لينيو بالتزوي ، تنقر السلام خفيفة جدلة : ه يفتنا انه
سبيغنى على قيد الحياة حتى صباح الاثنين - ان وجهه يلخ في نفس
القلق - ساذعب الى آندونيس يعمل له كاسات دم - حتى لا توافيه الشية
سريعا .



في هذه الأثناء كان ميشيل قد ارتقى الجبل متأبطا صرته - لم يجد
مانو في الحظيرة - فجلس فوق القعد المجرى الى جوار الباب - كانت
الظلال تنحصر ، إذ اقتربت الظهيرة - وظهرت كنيسة النبي إيليا فوق
الجبل المقابل وكأنها ذات لحت أشعة الشمس العمودية .

وأغشى ميشيل عينيه - كان واهن القوى ، فارع القلب ولكن
راضيا - كمن شفى من مرضه وشيكا - وجدت نفسه قائلا : ه الهأ نهاية
كل شيء ، وبداية جديدة لكل شيء - يا يسوع - حددت لنا معالم الطريق .

أسالك العون والتأييد حتى أبلغ غايته . أعرف أنك هناك عند نهاية الطريق لتنتزني .

وفتح الصرة وأخرج منها الإنجيل الذي ورثه عن أمه . وهو إنجيل كبير ذو غلاف مغطى مصنوع من جلد الخنزير . وله مشبك على هيئة سلسلة ويدخله ورقة من أوراق شجر الفار يستخدمها كفاصل بين الصفحات . ومال يراسه فوق الكتاب المقدس وقرا :

« أعداء الإنسان أهل بيته . من أحب أباً أو أما أكثر مني فلا يستحقني . ومن أحب ابناً أو ابنة أكثر مني فلا يستحقني . ومن لا يأخذ صليبه ويتبعني فلا يستحقني . »

قضى أياماً عدة مع كلمات المسيح هذه يقرأها ويعيد قراءتها من جديد . يحاول أن يفهمها ويستوعبها . بدت له أول الأمر وكأنها كلمات قاسية غير إنسانية . كان يسأل نفسه : « كيف تمه سبيل آخر غير هذا السبيل أسير على الإنسان وأقرب إلى قلبه وعواطفه ؟ هل لابد للإنسان أن يدفع دمه لسا خلاصه ؟ لماذا يكون الأب والأم عقبة تعترض الطريق ؟ ألا يمكن أن نحييها معاً ونسمو سوياً في طريقنا إلى الرب ؟ لماذا كتب علينا أن تقتلع الجذور العميقة في الأرض لترقى إلى السماء ؟ »

الحث على ذهنه أسئلة كثيرة جداً . ولكنه عجز عن أن يهتدى إلى إجابة شافية على أحدها . وكه من عجب إذ شعر أن قلبه يتخفف رويداً رويداً من ثقل الأرض . ويسمو شيئاً شيئاً صوب السماء ... حتى أنه أحس في تلك الليلة أنه معلق بين السماء والأرض ...

وبعد الظهر يقلل عاد مانولى من المرحى . ودعش لرؤية صديقه فوق الجبل في مثل تلك الساعة . وقال له ميشيل موضحاً :

« تركت بيت أبي يامانولى . طلب مني الشيخ أن أختار . واخترت طريق المسيح . »

وقال مانولى وهو شارح الغلب :

« ولكنه طريق شاق وعسير يا ميشيل . وأكثر مشقة على الأغنياء . فمرحياً بك . »

ومد مانولى السباط . ولم يطعم الصديقان غير للفيما . وقص عليه ميشيل ما حدث بينه وبين أبيه والقرار الذي اتخذ .

« أحسست أنني لم أعد أتوي على مواصلة طريقى القديم يامانولى . عشت حياة سهلة رغبة . بدا لي العالم وهماً باطلاً معتماً في بطلانه . طالما

سبعاً في ظلمي . وأن سبيل في الحياة كانت سبيلاً موعباً . ولم أعد أطيق المزيد . وأحسست بالجحيل . »

وكرر مانولى حفاوته بصديقه :

« مرحباً بك . الطريق وعر . والمزق شديداً الانحدار يدمي القدمين في أول المسير يا ميشيل . ولكن ستنتهي لك أجنحة مع الأيام . وتحملك المسلكة بين ذراعيها . وترتق جبل الرب برغم وعورته الشديدة فرحاً طروباً تنزل من يأسه . »

لم لفت وأمسك بعضاً الرعى .

« أرسل لي أبوك رسالة يستدعيني للتمول أمامه قورا . أستطيع أن أحمي ماذا يريد . إلى اللقاء هذا المساء . »

وقال ميشيل :

« كان الله معك . »



جئت لينيو غل وكيتها وسط الغناء . فتوددة الوجه . وشمرت عن ساعديها وانهمكت في تمنع الأواني النحاسية التي منحها لها سيدها الشيخ كهدايا لها . وكان في عطائه كريماً سخياً . كانت لينيو تدعك النحاس بهمة لا تعرف الكلل وهي تغني . وصوتها يشق الهواء وينتدب صوته حتى يصل إلى الجبل . بينما وقف نيكولوي تحت ظل شجرة البلوط يصيح السمع وقد أمسك بالنأي الطويل يرد عليها بالحاله . وتلاقي غناؤهما فوق اسطح بيوت القرية . فكانت النسوة المجازر يتأفخن . والعرائس يتسمن . والصبايا يتنهفن .

ظهر مانولى عند منحنى الطريق . وسمع صمودها وابتسم .

وحث نفسه :

« انها فرس حرون . نعم . انها كذلك حقاً . ولكنك طفلاً صغيراً استطاع أن يستأنسها . »

وقعت لينيو وجهاً يكاد يتقد ناراً . وأبصرت مانولى وهو يحتاز العنة .

وقال لها من كان خطيبها يوماً ما :

« لك الصحة والبهجة يا لينيو . أراك تتهينين . أتمنى لك عرساً سعيداً . »

وأجابت لينيو في سخرية .

- لك العقبي - أتمنى أن تحتفظك فساء جميلة - هيا أسرع فإن السيد ينتظرك -

وعادت إل غانها وقد تلمساعت سعادتها - وكانها تود أن تظهر لغانها الأسبق أنها لا تعبأ به في قليل أو كثير - بعد أن عثرت على خطيب أفضل منه ، وكان لسان حالها يقول : « إن هذا سيقبلك كيدا » -

كان الشيخ بطرياركاس يشغل السجادة الر الأخرى - بنفث دعائها في الهواء ، ويهضم الحاجة التي أكلها وهو جالس في انتظار مجيء مانولى - وارتدى لباس الرئاسة - وظل جاني القنديل - وأحسن بسخولة تسرى في جسده - وأريد وجهه وتلون بلون الباذنجان - ونفرت عروق وجهه وأخذ يدور المجرة جيئة وذهابا ، وهو يري ويبرد غضبا - وكما أنهكه التعب وخارت قواه ألقي بنفسه فوق السرير -

ملق يحدث نفسه قائلا :

- انها غلطى ... غلطى أنا ، أخطأت حين اشتغلت عليه وأخرجته من الدبر حيث كان يعيش كالخبي - وأردت أن أخلق منه رجلا بمعنى الكلمة - غلبت عملا حرا من جاني ولكن ... صدق هذا الأحق المسوق لاداس - كم من المرات قال لي : من يفعل الشر ينهيبه الناس ويحترموه ، ومن يفعل الخير لن يكون حصانه غير التكرام والتقدير - وكنت أستمع من كلامه هذا - والأل بان لي صدق كلامه - وما هي المشاكل تمسك بخناقى ؟ -

وفجأة أحس بغنا - ليبدو يسرى في دمه -

- لنذهب إل الشيطان هذه الضيبة القاعرة - لعزل الله يجعل بزواجها حتى تودأ نفسا - ولا فإنها ستقلب القرية رأسا على عقب -
واندفع لأجوبة الشياك ليناديها ويأمرها بالسكوت - ولم يكد يظلم من الشياك حتى افتتح باب المجرة - واستدار فأبصر مانولى أمامه عند عتبة الباب - فقفز في الهواء والغضب يتطاير كالشر من عينيه - وصاح فيه :

- أدخل ... أدخل -

وصفق الباب بعنف وراء مانولى ، ودفع به إل الخائط -

- هل هذا هو عرفانك بالمجرب أيضا المجود ؟ هه ؟ أتى أبك إل منزلي فتجلب له الشر والتعاسة - كنا على ما يرام قبل أن تجل بالقرية - بيتنا بغير وسلام ، والقرية حادثة وادعة - وأليت أنت أيها النبي القذر لنخل بالنظام وتثير الفتن ... لماذا ؟ رأى حق تطوعت من تلقاء نفسك

لانقاذ القرية ؟ هذا عمل أنا - لماذا تتدخل في أمور لا تعنيك ؟ هل تريد أن أفصح لك عن السبب ؟ أردت أن تظهر أمام الناس كقديس ، تحاول أن تغرر بالسذج لكي يؤمنوا بك - وتدعو إل الثورة يوم الاحتفال بعيد النسي ايليا -

ودخل مانولى عند سماعه الجملة الأخيرة وقال :

- الثورة -

- ماذا كنت تقصد إذن بكل تلك البدايات التي تفوهت بها فوق الجبل قبل أول أمس ؟ لماذا تدفع العصور لحملة الفصل ؟ كيف تتساوى نحن وهم ؟ أن نكون كلنا أخوة - كلنا حملة قبل ؟ أليس كذلك ، هه ؟ أهدأ هو ما تهدف إليه ؟ وتعطيهم حولنا أيضا مناصفة ؟ رأى حق هذا ؟ ولكننا ملكتنا نحن - انها مالنا ومقنا ودمنا - ألا ينبغي علينا أيضا في مثل هذه الحالة أن نقسم معهم لحم أجسادنا وتعطيهم بعضه ليأكلوه ؟ انها نهاية العالم !

- وامسك يد الدرع عند ذكي هذه الجملة - فحذج مانولى بنظرة مفزعة -

- حلت ذات يوم أن وقع «الكرش» لواء الثورة واحتل مكان الرأس ليصبح صاحب الأمر والنهى - ترى هل لم ينص عليك أحد هذه القصص ، أيها القدم ذو الرأس الفارغ ؟ - وكانت نتيجة هذه الثورة أن بدأ القدر يخرج من الأنف والعم والعبد ، فلقى الرجل حنقه - لذلك لا تحاول أن تغير الشاموس الذي قرعته الله - ليبي ، الكرش ، مكانه ، والرأس حيث هو بأمر وينهى ، وأيا الرأس -

وكان أثناء الكلام يدرج المجرة كالوحش المغترس داخل القفص ، يضرب الجدار بعصاه وينطق على الأرض - وينتم قائلا :

- إذا لم يكن هناك اغتيال أيها الأبله - فمن الذي سيقدم الصدقات إذن للقفر ؟ ألم تفكر في هذا ؟ أي منزل تنصده الحالة ماندالينا لنجد عملا فيه ؟ وأين تجد سيداتكم مكانا يعملون فيه خادما ؟

وبلغ هياجه غايته وصاح بأعلى صوته :

- أيها الشجاذ المشتد الذي يرمي في جسده القمل - لا تملك شيئا واحدا من الأرض وتصيح - نحن أخوة - لماذا ؟ ينبغي أن نقسم ما لمك ولعيش أخوة حسب ما نقول - حتى يمكنك أن لتهم نصف ممتلكاتنا ... من الذي ملا رأسك بهذه الأفكار أيها الأبلق ، هه ؟ وأجاب مانولى :

- المسيح -

- ليأخذك الشيطان ، أي مسيح تقصد ، هو : مسيحك أنت لا أنا .
ابتدعت مسيحا جديدا ، متعمدا على شاكلتك ، حقيقا . يرعى القمل في
جسده ، يتصور جوعا . وتحدث عن لسانه بكل ما يحلو لك . ثم ترفعه
عاليا كما ترفع علم الكنيسة وتعوي : « نحن كلنا أبناء لآب واحد كلنا
أخوة ، لذلك هات الشواء لتأكل سويا » . لا أن تلوذ طعمه .

والذي يسبحجارتك من التافهة ، ويصق في الفناء ، ورجع الى ماثولي .
وامسك بتلابيبه وصاح فيه :

- عليك أن تترك خدمتي فورا ، في هذه الليلة . اذهب والحق
بالشجاذين أمثالك . ليقتسموا معك القشر الذي يملأ رأسك والقمل الذي
يرعى في جسمك . ومملكة النساء التي تدعو إليها .

وانفتح الباب وهو يتدفقه بوسمه الكلمات وظهور القسيس
جريجوريس في أبهة الاساقفة . وقال :

- معدرة يا عمسدة أن تأخرت . كان ذلك بسبب مرضي ابنى
ماريوري .

وانفتحت ورأى ماثولي فتجه وجهه .

وقال الشيخ بطرياركاس :

- يا صاحب الغبطة ، لم يبق شيء على حاله هنا . انقلب العالم
رأسا على عقب . العمدة ماثولي الواقف هنا يريد أن يشعل النار في
العالم . وابتنى الرقيق الوديع وقف الى جانبه ورفع لواء المصيان هو
الآخر . اعلنتي بذلك هذا الصباح . قائلا : سأترك البيت وسنوف امارتك
يا شيخ بطرياركاس . فقد اخترت طريق المسيح . كان طريقى هو طريق
العداء للمسيح . انها نهاية العالم . من حسن حظ أنك آتيت يا إيانا في
الوقت المناسب لتضع الأمور في نصابها .

وقال القسيس جريجوريس وهو يشير بامبعه الى ماثولي :

- ها هو عدو المسيح - هو الذي يبذر الشقاق بيتنا . وهو الذي
يغسد عقول الناس بالكار سخيفة . ما هذه الترهات التي تفتنها
أمامنا يوم الاحتفال : أيها المحتال ! أقسم لك بشرى انها ثورة القلب
ضد الرأس .

واجاب ماثولي :

- كلمات المسيح أن أحسنوا الى المساكين . ومن يملك توبين يملأ
واحدا ، نحن جميعا أخوة . وليس عندي ما أقوله لك غير هذا .

واريد وجه القسيس جريجوريس . وأبى على نفسه أن يحتاج خادما
فوجه حديثه الى العمدة :

- هذا الآدمي انسان خطير على المجتمع . يجب أن تطرده من خدمتك
بل ويجب أن تطرده خارج القرية حتى لا يتولنا . فهو الذي أدار رأس ابتك
يحاول بدساتنه هذه أن يكتسب أعمية وشانا ويجمع الناس وراءه .
أطرده . انه ليس براع ولا حقل ، بل ذلبا .

ابتعد ماثولي عن الحائط وتقدم خطوة الى الأمام وعقد يديه الى صدره
وقال :

- وداعا يا سيادة العمدة ويا صاحب الغبطة فاني راحل .

ورفع القسيس يده ورأى :

- أخرج لعة الله عليك .

وود ماثولي :

- بل لعة الأعيان والقساوسة . أنتم أيها القساوسة الذين صلبتم
المسيح . لو غاد الى الأرض ثانية ستصلبونه من جديد . وداعا .

واتجه الى الباب في صمت ، وفتحه ، ثم استدار وقال في عدوه :

- وداعا .

ونزل الدرج وأحس أنه خفيف مرج كأنما تحمله اللالكة .

العَصِيل

أظلمت الدنيا حين أخذ مانول طريقه الى الجبل - وتلبدت السماء
بالسحب - وحيث ربح دافئة من الشرق - وتساقطت قطرات من المطر بللت
يديه ووجهه - كما بللت الأرض العطشى - وتهلّل جسد مانول - إذ كان
طيفاً مثل السهل والجبل -

وحدث نفسه وهو يصعد الجبل :

- عجبا لهذا الوجود ! انه معجزة حقا ! اذا فتحت عيني أرى الجبال
والسحاب والمطر يساقط - واذا أغلقت عيني أرى الله خالق الجبال
والسحاب والمطر - - حيثما نولي وجوها فثم وجه الله - في ضوء النهار
أو في غمة الليل -

لنسى تماما العمد والفساومة - وتخلص من كل الاهتمامات الباطلة -
وتعالى فوق الممرات الصغيرة والكابيدات العابرة - وتعم بالسرّة العطشى
والكابدّة الكبرى - فهو الآن أمام الرب وجهاً لوجه -

فيعد أن طرده سيده الذي تقاى في خدمته أصبح لزاماً عليه أن يودع
الجبل الذي أشرّب في قلبه حبه - وسيكون وداعه له غداً مع مطعم الفجر -
سيحصل حيرته التواضعة على كاهله ويمسك بعضاً الرعي ويرحل وحده -
أعزل مثل يتيم لا عائل له ولا سند - ويسير في طريق قفر موحش يصعد
ويصعد دون أن ينتهي -

وهطل المطر - واشتد قصف الرعد على البعد قويا يصك الآذان -
وحدث مانول الخطو - كانت الريح من خلفه تدفعه إلى أمام - وخيل إليه
وكان للريح بدران وصدر يصعد الزفرات -



ولج على البعد ضوئا خافتا . عرف فيه نافذة كوخ المرعى الصغيرة
وحثت نعمة قائلا :

لا بد وأن نيكولوي قد استسلم للنوم الآن بعد أن فرغ من حلب
اللبن وتناول العشاء . إذن فهذا الضوء يعني أن ميشيل في انتظارى .
وخفق قلبه بقوة وعنف عندما تذكر صديقه .

وتتمم قائلا :

لا ملأفة له بذلك . عاش حياة المسادة . واعتاد الطعام الرغد ، والنوم
على الفراش الوثير . وأنسى إلى الفقه وأن يكون البيت حواء . خير
له أن يعود إلى البيت . عليه أن يتذرع بالصبر ، فلم نحن ساعته بعد .
سواء أراد ذلك أم لم يرد فإن الثراء ينقل الروح ويعوقها عن الحركة
الحرية الطفلية . وهناك ماريورى أيضا . تربطه هي الأخرى بالأرض رغما
عنه .

وتذكر كلمات المسيح اللطيفة القاسية :

« إن مرور جمل من ثقب إبرة أسير من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله » .
ألقى ميشيل جالسا قبالة المدفأة يخلق في النار . وقال بصوت
فيه رنة فرح وهو يمسح بيده العرق الذى يبلل شعره ووجهه :

« طاب مساء الفنى سيد الجبل » . غدا صباحا سأودع هذا الكوخ
العزيب وأرحل بعيدا . فقد طردنى أبوك .
وجلس أمام النار ، وقص على ميشيل بصوت هادئ وزين كيف ألفى
العبد الشيخ نائرا يتنير من الغبط . وكيف استخدم العمدة الفاظا
قاسية في حديثه إليه وطرده في النهاية ، وكيف أنزل القسيس لعننه
عليه .

واختم حديثه قائلا :

« حدث كل شيء كما كنت أتوقع تماما ، ومتلما كان مقرا له أن
يعتد . لست نادما على شيء . كان مفروض على أبيك أن يطردنى ،
ومفروض على القسيس أن يلعننى ، كما أنه مفروض على أن أرحل » .

وامسك ميشيل بيه صديقه ، وضغط عليها في لهفة وشوق
وقلق :

« وأين سنذهب الآن ؟ »

« سيبدى الليل لى المشورة . ينتزل الرب إلينا عادة على هيئة علم

ونحن نيام ويهبط إلنا الطريق . لم أحسم أمرى بعد ، والأمر يسعد
نعال . سنرى غدا فلا تجزع .

وقال ميشيل :

« هل تذكر الليلة التى قضيناها معا في فناء قسطنطين ؟ على تذكر
ما قلته لك تلك الليلة » . حيثما تقب يا مانول سأذهب معك . وما أنذا
بعيدا . وأقولها لك الليلة .

« على رسلك يا ميشيل . لا تجزع . وإن غدا لناظرو قريب » .

ورقد الاثنان وقد نال منهما التعب . وتضاغط وأبل المطر غثيفا
بهيجا . وانتعشت الاعتشاب الجافة فوق الجبل ، وتضوع أريجها . وهبت
الرياح موجات متتابعة تأتي من بعيد عميقة ببطر شجر الصنوبر . وتنفست
الأرض وفاح عبقرها الطيب . وتفتح قلب مانول أيضا كالأرض هائمة أسابها
الظل فاهتزت وريت .

ترى هل هذه هي اجابة الرب ؟ ترى هل تنزل الرب الليلة على هيئة
مطر غزير يهطل في سحابة ؟ احتفى مانول بالرب ، وأحس بالسعادة تغمره
من رأسه حتى أخمص قدميه . وكذلك طيور الليل التى آوت إلى أوكارها
بين الصخور وفوق الشجر . . . أحست بالرب ينزل فوق أجنحتها الندية
المبتلة .

وانصت ميشيل لصوت المطر المتساقط ، وتسلم عطر الأرض الندية .
وجاء النوم . تذكر ماريورى وخفق قلبه في خفق وجزع ، وثارت شجونه
مع الأرض المبتلة . كانت في آخر لقاء له معها شاحبة واهنة بغير خضاب
ولدت تسعل وتمتد لها فوق فخها . ولكن المندبل هذه المرة لم يكن أبيض
كالعادة . بل أحمر حتى لا يظهر عليه لون الدم . وقالت له يومذاك :

« عزيزى ميشيل ، أتى راحة . سيصبحنى أبى إلى المدينة ليعرضنى
على الأطباء هناك . فحالتى ليست على ما يرام » .

وتسلم ميشيل أريج الأرض . وأحس بقلبه يرتجف وتمتم قائلا :

« لا زال قلبي متعلقا بالأرض . نعم لا زال » .

واحتوى النوم ميشيل ومانول رويدا رويدا وسط هذه الليلة المطيرة .
وعندما أسفر الصباح فتحا أعينهما فأبصر الجبل الذى انتسل في تلك الليلة
يتسم لأول شمع من أشعة الشمس . والحجاب كالتفنن المددوق يغطي
أديم السماء . وقطرات من الماء لا زالت عالقة بأصصان الشجر تلعم
وترتعش .

وانزل مانوي من على الحائط أبولون الصليب وعصافير الجنة التي اهداها له ميشيل . وأخذ فتاح المسبح الذي لحنه ، وجمع بعض الملابس وحزم كل هذه الأشياء في حرة ووضعها فوق القعد الحجري .

وكان ميشيل يربيه في سميت . وجلس الاناث وشربا بعض اللبن دون أن ينسب أحدهما بكلمة . ثم وقف مانوي . كان نظره يشتغل في هدوء ما بين الكوخ والتعد الحجري والصخور المحيطة والجبل وكأنه يودعها جميعا وداعا سامنا . وأخيرا انقلب عسا الرعى .

ووقف ميشيل وقال :

« ترى هل حسنت أمرك يا مانوي ؟ هل سترحل ؟ وإلى أين أنت ذاهب ؟ »

« وداعا يا ميشيل . أتمنى لك التوفيق . »

« قل لي إلى أين ؟ »

« إلى ساراكيئا . ساذعب لأفاسهم الجوع . »

« ألا تريدني أن أذهب معك ؟ »

« ليس بعد . اجعل بالصبر . عندك أبوك وخطيبك . أما أنا فليس لي أحد . فالامر سهل علي يسير . »

« ولكنه مكتوب . من أحب أباه أو أمه أكثر مني فلا يستحقني . ومن أحب أباه أو أمه أكثر مني فلا يستحقني . »

« أعرف ذلك يا ميشيل . ولكن هل انتظمت كل صلة تربطك بالأرض وبأبيك وزوجتك ؟ لا . ليس بعد . لذلك عليك أن تترك بالصبر . ستجن سأتك . فلا تكن عجولا هكذا . ستأتي ساعدك في هدوء كطائر الجبل . يسر فلا تسمع لحظوه صوتا . »

« ولكنني لا أريد العودة إلى أبي . »

« لك ما تريد . لا تعد إليه . ابق هنا . بين ساراكيئا وليكوفريس وانتظر حتى يأتي طائر الجبل . أعني ساعدك المحددة . إلى القفار قريبا . »

« وبعد يده إلى ميشيل الذي أمسك بها في لهفة وقال :

« مانوي . . . أن بعض وقت طويل حتى أراك ثانية والحق بك . أقسم لك على هذا . أرجو أن يكون لغاؤنا قريبا . »

وتأبط مانوي الصرة . ورسم الصليب والطلق في طريقه . وحملته

اجنحة الملائكة من جريد . وبدأ مانوي يطير من سحرة إلى سحرة . واقترب منه كنيسة النبي إيليا وويدا وويدا تلالا وسط الأكام فوق قمة الجبل وقد كستها أشعة شمس الصباح بلون وردي . وعندما وقع بصره عليها روح لها بعباءة محييا . وصاح بصيحة طروب عالية كأنه لم يعرف على وكرة القديم .



ففى الشيخ بطريار كاس سحابة نهاره في انتظار ابنه عسى أن يعود . وانتظر يوما . وبومين . وثلاثة ولكن دون جدوى . ولذلك اليأس ، وأرسل بعض أقاربه ليجدوا إليه . وكان ناظر المدرسة آخرهم . وفي النهاية بعث في طلبه ياناكوس وقال له :

« أسألك معروفا ياناكوس . إن تعجب لزيارة ابني وتحدث إليه فانت من خلصته . عسى أن يسمع إليك . »

« وهو ياناكوس رأسه وإجابات غالا : »

« أحسب يا عمته أن لو ضارت الأمور على نحو ما هي عليه الآن فسن يمشى ملويل وقت حتى أخته سيبيل وأنا أيضا إلى الجبل . فأرسل خبري . وحضر يانايوتي تقابلته . »

« يا عمته . حصلت على بعض التفاحيل من مصدر موثوق به . اتخذه مانوي ساراكيئا زكرا له . يجمع الأجناس هناك وتحدث إليهم ويستقرهم ويعلم عليهم أن من حق الملائكة نهب الشياخ . تذكر كل حادثة لك . يوم بعضهم المزع سبرلون إلى غريستا كالفنات الطاعة بتهنئة . »

« وتوقف لحظة . وبدأ عليه البعد . وتهد . وجال بصره حواليه . ثم مال على ثخن الشيخ وأسر إليه بكلمات . »

« في نفس شكوك يا عمته . »

« قل ما عندك بصراحة يا يانايوتي فاني مضغ لك . وأنت لا تعب أحدا لذلك فالك ترى الأمور رؤية واضحة . أصبح . »

« مانوي الشراكي . »

« وعرض العمدة رأسه وقال :

« الشراكي . غالا يعني هذا . »

« أعني : عليك أن تعمل لثقال . وإذا أردت شيئا فاسرعه . أنهم عصابة من قطاع الطرق . ذاع صيتهم في هذه الأيام . ويستشرون في جميع أرباع الأرض . »

« وعمل نظره . . . »

- أنا يائق من هذا - هؤلاء الناس لهم أتباعهم في كل الاقطار - بل وفي كل قرية مهما كانت صغيرة - انهم يشتون في كل زوايا الارض - حينما ذهبت تجدهم اذا ذهبت الى الصحراء تجدهم هناك - واذا بعثت عنهم وسط العائلات تجدهم - ارفع اي حجر تجدهم تحت ذلك الحجر - ومانولى رسولهم الى ليكوفريس -
- اي كلام حطير هذا الذى تحدثنى به يا بابانا يوني - ان حديثك يشعمر منه يندى حولا - قصص -

- نعم - انها مسألة قاتلة ومزعجة - انهم شياطين مرودة - هل رايت مانولى ؟ انه يلعب دور القسيس - يزعم انه لا يأكل اللحم - ولا يكتلب ابدا - ولا يشتهي النساء وما انت تراه اخيرا مسكيا بانجيل صغير لا يخافه - وكلما وقع بصره على أحد سرعان ما يسك بالانجيل - يفتحه ويقلب صفحاته ليروهم الناس انه متكبر على قراءته - لفاق وبار - ويوم ان كان مسافرا الى الشنقة - هل تعرف ماذا حدث ؟ استمع الى ما اقول فهو حديث ترتد منه فرقا - عرف ان العجوز مارنا عثرت على ملابس حسنة المظفحة بالدماء - فتواطأ معها على الا تظهرها الا في آخر لحظة - ماذا ؟ حتى يؤمن الناس بان مانولى على استعداد لان يعود بحياته من اجل خلاص القرية - حيلة توسل بها لينزع عينه كصاحب فضل ومنة - فبقيت الناس الى صغره - ثم اذا ما واثت اللحظة المناسبة يدفعهم وفقا لآوامر تصدق اليه من الخارج للطمع رقاب العدد والاعيان -

تهاول الشيخ بطرياركاس فوق الكرسي - ودفن رأسه بين يديه - وتشم قائلا :
- وحداك يارب - وحداك يارب - انها نهاية العالم اذن -
وفجأة هب واقفا يخلق بعين متورمتين - وقد التوت شفاته - وتلطم بكلمات :

- ولكن .. ماذا عن ابني .. ؟
- نصب مانولى شياكة حوله يا عمدة - وغرر به - اصبح ابنك عبيلا دون ان يدري - ألم تركب ذهب الى الخيل للبحث به بعد ما ترك بيتك ؟ ولن يمضي وقت طويل حتى يذهب باناكوس ايضا الى هناك - وقسطنطي في الزم .. سيحجر كل منما بينه وامرته ليحقق بهم .. انه شيء كارثي المدى يا عمدة - يصاب به شخص وينقل بالمهدوي الى غيرة - ويبدو ان اندونيس الحلاق على وشك ان تصيبه المهدوي - وكذلك ديمتري الجزار - واذا اردت ان تعرف رأيي فان المهدوي سوف تستشري حتى تصيب ناظر المدرسة ..

- ما هذا الكلام الذى تقوله يا بابانا يوني - انها نهاية العالم .. ساذج الى القسيس جريجوريس اشاروه حتى نضع الامور في نصابها ..

- واذا شئت ان تعرف شيئا عن القسيس فونيس والشرذمة الملهفة التى يجرها وراءه حينما ذهب - فهم جماعة من العملاء وفدوا الى ليكوفريس - يزعمون ان الاثراك طردوهم من ديارهم .. وسجوا بالقسيس من اجل بلدهم .. هل تصدق هذه الاخبار المختلفة ؟ انهم كما يقول لك فنية بعثت بهم موسكو - ارسل اليهم مانولى رسالة قال فيها : الناس في ليكوفريس لا تعاني نقصا في الخبز - كل شيء موجود بوفرة عنا - نعالوا لستيج غيراتها - عمدة القرية عجوز مخرف - ولن يقاوم ابدا - وما انت قد رايت بنفسك كيف ظهر مانولى والقسيس فونيس معا وفي وقت واحد كنصوص السوق - لملك لاحلت الاشارات التى تبادلها بطرف اعينهما - ولهذا السبب خرج مانولى - بعد ان طرده من بيتك - هل تعرف وجهته ؟ توجه الى ساراكينا مبالغة - المسألة في غاية البوضوح يا عمدة -

كان الشيخ بطرياركاس يستمع الى هذا الكلام وهو يدرك الحجة طولا وعرضا - وتوقف فجأة يتدبر الامر :

- اذهب الى القسيس جريجوريس - قل له اننى فى عيس الحاجة اليه - لا بد وان اراد البيلة -

- سافر القسيس جريجوريس هذا المساء مع ابنته الى المدينة - سيعود غدا - اخذها معه ليعرضها على الاطباء - اذاها تسعمل وتصدق دما - حالتها سيئة تماما -

وصاح المعجوز حائقا بصوت يندم كالرعد :
- لياخلك الشيطان - الا يوجد عندك اليوم غير المصائب تحدث عنها منذ مطلع الفجر ؟

- انا اقص عليك ما اعرف يا عمدة - صدق أولا تصدق - كما يحلو لك - فان هذا شاكك انت - شايقتك مدة طويلة - والى امسك على ذلك - سأتصرف -

وقال المعجوز بينه وبين نفسه :
- الى الجحيم يا هودا الاسخريوطي -
ثم قال بصوت عال :
- الى اللقاء بابانا يوني - واذا وصل الى سمعك أى شيء ..
- اعتنا بالا يا عمدة - فاما لا يفوتنى شيء -

وانصرف وهو يمشى بخطوات ثقيلة كخطوات الثوب وبإسماحة شريفة نص.
وجهه الجندور .

والقى الشيخ بطرياركاس بنفسه فوق السرير . وطلق بجنون
حديث بانابوي الى . وعينا حاول أن يهدئ من روعه .

— أحمذ بالله . يبدو أن أنتنا صنفق في ورطة لا مخرج منها . وضع
لقد غصاصة على عودنا فلم ينصر شيئا . فمسا ليس في القرية من قتيه إلى
هنا . لا القسيس . هذا التعذب المعجز . ولا نأظر المدرسة بكل ما يعمل
من أسفار . ولا أنا . هل كان يمكن أن يدور بخلفي أن عندي حاسوسا
يعمل في خدمتي . أراؤنا أن يشعلوا القنبل من بيتي لتشتب الخرائق في
كل أنحاء القرية . آه يا شيخ بطرياركاس . رغم أنك رئيس هذه القرية
فقد خانتك قطعتك . تشتت حتى يأتي هذا القنب المتفجس ليكشف المضايقة
عن عينيك . لا بد وأن نظرد هذا الخنزير ما نولي بعيدا . ونظرد حسولا
الشراذمة حملة القنبل من وكرهم في ساراكنيا . هؤلاء الأقدار . لا بد
وأن تظهر الأرض التي حولنا . ونعيد للتشرق والعدالة سلطانها على القرية
من جديد . غدا ساحبس الأمر مع القسيس بعد عودته .

وهذه هي الفكرة من روعه . وأقمض عينيه . وحاول أن ينام .
وامتنع عليه النوم . وصمم غناه لينبو في الطابق الأرضي تهدل كالحمامة
أنها قلقة لا تطمن بها مكان . تظل تدور وتدور في البيت في انتظار
صدقاتها لتعرض عليهم جهلا عرسها . متهمكة في عرض قطع الجواهر
بطريقة بارعة وسط الدعويل الطويل . حتى تبدو وكأنها أكثر من حقيقتها .
ووضعت أكليل الزواجر الصنوع من زهر الليمون بين الشموع البيضاء
الكثيرة وحيات السدق المفلدة بالسكر .

ومع المساء ميترل نيكولوي من فوق الجبل . مرتديا لباس العرس
الجديد . الذي أهداه إليه سيده بمناسبة الزفاف . وعاسيا شمره الأسود
بالمندبل الحريري الأحمر الذي أهدته إليه لينبو . وغدا الإحتفال
بالزواج . والعروس التي أصبح اسمها بعد ذلك زوج نيكولوي .
مستعنت صهوة يفل مظهر يبرج أحمر . يجعلها إلى غش المستقبل . إلى
الجبل والحظيرة .

كان الشيخ مستلقيا فوق سريره ينصت لغناء لينبو . وصيحات
هويحاتها المرحمة عند وصولهن . وفضحكتهن . وتذكر زفافه . فمسا
كان في الثانية والعشرين من العمر . وشيخا أيقا مثل القديس جورج .
والطوق بحصانه الأبيض ليأتي بمطيقته . يستطيع أن يتخيلها الآن بواقعة

على عنية بيت أبيها وقد غطت وجهها بغطاب أبيض حسب ما تنص به
التقاليد . حتى لا يظهر وجهها . وظل العريس يصرخ في أبويها قائدا
الصبر . : أرفع الغمامة حتى تسطع الشمس . : وشيت حساساته فوق
طراف أصابعها . والحرورية عيناها بالدمع . وورفت الغتاب . وأضاء
أل ما حوله . العروس والعريس . الآباء والأصدقاء . الحيل والبنغال .
وستائر مختلفة ألوانها . كان الشمس قد سطعت بالفعل في السو
واللحظة .

رف خيال الشيخ بطرياركاس بجناحيه الكبيرين وعبر الزمان .
مضت السنوات واطلمت الشمس . وتزهل القديس جورج واضخم
كرشه . ولكن لا زالت الحبة تسرى في دمه . كانت تعمل في خدمته
ست العمدية فتاة حرون تدعى جازفاليا . يستطيع أن يذكر الآن بوضوح
تدبيرها الناعدين النافرين . وردفيها القليلين بنو العالم يحملها . وأكعبها
كحصى الشفاح . ذات ليلة نزل العمدية الدرج خلسة في عهده . حذر
سرير درجات السلم فتسمعه زوجته التي تقدم بها السن قبل الأوان .
والس إلى الحجرة التي تنام فيها جازفاليا . وضامها فوق سريره
والحب لينبو . وهما في لينبو الآن نرف إلى عرسها .

وأنسم بالعمدة المعجز . ونس كل ما قاله له بانابوي . ونس
أن ابنه حجر البيت . دبت الحياة من جديد في الأعوام الماضية التي طواها
النسيان . واستيقظت في لغته كل ملذات أيامه الخوالي . وزواجه والمناكب
التي كانت تحفل بالألعاب وطوبى المحل والنسك البوري والدعاج والمناكير
الرضيعة . والحلمان المشوية على السفود . والفطير بالمعق المقروم . والشواء
والبحار . والبلاوة والرقاق والتطاييف والخمر المعتقة والكافيار . وغيرها
من الأصناف التي التهمها في لهم شديد .

وتتم : الحمد لله . عشت حياة طيبة استمتعت بها .

وسكرت رأسه بهذه الذكريات . فاقمض عينيه واستسلم للنوم .



في هذه الأثناء كان القسيس جريجوريس فوق صهوة بغلته الشهيم
ومارويوري ابنته فوق حمار باناكوس في طريقهما إلى الجبل الذي أوى إليه
ميشيل . إذ تضرعت الفتاة إلى أبيها أن يتكرم عليها بهذا الصنيع .

— يجب أن أراه يا أب . يجب أن أراه . فانا لا أدري أن كنت سارعد
ثانية لا . : وصرخ فيها أبويها بصوت متهدج . قطعهم لويات الشيخ :
— لا أحب أن أسمخ منك هذا الكلام . ربنا كبير . سنبرأين من عثقتك

وفي عيد الميلاد متخلفاً بزمالك * سافر في هذا اليوم حتى اذبح
السور على قلبك .

ولكن الغداة أخت عليه متوصلة اليه :

— لناخذ طريقنا إلى الجبل ، حتى أراه مرة أخرى .

— كذا تشأني يا طفلي - هل يسعى أن أرفض لك طلباً ؟

وبعد هذه الكلمات شد لحام بقلته لناخذ الطريق المؤدي إلى الجبل .

كان ميشيل خالفاً فوق القمم الحجرية وحيداً . بينما ارتدى نيكولاي
لباس الزفاف ، واعتنى بغسل شعره الموح وعصاه بالشمع الحريري
الأحمر . وأمسك بصدا وسندها إلى رقبته فوق كتفيه . وظهر عند أول
الطريق فوق الجبل وقد أهدأ ليتخذ سبله إلى بيت العرس .

وصاح بميشيل الذي كان يتأمله في صمت واعتجاب :

— طبت مساء ياسيدي . إلى ذاهب لأزوجه . أبلغ تحياتي إلى اليوم .

ورنت ضحكته العالية بين جنبات الجبل .

ومر بحجاب القطيع فوضع أصبعيه السبائتين في فمه وصغر للقطيع
مودعاً . ثم وقع بصره على الكباش داسوس بفرونة الخلزونية ، والجلجل
حول رقبته . ووثب داسوس نحوه . ثم وقف أمامه يحذره بنظراته .
وأحس نيكولاي برغبة عارمة في أن يسك بالكبش من قرنيه ويصنعه .
فخطا نحو الكبش وبدأ مصارعة معه .

وبعد أن أضع رغبته صاح به :

— إليك عني أيها العجوز ذو القرنين . اذهب إلى نماجك . أما أنا
فذهاب إلى ليتو . إلى اللقاء يوم الاثنين . بركاتك يا صديقي داسوس .
وبدا يذب بقدميه فوق المنحدر ، وكعباه يحدان قلعة عالية .

وسمع ميشيل أصواتاً تقترب منه ، فنهض واقفاً . لفت عيناه
بين الصخور القسيس جرجوريس يتقدم ، ومن وراءه حبيبته ماريوري .
فخفق قلبه في جزع . وتمتم قائلاً :

— ترى ما هي وجهتها؟ ماذا أتيا إلى هنا؟ لا بد وأن حدث شيء سيء .

وخف للقاءهما .

وقال القسيس :

— عزيزي ميشيل . بسعدنا لقاؤك في خلوك . إنما في طريقنا إلى
المدينة ، وأبت ماريوري أن ترحل دون أن تودعك - حالتها الصحية سيئة

إلى حد ما ، لذلك سندهب إلى المدينة لتبني حقيقة مرضها .

ورنت الفتاة إلى حبيبها بعينين لفيضان إعجاباً ، وأحمر وجهها خجلاً .
وقالت بصوت واهن :

— وداعاً يا ميشيل .

اعانتهما ميشيل على الترحيل ، وجلسا ثلاثهم فوق الإريكة الحجرية .
واعتل الشمس صفحة السماء وغرق السهل على البعد في بحر من نور
وان كان يغشاها بعض الضباب . وحوم فوقهم غرابان ينمبان . وتنبهم
القسيس قرأهما . ولم ينس بيت شقة . ولكن الفتى والفتاة لم يلحظا
شيئاً . وأمسك ميشيل بين يديه بأصابع خطيبته التحيلة التي يتألق فيها
الحاتم الذهبي .

وقال القسيس :

— سألقى نظرة على قصرك هنا .

ودخل الحظيرة رغبة منه في أن يترك الخطيبين وحدهما .

وسأل ميشيل خطيبته في جزع :

— هل سألت حالك يا صغرى ماريوري ؟ إن الله كبير يا عزيزتي ،
فلتكن لفتك به سبحانه . لا بأس عليك ، سوف تتحسن حالتك . تشجعي
فالشهور تضي سراعاً ، وعيد الميلاد بات وشيكاً .

وقالت ماريوري في حنان :

— نعم ، عيد الميلاد بات وشيكاً .

وبعد لحظة صمت قالت :

— هل تخاضعت مع أبيك ؟

— ذلك من أبي ، فالأمر مؤلم للغاية . دعينا من الحديث في هذا
الموضوع يا ماريوري . أنت أجبك ، ولا أريد أن أفقدك . أنت التي الوحيدة
التي يرضني بالأرض ولا شيء سواك . أنت فقط ، هل تفهم ما أقول ؟
— وإذا قدر لي ألا تمتد بي الحياة ، فماذا أنت فاعل ؟

وبسط ميشيل ذراعه ووضع راحته على شفتيها وقال :

— أسمعني .

وحانت فرصة لماريوري كي تطيح قبلة على راحة ميشيل .

وقاض الدمع ساخناً من عينيها الجويتين اليانستين . وقالت بصوت
هائس : ، حبيبي ،

وظهر القسيس جريجوريس عند عتبة الحظيرة - وقال :
- يجب أن تسرع يا ماريوري حتى لا يفحصنا الليل - حيا بنا على
بركة الله .

والتفت الى ميشيل وقال له :

- كنت أود أن ألتحق اليك يا ميشيل ، ولكن لرجعي الحديث الى
حيث عودتي - متى ستعود الى أبيك ؟

والحنى ميشيل ليقبل يده وأجاب :

- وقتما يشاء الرب يا أبانا .

وحده القسيس بنظرة قاسية وقال :

- يا ميشيل ، إن الرب ينتظر أحيانا أن يلجأ اليه قلب الإنسان
بإشارة منه .

وأحس برغبة في أن يستطرد في الحديث معه ، بيد أنه أحجم عن
ذلك .

وقال ميشيل :

- ألي الفداء - كان الله معكنا .

وأمسك بيد ماريوري التحيلة بين يديه للحظة - وقال حامسا

- أنت وحدك يا ماريوري - لا تسي ذلك .

وأدار وجهه ليؤاري دموعه ، ثم ارتقى صخرة عالية ، وظل يودعها
بنظراته وهذا في طريقهما إلى المدينة .

وحدث نفسه :

- نعم لا زال قلبي متعلقا بالأرض .

وتجول بين ربوع الجبل ، ثم سرح الطرف إلى السهل تحت قدميه .
بدأ موسم قطاف العنب - وترامى إلى سمعه صند النساء الثلاثي استكرعن
أريج العناقيد - كن يغطن العناقيد الباضحة ويللن بهن في السلال .
وقد خضب دم الكرم أبدنهن - ويتعقبن بنظراتهن الفتية يحدقون السلال
بعيدا ، فينتهذه البعض منهن ، وتلوح أخريات في خفة وتشاطف ، والجميع
يروح عن نفسه بتراجمات خائفة .

ونوقف ميشيل وقد أفلل قلبه الحزن ، غيل إليه أن ما يسمعه
ليست أغاني قطاف العنب ، بل نواصا جانزيا .

وجيد في مكانه ، وأحس أن الحياة تدور من حوله دورات تنمائية
لا نهاية لها . دارت عجلة الحياة دورتها الإبدية حتى بلغت الآن موسم

قطاف العنب . . . وستأتي قريبا دورة جميع الزيتون - ثم دورة ميلاد
السبع . . . وبعد قليل ستزهر أشجار اللوز ، ويبدأ الفلاحون المصح من
سديد ، ويعمه يكون الحصاد . . . وشعر ميشيل بنفسه كأنه يدور مع هذه
العجلة - تعلو به وتهبط تحت أشعة الشمس وتحت وابل المطر - وأحس
بأن الليل والنهار موقوفان معه بهذه العجلة - تعلم بهما وتهبط دائما أبدا
وتلك المسبح - ولماذا جديدا ثم شب وترفع وأصبح رجلا سويا ، وتقدم
بخطوات كلها عزم وتصميم ليشتري كلمة الرب ، ثم صلب - وقام من
حديد ، ونزل إلى الأرض مرة أخرى في العام الذي يليه ليصلب ثانية . . .
أحس ميشيل بخديه ترتفعان ورأسه يدور - تشبث بصخرة إلى
جواره كأنما يريد أن يوقف العجلة ويوقفها عن الدوران - ولكنه سر إلى
الأرض - وفجأة ودون سبب واضح انخرط في بكاء شديد .

لم يفارق الشيخ بطرياركاس فراشه صباح اليوم التالي - الأحد -
ففي ليلة أرقا مسهها - وإذا أغفى لحظة دعه كابوس - وتدفق الدم إلى
رأسه ، وأحس بالاختناق - بعث إلى ابنه يدعو لحضور زفاف لينيو وكان
رد الابن عليه : - إن كانت دعوة حضور وفاة فخم ، أما زفاف فلا - وتلقى
الشيخ هذه الأجابة كأنها لمعة في قلبه .

وفاض الدمع في عينيه وتشم :

- ماذا جنيت عليه ؟ ماذا فعلت له ؟ إنه أحب إنسان إلى قلبى في
هذا العالم - فلماذا تصدني ؟ ترى ما الذي فعلته به ؟

واستعاد الشيخ حياته ، وتذكر أيام يوم أن تقدمت به السن - وفي
نوبة غضب قرر ألا يفتح فمه بكلمة - وظل دائما مطمئنا شفتيه ، حينما
يسلك بالسوط يلهب به ظهور رعاياه من الرجال والنساء ، وحينما يلتقط
الحجارة ويقذف بها الفتيات وهن في طريقهن إلى النبع فيبشم لهن الجرار -
وكان يأكل كما يأكل الفول ، ويشرب كما يشرب البقر ، ولم يعرف الأرض
في حياته - وكل من عهد أن تبت له أسنان جديدة ، وعدا ما أدخل
الناس جميعا - وفي يوم صحو جميل سقط في حوة فوق الجبل وتلقى
حفته ، وتلك الشيخ بطرياركاس الفزع عندما تذكر هذه الحادثة وما
أعقبتها - فعندما بلغه النيا : « قتل أبوك » فرق في نوبة ضحك مجنونة ،
وازعت القرية جميعها من هذا القلب الجاحد لكل عواطف البتة - ولكنه
واصل ضحكه وأحس كأنما يروح عن نفسه بذلك الضحك - إذ بدا له
أن صخرة كبيرة كانت تسقطه تعجها قد الرأحت عنه فجأة - وأخيرا بدا

الابن يتغشى بحرية . وكان عسيرا عليه أن يتنم فرحته .

وارتعد العدة الشيخ عندما تذكر ذلك الضحك .

— ليس من المحتمل أنه ميشيل يشعر هو الآخر بأن ثمة صمغرة تسحقه لحنها وتكنم ألفاسه ؟ ترى هل لا بد أن ندفع مقابل لكل شيء في هذا العالم ؟ — وهل سيفضح ميشيل بدوره ؟ ودارت عيناه فرعتين في محرجيهما .

— بيد أنني كنت أحب أبي ، كنت أحبه بقليل . وكذلك ميشيل يحبني دون شك . ماذا إذن ؟ أني لا أفهم شيئا . هل مكتوب على الإنسان أن يضيق الأبناء في النهاية بمن أتوا بهم إلى هذه العالم ، ويكرهونهم ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ لست أدري .

تأمل الشيخ بطرياراكس كل هذا وتهد . وتقلب فوق فراشه حتى اهتزت أرض الحجرة لثقله . ومع المساء فتحت أبواب البيت لاستقبال المدعوين . وعندما وصل القسيس جريجوريس بدأت الاغنيات تتردد . وتهش العدة مرغسا ، والغنسل . وارتدى ملابس وترين وهو ينفخ كالنور . وصنع شاربته وحاجبيه . وضخ شعره بده الورد . ونزل الدرج ليحضر زواج ابنته بخادمه .

كان الشيطان يتألفان ظليين ، فقد اتخذ كل منهما زينته . وارتدى أحسن ثيابه . وبدأ العرق يتصبب منهما ، وتبدعت منهما رائحة كرائحة الخيل التي خرجها من البحر . يخال من ينتظرهما أن لو بقي هذان الكائنات وحدهما على ظهر الأرض فسرعان ما يعمران الأرض بتسل حديد من البشر .

واتخذت العدة مجلسه إلى جانبهما . فهو وكيل العروس وشاهد الزواج ومن ثم عليه أن يقوم باستقبال اكليل العرس . وبدأ القسيس جريجوريس ترانيمه . بينما وقف التماسيح يطوح بالخيصة القوية ، واصطف المدعوون حولهم . كل منهم يحس بالاعتزاز إذ أتبع له أن يشارك في حفل الزفاف . ووقفت فتاتان صغيرتان تنتظران . وفي يد كل منهما صفحة مليئة بالحلوى .

وكان القسيس جريجوريس متسورا للغاية حتى أنه كان يتعثر . لم يكن كماداته . إذ حلفت أفكاره بعيدا مع ابنته التي فحصها الأطباء هذا الصباح وهزوا رؤوسهم . كان يسرع في ترتيبه وينقسم الكلمات وهو يصحّل الانتهاء من مهمته . وكذلك كان العروسان قلقتين . يشترقان خوفا أن يتركهما الناس وحدهما . ولا يفهمان سببا لكل هذه الحفاوة . والشيخ بطرياراكس يتعجل هو الآخر انتهاء الحفل . فإن سالفه كادنا بخواناته

ولا تقويان على حمله . ولكن الكبرياء أرغمه على أن يعرض على النواجذ ويتعامل على نفسه .

وبعد أن انتهت مراسم الزواج قال :

— يا أصدقائي . يحتفل اليوم نيكوليو وليليو بزفافهما . فمرحباً بكم في منزلنا . كلوا واشربوا ما طاب لكم حتى تسألوا البطون . فلهذه ذبنا عتدا وفيرا من الحملان . والنبيل موجود بوفرة والحمد لله . لقد حان موسم قطاف العنب وسرعان ما نملأ البراميل إلى حافتها من جديد . لذلك ادعوكم أن تفكروا أحرمتكم واشربوا ههنا .

واستدار ناحية العروستين وقال لهما ههنا :

— حياة مدينة باطفل . أتلمي أن تمتد بكما الحياة حتى يتقدم بكما لسن . وتنجبا أبناء وأحفاد . وتعمروا الأرض بتسلكما وتخلدوا سلافة الإنسان . لا تنكسا رايستكما أمام ملاك الموت . لأننا نبذر وهو يحصد وسنرى لمن سيكون النصر . هل سمعت ما أتسول يا نيكوليو ؟ أطلق قدافك . وايقروا ما استعطت إلى البذر سيلا .

وإني استمحيكم عسرا يا أصدقائي أن أذهب إلى الفراش ، فإني أفسر بعض التعب . أما أنتم فكلوا واشربوا . اليوم عيد فانيهجو واضحكوا حتى يسفر الصباح . وأنتم أيتها الصبايا وأنتم أيها العصبية الذين لم يسود شاربكم بعد . لكم جميعا أطيب التهنيتات — أتلمي أن يأتي دوركم سريعا . ويحتفل بزفافكم . وليتني أعود من جديد كما كنت القديس جورج الفتى لأقدم لكم دمجاة التبيد .

وضحك الحضور . وبلغ العدة بده البنتي محببا . وأسرت فتاة صغيرة تقفح له الباب . وتوقف العدة عند العتبة . واستدار ناحية القسيس جريجوريس الذي كان يطوي رداءه الديني . وقال له :

— يا أباينا . بعد أن تناول لقمة أصدق إلى الدور العلوي لتتحدث سونيا .

ولكن القسيس نهض وألقا على الفور . وقال :

— سآني معك يا عمة . كان الله معكم يا أصدقائي

والنفت إلى العروستين وقال :

— زواجا سعيدا يا طفلي .

وانصرف الشبان ، ونفس الحضور الصعداء . وأقبلوا على الطعام . ودخل الحجرة زعيما القرية وأخضر رجالها شبانا . وأغلقت الباب عليهما . ومن تحتها دارت رموس المدعوين ، وتحول النبيل واللحم إلى

غداً ورفض وحشكات عالية وزفرات شبة • ولم يسمع الشيخان شيئاً
وعما في الطابق العلوى • فقد كانا غارقين لأذانهما في هجوم خطيرة
تعديهما •

تبدد الشيخ بطرياركاس فوق سريره وأطلق للنساء العنان حتى
أنه نسي نفسه • كان يتحدث عن الاشتراكيين كما صورهم له خياله •
أضاف آدميين • أنصاف وحوش • يتدفقون من الشمال • وفي أقدامهم
نعال من حديد يدفع عنها الشر حين تدق على الأرض فتشتعل النيران في
الثرى • وتتصدر مائول هذه الزمرة وقد تحول هو الآخر إلى نصف وحش •
وتتصاعد السنة الذهب من فيه • ويشير بأصبعه إلى ليكوفريس •

وقال القسيس جريجوريس :

• ومعهم أيضاً فوثيس • هذا القسيس المارق طريد الكنيسة • انه
معم • وهو زعيمهم •

• نعم القسيس فوثيس أيضاً • وكل عسايبه من المهلهلين الذين
تجمعوا فوق ساراكنيا • انهم يتأهبون للانقضاض على غريثنا • كنت على
حذق عندما قلت • انها ثورة الذئب ضد الراس • • • ولهذا السبب يا أبانا
أردت أن أراك • لتتفادس الأمر معاً • ولتبين أفضل المسيل لأوضاع الأمور
في نصابها •

كان القسيس جريجوريس ينصت له • وبين القينة والفينة يتجدد
الغضب في صدره • ولكن سرعان ما عادت أفكاره إلى ماريوزى • وغامت
الدنيا أمام عيبيه • وبلا الطين أدقيه • فبات لا يسمع شيئاً من كلام
الشيخ •

• وطال بها الحديث حتى انقصف الليل • وأضناها الارهاق •
وأنتفيا بما قيل • وأضافا بعضهما ونظر كل منهما إلى الآخر في كراهية •
وقال القسيس جريجوريس في نفسه : • ليته يصاب في لسانه بقرح
يخرسه • • وقال بطرياركاس في نفسه : • أن يرحل هذه الليلة • هذا
الضئير البدين سيذهب روحى • •

مرة أخرى تذكر القسيس جريجوريس ابنته ماريوزى • وعادة
التفكير فيها • لقد تركها وحدها هناك في العبادة • داخل حجرة صغيرة
خائفة • لها كوة تطل على فناء ضيق • وقال له الأطباء • يجب أن تبقى
هنا تحت الملاحظة فترة من الزمن • وستخبرك فيما بعد بالنتيجة •
وسرت رعدة في جسد القسيس الشمس وسألهم : • وهل حالتها خطيرة ؟ •
• أمة خطر • وأمة أمل أيضاً يا أبانا • وعليها أن تتلوح بالهدوء • الموت

والحياة تصارعان في دم ابتك • وسرى إلى الغلبة في هذا الصراع • •
وصرع الأب : • أخروني بالحقيقة كلها • • • أفضينا اليك بالحقيقة
يا أبانا • عند الينا بعد شهر • • وقال القسيس • سنبذل للرب • ابتلوا
جهدكم من جانبيكم • وستبدل نحن من جانبنا كل ما نستطيع • • ودعا •
كان الله في عوننا • كانوا في عجلة من أمرهم ويريدون التخلص منه
سريعا • حتى يستنى لهم زيادة مرضى آخرين في انتظارهم •

وفجأة نهض القسيس ومد يده إلى بطرياركاس • وتنهذ وقال :

• طلب مساؤك يا عمدة • سنعاول الحدت في كل هذا غدا •

• هل لن تبقى معنا قليلا يا أبانا • لماذا العجلة • معذرة • • ليست
أن أسالك عن أخبار ماريوزى • فإذا قال الأطباء :

• يبدو أنه ليس ثمة خطر • المسألة غير ذات بال • وإنما هي فتاة
تعبها من الفتيات عصبها التحول • ويرون أن من الخير لها أن تنزوح
سريعا •

ثم أراد أن يحول الموضوع وجهة أخرى فقال :

• ومافأ عن ميشيل ؟ أتى قلق عليه يا عمدة •

وأجاب الشيخ بأذى الغضب :

• لا داعي للقلق • فانه شاب صغير طائش وعدا يتوب إلى رشده •
يجب أن نتخلص من مائول أولا وبذلك تستقيم الأمور • • طبت مساء
يا أبانا •

وبعد أن فرغ من كلماته استدار سريعا بوجهه ناحية الحائط •

وتناهى إلى سمعه وقع أقدام القسيس وهو ينوء • ينقله فوق الدرج •
وهمهم :

• يزعم هذا القسيس العجوز أنه قلق • وأنا أيضا قلق على ماريوزى
أيها الشيخ • لو كان لا بد وأن ينزوح ابنتي بفناء مصدرة ثلاث نسل
فلنؤخر خير لها حتى تعيش في سلام • أرى حين عليها • حين على هذه
المسكنة • والله على ما أقول شهيد • ولكن خير لها أن تموت • •



بينما كان أخيان ليكوفريس يدرجون أمرهم للتخلص من مائول •
كان مائول يجلس مع القسيس فوثيس • يفكران معا في الشتاء المقبل •
وعن وسيلة لانقاذ اللاجئين في ساراكنيا من الموت جوعا وبردا هذا الشتاء •

قال القسيس فوثيس :

• العمل هو المنفذ الوحيد • العمل والمحبة •

وجمعا الرجال والنساء القسادين على العمل . وقسمهم جماعات متفرقة - جماعات أخوية - وعينا لكل جماعة أخوية مسئولا عنها بقودها ويكون أكبر الأخوة أو أكبر الإمهات سنا . وعينا بهم إلى القرى المجاورة للبحث عن عمل . وانتشروا في الأرض في اتجاهات مختلفة ولم يخلعوا وراهم فوق جبل ساراكنيا غير الشيوخ من الرجال والنساء لرعاية الأطفال .

ورافقهم القسيس فوتيس في طريقهم بعض الوقت وعبر لهم عن تميانه الطيبة بقوله :

- اسمعوا يا أطفال في حراسة العناية الإلهية . اعملوا واجمعوا كل ما تستطيعون . فاكهة وزيتا وليبدا وثيابا . ليكن وطننا الجديد في ذاكرتكم دائما ولا تنسوه . انظروا إلى النحل حين يترك خلاياه وينتشر فوق السهول والجبال يجمع الرحيق . ألا يعود إلى وطنه محملا بالرحيق لحلايا الشح الصفيرة والنحل الرضيع ؟ كوتوا مثل النحل يا أطفال . اذهبوا وليكلامكم الله بعنايته .

وكثيرا ما كان يصاحبهم مانولى . ويخرج معهم إلى العمل . يبيت فيهم الشجاعة ويشد من أزهم أثناء الطريق . ويدلهم على القرى المحيطة . ويبين لهم أي الأشياء هم في مسيس الحاجة إليها أكثر من غيرها . وإلى الأبواب لهم أن يترقبوها . وبعد أن أطمان إلى أن كلا منهم وجد عملا عاد إلى ساراكنيا . وجمع الأطفال حوله هو والقسيس فوتيس واستخدما الألواح التي أعطاهما لهم حاجى نيكولا ناظر المدرسة . وبدأ فى تعليمهم الحروف الهجائية .

وإذا جن الليل جلس الاثنان معا . فوق الأريكة الحجرية يحوار الكنيسة يتجادبان أطراف الحديث . وذات مساء قال القسيس فوتيس :

- اسمع يا مانولى . إن الله موجود بكل كيانته في كل شيء حتى في أصغر حصة وأدنى الحيوانات وأكثر النفوس اطلاما . لتبذل كل ما في وسعنا حتى نرى قربتنا أو خليفتنا يشع ضوءها في كل الترابى بالوجود القدس . ولتكن لدينا للجد والتجاح والاتحاد . لا ننس أن العمل العليل حتى وإن كان وسط صحراء قفر فائرة . له مدهاء الذى يتردد في كل أرجاء العالم .

ورفع مانولى عينيه ونظر إلى القسيس فوتيس . غلب إليه كان وجهه الصامم الجرىء ناز متاخمة وسط الظلام . وكان يديه المرفوعتين إلى السماء تلوحان ليبيبا يتراقص .

وأجاب مانولى في حمية :

- نعم . كل انسان قادر وجهه على أن يخلص العالم . كانت هذه الفكرة تراودني دائما يا أمانا . وكنت ارتجف منها . هل تتحمل نحن هذه المسئولية الكبرى ؟ ماذا يجب علينا أن نفعل إذن قبل أن نموت ؟ ما الذى يجب أن نلتزم به ؟ وما هو طريق الخلاص ؟

وصمت . كان الظلام دامسا . استعلت النساء النار ليمددن الطعام . وجلس الأطفال الغرقصاء من حولهن فى انتظار الطعام وقود نضيم الجوع .

وضع مانولى يده فوق ركية القسيس فوتيس الذى غرق فى تأملاته دون أن يجيب عليه .

وسأله هامسا :

- كيف لنا أن نحب الرب يا أمانا ؟

- بأن نحب الناس يا بنى .

- وكيف لنا أن نحب الناس ؟

- بأن نقودهم إلى الصراط المستقيم .

- وما هو الصراط المستقيم ؟

- الطريق الصاعد .

وقع نظر الأغا على إبراهيميكي شغف به حيا ، فبدأ منه ، ورواه عن نفسه ، وسامو الغلام ، ثم أطلقا في نهاية الأمر ، واستشترى الأغا للغلام مهرا كسنتاني ، وحلة جديدة من فاخر الثياب ، وساعة فضية ذات سلسلة ، ورجاحة مسك ، وكيسا به باقة من زهور القرنفل والقرقة ، وأخذ بعد ذلك إلى الحمام حيث استحجم هناك ، ومزج ماء الحمام بزيوت عطري ، ثم استطبعه إلى حلاق ليقص له شعره ، ويصطبره بماء اللافندر ، وأخيرا أسلمه إلى يد واحد من أصدقائه القدامى ، وهو شيخ تركي يعمل (خوجة) ليعلمه بعض الحيل .

وبهذه الطريقة حصل الأغا في النهاية على إبراهيميكي نظيفا معطرا مغربا ، واستقبلت مارتا المحطى الجديد بتألف ، وحمجته بنظرة من رأسه إلى أخمص قدميه ، ثم لبت عنها ضحكة سائرة في شفاة ، وحدثت نفسها :

- ستكون بهائتك على يد هذا اللقيط يا أغا .

وتوسط الأغا الفداء وسألها وهو يترجل عن بقلته .

- ما الأخير مارتا ؟ هل من وفيات أوزيجات ؟ ألا زال الشيخ بطوباراكسي والفيسي حرجوري على قيد الحياة ؟ ألم يتضارب الروميون ؟ هل لم يلقا كل منهم عن الآخر ؟ أشال أنني غبت أغواما طولاً ؟

والثقت إلى إبراهيميكي وقال :

- هذه هي الأم مارتا عيبدنا الخلسة ، هي امرأة طيبة ، وربة بيت ممتازة كنوم أمينة ، تعيها حديثها الصغيرة ولكنك ستألفها ، - الفعل بها ما تشاء ، اضربها ، اغتلبها ، ضاعجها فهي لك .

واتعص إبراهيميكي ، ووضع يده فوق سيدة العجوز وأغرق في الضحك ، ثم قال :

- ماذا لحساي أن أفعل بها ؟ إنها لافة وأنا أهدبها اليك .

وتركها لتنتقل مسكنه الجديد .

وقال الأغا :

- لا تعيئي بكلامه يا مارتا ، إنه مهر صغير ، لذلك تريته يندلع

وبعض ، ولكن اهدئي أنت واحتبليه ، وأنا أيضا سأعده معه واحتمله .

صبرا يا مارتا ، حبرا عدا سيتعلم .

وعاد إبراهيميكي إلى الفناء ، وسأل الأغا :

أنت الذي قتلتَه .. أنت

في اليوم التالي ، وبعد أن استصف التمهات تقريبا ، عاد الأغا من سمرقنا ، لم يكن وحده ، كان وراءه غلام تركي جديد منتظبا صهوة مهر كسنتاني ، كان الغلام غيبث التطرف ، فط الطماع فيه خلق الذكر الصغير ، لم يكن يرضع لبنانا ، ولم يكن يفهم العالم حلمه بل كان دائما جوعان عطشان ، ومن ثم تراه دائم الأكل والشرب ، يهرخ ويسب ويثوب ، ويتذلل على الأغا ويأمره ، والأغا العاشق المسكين يلهيه بهذين لهعتين ، ويتجاوز عن كل زرواته ، كان اسمه إبراهيم وسنادره تليلا إبراهيميكي ، يبلغ الخامسة عشرة من عمره ، له شفتان مكنتران يخطهما زغب كثيف .

نقب الأغا الأرض بحثا عنه حتى اختفى إليه في صاحبة سبيلة السمعة من صواحي سمرقنا ، ترى كل بيت فيها يعلق فانوسا أحمر عند الباب علامة عليه تميزه ، كان الغلام يسبح بالمور غساد الشمس بعد تحميمها ، وغوازل من المطاط يستجدها الرجال لمنع الحمل ، وأسمعاكا متسوية ، وزهور ياسمين ، يجمع كل هذا مختلطا يعضه في سلة واحدة ، ويعرض بضاعته على الناس ، وترى الضاحية مع الفسق وقد بانث من أرا تفد إليها عواكب متتابعة من الرجال ، شبابا وشيوخا ، يقعون إليها من كل أرجاء المدينة بحثا عن لحظات يستمتعون فيها باللذة ، وينسون معها هجوم يومهم ، ولقبا النسوة على عتبات بيوتهن مخضبات الوجوه بطريقة فاضحة ، أصناف مراء ، وعلى شفاهين إيشامة تستدثر الشهوة ، عندما

— ألا ترجع حساسات في قريتك هذه ؟ لا بد أن تدرعن يوما
للقص هنا حتى أراهن وأنتقي من بينهن من تروقني .
وقفر الأغا وقال :

— اسمعني : ولا كلمة من هذا . هل الفهم ما أقول ؟ كل من في
هذه البلدة روميون . ولا أريد مشاكل . الزم مكانك .

وقال المهر الذي لا يعرف معنى الحياة وهو يضحك بصوت عال :

— بل من اللاتي يلزمهن مكانهن فوق حجري . أعدى المائدة أينها
العجوز الحديداء فاني جائع ، وتنهذ الأغا إذ تذكر حبيبته يوسوفاكى . كان
له خم ولكن لا يتكلم . تقول له غشنا يا يوسوفاكى فيقتنى . أشعل لي عيونى
فيشعله . . . هيا إلى الفرائس فيذهب طائعا . . . أما هذا فهو شيطان في جلد
إنسان . ولكن ما العمل ؟ بيد أن هذا الحيوان له سحره وفننته أيضا .
وقال :

— لك ما شئت يا براهيماكى . كل شيء سيكون معي . ولكن صبرا
قليلا . هيا يا مارتا ادعني لنا دجاجة .

وبعد ساعة جلس الأغا ومهره إلى المائدة وأكلا وشربا ما شاء لهما
من الطعام والشراب . ثم دخلا إلى حجرتهما وأغلقا عليهما الباب . ما الذي
حدث داخل الخدول الأربعة ، لا أحد يعرف . ولكن مع المساء خرج الأغا
من حجرته رافضا ، منهك القوى ، متفتح العينين . وتنادى مارتا :

— ادعني إلى بطرياركاس وسليبه أن يحضر ، فاني أريد أن أتعهد
إليه . إذ أن براهيماكى يصير على رؤية النساء وهن يرقصن أمامه . وهل
لستطيع أن أرفض له طلبا ؟ هيا ضعي الخمار على وجهك وادعني من
فورك .

ألفت مارتا بيت بطرياركاس مقلوبا رأسا على عقب . الكلاب تدخل
وتخرج من الباب المؤدى إلى الفناء كأنها امتلكت البيت . ويضع خادمات
يجمعن فضلات الطعام ، وينظفن المائدة . ويكنسن . . . أما ليتي فقد
زحلت مع عريسها إلى الحبل ليسكنتا حظيرة مانولى . واليوم أصبحت
الكلمية في البيت للأم مائد ليتيا ، فهي التي ترقب الخادومات وتصدر اليهن
أوامرها . وأمسكت بخرج تحتوه بكل ما تصل إليه يدها ، أحيانا تنسى
فيه بعض الاتصاف خفية . وأحيانا جهرا وعلاوية . وبين القينة والغينة
تصدر الدراج لتلقى نظرة على سيدتها وتطمئن على حالته .

لقد سمات حالة العمدة الشيخ منذ ذلك اليوم . استيقظ من نومه
سلف مشلول ، عاجزا عن تحريك ذراعه أو ساقه اليمنى . والتوى قه .
وطغت الأم مائد ليتيا تكرر على سمعه قولها :

— لا شيء البتة ، لا شيء . لا تلقى يا عمدة . ساذلك جسمك . وبعدها
جود كل شيء كما كان . أنها نزلة برد .

ولكن الشيخ كان يعلق في حمول وبلادة إلى النافذة المقابلة للسري ،
ولمابه يسيل من فيه .

ولم تكد عين الأم مائد ليتيا تقع على عارنا العجوز حتى خفت إليها
سمها . فهي لا تطيق رؤية الحديداء العجوز .

ماذا تريدن يا مارتا ؟ هل تمسك شر جديد حل بالقرية ؟ هل عاد
الأغا ؟ تكلمني فاني لا أطيق صبرا .

— تريئي قليلا ، ما بالك تسدين على الطريق أينها العرافة القنوة .
أريد مقابلة العمدة لأمر هام ، ولا مناس من ذلك .

— إن تريه ، وأنا أصدقك القول ، فلا داعي للالجاج . لا يمكنك
ذلك ، فقد ألم به مرض ضحال وأصبح مشلولاً . بحث في طلب ابنه ،
يبدو أنه أصيب بضربة . استعصى عليه الكلام فبات يتلعثم ويريل دون
انقطاع . لا يمكنك مقابله .

— دعيني أدخل حتى أراه بعيني أنا ، إبعدي عن طريقى . الأغا هو
الذى أرسلنى .

— لا . لن أدعك تدخلين .

— بل سادخل رغبا عنك .

وتضاربتا ، وهرع الخدم إليهما ، وباعدا بينهما . وتعايلت الحديداء
حتى وصلت إلى السلم وصعدت الدرج مندفة بأقصى سرعتها . كأنها
عنكبوت مرق عنه نسيجه . فتحت الباب ، ودلفت إلى داخل الحجرة .
فتح العمدة الشيخ عينيه ورأها ، ولكن لم يبد حراكا .
وقالت العجوز :

— يا عمدة ، أنا مارتا . يبعث اليك الأغا بتحياته . يسألك إن
تفضل بالحضور إليه للمقابلة . إذ يود أن يتحدث اليك في موضوع ما .

وهنا حرك الشيخ رأسه في يده وإناء . وتحركت شفتاه . وغنم
بكلمات لا تبين . ودنت منه مارتا ، بينما دخلت مائد ليتيا في تلك اللحظة
ثائرة غاضبة ، ودفعتها بعيدا عنه وألحنت فوق الشيخ :

- ماذا تعول يا عمدة ؟
وحرك الشيخ شفتيه ثانية ، وتلغمت بكلمات مدغمة ، واستدارت
مائدالينيا ، وقالت للمعجوز الحدباء :
- يقول لك الذهبي الى الشيطان .
ولكن المعجوز أمرت في غناز وقالت :
- ماذا أقول للأخا يا عمدة ؟
وتحركت شفتها المعجوز ثانية ، ودلت منه الأم مائدالينيا لأمرة
البنانية ثم قالت :
- يقول - له ليذهب هو الآخر الى الشيطان .
وعزت المعجوز الحدباء رأسها ، ثم دلت من السرير ، ومالت برأسها
فوق الشيخ المريض وعصت له قائلة :
- يا عمدة ، الأخا بعد العدة لكثرة . هل لسمعي ؟ أتى بشيطان
جديد من سيرا سيشعل النار في بلدنا . هذا الوقت يطلب أن تحضر
كل بنات القرية أمامه ويرقصن في الميدان تحت شجرة السنار ، حتى
ينفخ من بينهن من يشاء . كان أجدر بك أن تسقط مريضا في لحظة
أخرى غير هذه يا عمدة .
فتح الشيخ عيني واسمعتين ، وندفع الدم الى وجهه ، واستجمع
كل قواه وقال :
- أبدا ، لا يمكن .
ثم سقط رأسه ثانية فوق الوسادة .
وصرخت الأم مائدالينيا :
- مستغصين عليه يا حدباء ، عليك اللعنة ، الذهبي الى الجحيم .
وأصكت يمارتا من حديثها وألف بها بعيدا .
وعادت الى السرير - ونذات تلك حشد الشيخ بزي الكافور .
وجفف عدا بعض أرجاءه وفتح عينيه .
وخرجت من فيه كلمات متعلبة في سعادة ومشقة :
- أرسل من يستنقى الفسيخ جريجوريس .
ثم أغص عينيه ثانية .
في هذه اللحظة انفتح الباب ودخل ميشيل .
وصاح في أفراد المعجوز وهو يقترب من السرير :
- أمدني .

وجمعت المعجوز عقاقيرها واخفظت :
وقف ميشيل جامدا يضل في أبيه والدموع غيض من عينيه .
رود وجه الشيخ ، وامتنع لونه ، وتهدلت لحيته وسقطت فوق رقبته .
أسل الجانب الأيمن من لسه .
فتح الشيخ عينيه وابتم عندما رأى ابنه أمامه . ومد اليه يده
اليسرى ولتم قائلا :
- ها أنت ----
ومال عليه ميشيل وقبل اليه المصدرة اليه . وتعلقت عينتا الشيخ
بأبته ينظر اليه نظرة عميقة يائسة كأنه يستودعه .
ثم بسط اليه يده ثانية ولتم قائلا :
- وداعا قاني راحل .
واستجمع كل قواه محاولا التحدث اليه بكلمات واضحة فذفر
الاستطاعة :
- يا بني ، اني راحل عن هذا العالم . سأترك المائدة . ها أتدأ أرفع
فوطتي بعد أن انفضت الوليمة . ان كنت قد أغلظت لك اللؤلؤ مرة قاني
أسألك الصفح والصفح . فأنا أب لك وأحبك . والحب يعنى الإنسان
يفلسو حيناً على من يحب . أطلب منك شيئا واحدا فقط .
- قل يا أبته ما هو .
- ماريوري ----
وصمت ولم يتكلم . ونصيب العرق فوق جبينه . ومال عليه الابن .
ومسح وجهه بمنديل .
- ماريوري - اسمعني - مصاية بداء وبيل - لا تتخذها زوجة
لك ، فأنا ستلوت دما .
هل سمعني ؟
- أسفلك يا أبته
- هل ستعلم ما أطلبه منك ؟
لزم ميشيل الصمت .
هذا هو الصنيع الوحيد الذي أطلبه منك - هل تقرني على ذلك ؟ قال
نعم حتى الآن أثرت حاجتي الدال .
ومضت لحظات والشيخ ينظر الى ابنه في وجل .
وأخيرا لغم ميشيل :

.. نعم ..

والعصفور الشيخ عنييه وقال هلمسا :

هذا كل ما أريدك منك ، ولا شيء أكثر من ذلك .

ودع بميشيل إلى الشباك ، وأطل منه . كان الليل برقي
سودقه ، وبدأ الفلاحون يعودون اندراجهم من بساتين الكرم وقد
أضاهم النعب . ومرت فستانان تنجأديان أطراف الحديث ، تحلمان
جرتين فوق كتفيهما . واجتاز الشيخ لاداس الطريق ، مقوس الظهر .
حانئ القدمين ، مضطرب اليدين بعصير العنب .. إذ كان يقطف العنب
في كرمته .

وتعلم الشيخ فوق حريزه وتهد . واستندار ميشيل ناحية .
وأشار إليه أبوه أن يذوق منه . وقال :

.. لا تصرف . انتظر .

.. لن أنصرف . لم يا ابت ..

وتناهى إلى سمعه على البعد صوت فتاة تغنى بالقرب من يثر
القديس بالزل . كانت تغنى جيبها بموال فيه ألين وشجن ، تنفس به عن
حزن عتيق ، كأنها أول من عرف الهوى ، وأول من ذاق ملغم العنلق
وما فيه من راحة للنفس . وفكر ميشيل في خطيئته . وأحس برغبة
في أن يلفس هو الآخر عن نفسه ويبث أشجانه في صيغة عالية تغنى
على البعد بنوح الفتاة .

وتجاء لمح القسيس جريجوريس بلحنه البيضاء عند مدخل الفناء .
أجبه ميشيل مزرب الباب وهو يمشى على أطراف أسنانه ، وفتح الباب
في هدوء حذرا أن يوقظ أباه ، وانتظر عند أول الدرج .
وأخيرا وصل القسيس ، يمشى بخطوات متهددة وقور . وسأله
ميشيل في قلبي :

.. ماذا قال الأطباء يا أبانا ؟

.. ليس بها داء بائس . بعد شهر تعود سليمة كالة الكمان .

ورمق بعينيته داخل الباب المفتوح .

.. يبدو أن العمدة مريضا . فقد يث في طلي .

.. يبدو أن حالته سيئة يا أبانا .. أدخل .. خفف الوطء حتى
لا توقظه .

لم يكن العمدة الشيخ نالما . فتح عينييه عند سماعه هلمسا يدور
بالقرب منه . وتعمم قائلا :

.. مرحبا بك يا أبانا .

.. ماذا دعائك يا عمدة ؟ أمل ألا يكون شيئا ذائلا . تشجع .

.. لا شيء يا أبانا . حم القضاة . اجلس . أود أن أحدث اليك .

أقترب ياميشيل .

وبدا يتحدث إليهما بكللمات مدللة متعللة شوهاء . قص عليهما
دعوة الأمانه وأن يوسوفاكي الجديد يريد كل بنت الحرية ليرفسن أمامه
حتى ينتقى من بينهن من تحلو له .

وهب القسيس واقفا وصاح في حدة :

.. أبدا مستحيل ، الموت خير لهم من هذا .

وقال الرجل الذي أشرف على الموت :

.. افعل ما يعليه عليك واجبك . أما أنا فلن أكون معكم بعد الآن .
سيحل ميشيل مكانى . وألمض عينييه خائر القوى ، ثم أمسك بيد
جريجوريس وقال له :

.. تعال الليلة لتقدم لي التناول .

وسار القسيس جريجوريس ناحية الباب وقبعه ميشيل .

.. لا تترك أبالك يا ميشيل ، فإن حالته سيئة للغاية . لعل الله

أن يكلاه بمغايته .

ونفكر لحظة ثم قال :

.. أما الإلما ، فأبى سألهم إليه فوراً ، سأحدث إليه في ذلك
الموضوع . لسأل الله أن يقينا شر هذا العار .

وعاد ميشيل وجلس إل جانب أبيه الشيخ . سهر إلى جواره
طوال الليل ، عينا مشيتنا على الوجه المريض المصاحب ، والشفتين
المتنويتين ، والوجنتين المتهدلتين ، والشعر الأبيض الذي يبلله العرق .
وقال في نفسه :

.. كان هذا الرجل أبى .. كان العمدة بطرياركاس صاحب الحول
والطول . وكان في شبابه رشيقا مثلما كان القديس جورج . تكاله
فأرسله على صورة جواده ، حتى وإن كان يمشى على قدميه . ذاق أطيب
أنواع اللحوم ، وشرب أجود أنواع النبيذ ، وضاجع لساء فوات حسب

ونسب ، كما ضاع خادمات وراعيين وثلثة دبر ، وملا بيوت الآخرين بإبناء السقاح ..

مضت الساعات لياعا ، والقرية نطقت في يومها - وعاد القسيس ، واعترب العمدة الشيخ ، ومنحه القسيس القران ، وقدم له التناول ، وانصرف وترك ميشيل وحده مرة أخرى في رفقة الجسد الضامد الذي كان أباه يوما ما . قضي ميشيل ليلته مسهدا ، وما أن تنفس الصباح حتى سبح قلب أحد الجيران . ونهض ميشيل واتجه ناحية الشباك . بدأت السماء تصطبغ بلون ودي ، ولكن لا تزال النامس والأشجار والظلمة يلقمهم النعاس . كان كل شيء هادئا تماما عدا ذلك الكلب الذي كان يسبح في جرع .

وسمع الشيخ بطرياركاس لياعه وفتح عينيه . وكان كبير الملائكة يرف بجناحيه السوداءين فوق سريره . ونادت عنه آهة أسلم بعدها الروح .

وانفتح الباب ، وظهر القسيس جريجوريس عند عتبة . دنا من السرير ، ووضع يده على قلب العمدة الشيخ ، كان قد توقف من الخفقان . واستدار ناحية ميشيل ، ونظر إليه في عبوس وشراسة .

وساح بصوت مخنوق :

« أنت الذي قتلته .. أنت . »

وهب ميشيل مذهورا ، ونظر إلى عيني القسيس ، وحاول أن يفتح فمه ولكنه لم يستطع .

انهار عماد من عهد ليكوفريسي . ولم يكن الخير ينتشر وبطرق الأساليب الواحد بعد الآخر حتى اهتزت له القرية . مات العمدة الشيخ ، حتى الأغا نفسه الذي استيقظت نوا من نومه . وحل في شرقته بعين نصف مغمضتين يستعيد كل ما رآه وما فعله في أحلامه تلك الليلة ، لم يكن يسمع الخير حتى نظر في جوة وإربابك إلى ماركا العجوز وهي تنعى إليه النيا . وقال :

« هل مات ؟ مات دون رجعة ؟ هل انهار البرج ؟ مناصح القرية كسحة من بعده . لا بد لي كنت غارقا في نوم حتى أنسى لم اسمع جلبة والعماد يتهار . »

وعادت المرأة العجوز لإكده له .

« كانت كلاب القرية تسبح طوال الليل يا أغا وهرعت حينذاك . حدث . قلت لنفسى لا بد أن كبير الملائكة نزل إلى القرية ليختطف روحا كبيرة . رآه الكلاب وفرحت منه . »

وقال الأغا وهو يرتشف فهوته :

« كان رجلا هماما ، من النوع الذي يدخل الجنة . كان يحب الحياة الرغبة المستعة . عرف كيف يعربد ويتغسل المخطبات .. لم يمل عليه أن لم يكن مسلما حتى كان يدخل جنتنا حيث أنهار الخمر والولدن الجلود والحدود العين . عندما هو جبر مكان لك يا عزيزي بطرياركاس المسكين . ولكن سبق السيف العدل وفات الأولان . »

وظهر براغمياني ، أشعت الشعر ، مثقل العينين من كل النعاس ، عارى الصدر ، مطبوع فوق رقبته خال جميل يشد الأنظار . وشردت أنكار الأغا ، وبسط يده النبهة ، يداعب بها الشعر الأسود للوج والعنق اللدني ، وتهادت راحته فوق الخال الجميل وأحس كأنه دخل الجنة . وأمسك الغلام القشري بيد الأغا ، وطوح بها بعيدا في غضب وسأله : متى سترفض النساء ؟

« لا تكن عجولا هكذا أرجوك . سأفعل كل ما يروق لك ، ولكنني لا أريد أن أتير تأثرة القرية ضدتي .. وأرى مناه أسس قسيسهم وقال لي : « أظننا يا أغا من هذا العباد . وإلا فأنك مستحق عاصفة هوجاء . » صبرا قليلا سمعته مخرجا لذلك .. لهذا أسألك العسير يا حبيبي براغمياني وثق أنه سيأتي العمدة الذي يرفض فيه جميعهم يعض أراداهن . ودون إكراه .. ووقفند ستراهن . »

ولكنه أحس بالغامسة وهو يتكلم ، وصرخ بصوت لماشب :

« ولكن عليك أن تعلم قبل هذا كله أنني لم أت بك إلى هنا لأزوجك . »

في عهد الأتساء فتحت بوابة بيت بطرياركاس على مصرعيها ووسع الميت وسط الفناء . وتوافد أهل القرية جميعا ليودعوا الجنان الوداع الأخير . نسوا كل سيئاته ، ولم يذكروا غير حسناته ، فترى أهل القرية لا يملون اطراء لمسائل الشوفي وتعديب مناقبه . حتى بانابوني جاء ليقلبه قبيلة الوداع . ولم يستطع أن يجبس دمعة ترفرت في مناقبه . ووضع شفتيه المليطتين فوق الجبين البارد وتمتم قائلا :

- افقر لي وليقر الله لك .

وحضر الشيخ لاداس كذلك ، وقبله بدوره ، ثم ألقي نظرة فاحصة الى منزل العمدة . وطالت بناطره وسط هذا الموكب الجنائزى المهبب . بسائين الكرم ومزارع الزيتون والحدائق التي كان يمتلكها المتوفى ، وتنهّد : « ابنى اشفق على كل هذه الثروة !! سيبددها ميشيل سريعا ، لا بد ان افتح بيتي .. لا اخشى احدا غير القسيس .

وارادت الام مادلينا ان تولول وتندب الميت ، فزعت عنها وشاحها وطوحت به وحلت شعرها وأصبح مهوشا . ولكن ميشيل دفعها جانبا وقال لها :

- لا أريد صراخا وعويل . اسكتي .

ووقف ، ناظر المدرسة أمام القبر المفتوح ، وألقى خطبة قصعاء . عاد في حديثه الى اليونان القديمة ، وذكر قادتها من امثال ميثيلاس وثيمستوكليس ، وتحدث عن الحروب مع الفرس ، ثم انتقل الى الحديث عن الاسكندر الأكبر والمسيح . وسرد تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، وأسهب في الحديث عن القديسة صوفي . وتأمج حياصة وأصبغ عرقا عندما أتى ذكر القسطنطينية واستيلاء الأتراك عليها . وهنا لم يستطع ان يخفى غيظه وتشيجه .. واستنفدت الحياصة بالمخاضين عندما راود بيكن وصيحه في الأفعال شديده :

« مرة أخرى ، ومهما طال الذي تعود القسطنطينية اليها من جديد ، وستحتفل بتقديم القديسة في سانت صوفيا (١) . والتعطف نفسا عميقا . وجلف عرقه ثم وأصل حديثه سريعا عن مسنرات العمودية وتوقف عند الثورة الوطنية عام ١٨٢٦ (٢) ثم قفز فقرة جريئة واحدة وصلت به الى القبر المفتوح تحف قديمه ، وراى فيه العمدة بطرياركاس .

أضنته رحلته الطويلة عبر القرون ، فتوقف لحظة يلتقط أنفاسه ويمسح لظارته التي أغشيت بعد أن خالطها العرق . ثم استجمع قواه ، وبدأ تأييده للميت :

لن ننسى جورج بطرياركاس المأسوف عليه . فقد كان مثالا أصيلا لسلالة اليونان القدامى ، وحفيدا أصيلا للامبراطورية البيزنطية العظمى ،

(١) مقطع من أغنية شعبية يونانية . (من الترجمة الفرنسية) .

(٢) بداية حرب التحرير اليونانية . (من الترجمة الانجليزية) .

وايضا أصيلا لأبطال ثورة ١٨٢٦ . حافظ هذا العمدة النبيل ، باصرار وعزم لا يلين . على رسالة الجنس اليوناني التي هي نضال للإنسان من أجل الحرية !! .

كان في ساحة الخطر أول من يعرض صدره له للمقاتلة ، متأهبا دائما ليجود بحياته . كان جورج بطرياركاس مثله كمثل الاسكندر الأكبر ، حافظ على سبلة اليونان وضادة مؤفدة دائما ابدا في هذه القرية الواقعة في قلب آسيا ، ولم يسمح للبرابرة ان يطفئوا نور اليونان ان موت جورج بطرياركاس خسارة قومية لا تعوض لو لم يترك وراءه خليفة له ، ابنا جديرا باسمه هو ميشيل . فانه سيواصل بدوره التراث البطولي الذي استنه أبوه المجيد .

وسبق الحضور كل ما قاله ناظر المدرسة . عرفوا لأول مرة أنهم خسروا بطلا مغوارا فبادوا بكونه .. واسك ياناكوس وقسطندي بغراس ميشيل وسارا به بعيدا من القبر الذي وقف أمامه جامدا يرقب الكفن وهم ينزلون به نحت الأرض . لم يكن يفكر الا في شيء واحد .. كلمة القسيس : « أنت التي قتلتك » - أنت « سارا به بعيدا » . ثم يسأوا للاثمهم طريقتهم عاتدين في صمت .

عادوا الى البيت الكبير وقد أصبح فارغا . وأغلقت الاباب خلفهم . ونوسط ميشيل الفناء ، وتهاوى الى الأرض . حيث كانت جثة ابيه مسجاة هذا الصباح . مال برأسه وقيل الأرض . وقجاة حب واقفا ، باسقا ذراعيه على امتدادهما كأنه يتهاى للرقص . أحس في اغوار نفسه بنشوة غير انسانية غامرة . حقا انه يملك بين جوانحه قلبا انسانيا ملاه الحب لا يبه كما ملاه الأسى على وفاته . وله عينان فاقستا بالدمع حزنا عليه ، ولكنه مع هذا أحس في أعماقه بفرحة لا انسانية وبالفخاى . ونادى مادلينا :

- اعلمي لنا قهوة ، وأحضري لنا بعض النبيذ ، واذهبي اذهبك الأبيض ، واعدى لنا الطعام . اسرعى .

ونظر اليه اسدقاؤه في دهشة مزوجة بالقلق . عيانه مفروقتان بالدموع . ولكن صوته صاف طروب . بدأ يذرع البيت هنا وهناك ، وكانه يراه لأول مرة . يدخل خزائن المأوى . يكشف لفظة الجرار ويقرع البراميل ليرى ان كانت مليئة ام لا ، وفتح خزائن المسال .. ثم عاد وجلس الى المائدة التي أعدت . وجلس ياناكوس عن يمينه وقسطندي عن يساره . وصعب النبيذ في الأقداح . ورفع كأسه وقال :

- كل هذا الكلام المثلّي تقوّه به ناظر المدرسة عن أبي عنك ومنط
المعابر هو محض عراء - لم يكن أبى بطلا ، ولم يحدث أبدا أن عرض
صنعه للاقاة الإخطار - ولم يتخذ في حياته قرارا فيه شهامة وجراة -
كان حقا صديقا لطيف المعشر ، يحب حياته الوادعة ، ويترفع من الموت -
هذا كل شيء - ليحفظ الله روحه -

• أما حديث ناظر للمدرسة عن سلالة اليونان فهو عين الحق - فكل
يوناني في هذا العالم حتى الوضيع منهم والأبى - هو سيد كبير في هذا
العالم دون أن يعلم ذلك - إذ أنه يحمل على كاحله مسئولية كبرى -
أن أي يوناني لا يتخذ في حياته - ولو لمرة واحدة - قرارا بطوليا فانه
يتحول لقائيد جنسه - وبينا كان يتحدث هذا الذي المثلّي يساظر
المدرسة غرعت حين رأيت التي يصعد أن أشق نفسي الطريق الذي سلكه
أبى - الطريق السهل الذي المربع - ونجاة أسست بالمثل من ذلك -
وأمام قبر أبى أقسمت لنفسي أن أشق الطريق الوعر البليل - الطريق
الذي سلكته سلالتنا منذ آلاف السنين -

كان باناكوس يستمع بالفعال للكلمات منديقه وسأله :

- أي طريق هذا ؟ أي طريق تعنى يا ميشيل ؟

- الطريق الصاعد - وهذه السبب أسألكم أن تقدموا إل جميلا
يا أسدقائي ورفاقي - بعد أن يجن الليل للذهب معا إلى ساراكيثا لشفايل
مانولي والقسيس فوتيس - قضيت الليل كله أرقب أبى وهو يعاني منكرات
الموت ، وأقلب في تردد فكرة في رأسي دون أن أحسم أمرى - بيد
أننى اتخذت قرارا حاسما وقتما كنت أمام القبر - سأقصص لكم عنه
عندما يلتئم شملنا نحن الخمسة هذا المساء - أسألكم العون يا اخوتي -

وأعلن الصديقان :

- نحن معك حتى الموت يا ميشيل -

وشربا في صحنه ، وأقبلوا على طعامهم في ليل شهية -

مال ميزان النهار ، وجلس القسيس فوتيس ومانولي أمام الكهف
يتجادبان في هدوء وروح أطراف الحديث - عادة لتوهما من جولاتهما في
القرى الجاورة حيث قضيا نهارهما في مساعدة ورفاقهم بيتنا من عمل -
قاما برسلتهما مشيا على الأقدام ، وأزفهما التراب والقيط - والتفقا أثناء
عودتهما بالشيخ كريستوفيس وعليا منه نبأ وفاة الشيخ بطرياركس -
وأنه ووري التراب -

وقال كريستوفيس الكارّ يسخرينه المعبودة :

- أسعى على هذه الآلة التي كانت تخرج الروت واللفظاء أو يتوج
الآن من العمل - كم من الأرواح حطفت وراء في قبرينا والحق المجاورة -
أطال الله عمرنا -

- متى حلت هذا - وكيف مات - يا شيخ كريستوفيس ؟

- يقولون انه أكل خنزيرين راسيين عشية وفاته - أثناء زفاف
ابنه - ويبدو أنه أود أن يلتهم معها ديكاً روحياً محتوا ولكن شئت
بهم اليمن ، وحلوه إلى سريريه - ووجدته في الضباب جنة هابدة -
لقي ناظر المدرسة خطبة عصية عدد فيها مناقبة - ولكنني أقسم أنني لم
أفهم كلمة واحدة مما قال - وبكيت لا تشي ، إلا لكى أبكى مع الباكين -
وبعد ذلك أخذت حفلة من النرب توتها فسوق كرشه - وكانت عنده
عى آخر قصصة يأكلها من الخنزير الرضيع - أسأل الله العلى التقدير أن
يكلا كرشه بمنايته -

وما أن فرغ من كلامه حتى أطلق في طريقه - وبعد قليل ورن
ذكرة ال خاطره أشحكنه وصاح :

- سمعت يا أبا فتيس أن باب الفردوس ضيق جدا ، ويبدو أن
البدين لا ينفذ منه - ولكن أحسب أن ثلاثنا سيغدون منه دون جدال
بحيا القفر -

وقال القسيس فوتيس مانولي :

- الأب كريستوفيس له طريقة لاذعة في عرض الأشياء - لاذعة
ولكنها صادقة في نفس الوقت - نعم - عسير على الفسى أن يتم بالخاص -
لا يكفى الإنسان أن يكون حلو الشعال - لطيف المعشر - بينما يعرف أن
حناك جوعى ولا يقتسم معهم قروته - قد يعض عنييه - وتسلية عاداته
والسنة كل مظاهر الشجاعة - لم يبق علينا الآن إلا أن نرى ميشيل
ماذا هو فاعل الآن - هذا ما انتظره لأرى -

وقال مانولي :

- إلى واثي عنه -

- لعل الله يسمح ندامي - ولكنني رأيت كثيرين في حياتي -
وقبل أن يتم حديثه رأى الأصدقاء الثلاثة أمام الكهف - وبعض
القسيس ومانولي - وقالا لميشيل :

- لك منا العزاء يا ميشيل - حفظ الله روحه وأطال عمره -

وجلس الأصدقاء الخمسة ولهم صمت طويل . وأخيرا تكلم
ميشيل :

- يا أبانا ، يا اخوتي ، بكيت أحي الشبح ، فقد كنت بعض لحيه
ودمه . فجمعت في وقائي ، بيد أنني في نفس الوقت ، وليغير الرب لي .
أحسنت أنني أصبحت طليقاً ، كأنما انزعج على ثقل كبير كان يحتم
فوقي . وبدأت أحس مدة اليوم أنني أنا ، وأنا وحدي ، المستول من كل
أعمال . وإمامي طريقان : طريق سلكته أبي وكان يسعدني إليه ، وطريق
آخر شاق وعمر يسعدني إليه المسيح ... فأبى الطريقين اختار ؟ وحسنت
وأبى هذا الصباح وأنا واقف أمام القبر . وأسألك يا أبانا ، وأنتم
يا رعاقي ، أن تسامحوني على الوفاء به .

وصمت . وأسند راحته إلى ركبة القسيس فوثيس وكانه يقول له
« عوكة » .

أمسك القسيس فوثيس بيد ميشيل ، واحتضنها بين راحتيه
اليمينتين . وقال :

- نحن معك يا ولدي في هذه الساعة العصيبة . تكلم وكن وانقا
ينا .

- ورت أبي عن أبيه ، وورث هذا عن أجداده ضياعاً واسعة وإشجاراً
كثيرة . تمتعوا جميعاً بهذه الثروة ما شاء لهم ذلك . وكانوا بين الحين
والآخر يلقون بعض الفئات للمساكين ثم يموتون وهم راضون بما
فعلوا لأنهم أدوا واجبهم على خير وجه . أو عتدا كانوا يظنون . وأنا
أيضا كنت أظن ذلك ... حتى أتت اللحظة الموقوتة ، والفضل في ذلك
لأخوتي ولك يا أبانا فوثيس ، وكشف الرب الغشاوة عن عيني . وأبصرت
كل شيء . أثار الله قلبي . ولهذا يت أعاني ... وانخلت قراري اليوم :
سأوزع كل ما أملكه على المساكين . لن أبقي حتى على الفئات الذي كان
أجدادي يلقون به لن يتضورون جوعاً . سأقدمه كله لاجتماعكم ، إلى
ساراكيئا ، فهل تقبل يا أبانا ؟

كان الجميع ينتصرون له وروسهم مخرقة . ولم يرفع أحدهم رأسه
بعد أن فرغ ميشيل من حديثه . وإن عليهم صمت طويل وسط حلقة
الليل . وفجأة ترد صوت تشيح مكتوم صادر عن القسيس فوثيس .
ولم يتمالك ياناكوس نفسه . فاندفع ناحية ميشيل وضمه إلى صدره
بقوة وحرارة . وجاؤل أن يقول شيئا ولكن عجز لسانه عن الكلام ،
واختنقت الكلمات في حلقه ، وإذا به يشبك ويرقص . وأخيرا استطاع
أن يلفظ بضع كلمات :

- وأنا أيضا أحب حماري لاجتماع ساراكيئا . لا أملك شيئا غيره
من حطام الدنيا . فخذ يا أبانا .

وهض القسيس فوثيس . ووضع راحته فوق رأس ميشيل
أعس .

وقال :

- يا بني ، أكرهت الحياة على أن أخرج الكثير من الكتوس
الرب ، ولكنك أنسيثني كل هذا . جازاك الله يا ميشيل عن هذا خير
الجزء في الدنيا والآخرة . أنك بصيتك هذا أنقذت آلاف الأرواح من
الموت والعاز . أنقذت هؤلاء اللاجئين وأطفالهم وذريتهم من بعدهم .
بوركت يا ميشيل .

وأخفى مانول رأسه بين يديه ، وانخرط في تحيب . لم يشعر
في حياته بمثل ما يشعر به اليوم من فرحة غامرة . حتى يوم أن خرج
من بيت الأبا ورأى شجرة السمار التي يسيثق فوقها ... فرح لأنه
رأى أن كلمة الله في النهاية على العليا ، لها القوة والسلطان على كل
طبيات الحياة الدنيا . ما أيسر على الإنسان المعظم أن يضحي بهذا العدم
أمام الرب ، ولكن ما أشق على الإنسان الذي يملك الثروة والمجاه أن
يضحي بكل ما يملك . وما هو ميشيل يضحي بكل ما يملك . وأحس
ما نولي بالفرحة والتأثر بغليانه ، فظل مكانه جالسا مطرفا برأسه عاجزا
عن الكلام ... ونجاة شب واقفا وعانق ميشيل وقبله ، وانخرط
في البكاء .

وكان تستعدي يظن ويسمع منقبض الوؤاد . وقال لنفسه :

- لم أقدم شيئا ، ولم أفعل شيئا ، لم أتعل عن أي شيء باسم مجبة
المسيح . حتى أضاف وزوجتي ، لا شيء ، لا شيء البتة ...

وكان ميشيل يرقب في صمت القمر الذي يلمل الجبل تحت أسمعته
يرتقي كبد السماء ، هادئا متبسما ، يسكب رحيقه المسكر فوق ساراكيئا .

كان الليل ساجيا ودعما ذلك السماء . والقمر يسير الهويني متهادما
الرقاقة . وأحس بانقباض في قلبه . وحدث نفسه قائلا :

- لست أهلا لشيء . لا أستحق شيئا أبدا . إن ما أقدمت عليه لم
يكن عن جود وسخاء . وإنما عن خوف . أخشى أن أكون أنا الذي قتلت
أبي بسبب خطأ إقرارته . ثمة خطيئة كبرى تجثم على صدري وتثني في
نفس الهلع . وهانذا أتخطئ عن كل شيء ابتغاء سكينته النفس . حتى

أسى وإنام - وأطرد تلك الكلمات المفرقة - أنت الذى قتله
أنت .

وفي اليوم التالي ذاع الخبر بين أهل القرية - وكان لوقعه دوى الغنيلة - سبتنازل ميشيل عن كل ثروته للأجنيين المهلهلين سكان جبل ساراكيئا ، ولم يكن الخبر يبلغ آذان القسيس جرجوريس حتى مرع أن الشارع متعلا خلس بالبين ، اشعت الشجر بغير حزام حول خصره أو قيمة على رأسه - خف للأفان ميشيل في بيت أبيه .

ألقى الباب مفتوحا ، فاندفع مهرولا فوق الدرج - وفاجأ ميشيل وهو منهك في الكناية بجوار النافذة - كان يكتب إلى ماريوري ، وما هو بغض فترة طويلة مع عبارة استعصت عليه لا يدرى كيف يصوغها لها . يود أن يقول لها أنه يحبها حقا ، ولكنه في ذات الوقت مضطر إلى أن يهجرها - حاول ذلك مرات عديدة ، ولكن الكلمات التي يخطها قلبه تبدو له وكأنها كلمات قاسية لا تليق - أنه عاجز عن أن يصوغ عبارة واحدة تعبر في ذات الوقت عن حلاوة الحب وحرارة الاتصال - ودائما وابتداء كلمتان متمايزتان تماما - وما يبحث عنه ميشيل هو كلمة واحدة تعبر عن هاتين الهمتين الموهلتين - لوحة الحب وحجيم الفراق في قلب الإنسان .

في هذه اللحظة المنبس عليه القسيس جرجوريس يردائه الكهنوتي كأنه انصاف هائج .

وصاح فيه وقد تقطعت به الأنفاس :

- ما هذه الحمية الجديدة التي أسمع عنها يا ميشيل ؟ يشاع لك سبتنازل عن كل أملاكك لهؤلاء المهلهلين المذمومين الذين يسكنون جبل ساراكيئا ، أنها بريئة - هل تسمح ما أقول ؟ يا للعار .

مرق ميشيل الرسالة التي كان يكتبها ، وحملق بعينه في القسيس العاصب دون أن يجيبه .

- ألا تحترم ذكرى أبيك على الأقل ؟ ألا يكفيك أنك قتله ، وما أنت تقطعه أريا أريا وتجوذب به على هؤلاء الحفلة العراء الغاسقين - ألا تعش الله ؟

- ولكن يا أبانا أفضل ما أفعل لأنى أخشى الله - يقول يسوع المسيح - ماذا يمنعك أن تحلق الوصايا كلها ؟ فهذا وحده لا يكفي . إن أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز

في السماء ومعال ابنتي - وفعلت يا أبانا ما أمرني به يسوع المسيح -
نصادا تلومني على ذلك .

استيقظ القسيس بالقسيس جرجوريس - وأخذ يشد الحجر حبة ودهابا كأنه وحش كاسر - وبعض أمواجه من الغبط .

- غادة لا تجيب يا أبانا ؟ ألم أفعل ما أمرني به المسيح ؟ نعم أم لا ؟
- نعم أم لا ؟ أجبتى .

- أنت يا فعالك هذه تعوي أركان المجتمع - هذا كل ما يعرفه البك حاتم ابنتي - هذا هو جوابي - لن أقبل هذا الزواج بعد الآن - لن يرضى وقت طويل حتى أراك حاتما على وجهك في العرقات - حاملا زكينة على ظهرك شمال الناس الصدقات .

وأجاب ميشيل في عهده :
- وما قيمة هذا كله إن كنت سافور بملكية السماء ؟ ما قيمة هذه الحياة يا أبانا ؟

- أنت مجنون - لم تعد تعي ما تقول .

- لا ، بل أنا مسيحي يا أبانا ، هذا كل ما في الأمر .

- ساحر منك من الكنيسة أنت ومائل - كلاكما خائنان - نعم ألتما خائنان ، وإن شئت الحقيقة ثلاثكم - ألتما وهذا الولد القسيس فونيس - نعم ، نعم ، دعك من نظراتك هذه ، فأنا أعرف سرهم .
وقال ميشيل دعشا .

- سرنا ؟ أي سر تعني ؟

- أأتم عملا - تتلقون أوامرهم من بلد أجنبي للقسيساء على الدين والوطن والعائلة والكنيسة - العمد الأربعة التي يقوم عليها العالم - وما توفى عليه اللغة هو فائذكم - وأنى القسيس فونيس من الطرف الآخر للعالم أيدفع أوامر مصادره ويزعم أنه يحل انجيلا جديدا .

وقال ميشيل معترضا -

- كأنك تقول إن المسيح اشتراكى .

- أي مسيح ؟ المسيح الذى صلبتموه من نسج خيالكم يا قاطعوا الطريق ؟ ليس هذا بمسيح انه عبد المسيح .

لم يعد ميشيل قادرا على أن يمسك برمام نفسه - عب واقفا على قدميه وقال :

- أأتم الذين غرتم المسيح وصورتوه حسب هواكم أيها القساوسة

والأساقفة والأعيان - صحتهم صبيحا على شاذلة الشيخ لاداس - مرانيا
آلا للسحت - كدوبا - جيانا - مرانيا - نعتي خزانة بالجنهات الذعية
التركية والابجدية - مسيحيكم جعلتم منه شريكا في الجريمة مع كل
قوى البطش على ظهر الأرض ليبقى على لحمه وماله -

وزار القسيس ، وتناثر الغاب من فمه على الجدار :-

- أرى على أعين الحرب غلبنا يا سيد ميشيل -

- أنا لا أدعو إلى الحرب بل أدعو إلى العدالة - ولكن جدار - إذا
عاجتوني فاني سندافع عن نفسي - المسح الحق معنا نحن - هو قائدنا
ومستري ذات يوم أهل ساراكيئا المهلهلين في وضع انفصل منكم أنتم
يا أترابه ليكوريس -

ووجه القسيس - وضرب جبهة يده في خلف كائنا أدرك فجأة :-

- أفن لهذا السب تنازلت عن أراضيك وديارك لشعب ساراكيئا -

حتى يمتكنهم الفحول إلى ليكوريس ويفرضون سلطانهم علينا - ٧ ، ٧
لن يطأوا قريننا - لن يكون ذلك أبدا - ولو أنوا سطردهم من أرضنا -

وفي هذه الأثناء لن تجد حقوقك وسائيتك وأشجار الزيتون من يحرقها
أو يسقيها - سيكون مصيرها الحطب والخراب - إلى أرفع يدي وأقسم
سألف على الكثير يوم الأحد القادم وأعلن قرار الحرمان ضدكم جميعا أيها
المرتدون -

وبعد أن أُنسم وتوعد اتخذ مسيلة إلى الخارج وصفق الباب وراءه -

وأطل ميشيل من المائدة يسمعه نظرائه وهو يجتاز الفناء - يخرج لعله
بالبقيث - وعلا الهواء رداءه فانتفح حتى ارتطبت أمثاله بقوائم باب الفناء -
وغاب القسيس عن نظريه عند منحرج الطريق - ولم يعد يسمع ميشيل
غير نباح الكلاب التي فرغت منه حين مر بها -

وعاد ميشيل إلى حيث كان يجلس بجوار المائدة - وبدأ من جديد

يسطر رسائله إلى ماريوري - فاستت الكلمات في خاطره هذه المرة كائنا
تفيس من نسج - وقص عليها كيف أن أباه تركه ثوبا ثامرا متناجا ، بعد
أن علم أنه سار حسب تعاليم المسيح ، إلا لتقامم أملاكه مع المساكين -
ولذلك رد إليه خاتم الخطبة -

ثم بدأ يتحدث عن مدى حبه ووليه بها - وكيف تملأ عليه فكرة - وقته
لعل يغار - وأن الحياة مملوءة طريق حزين قاس - وبينما كان يتكلم
في رسالته - أحس أن هذا الحب يند - تكبر مع كلامه - وسأله لعله يند -
لا يظهر له - بدا وكأن كل كلمة حب يخطها ليوريس بها ماريوري تغلق
معها عاطفة التي لم تكن تجد التصبر عنها من قبل - وفي النهاية راح

الحياة بدون ماريوري استشهادا يفوق طاقة البشر - - - وقاض الدع
من عيبه -

وتتم قائلا :-

- لم أكن أعرف أنني أحببنا إلى هذا الحد - أبدا لم أكن أعرف

ذلك - - -

وفي هذه الأثناء كان القسيس جريجوريس في طريقه يبحث عن أغية
طر المدرسة ثم الشيخ لاداس وغيرهما من أعيان القرية وكبار ملاكها -
ربعد أن أوضح لهم القضية - اتفقوا معه على أن الخطر الذي يهدق بالقرية
خطر داهم - وهذا يقتضي تكاتف كل القوى المخلصة لتصريب بقوة أهله
المسيح على لم رأسهم وبأسرع ما يمكن قبل أن يستشري الشر ويلوث كل
القرية - وكان ناظر المدرسة هو الوحيد من بين الحضور الذي فهم بعض
الاعتراضات التي تسم بالخنوع - ولم يكد أخوه يرفع عقيرته حتى انكش
وتوارى سريعا داخل قوقعته -

اتفق الحضور على أنه إذا ما آلت أملاك بطرياركاش إلى شعب
ساراكيئا فلا بد من طردهم بقوة - وأن القسيس جريجوريس سيعمل قرار
الحرمان من الكنيسة يوم الأحد بعد الفداء - والفقوا على أن يكون قرار
الحرمان قاصرا بادى ذى يده على مانول زفهميم - وإذا لم ترعه عصابة
حقة القمل فسيأتى دور شركائهم ميشيل وياناكوس وقسطندى والآخرين -
وجعلت القسيس جريجوريس بصوت كسريم الزعد - قال - لا بد أن
لنستأصل شذاعة كل عوامل الفساد في قريننا ولا تبقى إلا على البترة
الطيبة -

وعزل سريعا يكتب لابنته ويحيطها علما بالأفعال الكريمة التي قام
بها خطيبها الفر - وأن من الخير لها أن تظرد من قلبها - وأكد لها أنه
قادر على أن يأتينا بزواج أكثر منه ازنا وتقرى بعد أن تعود - بادن الله
إلى القرية وقد امتدتحت سحتنا - والحق يجب أن لشكر السماء على أن
ميشيل ألقى بالقناع وكشف عن وجهه قبل أن يتم الرفاف وعرفنا أنه
أفاق - ثم أرسل بعد ذلك في طلب دانيوتي وقال له :-

- انتح عيليك يا دانيوتي - اذهب إلى ساراكيئا بين العين والآخر -
وارتبط ما يحدث هناك - وحاول أن تعرف ما يفعلون وما يقولون - وأحطنا
علنا بكل هذا - عدونا واحد يا دانيوتي - وحيث أنك إنسان قوى الشخصية
فاننا قد نحتاج إليك دائما -

وأجاب بانابوي :

« أليس أستمز منكم جميعا . ولكني أستمز أكثر من هذا الخنزير مانوق والشماسة الذين يلحقون بذيبي . يحاولون أن يظهروا لنا في ثوب المسيح والرسول . لهذا السب وحده أصنع جهدي في خدمتك . وليس معنى ذلك أنني لا أستمز منك أيضا . ومنذ له القسيس يد ليقلبها . ولكن بانابوي أدار له ظهره . واتجه ناحية الباب .

وقال أثناء خروجه :

« لم يسبق لي أن قبلت أيدي لفترة أو أطرافا ونسنة .

وفي صباح يوم الأحد بكر أهل القرية جميعا . رجلا ونساء . في الذهاب إلى الكنيسة . البعض استسند به الطيق . والبعض الآخر لا يخفي فرحته . ولم يتخلف أحد عن الحضور حتى المرضى والصلبية فقد حضروا جميعا ليشهدوا المصير الذي ينتظر كل من ينكر المسيح . سيكون ذلك عبرة لهم في مقبل حياتهم .

كانت الكنيسة تطن كخليفة تحمل هجتها ولبور . ووقف الشيخ لاداس في مقصورة الأعيان منتفح الأوداج . وقد شاء أن يحتفي بهذا اليوم المهيّب فأنهّل حذاءه الذي اشتراه من المدينة يوم أن كان يستعد للزواج . ولا يليه غير مرة واحدة كل عام . يوم عيد القيامة . وضاق عليه الحذاء حتى بات يؤذي قدميه مما اضطره إلى أن يجعل ويمشي مشية الغرباء . لذلك كان يحذل حذاءه في يده بعد أن يترك بيته . ولا يتنعله إلا عند باب الكنيسة . ثم يتخلعه ثانية بعد القداس ويسكه بقوة تحت ابطة كانه كثر تمين بحاف عليه . وينذهب إلى بيته .

ورأى الناس بانابوي يقترب من الكنيسة التي لم يدخلها منذ شهور طويلة . كان وجهه المجنور متسبط الأسارير . وقد وضع سيجارة خلف أذنه ليدهنها بعد صدور قرار الحرمان لعديدا عن سروره وفرحته .

ووصلت الأم مائدة البيا . منتجة بالسواد ثائرة . أتت لتشهد سقوط ابن أخيها عذو المسيح والذي جلب العار لبيتها الكريم . لقد ثنيت بذلك وقالت : « هذا الولد سيلعن اللغة بنفسه . بسبب قراماته الكثيرة » . وما هي الآن منتشرة الصدر إذ صدقت نبوءتها . وما هو يخرج من الكنيسة مطرودا ليثلي به في المهيج .

وأقبل ميشيل شاعيا حزينا . مرتديا ملابس الحداد . لم يرقا نه على ليالي طويلة . وإذا أغلقى لراى له طيف أبيه مع مطلع الفجر . يحده منفراته . وبين رأسه كأنه يلمعه . اصطحب ميشيل صديقه باناكوس « بسطندي » وفي الترحيبا أندوليس الحلاق وديمتري الحزاز .

وأسر ديمتري إلى صديقه الحلاق بكلمات :

« سأذبح شاة وأحلبها إلى أهل سباداكينا لمحتفل هناك بقرار الحرمان . تعال معي لتأكل نصيبك .

وأعلن الحلاق :

« أما أنا فسوف أذهب إلى هناك لأشرب لية مانول وأعطره بأجود روح ماء اللافندر . ها هي عذتي والزناجة في جيبى .

وأخذ ناظر المدرسة مجلسه بجانب الكورس ليرتل الترانيم . كان جميعا كما هي عادته في أيامه السيئة . فهو غير راض عن هذا الحفل غير الإنساني . ففي وأيه أنه إجراء ظالم . الدافع إليه ضمنية شخصية . وحاصل دينية . ولكنه لا يجرؤ على أن يرفع صوته معترضا . فقد كان يحذر عومة أطفاله يخاف إزاء الأكبر القسيس جريجوريس الذي اعتاد أن يضربه بقسوة أثناء اللعب وهذا في ميعه الصبا . ولم يتمكن من التغلب على هذا الخوف حتى يعد أن أصبح رجلا أعزب ناهز الستين من عمره .

ظهر القسيس جريجوريس نائرا مناجا يلحظه البيضاء التي تحاكي لية الرسل والأناياد . فرغ من القداس سريعا . إذ كان متعبا . وكذلك كان أهل القرية . ثم أغلق الباب . فأشاريات الأعناق وشخصت إليه الأبخار في وجع . وفي جرس الكنيسة ذقات الحداد . فما هي ذق نفس قد هلكت .

أهل القسيس من غليساته على قطيعه . رجال بصرة بينهم . وعيس ويسر . ولغظ من صوته . وتحدث بصوت تهريم الرعد دوى تحت قبة الكنيسة :

« أخواني المسيحيين » الكنيسة حطرت . خرافها المؤمنون الصديقون . والمسيح وأعيها . والقسيس هو ممثل يسوع المسيح على الأرض . وإذا أصاب شاة مرض معدى فإن الراعي يخرجها من حظيرته وقاية لغيرها من العدوى . وبليي بها بعيدا في هوة صحيفة قرسة للسوت . يشق على نفس القسيس أن يرى نفسا ملوثة . بيد أن واجبه يمل عليه أن يكون عبيدا في غير رحمة انتقاء خلاص الأرواح السليمة النقية .

وثمة شاة جريهه تضمها حظيرتنا المسيحية . اعنى بها ايها الاخوة
المسيحيون المدعو مانولى . لقد تمرد على المسيح ، ويقضى واجبتا ان نوجه
له ضربة قاصية فى الصميم . نازعنا وطننا . وضد الاسرة والملكية .
افعلن لواء الثورة . لواء احمر ليقرنا جميعا فى بحر من الدماء . انه يقتل
اوامره من بلد اجنى . يتهدد عقيدتنا ووطننا وشرقنا خطر داهم .
ويقتضينا الواجب ان نحرمة من الكنيسة . ومعنى هذه ان نزيله عن
الخاصية السليمة . ونلقى به بعيدا الى حيازة الشيطان . حتى يهلك هو
ونضمن الخلاص لنا جميعا . واتى انزل من فوق المنبر لأطرده بعيدا .
ونزل من فوق المنبر . وهرع الشمساس اليه حاملا كأس القداس .
به ماء مقدس . غمس القسيس مرثلة الماء المقدس . ورش الماء فى الهواء .
وأعلن بصوت كأنه قصف الرعد :

- اخرج من هنا . اخرج من هنا محروما .

وتقدم خطوة الى الامام ورش الماء فى الهواء من جديد وهو يصيح :

- اخرج من هنا . اخرج من هنا محروما .

وتطرق يردد كلماته هذه وهو يتنفل بين ارجاء الكنيسة . وكان
مانولى يملا عليه الهواء . خافيا عن الاعين . وملاك الرب يتقدم القسيس
ليطرده بعيدا . وظل ينثر الماء فى الهواء دون كلل حتى بلغ باب الكنيسة .
وتفرق القرويون بعيدا فى قرع كأنهم يخشون ان تسبهم الروح الملعونة
التي تتراجع امام القسيس خطوة خطوة حتى تخرج من باب الكنيسة .
وما ان بلغ القسيس عتبة الكنيسة حتى لوح بالمرشة فى قوة . ونثر

بعض ما بقى فيها من ماء فى الهواء . ثم استدار ناحية أهل القرية وقال :

- صيحوا ايها الاخوة المسيحيون . صيحوا معا بأعلى صوتكم . مانولى
محروم من الكنيسة .

وتعالت صيحات عالية اهتزت لها الكنيسة . ورفع كل الحاضرين
أيديهم وصاحوا ثلاثا :

• مانولى محروم من الكنيسة •

ولوح القسيس بالمرشة لينثر الماء المقدس للمرة الأخيرة وصاح من
جديد :

- اخرج من هنا . اخرج من هنا محروما .

وأغلق الباب بعنف . وتغشى الحاضرون الصعداء . كان الشيطان
قد اضرف عنهم وتطهر الهواء .
وتوسط القسيس الكنيسة وقال :

- ايها الاخوة المسيحيون . من الآن فصاعدا لا يقترب أحدكم منه .
لا يمد أحدكم اليه يدا ليعطيه كسرة خبز أو كأس نبيذ . لا يفتح أحدكم
أيه بحتة له . كل من يقع بصره منكم عليه يسحق على الأرض ثلاث مرات .
ويؤذبه طيره . لقد أنكر المسيح . ولذلك ينكره المسيح . أنكر الدين
والوطن والأسرة والملكية . وهذه كلها تنكره بدورها . ليكن متواها ناز
• آمين •

وصاح الجميع فى حدة وكراهية وارتجاج :

- آمين •

ودمد صوت بالنايوني حتى فاق صوت الجميع « آمين » .

وفى هذه اللحظة رن صوت هادى وسط الكنيسة :

- يا ايانا . مانولى ليس وحده . فانا معه . أريد ان احرم حمة
من الكنيسة . أنا ميشيل بطريركاس .

واتفح على الفور صوت آخر فى غضب :

- وأنا ياناكوس البائع الطواف وساعى البريد أعلن أننى معه ايضا .

- وأنا قسطندى صاحب القهى . أنا ايضا معه .

وسرت هزة بين صفوف الجمع . وابتعد أهل القرية جانباً .
وأصبح الاسدقاء الثلاث وحدهم وسط سحن الكنيسة .

وبدأ صوت القسيس جريجوريس :

- سيالى دوركم يا رسل الشيطان . انتظروا ولكن كنيسة المسيح
يدافع من العظم والرافة تمهلكم ملكم لتوبون وتندمون . ان صافقه
المسيح معلقة فوق دروس الناس تنظر فى فنى . وأنا افوض امركم
الى الله ان شاء يغفر لكم ويتسلطكم بعنايته .

وصاح ياناكوس :

- سيحكم الله بيننا يا ايانا ، وهو خير الحاكمين . فهو وحده
سيحانه من نسيق به دونك أنت . ونظاير الشر من عيش القسيس
وزار :

- لقد قضى الله بيننا . وأصدر حكمه على لسائى . أنا قسيس
ليكوغريسي . أنا لسان الرب . ورد عليه ميشيل :

- القلب الطاهر هو وحده صوت الرب . وقلتنا طاهر يا ايانا .

ثم توجه بالحديث الى رفيقيه :

- هيا بنا يا اخوتي ، لنفرض لرباب ليكوفريس عن اقدامنا ،
وداعا يا اهل ليكوفريس .

ولم يجب عليه أحد . ورسمت النسوة علامة الصليب في فروع ،
وبصقن في صدورهن ، وهن يمتعن :

كيريلايوس ، كيريلايوس .

وعاود ميشيل الكلام :

- وداعا يا اهل ليكوفريس . مسيحا فقي مضطهد ، بطرق
الابواب فلا يفتح له أحد . اما مسيحكم ففتى من الامان ، يعيش على
وفاق مع الاغا ويسم بالحياء الرغبة ، يخلق بابه عليه بالشاريس حتى
ياكل طعامه بعيدا عن اصين الناس ، ولا يلقى لاحدهم بالفتات .
مسيحكم اكول سلطان ، ويعان رغم ذلك على الملا : هذا العالم يسوده
العدل والامانة والمحبة ، وهو خير العوالم قاطبة ، ليكن الحرمان تسبب
كل من يحرك اصبعه ليهز اركانه . مسيحا فقير ، ينظر الى الاغنياء
التي اسفها الجوع ، والارواح التي اختناها الخسوف ، ويصيح بأعلى
صوته : « هذا العالم يسوده الظلم والجور والغبالة ، أولى به أن
يهلك ويبعد .

ورفع القسيس جريجوريس رداءه الكتونى واندفع نحوهم بهرولا
وهو يزار :

- ايها المارقون اخرجوا من بيت الرب .

وهاج اهل القرية وماجوا ، وفقر الاب لاداس من المقصورة ،
ولوح بانابوتي بقبضته . وتعالى صيحات الغضب :

- اخرجوا من هنا ، اخرجوا .

وقف ياناكوس الى الامام ليضرب كل من يعترض طريقه ، ولكن
ميشيل امسك بذرعه وقال :

- هيا بنا ، وليحكم الله بيننا وهو اعدل الحاكمين .

ورسم علامة الصليب فوق عتبة الكنيسة ، ثم خرج . وسار من
ورائه ياناكوس وقسطندي ، اسلا خفية وسط الحشد ، ومن ورائهما
بمسافة غير بعيدة اندونيس الحلاق وديمتري الجزار ،

وفجأة دوت صيحة قوية خلفهم :

- هل ستهجرونا يا قسطندي ؟ هل ستهجر زوجتك واطفالك وتحرم
من الكنيسة ؟

واستدار قسطندي ، قابصر زوجته تجرى نحوه والهواد يطروح
سرعها . وتوقف لحظة مترددا . ولكن ياناكوس امسك به وشده
قوة :

- هيا بنا ، لا ننظر الى الوراء .

مناوشات أولية

عاد القسيس جريجوريس الى بيته مغيبًا خائفًا تضطرم نار الغضب فيه من راسه حتى أخمص القدمين كأنما مست يده لساعة الصابغة التي كان يلوح بها متوعدًا .

كان يحقت نفسه : « ينبغي أن تكون لكلمة القسيس سلطانها وقوتها ، أن تبيد وتقتل أن شاءت . فإذا ما قال القسيس لأحد : عليك اللعنة فلا بد وأن يسقط الملعون لساعته ميتاً . وبذلك يتخلص العالم من كل أعداء الرب ، ويسود السلام والمداينة .

ودار بمخيلته موكب من البشر يضم كل من يود أن يردبهم نمل أن استطاع إلى ذلك سبيلاً . أولهم مانولي ، وهو أخوهم ، لا شيء إلا لأنه لا يوجد ما يؤخذ عليه ، يعيش بلا غشية .. لا يسرق ، ولا يكذب ولا يزني ولا يحلف .. لذا يجب أن يكون أولهم . ويأتي بعده مبانرة ، أن لم يكن معه في آن واحد ، هذا الوفد المدعو بالقسيس فوتيس . أنه بكرهه ، يود لو استطاع أن يققا عينيه حتى يشفى عليه . كل شيء فيه يثير حنقه وغضبه . طلعته الرهبانية النازكة ، وعيناه اللتان تتأججان ناراً ، وصوته العميق . بل وقبل كل هذا أنه مقل في طعامه ، لا يذوق الخمر . وليست له مسقطات تؤخذ عليه ، ويمنع بحب شمع له كله من تكره أبيه . آء لو استطاع أن يلقي به فوق الرغام ويجبره على أن يعض الأرض بأسنانه ، ويترق لميته ، ويجدع ألفه ، وكلما فكر فيه



القسيس جريجوريس واطال العسكري كلمتا زودت بورته استعلا .
حتى انه لم يعد يفرى على وجه الدقة ايها - مانولى ام القسيس
فوليس - ينبغي ان يقطع دابر اولاد قبل غيره .

وباني بعدها دور ياتاكوس وفسطلى ليجهر عليهما . فقد اختار
كل منهما لنفسه طريق السود . وعضبان مثلا سينا لاهل القرية ومن
الحير ان تقضى عليهما - وماذا عن ميشيل - وهذا صمت غلظة يفكر -
ونسم « لننتظر الى حين . ولننله قليلا . . » اما عن الاب لادامس فهذا
ممكن دون ريب . يجب قتله . لا لانه صحيح ايم . التي يمضت اليشام
الى قلعة الطريق . ولكن لانه دعاه ذات يوم في السجن يصاحب الخبية
الشبهية بلحية القسيس .

هؤلاء الخمسة هم الوجبة الاولى . وبعدهم - يوما بعد يوم .
سيكون يكن من يعارضه - ولله حساب قديم يود ان يسويه مع بعض
المطارنة في المدينة بل ومع الاسقف ذاته . لا بد وان يستأصلهم جميعا
... ويستأصل معهم بعض الرعايا الذين سخرؤ منه وآذؤ ببعض حياتهم
وقت ان كان طالبا . . . هذا ان كان منهم من لا يزال على قيد الحياة .

وتنهذ القسيس جريجوريس وهو يردد بينه وبين نفسه : « نعم .
ينبغي ان يكون للقسيس سلطانه وسلطونه » .

وبعد ان تفرق اهل القرية ذهب بعضهم الى الميدان . واثبت البعض
الاخر في فناء الكنيسة . واطلقت الالسن في حياصة والمغال تحرك
وتناقش مايسب . فتسلات حياصة اهل القرية بالاحداث واصبحت ذات
معنى : ادوا الشقاق . وموت شماسير الاعيان . ومقتل غلام تركي .
ووقية ارملة تسحر . وعامهم اليوم يشهدون بانهم حرمانا كسبا .
واشعل ياتايوتي سيجارته . وجلس تحت شجرة السنار يدخنها ونفت
الدخان في منعة وتلفذ . ويقول لنفسه : « كل شيء يسير على خير
وجه . انها متاوردة موقفة لؤي لمارعا . نعم ساقطع دابرهم جميعا .
السيخ والرميل . ولينالفهم السلطان جميعا . وحجب الاناس الاخيرة في
لغة غامرة . ثم نفت الدخان من مخاريبه . وصبغ على الارض . ونهض
لينتخذ طريقه الى ساراكنيا يتحسس على اعلىا ويرى ما يحدث هناك .

اتخذ لنفسه طريقا لا يعرفه سواه . وسر في طريقه بشيخ من اهل
ساراكنيا يجمع الخشب وبعض فروع الشجر يستخدمها وقودا لهم .
وقال له بالنايوي :

- سباح الخو ايها الشيخ . كيف حال الدنيا معكم ؟
- بخير يا بني . الا تعرف اخيارنا ؟ اظن اننا حصلنا على بعض
خبرول ويساتين السكرم غطاء . وكريما قليلا لوت جوعا نحن الفقراء
المنساء . نحمد الله على ذلك . ولقد سنزل الي ليكوفريسي لتعطف
الكرم .

- نقصد يا جدي ان بعض رجالك سيذهبون لهذا الحظاف العنب ؟
- بئنا . عندنا بعض القصبية والبيات القادرين على العمل .
سندون القرصة سانحة عندنا نسمعوا الطائر كم يعم اعطابا بمنهم .

وواصل ياتايوتي طريقه . وقال لنفسه : « اني سعيد الحظ يا شياق
هذا . ساقصد القسيس المحزون لانيه بالخبر .

ووصل الى صخرة اتخذ منها برج مراقبة سرية . اذ يستطيع
ان يرقب من ورائها كل مايدور بين الكيوف . وانطلق على الارض ليرقب
الاحداث عن كثب .

لا بد وان القسيس فوليس قد فرغ من القداس . فتمت حشد
من الشيوخ وعجائز النساء وبعض الاطفال تجمعوا امام الكهف الذي
اتخذوه كنيسة لهم . وما هو ذا القسيس فوليس ومانولى يتحدثان
اليهم . وازعت ياتايوتي السمع . تساعت الى سمعه كلمات متفرقات
بين الحين والحين . ولكنها غامضة مبهمه . حاول ان يجمع هذه
الشذرات المبعثرة من الاقفاط مع بعضها البعض على ان يخرج منها
شيء : وادرك منها ان مانولى كان يتحدث اليهم قائلا : ان من حرمنا
من الكنيسة هو القسيس جريجوريس . وليس الرب الهنا . وشان بين
الانثين .

وايهر بالقرب منهم نارا موقدة . وراى ديمري جاتيا على
ركبته امامها يشوي شاة على السفود . بينما وقف الى جواره
ياتاكوس مسكا بسكين في يده يفرسه في اللحم بين حين واخر ليشتين
ان كانت قد نضجت ام لا . كالا شبالان حدثا يضحكهما . ووقف
اندونيوس على بعد خطوات منهما يحسن لجة شيخ ليحلفها له . وهرع
الاطفال اليه ليأخذ كل منهم دودة ويضمونها شعورهم . وما هم يقفون
وقتهم في اللعب حولها الى ان يحين دور كل منهم . واقبل فسطندى
يحمل بعض الماء . ويعاونه في ذلك بعض النسوة المطائر .

وقال ياتايوتي بصوت كاله الخوار :

— أقسم بشرى أنهم يقضون هنا وقتنا معتمدا . ليس ثمة ما ينقص عليهم حيالهم . . . فقال القسيس جريجوريس الى هنا وانظر ماذا يحدث . — لئى ما منبته بالصاعقة !!! هل هذه هي جهنم التي تحدث عنها : ليأخذك الشيطان !

وزحف على بطنه ليقترب منهم قليلا . وشرباب بعينه ليطل من فوق الصخرة . — وسأله في نفسه :

— هه . . . أين ميشيل . (ان لا اراد بينهم . لا بد وأنه اتحن مكانا ينسب فيه خطه هذا السفه . فالمسيح معه نير من سبي . الى اسوأ : فقد أباه ، ذلك الخنزير البئيل ، وبعد هذا المجنون لثرونه ، والتي القسيس يخافك الزواج في وجهه . . . وما هو الآن وقد أصبح بيتا فقيرا أرملا .

وترأعت الى سمعة صيحات وخسكتان . يبدو ان أحد اللاهثين حصل على مائدولين وبدأ يعزف عليه . ورفع ياناكوس ويبتسئ الشاة بعيدا من النار ، ووضعها فوق الحجارة . وهرع حشد الجوعى من أهالى ساراكينا وأحاطوا بالشواء . وبدأ بعضهم يدق على الآنية القديمة ويرقصون طربا . واقترب القسيس فليس بدوره ، ورسم الصليب ، وبارك الشاة ، وانهمك في تقطيعها شرائح صغيرة ، ثم وزعها عليهم ، كانوا قربان مقدس . وجلس الجميع على الأرض ، وعلات الضحكات ، وسدح المائدولين . وفجأة وقف مانولي ينظر حوله في قلق . ونادى :

— ميشيل . . . ميشيل . . .

ولكن عشا ، فلم يجد لندائه صدى .

كان القسيس فليس يحرك ذراعيه على امتدادهما . كان فرحا حذقان . وتحدث بصوت عال . وسمع يانايوتى كلامه بوضوح .

كان يقول : يا أولادى نحن نعيش يوما مباركا . كسل ما تبقيا به المسيح لتلاميذه بزل علينا اليوم سلاما وبركة . قال المسيح : طوبى لكم اذا عودكم وطردكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجل كاديبكم . افرحوا وتهللوا . لأن أجرهم عظيم فى السموات . فانهم هكذا طردوا الألبان من قسكهم . . . تلك هي كلمات المسيح يا أطفال وما أنتم ترون اليوم : الناس يوجهون اليك المساك . يعيدونك ويطردونك ، لا لشيء الا لاننا نحب المسيح . وهماو وقتنا مانولي حرمه القسيس الاكل الميطان من الكنيسة صباح اليوم . ولكننا نحمد الله على أننا نسلك الطريق السوى . المسيح يسع أماننا ونحن في الزم . افرحوا وتهللوا بالأطفال . المسيح قام .

وملا القسيس كوبا خرفيا بالماء وشربه دفعة واحدة .

وخار يانايوتى :

— حقا هؤلاء ليسوا بشرًا . أنهم وجوش كاسرة . دفعت الاجراس لمن العداد ، وصدر قرار حرمانهم ، وطردوا من الكنيسة . . . وما هم الا عازقون في الضحك ويسخرون من هذا كله . . . من أين لهم بمسألة المسوة : أقسم يدينى : أنهم مسجونون . حدث على المعنة ان كنت أقسم شيئا !

واشرب بعينه لسمع الى الحديث برسوخ أكثر . وفجأة شعر به تطبق على رقبته كالكماشة . وهز نفسه في خوف ولوعة . ورأى مشل تحنى لرقبه وتحدجه بنظرة قوية وعلى وجهه ابتسامة . وسأله في رقة :

— ماذا تفعل هنا يانايوتى ؟ هل ترأبت ما يحدث ؟ لماذا لا تأتى معنا وتشربنا طعامنا ؟ هيا تعال معي . . .

وامسك يذراعه وجده في حنان .

ولكن يانايوتى تكور حول نفسه كالقنفذ . وصاح :

— لا ، ان أبى معك . لا أريد شيئا من طعامكم . لا أرقب في مرافقة أحد منكم أبنا المرند . دنى وحدى .

— ألا تحجل يانايوتى ؟ رجل عليه مثلك ينصف بالعراقة والامانة . لم تعمل لحساب الأوغاد والطفيلين ؟ ترى عمل هم الذين أرسلوك الى هنا لتتجسس ؟

— أنا لا أعمل لحساب أحد . أنا وحدى يانايوتى : أعيش وحدى داخل جلدى وحتى هذه كما يعيش الغرب : الا تفدك هذا ؟ انى طيق الصدور من الناس جميعا . منك وعن الآخرين . أعدا ولا تتحدث الى قاتى أعشى .

وجلس ميشيل الى حوارهم وقال له :

— ماذا دهلك أيها النص يانايوتى ؟ تعبرت لماذا منذ بضعة شهور وأصبحت انسانا آخر غير ما كنت . حقا كنت دائما قفا . ولكنك لم تكن شريرا أبدا . هل ثمة من أساء اليك يانايوتى ؟ من هو ؟ ماذا دهلك ؟

— ثمة أحداث كثيرة : ليأخذني الشيطان . أشياء كثيرة حدثت لي وانت تعرف كل شيء . اذن لماذا تسألني ؟ انت تعرف كل شيء .

وسأله ميشيل في حجل :

- هل هذا لأهم أختبارك لتتبع دور يهوذا ؟ ولكنها تمثيلية فقط يا أخى ، تمثيلية مقدسة ، أنها مجرد تمثيل وليست من الحقيقة في شيء .. هل مانولى سيصبح المسيح حقاً ويظل كذلك إلى الأبد ؟ هل أنا حقاً يوحنا ، تلميذه الأفضل ؟ كيف وانتك مثل هذه الفكرة ؟ أنها خطيرة تركبتها . المسألة بسيطة لأن لك لحية حمراء ..

وصاح بانابوي في هياج :

- سأحلفها .. سأحلفها هذه الفكرة ..

والهجر ميشيل ساحكاً وقال :

- هيا تعال معي ، فالحقائق معنا هنا .. تعال سأحلفها إننا لك ،

وسوف يهديء هذا من روعك .

وسأشعل فيها النار بنفسى . سأشعل فيها النار وأقذف بها إلى الشيطان .

قال بانابوي هذا ثم وثب كأنما اتخذ قراراً حاسماً .

- هنا ، سأفعل ذلك فوراً .

عاد ميشيل يتوسل إليه من جديد بصوت حنون :

- تعال معنا ، تعال ، وسترى بعينيك كيف سيحتفى بك الناس ويستقبلونك بالأحضان ، لا يتقصنا سواك حتى تكمل سعادتنا . ولكن بانابوي هرب من أمامه ولوازي وراء الصخرة ثم اتخذ طريقة تارلاً إلى القرية . والتفت وراؤه لحظة فرأى ميشيل يربيه فوق الربوة حزناً .

وصاح بانابوي :

- إلى الشيطان جميعاً . انتم والآخرين .

وأشار بيده القصمة إلى ساراكتا من ناحية ، وإلى ليكوفريسي من ناحية أخرى .

نام ميشيل في تلك الليلة في نفس السكف الذي يابى إليه مانولى . أحضر من بيت أبيه كل ما يستطيع من حشايا وملابس ووزعها على المصنفين حتى أنه لم يبق شيئاً لنفسه . ثم أعلن للمسيح فوتيس :
- يا أانا ، من اليوم فصاعداً ، سأنرك ليكوفريسي وألود بالمكان الذي بظلك . سأعمل معكم أبداً . وسوف أفاضل معكم ، أشارككم الهزيمة والإنصار . لم أمد أظفرك هواء السهل . وأجاب عليه القسيس :

- أرحب بك جسدياً في جيشنا يا بني . حشيتسلى الجبل معاً . وسوف أجد الرب في قمته . أعدت الحياة الزميدة بيدك أنت اقم بين جوانبك وروحاً مقدامة وقلنا كيلاً وسوف تكون أفضل رجالنا في المعركة . سرحاً بك .

وقال مانولى :

- تعال يا ميشيل لشاركنى قصرى ، وهو الكهف القائم بجوار الكنيسة . ستجد هناك أيقونة الصليب التي أعديتها لي ، الأيقونة التي حرم فيها عصافير الجنة .

وعمل ميشيل أمتعته وأتجيلة اللطيف الكبير ، وقصد الكهف . ولما لبثته هناك ، ورأى حتماً أفروم . رأى مانوى سحابة داخل برج ساحق الارتفاع ، يحرسها كلبان أسودان كبيران يستألفان من الهرم . وكان ميشيل واقفاً أسفل البرج يعينها إحدى أغاليه . لتعل عليه إذا ما سمعت صوته . وفجأة رأى أبواب البرج الحديدية تفتح وخرجت ماربوري مرتدية ثوباً في لون الملازوم يجرجر خيله على الأرض . وكانت تسفل بثلاث زهور . زهرة فوق مكان القلب ، وأخرى عند خصرها والثالثة عند ركبتيها . ورأى الكلبين الأسودين يعدوان في صمت وقد تمزق لسانهما ، أحدهما أمامها والآخر خلفها . وكانت ماربوري تمشك بمنديلها الصغير الأبيض تمسح به لسانها . ورأى عند قاعدة البرج زورقاً صغيراً يشبه النابوت . واستحالت الأرض من حولها إلى بحر . ركبت ماربوري الزورق وأطلق بها . وما أن بدأت مسيرها بالزورق ، حتى استدارت لتلقى إليه نظرة مودعة . ولوحث له بمنديلها الصغير الذى خضبه بقم الدماء الحمراء . وصرخ ميشيل صرخة صالحة استيقظ بعدها من نومه غزواً . انفلتت الصرخة مانولى . فقال ميشيل :

- ماذا بك يا ميشيل ؟

- رأيت كابوساً يامانولى . رأيت كلاباً سوداء وزورقاً وركبته ماربوري وأطلق بها بعيداً .

وأرغمه مانولى . ولكن لم ينسب بيت شقة أن سمع صوت أجنحة رئيس الملائكة ميخائيل يرف في الهواء .

وانسل صرور واه خفيف إلى داخل السكف ليبت على وجهيهما ويهدد الانجيل الكبير الذى وضع في كوة داخل صخرة .

وهب مانولى من نومه وقال :

- لدينا أعمال كثيرة اليوم . أبلغنا ما يقرب من عشرين غنى من رفاقنا ممن يعملون في القرى المجاورة لسكنى يستعدوا للنزول إلى

ليكون فرسي لحصاد بساتين الكرم التي تنازلت عنها ياميشيل لجماعتها.
بارك الله فيك يا خريزي ميشيل . انتقلت ارواحا كثيرة .

— لم يكلفني شيئا أن أجود بما أملك . ولذلك لا ألتن أن هذا
يكفي لحايل نفسي يامانولي . انتفضحية هي العمل الذي يكلف . وأنا لم أصح
بعد . كانت تضحية كبرى من ياناكوس حين قدم حماره .

تأمل مانولي كلام صديقه لحظة . لم قال :

— اعتقد أنك على حق ياميشيل .

وصل أمام الكهف ما يقرب من عشرين رجلا وامرأة . وقد
انخرطوا في الحديث . وعندما راوا ميشيل يخرج من الكهف هزوا
اليه يشدون على يديه .

قالوا له :

— أصبحنا بفلسك نملك أرضا من جديد . نحن الشعب المسكين
المعلم . نسأل الرب أن يقدس روح أبيك .

وفي لمح البصر تراءى له وجه أبيه متوردا بدينسا مغرورق العينين
بالمسح ، وحديه بنظرة فيها تأليب . وتحركت شفتاه اللتان
حركتا فم منها أنه يقول له : لماذا قتلتي ؟ لماذا ؟ ولكنه أشفق عليه
وتواوى عن ناظره .

وأطرق ميشيل برأسه وقال :

— فعلت ذلك حتى يتقعد الله روح أبي برحمته . . أسأل الله أن
يستجيب لدعائي . .

ثم أودف قائلا بعد لحظة من التردد :

— كانت هذه هي آخر وصايا . هو الذي أوصاني أن أودع كل
أملك على الفقراء .

واستدار مانولي ونظر إلى صديقه . ثم دنا منه وأمسك بيديه .
وهز ميشيل رأسه وأدار وجهه ليخفي دموعه .
وأقبل القسيس فويس ، وقال :

— يا أولادي ، ارسوا علامة الصليب ، واضعوا على بركة الله
لحصاد بساتين كرمنا . سيؤودكم مانولي . ها نحن يا أطفال في طريقنا
لنملك حقولا ، ونحرق بجدورنا في أعماق الأرض . ما كان حلمنا حتى
يومنا هذا . سيصبح حقيقة من الآن فصاعدا . نحن لملك الآن أرضا
وأشجارا سنزلقها معا ، وسنستمتع بشمارها معا . لن يكون بيننا غنى

ولا فقر . ستكون أسرة واحدة متماسكة متحابية . نسأل الله أن يوفقنا
لنكون مثلا بين كيف يجب أن يعيش البشر معا في مجتمعاتهم . وكيف
يسود العدالة الأرض . وينفصل عبادة الرب والعذراء سيكون يومنا
ساية موفقة . اذهب معهم يا مانولي لتدلهم على الطريق . فانت تعرف
سرفع بساتين الكرم . وسأذهب أنا مع ميشيل إلى المدينة لتتلقى العقود
التي تؤول بمقتضاها أملك العدة بطراركس إلى مجتمعا .

رسم الرفاق علامة الصليب ، وتصدر مانولي فريقه ، وانطلقوا
في طريقهم . كانت البهجة فلما صدورهم ، ويدأوا يغنون أغاني طفاف
العنب . دون أن يتكروا فيما يخبته لهم القدر هناك في ليكوفريسي .



هرول ياناويتي البارحة فور عودته من ساراكتينا إلى بيت القسيس
جرجوريوس وأبلغه النبا .

— سيأتي هؤلاء الناس غدا لقطاف العنب . فاستعد لذلك .

كان القسيس جرجوريوس جالسا إلى مائدة الطعام ، فسقطت
الشوكة من يده . صاح :

في يطلوا أرض القرية . ثم يمسوا جة عنب واحدة ابدا ، لن
أسمح لهم بذلك . سأذهب فورا لتقايلة الأنا .

وارلدى رداه القبرني الذي يأسه في أيام الأعياد ، وعاق حول
رقبه صليبه الفضي الثقيل . وأمسك بعضاه ذات النقش العائلي ،
وانخل طريقه إلى بيت الأنا يمضي بخطوات متأينة وقور .

كان الأنا قد فرغ من طعامه نوا . وبدأ يحس قهونه . وجلس إلى
جانبه برايماني يلف سيجارة لنفسه ، موليا ظهره للأنا . وبدو عابيهما
أنهما يتساجرا من جديد . إذ كان الأنا عابس الوجه وهو يحس القهوه
كانه يشجوع سما .

ظهر القسيس جرجوريوس عند الباب . ذليلا متضائلا . وانحنى
أمام الأنا وقال :

— تحياتي اليك ياأنا .

لم يكلف الأنا نفسه عنا الالتفات اليه . وقال في امتعاض :

— أنا أعرفك من صوتك يا قسيس . ترى أي متاعب جديدة أتيتني
بها ؟ تعال أمامي حتى أراك . هات كرسيا واجلس عليه .

وصلف بيديه . واقتبل المرأة الحدياء . فقال لها أمرا :

— قهوة للقسيس أغندي .

لم نفل الى القيس وقال :

— تكلم .

وبدا القيس كلامه :

— يا اغا ! تعلمون سيدتكم ، وانتم خير العارفين ، ان العالم معلق
بخيوط واحد . اذا قطع هذا الخيط سقط العالم وتفتت .

وقال الاغا في اتردها :

— وائى جديد فى هذا . ان يغتنى نفسها يعرف ما تقول . هيه .
استمر .

— ثمة شخص يحاول ان يقطع هذا الخيط يا اغا .

لحقى الاغا مقيض مبيغه . وهم بالوقوف كأنما يستعد
للاقتضاض . وصاح :

— من هو حتى اقطع راسه ؟ قسما بالله دلى على هذا
الشخص ، وسوف نرى ماذا انا فاعل به .

واجاب القيس :

— الاشتراكى !

ترك الاغا مبيغه يسقط فى ثمده .

— كيف تصور انى مستعد لان اغادر ليكوفرسى . واترك
براهيماكى ، وانطلق من راحتي وهذائي . لم اذهب الى الشيطان هكذا
بساطة بحثا عن العدو فى آخر الدنيا بين التلوج حتى امسك به واقطع
رقبته !

ازدد القيس فتجان القوة دفعة واحدة وتنهت .

— ايها القيس المبارك ، هذا اللعين الذى تعدتني عنه بعيدا جدا
عن هنا ، فذلك من الحديث عنه . انه بعيد عنا تماما فكيف الرسول
اليه ! ليس عليك الا ان تمثل دور القيس البريء الطيب . صدقتي
فانا احب لك الخير من قلبي . وانا سافعل نفس الشيء حتى نعيش
حياتنا فى سلام ، وبعدنا الطوفان .

— ولكن لا حاجة بك الى الانتقال من ليكوفرسى يا اغا . لقد
ارسل ذلك البلد العدو بالقصص بعض رجاله اليها . انهم عنا فى
ليكوفرسى ، وهم يتهادون لقطع الخيط . ادبت واجبي فى الكنيسة
هذا الصباح ، وليس عليك الا ان تؤدى واجبك بدورك .

— نعم . اسرت الحدياء الى يتيه عن هذا ، بيد انى لم افهم منها
كلمة واحدة .

— اصدرت قسار حرماني من الكنيسة لمانولى راي انصار
ترياركاس ، طرده من حظيرة المسيح .

— لماذا يا قيس ؟ انه ولد طيب هذا الفتى المسكين . لا يعنيه
سوى ان به بعض الجنون . الم يكن غاي استعداد لان يتخذ القرية ؟
هذا ليس بالامر السهل يا قيس ، ليس امرا سهلا ابدا .

— نفاق ورياء يا اغا ، كذب وبشاش . تعلمون انه فعل هذا لاجابة
نفسه . ان يخدع اهل القرية .

وهرش الاغا راسه . وبدأت اعصابه تتوتر . وصاح :

— كفى هذا . اخرس يا قيس . انكم ايها الروميون تولدوني
السلطة . كيف يمكن لعائل ان يستسيح ما تقول ؟ افعالكم شيء ، واوقالك
شيء . وما فى راسكم شيء ثالث لا علاقة له بالاشي . فكذلك ايها القيس
حتى لا تضيق راسي بدوار . دعني وحدي . غاي ضيق الصدر ولست
اليوم على ما يراد . فضلا عن انى تشاجرت اليوم مع هذا الشيطان
براهيماكى .

قال العبارة الاخيرة وهو يشير الى برااهيماكى .

كان برااهيماكى يدخل سيجارته فى سمته ، ينفث الدخان لينصاعد
الى السقف ، ويكشف عن استانه البيضاء الحادة كاستبان الكلب ، ولكنه
لم يكذب يسمع اسمه حتى التفت الى الاغا فى غيظ وثورة :

— قل للقسيس ما اتفقنا عليه ، والا فاننى سافادر القرية عائدا
الى مسيرنا . هذه القرية مقبرة .

وظاهر بانه يهم بالوقوف ، ولكن الاغا امسك به من كتفه .

— اجلس ايها الشيطان . ابقى فى مكانك . ساقول له .

لم توجه بالحديث الى القيس جريجوريس .

— قسيس افندى ، ماذا تريدني ان افعل ؟ انتن تطلب مني
خدمة . ما هي ؟ افصح ، وسوف نسام . ولكن تكلم فى وضوح وادجز
حتى استطع ان افهمك . لا تعتد الامور . هل تفهم ما قول ؟ فان محي
ليس آلة حاسبة . بل هو مخ بسيط . ادخل فى الموضوع . وهانذا
انصت لك .

اقتربه القسيس بكرميه من الأفا وبدأ يحدثه بايجاز :
 - يا أفا ، هذا المر الأبله ، ابن المرحوم بطرياركاس سازل عن
 ثروته للشحاليين سكان ساركينا .
 وقاطعه الأفا :
 - حين ، عذرا حق ، فهي ثروته ، أليست ثروته ؟ له أن يفعل
 بها ما يشاء .
 - نعم هذا صحيح ، ولكن ما يجب أن تعرفه هو أن هؤلاء الأراذل
 هم أبايع العدو أرسلهم الى هنا ليطلعوا الخيط .
 - هه ، ما هذا الكلام الذي تقولاه يا قسيس ؟ أوضح يا قسيس .
 قل كل ما عندك .
 - سأقول كل شيء ، يتزعمهم القسيس فويس وماتولي .
 سيأتون غدا لحصاد سائر الكرم ، إذ يزعمون أنها سائرهم .. هل
 تعرف معنى هذا ؟ ستكون لهم قلعا واسعة في قريتنا - في قريتك
 يا أفا ، ثم يستولون عليها شيئا فشيئا ، ويطردونا منها ، وبذلك
 يطمعون الخيل .
 - ماذا تريد إذن ؟
 - لذا عندما يأتي الاشتراكيون يجب أن تقف بنفسك عند مشارف
 القرية وتطردهم .
 - ولكن لماذا تسألني أن اطردهم يا قسيس ؟ أليست سائر الكرم
 ملكهم هم ؟
 لا .
 - كيف لا ؟ إن راسي يكاد يتصدع ، ألم يتنازل ميشيل لهم عنها ؟
 وبذلك أت اليهم ، أليس كذلك ؟
 - قلت لك لا يا أفا ، أنا بصدد أن تعان أن ميشيل السان غير
 متزن .
 - غير متزن ؟ وما معنى هذا الآن ؟ أوضح .
 - أعني أنه ليس يكامل قواه العقلية ، لا يعي ما يفعل ، وبذلك فإن
 الهمة غير صحيحة ولا جائزة .
 - ولكن هل هو مجنون فعلا ؟ أفسد يدني أنه يتمتع يكامل قواه
 العقلية .
 - المجنون والمعتل مرتبطان ببعضهما يا أفا ، ولا أحد يعرف ابن

يسى هذا وابن يبدأ ذلك . لذلك فأننا سنبحت عن وسيلة نثبت بها
 جون ميشيل .
 اسلك الأفا يرأسه بين راحتيه ، وفجأة انفجر ضاحكا . وقال :
 - فهمت ، فهمت . أأنتم أيها الروميون تمنعون بذكاء القرود
 وخشا - سيأتي يوم تضعون فيه العالم داخل حبة وتبثاوتها .
 - ماذا ترى يا أفا ؟
 - اسمعني يا قسيس جريجوريس ، أوراق اللعب فرق التضمة ،
 واللب خذ وعات . سأقف عند مشارف القرية كما تطلب ، واطرد هؤلاء
 الشياطين الفقراء أهل ساركينا ، ولكن عليك من جانبك ، أنت .. خذ
 واضع ، هل تعرف مقصدي ؟
 وأريد وجه القسيس الذي أدرك ما يرمي اليه الأفا .
 - هل تفهم ؟ سأفعل ما تطلبه مني يا قسيس ولكن عليك أن تفعل
 أنت من جانبك ما أطلبه منك .
 وقال القسيس بطرف شفتيه :
 - قل ماذا تريد يا أفا ، وإذا كان ذلك في مقدوري .
 - أنه مطلب بسيط للغاية . لا تبش . ها هو براهميالي
 موجود ، انه يطلب رأيي أن ترفض بلسات القرية أمامه ذات يوم
 حتى ينتقي من بينهم من يشاء .
 - هذه مسألة خطيرة يا أفا .
 - خطيرة أم غير خطيرة ، لا يدل سواها . ألا يمكنك أن تفهم
 ما أقول ؟ .. انظر الى هذا الشيطان . أنه غلام شقي في الخامسة
 عشرة من عمره . من منا يستطيع أن يكبح جماحه ؟ أنت ؟ أم أنا ؟ ولكن
 عليك أن تحاول . أنه قادر على أن يلتهما نحن الاثنين دفعة واحدة .
 لا يكبح جماحه غير امرأة . لذلك لا بد وأن تهدي الى امرأة ثروته .
 انه الآن أشبه بغير شعوس ، تحاول أن توكبه فيلقى بك أرضا . ولكن
 إذا وادته تستطيع أن تعطيه وينشد بركوبك ويهز لك ذيله .
 كان براهميالي يضحك وهو يسمح هذا الكلام . كان هناك من
 يدغدغه .
 وتعمم القسيس :
 - من المؤسف حقا أن ماتت الأمثلة .

— لتبحث عن غيرها يا قسيس .

وقفز براخيماني وصاح :

— أريدنا فتاة في ميعه الصبا ، بضة غير حدياء ، بيضاء كالخيز ،
ويجب أن تكون امرأة فتارك تعاونتي وأصارغها لم ألق بها تحتى وهي
تفرح وتبكي وتشد شعرها ، ففى ذلك متعة كبرى .. هل يمكن
الحصول عليها يا قسيس ؟

وشرد القسيس بفكره يتأمل ثم قال :

— يجب أن انتهى الى فتاة بيعة ليس لها من يدود عنها فى القرية
حتى نتجنب الفضيحة ، لا أختل فى الفضيحة يا أمنا ، ولا شيء سواها
... أمهلنى يا أمنا ..

وقامه براخيماني :

— ماذا أريد ؟

— يطلبه حيلة مصرية . يبحث لك فيها عن المرأة التى تطلبها يا ابن
الزنا . انه على حق فيما يقول هذا القسيس . انظر انه يحتفظ بهن
عنده فى حنة الفجاج ، هل تظن دجاجا ، وليس عليه الا أن يمسك
بهن ليرفك منهن ؟ ثم هناك شيء آخر ، لا أريد أن أراك متجهما هكذا ،
انفهم ، والا فسمعا بالله ماخصيك حتى تستريح وترجع . هل تسمع
ما أقول ؟ أسمعك ! وأن كنت متعجلا الى هذا الحد فمالك سارنا .

بصق براخيماني على الأرض وقال :

— أف .. أنا لا أريدنا !

— انفضيا يا قسيس . لا نعبأ بكلامه . سامهلك بضعة أيام ..

عرفت أوصاف المرأة التى تطلبها . صغيرة بضة ، بيضاء ، حية .

وتنهى القسيس فى استسلام وانفض وهو يقول :

— موافق يا أمنا ، ولذا فور وصول أهل ساراكيئا .

— لك ما أردت ، موافق . ومن جانيك .

— سأحاول أن اهتدي .. وليغفر الله لى .

وقال أمنا وهو يضحك :

— لا عليك يا قسيس ، قاله سيففر لك بكل تأكيد . فالرب يغض
الطرف . ويعرف الحياة أيضا .

فأمر القسيس بيت الأمنا قلعا مهموما . فهذا العمل لا يلقى سوى
فى حبه . ولكنه مكره عليه . انه على استعداد لأن يقدم على أى شيء
الا أن يترك القرية . لسقط بين يدى القسيس فوليس ليقتل عليها ..
والذين والوطن والشرف والملكية . كلها فى خطر ..

ودعا أهيل القرية وذوى الأملال فيها ، وتحدث إليهم فى هذا
المسئ . فقال لهم :

— غدا سيهبط علينا حملة القتل لحصاد سائين الغرم التى منحها
بم هذا اللعون النعس ميشيل .. علينا جميعا نحن الحاضرين هنا .
أن نشهد . بل ونقسم على هذه الشهادة اذا اقتضت الضرورة . بأن
ميشيل لم يكن مقلدا سونيا منذ نعومة أظفاره . هل نهمون ما أمنى ؟
انه يرى اشباحا ، أو أنه مجنون . لا أدري ما هى العبارة على وجه
الدقة . المهم انه أسلم غير مرتين . وأن أى محتال ، ولكن القسيس
فوليس على سبيل المثال . يستطيع أن يوقع به فى حباله ، ويغمر به
حتى يوقع على أى أوراق يطلبها منه .. ويترب على هذا بطلان الهبة ،
ومن ثم فإن سائين الكرم لا يحق أن تؤول الى المشتريين الذين يتزاولون
جبل ساراكيئا . وكذلك بالنسبة للحقول والحدائق والمسازل ..
بطريازكاس لم يجب أطفالا غيره . ولذلك يتعين أن تؤول هذه الثروة
الى المجتمع ، أى اليانا .. هل توافقون ؟

وأجاب الأهل مجيبين بدعاء القسيس :

— موافقون .

— آتيت نوا من بيت الأمنا . ووصلت معه الى الفاق . وبعد آخذ
وغطا . انتمنا بأن يظهر عند منارف القرية فوق مبدوة حواته مدججا
بالسلاح . انه لن يسمح بدخول الاشتراكيين حملة القتل . وأنتم عليكم
أن تتجمعوا كلكم ومعكم خنكم وكلايكم وعصيكم لكي تعضدوا الأمنا ..
شيء واحد فقط أحفركم منه .. حذروا من إزاحة الدماء حتى ولو كان بحرا
طليفا . لا تنسوا أننا منحيون وعدينا أن نحب أعدائنا .

ثم أرسل بعد ذلك فى طلب ياتاري . وجاده مع النساء . وقد
تغيرت صورتها حتى لشكره من يعرفه . أحرق لحية ببعض خيرات الفحم
الوقود . وأصابته الحروق وجنته وعنقه حتى غطتها الفروع . وقص
شعره بقص كير . مما يستخدم لجز صوف الماشية .

لم يستطع القسيس أن يغم نفسه من الضحك رغم كل هومره

وقال له :

— هل تعرف ماذا فعلت بنفسك أيها الإبل ؟

وجاز بانايوني .

— هذا شأني أنا . لا تكثر من الأسئلة يا أبانا ، والا سأطارد المكان وأتركك دون معين . وأنا أعرف أنك بحاجة إلى .

— لا تعصب يا بانايوني . لم أقصد اهانتك . اسمع . إني بحاجة إليك غدا . خذ هراوتك الكبيرة ، وإذا أتى مانولي معهم فأوسعهم ضربا . هو طريد الكنيسة ودعه يباح . ولن يملك أحد عنه . يمكنك أن تقتله إذا شئت . أذهب والله معك .

— دع الله بعيدا عن هذا يا أبانا . لا تشركه في دسائسنا . انتزع من القسيس لويس ، وأنا أكره مانولي ، هذه هي القضية . فلا تشرك الأبله والعلواء المقدسة في ذلك . لهذا لا يعني في شيء ولا علاقة لي به . وانت من الدهاء بحيث تعرف ما أفنيه . وإلى اللقاء غدا .

وانتبه تاحية السباب ، وتوقف لحظة عند العتبة ، ونظر إلى القسيس وقال :

— كلانا أخ للشیطان . هذا هو الواقع .

لؤل أهل ساراكيئا من أعلى الجبل وهم يشقون ، بينما سار مانولي في مقدمتهم غارقا في تفكير عميق . وظل يردد بينه وبين نفسه :

— أسأل الله أن يقينا شر الصدام وسفك الدماء .

ولم يكد أهل ساراكيئا يفتريون من القرية حتى رأوا جمعا من الناس حول يثر القديس بازل ، البعض يجلس على الأرض ، والبعض الآخر يتجول ممسكا بهراوات غليظة . وتناهت إلى أسماعهم صيحات التهديد والوعيد .

توقف مانولي واستدار إلى رفاقه وقال لهم :

— اعتقد يا اسدقائي أنهم سيقاومونا .. لنبق النساء هنا في انتظارنا ، ولنتقدم نحن الرجال ، والله خير معين . سنتقدم وكونوا على ألفة من أن الحق إلى جانبنا . ولكن إذا ما أصروا على القتل بأي ثمن فالتنا لن نقاومهم ، لهم أخوة لنا قبل كل شيء ، وأنما ستوجه في

هذه الحالة إلى الأمام ، فهو حاكم القرية ، وسيقتل بيننا . وليس ثمة أدنى شك في أن يساتين الكرم ألت البنا ، وأصبحت ملكا لنا الآن . ولذلك فانه سينصفنا . . تقدموا يا أخوتي باسم المسيح ! .

جلست النساء في دائرة وسط الأكام ، وواصل الرجال مسيرتهم . لم يطل يوم المسير أكثر من مائة خطوة حتى رأوا حجرا يقطن في الهواء فوق رأس مانولي . وتبعه آخر ، وغيره كثير . وهكذا أصبح الهجوم وشيكا . وتحركت مجموعة الرجال التي اجتمعت حول البشر ، وساروا تجاههم للأقائهم ، وكان على رأسهم بانايوني يلحيه الحروقة بتقديم بطولات تشبه خطرات الدب .

وزار لوكاس العملاق حامل العلم :

— ماذا نحن فاعلون ؟ لن نتركهم يتخذون منا أهدافا لحجارتهم دون أن نرد عليهم . اجمعوا حجارة يا اسدقائي وارجعوه .

وقال مانولي معترضا :

— حسبكم ، لا تسفكوا الدماء يا أخوتي .

وتعالت صيحات غضب مغيظ من حول يثر القديس بازل :

— ارجعوا ، ارجعوا يا حملة القمل . لن يظا أحدكم أرض قريتنا . ارجعوا .

وتقدم مانول رافعا يده إلى أجل علامة أنه يريد التفاوض معهم .

— أخوتي ، أخوتي ، اسمعوني .

— يا طريد الكنيسة ، يا لس ، يا قاتل ، يا انشراكي .

واندفع أهل ليكوفريسي نحوه وقد استشاطوا غضبا وثورة . وبسط بانايوني ذراعيه . وخار كالعجل :

— لن يمس أحد . أتركوه لي فانا المختص به ، أنا وحدي الذي سأنازله .

ثم اقتض على مانولي .

وسرعان ما أحاط أهل ساراكيئا بقائدهم .

والتفت لوكاس حجرا كبيرا في يده وصاح بأعلى صوته :

— لو مس أحدكم مانولي فاني سأهشم رأسه كالبطيخة .

وتفقد الشمساني تعليمات القسيس جرجوريوس اليه . بدأ يعدو هنا وهناك وهو يصيح

— انه محروم من الكنيسة . اخرجه يا بايناوي . اطرجه ارضا . فان يدك ستظهر من دمه .

واقبل ناظر المدرسة لاحنا :

— اخبروني يا اسدقائي باسم المسيح ، ماذا حدث ؟ كفوا ايديكم . وصاح الشمساني :

— يحاولون غزو قريتنا لاحتلاتها .

وصاح اهل ساراكيئا :

— بل نحن ابغى حصاد يسائين كرمنا . فهي ملكنا ، اعطاهنا لنا ميشيل .

وعوى الاب لاداس بصوت كالصير وهو يتواذى خلف ناظر المدرسة :

— صدر اعلان بان ميشيل مجنون ، ومن ثم فان الهية غير صحيحة .

— الهية غير صحيحة ، اخرجوا . اخرجوا يا قطاع الطرق . يا خونة .

في هذه اللحظة انقض بايناوي برأسه على مانولي مثلما ينقض الثور . ولكن لوكاس اندفع نحوه . كل قوته وهو يحمل حجرا كبيرا في يده . وضربه فوق ركبته ، وارتلح بايناوي لم انقض عليه لوكاس وطرجه ارضا ، وجثم فوق ظهره ، واوسعه ضربا مقيطا . واستجمع بايناوي كل قوته واقلت من تحت ، وامسك بلوكاس من خصره . واصلعا كل منهما بخور بصوته ويندحرج . وكان سرعاهما سجلا بينهما .

والتقط الشمساني حجرا واتخذ مانولي هدفا له .

وصرخ :

— يا محروم . يا استراكي .

وطار الحجر في الهواء ليضرب مانولي في جبهته ، وتغير الدم ، وفاض على منطقة وجهه . وصاح اهل ساراكيئا :

— سيفتلون مانولي ، احموا عليهم .

وبداوا يحومهم على اهل ليكوفريسي .

ونقال اهل ساراكيئا مع اهل ليكوفريسي . ولاذ الاب لاداس

بالفرار . وحاول ناظر المدرسة ان يتدخل ، ولكنه تلقى الضربات من كلا الجانبين .

وهرع صبي الى القرية وهو يصيح باعلى صوته في غبطة وفرح :

— قتل مانولي المحروم ، قتل مانولي الاستراكي ، افرحوا ونهلوا .

سمع قسطندي صياحه ، فاندفع خارجا من مقناه ، وامسك بمصاه ، وهربول مسرعا .

وتنادى على الصبي وهو يجري :

— اين ؟ اين ؟

— عند بئر القديس بلزل .

وانجبه قسطندي الى هناك ، ودار الثورة تكاد تحرقه . والتقى في طريقه بيناوكوس ودون ان يحدث احدهما الآخر ، جرى الاثنان معا .

لاحم اهل ساراكيئا مع اهل ليكوفريسي حول بئر القديس بلزل حتى اصبحوا كتلة واحدة تندرج بين الصخور . صدر عنها رثير غال .

وقفلت نساء ساراكيئا صوابهن ونزلن ارض المعركة واسهمن بنصيب في القتال باذرعهن التي اشتدت مع عملهن في وطنهن الجفيد ، ووجهن الكلمات كما تلقين مثلها كالرجال تماما .

وعلا صوتان فيهما خشونة وجزع :

— مانولي ، مانولي . .

كان مانولي جالسا فوق سخرة يشهد جرحه . وسمع الصوتين ، وتعرف عليهما ، فرفع رأسه وشخص بصره اليهما . وصاح :

— ها انذا يا اخوتي ، لا تجرعا

وفي هذه اللحظة ذاتها عوى الاب لاداس ، فرحا مقيطا ، من فوق سخرة ارتقاها :

— ها هو ذا الاغا ، ها هو ذا الاغا . .

وسمع الناس صهيل القريس وهي لعدو والشرور يتطاير من تحت سنايكها . وظهر الاغا عند البئر بمسدسه الفضي . وسيعه الطويل . وطريوشه الاحمر ، تملأ تماما . وشده اللجام بقوة حتى ان القريس تقهقرت الى الورا . وتمالك نفسه فوق السرج خشنة الوقوع ، وتثبت بعمرة القريس . امسك الاغا بمسدسه واطلق رصاصة في الهواء ودوى صوته كهزم الرعد :

— بالكفرة .

وقى لح البصر تفرق هذا الخليط البشري ، والفصل الجمعان ، وأصبح أهل ساراكنيا في جانب وأهل ليوفريسي في جانب آخر ، وقد تعلمت ليانهم ولطمخا التراب والدّم . لم يبق على أرض المعركة سوى نظرة المدرسة وحده ، طريحا على الأرض بين الفريقين وقد أصيب أصابع خطيرة ، وعشا يحاول النهوض على قدميه حتى يحس الأناجحة الواجبة .

ونظر الأناجحة إلى أهل ساراكنيا يعينين فقدحان شررا ، وصرخ من جديد :

— بالكفرة .. لماذا أنتم إلى قبري .. هه ؟ أرجعوا ، أرجعوا إليها المتشردون .

وتقدم مانول الصفوف وتكلم :

— يا أنا لنا بساتين كرم في ليكوفريسي ، آتينا لحصادها ، فهي ملك لنا .

— اذهب إلى الشيطان . منذ متى وهي ملك لكم ؟ هه ؟ بأي حق آلت اليكم ؟ من أين سرقتم هذه البساتين يا حملة القمل ؟

واشتراب الأب لاداس بعنفه من فوق صخرته وضحك في سخرية . وأجاب مانول :

— أعطاهم لنا ميشيل .

وقال الأناجحة :

— هذا كله لا قيمة له ، أيها الحمقى البؤساء ، فان موقعه لا يعنى كثيرا . فهو لم يبلغ سن الرشيد بعد .

وتكلم الأب لاداس من مخبئه ، ليصبح كلام الأناجحة .

— ليس السيف صفر سنه بل جنونه .

— نفس الشيء أيها الشيخ السفيه . أخرس .

واستلم مسدسه وصوبه ناحية الأب لاداس . وتهوارى الشيخ وراه الصخرة وهو يصيح :

— الرحمة ، الرحمة .. حقا ما تقول .. هو عين الصواب .. لم يبلغ من الرشيد بعد .

وانفجر الأناجحة ضاحكا ، واتخذ مسدسه في جريده . ثم قال موجها حديثه إلى أهل ساراكنيا :

من منكم المدعو مانول ؟ ثمة حساب يجب على الرؤية الواضحة . لينضم إلى هنا .

واقترب مانول من فرس الأناجحة وقال :

— ها أناذا .

— حسن . أنت ولد طيب . أنت كذلك حقا يا مانول رغم كل أقاويلهم عنك . اقترب مني أيها الكافر . اسمع ، قل لي بصراحة ما معنى اشتراكك في هذه صدعوا رأسي بهذه الكلمة . قل لي هل هو رجل أم حيوان أم وباء عضال مثل الكوليرا ؟ فأنا لا أعرف شيئا عنه .. هل تعرف أنت ؟

وأجاب مانول :

— نعم يا أنا أنا أعرف .

— إذن ، أستهلكك بالهك أن تحدثني عنه حتى أعرف أنا أيضا .

— الاشتراكيون هم المسيحيون الأول يا أنا .

— ذبح المسيحيين الأول حيث هم يا كافر ، لا تشوش أفكارى . عندي ما يكفي من العرفي لذلك . ما شأنى أنا بالمسيحيين الأول ؟ .. أنا أسألك ما معنى اشتراكى ؟

وتحدث الأب لاداس بصوت أخف :

— سأوضح أنا لك يا أنا . انهم يطالبون بالا يكون هناك عنى أو فقير بعد اليوم ، وإنما أن يكون الناس فقراء كلهم . ألا يكون ثمة أغاوات أو رعايا بعد الآن ، ويحول الناس جميعهم إلى رعايا . بل والاكثر من هذا لن تكون هناك امرأة زوجة لك أو زوجة لي بل النساء كلهن مشاع بين الناس جميعا .

وزار الأناجحة :

— لا أغاوات ولا رعايا ؟ هل معنى ذلك أنهم يريدون أن يعلبوا نظام الله رأسا على عقب ؟ ابتعدوا عن هنا بهذا الوجه التكد .

وبسط راحته أمام وجه مانول وقد باعد بين أصابعه في حركة استنكار كأنها يعلمه وقال له :

— افتح عينيك وانظر إلى يدي : هل كل أصابعي متباعدة ؟ هناك أصابع صغيرة وأخرى كبيرة . الله هو الذى خلقها على هذه الصورة . وهكذا

أيضا خلق الناس جميعا . بعضهم صغير والآخر كبير . بعضهم سادة
وبعضهم عبيد . وكذلك أيضا خلق الأسماك في أعماق البحار - الكثير
منها ياكل الصغار - وبعض الطير وضع الرتب الماشية الى جباب الدواب
لتأكل الدواب الماشية - هذا هو نظام الله . ثم تأتون الآن ايها الاشتراكيون
.. عليكم اللعنة .

ثم استل سيفه . بعد أن فرغ من كلامه . ونحس الفرس وهجم على
أهل ساراكينا .

وصرخت النساء صرخات صاكنة وهروبن في دهر ناحية الجبل .
وتراجع الرجال في دحول وجيرة . ولم يبق غير مانولي الذي تبث في مكانه
راسقا .

وصاح فيه الأغا :

- أنت يا كافر . ابعد عن هنا والا قطعتم رأسك . ألا تخاف ؟

وقال مانولي :

- بل أخاف . ولكنني أخاف الله وحده . أما البشر فانا لا أخافهم
أيها .

وأغرق الأغا في الضحك وقال :

- أقسم لك بديني أنك مجنون تماما .. بيد أنك خفيظ الظل - تعال
معي الى بيتي ولكن سمعنا في . لا فرق عندي بين البلهاء والقدسيين . فهما
شيء واحد . وأنت مجنون و قدس في آن واحد . أنت شفاة مقدسة .
هذا وأخي . تعال معي أقدم لك الطعام والشراب والميسر وأخلق منك رجلا
.. ألا تريد ذلك ؟ اذهب الى المحيم إذن ايها الإله . ابعد من هنا . فقد
غيرت رأيك . ولن أقتلك .

والثقت الى أهل ليكوفريس الذين أطربهم سماع الأغا وهو يدافع عنهم
وقال لهم :

- وأنتم ايها الكفرة لستم محابن ولا قدسين . اذهبوا الى الشيطان .
كروثن متخمة وصماليك .. اهربوا عن وجهي .

ومرغان ما ابتعد أهل ليكوفريس في وجبل . واتحت ياناكوس
وقسطنطي فوق ناطر المدرسة وانفسلا من فوق الأرض . وأخذوا بيد وعادا
به الى داره . كان الرجل البائس يهرج ويعاني لما موحى في قديمه .

وقال لهما معترقا :

- سلمت جرائني الذي استحقته . لست حملا ولا ذليلا . بل لقطا بعضني
الدواب وتبول على الماشية . أنا أعرف جيدا طريق الحق والصواب ولكنني
استكبت عنه . فأخوف يملا قلبي . كيف لي أن أرفع رأسي وأنا البائس
الغدير . اني أخاف .. والنتيجة ما ترون . وطنتي أهل ليكوفريس وأهل
ساراكينا ياقدمهم دون أن تأخذهم بي رحمة . وهم على حق في ذلك .
اسم يديني ألهم على حق . وثقت جزائي الذي استحقته .

ونظر الى رفيقه اللذين يمينانه على المسير . وسألهما في إعجاب :

- وأنتما . ألا تخافان شيئا ؟

وأجاب يانوكوس :

- بل نخاف . ولكننا نطاهر بالشجاعة كما ترى . أوضح لك
ما اختلط أمرك على ؟ انظر الى : اني أنطاهر بالشجاعة . بينما يرتعد
سبي فرقا . ولكن الشيء الغريب أنني مع التعود على التطاهر بالشجاعة
أشدني رويدا رويدا شجاعا حقا . هل عرفت ما أعني ايها الشيخ ؟ ترى
ماذا تقول لك كتبت الكثير عن هذا ؟ أصدقك القول آسي لا أفهم بوضوح
أنا حيار .

وانسم ناظر المدرسة رغم ما يعانيه من ألم . وقال :

- أود أن أتأكل من كل معلوماتي لأصبح مثلك يا ياناكوس .. وماذا
عك يا قسطنطي ؟

- أنا ؟ أنا أسوأ حالا من ياناكوس . أؤكد لك هذا . أسوأ منه
فعلا . الخوف يملا قلبي . ارتعد فرقا وارتجف . ويهرب الدم من عروفي .
ولكنني أشعر بالجلل . ولو حدث أن تجاوزت عن كل شيء في حياتي لأسلك
طريق المسيح . فحق أن هذا لي يكون بدافع محبة الخير . أو الشجاعة . ولكن
بدافع احتزام النفس لا غير . سأرتجف وارتجف فرقا . ولكنني لن أراجع
هل تفهمني ؟

وأضاف ياناكوس :

- أما مانولي فهو أفضلنا جميعا . إذ أنه لا يتكلف الشجاعة وإنما هو
شجاع حقا .

وأدرك كل شيء . وزايله الغضب . رأى الموت يرقب بجنائحه في الهواء .
«أليس قلبي - تمالك القسيس نفسه - وكفكذب دموعه ونظر إلى ميشيل»
وبعدت إليه ساخراً :

- أي ربح طيبة حشيتك ، الينا يا فتى ؟ سرعان ما ضقت بأهل
ساراكيما ؟ حياة الراهب قاسية ، لذلك عد إلى بيتك وقريتك وانعم بثروتك
أيها الياثس ...

وأضاف في قلق :

- ترى هل لم توقع أي أوراق بعد ؟

- آنا لا أملك شيئاً الآن ، لا شيء البتة ، استقلت عن كاهلي كل
أعمال وأصبحت حراً .

وعاود القسيس سؤاله في الزعاج :

- هل وقعت أوراقاً ؟

- نعم .

وحسب القسيس الشباك بلقيضة في ثوة وزار :

- أنت مجنون ، مجنون ، هلكت أيها النمس - ها أنت الآن أصبحت
عيداً لذلك القسيس الأفاق . اهبط على كل هذا الثراء الضائع .

وأحس ميشيل بالغضب يعتلي في صدره ، وعاد كلامه ثانية :

- بل أصبحت حراً ، وأما أنت العبد يا أبانا ، اهبط على هذا الرداء
القدس الذي ترتديه .

وقال القسيس بصوت خافت حزين مفعماً ضغينة وحقدًا :

- واجهت كثيراً من المشاكل إيفاء مصلحتك ومصلحة ابنتي ... وآلآن
انتهى كل شيء .

- ماذا قالت في رسالتها ؟

أخرج القسيس الرسالة وقال :

- هاك أقرأها .

أمسك ميشيل بالرسالة . يلفتها الدموع . ترى هل هو دموع
القسيس ؟ أم دموع ابنته ؟ أنه لا يدري . قرأ ميشيل كلمات الرسالة
في تأن وضغينة ، وترقرقت الدموع في عينيه .

- ... سألت حالي يا أبت - معددة إن كنت أتذكرك بالهم ، لكن

رحلة بأقدام عارية

في اليوم التالي ، ومع مطلع الفجر ، اتخذ ميشيل طريقه نازلاً من
الجبل . كان يتميز من الغضب ، ويقول لنفسه :

- سأذهب من فوري إلى بيت القسيس ألتف شعر لحيتي ، وسأذهب
إلى الأعيان أسب عليهم لعناتي وأفضح سوءاتهم . سأدق أجراس الكنيسة
أدعو القرية جميعها لتشهد وتسمع .

كنت تراه حيناً ثائراً مهتاجاً ، وحيناً عادوا ساكناً بقلب الأمر في
رأسه بحثاً عن أنس الكلمات . ولا يدري من أين يبدأ ... لم يقض له
حقن طوال الليل . وطلع الفجر عليه وغيماء مفتوحتان . وتراى له طيف
أبيه - عاد الرجل الميت إلى الظهور من جديد ، ووقف إلى جانب فراشه .
بهز رأسه وينظر إليه بعينين تأنيب ... وتحركت شفتاه . وسمع
ميشيل صوته الضعيف الواهن يأتيه من العالم الآخر : « لماذا ؟ لماذا ؟
لماذا ؟ » ولم يقل شيئاً آخر .

حب ميشيل من مرقده ، وأمسك بعضاه وعرج إلى القرية وهو يرتجف
تصعد بيت القسيس لتراه . دفع الباب ودخل . اجتاز الفناء ، وإلى
القسيس جالساً بجوار النافذة . متحنياً فوق رسالة يقرأها والدموع تقبض
من عينيه .

ولم يكد يصر ميشيل حتى أسرع بإغفاء الرسالة داخل حليائه .
ولكن ميشيل استطاع أن يلمح الخط الذي سطرته به الرسالة وتعرف عليه

المرض اشتد على .. أذرى يوما بعد يوم .. أوشك أن أودع الحياة - لم يعد يكتوث بي الأطباء ، يمرضون بفراشهم أن يتوقف أجدهم ليفنى نظرة على واستطاعوا أن يسي من قائمة مرضاهم . بها أبدأ أرقده هنا وعينى مبيتان على السقف كأنه السبيل ، فلم يعد لي سماء غيره . ربما هذا مع الموت ، بل وأسعد به . لولاك أنت يا أبى . ستبقى وحيدا بعد وفائى ، ولن تجد من يسهر على خدمتك أو يقدم لك كوب ماء .. أتى حزينة من أهلك ومن أجل خطيئى السابق . ربما يحزنه موتى ، ولكننى لا ألك عن اليكاه كلما تذكرته .. لماذا ؟ لماذا ؟ ماذا جنيت ؟ لم أكن أطلب فى حياتى غير بيت ومطل .. أما الآن ...

لم يستطع ميشيل مواصلة القراءة . ووضع الرسالة فوق قاعدة الشباك ، واتجه ناحية الباب . وقال :

- حسن ، سأصرف .

- لكن ماذا كنت تريد منى ؟ لماذا أتيت ؟

- لا شيء البتة . لا أريد شيئا . ماذا غسائى أن أطلب منك ؟ سلاما . ما ألقى الرب على بنى البشر ، يضربهم بقوة فى غير هوادة أو رحمة .. ترى ماذا اقترفت فى حق الله ؟

كان ميشيل قد بلغ غيبة باب الفناء ، ولكنه استدار فى ثورة وغضب . - بل أنت أحق بهذه الضربة من لدن الله يا أبانا . أنت الذى تملأ قلبك الشهوات الدنية . أنت دون استك .

وتتمت القسيس والدعوى تقيى من عيليه :

- عرف سبب حاله أين يتزل ضربته على ، وقد فعل ...

وتملكه الغضب فجأة ، وقرأ الى وسط الفناء ساقى القدمين : وصاح بصوت فيه آهين ونواح :

- أيتها غلظتك ، غلظتك جميعا . غلظة مانويل وقيسى ساراكنيا صاحب اللحية الشبيهة بلحية التيس ، وأنت معهم . أنتم سبب كل ما حدث . يخذلكنم وخيانكنم . كنا نعيش فى هناك قبل أن يحدث كل هذا . كانت الامور تسير حسب سنة الله وتدبيره لشئون خلقه ، ولولا ذلك تشلت ابنتى من مرضها . ولما قتلت أباك سبب مملوكك المشقى . ولأصبح لى بعد عام حفيد احتضنه بنى ذراعى .. ولكن وا أسفاه .. غرر بك مانويل ، هذا الفاسد الشرور . وجاء من بعده القسيس ذو اللحية الشبيهة بلحية التيس ، هذا التملب العجوز . عليه اللعنة . والنتيجة أن مات أبوك

هنا وكما ، وينفذ ثروتك ، والقيت أنا بخاتم الحطبة فى وجهك . وسامت عاتق ابنتى وتدهورت لسماعها التبا . والأب انتهى إلى شيء . فقد هلك وصاح الأمل .. أنت المسئول عن موتها أيضا أبنا الشقى الشمس . قتلتها مملأ فقلت أباك . كانت تضارع المرض فى شجاعة هذه البالسة ، أما الآن ...

وأخذ يفرغ الفناء بخطوات واسعة ، يتوعد ويتشهد . ويتحجب . واسبده به غضب شديد .

- كنت على صواب حين أعلنت على الملا الملك السبان غير منزل . مجنون بوجعك خير قى قيمة . سائر علك كل إملاكك وأعطيها للمجتمع . كنت ساراكنيا عليه العنة ، لن يذوق منها حبة غيب واحدة . ولا حبة زيتون أو حبة قصب .. أبدا ، أبدا . لن تسيع الأمور حسب هواك . الجسم الذى سأتقم منك لأبيك ولابنتى .. وسوف أرى ، سترى بعينيك أننى جاد . لا أهرل . لا تشكك ، ساذبه الى الأسقف وأحيطه علما بكل شيء . ومضى كل أهل القرية شهود على صديق ما أقول ، حتى الإغا لنفسه فانه يقف الى جانبيه . ساحرمك من كل شيء .

وقال ميشيل الذى انظر قلبه لا يديه القسيس من أسف وكراهية : - نعم . كل الناس معك ما هذا الله . هل لك قلب يرضى بموت شعب بأكمله جوعا فوق ساراكنيا ؟ ألا تخشى الله فى ذلك ؟

- لو ماتت ماربوري سأتحول الى وحش كاسر . لن تأخذنى رحمة بنى انسان . لن أخشى الله أو الناس . سأطرح عنى ردائى الدينى وأحمل سلاحى وأقتل الناس جميعا . لماذا يقتل الرب قرعة عيلى ماربوري ؟ ماذا فعلت ؟ هل يوجد على الأرض من هو خير منها وأكثر برارة ووداعة ؟ سأقتل مانويل قبل أن يفسد آخر ، فنى قتله دوا لك الشرور . لم يشتقه إلا ، ولكن سأتشفه أنا . يمثل أمامنا دور القديس والشهيد والبطل بينما يسبح نفسه .. الحائن . المرتد . العميل .

وجن جنوب القسيس ، وأرلى وأزبد وأخذ يلوح بقبضته فوق رأس ميشيل وزار :

- أبعده عن هنا . لا أريد أن تقع عيلى عليك مرة ثانية ، أغرب عن وجهى إن كنت لا تريدنى أن أعتصم رأسك فوق هذا الجدار .

وتهاوى الى أرض الفناء فوق الحصى ، فأقرأ فاه . لم يكن فى البيت أحد سواهما . واتحنى ميشيل فوق القسيس

البحرين ، واستجمع قوامه وانتسله من فوق الارض ، ودخل به المنزل ، وطره فوق حنينة . وذهب الى الخليج وملا كوب ماء ، وقدمها له . امسك القسيس بالكوب ، وشرب الماء وشفاها صغيرة ، وفتح عينيه .

وتنتم .

— ميشيل : أنا رجل يائس محطم . طعنني الله في قلبى طعنة تجلدها ولا أستطيع أن أتم ، لا أستطيع ذلك . لا أستطيع أن أصفح عن أحد . أيا كان هذا الإنسان . أغرب عن وجهي . لا أريد أن تقع عيني عليك مرة أخرى .

ودبت فيه الحياة ، واستعاد قوته . نهض واقفا ، واجتاز الفناء ، وفتح الباب :

— أخرج ولا تطأ بيتي بقدميك مرة ثانية .

وصلق الباب وراءه .



خرج ميشيل ، وهام على وجهه بين دروب القرية . أحس كأنه ضل طريقه في مكان غريب عنه تماما . خيل اليه أنه يمشي في حلم . يرى البيوت والحانات وشجرة السنار لأول مرة . وعندما مر ببيت أبيه توقف طويلا يتأمله . كأنها يبدل جهدا كبيرا لينذكر شيئا . وهم باجتيار العتبة ليدخل البيت ، ولكنه توجس خيفة . خشي أن يرى وسط الفناء رجلا ميئا طويل القامة بديشا مكفئا بأعشاب اجنتت من الأرض . باسطا ذراعيه يسد عليه الطريق . . . وارتعد فرقا ، وهول بعيدا . وتذكر كلمات الاتهام التي يوجهها اليه القسيس دائما . . . أنت الذي قتلته . أنت . . . وترامت له هذه الكلمات كأنها جثث موتى ، سلسلة طويلة من الموتى ، تتعقبه وتجري في أثره .

وتوقف عند طرف القرية . وسأل نفسه : « لماذا أتيت الى القرية ؟ نعم ، لماذا ؟ كنت غاضبا وتلاشى غضبي . ولكن لماذا ؟ وفجأة طالت بخاطر صورة ماربوري . رأها مسجاة على الأرض أمامه ، شاحبة الوجه ، شاحبة العينين ، وعمل فيها مندبل أحمر صغير . . . وتمتم قائلا : هذه القرية تمنح بالوحي والألحاح . لا بد أن أرسل عنها .

تكاثر السحب ، واحتجبت الشمس ، وأظلمت السماء ، وعبثت ريح على غير انتظار . وارتعدت الأشجار ، وتساقطت أوراق ميتة قرشت الأرض ببقع صفراء كأنها بدن عليل .

ومر به بعض أهل القرية ، وتظاهروا بأنهم لم يروه ، وحشوا الحصى .

وتأروا من نأظريه . وبكى طفل عندما وقع بصره عليه . وظهرت امرأة عجوز عند باب بيتها ورائته . فرست علامة الصليب وأغلقت بابها من ابوابها . وهزمت الى زوجها الكهل الذي كان ينقب في الفناء بحثا عن شعاعة شمس يدق بها عظامه الواهنة . وعصت له :

— ميشيل ابن عدتنا الراحل يلف بالخارج . أه لو تلقى عليه نظرة انه يثير الأسى والرتاء . . لو ترى الحالة التي صار اليها . يا رحمن يا رحيم . أصبح هزلا شاحبا . غائى العينين .

وهز الشيخ رأسه وقال في كراهية :

— نال جزاءه . يند ثروته هذا الآله . وما هو الآن بهيم على وجهه في الطرقات . . . هل هو حافى القدمين ؟

— لا ، فلا زال يتنعل حذاءه القديم . . . يا له من مسكين . صدقوا حين قالوا عنه انه مجنون . وقال الشيخ في تهكم :

— هذه هي نهاية سلافة بطرياركاس . أكلوا وشربوا ما طاب لهم الاكل والشراب وجامعوا النساء ، وما هو مصيرهم الذي آلوا اليه الآن . أقسم يدينى أن الرب عادل في قصاصه منهم ، رغم كل ما قد يقال . اسمعى يا زوجتى اذا طرق بابك يوما فاعطه كسرة خبز . حتى يقال اننا تصدقنا على آل بطرياركاس .

ورسم الرجل علامة الصليب ، ثم تنتم في رضا .

— الحمد لله .

ودوى على البعد قصف الرعد . واشتدت برودة الريح ، وحملت معها للبرايا يسقوط المطر . وارتجف ميشيل . وفجأة اتخذ قرارا . سادسب الى ياناكوس . وعاد أدراجه الى القرية .

يدان تتساقط قطرات غليظة من المطر . وأقفر دروب القرية . ومز بيت الامة . وتوقف برهة ، ثم دفع الباب . كان الفناء مهجورا ، وزهور القرنفل ذابوة . ودلف الى داخل البيت : صرقت الحشاياء والكراسى وخزانة الامة . وتشتتت قواتم السرير الخشبية . وتحطم تشيش النوافذ . ولم يبق منه غير واحد معلق على محور . تلطمه الريح فيصر صريحا كأنه نواح ينعي الحياة العابرة . آلف المارة أن يرتادوا البيت ليوطئوا جذرائه وأركانها .

وتتم ميشيل :

.. أه لك أيتها المسكينة كاترينا .. أتممت وامتنعت .. كل ما شهدته هذه التجربة من منع ومفادات ذهب وويل .. أف لهذه الدنيا .. ما أحقرها .. وسمع صوت فار يفرس الحشب ، اتهد نفسه وكرا بين عورس سفت الحشبية ، وانهك في الفرص دون كلل كان الله أوكل اليه مهمة الانتهاء سفت الأرملة .

أغلق ميشيل الباب وراءه ، وأخذ طريقه إلى بيت ياناكوس . وشرح مع أفكاره وهو في طريقه .

.. مؤكدة أن دخول كاترينا الجنة بكل خطاياها أكثر ضمانا من دخول القسيس جريجوريس بكل مسوحة الكنسية .. من يدري .. فربما تسكن الجنة الآن ، تجلس إلى جانب مريم المجدلية وتجاذبان مما أطراف المحدث . وأحس بقلبه وقد تخفف شيئا ما من بعض صومعه التي أثقلته . وطرق باب ياناكوس .

كان ياناكوس في الخطيرة منذ أن نفس الصبح .. ذهب إليها ليودع حماؤه .. فقد وعد أهل ساراكيثا به ، ولكنه تلقى بالأمس رسالة من الأب لاداسي يقول له فيها :

.. أما أن ترد في الجهنات الثلاثة أو أستول على حماذك .. تدبر أمرك جيدا إذا كنت لا ترضى بدخول السجن .

ثم إلى صدره رقة وقلبه القوية الدافئة ، وانخرط في تفكير وهو يبتلع حديثا كله حب وحنان .

.. حبيبى يوسوفاكى .. الناس لثام ، يغارون منا ، ويسمعون من أجل الفرقة بيننا .. ترى من ميزورك يعنى كل صباح ، يتحدث اليك ، ويريت عليك .. ويملا مسافاتك بالمال ، القراح ومدودك بالملف ؟ من سيبحث لك عن العشب الغض وسط الحقول ويقدمه لك طعاما هنيئا منعشا ؟ ليس في صوالك في هذه الدنيا .. لم أكن أحميا بكل ما أضادته من مناعب وشوروك كنت أضحك من هذا كله ، لأننى أعرف أننى سأعود إلى بيتى حيث ألقى بك يا حبيبى يوسوفاكى .. فتروا إلى بعينيك البريئين ، وتهز لى ذبك ، ويسمعا لتسقى طريقنا معا .. أنت أمامى .. وأنا خلفك ، نطوق بالقرى نبيع بضاعتنا ونشترى غيرها ، ونكسب خبزنا رزقا حلالا يعرق الجبين .. أما الآن .. ترى ماذا سيكون مصرك بين يدي هذا المعجزة الشحيح الذى يسمى للفرقة بيننا ؟ فى ذلك هلاكنا نحن الاثنين يا حبيبى يوسوفاكى .

للمنة على الختام من البشر وجنيتهاهم الذهبية ، وتلمنة على الغدر الطامع الذى جعلنا مرء معورين .. وذاعا يا حبيبى يوسوفاكى .

واضح على حمارة ، وميل عنقه اندمى اللامع ، وريت يديه إلى رده وحنان على بطنه ولعله ، يداعب بانامله تسعده الخفى الأبيض ، وبحس ذيله والدموع تنساب من عينيه .. كان يوسوفاكى سعيدا صاحبه يهدده ، فهو رأسه بقوة ، ومط رفته ، ورفع ذيله ، وبدأ ينطق بسوت خفيى غلي حزين .

وسمع ياناكوس صوت طرفاته على الباب ، فهدغورا .. ولكن ما بين رأى ميشيل يدخل حتى ذهب عنه الخوف .

وايتدر صديده بالحية .

.. صباح الخير يا ميشيل .

كانتا عينا ميشيل محففتين .

.. ماذا بك يا ياناكوس .. هل تنكى ؟

وحجل ياناكوس ، وكفك دمعه . وقال .

.. عودة إلى الطفولة من جديد .. كنت أودع حمارى .. طلبة الأب لاداسي .. ليأخذ الشيطان .

وصالته ميشيل :

.. هل عندك ما تقدمه طعاما لى ؟ لى جوعان .. تركت الخيل مع مطلع الفجر وحما هو الوقت قد قارب الظهيرة .. اسمع يا ياناكوس .. سأذهب بعد ذلك مباشرة إلى الأب لاداسي .. لن يأخذ الحمار لأنه ملك ساراكيثا .

وحز ياناكوس رأسه .. إذ سمع أن القسيس وصل إلى اتفاق مع الأعا ، وأرسل إلى الأسقف فى هذا الشأن ، ولن يسمح لميشيل بأن يس شيتا من إزته حتى يصدر حكم بشرعية توقعه .. ثم أن القرية على استعداد للادلاء بشهادة دور وتقول أن ابن بطرياركاس لا يتمتع بكامل قواه العقلية .

وقبحة قال البائع الطواف :

.. أقسم بديتى لو أخذ الحمار متى لأشعل النار فى بيته .

ودخل البيت .. وأعد بعض البيض المسلوق .. وخيزا وجينا وعنا .. كان الحمار قد توقف ، فجلسا وسط الفناء ليأكل مع صاحبه أمام الخطيرة ووقف الحمار إلى جانبها يأكل هو الآخر قانعا رغبيا .

وتهدد ياناكوس :

- ما أجمل صحبتنا نحن الثلاثة هنا . وهذا اللص العجوز يريد أن يفرق بيننا .. وأبيض ميشيل وهو يسبح فيه وقال :

- سأذهب إليه الآن . لن يأخذ منك .
- كان الله ملاك يا ميشيل . أبذل ما في استطاعتك .



ترجع الأب لاداس وزوجه على الأرض أمام الطويلة يشاولان غذاءهما . طرحت بنيلوب الجرب الذي تفزله الى جانبها فوق الكرسي . والفت في فيها بضع لقيمت وكأنها تقف بها في ثقب ضيق . وضفتها على مهل . في بلادة وصمت . أما الشيخ فقد كان منشغ بالصدر . متعلق السماء . يلقي على سمعها بحديثه الذي يقوله وحده دون أن تشاركه الكلام .

- الأمور تسير على خير وجه يا عزيزتي . حمد الله . قسيسا شيطان مريد داخل مسوح كسبية . كسب إلا إلى صفه . وما هو ذا قد كتب إلى الاستغاف أيضا . وسوف ترين . لن يعطي وقت طويل حتى تقع كل أملاك بطرياركاس في يدي . يقولون أنها ستؤول إلى المجتمع . ايه . لا تصدقي هذا يا عزيزتي بنيلوب . انقلعت على كل شيء مع القسيس . وديرتنا أمورنا . ستعرض للمشكلات كلها للبيع في المزاد . سيأخذ القسيس نصيبه . هذا الحزير كان يحاول أن يبقى عليها لنفسه . ولكنك تعرفين أنني لا يمكن أن أسمح له بذلك مهما كلفني الأمر . ووصلنا إلى اتفاق بعد مساومة . وخلال أيام قليلة ستستولي على حصار ياناكوس طريقه الكنيسة . سيكون لك يا عزيزتي بنيلوب . تركيبة لتسري عن نفسك . وتنتهزين به حول حقولنا . انه حمار وديع طبع . وله برذعة .. حل رأيتنا ؟ كلها مقطرة بالوبر . تجلسين فوقها كأنك ملكة . ولما كنا وحدنا - لا أطفال لنا ولا كلاب - لا نحصل هوموا أو متاعب تشغلنا فائنا بالاعمل يا عزيزتي بنيلوب ملك وملكة . أم يا عزيزتي . لو أعيش مائة عام آخر أو مائتين لو كنت كل ليكوفريس بين برانتي . هل تعرفين لماذا ؟ لأن الناس جميعا أدهياء بلهاء . ينقلون أموالهم على شراء اللباس والأحذية . ناهيك عن الجباب الإطفال . وكل هذا كلف كثيرا . وحيث أن النفود مستديرة فانها تدرج وتقلت منك .. أما نحن .. في صحتك يا عزيزتي بنيلوب .

وملا كوبه بما قراح . أقرغه في فيه . وطرقت بلسانه في متعة وتلذذ .

واردف قائلا :

- ما قيمة النبية إذا قورن بالله الذي أنعم به علينا الرب يوسع رحمة ؟

دفع ميشيل الباب وفتح دون أن يطرقة ودخل . وتجهم الأب لاداس لراء . وحدث نفسه لا يذ . وأنه يبحث عن لزاع . أنا لا أحب نظراته سامتل عليه دور القبي . وقال بصوت عال :

- مرحبا بسيدي ميشيل . اجلس . اعتقد أنك أكلت . ونهضت الأم بنيلوب . ورفعت المائدة . وأخذت جوربها وانتحيت ركننا حيث أكلت على عملها تفزل .

وقال ميشيل :

- أيها البالوعة . ماذا ستفعل بكل هذه الحقول ويساتين الكرم وحدائق الزيتون . والبيوت والحرازين المكسبة بالذهب عندك ؟ هل ستحول كل هذا معك إلى القبر ؟ بينك وبين القبر خطوة واحدة ولم تشبع بعد ؟ وتحاول الآن أن تستولي على حصار ياناكوس المسكين .. ألا تخشى الله ؟ ألا تخجل أمام الناس ؟

هرش الشيخ رأسه الأشهب المخروطي وقال في سريره :

- القسم بديني أنه فقد صوابه فعلا . لا زال يقم الله في شتوني الخاصة سأحدث إليه حديثا ليأ رقيقا خشية أن تصيبه توبة وينقص على بقيةته .

وتصنع الرقة والمسكنة وهو يجب عليه .

- عزيزي ميشيل . ماذا تريدني أن أفعل ؟ أشق حق . انسان مدين لي بثلاثة جنيهات دعبية . ماذا أفعل معه ؟ أنا فقير محتاج مثل غيري من الناس .

- وإذا كتبت لك ايصالا بأني مدين لك بهذا المبلغ ووقعت عليه ؟

وسمعل الشيخ ثم قال :

- عزيزي ميشيل . يؤسفني أن أقول . مع احترامي لك . أن السنة السوء تحاول أن تشكك في توبيعك .. استلمحك باسم المسيح ألا تغضب من قولي . أنا لا أصفق كلمة واحدة من كل هذه الإفاويل . ولكننا بشر . مثلنا كمثل الآلات الدقيقة إذا ما سقط منها مسار .

وثب ميشيل محتاجا . وامسك بالكرسي الذي كان سيجلس فوقه ورفعه إلى أعلى ثم ألقي به إلى الأرض . وقال لنفسه : انهم بهذه الطريقة

سيدفمونى الى الجنون حفا . . . واخرت من الشيخ . وحديج بنظرة تندج
شرا .

لاذ الاب لاداس بركن يحنى به . وتعلق بالشيخ . والتقى بنظرة
الى الغناء . . . وقال لنفسه : الحمد لله . الباب الخارجى مفتوح . لوسات
الأموز سانسيل من هنا وخرج الى الشارع . . .

وصاح بصوت متهدج :
- لو استطعت أن تدفع الى المقابل نقدا . . .

وصاح ميشيل وهو يحصر الشيخ في الركن ويضيق عليه الحناق :
- ساذهب الى البيت أبحت لك عن نقود هناك أيها المنتشر السفيه .

أيها المرائى الخنزير .
وقال الشيخ :

- ختم الألفا على بيتك بالتسبع الأحمر اليوم . وسرعان ما أمسك
الشيخ عن الكلام . وقال لنفسه : . ذل لسانى . ما كان ينبغي أن أقول
له هذا . . . فان ذلك سيثير تأثيره . ولكن سبق السيوف العقل . هلك
وقضى الأمر . . .

أمسك ميشيل رأسه بين راحتيه . إذ شعر برأسه يتصدع .
وصاح : . أقسم لكم باسم يسوع المسيح انكم تدفمونى دفعا الى
الجنون . أوضح يا شيخ لاداس . هل تطردونى من بيت أبى ؟ . أقسم
بشرفى أننى سأسحب البترول على القرية كلها وأشعل فيها النار .
لا تذهب أيها السفيه الى أين ؟ تعال هنا أيها الخنزير . . .

وانقض عليه ليمسك به . الا أن الشيخ استطاع بقفزة واحدة
أن يكون عند الباب . والدفع ميشيل وراءه كالسهم . وأطبق على رقبته .
وجنا المعوز على ركبتيه وهو يصرخ صريحا كالصرير .

- من فعل هذا ؟ القيس ؟ أم الألفا ؟ أم أنت ؟

- لا . لست أنا يا ميشيل . لست أنا . وسئل الام بنيلوب تشهد
على صدق ما أقول . كنت داخل بيتى وأغلقت على بابى . . . ولكنى
سمعت . . . سئل الام بنيلوب . . . اظن أن الألفا ذهب الى هناك هذا
الصباح ومنه أبونا جريجوريس . . . وقبل أن الأسقف ميناى هو
آخر من المدينة ومنه بعض الأطباء .

وصاح ميشيل فى فرح :
- أي أطباء ؟ أي أطباء ؟

- الركنى يا ميشيل . أوسل اليك . . . لا تطبق على عنقى هكذا
فانى أكاد أختنق . . . ساقص عليك كل شىء . لا تخنقنى .

أمسك ميشيل به من قفاه ورفع له أعلى وأوقعه على قدميه .

- تكلم أيها الشيخ القذر . فص على كل شىء . دون أن تحذف
حرفا .

- بنيلوب . أنتى يكوب ماء . . . فانى أحس بقصة .

ولكن بنيلوب واصلت غزلها . لم تسمع شيئا . ولم تبد حراكا .
كانت تغزل وتبسم هادئة . ساكنة . كأنها فى عالم الأموات .

وقال الشيخ :

- دعنى أغلق الباب حتى لا يسمعا الجيران . وقفر الشيخ الى
الطريق . وأطلق ساقيه للريح وهو يصيح :

- النجدة يا أهل القرية . النجدة . ميشيل يحاول أن يخنقنى .
واستبد الفرع بالجيران وأغلقوا عليهم الأبواب . وواصل الأب
لاداس عدوه وصياحه . ينفذ الفرع فى القرية حتى وصل الى بيت
القيس جريجوريس . وظهر القيس عند عتبة داره .

- النجدة يا أبانا . ميشيل أصابته نوبة . يريد أن يخنقنى .
أدخلنى الى بيتك .

ولكن القيس بسط ذراعيه ليسد عليه الباب . وقال له :

- أخرج يا شيخ لاداس . أصرخ يا بلى صوبك حتى تهج أهل القرية
جميعا . أصرخ بكل ما أوتيت من قوة حتى يسمعك كل من فى القرية
ويصدقون . . . هيا اطلق فى طريقك واعد .
ثم أغلق بابا فى وجهه .

وتساقط المطر ثانية . أدرك الأب لاداس حيلة القيس وأعجب
بها . فواصل عدوه هنا وهناك . يلقف عند كل تأمية ويصرخ صرخات
مولولة . وعثر على حيلة لتقطع من على الأرض ولوح به كشاهد على ما
ما يقول .

اقتحم ميشيل على بيتى ليخنقنى . وما هو الجبل . النجدة
يا اخوتى . ليقطع لي حذكم بابا ويدخلنى . ميشيل يطاردنى . يحل معى
البترول ليحرق القرية .

ولا تكاذ برى بابا يفتح حتى يحرق بعدا عنه . ويستمر فى
صياحاته المولولة .

أتى معه بعض البتروول ليشعل النار في القرية . النجدة .

وسرعان ما ساد القرية حرج ومرج . أمسك البعض ببساقهم . واحتسوا بالابواب في انتظار ميشيل حين يفتح عليهم بيوتهم . وخرج الألقا إلى شرفته .

— ليذهب الثمان من الأقوياء الأشداء ويقبضوا عليه . أين بابا يوتي ؟

وأتى إليه بابا يوتي على عجل .

— في خدمتك يا نغا .

ألقى إليه الألقا بحبل وقال له :

— خذ هذا واجر وراءه . أوثق يديه . والنبي به ... انتظر واسمعي : سأملك ابتداء من اليوم بدمتي بابا يوتي لتكون حارما لي . أنت انسان حرسى قوى شديد اليأس تنجح كالكلب . تنوفى فيك صفات الحارس الذى احتاج إليه . انتظر حتى ألقى اليك بطربوش حارسى القديم عليه اللعنة . سترتيه من الآن فصاعدا . اذهب . ألقى لك حظا سعيدا .

واستدار وأخذ الطربوش من فوق المشبك المعلق عليه وألقى به إلى بابا يوتي .

— خذ لعل الحمر يأتيك معه .

ثم نظر إلى إبراهيم الكي الذى كان يجلس وراءه يدخن في تراخ . وينث سحابات الدخان من أنفه . وقال له :

— يبدو لي يا عزيزي إبراهيم الكي أنهم دفعوا دفعا إلى الجنون . هذا المستكين .

وقال المهر غامضا :

— متى ميأتوني بالنساء . أقسم اننى أصبحت على شفا الجنون . أمسك بابا يوتي بالحبل والعربوش . وقصد بيت الأب لاداس .

ولكن ميشيل كان قد غادر البيت . جرى بعيدا . واختار الدروب والأزقة الخائبة حتى لا يراه الناس . وكان الناس يفلقون أبوابهم إذا من بهم . والنساء يصرخن فرحا وتوقيا .

وما أن بلغ الطريق المؤدى إلى الجبل حتى توقف عن الجرى بعد أن تقطعت به الأنفاس . وتساقط المطر رقيقا حائيا بعد أن كان ممبلا طمينا . وأحاطت بالجبل غلالة رقيقة من الضباب . وغطي الماء السهل . وتواری

ميشيل وراء صخرة ينتظر حتى تنقش السحب ويصحو الجو . وأحس يصفاء في حلقه .

وحمل في المطر . وانصت غرير الماء المتساقط من فوق الصخور كالسلاط . وسبحت أفكاره مع المياه الجارية . وجرفتها معها إلى السهل . كانت أفكاره تجري مع الماء فوق الأرض وتزداد معها وتنظم . وتأتيها زواحف تصب فيها من كل جانب حتى أصبحت سلالا قويا عذارا يفيض على القرية كلها . والبسط صعد ميشيل . وأخرجت الأرض أحياء وأموالا . علام الطين . ساروا فوق السهل ونحت وأبل المطر بخطوات عادية وقور . وأقبلوا نحوه في موكب طويل . كان يتقدمهم رجل ميت طويل الغامة . يدين . مبطان . أزرق اللون في خضرة : انه العمدة . كان كيوم الحشر . تفتح الملك في النفر . وخرجت الميبدان البشرية من تحت الطين .

كان ميشيل قد قرأ منذ أيام للال رؤيا يوحنا . وأزدهم رأسه بالملكة والنفر والعاهرات والجوارى يبحرن عياب البحار ذات الشيطان المائجة . وفرسان يمتطون صهوات جياد سوداء وخضراء وحمرها وبيطاء . تخوض بأنفاسها في بحار من دماء ... وحمل ميشيل بعصره في المطر . وانصت غرير الماء المتساقط وانقضت وجنتاه . وشعر كأن الأرض تنفذت من تحته . وبدت الظلام يلف الأرض . فقد جن الليل مبكرا . واستمر حقل المطر حزينا . رتيبا . وكأنه يصرق عناد على أن يفرق العالم ويغت الأرض من تحته .

وغاشي الفمع من عينيه . وتغم قائلا :

— يا الهى . أنت وحدك الباقي الذى لا يغير . لولاك يا الهى لما وجد الانسان من يأمل فيه ويتعلق به . يوم أن يفتنى كل شيء . وتتحلل الدنيا وتغيب عن الوجود . والا ففيم يكون أمل الانسان ورجائه ؟ هل في المرأة التى يحبها ؟ أم في الأب الذى احبه ؟ أم في البشر ؟ كل شيء يذوى ويفتق ويذول ويختفى وأنت وحدك يا الهى الباقي للوجود . فكل شيء هالك الا وجهك . دعنى أركن اليك . أنت دون سواك . وثبت أقدامى يا الهى فانى أكاد أفقد صوابى .

قضى القسيس فونيس وماتولى ساعات طويلة داخل الكهف في انتظار ميشيل حتى استمد بهم الملق .

وقال ماتولى :

- الانتصار في هذه المعركة يا أبا نانا يتطلب منا تضامنا شاملا وعسيرا -
فري هل تستحق الحياة الدنيا كل هذا العناء والوقت ؟

ومضت عينا القسيس فوثيس وقال في حسم :

- نعم تستحق . وتستحق الكثير . أتى على حين من الزمن اعتدت فيه أن أحدث نفسي قاتلا . لماذا الضلال والعناء من أجل الحياة الدنيا ؟ ما قيمة هذا العالم كله ؟ أنا طريد منفي من السماء وأتلهف شوقا للعودة إلى وطني وعينتي ... ولكنني فهمت أخيرا - لا يدخل السماء إلا من يعتقد له لواء النصر أولا على الأرض . وإن يعتقد لواء النصر على الأرض إلا لمن يتنازل في حياض وجلد . ودون كبل أو مهادة . الأرض للإنسان على المنطقة التي يقفز من فوقها إلى السماء . وكل الفسادة والشبوح من أمثال جريغوريس ولاداس ولانغا . وذوي الأملاك . هم قوى الشر التي تجتمع . وكان تضامنا ضدها قدرا مقدورا . ولو وضعنا أيدينا إلى جنوبنا دون أن نبدي حركا فإننا لنلحق بأنفسنا إلى التهلكة . هلاك على الأرض . وهلاك في السماء .

- ميشيل رقيق غاية الرقة . ألف الحياة السهلة الرفعة . ومن ثم فإنه لن يقدر ...

- نحن نقدر . ولنتنظر ما سيأتي بنا به من أخبار هذا المسار . فإن كانت أخبارا سيئة . سأسافر من فوري غدا إلى الأنف . وأسانه أن يحكم بيننا بالعدل . الشتاء على الأبواب . ويجب ألا يحل علينا ونحن عراة جياغ بلا مأوى .
وتتمت مانولي :

- أم لو استطعت أن أقدم دمي فداء للأرواح المعرضة للهلاك والمطر ...

- من اليسير على المرء أن يقدم دمه دفعة واحدة دون أن يسلله قطرة لظرو في الضلال اليومي . لو سألني مسائل أي الطرق تؤدي إلى السماء فإني أجيب : - اشقها . - لذلك عليك بالطريق الشاق العسير يا مانولي . تشجع .

ولزم مانولي الصمت . أحس أن القسيس على صواب فيما يقوله . ولكنه كان قلنا . أنه لا يستطيع أن ينسى السمادة القدسية التي غمرته يوم أن تقدم ليجود بحياته . لم يبق هذا الكهيب بعد . لا زال يتألم بداخله . بعيدا عنه في ذات الوقت . كأنه الفردوس . فالضلال اليومي يبدو له شيئا طيلا ملولا خاملا . وهو الإنسان المحول .

وصمت الاثنان . وأصاحبا السمع إلى صوت المطر المتساقط . وغريز المساء فوق الصخور . وبين الخن والآخر تيرق السماء ومضة تمرق عمة الليل وتدخل الكهف فتضي . وجهن شاحبين ورقينة وذواعا . ثم يسود الظلام من جديد .

وفجأة سمعا وقع أقدام سرعة .

واندفع مانولي إلى الخارج وصاح :

- ميشيل !

وتعاقب الصديقان في الظلام . ودلفا إلى الكهف .

وقال القسيس فوثيس :

- مرجبا بعزينا ميشيل . ما وراك من أخبار من ليكوفريس ؟

- توفيعي غير ذي قيمة وضع الأنا احتساما على أبواب بيت أبي . وسيتاتي الأمسياء ليعلموا أنني مجنون ... وأخيرا فإن مازيرري تلفظ أنفاسها ... هذه هي أخباري . ولا حق لكم في الشكوى فقد أتيتكم بأخبار لا تقدر بشئ .

وترك نفسه يسقط إلى الأرض . وأسنده ظهره إلى الصخرة . وبعد

صمت قصير حاول أن يطلق بعض الدغابات .

- لا حق لكم في الشكوى . فانا لم أتيتكم صفر اليمين .

ونهض القسيس فوثيس وهو يقول :

- نحن لا نشكوك . وهكذا يكون الرجال : أن يتحملوا المعاناة والظلم . ويناضلون دون كلل أو استسلام . ونحن لن نستسلم ولن نكل أبدا يا ميشيل . وغدا سأنوجه إلى المدينة لأناضل .
وهن ميشيل رأسه .

- افعل كل ما يلهمك به الرب يا أبا نانا . لقد تعبت ومضت . ولا أستطيع أن أفعل شيئا أكثر من ذلك ... استبد به الغضب لحظة وأنا في القرية . وراودتني نفسي أن أخلق الأب لاداس . والفرق القرية باليترو . وأشعل فيها النار . ولم أكد أعم بذلك حتى أحسست بالتعب الذي تبط عمتي . وتولاني خوف لذت بعده بالفرار .

وأمسك مانولي بذراع صديقه في الظلام . وأحس كأنه يتلظى نارا . وقال له :

- لنواصل نحن التضال يا ميشيل .

توقف المطر عن السقوط . وانهض القسيس فوثيس . وقال :

— ملتبسا مساءً — ساقى الى مدينى ادير امرى لرحلة الغد • سنبدا رحلتنا مع مطلع العجر يا مانولى •
واختفى القسيس فى الظلام •
وتنهذ ميشيل • وقال :
— ما أشق الحياة وما أقساها • هل لك أن تسدى الى خبئة يامانولى •
لغدا عندما تذهب الى المدينة • أرجوك أن تزور ماربورى وتبلغها تحياتى •
هذا كل شيء •
واستلقى فوق حشيشه • وأغمض عينيه فى انتظار وجه أبيه يطالع
فى منامه •



وفى الغد سار مانولى والقسيس فونيس فى طريقهما صامتين لم يتبادلا غير كلمات قليلة • كانت السماء مليدة بالغيوم • وإن كان المطر قد توقف بعد أن كان بالأمس طوفانا طاميسا • وغطى الوحل الأرض •
وعا حنا يطوحان فيه بأقدام عارية • يشقان طريقهما فى صعوبة كبيرة الواحد وراء الآخر •
سارا وسط حقول خصبة مظأة بالأشجار والكرم • تسع أمامهم السهول حينا • وتضيق حينا آخر • وفجأة انقضت السحب • وسطعت الشمس • وظهرت قطع زرقاء من السماء صافية وضأة منعشة • وأطل عليهما من فوق ربوة عالية عمودان أثريان من المرمر يشع منهما بياض ناصع •
وتنهذ مانولى :

— كل هذه الأراضي كانت أرضنا نحن اليونانيين يوما ما ...

وتوقف القسيس فونيس لحظة • وشخص بصره الى العمودين المكسورين • ورسم علامة الصليب كأنه يمر بأطلال كنيسة قديمة • واعتدل فى نفسه غضب شديد • ولكنه لم ينبس ببنت شفة •

واصلا طريقهما فى صمت • كل منهما يحمل جرابه على كتفه • القسيس فى رداءه الداكن المرقع • ومانولى فى ملابس الرثة الخشنة •
وكلما مرا بقرية نحت كلابها • فتفتح أبواب وتطل دوس • وتحملق فيها عيون • وبين الحين والآخر تترامى الى سمعهما كلمة ترحيب رقيقة • مرحبا بكما • الى أين وجهكما • طريق السلامة • • ثم تغلق الأبواب ويعود رسولوا الفقر ثانية الى وحدتهما فى طريقهما القفر •
وعند الظهيرة توقفا عن المسير تحت ظل شجرة ليزردا شيئا من

الطعام يستعيدان به قوتهما • وارتحا جريين وجلسا فوقهما • ومن حولهما الأشجار المطرة • أشجار النرج والسعر والتفاح والغودنج والسجلب • وهى الأشجار التى أوسعتها الأمطار بالأمس غربا يسياطها الشهرة • فجاءت بشدها العطرى • وبزلت الشمس لحظة • وتزيت السماء بنوس قرح •

وتأمل القسيس فونيس صحر السماء والأرض عقب المطر • وانفجرت أسارير وجهه الشاحب الحزين • وقال :

ذات يوم كنت فوق الجبل المقدس • وقصدت الأب سوفروتيوس الذى كان يعيش فى خلوة بعيدة عن الدبر • فوق هوة حجيقة • وسألته : • كيف اعتديت الى طريق الخلاص يا أبا سوفروتيوس ؟ • وأجابنى • لست أدري يا بنى • اعتديت اليه دون علم منى أو تدبير • • استيقظت من نوم ذات صباح • عقب مطر غزير استمر طوال الليل • وأطلت من النافذة • هذا كل ما حدث • • هل هذا هو كل شيء يا أبا سوفروتيوس ؟ • وهل تطعم فى أكثر من ذلك يا بنى ؟ • رأيت الرب من نافذتى • • وعند ذلك الوقت وأنا استيقظمكرا كل صباح لأرى الأرض عقب المطر وأذكر التماسك المجرى • وتفيض نفسى شجونا • لا بد وأنه أودع روحه ليارتها منذ زمن طويل • وهو الآن يتنزه بين مروج الفردوس • وربما يسقط الله المطر من سماء الفردوس ليبدل السرور على نفس عبده الصالح •

وارتجف مانولى : أحسن أن كلمات القسيس أعطت الأرض المبتلة معنى ساميا رفيعا انتمشى له قليلا •

وبعد توائ من الصمت قال :

— شكرا لك يا أبا • اعتدت أن أرى الله فى لحظات العسر والشدة • وأنت ترى الله فى كل لحظة تمر بى • أبحت عنه فى الموت القاسى العنيف • وأنت ترى الله فى تضالنا اليومى المتواضع • وأدركت الآن فقط لماذا تقصد المدينة ومع من ستواصل تضالنا هناك •

— الانسان يا بنى لا يمش أبدا على ما يجد فى اثره يخطا عنه • سجد الله حيشا تولى وجوهنا وأبنا ذهبا • ولئن نراه على الصورة التى يرسمها له أولئك الذين لم يروه أبدا • شيخا متورده الوجنت • يجلس فوق سحاب كالصوف المتدوف فى غبطة وبلهنية يصدر الأوامر سولكننا منجده صوتا ينبعث من أعماقنا ليعلم حربا • بالأمس كانت حربا ضد القسيس جريجوريس ولاداس • واليوم حربا ضد الأسقف • وسنولى ضد من ستكون حربنا فى الغد • • • ولكنها حرب دائما وأبدا • حرب مقدسة يا بنى •

لم واصلا للمسير من جديد ، وبلغا مشارف المدينة مع الشفق ، وروا
على البعد قبابا ومسجدا ومذبتين ترتفعان في قوة ورفافة إلى غنائ السحاب .
وهنما هما باجتيار بوابة حصن المدينة ، أذن المؤذن يدعو المؤمنين إلى
الصلاة بصوت آمر ولكنه حلو وقيق .

وامتدت أمام بصرهما المدينة - تسلم بعض الجنود الأتراك نوبة الحراسة
عند البوابة ورأيا الطرقات تخرج من فيها من الأتراك - رجال يذنون
النارجيلة ، ويكوات يجلسون القرفصاء فوق حصير ، وعلمان سنان لهم
صوت واهن رقيق كصوت الصبايا ، يمزقون على الطنبور ويقتون أغنيات
أمان ، ونساء محجيات يمشين الهوينى ، ويخطرن في تصنع طاهر ، وأتراكا
حقاة بدنا ، فنحوا عقربهم ليمضوا عن بصرناهم : فطرا عاليا بالنسج ،
وسحليا دسا مطرا ، وفشارا ...

وأدنى صديقالا المسافرين إلى منزل مسيحي بعد أن اختارها طول
المسير ... كان الطابق الأرضي حظيرة للبعال والحجر ، وصفت في الطابق
الأول ، وهو حجرة واسعة ، حشأيا من القش ، وكان القسيس فونيس
يعرف صاحب المنزل الشيخ ييراسيموس ، وهو شيطان داحية ، ذنب
بحر ، كان يعمل قبطانا في سالف أيامه ثم ألقى مراسيه أجرا عند هذه
البلدة الملققة ، وتزوج ، بعد أن تقدمت به السن ، من فتاة هيفاء ورشيقة
القد ، من آسيا الوسطى ، وانجب منها طفلا . وفتح هذا المنزل عين
تقوم بوجه بأعمال الطبخ ، وانجب هو بالأعمال التي تتعلق بالرجال
والحيوانات ، يلقي لكمة هنا ورعاية هناك - أصنع الرأس ، ذو كرشي كبير
يزعم أن كرشه ينعم من الإحباء حتى يرى نفسه بعينه أن كان ذكرا أم
أنثى ...

ولم يكن يقع بصره على القسيس فونيس حتى ترك منصة الحساب
وعرول إليه يستقبله -
وصاح في غبطة :

- أتى ربيع طيبة حملتك البنا ؟ أنت الإنسان الذي احتاج إليه يا أبانا .
اقتربت خطيئة كثيرة من جديد . فذات يوم لى حمال حافظه لقوده
هنا ، وكأنت ملائ بالطلع التعبية وردتها إليه - ومنذ ذلك اليوم وأنا
أشعر بتأنيب ضمير بسبب هذه الخطيئة التي اقترفتها نفس النعمة ،
واشدت من الحزن حتى تكاد أن يذهب عقل .
ولكن القسيس فونيس لم يكن في حالة مزاجية تسمح له بنقل
الندابة ، وقال له :

- سحكت عنك يوحنا يا شيخ ييراسيموس - هل لنا في بعض
الطعام نأكله ، وحشيتين ننام عليهما ... نحن لا نملك نقودا ، وسجل
بنا اصلا نكل ما لنفقه - سادقته لك يوما ما يا كارتس - تق من هذا
ولا تفتق .

وضحك البحار القديم ضحكة عالية وقال :

- من طالبك بنقود يا أبانا ؟ إذا لم يكن مصك نقود فإن التجار
البدان الأترياء الذين يترلقون في نزلنا معهم الكثير ، ساطالهم بضمف
ما ينكفون . وهكذا يعود إلى حتى وزيادة - فضلا عن أنني لو عثرت على
حافطة نقود فلن أردعا ... أهلا بكيا . سنتناول عشاءنا الليلة معا .
لنسا زبائني بل صيوفي ... هيه ... يا كروستاليتيا .

خرجت من المطبخ امرأة فحطة ، واسعة العينين وتحمل طاجنا فوق
رأسها .

وأصدر إليها الأب ييراسيموس أمرا :

- قبل يد القسيس - سأتناول معه العشاء الليلة هو وصديقه .
هل تفهمين معنى ذلك ؟ كسفلية من لحم الخنزير .
وتقدمت السيدة كروستاليتيا فتبختر فتتهز أردافها ، وقيلت يد
القسيس ثم عادت إلى المطبخ -

ونادى عليها زوجها في مرج :

- إلى أين يا زوجتي ؟ لن يأكلك أحد هنا ، انتظري قليلا حتى
نمتع ناطقينا منك .

وغمز بعينه للقسيس وسألها :

- كم عدد الكنتري التي يتسع لها الكيس ؟
وقالت صاحبة المنزل الجهيلة ، وقد احمر وجهها خجلا :

- ألا تحجل يا رجل من شيبكا ا

وضحكت وأسرعت حيث نوازت في مطبخها .

والتفت ييراسيموس في الضحك وقال :

- نعم ، نعم ، ما أغرب المرأة يا أبانا . أنا لا أعرف رأى الكتاب
المقدس فيها ، ولكنني واتق تماما من شيء واحد ، أن الرب هو الذي خلق
الرجل . أما المرأة فقد خلقها الشيطان . هل تريد دليلا على ذلك ؟ سألت
الناس جميعا ، كم عدد الكنتري التي يتسع لها الكيس ؟ . ولم يعرف
أحد أجابة على سؤال . أما زوجتي ، هذه الداهية ، فقد عرفت الإجابة .

قالت لي : « انتنيت » هل تصدق ؟ انتنيت » . انها زوجة شيطانية لها
عينان مثل عيون المها .

في صباح اليوم التالي رسم القسيس فوتيس علامة الصليب واطلق
حافى القدمين الى دار الاسقفية . وفتحت له الباب فتاة بدينة من بنات
الريف . تفرست القسيس وحديث بنظرها يديه الفارغتين ، وامتنعت
وقالت له :

- جئت مبكرا جدا . لم يصح السيد من نومه بعد . وجلس
القسيس فوتيس فوق أريكة حجرية وسط الفناء في انتظار السيد .

- وتوافد الزوار بعده : رجالا ونساء . كل منهم يحمل تقدمته في
يده ... سلة مملوءة بيقضا أو أرنيا أو كرة من الجبن أو ديكاً ...
وأخذت الفتاة الثروبة الهدايا من أصحابها وهي تبتسم لهم ، ودخلت بها
الى البيت . وكانت تقدم لكل واحد كرسي أو مقعدا يتناسب مع حديثه .
وحسب شيخ يجلس بجوار القسيس فوتيس .

- هذه ابنة اخته ...

وبعد ساعة تناقشت الألسن الحبر من غم الى غم تعلن أن الاسقف
صحا من نومه . صبح أحدهم البرير يثر ، وسمع آخر سعاله . وزعم
ثالث أنه يسمع صوت لفرقة الماء في فمه .

وهز الجميع رؤوسهم في احترام واجلال . وشخصوا باصبار خاشعة
الى شيشي النافذة المغلقة . ودوى صوت سعال قوى ، تبتمه جلبة شخص
ولخيه وأخيرا قرقرة ماء يفرغها من فمه .

وقال الشيخ :

- انه يقتسل الآن ...

ورأى عليهم مسكون غيبق ليحفظوا بسماع الوحش المقدس وهو
يقبض .

وبعد ربع ساعة ترامي الى سمعهم رنين أطباق واكواب وملاعق
وسكاكين ، وصوت كراسي تنقل .

- انه الآن يحسب قهوته ...

ومضى نصف ساعة . دوت بعده منبهات مولولة وصوت بكاء ونسج .

- انه الآن يضرب ابنة اخته ...

ولم يمض وقت طويل حتى سمعوا صرير درج السلم ، وشخصا
سجل بقوة وغف .

وانهض الشيخ أخيرا وقال بصوت هامس :

- انه الآن ينزل الدرج .

وفعل الحاضرون مثل ما فعل تماما ، نهضوا وشخصوا باصبارهم الى الباب .
ودوى صوت جهوى ينادى :

- انجيليكا ، آتني بأول الزايرين .

انفتح الباب . وأطلت منه الفتاة القروية بعينين حمراوين . وأشارت
الى القسيس فوتيس الذي تقدم نحوها ودخل . وأغلقت الباب بعده .

كان الاسقف جالسا الى مائدة مستديرة . يدينا مكتنزة اللحم قويا .
له لحية بيضاء قصيرة وبرور في أفقه كأنه الخريت . وقال :

- ها انذا انصت لك . لو جن . ألن أبى رأيتك قبل ذلك . الست
انت اللاجي ؟ تكلم .

أحس القسيس فوتيس لأول وهلة برغبة في الخروج وأن يضيق
الباب وراءه . هل هذا هو مثل المسيح ؟ هل هذا هو من يعلم الناس
الحبة والعدالة ؟ هل له أن يتوقع منه أن يرد له حقوقه ؟ ولكنه أثر صبط
النفس . وتكرر في أفعال ساراكيينا والشتاه الذي يوشك أن يدعهم .
وفتح فمه ليتكلم . ولكن الاسقف أوقفه بإشارة من يده .

- اذا آتيت مرة أخرى الى قصر الاسقفية فيجب أن ننتعل حذاءك .

وأجاب القسيس فوتيس :

- ليس عندي حذاء . كان عندي ، أما الآن فلا . ثم معذرة يا سيدي
اذا قلت أن المسيح كان يمضى حافى القدمين .

وعيسى الاسقف وبسر ، وهز رأسه توعدا وجاز :

- حدثني عنك القسيس حريجوريس . أظنك تحاول أن تمثل
أمامنا دور يسوع المسيح . وتدعي أنك تربي دعائم المساواة والعدالة على
الأرض ... ألا تخجل ؟ تطالب بأن لا يكون ثمة أغنياء وفقراء . وبالطبع
لا أساقفة كذلك ... أيها المتعمر .

وانتفضت أوداج القسيس فوتيس ، وضغط بأصابعه على راحة يده .
ولكنه تذكر من جديد ساراكيينا ، فكلم غيبه ، وآثر الصمت .

- هل تخرجت من معهد اللاهوت بالقسطنطينية ؟

— لا يا سيدي .

— اذن بآى حق نوابك الجرأة على الحديث معي ؟ ليس لي ان انتاقش معك يا ابانا ... انيت نسألني معروف ، فما هو ؟ حدثني عنه على عجل . فتدع غيرك كثيرون ينتظرون مقابلتي . وتروى فيما تقول .

— لم أتك لأسألك معروفا يا سيدي . وانما أتيتك لأسألك تحقيق العدالة .

— ما لي اراك تنظر بعينيك نظرات وفحة هكذا . تخش من طرقت عندما نتحدث الى .

جال القسيس فوتينس بعينه فيما حوله . رأى خلف الأسقف أبقوة المسيح على الصليب . وخزانة كتب ملأى بكتب مذهبة الحواف . وأمامه صورة أكبر من الأبقوة . صورة صاحب القسطة الأسقف ذاته . في رداء الأسقفية الموشى بالذهب . وفوق رأسه تاج يتألق . وفي يده صليب مطليا بالذهب . وأبدى الأسقف امتعاضه لسكوت القسيس . فقال :

— يا ابانا . تكلم أو انصرف . ليس عندي وقت أضيعه سدى .

— ولا أنا يا سيدي . اني منصرف . قصدت ان أسألكم العدالة . ولكنني أدركت الآن . سأسأله هو في مساواته .

وأشار بأصبعه الى المسيح المصلوب .

واستدار الأسقف وقال :

من ؟

— المسيح المصلوب .

جن جنون الأسقف . وخرب التضمة بقيضته .

— اذن فالقسيس جريجوريس على صواب فيما يقول . أنت انتمراكي .

ورد عليه القسيس وهو يشير الى المسيح المصلوب :

— نعم . ان كان هو كذلك .

ونادى الأسقف :

— انجيليكا .

وظهرت ابنة اخيه البديعة .

— لو عاد هذا القسيس مرة أخرى . أنطري الى وجهه لتعرفيه جيدا .

فلا تخليه .

وقال القسيس فوتينس في حذو :

— سيحكم الله بيننا يا سيدي الأسقف . فلا تنزعج . سنتمثل بين يديه . أنا وأنت . في الآخرة حفلة الأقدام .

وفتح الباب . وخرج دون كلمة وداع .

وهم على وجهه في الطرقات ساعات طويلة . ودخل الى السوق المغلقة بالخضير . وانتظر قليلا في صحن أحد المساجد . ثم اجتاز قنطرة صغيرة . وتناه وسط بعض الحدائق . ثم انسل الى حواري القرية . وتلفت حواليه ولم ير شيئا . كان رأسه يقل حتى غشى بصره . يسكر في الأسقف وأطفال ساراكينا . والشقاء الذي يطرق الأبواب .

وفجأة وجد نفسه أمام لزل الأب بيزاسيموس .

وصاح به صاحب الزل :

— طار المصغور منكرا ليتزده .

وجلس القسيس فوتينس خائر القوى . كانه عائد من آخر الدنيا . وأسند ظهره الى الحائط . وأغمض عينيه وتهدأ .



أوفى ماتولي بوعدة . وعاد ماربوري في مستشفاهما . كانت نائمة . فجلس بجوارها ينظر اليها . وانتظرها ساكنا حتى تسقط ... وكان كلما رنا اليها بعينه أحس بقلبه يتقش . أضناها السقم حتى صارت شيئا . أحاطت بجفنيها دترتان زرقاوان كبيرتان . ونبات عظام جسدها من تحت جلدها الباس . وشحب وجهها وفاز جلده وبرزت عظامه كأن الموت لعق هذا الوجه وأكل منه ... نعت من رمسها لحظة من الزمان . لعت وصحكت وبكت وخطبت . أمسكت بمن يدها بكأس الحياة ملأى . ولكن لم تسلمها الأرض حتى ترفع الكأس الى شفتيها فها هي تتادبها لتعود الى مرقدتها ...

وفجأة صعدت ماربوري ذفرة عميقة . وفتحت عينيها . فزات ماتولي .

وقالت له :

— طاب يومك باماتولي . هل أرسلك الى ؟

- نعم يا ماريوري ، أرسلني اليك ميشيل .

- هل حملك رسالة لي ؟

- نعم يا ماريوري ، لك تحياته .

- هل هذه كل رسالته ؟

- نعم هذه هي .

وابتسمت ماريوري في مرآة . وقالت :

- ماذا أنتظر غير هذا الآن ؟ لا شيء غير كلمة تحية . حسن ذلك .

وأدارت وجهها بعيدا لتخفي عيرانها . ثم تمايلت نفسها وأمسكت
دعما ، واستدارت إلى مائولي وقالت له :

- مائولي ، عندي رسالة له أيضا .

وتحسست يديها تحت الوسادة حتى عثرت على القمص .

- ساعدني على الجلوس .

ورفعها مائولي بين ذراعيه ، ووضع الوسادة خلفها وأسندها إليها
في حرص شديد .

وخلفت ماريوري مصابة رأسها ، وحلت الشريط الحريري الأسود
الذي يربط صفاتها الكستنائية . أمسكت بالقمص وحاولت أن تنقص
ضيقها ، ولكن خانتها قواها ، فلم تستطع .

وقالت :

- لا أستطيع يا مائولي ، خارت قواي ، أعني أنت على ذلك

وقال مائولي حزنا :

- هل تريد أن تنقصهما ؟

فقالت بصوت واهن :

- قصهما أنت .

وأمسك مائولي بين يديه المرحلتين بطيقتي القشاة الصفيرة
الداكنتين .

وعاودت ماريوري طلبها :

- قصهما أنت .

قص مائولي أحدهما ، وأتبعها بالثانية . كان يرتعد كأنه يقص
لها حيا .

أمسكت ماريوري بالطيقتين الطويلتين ، وتأملتهما طويلا . كانتا
ملء واحتيا . وهزت رأسها العاري الذي سلبته شعورها . وقصات
الخرطوط في بكاء وتحيب . ومالت عليهما وتفتتت دعما بهما ، ثم لغتهما
في منديلها كأنها تكفن جثة طفل حبيب وعقدت السديلا وناولته إلى
مائولي .

وقالت :

- خذكما وأعطيها له قبل له : ماريوري تبتلك تحياتها . هذا كل

ما أريد .

أَمَّا الْجَسَدُ...

• كل شيء على ما يرام • كل شيء على ما يرام • • • • • هكذا كان القسيس فوثيس يحدث نفسه وهو في طريق عودته من رحلته يخوض في الأوحال • • • • • حسدا لله ان الأمور تسير على خير وجه • •

ويمشي وراءه مانولى • محبس الظهر • عتكس الرأس تحت ثقل الصغيرات في ذكيتته • كأنه يحمل على كاهله حنة امرأة ميتة • تلبست السماء بالغيوم • ودوى قصف الرعد • وبدأ المطر يهطل مدرارا •

ولا زال القسيس فوثيس يردد بينة وبين نفسه • وهو بحث الحظي: - كل شيء يسير على ما يرام • وليس في الامكان ابدخ عما كان • كانت تلك كلماته التي يرددها ولا شيء سواها • وواصل سيره حنينا حتى كأنه يمدو • والمطر يلطم صدقة وجهه • وحوم فوقه سرب من طيور الكركي • فلم يرفع عينه لينظر اليه • ثم بدأ يعلو بالفعل • ومع الفسق طالعنهما قفة جيل ساراكيلا الوعرة • والتفت الى مانولى • وقال له بتيرة تقيض عزما واسرارا •

- ستواصل يا مانولى • الناس جميعا في جانب - اساقفة وقسيسين وأعيانا • وكلهم أناس أعمى الله بصيرتهم • وفي الجانب الآخر • نحن وحدنا • حفنة من الحفافة يسير المسيح في طليعتهم • تشجع يا مانولى فالنصر لنا •



وصاقت خطوته وهو يخوض في الوصل ، وضحك غاليا :
- يسألني لماذا لم أتعلل حذار ، أترامن بأن قيافا وجه نفس السؤال
الى الجميع ؟



قضى ميشيل هذين اليومين كروح هائلة معقدة ، يات يفزع من
النوم ، اذ لا يكاد يقفو حتى يطالعه أبوه ، عازبا تساما ، يعذبته بنفثة
كلها تأنيب ، وطفق يقول لنفسه في جزع : « لو بقيت على هذه الحال
أياما فلائق فسوف افقد عقلي تماما » .

ولاذ بانجيله الكبير ، آملا أن تجنبه الفزاة هذه الرؤيا المفزعة ،
وتكن الحروف تراقصت أمام عينيه ولم يستطع أن يمسك بها . وأفلق
الكتاب ، وعاد يدرج الكهف بخطواته من طرفه الى نهايته .

وفي ذلك اليوم زاره ناظر المدرسة مع غيش الليل . زعم له أنه
جاء لينعم بصحبته . بدأ حديثه اليه عن أبيه وخطيبته والسناء الخليل ،
وشعبد ساراكتينا الشمس ، وأبدى دهشته كيف سيتحمل هؤلاء قوة
السناء . ثم تطرق الى موضوعات أكثر خطورة - عن الحياة والموت ، وواجب
الإنسان ... وأجابه ميشيل عن كل هذا ، ضجرا ، شاردا الملب ، قلعا
أن يعود الى خلوته من جديد . وثبت ناظر المدرسة عينيه على عيني ميشيل ،
وسرعان ما أدرك ميشيل حقيقة مهمته وحب ثائرا مغيظا . وقال له :
- يا حضرة الناظر ، هل جئت لتتحقق ان كنت محتونا أم لا ؟

فقال ناظر المدرسة محتجا وقد احمر وجهه :

- ماذا تعني يا عزيزي ميشيل ؟
- أعرف أنك رجيل فاضل ذو ضمير يفظ . أيتت الميلة لتتأكد
بنفسك ان كان أخوك القسيس كذابا أم لا ؟ ترى ما هي النتيجة
التي وصلت اليها بنفسك يا حامي ليكولا ، أيها الرجل الصادق الأمين ؟
لزم ناظر المدرسة الصمت ولم يتكلم .

ونظر ميشيل الى ناظر المدرسة في الشفاق وتمتم :

- صادق أمين ، ولكن روحك جسيمة ... ورغم ما تتحمل به من
صدق وإمانة لا تجرؤ على الإجابة يا صاحب الروح الخالعة .

وقال ناظر المدرسة بصوت خفيض :

- لا ، لا ، لا أجرؤ ...

- ترى لو سئلت هل تقول الحقيقة ؟

- نعم اعتقد هذا ، ولكن من المؤكد أنهم لن يسألوني عن شيء .
- وإذا لم يسألك أحد ، هل لن تبادر وتقف لتعلن الحقيقة على
الخلا ؟

وسعل ناظر المدرسة دون أن يجيب .

وفي النهاية استولى عليه الحجل وهو يقول :

- لا .

- وأحس ميشيل بالأسى من أجله ، وإن لم يزايله الغضب ، وصرخ
به :

- هل هذا هو ما تعلمه للأطفال ؟ هل لم يجدوا غيرك ليرى الجليل
الجديد ؟

ونفض ناظر المدرسة وقد بدا عليه الاعياء التام .

وقال :

الروح متاهية ، أما الجسد ...

- ان كانت الروح متاهية ، لماذا يجم الجسد ؟ ... انها تفعل به
ما تشاء .

وأحس ميشيل في أعماقه أنه ينال من ناظر المدرسة لا لشيء إلا لانه
على شاكلته . كان يتحدث اليه بهذه القسوة وكأنه يتشكل بروحه
وبعيرها .

وواصل ميشيل حديثه :

- لماذا كان القمام ذوي بأس وقوة في هذه الدنيا ؟ ولماذا كان الأخيار
ضعافا ؟ هل لك أن تفسر لي ذلك أيها الحكيم ؟

- لا ، لست أدري .

ثم أردف قائلا بعد لحظة :

- أختلتن يا ميشيل بكلامك ولك كل الحق في ذلك . ولكن أختي
القسيس أقوى مني . وكان دائما هو الأقوى . اعتاد أن يضربني وقتما
كننا صغارا . ولا زلت حتى الآن أشعر أنني عاجز عن أن أطاوله ... لو لم
يكن موجودا قريبا ...

وتردد ميشيل لحظة ثم قال له دون اكتراث :

- اسبح ، ألم تحدثك نفسك في يوم من الأيام يا حامي نيكولا
أن ترتكب جرما معه - أن تقتله ؟

وقفز ناظر المدرسة فرحا . وقال هامسا :

- أحيانا ... نعم أحيانا ، ولكن نادرا ، وفي الأحلام فقط ...
ولم يكد يلفظ بهذه الكلمات حتى أحس بشد مرملا يدر منه .
وضاق لانه كشف عن سره الخفي . واتجه ناحية فتحة الكهف : لا زال
الطر يتساقط ، والظلام خالك السواد .

وقال :

- سائرف . طبت مساء .

وقال ميشيل بنبرة ساخرة :

- الظلام دامس يا حضرة الساطر . وإن يراك أحد وأنت غائب من
ساراكنيا لتقدم تبريك إلى أخيك القسيس . صحتك السليمة .

عندما وصل ناطر المدرسة إلى السفح لمح رجلين يصعدان الجبل ،
وسرعان ملاذ بصخرة يخفى وراءها . وبعد أن ابتعدا عنه واصل طريقه
من جديد عائدا ، يتروح في مشيته .

وأحس بالسخط على نفسه وقال :

- ميشيل على صواب . نعم . نعم . أحمى كذاب آخر ، وأنا اعم
... صادق أمين أنا حقا ولكنني جبان . سأستجمع شجاعتي . سأتوجه
إلى القسيس لنؤي هذا المساء . سأصرخ بالحقيقة في وجهه وليعيني
الرب على ذلك .



وقف ميشيل أمام الكهف لفلقا تائها . ينتظر عودة القسيس فويس
وماوولي . ولم يكد يلحظا حتى ثبت فؤاده . لم يعد وحده . فقد عاد
السلام . وأخفى الرجل الميت .

- مرحبا بكما . الوحدة قاسية ثقيلة .

وقال القسيس فويس :

- وكذلك كانت رحلتنا ، قاسية ثقيلة . ولكن كان الله معنا .
ومنحتنا أجنحة أعاننا بها على مشاق الرحلة .

وقص عليه بكلمات موجزة مقابلته مع الأسقف والحديث الذي دار
بينهما .

ونويس ميشيل خيفة وقال :

- هي الحرب إذن ؟

وقال له القسيس فويس مؤكدا :

- نعم إنها الحرب ، وهي حرب مقدسة . في أول الأمر كانت حربا
شد الأبركة وأغلاواتهم . والآن مع بني جلدتنا ، الأغنياء والأعيان . وهم
أكثر ضراوة وبشرا . ولكن المسيح ، الفقير الخافي القديمين ، معنا .
والتفت إلى ماوولي :

- صدقتي ياماوولي لم يكن المسيح دائما وأبدا على تلك الصورة
التي نحتها له يوما فوق الحطب . وقبضا ، ودعيا مسالما ، يدبر حده
الأسير لن لطمه على خده الأيسر . بل كان محاربا صليبا عبيدا يسير في
الندمة ومن وراءه كل المدعين على ظهر الأرض . لم آت لألقي سلاما
على الأرض . بل سيفا . كلمات من هذه : كلمات المسيح . ومن الآن
فصاعدا سيكون هكذا وجه ربنا يسوع المسيح ياماوولي .

واقتدت عينا القسيس حتى بدنا وسط ظلام الكهف كأنهما جمرتان
تتأججان نارا .

وصنت برهة ثم عاود حديثه :

- ألي سعيد يا أولادي . سعيد أن لنا مثل هذا القائد . من الخير
أن تكون حملا ودعيا . ولكن إذا ما أحدثت بك الذئاب فخير لك أن تكون
أسدا هصورا .

وصمعا نداء عند باب الكهف ، ولحوا وجهها ويدين معدودتين .

وصاح ميشيل مترجعا :

- من هناك ؟

وصاح صوت في غتة الليل وتحت وابل الطر ، كان صوت
يائاكوس ، مقلما بالحزن والغضب :

- انه أنا يا اخوتي . هجرت القرية الفقيرة ، وأثبتت لأبؤد بيجلكم .

وبسط الثلاثة أذرعهم مرحبين . وقالوا معا :

- مرحبا بك يائاكوس .

وسأله ماوولي :

- ماذا دهاك يائاكوس ؟ ما الذي أتى بك في مثل هذه الساعة .

لخت هذا السيل المنهم ؟

أصمك يائاكوس بيد القسيس فويس وقبلها في رقة وحنان .

- استمعت إلى كلماتك الأخيرة يا أباي . وأنا افرك عليها . خير
للمرء أن يكون حملا ولكن إذا أحدثت به الذئاب فخير له أن يكون أسدا
هصورا .

وعصر شعوه الذى يبلله المطر . ووضع عرة ملايسه على الأرض .
وجلس فوقها . وراح مست صيق .

وأخيرا تكلم ياناكوس :

- أأناى الليلة يانايوتى . حارس الألفا الجديد . يحمل ورقة عليها
خاتم الألفا . يملئ فيها أنه أخذ حمارى مقابل دين استدته من الحزير
لأداس ...

وغلغله عبرته . ولكنه سرعان ما تناسك وتجدد . وشب واقفا
على قدميه وصاح :

- سأذهب ذات ليلة الى بيت هذا الملعون وأشعل فيه النار . ثم
وبحق المسيح سأشعل فى بيته النار .

وقال القسيس :

- لا . لست وحدك . صبرا ياناياناكوس . سنزول الى هناك سويا .

وتساءل ياناكوس فى قلق :

- ألم نحن الساعة بعد ؟

- اقترت الساعة . وموعدا معهم ليس بعيد . ولهذا السبب
أفترح أن يتعلم النساء والأطفال . ابتداء من الغد . كيف يستعملون
القلع . يجب أن نستعد .

ثم اتجه ناحية فتحة الكهف وقال :

- حسبنا هذا الليلة يا أيناى . تبرعنا اليوم كل أنواع السموم
على يد الناس . وحسبنا هذا . حال وقت النوم . دعوا النوم يشفى
جراحنا حتى نستعد للغد ولكل غد يأتى من بعده .. تمسك ياناياناكوس
شاركنى صومعنى البائسة . انى سمع بروياك بيتنا .

ورفع ياناكوس صوته . واقتفى أثر القسيس .
وأصبح الصديقان وندما . والتفت ميشيل الى مانولى وأمسك
بيده . وسأله بصوت خفيض :

- ماذا ؟

أخرج مانولى منديل الفتاة من جرابه .

- مع تحيات مارپورى .

أمسك ميشيل بالمنديل . وحملق بعينه فى الهدية الحزينة .
وتحسسها بيد مرتعشة . وفهم كل شيء . فك الضفرتين الطولتين .

ودفن وجهه فيها . وانخرط فى بكاء شديد . وانهار عليهما بقبيلانه .
ولبت كذلك لفترة طويلة . ثم رفع رأسه وسأل :

- هل حضرها الموت ؟

ولم يجب مانولى .



بينما كان الرفيقان يتجاذبان أطراف الحديث على هذا النحو فوق جبل
ساراكينا . كان ناظر المدرسة يحمل قلبه بين راحتيه وهو على طريقته
تأدية القسيس جريجورىس . اشجته كلمات ميشيل . وبشت فيه الحاس
وحا هو لأول مرة فى حياته يقرر أن يقاوم أخاه .

الذى القسيس جالسا الى مائدته . فرغ من تناول عشاءه . وكان
المشاء وقيرا . والطبخ طيبا . والشبذ رائعا . واشعل سيجارة وبها
بدنيا فى متعة وتلذذ . ثمة ورقة سيقع فيها بعد ثلاثة أيام . فقه
بعت اليه الألفا برسالة يوم الثلاثاء أبلغه فيها أنه صديق وعده . طرد أهل
ساراكينا . ووضع اختام الشمع على بيت بطرياركاس . وجاء دوره ليبر
هو الآخر بوعده . ولبى طلب براهياكى . قضى القسيس ثلاثة أيام
معدنا . يفكر ليل نهار على يهتدى الى فتاة صغيرة يقدمها للألفا دون أن
تحدث فضيحة . ولكن بلا جدوى . وأخيرا اعتدى إليها فى هذه الليلة
ذاتها وهو ياتجن سحارته . وهذا بالا .

وتعتم وهو يملأ كأس الشبذ :

- الحبل بين يدي . أله الهام من لدن الله . فسأ يدبني أن الفتاة
ستكون خير من يقوم بهذا الدور . وحى تشرق شوقا لذلك . ولن يتعنت
عنها أحد بكلمة . كما سيسر بها الألفا . ولنضمته الى جانبنا . الحمد لله .
وفى هذه اللحظة دخل عليه ناظر المدرسة :

فقال القسيس دون أن يكلفه نفسه عنه الوقوف .

- طبت مساء يا ليكولا . من أين أتيت ؟ الوحل يغطيكم لئلا .

وأجاب ناظر المدرسة فى حماس :

- من ساراكينا .

وتسلم القسيس فوق كرسيه .

- ماذا كنته ليلى من عش الزنايرى اللعين هذا ؟ ألا تعرف أن
ساراكينا وليكوفريسي بينهما حرب . كل منهما تشهر سلاحها ضد
الأخرى ؟

وقال حاضى ليكولا لنفسه :

- تشجع يا حضرة الناظر - ها هي اللحظة العاشرة - فالتيت اباك
أعلم بأن تكون سليل الاسكندر الاكبر .

وآسى فى نفسه المخاطرة وهو يقول :

- ذهبت لارى ميشيل - أردت أن اتبين بنفسى ان كان مدبونا حقا
م لا .

وجاز القسيس :

- أه - أردت أن تثبت بنفسك - ثم ماذا ؟

- تعدلت الى ساعة بالكلها فى شتى الموضوعات - كبرها
وصغفها .

- حسنا ثم ماذا ؟

- عاقل تماما مثل ومثلك .

وهب القسيس لساعة هذه الكلمات - وصاح :

- ابقى فيما عينيك فقط يا حضرة الناظر - لا تتدخل فى شئون
الآخرين - هل طلبت منك الدعاء الى هناك ؟ أى شئ أجبرك على ذلك ؟

وتتم ناظر المدرسة :

- أحسنت بقل بقل ضميرى .. كنت أشنك ان الامر ليس
صحيحا .

- حسا - أنا لا أقبل هذا قط - هل هو انت الذى تعلمنى ما هو
صواب - أنت أيها الأبله ؟ ميشيل مجنون - هذا هو الصحيح .

وجازف ناظر المدرسة بالرد :

- ولكنه ليس كذلك .

- قلت لك انه مجنون - أنت لا ترى أبعد من نفسك - لا تستطيع أن
لتجاوز الأفراد - أما أنا فلا أعيا بالأفراد - إنما أعيا بالمجموع .

فأنا هذا الشعب - أنا - هل فهمت أيها الأبله ؟

ولم يحر ناظر المدرسة جوابا .

وأردف القسيس قائلا :

- إذا ما وقع ظلم على شخص - وكان هذا الظلم لصالح المجموع -
فهو العدل بعينه - ولكن عقلك فاسد عن فهم الأمور على هذا النحو .

واستوى واقفا - وهداه الى خصره - أمام ناظر المدرسة الذى كان
يسمع ناله مطايع الراس .

- أو مثلت - فهكذا يجب أن تكون اجابتك - وإذا لم تستطع فالزم

الصمت .

وتنهض ناظر المدرسة وهو يقول :

- سألزم الصمت - إما فى أعمالي .

وانعز القسيس ضاحكا فى تهكم وسخرية :

- ليكن فى أعمالك ما يكون - فانا لا أعيا بذلك فى قليل أو كثير -
لك مطلق الحرية بأعمالك هذه - ولكن حين يمتد الأمر خارج نفسك

فيجب عليك أن تفكر مرتين وتندبر أعرك .
ثم تابع حديثه بصوت لا يخلو من رقة :

- أنت أخى الأصغر - نحن أخوان يا حاشى لىكولا - ويجب أن
نظهر أمام الناس رأيا واحدا . . . وهو رأىنا . هل تسمعنى ؟

أحسن ناظر المدرسة برهة فى الصراخ - الى متى ؟ فانا مثلك - لى
روح ولى رأى - لست على وفاق معك - ولا يمكن أن ارضى بالظلم - سأذهب

الى ميدان الحرية وأصرخ بأعلى صوته وأعلن الحقيقة على الملأ . ولكنه
احتفظ برأيه لنفسه - واتخذ طريقة الى الباب قائما بقوله :

- طبت مساء .

أفرغ القسيس كاسه دفعة واحدة - وغنم فى تأفف :

- يا ليداهنه - أنا لا يمكن أن أقبل ذلك منه - يقول رأى الخناس -
يا للرفاحة .

وطوى منشفته - وروى الصليب - وحمد الله أن انعم على الناس
بالطعام والشراب فى سخاء ووفرة - ثم أوى الى فراشه لينام وهو يقول

لنفسه :

- غدا مع مطلع الفجر سأبحث فى طلب مارثا .

فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى وصلت مارثا الهدية نسب
وتلحن :

- ترى ماذا يريد منى صاحب لحية النيس حتى يرسل فى طلبى مع
مطلع الفجر - وهي الساعة التى يستيقظ فيها ابن الزنا ليصبح يى

أريد هذا - أريد ذلك - دون أن يعرف ماذا يريد - كأنى أم أطفل رضيع
... افتح عينيك يا مارثا - لا تنسى يا مكودة الحظ أن الشيطان يخفى

وراء كل كلمة ينطق بها هذا القسيس العجوز - فعذار أن تقمى فى
الغرفة .

دخلت مارتا . وكان القسيس متربعا فوق الحنية يرتشف القهوة .
لأزال جفناه منتحيين من أثر النعاس .

وانحنت مارتا حتى كادت جبهتها تمس الأرض . وقيلت يه القسيس ،
ثم ترجعت الى زاوية من الحجرة وانظرت وذراعاها مقلودتان الى صدرها .
وأخذ القسيس يقف في رأسه الكلام الذي يريد أن يقوله لها .
دون أن يعرف كيف يبدأ معها الحديث .
وأخيرا قال :

— عزيزتي مارتا . ستدخلين الفردوس يوما مشوقة الفد مثل لخص
البان . ذلك لأنك رغم السنوات الطوال التي قضيتها في خدمة الأتراك .
لم تنس المسحة . وعندما تنزل بالمسيحين نازلة لالوؤ الأباك . ولهذا
دعوتك اليوم يا عزيزتي مارتا الطيبة .

وحدثت الهدايا نفسها :

— عا هو ذا القسيس الشيطان ينصب شبابه - يضع الجبن في
الصبيدة ويفتح في بابها . . . احتج عينيك يا بآنسة ولا تدخل .
وقالت :

— كلمتك يا أباتا هي كلمات الرب . وأنا طوع بآنك .

— تعرفين أن براهيماسكي يطلب امرأة . وقد أبدى رغبة في أن ترقص
بنات القرية أمامه حتى ينتقى من بينهن من تزوجه . هذا الكلب . وإله
لعار كبير ولعل خير لنا منه . اليس كذلك يا مارتا ؟
وأمنت العبداء المعوز على كلامه وقالت :

— الموت خير منه دون ريب .

وواصل القسيس كلامه :

— وفي نفس الوقت يجب ألا تدخل في نزاع مع الأفا . فمن الخير
لصالح المجتمع . أن نكسبه الى صفنا . وقد أعلن الأفا صراحة : « إذا لم
نأت بأمرأة لبراهيماسكي سساعلى الحرب على مجتمعكم » . هل تفهمينتى
يا مارتا ؟ سنهلك . إذن ما العمل ؟ هل نأت بأمرأة لبراهيماسكي أم نعرض
المجتمع للهلاك ؟ ماذا ترين يا مارتا ؟ .

وأجابت المرأة المعوز وهي على ثقة من أنها تردد رأى القسيس :

— بل أهلك المجتمع .

— ماذا تقولين يا مارتا ؟ وقانا الله كل شر . أهلك المجتمع ؟ هل

نرضى المسيحية للهلاك ؟ رحماك يا الهى . لا . لا . يا عزيزي مارتا . تعالى
تدبر الأمر .

— وردت مارتا على الفور :

— تدبرت أمرى . والرأى عندى أن نبحت له عن امرأة .

— حسنا . لا نض فوك . أنت الآن عند حسن ظنى بك يا طفلى .

هل تعرفين صفات المرأة التي يطلبها ؟ بضرة مكنتزة . بيضاء كالخيز .
حياة . . .

— بضرة . مكنتزة . بيضاء كالخيز . حياة . . . إيه . ماذا تنتظر منى
أن أقول يا أباتا ؟ لا أعرف امرأة اجتمعت لها كل هذه الصفات .

— تفكرى قليلا يا ابنتى . ان كنت تبغين إصداة خدمة لى . . .

— ماذا أقول يا أباتا ؟ طفت يدهنى على كل بنات القرية . فيهن
البضرة الحية ولكنها ليست بيضاء . . . وغيرها بيضاء حية ولكنها ليست
حياة . . .

— هل تعرفين فيمن فكرت يا أباتا ؟ كبرى بنات بانابوتى .

أقول لك لماذا اخترتها هي . . .

— ولكنها ليست بيضاء يا أباتا . ولك أن تعلم أنهم ينادونها
بالممرء . وأحيانا بالسوداء . . .

— هذا لا يهم يا عزيزي مارتا . فهذا عيب يمكن إصلاحه . سأعطيك
مستدوق بوفرة تدعك بها وجهها صباح مساء . وتصبح بعدها بيضاء
كالخيز .

— في هذه الحالة يا أباتا سيكون الأمر هينا .

— ولكنها . . . هل تمتدحين أنها ثقيل ذلك ؟

— هي ؟ انها فتاة شيمية يا أباتا . انها براهيماسكي الأثنى . براهيماسكي
رجل يكشف صراحة عن زواجه . أما بيلافيا فامرأة توارى زواجها . . .
لمست أذى ما الذى يحدث وقتما يجتمعهما القراش . حيثقضى المنزل من
تحتها فوق رأسى .

وضحكت العبداء المعوز وهي تسمع ألفها التساب بطرف كعيا .
وقال القسيس بجدة وصراحة :

— ليكن هذا . لا تقفري الى النتائج السيئة . بحسن بنا نحن الاثنين
أن تدبر خير السبل لتحقيق هذا . بانابوتى يعمل الآن حارسا خاصا

للأنا . ومن ثم لن يذهب أحد لذهاب بيلافيا إلى بيت الأنا تحت ستار زيارة أبيها . وتستطيع أن تدبيري الأمر يا مارتا . فانت خيرة بهذه الأعمال . وعندما تذهب إلى هناك سواها براهيمكي . ولكن لابد وأن تعطيا البودرة قبل ذهابها .

وقام وفتح خزانة صغيرة وأخرج منها صندوق البودرة . ووضعها في يد مارتا . وقال :

— حتى . قولي لها يمكنها أن تخلطها بقليل من الدقيق حتى تقتصد . هزت العجوز رأسها . وعرفت الطريق الذي يدفعها القسيس إليه . وترددت .

وتروت في أمرها . ثم ردت عليه أجرا .
— كل هذا حسن يا أيانا . ولكننا نسينا شيئا واحدا . وهو الأهم
— ماذا يا مارتا ؟

— نفترض أن بانيوني اكتشف الأمر . فانه سيقتلني أنا ثم يقتل براهيمكي وبعده قدامتكم . وخيرا سيشتعل النار في الخربة كلها
خير لك أن تفكر في ذلك .

وهرش القسيس رأسه . وقال :
— أنت على حق . قد يقتلني أنا أيضا ولكن إذا لم يكن ليه بد من هذا فماذا عسايا أن أفعل ؟ أه . عندى فكرة . سأطلب من الأنا أن يرسل بانيوني في جولة بعيدة .

— وإذا حملت منه ؟
— من ؟

من تظن يا أيانا ؟ بيلافيا طبعاً
وصاح القسيس في ضيق :
— قد يحدث هذا ! لا تتوقعين غير الشرور أينما المرأة الفقيرة . لا لن نحمل منه .

— كيف عرفت هذا ؟
ولم يدر القسيس لماذا يجب فقال :
— الله أكبر
وقالت الحدياء :

— أيه هل تظن يا أيانا أن الرب الرحيم يشغل نفسه بهذه الأعمال الفقيرة .

— إن كان الأمر كذلك فعليك أن تنهى هذه المسألة مع مانه ليفيا .
هي تعرف أعشايأ

ونمتت الحدياء يظرف فمها :
— أعوذ بالله من الشيطان ترى هل هذا القسيس المبارك يمثل الرب أم الشيطان ؟

— فيما تفكرين يا طلعنى ؟
— أنت ممثل الرب يا أيانا . هذا كل ما أود أن أقوله . فافعل ما تراه حيا .

— اتى أناخل من أجل خير المسيحية يا أم مارتا . والله أعلم بذلك . وهو ولي التوفيق وسوف يعيننا وبوقفسا تعال . لنسجمن يا طلعنى فالأمك لن تضيع حياة دول حزا

وفتحت المعوز عينيها الواسعتين وقالت في سريرتها : ه هكذا كان يجب أن تبدأ أولا أينما ليس المعوز
وشمت كلامها بقولها :

— عظيم جدا . قد يكلفني هذا حياتي . ولكننى سأبدل قضاري جهدي . ومن جانيكم أهل كى تبدلوا قدامتكم تضاري جهدكم . أنا امرأة فقيرة مسكينة وحيدة

— لا عليك يا أم . فلن نخسرى حياتك بسبب ذلك اذهبي الآن فوراً . وأمننى لك حظاً موففاً . وسوف نتحدث سويًا مرة أخرى . وأنا معك ونقى من ذلك .

والحننت المرأة المعوز على يد القسيس وقبلتها . وقالت :
— بركانك يا أيانا . أنا أقدم ما تريد . وأنت تفهم ما أريد . ساذعب مهنًا كلفنى ذلك وأزور بيلافيا . سنظير فرحاً . هذه العاهرة .

— كان الله معك . اسرعى والتنى بأشبار صارة .
وربت على كتفها ثم حديثها في جدر . وقال :

— نتقدم في فرحك يا مارتا . سأبشش الأرض بحثاً عن قتي طيب لك . ولكن علاقة طيبة برينة تنهى بالزواج . حتى تغلتن من بين أيدي الأبرار اسرعى .

وقالت المرأة بانفعال شديد :

- حاول جهدي يا أبايا ، وكن رحيما بي فاني وحيدة في هذا العالم .
- انها خير منك يا أبايا ، سيجزيك الله عنها خير الجزاء .
- ثم خرجت وهي تحلف أنفها الذي بدأ يسالب من جديد .
- ولم تكن تفلح الباب حتى تمنع القيس :
- يا لها من عجوز سقيمة . صدقت ما أقول - ما أغرب المرأة . اللهم احفظنا .

وانتظر يوما ويومين فلما مشوا الاصاب . وفي اليوم الثالث افتتح الباب ، ودخل بانايوني وعلى رأسه طربوشه الأحمر الجديد . وفزع القيس . استوى واقفا وقال :

- ماذا حدث يا بانايوني ؟
- أرسلني إليك الألفا ، يا أبايا .
- أي رسالة حملتها لتبلغني بها .

- شيء يعبرني لا أفهمه . يبلغك تحيائه . وغدا لك أصبح برايماسكي حادثا ودعا أكثر من الحمل .

الذئب تبحث عن فريستها

أقبل الشتاء فجاء . ونجم وجه الطبيعة . وانهمر المطر مدرارا . وهبت ريح تلجية من الجبال ، وشجيت أوراق الشجر ثم اقتربت الأرض وكسستها العواصف الهوج أكوما . ثم أصابها البيل وتحللت وعادت إلى الأرض التي منها بدأت . واستحمت البلور في ماء الحقول . وانفتحت وامتلأت عسارة . ونهيات لتشق الأرض وتفتق براعمها مع الربيع . وكنت السحابة في جحورها ، واعتزل النحل في خلاياه ، وتملقت الخفافيش عناقيد بالسقوف . وتراجع كل الوجود في ترقب وانتظار .

وعاد أهل ليكوفريس إلى بيوتهم مبكرين . لينعموا بالدفء أمام المدفئة . وأخرجوا من خزائن مؤلفهم قمحا وزيتا وتينيا ، من حصاد عامهم إبان الصيف . ليأكلوا منه ويشربوا بوفرة وسعفاء طوال فصل الشتاء . وجادت مصابيح الزيت بدموعها على النساء اللاتي جلسن حولها يغزلن وينقنن القمح . ويرجئن الوقت بسماع أساطير قديمة أو أقاصيص خلية . وساق ليكوفريو اغنامه إلى الحظيرة . ثم جلس إلى المدفأة . مسندا ركبته إلى ركبة لينيو . لقد غزلت لغامات عديدة من الصوف ، وهي الآن منهكة في نسج ملابس وفلائس للطفل المرتقب . كبر بطنها وتكبر ومضى ليكوفريو ينظر إليها كما ينظر الفلاح إلى أرضه الخصبة . أعاد حرتها وبذرها وينتظر الغيث .

وقالت لينيو :

- سسمية جورج ، اقتداء باسم جده الشيخ بطرياركاس .

وقال نيكولو معترضا :

- لا ، بل نسميه هارديموس اقتداء باسم أبي .

- لا ، قلت لك نسميه جورج .

- الكلمة للزوج دالسا ، سسمية هارديموس .

وتغاصا في دلال ومزاج حول هذا الموضوع ، وتسامكا وتذخرجا فوق السرير قرب النار ، وتعلقا عناقا حارا بشغف طبا فليهما ، وأصلح بينهما .

واعناد القسيس جريجوريس أن يمتطي بقلته كلما صحا الجو ، ويذهب الى المدينة لزيارة ماريوري . وفي كل مرة يعود أكثر صمنا ويأسا عن ذي قبل . أظلم وجهه ، وقسا قلبه فبات كالخجارة أو لشد قسوة . وذات مرة التقى عند عودته ببلاشيا ، تخوض يقدمها العاريتين في الوحل ، ووجنتها الملتئنان متوردتان كزهر الربيع . وصاح في ثورة على الرب :

- لماذا يا الهي تقسو علي هكذا ؟ ماريوري تذبذب وتدوى كتسمة تحترق ، وتملج بينات السؤ وجنات متوردة .

وجلس براهيمياكي هو الآخر أمام المدفأة يستدفئ بنارها . أصبح أكثر لحولا وطلاوعة ، يشعل للأغا غليونه ويملا كأسه بالعرقى ، صموتا لا يتكلم والأها يرمقه بطرف عينه ، ويتسم في خبث .

- ما رأيك في الحياة هنا يا براهيمياكي ؟ هل تريد العودة الى سميرنا ؟

- أنا راقي بالحياة في ليكوفريس . لن أخرج من هنا .

- وروستك المرأة أنها الشيطان النفس . صحتك حين قلت لك حذار من النساء . ولكنك التحت في القول - وبش ما قلت - . أريد امرأة ، أريدها فوراً انظر الى الحال التي صرت اليها الآن - أنت تستحق كل هذا .

* والشيخ لاداس الذي ملا البخل قلبه بالقسوة - يخرج مع مطلع الشمس ليتجول حافي القدمين وسط حقوله وتنتفخه رقيقة حياله فوق حمار باناكوس . يقول لها :

- ها أنت كربين يا عزيزتي يملوب أن الله عادل لا يظلم أحدا . انه مثل محب للخير ، يقرض النفوذ ، وهو عليم خبير بشئونه . لم نخسر

الجنيهاث الثلاثة كما كنت تخشع . أصبح لنا حمارنا ، ويملك الآن أن تنامي :عالم من عليانك كنت على صواب حين قلت لك ، لو قدر ل أن أعيش مائتي عام أخرى لجعلت منك ملكة .

وتجمع أهل القرية في مقهى قسطندي . يشربون السحب ، ويدخون النارجيلة ، ويلعبون الطاولة ويلعب الصغار لعبة البجامون . وعقب جو المقهى برائحة الشيخ والسحب ، واعتاد ناظر المدرسة أن يأنهم مساء كل سبت ، فيلتفون حوله ، ويقص عليهم ملاحم الأجداد . وتنتهب مشاغره رويدا رويدا ، فيهب واقفا يلوح بذراعيه ، وتعلو عقبره . ويصف أحيانا النارجيلات في جانب من الفاعة ، وعناصد لعبة البجامون في الجانب الآخر ويصيح :

- ها هنا الفرس على اليمن يتأهبون للمعركة . وها هم اليونانيون على اليسار وأنا ميليتاديس . كم فارسي هناك ؟ مليون . وكم عددا نحن اليونانيون ؟ عشرة آلاف . واحد مقابل مائة . انتبهوا ، سيبدأ الهجوم .

ويلقى ناظر المدرسة بنفسه فوق الكراس فيقذفها حتى يكاد يحطم النارجيلات . ويتدخل قسطندي أثناء المعركة لينقل حاجياته .

ويتصيب العرق من وجه ناظر المدرسة ويعلن على الملأ :

- لقد حزموا شر هزيمة ألقينا بهم الى البحر في المارتون . تحيا اليونان .

وكان أهل القرية يصيحون ويسخرون كلما بدأ المشهد . ولكن الحساس يعرفهم رويدا رويدا . فلم يكن أحدهم يرضى بالوقوف على اليمن مع الفرس . بل يسرعون جميعا ليقفوا وراء حاجي نيكولا ، أو ميليتاديس . ويصيحون بعد الغوؤ : برافو ميليتاديس ، ويطلبون السحب للبطل المظفر .



وفي ذات يوم نزل بالاكوس من الجبل الى القرية . كان اللج يتساقط ، والشوارع مغطاة . نفرس بعينه في المداخن التي يتصاعد منها الدخان ، وشم رائحة الطعام تفوح من الأواني التي الهكت ربات البيوت في اعدادها . واستطاع أن يتعرف على نوع كل طعام من رائحته - هنا بطاطس محمرة ، وهناك سميت مشسوى على الفحم ، وثمة فطير مدحون بالزبدة لا يحرمون أنفسهم أبدا هؤلاء الحنازير ، يتخون كروشمهم الى آخرها . ليأخذهم الشيطان . وسار على بعد خطوات ، وتصاعدت رائحة

الخبر الساخن تدلغ انقه • خبر • خبر • قالها وهو ينتهد •
ولعابه يسيل على شفثيه •

حت الخطى • حتى بلغ بيت الشيخ لادس • ودار حوله دورة واحدة •
ثم اتبعها باخرى • يستطلع الجدران • والنوافذ وموقع الحديقة خلف
البيت • ونتم • • الجدار هنا منخفض • حسن • • وتوقف مكانه
فيحاذ • وحق قلبه خفقات قوية حتى كاد يتصدع • هاهو ذا حبيب يوسوفاكى
ينهب في الحديقة • يبدو آله شم رائحة سيده •

مال ياناكوس بأذنه الى الحائط ينسج النقيق في شوق وقلق •
لم يسمع في حياته صوتا أعجب من هذا • ولم ينهب يوسوفاكى أبدا نهيقا
حنونا رفيقا كهده به اليوم • وتذكر أيام الصبا • كيف كان يقف تحت
نادنة محبوبته ينفثها أغاني العشق والهيام • وهي زوجته الراحلة • ولكن
ما يسمعه الآن جد مختلف • آله يسمع صوتا حنونا يثير الشجون والآسى •
وقاضت عيناه بالدمع وحس • لا تجزع يا يوسوفاكى • لا تجزع
يا حبيبى • ساعضك معا أنت فيه • •

وعاد ياناكوس الى الجبل تحت جتح الظلام • مقرورا جائعا • وجال
بين الكهوف حيث تجتمعت النساء وقد ضمن أطفالهن الى صدورهن ليدفئنهم
• • • وقال لهن كلمة مواساة أثناء مروره بهن • • تشجعوا يا أخواتى •
عضوا على اللواجم • محنة وتزول • • وجههم الرجال دون أن يرفعوا
عيونهم اليه • وهزت النساء رؤوسهن وتهدن •

• تقن يالله • يا سيدائى •

• حتى متى • يا ياناكوس ؟

لم يدر ياناكوس ماذا يجيب • فتركون وواصل المسير •

• ماذا يفعلون هناك في ليكوفريس ؟ ألم تكن هناك • يا ياناكوس ؟

• يتصاعد الدخان من مداخهم • ويملاون بطونهم • عليهم اللعنة •
جميعا كرمنا • ويشربون نبيذنا • وحصدوا زيتونا ويملاون بطونهم
بزيتنا • ولكن آله يصير بهم • غير غافل عما يفعلون •

• ومتى يحول عيشه لحظة ليصدرنا نحن أيضا • يا ياناكوس ؟

مرة أخرى واصل ياناكوس سيره • وانصرف عنهم دون أن يجيب •
وجلس ثلاثة رجال داخل كهف ينثرون في الظلام وقد تكاثروا على
بعضهم الناسا لندق • • توهمهم لوكاس • هذا المارد الضخم حامل العلم •
وقال أحدهم :

• هل رأيت الأطفال ؟ بدأت أجسادهم تنتفخ من أثر الجوع • ان
علم لم تعد ساقاه تتويان على حمله •

وقال الثانى :

• أملنا في الله وحده حتى الآن • ولكن • • •

وقال لوكاس :

• ان الله يعين كل من يعين نفسه • اذا تبعت في مكانك متواكلا ولم
تتحرك فلن يتحرك الرب كذلك • حانت الساعة التي تضع فيها أملنا بين
أيدينا ونسعى • ليس علينا إلا أن نترلي الى القرية ونسلب منها كل
ما نصل اليه أيدينا • • من هناك ؟ ادخل •

• أنا ياناكوس يا رفاق •

• اك تحياتنا يا أخانا • تعال ودس نفسك بيننا لتستدفي • •

وأجاب ياناكوس :

• اننى أعفى • بل أحترق • لا أسمى بالبرد • عسدت لتوى من
ليكوفريس •

• متى سننجز ما اتفقنا عليه ؟

• ربما يكون ذلك الليلة • هل توافقون • يا رفاق ؟

وصاح الثلاثة في صوت واحد :

• نحن على استعداد • انسرب والحديد ساخن •

• وهو كذلك • موعدنا الليلة • وهو وقت مناسب • فالظلام دامس •
والخطر تلج ظام • والأغنياء سيقيمون في بيوتهم يدسون أنفسهم تحت
أظفتهم • وحيث أنهم متخفون فانهم سيفرقون في مسبات عميق • لن
يسادفنا أى إنسان في طريقنا • • •

وعادوا موافقهم :

• نحن على استعداد • سنتطرك هنا • حتى نر بنا لتأخذنا معك •

• حسن أعدوا الزجاجات والزكائب • وأنت يا لوكاس • هات
الصباح المغم •

• كل شيء جاهز هنا يا ياناكوس • أسرع •

خرج ياناكوس قاصدا كهف مانولى • وبينما كان سائرا في طريقه
أعصر ميشيل مسكا بشئ بين ذراعيه • يتأمله بعينية على ضوء خشبة
حسنة مشتعلة •

اتجه اليه ياناكوس سيرا على أطراف أصابعه • لقد تغير ميشيل

خلال الأيام القليلة الماضية . أصبح صموئلا لا يتكلم ، غارفا في تأملات عميقة ، يهيج على وجهه ودمه . ينتقل من كهف إلى كهف . ينظر إلى الناس بعينية دون أن يتحدث إليهم بكلمة واحدة .

مال ياناكوس على كتف ميشيل فرأه ممسكا بطفل صغير لم يتجاوز عامه الثالث . جلد على عظم ، وبطن منورم ، وأطراف نحيلة كالبيوس ، ونبتت في ذقنه شعيرات طويلة .

وقال ياناكوس بصوت خفيض . حتى لا يزعج صاحبه :

— ميشيل ... لا تنظر إليه .

واستلمار ميشيل وأتممت :

— انظر يا ياناكوس . أبنت له لحية ... لم يتجاوز عامه الثالث وليست له لحية من أثر الجوع . وجدته ملقى على قارعة الطريق .

وكرر له ياناكوس ما قاله قبلا :

— لا تنظر إليه .

وقال ميشيل من جديد :

— وجدته ملقى على قارعة الطريق . لم أعد أقوى على احتمال ذلك .

لم أعد أطيق يا ياناكوس . هل تستطيع أنت ؟

أمسك ياناكوس بذراعه وقال له :

— تعال معي .

— انتظر ... ألا ترى أنه يلفظ أنفاسه . حاول الطفل أن يصيح ولكنه لم يفلح على ذلك . ظل يفتح فمه ويقلعه كسمكة التي بها البحر فوق الشاطئ ... وحرك يده الصغيرتين . ولجأة تصلب جسمه بين ذراعي ميشيل .

وقال ياناكوس :

— تعال ، أتركه هنا ، وغدا تحفر له قبرا

— لا أحتمل أكثر من هذا يا ياناكوس ... هل تحتمل أنت ؟

لم يجب ياناكوس ، وإنما أمسك بذراع ميشيل بقوة ، وحذبه معه .

وجدنا مانولي جالسا في زاوية من الكهف مطرقا .

وسأله ياناكوس :

— ما عندك من أخبار يا مانولي ؟

— كل ما هو سيء ، يا ياناكوس . رفاقنا الذين يتجولون بين القرى عادوا إلينا بقدر ضئيل من الخبز لا يكفي أبدا . أرسلنا بعض رجالنا إلى

ليكوغريس وزدعم الأب لاداس . قال لهم : المسبوت خير لكم . أما القسيس جريغوريوس فقد قال : « سلوا قسيسكم جوتيس أن ياتيكم معجزة » وأرسل إليها ديمتري الجزاء بعض اللحم ، وأفرغ قنصلتي كل ما في مخزنه للتواضع من طعام . وكل هذا لا يكفي لمعطي كل طفل قطعة واحدة من العلم .

— أين القسيس جوتيس ؟

— ها هو ذا قد أتى .

دخل القسيس جوتيس وجلس دون أن ينسى بكلمة واحدة . عاد لثوبه بعد أن دفن أخوين صغيرين مانا جوتا في وقت واحد . وقد تشبث كل منهما بذراع أخيه . أحضرهما أبوهما في دلو . وكنتهما ببعض المسب . إذ لم يجد خرقة يكفهما بها . أعرجهما القسيس في حرس شديد خشية أن يفرق بينهما . وعدتهما على الأرض . ثم تلا عليهما صلاة الموتى . وعلى بعد خطوات منه كان أبوهما يحفر لهما قبرا صغيرا .

وان صمت عميق . وكان القسيس أول المتكلمين .

— ويل لي . يزن الرب بميزان القلب . فانه هالك لا معالة . فإن هذا يقضي به إلى الزرع . ويكفر بالرب وينكره ...

وصمت ثانية . فرقا من الكلمات التي يوشك أن ينطق بها لسانه .

ولكنه لم يستطع أن يتراجع .

وهب واقفا وهو يصيح :

— أي اله هذا الذي يترك الأطفال فريسة للموت ؟

وقال ياناكوس :

— يا أبانا ، أنا لا أزن الرب . وإنما أزن البشر . ووزنت أهل

ليكوغريس ، وحكمت عليهم قاداتهم . سنأزول إليهم الليلة لأسلمهم ما يتمتعونه هنا .

وتفكر القسيس لحظة . وطافت بمخيلته صورة الجنين الصغيرتين

المتنازعتين . وتعلمت :

— أبواتكم ، أذهبوا . واتى أحمل هذه الخطيئة على كامل .

وقال ياناكوس مستجدا :

— بل أحملها أنا يا أبانا ، لا أتخطئ عنها لك .

ونفض ثم قال :

— الرجال في انتظارى . سأطلق إليهم .

— بارككم الرب . أن يمضي وقت طويل حتى ننزل جميعنا وفي وضع

السلام .

وخرج ميشيل من سمنه لأول مرة وقال :

- اني ذاهب معكم .

- تعال يا ميشيل حتى يذهب عنك الوهن .

وامسك بيده ، وبحسبا طريقتهما في غمة الليل الحالك السواد .
وعاد المرح الى نفس ياناكوس .

- بداية طيبة يا ميشيل . سنزبل بها ما عشنا من سفا . رضىنا
بالفعود عسى ان تملط السماء علينا من طيبات الطعام ما ناكله . ولكن
السماء لا تملط طعاما ، وانما تسعى نحن اليه ونأخذ انزاعا . يجب
الا نركن الى الله في كل شي . انه خير حل . ولكن له مشاغله أيضا .
لا بد ان نتحرك نحن قليلا ، كن عوناً لنفسك تعينك السماء . « ايها
الذهب ماذا نراك غليظ العنق ؟ لائن اجد بحثا عن قريستى » .
حسن ، ونحن كذلك علينا ان نجد بحثا عن قريستنا ، الليلة .. هيا
ايها الزملاء ، لنبدأ » .

لحقه رفاقه الذين جلسوا في انتظاره داخل الكهف حول نار خافية .
فقفزوا من قورهم .

وقال ياناكوس :

- الى الامام باسم المسيح . باركننا قريبا أيضا . هيا بنا .
لا تنتعلوا احذيتكم الثقيلة وانما سفوها طابوها لتأني وراعتنا .
وانفجروا شاحكين . فمن اين لهم تلك الاحذية ؟ ان اقدامهم
ملفوفة بحرق .

- هل انيت معك بالمصباح الممن يا لوكاس ؟

- « لا عليك ، ها هو ذا » .

نظر اليه ياناكوس مبتسما ، وقال :

- هدية الكاينن الثمن فوروناس . اظنه الآن ينطلع اليه من منواه
في جهنم ويغرق في الضحك .
سار ياناكوس ولوكاس في المقدمة وتبعهما دقيقامعا . وانطلق
ميشيل وحده شاردا الفكر .

قال لهم : « ادوا مهمتكم يا رفاق ولا تشغلوا بانكم يشائى » فأتى
ذاهب لأطوف بالقرية » .

كان الليل أسعم ، والظلم غزيرا ، والماء ينساب على الأرض جدولا .
تتجمع وتساقط كالشلالات من فوق الصخور العالية . وبين حين

واخر يقرع سمعهم صوت طائر من طيور الليل كامن بين شقوق الجبل
يسرخ صرخات اليمة شاكية : يشكو الوحدة وينادي الرفيق . وفجأة
دوى على البعد ، عواء طويل ، هنالك فوق قمة جبسل النبي ايليا .
وتوقف الرجال الاربعة .

وقال ياناكوس :

- ذلبي يتضور جوعا هو الآخر .

وقال لوكاس :

- ربما كان النبي ايليا يعاني الجوع أيضا .

وقال ياناكوس :

- لعل القديس الذهب يكون في عوننا . هيا يا رفاق ، الحملان في
انتظارنا .

وواصلوا مسيرتهم . وتأبط لوكاس ذراع ياناكوس .

- « هل استقر رأيك على المكان الذى توجه اليه شريتنا الاولى ؟ » .

- « طبعاً ، اكثرهم تراء . واقدريهم ، واشدهم بغلا .. الشيخ
لاداس . سيملا ركاننيا وزجاجاتنا عن آخرها . سيجد فقره ساراكييا
شيئا يتلعمونه فيكونون من العواء » .

لم اردف فأتلا بعد لحظة صمت :

- وفي ليلة أخرى سنزل الى القرية ونسرق بعض البترول أيضا .
- خير وبترول . حقا . أنت على صواب يا ياناكوس . الانسان
يحتاج الى كليهما ليحيا ويثار . اذ لا يكفيه ان يحيا لجرد الحياة
وحدها » .

توقف ياناكوس عند طرف القرية ، والتفت الى رفاقه وقال لهم :

- سامعوني في المقدمة ، فانا اعرف الأرض جيدا . واتبعوني ، الواحد
وراء الآخر في طابور منفرد . سأسبق أولا .

شقوا طريقهم بين دروب القرية . كانت مقفرة تصليا ، فقد
انصف الليل ، وغرقت القرية في صبات عميق .

وقال ياناكوس لنفسه عندما بلغوا بيت الشيخ لاداس :

- شريطة ألا يشم رائحتى حبيبي يوسفاكى فيشرع في النهيق ..

أسأل الله ان يكون غارقا في نومه .

استند ظهره الى الحائط على امتداد قامته ، وانتظر رفاقه ، وأبوا
الواحد بعد الآخر .

وقال ياناكوس بصوت هامس :

- هيا بنا لنسل من وراء الحديقة - فالجدار هناك منخفض عن هنا - هات المصباح ياناكوس .. اتبعوني - خذوا حذرکم .

وسأل أحدهم :

- هل عنده كلب ؟

واجاب ياناكوس :

- كيف يربى كلبا هذا الشيخ البخيل - الكلب يأكل ويتكلف طعاما .

ثم تحدث إلى لوكاس :

- واثبت يا حامل المصباح ، ستبقى في الخارج لتكون سلما لنا ، نسلق فوق كتفك لنسعد فوق الحائط ثم نقفز إلى الداخل - وإذا أحسبت بخطر فائق كالبوحة .. مستعدين يا رفاق !

- مستعدون .

وأستد الشيطان العلقاق ظهره إلى الحائط ، وأمسك بياناكوس ورفعته فوق كتفيه وقال :

- هيا باسم قديسنا الذئب ، اقفز .

وتخطى ياناكوس الحائط ، وقفز إلى داخل الحديقة ، وانظر رفاقه ، الذين قفزوا في الزه وأخذوا بعد واحد ، حاملين فوق ظهورهم الزكائب والزجاجات .

- اتبعوني ، فانا اعرف الطريق .. اتبعوها .

واحتاروا الحديقة ، وألقوا الباب الخلفى مفتوحا ، وأنسلوا داخل البيت . وسمعوا غطيط نوح صاحب البيت يتساعد في الدور العلوى . وقال ياناكوس :

- انه نائم ، نحن سعداء الحظ .

أشعل المصباح ، واهتدوا إلى باب الكرار . ودفعوه ودخلوا . وفاحت رائحة الزيت واللبيد والتيج الحلف والسفرجل . وامتد ضوء المصباح إلى كل أرجاء المخزن فكشف عن صفوف متراصة من الجرار الشحمة الملأى وبراميل البيلد .

وهمس ياناكوس :

- أسرعوا يا رفاق ، خذوا ما تشاءون بسرعة ، هيا املاوا .

وفتح أحدهم صندوق البرميل ، وألصق البيلد أيضا لزجاجته . وملا آخر زكيبته قمحا . ورفع ياناكوس صفيحة زيت وملا لزجاجته معه ، ثم حشا زكيبه أخرى قمحا .

ونلفت حوالية فليح سلما مسندا إلى الحائط - فقال : الحمد لله ، يوجد هنا سلما أيضا ، ولولاه لما عرفنا كيف نرفع كل هذه الأحمال فوق الحائط ! آله اللصوص يساندنا . هيا يا رفاق ، لنصرف .

وساروا للصوص يحملون قنيمتهم على كواهلهم ، واحتاروا الحديقة عالدين . واستندوا السلم إلى الحائط ، وسعدوا الواحد إثر الآخر ، ومعهم أحمالهم الثقيلة ، وقنيمتهم الثمينة ، وفتح لوكاس ذراعيه لينتقى الزكائب والزجاجات ، ووضعها على الأرض . وأخذوا من كتفى العملاق الغريزيين متكا ليعفروا من قوفهم إلى الأرض . كان ياناكوس آخرهم ، وجلس فوق الحائط وقد ياعسد بين مسافيه . لم يتأوهه قلبه على النزول .

- انتظرونى يا رفاق دقيقة واحدة حتى أرى حمارى ثم أعود اليكم .

واحتج لوكاس :

- دغ الحمار في حاله ياناكوس وتعال انزل ، لا أحد يعرف ما قد يحدث ..

وتعثر ياناكوس :

- لا أحتمل ذلك ، لا أحتمل ، دقيقة واحدة يا رفاق وأعود اليكم . ونزل إلى الحديقة ثانية .

ونجمهم رفاقه دون أن ينسوا بكلمة - وارهقوا السبح وكلمهم عيون نقطة غشبية إن يمر بهم أحد في الطريق ، أو يفتح باب .

وقال لوكاس لرفيقه :

- استبقانا أنسا الإلادين - فخير لنا أن نغرق ، وبأنظر أنا .

وساعدهما على حمل الزكيبتين فوق كتفهما وأنطلقا .

وبقى لوكاس وحده . وجثا متربعا على الأرض تحت وأبل المطر ينتظر عذيقه في قلق . ولجأة دوى نهيق مريح مرحب ، كانه نفس يوم الحشر . ولتمت لوكاس :

- ليأخذ الشيطان هذا الحمار ، سيوفك كل الجيران .

واضع سيالك داخل البيت ، وسمع صوت ينادي ، هو صوت
الاب لاداس :

— يا أم ييلوب ، هل انت نائمة لا ايه يا أم ييلوب ، لماذا ينهي
الحمار ؟

ولكن لم يجب عليه احد . وتوقف النهيق ، وسبك السكون ثانية
لا يقطع غير صوت المطر يفرغ ارض الغدا . ورفع لوكاس رأسه
ورأى شيئا يحيط فوق الحائط .

وشب واقفا ، وامسك بقدمي ياناكوس .
— عيا بنا يا لوكاس ، ليعبد من هنا ، اظن ان الشيخ قد استيقظ
من نومه .

وحملوا الزحاجات على كاهليهما ، وانطلقا بالتمس سرعتهما .
وبعد ان خرجا من القرية قال له لوكاس :
— اشبعنا رغبتك ، ورايت حمارك ،
وتنهذ ياناكوس وهو يقول :

— نعم ، آه لو كان في استطاعتي ان اصعد به فوق السلم ، اقسم
بشرقي كنت اخذته معي .
وبعد قليل سأل في جزع :

— واين ميشيل ؟
— لا يد انه قد فرغ من جولته بين دروب القرية وعسائر اوزاجه ،
هيا بنا تسرع خطواتنا .
ولزمنا الصمت .



ففي القسيس فونيس ومانولي ليلهما ساهرين في انتظار عودة
الرجال . وتنفس الصباح ، ولح ضوء خافت في السماء ناحية الشرق .
وتوقف المطر ، ولكن لازالت السحابة تنذر وتوعد . وفجأة سمعا صفيرا
واصواتا مرحة .

وهرع مانولي ناحية الصوت . وقال :

— ها هم .
وظهر القراصنة الاربعة متقلبن باحمالهم . اشعلوا المصباح لينير
لهم الطريق ، ويدت وجوههم على ضوء القناديل وضياء منالقة .
ياناكوس في المقدمة وعلى ظهره محجمة النبيذ .

— اليكم تحيات الشيخ لا داس . هذا الشيخ البار المحسن

يبحث اليكم بهذا النبيذ لتشربونه في صحته . يقول ليس هذا بالشه
الكثير حقا ولكن قلبي معه .

وقال لوكاس وهو يشبع المحجمة الثانية عند قدمي القسيس :
— وهذا زيت لتشحيم اعمالنا ، ويقول ان كنتم بحاجة الى مزيد
الجرار ملاي .

وقال الاخران وهما يحطان من كاهلهما زكيتيهما المملوءتين :
— وما هو القمح حتى يجد الاطفال الصغار البؤساء غسزا
يطعمونه لانه حزين عليهم .

وضحك القسيس فونيس وقال :

— تشكروا على ذلك . لعل الله يجزيه عن ذلك بالبري . ساكتب
اليه من فوري رسالة ابليغه فيها ان اربعة من الملائكة دخلوا منزله ليلا
واخذوا هذه الهدايا الثمينة وحملوها اليها في ساراكتنا على اجنتهم .
وحتى يتم كل شيء على الوجه الاكمل ، سافرق بالمطاب كنبيلة مقبولة
الدفع في الحياة الآخرة .

وقال ياناكوس ضاحكا :

— واكتب يا ابانا ايضا ان احد الملائكة اراد ان يشتم الجرار
والبراميل ، ويريق الزيت والشيذ على الأرض . ولكنك استغق في آخر
لحظة ، لا عليه ، وانما على النبيذ والزيت .

وقال القسيس فونيس :

— يا مانولي ، اننا نكوب لتقدم الشراب للملائكة . ادخلوا
واغفوا اجنتكم الميثلة باسادة .
ودخلوا الكهف ، وشرب كل منهم كوبا ببلوره ، وساد المرح .
ثم قال القسيس :

— في صحة الشيخ لاداس هذا الانسان البار .
وقال مانولي :

— في صحة قدينا الدثب ، اد عندما بدانا سيرتنا هوى الدثب
غوق قمة ساراكتنا ، ومدنا عواذ بالشجامة .
وقال ياناكوس في قلق :

— وماذا عن ميشيل . لم نره .

وأجاب مانوي :

- غاد ، غارفا من الوحل ولم ينس بكلمة . وهو قائم الآن .



نزل الشيخ لاداس إلى الحديقة في الصباح ، وانزعج عندما رأى السلم مسنداً إلى الحائط . ودار على عقبه ، ونادى على زوجته التي كانت تجلس بجوار النافذة تطل على الدنيا بعينين يليلتين .

- يا أم بيلوب ، من الذي أسند السلم إلى الجدار ؟ هل أنت ؟ ولكن الأم بيلوب أمسكت بالجورب وشرعت تقول : - ولم تعباً حتى بالنظر إليه .

حمل الشيخ السلم على ظهره ، وأعادته إلى الكرار . وجل بعينيه ورأى كل شيء في مكانه : الجرار والبراميل والتين المجفف والسفرجل . وتسم :

- الحمد لله ، لحسن الحظ لم يدخل لسوس البيت . هذه المرة التمس لم أعد تدري ما تفعله . لا بد أن ألتج عيني أنا . سيأتي يوم تشعل النار في البيت .

ودخل الحظيرة ، كان الحمار في مكانه أيضاً .

وقال له في غضب وهو يرفسه :

- ماذا دهالك الليلة ، أيقظتني من النوم بهيقك ؟

ولكن الحمار لم يعبأ به . كانت عيناه الواسعتان هائلتين تحملتان في لاشيء . خيل إليه أنه رأى في منامه صاحبه الحقيقي ، أماء يزوره ليلاً ، ورث في رقة وحزن على رقبته وظهوره وبطنه مثلما كان يفعل دائماً . ورفع ذيله في سعادة ، وأطلق لمقرته العنان ينق في بهجة . وأمسك سيده بخطمه بين راحتيه ليكنه . وقبل أذنيه ورقبته ، ثم أخفى من ناظره من النافذة المستديرة الصغيرة .

وأطرق الحمار براسة ، وأغمض عينيه وصلى لربه . . وهو اله له ذيل شحم ، كث الشعر ، ورأس حمار كبير أبيض ناصع البياض ، وسرج من الخيل الموشى بالذهب ، ولجام أحمر مطرز بحبات من القصة والترتر ، تلمع كأنها النجوم الساطعة .

وصل الحمار :

- يا الهي ، أسألك أن تحقق لي حلمي الذي تراءى لي بالراحة .



في الصباح الباكر ذاع لباً المعجزة في كل أنحاء ساراكنيا : نزل انتاء الليل أربعة ملائكة يحملون قمعا وزيئا وثيبيدا للجورج . وسدق السدج منهم النبا ، ورسوا علامة الصليب . أما الثيبيدا منهم منظروا بطرقة أميهم إلى ياناكوس ولوكاس وإبسموا . وانكتبت النساء على الفصح بتقينه ، ومن بتفنن بصوت حنون كأنهن يهددن ظملا لينسام . أو يداعبن يسوع الطفل . وإذا سفلت حبة قمح على الأرض ، الحين فرفها في لهفة ليكنظها ، ليست جزءا نفيسا من جسد الرب . ويجب ألا تلوثها الأرض ؟ وفي لمح البصر ملحن بعض القمح فوق حجر . وسمن منه عجينا ، وقطعته خبزا ، والضحنة على الجمر . بعد أن أضفى إليه شيئا من الزيت ليكنبه طعما لذيذا . ثم ورعن منه قطعة ملء الفم على كل الحاضرين كأنه قربان مقدس . وسرعان ما أحسوا بالراحة لسرى في لحمهم وعظائهم ، كان الخبر هو جسد المسيح حقا .

ثم شرب كل منهم جرعة نبيذ ، ولم تستطع النساء أن يحسبن صراخهن . وتنهذن :

- يا الهي قصة خبز واحدة ملء الفم ، ورشفة نبيذ . هذا كل ما نحتاج إليه الروح لتشعر أن لها أجنحة لتطير بها .

وبعد الفطيرة حمل رجلان القمح على كاهليهما إلى الطائونة . وصارت النسوة معهما بعض الطيرين يحرسن الحمل الثمين كأنهن يتوجسن خيفة ألا يعود إليهن ثانية .

وصاحت النسوة بالحمايلن :

- متى ستعودان إلينا بحملكما ؟

وأجابا ضاحكين :

فدا صباحا ، فلا نجزعن .

وعمل ياناكوس خازنا لطعام شعب ساراكنيا . فهو الذي يحتفظ بالقرن ويوزعها على النساء كل صباح ، يعطى كلا منهن ما تحتاج إليه لوجبات النهار .

كان يقول أحيانا :

- اقتصدوا يا أسدقاء ، وشدوا أحزمتكم حتى بعضي النساء ، فللملائكة مشغولون بأعمال أخرى ولا يمكنهم أن يحملوا إلينا ما نحتاج إليه كل يوم .

كان قليل من الحيز وقليل من الزيت كافيين ليعيدا الخباسة إلى الشعلة التي كادت أن تخبوا . وبدا الأطفال يستعيدون صحتهم .

ويغش ورمهم . ويتورد وجناهم . وانتلات كداء النساء لبناء . ولم يعد الأطفال الرضع يشكون من الجوع ويصرخون طوال الليل . وعادت الهجعة إلى الرجال . واشتدت سواعدهم . فشرعوا ينقلون الحجارة ليتنموا بناء الكواخيم . وبين الحين والحين تسمع ضحكة أو دغابة . وإذا ابتعدت قليلا من الكهوف فقد تقع عينك على اثنين استعاضا شيئا من القوة بغيرهما على التبريل والحقاق .

وقال القسيس فونسي يومئذ لما تولى :

— كل هذا الفصح والزيت والتبيل لا يد أن يصيبح دما . ولا يد أن نستجمع قوتنا لغزوهم لشعبنا . لن نرضى بحال من الأحوال أن نعيش جوعى ونسرق . لا بد أن نزل إلى القرية ونستولى على أراضيها إن طواعية أو كرها . نهي وحدها قوتنا على الحياة فوق هذا الجبل الفاسل .

وقال مانولى :

— جان موعد تقليم الكرم . وتشدب شجر الزيتون . وتسميد الأرض . نرى هل تركها هكذا مهملة ؟ معنى هذا شراخ عام بأكمله . ماذا ننتظر يا أبانا ؟

— انظر الإشارة يا مانولى . انتظر الصيوت الذى ينبعث من باطنى ويعطينى الأمر . أنت تعرف أنهى لم اتخذ قرارا خطيرا قبل سماعى لهذا الصوت . والقرار الذى تعطينى يا مانولى قرار جد خطير . سنفك فيه دماء .

— أعرف ذلك يا أبانا . ولكن فى عالم كمثلنا هذا . عالم لا يعرف معنى الشرف والعمل . هل يمكن أن يتم شئ بدون سفك دماء ؟ كنت أقول لنفسى : « سبرى أهل ليكوريسى الحال التى صار إليها أطفالنا » صيرون بطونهم المتودعة . وجناهم الفائرة . وسيطانهم النجيلة القسامرة فتأخذهم بهم الرعدة . ولهذا السبب أرسلت أول أمس بعض الأطفال إلى القرية . هل تعرف كيف استقبلوهم هناك ؟ أمسك بعض الناس بهراولهم وطاردوهم بعيدا عن أبوابهم . والبعض الآخر ألقى إليهم بكسرة خبز جافة . كأنهم يلقون بها إلى الكلاب . . . واحد فقط هو الذى أشفق عليهم . هل تعرف من يا أبانا ؟ ألقا . رآهم من شرفته . يتشنون الأرض بحثا عن بعض الحبوب أو قشر بطاطس أو قشر ليمون . وصاح : « ما هذه ؟ قرودة صغيرة ؟ أم أقزاما ؟ ونزل من شرفته وفتح لهم باب داره وأدخلهم . ونادى على مارتا : « أعدى لهم المساندة يا مارتا . قدمى

لهم بعض الطعام ليأكلوه . لهم قرودة صغيرة . أعطهم شيئا يتنعمونه . حتى يصبحوا بشرًا . . . »

وصاح القسيس وقد لعت عيناه من غلاق دموعه :

— لم أكن أعرف هذا . لم تقصه على يا مانولى .

— أخفيتك منك يا أبانا . أشعانا عليك . قلبك ملئ بالسم الذى نجرعته على يد البشر . ولا زالوا يقدمون منه المزيد . فما جدوى أن أخفيك المزيد إلى هذا السم ؟

— كان حريا بك أن تتبشى بدالك يا مانولى . قلبى انقلته الشجون . لو لم يغش قلب المرأة بغافلته الحب أو الغضب لماتت الدنيا وأجديت ولما أقدم الإنسان على شئ .

وصمت . وأحس ياغايا مفاجئ . فجلس فوق حخرة ومال برأسه على صدره . كأنه ينصت لشئ بداخله . وجلس مانولى قبائسه . يشخص بصره إلى السهل . أتلفت النساء . واسودت الأرض التى ألجمها الماء حتى طغى على السطح . وهبت ريح رخاء . وراقصت أوراق شجر الزيتون . تعرض جينا لونها الفقى . وحيث آخر لونها الأخضر الداكن . وقامت بسائين الكرم في الماء فبدت سوداء . وهم سمر مند قمة القديس إيليا بالطيران . وبسط جناحه فوق السهل . ونهض القسيس فونسي وقال :

— قلبى انقلته الشجون . انى متصرف .

ولم ينسى مانولى بنت شفة . إذ أدرك أن القسيس متورق . مشدود الأعصاب وحديث نفسه : « من الخير ألا أتكل معك » .

تسلق القسيس فونسي الصخور . متخذا طريقة إلى قمة الجبل . كان القديس إيليا يتألق فوق قمة الجبل . أبيض ناصع البياض .

واصل القسيس صعوده . مشدود القامة كأنه جد الجسم . يتوارى أحيانا وراء الصخور ليظهر ثانية وقد صار بعيدا . خلج غطاء رأسه . وداهبت الريح شريرة .

ولم يعض وقت طويل حتى رأى مانولى ظله أمام الكنيسة الصغيرة . مرسوما فوق الجدار الأبيض في حجم الصقر . ومرعان ما الفتح الباب ودخل القسيس وغاب عن الأنظار .

وعاد مانولى على الفور إلى كهفه . وأمسك بكثلة من خشب البلوط . وبدأ ينحت الوجه الجديد للصيخ .

الوجه القاس للمسيح

بدأ الليل برخى سدوله ولم يعد القيس بعد . وهبت ريح
صرصر عاتية ، وتلذدت السماء بقيوم مندرة . وارتفع عواء اللئب من
جديد . بعيدا يمزق سكون الليل .

وقال ميشيل

— عيا بنا لنرى ماذا حدث له . فربما أصابه شيء . .

كانت هذه هي أول كلمات ينطق بها عند أيام طويلة . فكلمتا مروت
الأيام غاص أكثر وأكثر مع لملانه السوداء ، حينما يصعد الزفرات ،
وحينما يتخفى بفسره ناحية الكنيسة الصغيرة فوق الجبل — لم يتسهم
في هدوء وسكينة . واحتفظ بشغري ماربوري ، ورفلهما إلى صدره
لصق جلده مباشرة ، وبين أن وآخر تراه يرتجف ، ويتحسس فميصه
في جرع ويمسك بهما خوفا طويها من الضياع . وإذا جن الليل واقفى
تند عنه سرخة يهب بعدها واقفا ، لم يعز عليه النوم بعد ذلك .

والتفت إلى ماتولي الذي جلس في هدوء داخل الكهف ، وقال :

— عيا بنا لنرى ماذا حدث له . فربما أصابه شيء . .

كان ذلك في منتصف الليل تقريبا .

وأجاب ماتولي :



- لا ، لم يصبه شيء . أعرف هذا من هيئته حين قام من هنا
وشق طريقه الى الكنيسة حتى ظلت اللحظة أنه إنسان خالد .

ولم يطمئن ميشيل لكلام صديقه وتمتم :

- مضى وقت طويل .. وقت طويل .. ترى ماذا يفعل هناك ؟

- « انهما يتشاوران معا يا ميشيل . يتحدثان على انفراد ،
ويعدان الخطة سويا - هو والقديس إيليا .. لا يمكن لأحد أن يدخل
بينهما . انهما يحسمان الأمر » .

- « ولكن أين يأكل شيئا الليلة ؟ إلى أين ؟ البرد شديد الليلة
حتى تجمدت الدنيا » .

- « ليست به حاجة الى أكل أو نوم ، كما أنه لا يشعر بالبرد .
أؤكد لك أنه لا يحتاج الى شيء من هذا وهو في الحالة التي هو عليها
الآن . فهو أشبه بالليت أو الإنسان الخالد ، لست أدري ماذا أقول على
وجه الدقة .. أنه ليس بحاجة الى شيء » .

ظهر ياناكوس في هذه اللحظة يتأفف ويسب ويلعن .

وسأله مانولى :

- مالي أراك منحرف المزاج . يا ياناكوس ، ترى ماذا دهالك ؟ كيف
حالت العمل يا أمين مخازن سيراكينا ؟

وأجاب ياناكوس قائلا :

- يقول المثل كيف حال صغارك يا سيد غراب ؟ انهم يرددون
سوادا يوما بعد يوم .

ثم أردف قائلا :

- بدأنا نجهز على البقية الباقية من الأغذية ، وقاربنا النهاية ،
هذه هي حالتنا . بعد قليل سنترى القاع .. ما العمل ؟ هل أجمع
الصحاب مرة أخرى وننقش على السهل ؟ هذه المرة سيكون دور
القسيس جريجوريس ؟

وقال مانولى :

- تمهل ، أنه دور ليكوقريس كلها .

واهتزت جوانب ياناكوس طربا ، وصفق بيديه .

وصاح :

- هل دقت الساعة ؟ هل قال القسيس ذلك ؟

- لم يقل شيئا بعد ، ولكنني أحسب أن الساعة قريبة .. قال
أن قلبه انقلبه الشجون .

ثم بدأ مانولى يقص عليه حديثه مع القسيس .

وتتمت ياناكوس ، وقد رجع عن رأيه فجأة :

- آه لو انتظر قليلا هذه المرة .. يمهلى حتى استعد ، فإني
لست مستعدا الآن .

والنفث اليه الصديقان يحاولان أن يثبينا وجهه في الظلام .

وسأله مانولى :

- هل ينقصك شيء يا ياناكوس ؟

- « إن شئت الحقيقة ف نعم » .

- « أى شيء ؟ »

- « البترول . أقسمت أن أحرق بيت الشيخ لاداس ، وأشهدت

الله على قسمي هذا » .

وقال ميشيل الذى استجمع شتات فكره ليتكلم :

- أنت فاس ..

ورد عليه ياناكوس :

- بل عادل ، لو تنزل المسيح اليوم . الى ارض كهذه الأرض التي
نمشي فوقها ، فماذا نفل أن مسجمل فوق كتفه ؟ صليبا ؟ لا ، بل

صليحة بترول .

وبم مانولى ، وأسند ظهره الى جدار الكهف وهو ينصت اليه .

وسأل ياناكوس :

- ما رأيك في هذا يا مانولى ؟ اراك صامتا لا تقول شيئا .

وتتمت مانولى بصوت متهدج :

- وكيف عرفت ذلك ، يا ياناكوس ؟

- لست أدري ، فإنا لم نعلمه ، ولم ينشئ به أحد ، ولكنني

والتي عنه .

ثم استورد قائلا بعد فترة صمت :

- بعد أيام قليلة سيهيم أطفالنا على وجوههم ، وينيشون أكوام القمامة بحثا عن قشرة بطاطس ، أو بعض القاذورات ليطلعوها ، بينما الضائير السمينه تنظر اليهم ونسحق . وهكذا يرى أطفالنا المسيح في أحلامهم ، ولهذا يسألونه أن ينزل الى الأرض . ولكنهم عندما يستيقظون من نومهم مع الصباح ينسون كل شيء - أنهم أطفال - ليسوا كذلك ! - ثم يعودون لينيشوا أكوام القمامة .

انصت له مانولى مبهورا دون أن ينس بكلمه . أحسن بقلبه يخفق في صنف حتى يكاد يشب من بين جوانحه . فهذه هي الصورة التي رأى عليها المسيح ليلة البارحة . ولكن لم تواته الجراة على أن يعنى ذلك على أحد . راء ينزل مع شعاع الشمس من فوق قمة جبل فأخذ كجبل ساراكيبا ، خالي القممين ، لا يحمل فوق كتفه صليباً بل سفينة بتروول . وكانت عيناها مثبتتان على ليكوفريسي ينظر إليها بوجه قاسى حزين غشوب .

ونظر الى ياناكوس وقال له .

- أنت على حق ، ليس صليباً بل بتروولا .

- سأمطلق لأبحث عن رفاقى من الوحوش الكواكيز . لم يعد هناك وقت نضيمه هباء .

وتوقف عند فتحة الكهف وشحك ، ثم قال :

- القسيس جريجوريس عنده مصباح غاز ، إذن لا بد أن عنده صفيحة بتروول في مخزنه ، وربما عنده صفيحتان . سأصحب لوكاس معى فهو سلم ممتاز . الى اللقاء غدا .

وفي رابعة النهار ، لمع مانولى القسيس فوتيس عند قمة الجبل وقد أخذ طريقه نازلاً ينسب من صخرة الى أخرى ، وردائه الكسى ينفق في الهواء كأنه جتاحان سوداوان ، وشعره مشطور فوق كتفيه . اذا وابتته حبيته النسي ايليا ، فالسماء من خلفه حمراء ساطعة تتأجج ناراً وقد أتمكن عليها نور الشفق . وبدا القسيس كأنه يخطو وسط السنة من اللهب .

وايسره نسوة كثيرات ممن ذهبن ليملان الجرار بالاء ، فتولاهن الفرع ، وتذت عنهن صرخات عالية .

- « رحماك يا الهى ، أملت القديس ايليا من اساره فوق الجبل -

رعا هو ينزل الى السفح » .

وهرع اليه الرجال من داخل كهوفهم للقاءه ، وسار مانولى في مددتهم . استشعروا فجأة ان القسيس يحمل اليهم رسالة خطيرة .

وسأل ياناكوس :

- ماذا يحمل بين يديه ، يرافق ؟

لم يتم البائع الطواف ليكنه ، فأحمرت عيناه ، ولم يجد فسحة من الوقت يغسل يديه اللتين تنوع منهما رائحة البتروول .

دقق ميشيل النظر يحاول أن يتبين هذا الشيء . وقال :

- حقا ماذا يحمل بين يديه ؟

وصاح لوكاس الذى وقف في المقدمة والرائحة البتروول ينفوح منه ايضا :

- أيقونة ، أنها أيقونة .

وقال مانولى في نفسه :

- حمل الينا القديس ايليا ، هذا قال طيب .

اقترب القسيس ، وبانت ملامحه : وجه قاس عظيم . بدا كأنه لم ير الرجال الذين خفوا للقاءه ، ولم يسمع لندائهم ، وكان روحه لا زالت في خلوتها الرهبة فوق قمة الجبل مع التين ايليا .

وقال مانولى :

- انسحوا له الطريق يا أصدقاء ، لا يتحدثن أحدكم معه ، فإنه

لا زال فى مناجاته مع الرب .

اصطف الرجال على الجانبين ، وكان القسيس ينهب المنحدر بخطوات واسعة ، يدفع بقدمه المجازاة فتندرج من تحته . ورأى كل منهم ما يحمله بين ذراعيه : أيقونة التين ايليا ذات المعجزات .

وأمر يا ناكوس الى لوكاس ورفيق الليل :

- اسم رائحة البارود . انظر الى وجهه .

وقال لوكاس :

- من حسن الحظ أننا أنجزنا عملنا في الوقت المناسب - أكثر البيوت من الحطب صفيحتان فيها الكفاية .

وأقبلت النسوة يدورن - تسلفن المنجد ومن يثرتن عن المعجزات والغديسي والأحلام - واشترابت أعناقهن - وشخصن بأبصارهن إلى القيس وهو ينزل المنجد - وأنه أحدهن يطير بأجنحة مودعه - وقالت أخرى أنها ليست أجنحة بل رداء - ولكنها آمنت أن ثمة غرابا جاءها على كتفه وقد أمسك بحجرة بين متقاربه يقدمها إليه ليأكلها - وفجأة صمت الجميع : لقد أقبل القيس .

وصاح بالرجال دون أن يتوقف عن السير :

- تعالوا معي .

ثم قال للنساء :

- وائتن أيضا .

ومرق من أمامهم سريعا - ممسكا بالنيب إليها بين ذراعيه - يمشي إلى صدره .

وارتد الجمع إلى الوراء كأن طائرا كاسرا مرق بينهم - ولطمهم بجناحيه القويين - وتبع الرجال قيسهم في دهشة وانفعال - ومن وراءهم النساء وقد أمسكن عن الكلام .

امتلت الشمس أفق السماء - ترسل نورها الساطع من خلال السحب المتناثرة ! وبدت كأنها كرة بيضاء ملتزمة - وكان السهل من تحتهم لا زال غارقا في غيباب كثيف - وخرجت بعض عجائز النساء اللاتي تأخرن عن الحاقن بالركب - ووقفن أمام الكهوف - ووضعت كل متنها راحتها فوق حاجبها تستظل بها من ضوء الشمس - وهي تحملن في ذهول في هذا المشهد النازل من قمة الجبل .

توقف القيس فوقف عندما بلغ موضع الكهوف - وضع الأيقونة فوق الصخرة - والتف الجميع - رجالا ونساء وأطفالا - حوله في دائرة .

وبسط ذراعيه وبدأ يتكلم - كان صوته أجش أول الأمر - إذ كان يشعر بخلاف في حلقه - وتزوجمت الكلمات على لسانه تتسابق سريعا تحاول أن تخرج كلهسا في وقت واحد - فأحسست جميعها ولم تخرج كلمة منها - ورويدا وريدا أبسطت عضلات حنجرته - وعادت لصوته قوته - وتنايحت الكلمات في انتظام - وقال :

- أيها الرجال اسمعوا وعوا - وائتن أيها النساء احضرن أطفالكن بين أذرعكن حتى يسمعنكم - سمعوا ما أقول - انبشركم من عربة النار - وسافودكم إلى حيث قادتن - وسوف أكتشف لكم عن كل ما استأمنتن عليه واستودعتني إياه - ليست الحياة ماء راكدا - الخنوع والاستسلام ليسا غير الفضائل ولا أحبا إلى الرب - الرجل الصالح لا يحتفل أن يرى الأطفال تتساقط أمام عينيه على الأرض - وتوت جوعا دون أن يعب ثائرا ويطلب الحسب حتى ولو كان من الرب هنا .

قصصت قمت الجبل لأحدث إلى سيدنا قديس جيلنا - علنا نتنهي إلى قرار يكون فيه علاج لسكل ضرورتنا ومأسيتنا - فاطفاننا أطفاله وهو مسئول عنهم .

ثم استدار ناحية الأيقونة يخاطبها وهو بأسط إليها ذراعه على امتدادها :

- أنت مسئول عنهم يا نبي النار - ولهذا السبب - أن شئت أن أكون صادقا في حديثي إليك - قصصت عريك - مثل كمثل الفلاح المستاجر الذي يقصد صاحب الأرض ليرد إليه حساب أول العام - محملا بالهدايا التي أخذها من حذائقه وسائين كرمه - وأنا أيضا حملت إليك آلام شعبي وأمانته الموجعات ووضعتها عند قدسيك .

« قضيت الليل يطولها بأطفالي - وألقا أمام ذلك النبي أحدث إليه - قصصت عليه قصصنا - من نحن - ومن أين آتينا - وكيف خلقنا بجعله نبحت عن ماوى تحت رعايته - كان يعرف كل هذا - ولكنني رأيت من الخير أن أسمع القصة من جديد - وأنصت لي ولم ينس بكلمة » .

« ثم حدثته عن جيرانتي في ليكوفريس - قصصت عليه كيف عاملونا وكيف طردونا جميعهم دون استثناء - القيس والأعيان وكل أهل ليكوفريس - وكيف سلبونا حقنا ولم يسمعوا لنا بأن نعلم أرضنا التي منحنا لنا عيشيل الحسن المواد ... أفضيت إليه بكل شيء - وأفرغت مرارتي وأنصت لي دون أن ينس بكلمة » .

« ثم حدثته عن استشهاده شميئا - وما يعاقبه من جوع وبرد ومرض ... صحته به قائلا - وقاحة الأعيان فوق كل الحدود - يا سيدنا اتخمت بطولهم حتى طلعت من البقوم - وفأس الكيل بنا - هل تسمعن يا صاحب عربة النار - أيها الجبار ؟ ثم واسرج خيلك وانزل معي - وأنصت إلى دون أن ينس بكلمة » .

ولدت ثأري . وفكرت فيه وأنا أحدث نفسي : « هل لن ينقلب فيه لما أقول ؟ كيف يتعمل كل هذه الآلام ويرضى بهذا القدر من الظلم ، ويطبق مثل هذه الواقعة ؟ ترى هل لن يتحرك أيقونة وينطلق معي ؟ ترى هل لن يسرح السنة اللحم ، ويمسك برقبتى ويرفعنى ليجلسنى الى جانبه وتنزل معا الى ليكوفرسى ؟ »

وتفتشت بالأيقونة ، وملت على أذنه ، وصحت : « ايليا ، ايه ايليا الفاسرس ايليا ، اسمع لهذا النداء : أطفالنا لا يجدون ما يقتاتون به ، خارت قواهم ، سيقام تنهار من تحتهم من أثر الجوع ، يتوكلون على عصى ، وينزلون الى السيل وهم يحجلون كالفرسان ليمدوا أيديهم بالسؤال الى أهل ليكوفرسى . . . تعرف هذا بقناة لا بد أنك سمعت عنه . رأيتك وأنت تنحنى من فوق قنك لتشهد كل شئ ، ومست لحيتك أسطح بيوت ليكوفرسى ، ورأيت أطفالنا يبكون أمام الرب . . . »

« طلعت أنفوس فيه ، وأمسست بالدفء بسرى فى جسد النبى ، ودبت فيه الحياة ، ودبت فى نفس الشجاعة من جديد . »

وصحت به :

« نعم تنازلت ومات بعوية النار تنتظر الى ما تحلك وتروى كيف استقبل أهل ليكوفرسى أطفالنا ، اسمع : أمسك بعض الأهالي عصيهم ليطردوهم بعيدا عن أبوابهم ، وآخرون - هل رأيتم ؟ - ضربوهم دون رحمة أو شفقة . »

« ولم أكد أنطق بهذه الكلمات حتى جفدت خوفا وهلما - خيل الى وكان الأيقونة ارتطمت بي ، وكان الحياة دبت فى الخيال الأربعة ، وكان شفاه النبى تتحرك ، وكأنتى سمعت صيحة كبرى عالية : « دعنى أذهب . »

« وفى هذه اللحظة قفزت الأيقونة بين ذراعى . »

وبهت الجمع ، وتقلعت بهم الأنفاس . وجئت النساء باكيات أمام الأيقونة صاحبة المعجزات . ودنا منها الرجال الذين مسحرتهم كلمات القسيس ، واثربوا بأعناقهم يطلعون الى النبى الذى تلفه السنة اللحم ، وتنزل اليهم من فوق الجبل .

وحية النساء : « أهلا ومرحبا ، ايليا النبى ايليا . »

وصاح ياناكوس :

« انظروا الشسارة ، يا آياتنا - عجل بها ونحن نملك بعض الطعام - سند منه قوتنا - فالتأؤ على وشك النفاذ . »

« واقترب مانولى من القسيس ، وقيل يده وقال :

« ارفع ذراعك ، يا آياتنا . هل دقت الساعة ؟ نحن على أعية الاستعداد . »

ورفع القسيس فوئيس ذراعه الى شعبه وصاح :

« بعد ثلاثة أيام يا أطفال ، أى فى الثانى والعشرين من ديسمبر - عشية ميلاد النور ، يكون ميلاد النبى ايليا - سيكون يوما عظيما - ناهبوا له يا رفاق ، رجالا ونساء - هو موعدنا للنزول الى القرية . »

ومن الجميع فى موكب أمام الأيقونة ، وغردا سجدا - تراهى لهم النبى حيا ، رفاقه أنول نار تراقص السنة مع الريح - ورأت النساء حيات العرق قوى جبينه ، وقيل الأطفال الأيقونة وأحموا أن النبى يتحرك تحت شفاهم

وشعر القسيس فوئيس بأعيا شديدة ، فأوى الى كهفه ، واستلقى على الأرض هناك - أغمض عينيه عسى أن يغلبه النعاس - ويتنزل عليه الرب فى منامه ويتحدث اليه - وحمل مانولى أيقونة لبي النار بين ذراعيه ووضعها فى صدر الكهف وسط الظلام الى جانب أيقونة الصلب التى تحوم فيها تصافير الجنة .

بدأت ساراكيثا منذ تلك اللحظة تظن كأنها معسكر حرب ينأهب للقتال - من لا يملك عصا الطبق بين ربوع الجبل يبحث عن شجرة يلوغ - يقطع احد فروعها وينخذ منه عصا له - ومن يجيد استخدام المقلاع بدأ يلعب النساء والأطفال على استخدامهم - ووزع القسيس فوئيس ما وقع تحت يده من أسلحة - ونص بها الشجعان من الرجال - وبدأ يتنلق بينهم ، فى دأب لا يعرف الكلل ، ويلقى بتعليماته الى كل منهم .

وأقبل لسطندنى من القرية مع المساء ، ودخل حين سمع جلبة وضوضاء ، ورأى الرجال منهكين فى تدريب النساء على قذف الحجارة بالمقلاع ، أو تعليمهن كيف يصنعن الهراوات من فروع الشجر ، كأنهم يستعدون جميعا رجالا ونساء للحرب - وألقى مانولى ينحت فى عجلة

الوجه الجديد للمسيح . كان هذا هو سلاحه الوحيد . ويود أن يفرغ منه وشيكة حتى يكون كل شيء على أهبة الاستعداد .

جلس قسطنطين الى جواره يادي الملقى وقال له :

- أرجوك يا مانول ، ان كان لديك متسعاً من الوقت ، ان ترفع رأسك وتسمعي . لقد أتيتك بأخبار سيئة .

- مرحباً بها يا قسطنطين ، فالجبال ألفت تحمل التلويح ، وهي لا تخشاهما . تكلم .

- ماتت ماربوري .

والقى مانول بقطة الخشب التي يحنها ، وانسمت عيناه في الزعاج شديداً . وقال في وجوم كأنه يسمع عن الموت لأول مرة :

- ماتت ؟

- دعنا الخبر بالأمس . ساعة الظهيرة . وصرح أبوها النسيح صرخة زلزلت القرية . وامتنطى على الفور مسهواً بعقله وانطلق ينوح ويتوجع . وعندما بلغ المدينة انعى ابنته قد وريث التراب ولم يتمكن من رؤيتها حتى يسيل لها حنينا . وعاد هذا الصباح . لو وأينه ما عرفته . ذهب الحزن بعقله . رأيت بطرق أبواب القرية . فتوجست خيفة . كما أشغلت عليه . كان يسير حافي القدمين . شمعت الشعر . ينتقل من بيت الى بيت يدعو أهل القرية لحضور التناول بالكنييسة . ودق الشمس اجراس المعداد . ولزم الناس أعمالهم وقصدوا الكنييسة . جمعنا القسيس في رواق الكنييسة . ووقف فوق منعد حجرى . كانت لحيته ترتجف حتى أعياء الكلام . ولكن عينيه المسجورتين كانتا تنقدان لهيباً . واستطاع في النهاية أن يستجيع قواه . وخرج من خلف صوت جيورى :

- يا أبنائي . سأقول كلمتين التين فحسب . لا أستطيع أن أقول أكثر منهما . فان قلبى يتمرقق . ستقضي علينا سارا كينا .

وتوقف لحظة يلتقط أنفاسه . ثم عاود الحديث :

- هيا . احملوا أسلحتكم وأنا في المقدمة . هيا يا أطفال . اطرودوا هؤلاء الوحوش الكواصر . انهم هم الذين ينفروا الشر في قريتنا السميدة . فمذ تلك الساعة التي وُلدوا فيها بأقدامهم قريتنا . والتعاسة والموت قفرا لنا بوابل ضرباتهما دون رخصة أو شفقة . وأول من يستحق اللوم فيهم

واخطئهم هو مانول طريد الكنييسة . أقصد عقل ميشيل بأفكاره التي وسوسى بها اليه حتى أصابه الجنون . وهو المشلول عن لمس خطيته ماربوري . وهو الذي قتل ابنتي وأودى بحياتها .

حاول أن يواصل حديثه ولكن أصابه دوار . ومذ ذواعيه ليستند الى الحائط . ولكن أطلعت عيناه فلم يعد يصر شيئاً وفقد توازنه . وسقط بكل ثقله فوق الرصيف الحجري .

وصمت قسطنطين . وشد مانول طرف منديلته الذي عصب به رأسه كأنه عمامة . وعض عليه حتى يكتم نسيجه . وقال :

- ماتت ماربوري ماتت ماتت

وأخذ يرددتها بغير زيادة .

والتفت الى قسطنطين . وسأله شارد القلب :

- وماذا ؟ وماذا ؟

أثبت لأخبرك يا مانول حتى تكونوا على بيعة . وتأخذوا حفركم - أهل القرية جميعاً تارون عاصيون بعد كسلام القسيس . ويستعملون نهاجتكم هنا . وهم يبحثون عن مبرر لذلك . أو عذر ينتحلونه . وهاعم قد عثروا عليه الإغنياء يعيشونكم . لأنهم يعتقدون أنكم اشتراكون . والفقره يكرهونكم لأن الأغنياء وضعوا لهم عصابة على أعينهم . ولذلك فانهم ميكيلون اليكم طريتهم وقديا يستطيعون الى ذلك سبيلا انهم أكثر منكم عفة وعددا . والاملا يصاحفهم فاحترسوا .

- اسمع يا قسطنطين ، ابحت عن ميشيل الشكين وألمه يائسا . فانا لا أستطيع فاتحه في الموضوع برقة . ذلك لأن عمدتنا الشاب قد تغير تماما في أيامه الاخيرة وأصبح انسانا آخر . يروح ويحيى . مضطرا شفتيه لا تبتس بكملة . ينظر اليك بعينيه وعقله شارد في وادي آخر . وتسااله فلا يجيبك وإذا من الليل بأوى الى فراشه وهو يرتجف فرقا . فقد بات يعيش النوم . سألته ذات يوم : ماذا تحبك يا ميشيل ؟ وشق عليه أن يفتح فمه . وأحس بالحيرة والارتباك وقال : « الرجل أليث الرجل أليث » . هيا تسجج . يا قسطنطين . ابحت عنه . وسأبعت أنا عن القسيس لأحدث اليه .



أمسك ميشيل بالانجيل المفضل الذي كان يقرأ فيه وشتمه الى صدره وتمتم :

- انتهى كل شيء . لا أريد شيئا بعد الآن . يا قسطندي . أمسك الرب يسكن ويتر حياتي نصفين . التي بالنصف الأول في باطن الأرض . وها هو الآن يلقي بالنصف الثاني . وهكذا أصبحت الآن بكل كياني تحت التراب .

دهش قسطندي لهذا الهدوء الذي استقبل به ميشيل النيا المروع . وأحس بالوجود يتفقد من خلف ذلك الوجه الهادي الساكن .

مرة أخرى قال الرجل الذي كان يوما ما عمدة القرية الشاب :

- انتهى كل شيء .

واستوى واقفا . وأمسك بحبل كان داخل فجوة في الصخرة . وربط به الانجيل بقوة . وكأنه يوثق حيوانا مغترسا خشية أن يهضم . ونظر الى قسطندي . ثم هز رأسه وقال :

- أي طريق أسلك يا قسطندي ؟ وأقصد من ؟ الإنسان ؟ هذا الكائن الدنيس الذي يصيبه الجلي والعفن . أم الرب ؟ الذي يترك الأب لاداس يعيسى ويترى ويقتل ماريوري . أم نفسي ؟ عودة الأرض التي تتلاوى تحت أشعة الشمس . ويسحقها حذاء في الوقت الذي تفصول فيه لنفسها . أم رافقية سعيدة بحياتي تحت أشعة الشمس الدافئة . . . هل تفهم شيئا من هذا ؟ يا قسطندي ؟

لكن قسطندي اب لافعال ، فكيف له أن يفهم ؟ ونهض واقفا . وقال :

- اني ذاهب لمقابلة ياناكوس .

كان ياناكوس في الكهف الذي تحول الى مخزن للمون . يحسب ما بقي من زيت ودفين . أما التبيد فقد نفذ منذ أيام . وقال في نفسه :

- ساجد فوئنا اليومين أو ثلاثة على الأكثر . بعدد ما ستكون الحرب . وسوف ترى . الحياة عرض يمكن الشفاء منه . سأطبل شجاعا طالما أنا على قيد الحياة . قادر على أن أقول لنفسه اني حي وحبيبي يوسف لكي مثلي على قيد الحياة . إن آياين . فسوف لنلقى يوما ما . الموت هو الشيء الوحيد الذي لا شفاء منه .

وصاح صوت من وراءه :

- أهلا ياناكوس . ماذا هناك أيها الصديق العجوز ؟ ألم تعد تنزل الى القرية ؟

واستدار ياناكوس فأبصر قسطندي . وقال في غبطة :

- أهلا بصديقي قسطندي . لا زلت أنزل قربتكم المباركة . ولكن كيف لك أن ترائي ؟ فانا أنزل إليها تحت جح المطام .

وقص عليه ضاحكا كيف نزل الى القرية مرتين كالكذذب . وشسن فيهما غارة على إيتي . ثم قال في ختام حديثه :

- أنظر . الأطعمة التي سلبناها توشك على النفاذ . ولكن ها هو البشورول في الركن . لم يمه أحد بعد . ينتظر اللحظة التي يكشف فيها عن معجزاته .

سأله قسطندي في لهفة وقتق :

- أية معجزات ؟

- حين يتحول الى لهيب . يا قسطندي . ليست هذه هي وظيفته ؟ والا قلماذا خلقه الله ؟

وتفكر لحظة ثم ضرب جبهته بيده . وقال :

- حسن إذ آيت . أرسلتك العناية الإلهية . هل لي أن أسألك مكرمة ؟ اليوم الأحد . وبعد غد الثلاثاء . . . هل يمكنك أن تأخذ حمازي من الأدب لاداس في هذا اليوم ؟ قل له انك بحاجة اليه . إذا ما دفعت له الثمن سيعطيه لك . واحتفظ به في بيتك طوال هذا اليوم . هل تفهمين . لا أريد أن تمس النار شعرة منه . سيكون في بيتك آمنا .

وقال قسطندي فرحا :

- الآن أنت تضمن خلفة لانفعال النار في بيت الأبي لاداس ؟

- ومن غيرهم كنا نتحدث عنه طوال هذا الوقت ؟ ليست هذه هي وظيفة البشورول ؟ ان الرب الرحيم علم بكل أفعاله .

- أحسب يا ياناكوس المكسب والخسارة لهذه العملية . فربما أوقعك ذلك في مشاكل .

- وزنت الأسر مرات ومرات . يا قسطندي . والمسألة لصالحنا أنا . كانت أهدتها لحاسي . وقد أنابت بها نيينا ايليا . أو الفارس ايليا كما يحلو لغنيسينا أن يدعو . وأقرني عليها .

وهرش قسطندي رأسه ، وقال :

- لا أنهم شيئا .

- أنت لا تفهم لأنك صاحب مقهى ، ولك زوجة وأطفال . لو كنت جانا لأدركت ذلك وقبلته ولكن كيف لك أن تفهم ؟ وتلك تنصرف تصرفا آخرق ، تقيل يد الألفا القذرة ويد القسيس جريجوريس وغيرها هذا هو السر . . . لا تعيس أبنا الصديق العجوز ، ستجبن ساعتك وتترك كل شيء ، قصيرا .

تنهد قسطندي بعد لحظة صمت وقال :

- أنا ممل يا ناكوس قلبا وقاليا ، لذا أسألك ألا تلومني . كثيرا ما تحدثت في هذا مع أندونيس وديتري . ونحن نسأل ماذا يمكننا أن نفعل نحن من جانبنا ؟

- اذهب واسأل القسيس فوتيس ، فهو الذي سينبئك بكل شيء .
أما أنا فلا أطلب منك غير شيء واحد : أن يكون يوموفاكي عندك في بيتك يوم الثلاثاء . وحذار أن تنيس بكلمة عن هذا لأحد ، عه ؟

انقضى يوم الأحد ، وأقبل يوم الاثنين ، وبدأ الثلج يتساقط عندما انتصف النهار ، واكتست قمة الجبل حلة بيضاء . وانشح النبي إيليا بوشاح أبيض ، وانقضت الطيور الجارحة على السهول تنسور جوع ، واصطبقت السماء بلون أحمر برنزي .

وانحنى مانول فوق كتلة خشب البيلوط منذ الصباح الباكر . انكب عليها يحفرها بأخصاب مشدودة . وأضحت ووجهه كأنها أزميل نحاس ، تقطع وتحفر في شوق ولهفة لتحرر وجه المسيح السجين داخل الخشب . واليئس الوجه للقسس في ياطنه على الصورة التي وآه بها في تجلده البارحة ، وجها فاسيا صارما لغضوبا . وتمة جرح غائر يمتد على طول وجنته حتى الذقن وشارب مهتلل ، وحاجبان كنان .

انكب مانول على عمله منذ الفجر . يحاول جاهدا أن يخرج الوجه الصارم مطابقا تماما للصورة التي في ذهنه . كان يعمل بهمة لا تعرف الكلل فلا يد أن يفرغ منه وشيكا . ومع الغسق ، أشرقَت الطلعة القسسية ، وارتفعت فوق كتلة الخشب ، وهب مانول مذهورا .

ودخل ميشيل في هذه اللحظة ، مكدودا يائسا . ونظر إلى كتلة الخشب المتحوتة ، قارند إلى الوراء فرقا .

وصاح :

- ما هذا ؟ أنها الحرب

وأجاب مانول وهو يمسح العرق المتصبب فوق جبهته :

- لا ، بل المسيح .

- إذن ما الفرق بينه وبين الحرب ؟

وأجاب مانول :

- لا فرق بينهما .

جن الليل ، وتساقط البرد كثيفا حائيا في مسكون ونواري كل شيء تحت . واعتنى السهل من تحت الجبل . وتدللت السماء حتى التفت بالأرض .

أشعل مانول مصباح الزيت ، ورفع من فوق المشبك الوجه القديم للمسيح الذي تحته قبل ذلك ، ووضع في جانب الوجه الجديد .

وتنعم ميشيل في وجل :

- شتان ما بين الاثنين . هل هما نفس الوجه ؟

- نفس الوجه . كان قبل ذلك صبورا وديما ، عادلا والآن فاسيا حزينا . هل فهمت ، يا ميشيل ؟

وصمت ميشيل لحظة ثم قال :

- لم أكن أفهم ذلك قبل . أما الآن فقد فهمت .

ثم عاد إلى صمته من جديد .

وأقبل الثلاثاء . ولم يكد ينفس الصباح حتى كان أهل ساراكينا على أهبة الاستعداد . كانت قمة الجبل تتألق في جلتها الناصعة البياض . ونواري النبي تحت دثاره السميك . ولكن ما أن سقط عليه أول شعاع لشمس الصباح حتى دبَّت فيه الحياة . واستيقظ في وهج وردي .

وجمع القسيس فوتيس شععة ، وخاطبه قائلا :

- يا أطفال ، سيقرر مصيرنا اليوم . تجملنا بالصبر قدر المستطاع

حتى بلغنا حافة الهاوية . ولو انتظرنا قليلا سنتردى فيها لا محالة
الأطفال أولا وفي اثرهم الرجال والنساء . وبات لزاما علينا ان نختار
اما الموت أو التضلل من اجل الحياة . واشترنا التضلل . هل توافقون ؟
- موافقون يا ايانا . كلنا دون استثناء .

- سألت حارس الجبل الذي يقف هناك فوق دوسنا . اعني الفارس
ايليا . واقري يدوره . لم استغيت قلبى . واقري ايضا . نحن لم نلتزم
بما نحن يصلحده اليوم هكذا نخط عشواء ودون نصير يل من تفكر وروية .
كاناس احرار . سندهب لطالب بحقنا . ليس صدقة أو عنة . بل حقا
وعدا . لنا في السهل حدائق واعنابا وحقلولا . ولنا زيتونا وبيوتا .
فليعلموها لنا . نحن لا نبيى على حق أحد . وانما لطالب بان نعمل لانفسنا
وفي ارضنا . حتى نعيش . لاسنا جيش عتف والغتصاب . بل جيش من
ضحايا الظلم . تجرع الكأس حتى الشمالة .

- لن نكون أول من يهتدى . ولكن اذا ما اعتدوا فلنا ايدينا التي
خلفها الله لنا لفرء بها الضربات . كيف للمعدل ان يسود . وكيف له ان
يفرض نفسه على عالم يسوده الظلم والغدر اذا لم يكن عدلا مسلحا ؟
ونحن سنسلح المعدل . تولوا هم تسليح الظلم . وكان لهم ما ارادوا .
وعلينا ان نثبت اليوم لهم ان للفضيلة رجالها . لم يكن المسيح حملا
فقط . بل كان اسدا حصورا كذلك . وسياى معنا اليوم كاسد
حصور .

نحت مانول وجهه فوق الخشب . وما هو . هذا هو المسيح الذي
سيقتلنا . زعيما لنا وقائدا .

بعد هذه الكلمات رفع الترجه القاس عاليا . ومع نسيم الصباح .
تمايلت صورة المسيح فوق دوس الشهداء وكأنها تهدد وتتوعد . استطاع
مانول في اللحظة الأخيرة ان يصيح المرح الذي يسند بطول الوجنة حتى
الدفن بلون احمر . وهكذا بنف صورة المسيح لكل من اعتصرتهم الآلام .
مناضلا مقداما عظيما . اتخته الحروب بالجراح في قديم الزمان . ولكنه
يتأهب لينتفض . ويواصل المعركة من جديد .

وصاح القسيس :

- ها هو قائمنا . فارفعوا ايديكم تحية له .

ثم التفت الى لوكاس حامل الراية وقال :

- لوكاس . ثبت هذا الوجه المقدس في رأس الراية . وليتقدمنا
ليلهب مسيرتنا حاسا وقوة . والآن ليأخذ كل منكم مكانه . اشرق تهاجر
الرب . فالى الامام . ليتقدم لوكاس أولا حاملا الراية . ثم الرجال
المذحجون بالسلاح . ومن وراءهم في المؤخرة النساء والصبية ومعهم المقاييع .

وانتظمت الكنيسة . ورسم كل منهم علامة الصليب . وامسك القسيس
فوتيس بايقونة النسي ايليا بين ذراعيه . وتقدم مانول ليكون في طليعة
الرجال . واتخذ ياناكوس لنفسه مكانا وراء متابعا صفيحة البيترول .
واعلى ميشيل صخرة يرفق المسيرة . وكان قد قال للقسيس فوتيس :
« لن اذهب معكم يا ايانا . فقد وهنت منى الذراعين كما ترى . وخارت
قواهما . امننى لكم التوفيق » .

ظل يرفيقهم وهم يتحركون . اتسائم بالية . ترغرف في الهواء .
اقدامهم حافية . الا القليلين فقد اتعلوا جلد شاة أو خرقا بالية . وجناهم
غائرة . عظامهم تاتة . عيونهم ثغوب سوداء . جوعى يقرصهم البرد .
فشرعوا يمشون الخطى التماسا للنف .

وحط ياناكوس صفيحة البيترول على الأرض لكي يدعك يده في
بعضها يدفنهما بعد ان تجمدتا من البرد . وصاح :

الآن تقى شيئا يا أمسدا . هل يذهب الناس الى العيد بانواهم
مغلقة ؟ هيا بنا . لنغنى أغنية حرب أو أغنية أمان أو نرتل مزمورا أو أى
شيء يصادف هوى في نفوسكم . لنغنى يا رجال . ولنستدقي بأغانينا .

ولحاة البسطة الجوانح . وانطلقت الأقواء . وأعطى القسيس
فوتيس إشارة . وبدأ الجميع ينشد في زهو أغنية الحرب القديمة التي
كان يغنيها أسلافهم اذا ما خرجوا الى الحرب ضد البرابرة :

« يا الهى القد شعبك . وبارك ورتك . على الأرض »

« يا الهى . اعتنا على سحق البرابرة . »

ظل يسمع طوال يومه صراخ الخنازير التي تنحز في أفنية البيوت .
وطلق يقول بصوت عال :

« أف حنكم يا كفره » تدلّسون أنفسكم بلحم الخنازير . وتسممون
الحر يا صنفوتة من سحج مشو »

ولكن الأما كان مولداً في السر . يسحق الخنزير . كان يؤثرو
على غيره مرة لشرب العرق . وارتضى أن تقصه له الحدياء الخبيثة كل
عام مدعية أنه مصنوع من لحم الجمال . والأما يعلم علم اليقين أنه ليس
كذلك . ولكنه يخادع نفسه حتى يتظاهر بالبرائة . وكان يقبل عليه في
نهم . يأكل منه . ويلق أصابعه بعمد . ويصر في أعناق على أن اللحم الذي
يقطعه . وهو الرجل الذواقة الخنزير . ليس لحم خنزير أبداً . لذلك كان
يدعو الحدياء المعجوز كل عام . في اليوم الذي تنحز فيه الخنازير . ويلقى
على مسامحها الحديث المبهود .

سَفْكُ الدَّمَاءِ

« ويل لك يا أم مارثا لو دخلت قطعة من ذلك اللحم الدنسي إلى
بيتي »

وهي العبارة التي تعني عنده :

« اذهبي . واشتري لي كل ما تستطيعين من سحج وادعي أنه لك .
وأتنى به واقسي لي بالأيمان المفلطة أنه لم جمل »

وتجيب عليه الحدياء دون أن تبسّم :

« لا عليك يا أفا . لا تعلق . سأترك هذا العام بكميات وفيرة من
سحج الجمال . ولا تخش شيئا أبداً وسوف اشتري بعضاً منه لبراعمكاي
أيضا »

في هذه الأثناء كان الملهفون المرعي يزلون بالقص سرتهم من فوق
الجيل . وذات لحظة قال يالأكوس ثن هم بجواره :

« أحسن القسيس اختيار اليوم الذي نطلق فيه إلى القرية يا اخوتي .
فالخنازير المذبوحة معلقة بالكلايب . مهداة لشبها . أوقدت النسوة النار
لتعد الخنازير لنا . وها قد حانت الفرصة أخيراً لتسليم أعماء الفقراء »
تري هل أحر الشيخ لاداس خنزيراً هو الأمر ؟

بدأت ليكوفريسي في تلك الساعة تنسج وتنفض الكرى عن جفونها .
كان البرد قارساً . والثلج يغطي القرية . والجيال من حولها يبقوا
ناصعة . ولزم الناس بيوتهم . وتدفروا فوق سرورهم الدافئة الويرة .
يتفنون كسلهم بعد ليلة تحروا فيها الذبايح وملئوا منها البطون . ففى
الليلة الماضية تحروا الخنازير . وشيطوا جلدها على النار . وأفرغوا
أحشائها . ثم ناولوها نظيفة خالصة لزوجانهم وبناتهم . ولم يبق على
هؤلاء إلا أن ينحز عملن اليوم : بصنع الجيلاتين . ويعملن السحج .
ويمان القفور والجوار قدبداً وشحماً ...

لذلك كانت زبانت البيوت من أول من استيقظ في ذلك اليوم .
شمنون عن سواعدهن . ووضعن القفور على النار . وأقبلن على عملن مع
مطبخ الفجر : يصحن للفلل الأسود والكبون لعمل السحج . وبعضن
نارتجا وليسونا لعمل الجيلاتين . وفوق رأس كل منهن الخنزير المسين
معلق داخل المطبخ رأسه إلى أسفل وذى اللون . مقسولاً . نظيفاً . في
انتظار الأيدي لتعمل فيه تقطيعاً .

وفال الأما لخادمتها مارثا في تلك الليلة :

« الويل لك . يا أم مارثا لو دخلت قطعة من ذلك اللحم الدنسي
إلى بيتي »

ولكن رفاقه الذين التهب حماسهم مع انشودة الحرب لم يسمعو شيئا مما قال .

بلغت الكثيرة السفح ، وبدأت تشق طريقها عبر السهل . امتدت القرية امامهم : الثلج يغطي البيوت ، والدخسان يتصاعد من المداخن . وانزعجت مناظر الجوعى حين مررت فيها رائحة الخنازير التي تسبق لاستخراج الخيلتين . وتذكرت النسوة بيوتهن التي دمرت وباتت خرابا ، واستعدن في مخيلتهن كل ما كن يغلطنه في مثل هذا اليوم من كل عام ، وتتهذن .

وقبل ان يصل الجوعى الى بئر القديس يازل ، توقف القسيس فونيس والشار بيده اشارة تعنى انه يرقب في الكلام معهم . وصاح بهم :

— يا اطفالى ، خذوا حذركم . ستتوجه اولا الى بيت الشيوخ بطرياركاس وتتحصن هناك . واذا كان باب البيت موصدا منفضحه عدوة ، فالبيت بيتنا ، ومن حقنا ان نمدحه . وسوف نفرق بعد ذلك وننتشر بين حدائقنا وكرمنا وحقولنا ، ونحتلها . . . لسأل الله ان يقيس شرهم وان يستمعوا من عجاجتنا . ولكن اذا ما هوجمنا فسنرد بالمثل . انهاء الحرب . فنحن لا نطالب بغير حقنا ، وليغفر الله لنا . استيقظت القرية ، واما ادى رجلا منهم يتجمعون على البعد ، واسمع دق الاجراس ، فكونوا على حذر . والى الامام باسم المسيح .

كانت الاجراس حقا تدق بعنف ، والقرية في حرج ومرج . وبانايوتى لم يغض له جفن طوال الليل . بعد ان شم رائحة ما قد يحدث . خرج الى شرفة الاغا منذ الصباح الباكر ، ولتت عينيه على الجبل . وان هي الا لحظة حتى لمع مع جيش الفجر اهل ساراكينا ينزلون من فوق الجبل . . . وهرول فوق دوح السلم ، وخرج الى الميدان . وخب الى الكثيرة ، وامسك بعجل الجرس وشرع يدق الجرس في ثورة وغضب .

وفي نفس اللحظة كانت الام مائدة الييا عند بئر القديس يازل تحل جرتها على كفنها ورات على البعد جيش الحفصاء للمهللين مقلبا في صخب شديد . فاطلقت مساقها للربيع عائدة الى القرية تصرخ ويولول :

— الجوعى قادمون ، طريقو الكنيسة مقلون . . . اقبضوا على اسلحتكم يا اهل القرية .

لم يكن اهل القرية قد تفضوا الكرى عن بغيرتهم بعد . ولكن ما ان سمعوا دق الاجراس حتى هبوا من فراشهم . وحين قرع اذانهم صراخ الام مائدة الييا ، تلغى كل منهم يقطاله وهرع الى باب داره وفتحه وهرول

الى الكنيسة . وتركت زيات البيوت مطايخن . واطلن من الابواب او النوافذ ومن يصحن بالرجال الماء عروهم بيوتهم :

— ايه ، ماذا حدث ؟ لماذا تدق الاجراس . . .
ولكن الرجال واسلوا هذهم وهم يلغون دون ان يرد احدهم جوابا .
منهمم القسيس جريجورس الى الكنيسة ، ووقف ببابها يلهث ويصيح :

— احمقوا اسلحتكم يا ابناءى . حاصم الاشتراكيون ينزلون التينا من ساراكينا . لا تسمحوا لهم بان يطلوا ارض القرية . عودوا الى بيوتكم وتغلدوا اسلحتكم ثم اقصدا بئر القديس يازل وتجمعوا هناك جميعكم دون امتتناء .

واستدار الى بانايوتى الذى تشبه بجبل الجرس يشده كالجنون .

— يا بانايوتى . اذهب الى الاغا واقطعه من ثوبه . اطلب منه ان يعطى بملته ويشف الى بئر القديس يازل . قل له ان الاشتراكيين قادمون .

واقبل ناظر المدرسة مبهورة . قسى نظارته ، فكان يعتر في كل ما يصادفه يمينا وشمالا .

وصاح باهل القرية متوسلا :
— لا تحملوا السلاح يا اخوى . ساذعبا لاقتناوس معهم . متردعهم بالكلين . انهم اخوة لنا . فلا تفرقوا القرية في الدماء .
ورار القسيس مقيظا :

— اناي فيمما بعيتك انها الايلة . لا متساومة . وقت الساعة لكى نبيدهم . اهجوا على العدو . يا رجالى . السلاح . يا اخوى . اوت لحملة القتل .

ناجيت ناز التورة فيهم . واسرع اهل القرية الى بيوتهم ، وتسلخوا بالبروات والسدسات والمناجل . وتسلح البعض بالسكاكين التي تحروا بها الخنازير المازحة . وهرعوا جميعا . يسرخون ويولولون ، في الجاه بئر القديس يازل .

ولحق بهم بانايوتى عدوا . ووقف الى جانب القسيس . ولوح

بعسده ، وأطلق الرصاص في الهواء . وصرخ : « إلى الأمام يا أحيائي »
ليأخذهم الشيطان » .

وانتزعت طلقة الرصاص الأمام من ثوبه . فخرّب الأرض بسوطه ،
وظهرت أمامه مارنا :

— اسمعي ، ما هذه الطلقة التي سمعتها ؟

— الاشتراكيون يسيرون علينا يا أمّا .

— أي اشتراكيين أتينا الحدباء الشائعة ؟ اطلقي . الذين نزعوا
الينا من الشمال !

— لا يا أمّا ، الذين نزعوا الينا من ساراكيئا . اركب بفلك ،
فالمسيحيون بحاجة إليك . اركب بفلك وساعدهم .

وانفجر الأمام ضاحكا ، كان النوم ما زال يغاليه ، فانقلب على الجانب
الأخر حيث بنام براهيمائي . وقال :

— أبطليني عندما يأتون من وراء الحدود . أما الآن فاغربي عن
وجهي .

رأى القسيس فونيس أهمل ليكوفريسي مقبلين في شراسة
للاقتضاض عليهم . فانفصل عن شعبه وتقدم وحده إلى الأمام أهول
بغير سلاح وأيقونة النبي إيليا بين ذراعيه . وصاح :

— يا أخوتي ، لي كلمة معكم . فغوا واسمعوني باسم محبة
المسيح . أياكم وسفك الدماء .

وتوقفت الكتبتان المتناوشتان لحظة ، وانتظروا . وخطا القسيس
فونيس بضع خطوات إلى الأمام . وصاح :

— كلمتي لك أنت يا أب جريجوريس ، أخص بها قداسكم
يا أباينا ، فادن مني قليلا .

واتدفع القسيس جريجوريس ناحيته وقال :

— عاذا تريد مني أبا القسيس التيس ؟ ها أنا .

ووقف القسيسان وجها لوجه ، بين الكتبتين ، أحدهم غصم
الحجة ، غريش المنكين ، بدين قوي البشيان ، كانه لود ، والآخر ضامر ،

جلد على عظم . غائر الوجنت ، دامي القدمين العاريتين . كانه حصان
مزبل عجوز انتخته الجراح .

وقال القسيس فونيس بصوت قوى ليسمعه الجميع :

— يا أباينا ، انها لحظية كبرى ان ننتج حربا بين خمسة . الدم
المسفوك سيسبق وزره على راسينا . . . ولي كلمة اليك يا أباينا أود
ان تنصت لها . وكذلك أنتم يا أخوتي . القوا السلاح . وكفوا عن
الطعان . وانتظروا . نحن القائدان ، القسيس جريجوريس وأنا ، كل
منا يمثل شعبه . مستصارع معا هنا أمامكم أهليين بغير سلاح . ونقسم
بعمينا . اذا ما طرحني القسيس جريجوريس أرشا ومنس ظهري الرغام ،
سنعود أدراجنا في سلام إلى ساراكيئا صفر اليدين ، واذا طرحت أنا
القسيس جريجوريس أرشا . ومنس ظهري الرغام سنقدم ونستلوي
على كل ما أعطاه ميشيل لمجتمعا . ولكن المعركة بيني وبينه على الأرض
والله من فوقنا في السماء شاهد علينا ، وهو عادل الحاكمين .

نهل اهل ليكوفريسي لسماعهم كلمات القسيس فونيس . إذ ربا
وجهه الشاحب الأزرق ، وسأله الفزليين ، ويديه النحيلتين ،
وضحكوا في سخرية ضحكات عالية كالزئير .

— إيه يا أب جريجوريس ، اعجم عليه ، حسبك نفخة واحدة
من بك يسقط في الرها على الأرض .

وانزعج اهل ساراكيئا . وصاح لوكاس :

— لا ، يا أباينا . ليتقدم أشجعهم وينارلي . ليتقدم إلى بانايوتي
آكل النار ، الذي يزعم بعسده وطربوشه الأخير . عفا التركي
القدر . ليحرب نفسه معي ان كانت نوابيه الجراة على ذلك .

وتناول الراية لرفيق . يقف بجانبه . وشعر عن ساعديه .

والدفع بانايوتي نخوة وهو يغور :

— أتى أنت اليك أبا الوعد . ها أنا أبا الاشتراكي . سأفطع
وقيتك أبا الخنزير .

واستل بعسده . ووثب إلى الأمام بلوح به . ولكن القسيس

جريجوريس رفع يده وقال :

— فعد . دعنا وحدنا . اتركوا المسألة لنا نحن القساوسة ، لنا
نحن الاثنين . ولكن النتيجة هي القول الفصل فيما شجر بيننا . أقبل

تحديتك إياها القسيس القدر . أقسم لك . والله على ما أقول شهيد .
لو طرحتني أرضاً فلكم ما أردتم . أن أعارض مستيلاًكم على الملكات
التي وهبها لكم ذلك المجنون عيشيل . ولكن إذا ما انتصرت أنا فادعوا
جميعكم وأرثونا في سلام . أسأل الله أن يكون رفيقاً علينا ، يشهد
العركة ويحكم بيننا .

رسم الأب فوثيس علامة الصليب وقال :

— باسم الأب والابن والروح القدس .

واستدار . وأشار بيده لرجل عجز . ودله على صولة النبي بين
ذراعيه . ثم خلع جلبابه الرث وملأه في عنابة وحرس . ووضع فوق
حجر . فكشف عن قميصه الأسود الملهل . وسرواله المزق . ونصبتنا
ساقيه التجلتين . وقد غطتهما الجراح .

وقف القسيس جريجوريس في انتظار خصمه ، مبعداً ما بين
ساقيه . عانداً ذراعيه إلى صدره . مقلداً ما بين حاجبيه . وفي عيشيه
البرافتين غضب واحتقار . وضرب الأرض بقدمه كأنه حسان هائج ،
إذا كان يتملج الزوال . ولكن ما إن رأى القسيس فوثيس واقفاً قبالة .
هيكلاً عظيماً . مزين بالتياب . غائر العينين أسودهما كأنهما نبع ماء بعيد
الغور . حتى أحس فجأة برعدة تسرى في جسده . خيل إليه أنه واقف
قبالة شيخ الموت .

وقال القسيس فوثيس في هدوء :

— أرسم علامة الصليب يا أبنا . فأتى على استعداد .

ورسم القسيس جريجوريس علامة الصليب بحركة آلية . وثبت
في مكانه دون حراك أذنيه منه لخصمه . وجاز بصوت ساخر :

— تعال هنا . أيتها الجرادة الوضيعة . تعال لأوى رفيقك
واعترضها بين يدي .

— ألا ينطق لسانك بغير قبيح الكلام يا أبنا ؟ هل تزل مدائح
الرب بهاتين الشفتين ؟ هل هذه هي اليد التي ترفع بها كأس القدس ؟—

وصرخ القسيس جريجوريس بصوت مجلجل :

— أيتها اليد التي تهشم عظام الأوغاد من أمثالك .

ثم مال برأسه ونطح خصمه كأنه تور . ورفع قبضته ليهوى بها
بكل ثقله ويشرب القسيس شربة قوية . ولكن القسيس فوثيس تحاشاها

بني خفة هبوت يده في فراح . وهوى القسيس جريجوريس إلى الأرض
بحت ثقل جسمه وثقل حربه . وجن جنوله . فانقض على القسيس
فوثيس ونطحه ثانية . وأمسك بخصله من شعر لحيته وجذبها في ثورة
وفضب . واستجمع القسيس فوثيس بدوره كل قوته وكال القسيس
جريجوريس شربة قوية في كرشه . وخار العجز من شدة الألم . وزادت
غضبه . وامتقع لونه . ولكن سرعان ما أفاق إلى نفسه . وازدادت سورة
عيناها . وامتقع لونه . ووثب فوق القسيس فوثيس وبدأ يعض
رفيقته وألفه وأذنيه . وتلاحم الاثنان . ولكن لم يسمع الناس غير صراخ
القسيس جريجوريس . يزار كأنه وحش كاسر يلتهم فريسته .

واستبد الفزع بأهل ساراكيئا . وكسوا أنفسهم . واشترابت
أعناقهم . وأحسوا أن قسيسهم في خطر .

ونعمت ياناكوس في رأس :

— هلك أبونا . سيخترقه هذا الوحش .

وأجاب ماثولي :

— لا تخف يا ياناكوس . ألا ترى الله ؟ ها هو ذا فوقهما ؟ كن

والقا به .

لم يكن ماثولي ينفي كلامه حتى رأى القسيس فوثيس يقبض
بيد من حديد على لحية القسيس جريجوريس . ثم سدده بيده الأخرى
لكمة قوية في فكه . وخار القسيس جريجوريس من شدة الألم . وتكوم
حول نفسه يبيص من فمه أسنانه ودمه . ولم يمهله القسيس فوثيس
حتى يفيق . إذ أمسك به من خصره . وهزه هزاً شديداً . ثم ألقي
عليه بكل ثقله . فالتفت فوثيس ليكوفريس على الأرض يعض التراب .

وهم القسيس فوثيس ليبحث بروكيته فوق صدر القسيس
جريجوريس إلا أن يانابوي عاجله فانقض عليه بوسعه شرباً في شرسة
وجنون . واندفع لوكاس كالهم . ومن بعده ياناكوس واثولي . وفي
لمح البصر تلاحم الفريقان . وبدأت القنايع تنفجر في الهواء . والهرات
تهوى على الأجساد . ومضى وقت طويل لا تسع فيه غير صوت
اللكمات والهرات وطلقات المسدسات . بينما كانت السكاكين تقيد
في اللحم في سم . كنت في أول الأمر أسمع صيحات ونباح . ولكن
رويداً رويداً خفتت الأصوات فلم تعد أسمع غير أنفاس لا هنة .
وتأوهات موحجة . وابن مكتوم .

وهرع الى الساحة فسطندى واندوليس الحلاق وديمتري الجرار
البدن وقد سلبوا بهراواتهم ، وانفوا بانفسهم في خضم المعركة الى
جانب اهل ساراكينا . وراى ياناكوس اسدقاه ، فنخلص من وسط
الحدث المائج ونادى على فسطندى :

- هيه يا فسطندى ، هل فعلت ما اوصيتك به ؟

وحملق فيه فسطندى فافترافه ، ولم يذكر شيئا .

- آية وصية !

- حمارى ..

اهدا بالا يا ياناكوس ، انه فى بيتى .

ورفع ياناكوس صفيحة البترول على كتفه وصاح :

- انن لنشعل النار .

وجار لوكاس بصوت كهزم الرعد وهو يشرب بعضه يمينا وشمالا
كيفما اتفق :

- الشجاعة يا رجال ، الشجاعة ، لقد انصرونا عليهم هؤلاء الخنازير .

انهار اهل ليكوفريس واستسلموا ، وبدنوا يتراجعون تدريجيا
ليحتسوا بالقرية . ولاد عدد منهم يمتازهم . وفى هذه الاثناء رفع اهل
ساراكينا القسيس فويس من على الأرض ، حيث استلقى قرب
البئر ، وغسلوا له جرحه ، والدم ينزف من راسه المشجوج .

والدمع مانولى وهو يصيح :

- الشجاعة يا اخوى .

اختطف من بانايوتى احد مدسليه وبدا يطلق الرصاص فى
الهواء ، وهو يطلق اهل القرية اثناء تهمتهم مذمورين .

مرة اخرى سمع الناس صوت فاطر المدرسة يتحدث فى الم
واتزعاج :

- كفوا يا اخوى ، لا يقتل الاخ اياه ، سصل الى اتفاق معا ..
كونوا على ثقة فكلنا اقربىيون مسيحيون يا اخوى .

ولكن سرعان ما وقع بين المسكين ، وانقش عليه الاصداق
والاثناء ، وطرحوه ارضا ، وداسوه بالاقدام فى شراسة ، وقذفه احدهم
بحجر ، ولدحرج صانع السلام الى حفرة فاقد الوعى .

تراجع اهل ليكوفريس جميعهم الى القرية ، وامسك لوكاس
بصفيحة البترول الثانية وانطلق بها يعدو ، وبدا يصب البترول على
الابواب والنوافذ والجدران .

وصاح بالنسوة وهو يعدو من بيت الى بيت :

- امجنن عليهم اينما النساء ، اتبعننى واشعلن فيهم النار .

وسرعان ما تصاعدت السنة الذهب تلغى البيوت . وحاصرت النيران
ساح ليكوفريس اللاتى تحصى بيوتهن وانقلن عليهن الابواب ، فاختدن
بولولن ويصرخن فى فرح .

وحمل بعض الرجال القسيس جريجوريس الى بيت مانهالينا ،
اذ كان قريبا من ساحة المعركة . كان القسيس مسجى على الأرض
وسط الغدا فاقد الوعى ، واحترت المواة المجوز اعتبارها ومرامها ،
وانحست عليه نفس جروحه وتطليها . لقد خسر القسيس المسكين
كل كبريائه ، وبدا يش ونرجع .

توغل مانولى ورجاله فى هذه الاثناء بين دروب القرية حتى بلغوا
بيت بطرياركاس المسبح . وفتحوا الباب ملوء ودخلوا . وقال
مانولى :

- ستحصن هنا ايها الشجعان . ليحضر اثنان منكم قسيسنا
الى هنا ، وليدخل الباقون الى البيت سرعا فمن فى بيتنا .

وتطوع اندوليس الحلاق - وفسطندى باحضار القسيس فويس .
كان اهل القرية يعدون فى الطرقات ، يحملون الدلاء المملوءة ماء ، ويصوبوا
على النار ليطعموا الحريق ، والقرية كلها تعوى وتولول . وفجأة دوت
اصوات فرقة :

- بيت المسيح لاداس يحترق .

- نهضت الجرار ، وانكب الزيت جداول فى الطرقات ..
تحطمت البراميل وسال النيبه على الأرض كأنه فيضبان .

- المسيح لاداس وزوجه على قارعة الطريق بينكيان .

فقد بانايوتى طريوشه اثناء المعركة - وانزع مانولى منه احد
مدسليه - وبدا السروجى يعدو كالجنون فى الطرقات ، يطلق الرصاص
بمسدسه الذى يقى معه . متوجعا مانولى . ويدعوه متحمسيا للظهور
امامه . ولكن مانولى الذى امتلا قلبه قلقا وجزعا التحى فوق القسيس

قوليس ، الذي أدخلوه الى البيت ووضعوه فوق سرير بطريركاس .
ضمدت النساء جروحهن ، وبدأ يفتح عينيه وينظر الى دفاقه من حوله
ويستشعر .

ولمعت قائلا :

- حثوا يمينهم . سيهاجمهم الله على ذلك . انى سعيد ان طرحت
قسيهم ارضا .

بـ هل يؤلك شيء يا ابانا ؟

- طبعاً يمانولى * جروحي تؤلنى . ولكننى سعيد كما قلت لك .
اصبر الله حكمه وكان النصر لنا .

ودوت صيحات الفرح فى القساء . عاد لوكاس ورفاقه بعد ان
اشعلوا النار فى البيوت ، واحضروا معهم ثلاثة خنازير مذبوحة نظيفة
جاهرة للطهي . دخلوا بها بيت العمدة بطريركاس بين صيحات الفرح
والسرور .

وصاحوا بالنساء :

- اوقدن نارا كثيرة ، فلدينا طعام وفير . افتحن خزائن المون ،
خذن دقيقا واستعن خبزا ، اشوي الخنازير فالمعركة فتحت شهيتنا .
والرجال عظم الجوع .

واعتزفت امرأة عجوز :

- ولكننا الآن فى بدء صوم الميلاد واللحم محرم . الا تخافون الله ؟

فقال لوكاس مقترحا :

- لنستفتى ابانا .

واجاب القسيس :

- كلوا وساحل الخطيئة على كاهلى .

اقبل ياناكوس وقد شاطت لحيته ، ورائحة الزيت والتبيل تنبعث
من ملابسه . وصاح فى زهو :

- شغيت غليلي ، بالخبز . نفسى راضية الآن . كم من اليتيمى
والارامل التى بهم الشيخ البخيل الى قارعة الطريق ، وها انذا القيت
به بدوره الى قارعة الطريق ، والتار تشتعل فى بيته . حمدا لله .

وسمعوا طرعا على الباب وصوت قسطندي فى الخارج يقول :

- افتحوا ، افتحوا يا اخوتى . قتل ناظر المدرسة .

فتحوا الباب . ودخل قسطندي والعلاق والجزار ، يحملون جثة
ناظر المدرسة وقد فارق الحياة . شج رأسه وبرر منه من عظام
الجمجمة ، وجددت عيناها الواسعتان ، وتدللى فكه .
وقال قسطندي :

- عثرنا عليه ملقى فى حفرة ، داسه اهل القريةين ياتداهمهم .

وانحنى الرجال والنساء فوفه فى صمت وقيلود (١) وجمعوا بعض
الازهار الدالية من القساء ، ووضعوها بين يديه .
وقال مانولى وهو يكفكف دموعه :

- اراد ان يوقى بيتنا ولكننا قتلناه .

استلقى الانا فوق حشيشه الناعمة الليرة . تنصت الى طلقات
السدس وهو يدخل غيلوده ، ويرب يداه على يراهماكى يدله . وحين
شم يراهماكى رائحة البارود على الدم فى عروقه واراد ان يهرع الى
الطريق ليطلق بدوره بعض الطلقات . امسك الانا باحدى قدميه بقوة .
وحاول يراهماكى ان يفلت منه ، ولكن دون جدوى .
وقال له الانا :

- لا تكن أبله يا يراهماكى . دع الروميين يقتل بعضهم بعضا .
ان يقوى احد على استئصال شاة هذه السلالة اللعينة . مذكم من
السدين ونحن فى حرب معهم كى نبيدهم = انظر ماذا كانت النتيجة ؟
صفرا . تنقل روميا فثبتت عشرة . لا جنوى ما ام يقتل بعضهم
بعضا . ولهذا ادعهم يتقاتلون . وما ان يبقا كل منهم عين الاخر حتى
اخرج اليهم منتظيا سهوة بغلى واعيد الامور الى نصابها . هل فهمت ؟
اقول لك هذا فرمما تصبح يوما اقا لقربة من قرى الروميين فتعرف
اى نهج تسلك مع هذا الجنس من البشر .

وصاح يراهماكى :

- دعنى اقتل بعضهم فانى اشعر باكلة فى بدى .

- مذكم من هذه الفعلة الحققاء ما دام سنقتل بعضهم بعضا . ان

(١) يقتل البيت شهوة من شعار الجزار عند النيران . من الترجمة

الفرنسية .

تدخلنا سيخلق مشاكل للدولة . ستعود أساطيل الفرنجة مرة أخرى
تحتصر سميرنا فتكون الطامة الكبرى . نحن هنا سعداء فوق السرب حيث
الدفع يا عزيزي إبراهيمي ، والبرد قارس في الخارج . لن أضعك تخرج
ستأبينا المعجوز الحدياء بالعسل والجوز .

وصفق بيديه فأكبلت المعجوز على عجل .

— ماذا يحدث بالخارج أينما المعجوز ؟

— يقطعون رقاب بعضهم البعض يا أبا . الفيسيان ، نصف كل
منهما لمحبة الآخر . وفقد باناتاوي طربوشه وجرحته وكنيته ، واحترق بيت
الشيخ لاداس ، والسكب الزيت والنبية وملأها الطرقات .

تهتفه الأغا بصوت عال :

— أحسنتم يا كفره . استمروا يا رجال . ليتليكم الله بطاعون يقضى
عليكم . هات عسلا وجوزاً .. أسرعى أينما المعجوز .

والثقت إلى إبراهيمي الذي كان يسب ويعلن يريد المروج :

— لا تكن أحمق وتحترق نفسك في شئون الروميين . هذه السلالة
الملعونة ظهرت على الأرض نتيجة خطأ من الله . اسمع القصة التي أعناد
المروحم جدي أن يقصها علي : أنصت إليها وسوف تفهم كل شيء . أيها
الأحمق . خلق الله كل شيء على أكمل صورة . وذات مرة أحس الله بضيق
إذ كان بلا غسل . فأمسك بجلود تار وبعض الروث ومزجهما وصنع
منهما عجينة واحدة خلق منها أول رومي .. وما إن وقع بضرب على هذا
الشيء الذي صنعته يده ، حتى أسف على ذلك . هذا المخلوق النافه كانت
له عينا تفلح في الحدياء كأنها متقلب . وتهجد الرب وتعظم . عذبه
غلظة ، فكيف لي أن أسبحها ؟ لنشمر عن ساعدنا ونعجن عجينة التركي
فانه هو الذي سيقتل الرومي فيعود كل شيء إلى ما كان عليه . ويستتب
النظام . ويسود السلام . وأمسك ببعض العسل والبارود وعجنهما في
حرص وعناية . وصور منهما التركي . وسرعان ما تلقى بالتركي في مواجهة
الرومي . ولشئت الحرب بينهما سجلا صباح مساء . وتناحرت . لا تنتهي
حتى لنشبت حرب غويها دون أن تكون الغلبة لأحدهما . ولكن عندما جن
الليل وأظلمت الدنيا ، تحاييل الرومي الداهية اللثيم ، ووضع قدمه بين
ساقى التركي في الظلام . فتمتر التركي وسطاً إلى الأرض . وغضب الله
ولتمت لأخذه في الشيطان ، أنقى في ورطة لا مثيل لها . سينتقم هؤلاء
الروميون العالم الذي خلقته جرعة واحدة . ما العمل إذن ؟ لم يفتش

له بجن طوال الليل . وحين أسفر الصباح فزع من سريره فرحاً
مسروراً يصفق بيديه . وصباح . وجدتها . وجدتها . مرة أخرى أمسك
بالروث والبارود وعجن رومياً آخر . ووضع الاثنين في الصحاف .
وبدأت الحرب بينهما على الفور . يقع أحدهما على الأرض ، لم ينهض ليضع
الآخر .. أحدهما يضرب الآخر يسكتين ثم تدور عليه المائرة ليتلقى طعنة
من أخيه .. واستمر القتال سجلا بينهما ليل نهار . يستقطان على الأرض
لينهضا ثانية . ويتناحزان من جديد ليسقطا على الأرض . وينهضان
ليبدأ القتال وهكذا دواليك . وبذلك ما حنسى إبراهيمي ساد السلام
على الأرض .

ودخلت مارنا المعجوز حاملة العسل والجوز . وقال لها الأغا أمراً :

— اتحنى الشبانك يا مارنا . اتحنى على مصراعيه . حتى اسمع
صراخهم وطلقات المسسى وأدخل البهجة والسرور على لبي . أعلني
الزجاجة بالعربي . أنظرى عينيلاك حتى إذا ما قتلوا جميعاً نعال
والبيشيني بذلك ، ففي هذه الحالة سأكتب بفتنى لأعيد النظام .



الذي كل شيء مع النساء . توقفت طلقات الرصاص وسكنت
الأصوات . ولزم أهل القرية دورهم . يغسلون جراحهم ويلبسونها
بالمراهم . ويعملون كاسات الدم . ويشربون السحاب . أشعلوا مصابيح
الزيت ، ومر كل منهم بقد على حسنة وأطرافه ينحس أصابعه : آذان
قطعت وأسنان كسرت . وأصابع بشرت . وعيون فقت . وأضلاع تهشمت .
وجالوا يدهنهم بين أنحاء القرية . ثم من نوافذ حرق ، وأبواب لحقت
وخنايز ثلاثة أحتلت كاس معلقة بالكتائب . وميزل الشيخ لاداس .
ما زالت تلتهمه النيران . والبريت والنسب يبعثان في الطريق . والقمع
القي تناثر على أرض الغناء استحال فجاً .

وسالت المعجوز مائدا ليتنا :

— وماذا حدث لزوجة المسكينة الأم بيلديز . هذه المرأة القدسية

حقاً ؟

— نجت بفضل زوجات الجيران اللاتي التحمن النيران وألقنها . كانت
جالسة فوق كرسيها . هذه المخلوقة البائسة . حاملة في مكانها مشغولة
تصرخ ولا تحاذل الغرار . وقد أمسكت بالمروث في عناب ولودر تشده إلى
صغرها وتهيم بكلام غير واضح .

— صدقتي ، الجوع هو علة كل الامراض ، كل وسرعان ما تتحسن
صحتك .

وقدموا الطعام — كان طعام صليام حيث ان الوقت يوافق صليام
عيد الميلاد المجيد . جلس القسيس ويبدأ يلوذ طعامه في ألم . ويصر
بأسمانه في غيظ وثورة . ذلك القسيس فوتيس اللعين كسر له السنة
الإمامية . لذا كان يزدد طعامه في سرعة دون أن يمضغه جيداً ، بينما كان
الدم يبرز من رأسه المشجوج . كان ينتظر مجيء الأم مائداً ليتناول منها
عقاربها . هدأت قليلاً آلام جسده ورأسه ، ولكن ما زال قلبه تتلظى
فيه نار الغضب .
وحسب لجارته ذات الألف المذهب :

— أخبريني يا ابنتي ان يجب أن أعرف ، هل رأي أحد وقتنا طرخس
أرضاً ذلك القسيس اللعين طريد الكنيسة ؟ .. اعني قليلاً من قشك
فإن أفك يشرح .

— ما هذا الكلام الذي تقول يا ابناً ؟ وهل هذا شيء معقول ؟ هل
يمكن لباحوضة كمثلك أن تطرح قدامك أرضاً ؟ وذاك الله شر هذا . لا تقبل
مثل هذا الكلام . لا يا سيدي لم يرك أحد . وأقسم لك على ذلك .
ولكن قلب القسيس لم يهدأ ، وقال :

— كل هذا يسبب خطأ مانوي طريد الكنيسة اللعين . كل شيء بسبب
فهو الذي غرر بميشيل ، وهو الذي قتل مازبورى وهو الذي دفع قطع
ساراكينا إلى النزول إلى ليكوفريس وهو الذي حرض ياناكوس على إشعال
النار في القرية . . . وهو المسخوف عن كل هذا . . . الخائن الذي باع
نفسه . سأسلخ جلده .

وأشار بيده إلى الجدران فافتربوا منه . وتهدد ثم قال :

— للأسف أنا في صيام الميلاد ولا يمكن أن أكل اللحم .

واعترضت المرأة العجوز :

— ولكنك مريض يا ابناً ، والمرضى يعفك من هذا .

وقال القسيس بصوت يذّبن وفور :

— أنا قسيس . ممثل الرب . وهذا لا يليق بي . أتني بعض الحيز

والزيتون وخضروات بدون سم . لاني جوعان .

فصموا له صنية حافلة بالطعام ، وملأوا له كوباً ليبتدا .

وبدا القسيس يأكل ثانية في شراهة ولهم :

وزوجها الحزين لم يحاول أن يقتحم النيران لينقذها ؟

— ماذا تقولين ؟ افهم هذا الشيخ السفه النيران حقاً . ولكن لا ينبغي
فوجه . أبداً . بل لينفذ حرمانه التي يحتفظ فيها بالجنهات الذهبية .
اختلطها بين ذراعيه . واندفع بها وسط الشارع ، ووضعها على الأرض .
وجلس فوقها وبدأ يمسك بصوت متهدج . . . وما إن اتوا بالأم بئيلوب
إلى حواره — هل تعرفين ماذا فعلت ؟ لن تصدق . . . جلست على الأرض
وبدأت تغزل جربها من جديد . أنت على حق فيما تقولين يا عزيزتي
مائداً ليتانيا . انها قدسية حقاً هذه المرأة التسعة .

وخرجت الأم مائداً ليتانيا وهي تسب الرجال وتلعنهم . وانفتح باب
وهي تسبح في طريقها ، واعتدت يد أمسكت بتوبها :

— ايه يا مائداً ليتانيا . هل رأيت زوجي ؟ لقد نلبسه الشيطان . قيل
انه كان يطلق رصاص مسدس هنا وهناك حتى قلب القرية رأساً
على عقب . يبدو انه قتل قسيس ساراكينا ، هل حقاً ما يقال يا عزيزتي
مائداً ليتانيا ؟

— لم أر زوجك يا جاريقاليا ، ولكنني رأيت طريقه يتسحرج على
الأرض بجسده يثر القديس بازل . يبدو أن رأسه في مكان وطربوشه
في مكان آخر يا عزيزتي المسكينة جاريقاليا .

وقالت جاريقاليا وهي تصفق اليأس :

— ليأخذ الشيطان .

ومرعت الطبيبة العجوز إلى بيت القسيس جريجوريس لتستأوى
جروحه . كان بعض أهل القرية قد حملوه إلى بيته . وأتلف حوله بعض
جيرانه يروحون ويحيثون . يقدمون له القهوة وشراب الليمون والسحلب .

وانحنى فوقه امرأة عجوز مهلهلة الثياب لتهمس في أذنه . والمخاط
يتساقط من أنفها المذهب فوق الفحبة المقدسة .

— لا خطر عليك يا ابناً . لم يصيبك شيء . ولا تجزع . لم نلق طعاماً
عند الصباح لذلك تشعمر بالجوع . الجوع فقط هو الذي يؤكك يا لبطلة
الاب .

وبعد لحظة نهضت المرأة العجوز البالسة التي قضت حياتها تعاني
حرارة الجوع والحرمان وقالت :

وحدث نفسه قائلا :

- لا بد أن آكل وأشرب كثيرا حتى أسترد بعض قوتي - يجب أن أصبح من نوعي لهذا ميكرنا لمقاومة الأعداء - لا بد أن يرسل برقية عاجلة إلى باشا سميرنا ، ويطلب على جناح السرعة جنودا أتراكا مسلحين بالبنادق ، لحزب الاشتراكيون قرية ليكوفريسي ، لتأت الجنود سريعا لطردهم - لا بد أن يسود العدل والسلام على الأرض من جديد -

وانفتح الباب ، والتفت القسيس -

أحسن براحة ، وقال :

- أهلا بك ومرحبا يا أم مالدالينا - تعالى ، أدنى مني ، سأهمس بكلمة في أذنك .

دلت منه العجوز والحنن عليه ، وهمس في أذنها :

- تخلص من هؤلاء الجيران وأذهب لي دجاجة .

لَجَدَوَى يَا يَسُوءَ لَجَدَوَى

في صباح اليوم التالي استيقظ الأغا ميكرنا وأصاح السمع :
لا صراخ ، ولا طلقات رصاص ، كل شيء هادئ تماما - وصاح مسجرا
لذلك ، وغغم قائلا :

- ترى هل كنت سواعد الكفرة ؟ ماذا يحق للشيطان كفوا عن قتل
بعضهم بعضا ؟
ونادي عازما :

- تعالى أينما السحبة الدنسة ، هل كفوا عن القتال ؟ هل انتهى
كل شيء ؟

- انتهى كل شيء ، يا أغا ، وكفوا عن القتال ، ولكن التمردين
احتلوا بيت الشيخ بطرياراكاس ، ولا يريدون مبايعته ، يقولون : البيت
يئيبنا ، وقتل ناظر المدرسة المسكين يا أغا .

وصاح الأغا في قبضة وسرور :

- قتل ؟ حسن ، هذا هو ما كنت أحب أن أسمعه - واحد على
الأقل ، وماذا عن القسيسين ؟

- لا زالوا على قيد الحياة .

- الاثنان ؟

- الاثنان ، تعرف أن القساوسة كالتقطط ، كل منهم له سبعة

أرواح • كل ما حدث خفوش وكدمات في وجهيهما ، وثلب بعض شعر
لحيتهما ، ولكنهما يخرى ، لم يمت أحد منهما بعد .

وتنتم الأغا :

— وأسفاه • لا زالا على قيد الحياة • ولكن صبرا ، فمن المؤكد أن
سيئسب بينهما قتال جديد بعد قليل • أسرجى بغلى .

والجهت الحدياء العجوز ناحية الباب • ولكن الأغا نادى عليها ثانية :

— أين إبراهيمي ؟ أنسل من هنا قبيل الفجر .

— العاهرة بيلاقيا • لا بد وأنها جاءت الى هنا قبل الفجر • هم السبب •

— ليأخذها الشيطان • ألم يشبع منها بعد ؟ لتذهب الى الجحيم معه •
هذا العاسد الخليل • ولكنه لا زال سبيبا هذه اليائس • لا يعرف كيف
يعاير الحيت من الطيب • اذهب وأسرجى بغلى •



واستيقظ القسيس فوثيس ميكرا هو الآخر • كان لا يزال يتوهم •
ولكنه بعض على شفتيه • يتحمل أوجاعه في صمت • • فكبرياؤه ينعمة
من الأبن • وتنادى مانول ، وقال له :

— عزيزي مانولي • يجب أن تسرع ، فليس لدينا منسج من الوقت
تضيعة • أرسل شعبنا ، رجالا ونساء • ليستولوا قورا على جداتنا وكرما
وزيتونا • • اطلب منهم أن يتواكوا هناك ويقيموا على حراستها حتى
لا يأتي من بطردنا منها • سأنفي هنا مع بعض رفاقنا • اذهب في رعاية الله •
— ألا زلت تشعر بالآيا آياتنا ؟ •

— ماذا يهم أن كنت أتألم أم لا يا عزيزي ؟ ألا زلت تفكر في الخطر
يحدث بمحضنا ؟ اذهب وادع رجالنا • ليبتشروا بين أملاكنا • سيتدخل
الأغا بقينا بين لحظة وأخرى •

نزل مانول الى الفناء • كان ناظر المدرسة لا زال مسجى فوق المجارة
وسط الفناء • جدد جفونه • فلم يعد من المستطاع تمييزها • وعيناه
الذنان اطلقا نورهما تشخصان الى السماء •

وقطعت النساء بعض فروع شجر الغار • وغطت بها الحنة • وجلست
بعض عجائز النساء القرفصاء من حوله يبيكين في هدوء • ووضعت أم
نفس ربحان في يده • ليأخذها معه الى طفلها الذي مات ميوعا • إذ كان

إنها أحد تلاميذ حاجي نيقولا • فقد أرسلته الى مدرسة ليكوفريس وأعجب
به ناظرها •

دعا مانول رفاقه وقسمهم مجموعات ثلاث • تسلموا بالهراوات •
وتزودوا ببعض الطعام من مخازن البيت وانطلقوا • شقت مجموعة طريقها
الى حقول الشيخ بطرياراكاس ، والأخرى الى بساتين الكرم والثالثة الى
مزارع الزيتون •

كانت القرية لا تزال غارقة في سباتها • والشوارع مقفرة • والدخان
لا زال يتصاعد من بيت الشيخ لاداس • وذاب الثلج الذي كان يغطي
السهل • وانقضت السحب • وصفت النساء • وابستت ثمة الجبل
التي يعتليها النبي ايليا قبت لآلة غارقة في ضوء الفجر • يغطيها الثلج •

وسمع الشمس وقع أقدام • فاطل من النافذة ورأى أهل ساراكيئا
قادمين على الفور وجهتهم • واترأى ملابسهم على عجل • وفي نفسه فرحة
خبيثة • وأسرع لينعى الى القسيس جريجوريس الألباء السينة •

كان يحدث نفسه قائلا :

— سأضع بعض السم في أذنه • أنا أحق بأن أكون أسقفا وهو
شماسا • ولكن القدر أعنى •

أسرع المحطو على الطريق الصاعد الى بيت القسيس • وفتحت أبواب
في هدوء ورجل أثناء مروره بها • وساحت الديكة • وبلغ الشمس بيت
القسيس • قدفعه ودخل • كان القسيس جالسا فوق سرير • يرقب
النهار الجديد منذ مطلعته • تناول بالأمس عشية طيبا • إذ كانت الدجاجة
سمنة لحمة • وغاص فيها بوجهه حتى أذنيه • ودهنت الأم مانافالينا
جروحه ببعض مراهمها • وعصبت رأسه في حرص وعناية • وزايله الأم •
ولكن لحنته فقدت بعض شعرها • وثلب الجانب الأيسر لشارب • لقد خرج
القسيس البدين الهنكم من المعركة معزق الثياب • مشوه الأسنان •
متنوف الشعر فاصبح كالقطة المسومة •

بيد أنه لم يعد يشعر بالآيا أو خجل • شيء واحد فقط تسلط على
فكره • رغبة واحدة فقط لا غير : أن يقضى على مانول ويعطع دايرة • قرار
الحرمات الذي أتى به في وجهه لم يعد كافيا • يريد أن يشرب دمه •
استيقظت في نفسه كل نوازع الهمة البدائية • والغرائز الوحشية •
آه • أود أن أصرع مانول وأطرحه أرضا وأحتق فوقه وأقسم زعارة وفتنة •
وأشرب دمه • عوى في باطنه ذل من القرون الأولى • هم في أعفاه •

وكسر القشرة التي تغلف روحه وبات ينظر الى عاتوق ويهوى - المحنة
المسيحية - والدعوة للمسيحية - الخوف من - والنجيم - والفردوس - كال
هذه زابت قلب القسيس جريجوريس - لم يبق في تلك الصحراء الفاحشة
غير قلب محب .

اقرب الشمس وهو بيتلج لعنانه - لم يكن يعرف كيف يصوغ
الكلمات التي سينطق بها بحيث تؤلم القسيس وتوجهه في قسوة ضاربة -
وتصنع الحظوة وقال :

- يا ايانا ، اسالك الصفح والغفرة - السفن الضخمة خلقت لتواجه
الاعاصير العاتية ، والقمم الشامخات تسلمها البرق - وانت السفينة الضخمة
يا ايانا ، والقمة السماء -

وصاح القسيس في ضيق :

- افصح ايها التعلب العجوز - ولا تمثل دور الساذج البريء - فانا
اعرفك جيداً - كنت تطعم في ان تكون اسففا ، وخاب وجاؤك - وشفتاك
تغفران سماً - دع عنك كل هذه التلميحات ، واصبح - ما الموضوع ؟ -

احس الشمس بالدم يغلي في عروقها ، ولكنه امالك لنفسه ، والى
على نفسه ان ينقذ فيه السم فطرة فطرة -

وقال بصوت باك :

- خرج القسيس فونيس من المعركة سليماً معافى ، لازال على قيد
الحياة يزعم منتصراً -

- دعك من هذا ايها المشرد ، انما آتيت لتي ، آخر غير هذا - افزع
كل ما في مرأتك -

- رايت بعيني وامى اهل ساراكيئا وقد خرجوا مبكرين ، وانتشروا
بين ضياح الشيوخ بطرياركاس ، لا يد انهم استولوا عليها - لقد هلكوا -

- ليتليك الله يطاعون - حسيك هذا -

- هناك لانس ما هو ادهي وامر يا ايانا ، اغفر لي -
- تكلم -

- القرية كلها تنتدب بالصراع الذي دار بينك وبين القسيس فونيس
وكيف طرحك اوصاً - ويثم فوق صمودك الطاهر -

استشاط القسيس جريجوريس غلياً ، واحمر وجهه -

- ادل مني ايها الحقير - اقرب -

ولكن الشمس صاف يد القسيس الثقيلة - وتراجع حيث احتس في
راوية من راوية الحجر - وواصل كلامه :

- وما هو اشد وانكى من ذلك كله -

- اشد وانكى من ذلك - تكلم يا لسان الحق الرقطاء - افزع
كل ما في جعبتك - هل تريد ان تقتلني كذا ؟ -

- ما هو اشد وانكى يا ايانا - اه - تشجع - فكلنا كما نعلم
ينثر الى زوال - مخلوقات فانية ياتة - الموت قدر مقدر علينا -

امسك القسيس بصندوق الشوق المعدني وقذف به الشمس في
راسه - ولكن الشمس عرفت كيف يعلت منه ، ان طاماً راسه وجنا على
الارض فخر الصندوق من فوقه ليرطم بالناقذة ويعظم رجاءها -

- تكلم والا ساقوم لك ايها النفاق السفيه واخبرك ضرباً مبرحاً -
ماذا اشد وانكى مما قلت ؟ -

- ماذا ؟ ألا تعرف يا ايانا ؟ اه - كيف البشك به ؟ يسكاد يغص
على - اخوك -

فقد القسيس اصحابه - والقي بدثاره نعيماً - وقفر من سريره والنقص
فوق الشمس - ولكن الشمس كان حذراً - فوضع المنضدة وكوسيين بينه
وبين القسيس واحتس ورامهم - وتصنع اليكاه وتمتم قائلاً :

- قتل - اخوك -

وزار القسيس الذي تدافع الدم في عروق وجهه المستفحة

- من ؟ مني ؟ أين ؟ -

- لا اعرف يا ايانا - كيفقل ان اعرف ؟ اه الشكين القوه في حفرة
مشمم الرأس - وهو الآن مسجى في فناء بيت بطرياركاس يحيط به
قطاع الطرق -

- ألا تشك في احد يا شماس عليك اللعنة - تعال - تذكر جيداً ،
واجب على سؤال -

- ماذا تنتظر مني ان اقول يا ايانا - لا احد - ولكن استطيع الآن
ان اذكر ما حدث - من يدري ؟ ربما كان -

- ربما كان من : تذكر جيداً يا صديقي الطيب .. اطلق ولا تخف ..
 أنت رجل عاقل .. لا بد وأنت تعرف .. حس .. من الآن ..
 ونحن المصلحة والكروبيين جانياً .. ووضع يداً خفية على كتف
 الشماس .. وقال له :
 - أنت تعرفه بكل تأكيد .. ربما يكون .. من :

- هم م م .. كنت هناك .. وجعل إلى المصلحة أنى رأيت .. ولكننى
 لمست وأتانا من شى .. أغشى الخيطية ، أخاف المحجم يا أبانا ..
 - اطمئن يا بنى ولا تخش المحجم ، فاني سأكون هناك أذكرك
 شرها .. تكلم من حرية ، بعد أن أتيت أنا أيضاً في نفس الشخص ساعة
 صاملي بالثبات .. هذا الاشتراكي الملعون .. رأيتك أنت بعينيك ، أليس
 كذلك يا صديقي ؟

ولزم الشماس البائس الصمت .. كأن يحنى عذاب المحجم ، ولكنه
 يخاف أبانا أيضاً ، وأصيب بدوار ..
 وعزه القسيس بعنف :

- هل يمكن أن أطلبك شاهداً ؟ - تعال .. أنت تعرف مدى حبي لك
 وأعجابي بك .. أغنى على ارتداء ملابس .. سأذهب لتقابلة الأبا .. سأطلب
 منه القصاص .. إذن أنت رأيت .. أليس كذلك ؟ رأيت بعينيك هاتين .. أي
 بنى العزيز ؟

- ماذا أقول يا أبانا .. خيل إلى أنني رأيت .. ولكننى لا أستطيع أن
 أذكر عن وجه البقيل أنني رأيت ..

لوح القسيس بذرعه مهتداً ، فضال الشماس وجب ، وصرح
 القسيس في وجهه :

- رأيت .. نعم رأيت بعينيك .. لماذا تنكر ؟ هل أنت متواطئ معه ،
 مع هذا الاشتراكي .. أيها النفس ؟

ورفع الشماس عينه ، ورأى قبضة القسيس معلقة تكاد تهوى على
 ثم رأسه - فصرخ إليه :

- يا أبانا .. أمهلني حتى أستجمع شتات فكري إذا كنت تريدني
 أن أذكر ..

- لك ما طلبت ، واني منتظر ..

واعتكر الشماس : - قلت أنني رأيت .. ولكن رأيت من ؟ هذا عالم

أفقه .. لن أقول ذلك .. وهكذا لن أفزع في الخيطية وإرتاح لهنداء
 الحائط .. وصاح :

- رأيتك يا أبانا .. تذكرت الآن .. رأيتك بعيني رأسي .. وأقسم على
 هذا .. ساعة أن طرحك قسيس ساراكيثا أرضاً وبدأ يغرس لركبتيه في
 سدرك القدس ..

- أحرص ، ليس هذا هو ما أطلبه منك .. أغنى على ارتداء ملابس ..
 انى سعيد لأنك رأيت .. عدو المسيح .. ومعهد لأن معي شاهداً .. أنت
 لا تدري يا صديقي أى خدمة جلية قدديها إلى المسيحية بضعتك هذا ..

ورفع الشماس سروال القسيس وجوربه وقمصانه وجلبانه .. وأنهك
 كفى ستر ذلك البدن الكهنتي باللباس .. والبسه هذه وحزامه وقنسوته
 ثم ساعده على الوصول إلى الباب ..

- أعطني ذراعك أتوكاً علياً .. لا تصرف يا شماس .. أغنى على
 المسير حتى بيت الأبا ... خفف الخطو ولا تسرع ، وانظر أن كانوا قد
 حملوا الجنة إلى الكنيسة .. ولكن أهم شى .. أن لا تنسى أنك رأيت ..

كان الأبا يتوابعاً ليخطي سهوة بخلته حين رأى القسيس جرجوريس
 يدخل بيته .. يترجح ويرجع وقد عصب رأسه .. وما أن وقع بصره عليه ،
 وهو على تلك الحال ، حتى انفجر ضاحكاً .. وصاح :

- كيف أصبحت على هذه الحال يا قسيس .. من الذي عشم وجهك
 هكذا ؟

وبسط القسيس ذراعيه على امتدادهما وصاح :

- العدالة يا أبا ، العدالة .. القصاص .. تسأل من ؟ أنه مانولي ..
 هو الذي أثار ثائرة أهل ساراكيثا .. وهو الذي أتى بالإشتراريين إلى
 قريتنا ، وأشعل النار في بيوتنا ، وشج رأسى ، وقتل أنى ناظر المدرسة ..
 عندي شهود .. أنت ولي الأمر وممثل الحكومة التركية في ليكوفريس ..
 الولد بك ، وأمد اليك يدي سائلاً .. العدالة والقصاص يا أبا .. سلطني
 مانولي أقتص منه أنا .. القرية كلها عن نكرة أبيها تنوسل اليك بلساني ..

- لا ترفع صوتك هكذا أيها القسيس المبارك ، كنت تخرق أذني ..
 اجلس .. منصنع لك مارنا فتجان قهوة .. لنهدي من روعك أيها الشيخ
 البائس .. لا تفر البتة ، ولا داعي للقلق .. أنت روميون .. ولكنكم يرمون

رومية تتسارع وتختلج في بعضها وتتكسر كالبيض ، هذا كل شيء
الأمر ، لذلك لا داعي للصراخ .

أسند القسيس ظهره الى الحائط حتى لا يهوى الى الأرض ، وعاد
طفيه :

— سامنى مانولى .

أحضرت مارثا كرسيًا على عجل ، ومساعدته على الجلوس . وكان
الأغا في تلك الأثناء يتقلد سيفه ويقبض مسدسه النش في حزامه الأحمر
العريض ، ولوى موطه تحت ابطة .

وانفتح الباب ، ودخل شيخ حزيل ، حافى القدمين ، مقوس الظهر ،
احترق نصف شعر لحيه ورأسه ، ولطخت الحروق وجنتيه . سار وسط
الفناء وهو يحجل ثم خر الى الأرض تحت قدمي الأغا . وصاح باكيا :

— يا أغا ، الرحمة .

وقابه الأغا بطرف قدمه وقال :

— يا للسماء !! ألسنت أنت الشيخ لاداس ؟ ما هذا القناع الذي
تغطي به وجهك ؟ من أين لك به ؟

— أشعلوا النار في بيتي يا أغا ، وحشمو الجراز والبراميل ، واحرقوا
الغزائن والإثاث كما أحرقوا قلبي .

— من ؟ من ؟ على رأيتك ؟

— مانولى . مانولى الاشتراكي .

— معنا شهود يا أغا . رام بانايوتي ، ورآه الشياطين ... ورايته
أنا أيضا .

وصعد عن الشيخ الخيل صوت كالنفاذ :

— احرقه يا أغا ، احرقه كما أحرقتي . الرحمة يا أغا . منجوع
الخشب وسط الميدان ، ونبقى عليه قارا ونشعل نارا نحرقة فيها .

وحرق الأغا رأسه ، وبسقى على الأرض في حيرة وارتيباك . وعهم :

— ورطة ... ورطة . ليأخذكم الشيطان أيها الروميون .

ودفع الفناء بحطوات متوترة . يضرب الهواء بسوطه ، وكلما ضرب
الهواء ازداد غضبه وتضاغت أكثر وأكثر . وزار :

— قسما بحياة النبي محمد ، ساقض عليكم جميعا ، قسيسين
وأتينا واشتراكيين ، وأشنفكم جميعكم الواحد بعد الآخر فوق شجرة
السنار .

واستدار عند سماعه صرير الباب وهو يفتح ثانية . رأى بانايوتي
يحجل في مشيته ، حاسر الرأس يفوق طربوش . ومعه مسدس واحد في
حزامه وقد تمزقت ملابسه ولطختها الدم والوحل . وتورم وجهه واستحال
لونه أحمر قانيا .

ولم يتسالك الأغا نفسه فالتفجر ضاحكا :

— ما هذا الشيطان القرد فور ؟ ماذا أسبك ؟ الذب المنتوف . أم
الجبل الأحمر . أم بانايوتي ؟

أسند بانايوتي ظهره الى الحائط ، وعهم دون أن يجيب . وأحس
بالم في ركبتيه . ولم يفر على الوقوف ، فهوى الى الأرض رويدا رويدا حتى
تخرج فوق الحجارة وسط الفناء .

تفرس الأغا في زارتي الصباح الثلاثة الواحد بعد الآخر : القسيس
تقوم فوق كرسيه . بن وينوج ، ويده ترتجفان وقد قلب فنجان القهوة
فوق ثوبه ، والشيخ لاداس سقط على الأرض تحت قدمي الأغا ، يحرك
رأسه في بطء . وبلغ فيه ويغلقه في حركة نلها . وبانايوتي استحال
كومة من الخرق والوحل . يظهر من تحتها قدمان وجه متورم .

وصاح الأغا في غبطة :

١— ها ها ها ... لم أر شيئا كهذا في حياتي قط . سقن محطمة ،
وأعلام مرفقة ، وأمرأه بحر تضعضعت حالهم . ولكنها سلالة الروميين
تغزو فناء داري وتفسده بالاحتيا الكرية . تعال يا أم مارثا ، هات
نقرة وامسحهم لتنظلي الفناء منهم .

وأحس القسيس بالإهانة فرفع رأسه :

— لا تنس يا أغا أنك ملزم بتقديهم حساب حكومتكم السامية . يوجد
بين طهرانيا في ليكوفريسي مبعوث من قبل بلد عدو ، مهمته هي الاطاحة
بالامبراطورية التركية واحراقها . لا تفكرك ... ولا تأخذ الأمر مأخذ

الهرول - ارفع قبضتك واصرب بقوة ، ماذا يفعل المرء اذا تسلسل ذنب داخل
خطيرة القاتنية ؟ يغلقه على الفور . سلم لنا مانولى ... لاندنس يدك به .
وانترك العمل القدر لنا نحن المسيحيين ... ستحتشد القرية كلها اليوم
امام دارك . تصرح بمطالبة بتحقيق العدالة . صوت الشعب هو صوت الله .
انصت لنداء الشعب : « أنت أغا القرية ، محقق العدالة » .

غرق الأغا في تفكير عميق ، ودأبت رأسه ، ودار معها المناو القرية .
وقال في نفسه :

« أي ضرر في أن أقطع دابر روحي ، واحد على الأقل بعد مكسبا -
ودون أن يكون لي يد في ذلك ... لتتربت قليلا .

ورفع يانايوتي رأسه ، اذ وافته النجاة على الكلام :

« ماذا التردد يا أغا ؟ احسم أمرك . رأيت مانولى يعينى رأسي وهو
يهشم رأسي ناظر المدرسة بحر ضخم . رأيتة يعينى حاتين ، وهو يعطى
صفحة البترول لياناكوس ، وسمعتة يقول له : « ابدا أولا وقبل كل
شيء بحرق بيت الأغا . احرق هذا الكلب في بيته حتى تتحرر قريتنا من
نير الأتراك » .

تطأير الشر من عيني الأغا وزار :

« هل تقسم على ذلك ، يا يانايوتي ؟

نظر يانايوتي إلى القسيس الذي أوما إليه برأسه . ثم قال :

« أقسم على ذلك ، يا أغا .

وتحامل القسيس على نفسه محاولا النهوض وقال :

« مانولى اشتراكى خطير . يا أغا ، له هدف واحد فقط : الإطاحة
بالامبراطورية العثمانية . ويقتد البلد الاجنبي العدو من ورائه بظاعره ،
ويخرجه ، لو تركناه حيا . سنقوى عوده ويشهد بأسمه حتى يقضى علينا
جميعا » .

ورد الأغا وهو يهرش رأسه :

« دائما تدور وتدور ثم تعود الى هذا الموضوع أيها القسيس اللعين .
وبعد غطأت من الصمت تنتم قائلا :

« لا ، أنت تباليغ يا قسيس ...

ورغم هذا أحس بالحيرة والارتباك . لا يعرف كيف يستجيب الأمر .

وقف القسيس ، واستجمع قواه ، وتقدم ناحية الأغا وهمس :

« هل أنا أبالغ ؟ هل هذا هو رأيك يا أغا ، ولكن الأمر واضح وضوح
النهار تماما . تذكر كيف بدأ مانولى حياته في قريتنا - راعيا خفيا ، نابعا
ليطير ياركاس ضمن خدمه . لا يملك شاة واحدة لحسابه . ولا فراط أرض .
يانسا ، يدا القبل جسمه ... وانظر اليه الآن كيف أصبح يقضل حيله .
ومساعدة العدو . وحضا كاسرا . وضع راية بأسمه . ليشق عصا الطاعة
ويتمرد . قتل الناس ، وحطم أسرا ، وأتى اليها من آخر الدنيا بهذا الأفاق .
القسيس فوتيس وعصابته المهلهلة ، واحتلوا جميعا جبل ساراكياء . وبدلوا
بينون قرية جديدة على بعد خطوة منا . يسكنها الاشرافيون . أقسم أن
يحرق دارك ويقتلك يا أغا . ويجمع خبرات قريتنا ويأتى بالاشتراكيين
ليستولوا عليها ... وأنت يا أغا لا تفرد بما يحدث هنا ، انتبه . وحذار ،
فقد تسلس الذنب إلى خطيرة لفتك ، فاقنله » .

وصاح معه الآخرون يؤمنان على كلامه :

« اقتله ، اقتله » .

مرة أخرى عرش الأغا رأسه . كان حتى تلك الساعة يأخذ الامور
مأخذا سهلا ، ويقول لنفسه :

« هؤلاء روميون مجانين . دعم يصنعون حسابهم مع بعضهم بعضا ،
واذعن أنا غليوني ، واشرب الخمر ، ولا أعياهم في قليل أو كثير .
أما الآن فقد دخلت الامبراطورية العثمانية في الموضوع ، وأتى الاشرافي
العدو . وبدأ زمام الامور يفلت من بين يدي . نعم ... نعم ، لو تركت
هذه الدودة السمسة مانولى تنعم بالحياة ، فمعنى ذلك أنني أترك الخطر
يحدث بالامبراطورية العثمانية ويتهددها ... ووطت نفسي في مشاكل
عويصة . صاحب لحية التيس على حق فيما يقول » تسلسل الذهب إلى
الخطيرة . وإذا لم أقتله سيقتلني » .

وقنع فيه في صيق :

« اخرجوا جميعا . اتركوني وحدي . الأمر جد خطير . دعوني أتديره
... اذهبوا إلى الجحيم » .

ورفع سوطه ليذهب به روسهم وظهورهم .

واستبد الهلع بالثلاثة ، وغاصت ووضعت بين أكتافهم ، وهروا
خارج البيت يرتطمون ببعضهم بعضاً ، والسوط من وراءهم يصفر في
الهواء ، وصقق الأفاعي الباب برفسة من قدمه ، وأصبح وحيداً .
وصاح يمارنا :

— هات زجاجة العرق ، فاني سأخذ قرازا .

سار القسيس جريجوريس والشيخ لاداس بين شوارع القرية .
وأصدر القسيس أمره إلى الشماس ليأتي جرس الحداد . وسرعان ما تجمع
أهل القرية في الميدان ، يصيحون مطالبين بالقصاص ، فهم لا يحتلون
العاز الذي لحق بهم بعد أن أذلهم الشحاذون ، ووقف القسيس بينهم ،
واستجمع قوته وصاح بهم :

— يا أولادي ، لعننا العاز ، ولا يد من أن نأثر لأنفسنا . تحدثت
مع الأفاعي في هذا وانفقا في الرأي . من سيب كل هذه المآسي ؟ شخص
واحد فقط ، هو مانول طريد الكنيسة . ولكن حانت مساعته الآن .
سيسلمه لنا الأفاعي ، لنحاكمه وندينه بكل جرائمه ، ونشرب دمه . انفضوا
عليه يا أطفال ، هبوا وادهبوا جميعاً من فوركم إلى بيت الأفاعي ، تجمعوا
أمام بيته ، ولوحوا بأيديكم وارفعوا أصواتكم مطالبين : « مانول ، مانول ،
أعطنا مانول » . لا شيء غير هذا النداء ، واتركوا الباقي لي .

وانتد طريفة إلى الكنيسة ، وانحنى فوق جسد أخيه ، وقبلة القبلة
الأخيرة ، ورتل صلوات الميت على عجل ، إذ كان ذهنه مشغولاً بمانول .
ورفع أهل القرية الجثة وحملوها إلى المقبرة . وعندما رأى القسيس
الناس وهم ينزلون بأخيه إلى لحده ليواروه التراب ، تذكر أيام الطفولة
فغاشت الدموع من عينيه .

والتى كل واحد من أهل القرية بحفنة من التراب فوق جثة الرجل
الميت . وصوب الشماس لكل منهم كوباً من العرقى التماساً لرحمة القديس ،
ثم وزع عليهم كسرة خبز وحفنة زيتون . وعاد الجميع من فورهم إلى القرية
حيث تجمعوا أمام بيت الأفاعي .

انصبت النهار ، وسكر الأفاعي حتى لم يعد بحاجة إلى مزيد ، وانتد
قرازة . نادى بانايوتي الذي قبع عند عتبة الباب ينتظر ككلب أوسعمه
صاحبه ضرباً .

— تعال هنا يا أكل الجبس الملون ، هل تستطيع المشي أم أصبحت
كسبحاً أيها الأبله ؟
— لو كان ذلك للقبض على مانول فاني أستطيع .
— أرى رأسك ، ولكنني لا أرى الطربوش . ماذا فعلت بطربوشك
يا كافر ؟

— نسيت بالأمس يا أفا عند يار القديس بازل . قيل لي إن الأم
مأذاليتيا قد غرت عليه ، وسأرسل من يأتيه به .
— اليس طربوشك ، وانقش اثنين من الرجال الأتساء من أهل
القرية ، وأتوني مانول ، هذا إذا لم تستطع أن تأتي به وحدك . انصرف .
سريعاً .

— حيا أم ميتاً ؟

— حيا .

وانصرف بانايوتي فرحاً مسروراً حتى أنسته الفرحة جزوه التي
أصابته ركبته . وانطلق يعدو بأقصى سرعته .
وبدا يلرك يديه وهو يتمتم :
— حانت مساعدتك يا مانول ، أحسنت صنعاً يا يهوذا بانايوتي .
أحسنت صنعاً أيها الهمام ، لقد انتصرت عليه .

أقام مانول ورجاله خصاً في حديقة بطرياركاس الواسعة التي تقع
خارج القرية قرب بحيرة فويداماتا . واختار مانول من رجاله من غسند
اليهم بالحراسة ، إذ رأى أن يعود إلى القرية مع المساء ليطلب على القسيس
فوتيس ، ويتشاور معه . وضع ، وهو في طريقه ، أجراس الحداد فانقبض
قلبه .

وبعد الظهور بتقليل قبل قسطنطيني بعد . كان يحمل إليه أخباراً .
— القسيس جريجوريس يتر ثائرة الغربة من جديد ، يطوف في شوارع
القرية يرأسه المصوب يهيج أهل القرية . ويحرمهم على النجس أمام
بيت الأفاعي ليشتقوا : « أعطنا مانول ، أعطنا مانول » . الموت لمانول ، يرينون
القبض عليك يا مانول . يلقون بكل المزداهم على عاتقك ، وينهونك بالسرقه
واخرق البيوت ، والقتل ، وقبل هذا كله ينهونك بانك اشتراكى .

احب في مكان ما . حتى يساراكينا . أو الجا الى مكان بعيد . حيالك في
خطر . الجميع يطاردونك .

واياب مانوي :

ـ مكانى هنا مع اخوتي الذين يتهددهم الخطر . الفرار هرب . من
الحركة يا عزيزى قسطندى . كيف حال اخوتنا الآخرين ؟ هل واسم .

ـ اخذ ياناكوس حماره من دى . واخذاه في مزرعة الزيتون الكبيرة
احتجى هناك هو ورجاله . وتحسنت حالة القسيس فونيس . ويقول انه
سيذهب غدا لتسامة الاما . يقول عنه . انه وحش حقا . ولكنه ليس
بالكائن الذى ينصر غينا وكراهية في اعماقه . سيفر حقوقنا . وسوف
تسير الامور سيرها الطبيعي . المسيح معنا . ولكن مهما كان الامر . فاني
خائف يا عزيزى مانوي . اقسام الجميع على سفك دمك .

ـ اسأل الله يا قسطندى ان يحمي وذر عنه المراتم كلها على عاتقي
ويجهزوا علي ويتركوا رفاقي في سلام . سارد على كل اتهاماتهم بكلمة
واحدة . نعم . انا الذى سرفت . انا وحدي . وانا الذى قتلت . وانا الذى
اشعلت الحرائق . سأعترف بكل ما بكيولته من اتهامات . كلها دون
استثناء . ان كان في ذلك خلاص اهل وجمعتي . . سأذهب راضيا
مختارا واسلم نفسي للاما . والان فورا .

وهبت قسطندى . واتسمت حفتنا بعينه . ورأى مانوي امامه وقد
اصبح انسانا آخر . ونجا وضاه يشع نورا . وقامة مدينة فارعة . يقف
سامعا وسط الاشجار كأنه منارة من نور . وطرفت عيننا لقسطندى فقد
بهرحنا النور . وقال :

ـ عزيزى مانوي . لست اهلا لان اصطحبك . فان روسي لا تساوي
اكثر من قسطندى وعائلته . واذا غابيت في تقديري فلن ينعفى الامور بشع
أصدق . ايضا . فهي لا تساوي اكثر من ذلك باي حال من الاحوال . اما
انت يامانوي فان روحك تمتد لتسع الناس جميعا . ان ما ارتعد انا منه
فرقا . تنزع انت الى ملاقاته خفيقا فرحا . وما اسميه انا خوفا . تسميه
انت املا . لك الارادة والقوة على ان تتلقى اثر المسيح . فافعل ما يليك
به الله . يا مانوي :

واتجه مانوي ناحية بوابة المدينة وقال :

ـ هيا .

وتبعه قسطندى مطاطره الرأس .

وخربنا من المدينة . وسارا بمحاذاة البحيرة . كانت السماء صافية
الاديم رغم الشتاء . والهواء شفافا بقيا لا أثر للضباب فيه . والبحيرة
مرآة محلاة تنعكس على مياهها أشعة الشمس خضراء داكنة . وعيدان القاب
واشجار الصفصاف تطل الى سورتها المنعكسة على صفحة الماء . وطائر
من طيور اللقلق يقف عند الحافة على ساق واحدة يحمق في هدوء . وغير
الكثيرات . وطائران آخريان شبا ساقتهما الى بطنهما وحلقا فوق البحيرة
في صمت . سيران نحو الماء يعيون نائمة : اذ كانا يتصوران جوعا .

سرح مانوي الطرف فيما حوله . كأنه يتنظر نظرة وداع يودع بها
البحيرة والاشجار العادية . ووقع بصره الى جبل ساراكينا الذى غطته
طلال بنفسجية رقيقة . ثم انحد بصره الى السهل وتامل اشجار الزيتون
والكرم واشجار المسلة المزهرة . وحيات الليمون التي تلعب وسط الأوراق
الداكنة . وشجرة الفوز التي تنسى . بالقرب حول الربيع . اذ توشك براعمها
المثلثة ان تنفتح وتكتشف عما بداخلها .

وتتمم مانوي . وعمل شفثيه ابتسامة :

ـ ما اجل الدنيا . .

وتفكر قسطندى فيما بينه وبين نفسه دون أن يفصح عن سريره :

ـ ولكن روح الانسان أجمل . ففي بعض الأحيان . . .

وسارا في طريقهما الى القرية . كانت الاجراس لا زالت تدق دقات
الحداد . وعلى البعد جلبة وضوضاء اختلطت بها سيحبات مختلفة ونياح
كلاب . وصاح ديك .

وقال مانوي :

ـ يبدو ان الطقس سيتغير . انصت اصباح الديك .

وزم قسطندى شفتيه . كأن يخشى ان ينفجر في تسيح مسموع .

وتبع مانوي مطرقا برأسه صامتا .

ـ ورجاء . ما أن اقتربا من بحر القديس بالزل حتى اندفع ياناويوتى
من وراء شجرة . وصعد رجلان من ذوي القوة والبأس . خرجوا يلوحيون
بفراواتهم . كان ياناويوتى مرتديا طربوشه هذه المرة . وامتقع لون قسطندى
وترجع قليلا الى الوراء .

وقال لنفسه :

— سبيليان القيس على مانول .

ورأوته نفسه أول الأمر على القرار بأقصى سرعته ، ولكنه خجل من هذا الخطر ، وتبث مكانه والخوف يكاد يقتله .

وتقدم بانايوتي أمام رفيقه في عزم وإصرار . ولوح بيديه في وجه 'مانول' متوقفا مهددا . وخار :

— إلى أين يا طريد الكنيسة ؟

— إلى ذاهب للقبالة الأغا يا بانايوتي . لا تغضب ، سمعت أنه يبحث عنى ، وإلى ذاهب لأسلم له نفسى .

وحمل في بانايوتي فاعرا غاه :

— ألا تخشى الأغا أو القسيس أو القرية ؟ هل أنت شيطان فى ثوب انسان ؟

— من لا يخاف الموت لا يخاف الناس يا بانايوتي . هذا هو السر . هيا بنا .

— سر أنت أمامى ، حتى لا تعرب عنى .

ولفت إلى رفيقه :

— انصرفا أنتما لحال سبيلكما ، ساتول بنفسى أمر هذا الاتفاق . وانصرف أنت أيضا يا قسطندى ، أيها الإشتراكي القدر .

وتردد قسطندى . ونظر إلى مانول .

وقال له مانول :

— اذهب يا عزيزى قسطندى ، عد إلى بيتك حيث زوجك وأطفالك ، ودعنى وحدى .

لم يكن قسطندى بحاجة ليكرر عليه مانول الكلام ، فانطلق مسرعا . وأصبح مانول وبانايوتي وحدهما ، وصاروا صامتين لفترة غير قصيرة وأخيرا قال مانول بصوت خافت : رفيق :

— بانايوتي ، هل تكرهنى إلى الحد الذى تمنى لى فيه الموت ؟ لماذا؟ ماذا جئت فى حقل ؟ وجار بانايوتي :

— لا تتحدث إلى بهذه التبرة . فانت تعرف أنها تمزق قلبى .

وعادت الأرملة إلى الظهور أمام عينيه ، بضحكها العذبة ، وشفتيها المنبجعتين بالخشاب . واستأنها المؤنزة اللامعة ، وشعرها الأشقر فى لون العسل . وأحس بانايوتي بأحشائه تمزق .

وجار :

— بعد أن أقتلك يا مانول سأقتل نفسى . انى أبقي على حياتى فقط لكى أقتضى عليك . ولكن ما حاجتى إلى الحياة بعدك ؟ طلقة رصاص من المدس أنتقل بعدها إلى الشيطان .

ودخلا القرية . وأجراس الحداد لا زالت تدق . وصخب شديد يلوى فى الميدان عند شجرة السنار . فقد تجمع أهل القرية أمام باب الانسا يجارون بأصوات مججلة .

وتوقف مانول لحظة بصمت للأصوات :

— ماذا يقولون ؟

— ستتبين ذلك فيما بعد يا طريد الكنيسة . أسرع .

وعلا الصخب ، ووضعت كلماته ، والتقط مانول شذرات من صياحهم وحين مناعها ، وأبتم فى مرارة ، وحث خطاه . وتمتم :

— هانذا آت . هانذا آت . لا داعى للصياح فالى آت اليكم .

ولم يك مانول يظهر فى الميدان حتى انقض على الحشد فى جنون ولكن بانايوتي تقدم وسط ذراعيه على امتدادها وخار بصوت كالعجل :

— لا يسه أخدمكم ، فانه لى أنا .

وصرخ الناس فيه وهم يهتفون به كى يترقبوه أربا :

— يالى ، يا قاتل . يا اشتراكي .

ولحه القسيس جريجوريس من على بعد ، فاندلع تجاهه نارا . محتاجا :

— أقتلوه يا أطفال ، الموت لطريد الكنيسة .

ولكن انفتح باب الأغا ، ورفسة من قدم بانايوتي كان مانول وسط الفناء . وأغلق الباب على الفور .

تربح الأفاعي حجراته فوق حشيرة من الخيل ، يشرب العرق في
بلاطة وحمل . وغيتاه مبتتان على الجمرات التوهجة في المدفأة . وساد
الحجرة دفء جميل ، وفاحت رائحة العرق وسحق لحم الخنزير . وهامت
عينا الأفاعي في دنيا الخيال . عرقا في بحر من السعادة . كان ينصت لصيحات
أهل القرية الذين تجمعوا أمام داره . يصيحون بأعلى صوتهم :

— مانولي . مانولي . أعطنا مانولي .

كان ينصت ويبتسم في رضا ، ويقول لنفسه :

— آه من هؤلاء الروميين . أنهم سلالة الشيطان . نساءهم ورجالهم
وشياطين مرذولة . انذئاب لا تأكل بعضها بعضا . ولكن الروميين يفعلون
ذلك . ها هم يريسون أن يجبروا على مانولي ويلتهموه مهما كلفهم ذلك
من نس . لماذا ؟ ماذا اعترف لي حقهم ؟ انه يرى هذا الشكينة . به جنة
حقا ولكنه ثم يلحق أدنى بأحد على الإطلاق . ورغم ذلك يصيحون . أعطنا
مانولي لنتهمه . تريد أن تمثل دور القديس . اليس كذلك أيها الشترور
اذن كل جزاءك . لأدهم يأكلونه . اذا كان هذا يهدئهم من روعهم .
وماذا يصير لي أنا ؟ هل أدفع عنه الأذى ؟ ما مصلحتي في ذلك ؟ ساقع
في مشاكل . اذن ليشركوني في سلام . ها هو ذا خلعه أيها الروميون .
واستثمروا بوجبة حشيرة . اني أغسل يدي منه . أنا أشرب العرق . والآن
يسحق الجمال المسح . . وفلا عن هذا فعندي حبيبي برايمباكي . ثم
هناك ميوتي . . لدى كل ما أحب وأهوى . الحمد لله .

تردد صوت وقع خطوات في المعليز . فرفع الأفاعي رأسه .

الفتح الباب ودخل يانابوتي ثم أغلق الباب . وحيا الأفاعي . وتقدم
لتأخيه . يهرج قليلا في مشيته . ولكنه كان متأنق الوجه .

— قبضت عليه يا أفاعي . كان يحشى بالمدفأة وسطا ما يقرب من
عشرين رجلا من رجاله المدججين بالسلاح . وعندما وقع بصر رفيقي عليهم
وليا الأديار . وقلت لهما أغريا عن وجبي أيها الرعديان . وتقدمت اليه
وحدي . وصعدت في يدي وصعدت به . . أرفع يديك أيها الخنزير قانا
يانابوتي . وما أن سمعوا أسس حتى هروا وفروا جميعا كالجراد .
وبقي مانولي وحده . والحق أقول انه ظل ثابتا في مكانه لم يحاول الفرار
فأمسكت برقبته وسقته اليك .

وابتسم الأفاعي ابتسامة أخفاها شاربته التي صيغه منذ قليل . وقال :

— حسن يا عزيزي أكل النار . يبدو لي أنك تزخرف لفستك . ولكن
ماذا يضر في ذلك ؟ قانت رومي . ومعنى هذا أنك كاذب . هيا انتي به .
حتى أسرى عن نفسي قليلا .

خرج يانابوتي . وأمسك بذراع مانولي وانهاه عليه بقبضته ثم دفعه
برفسة من قدمه الى داخل الحجرة . ووقف مانولي أمام الأفاعي . هادئا
مطمئنا . عاقدا ذراعيه في صدره . منتظرا ما يقوله الأفاعي .

وأصدر الأفاعي أمرا الى يانابوتي :

— انتظر بالخارج يانابوتي واقفل الباب .

ملا الأفاعي كاسه وأغرقه في جوفه دفعة واحدة . ثم حشا فيه بعض
السحق وشرع يشق في بطنه متأنقا . وألمس عليه نصف الحماض
والسعادة تملأ جوانحه . ونظر الى مانولي وابتنس ثم قال :

— أيها النفس مانولي . هذه هي المرة الثانية التي تقع فيها بين
برائتي . أخال أنك ان فلتت هذه المرة . جرائم كثيرة تلقى على عاتقك أيها
البائس . يزعمون أنك سرت وقتلت واضرمت النار في القرية . . هل
حقا ما يقولون ؟

— حقا ما يقولون يا أفاعي .

تدافع الدم في وجه الأفاعي . واحتاج وغضب . وصاح :

— اسمع . حاول أن تمثل إلا عيك الفارغة هذه على غري . لا تكبر
ما فعلته أول مرة . لا تقلد القديسين والشهداء . هل تسمعين ؟ والا
سألقى بك الى الشيطان يتولى أمرك . هل تهمنين ؟ يرى مسكين منك
يسرق ويقتل ويشعل الحرائق المبيد هذا على غري . لن تستغفلي يا عزيزي
هل تفهم ما أقول ؟ حتى لو كان الشيطان يداخلك فلن أصنعك أبدا .

— بل أنا يا أفاعي . أنا حقا وصدا . وكل هذا يحدث رغما عني . أنا
أقلد القديسين . وأمثل دور البري . وأغض من طرفي . ولا أنظر الى
الناس في وجوههم . وأتظاهر بالتواضع والطيبة . ولكنني شيطان مريد
في أعماقي .

وتعالت الصيحات أكثر وأكثر في الميدان :

— مانولي . مانولي . الموت لمانول .

— هل نسمع؟ يطلبون مني أن أسلمك لهم. لن نفلت من بين أيديهم حيا. فكر وتدبر أمرك.

— قد برزت أمري يا أبا. سلمني لهم. لي مطلب واحد فقط. أود أن أطلقه منك: أن تستمع من أن يسوا أحدا غيري. الحق بجانب أهل ساراكيئا، ولكن الخلق لا تثبت لأصحابها في هدوء وسلام. ولذلك حاولت أن أنتزعها بالقوة، وكان أن فعلت ما فعلت. أنا المستور عن كل هذه الناس. ولا أحد غيري. أهل ساراكيئا أناس طيبون يا أبا: أماء، مساكين محبوبين للعمل، ذوو داب ومثابة.

— اسمعني الآن، يقولون أنهم اشتراكيون يريدون إسقاط الامبراطورية العشائية.

— لا تصنع هذا الكلام يا أبا، هذه كلها افتراءات شبيقة. الحق أنهم فقراء يشهدون العيش في سلام، وأن تمتد لهم جذور في الأرض أسوة بقبرهم. هذا كل ما يريدون ولا شيء سواه.

أسلك الأبا برأسه بين راحتيه، وبدأت الحجرة تدور به.

— أكاد أجن بسببكم أيها الروميون الملائقي. استمع إلى هذا فأصدقه واستمع إلى غيره فأصدقه أيضا. لم أعد أفهم شيئا. قسما برى ساستنكم جميعا ذات يوم، حتى أعيش في هدوء وسلام.

وتعالت الصيحات والصراخ أمام الباب:

— الموت لمانولي. الموت لمانولي.

وتتمت الأبا:

— ليأخذني الشيطان إن كنت أعرف ماذا أنا فاعل بك! اني حزير عليك حقاً، فأنت برى نفس، الهول لك مرة أخرى: أنت مجنون وقديس في آن واحد. تريد أن تحضن كل خطايا العالم تحت جناحك. كما تحضن الفجاعة بيضها. حزير عليك، ولكن ماذا تنتظر مني؟ لو لم أعمل ما يطلبونه مني سألف في مشاكل. وبعد هذا كله من يدري أنك لست اشتراكياً؟ وهذا القسيس الشيطان الذي يهيج أهل القرية ويؤليهم ليجاروا بأهل صوتهم أمام بيتي، قادر تماماً على النجاة إلى باشا سميرتا ويتكوى إليه، ثم ماذا تكون النتيجة؟ انظر وقد أنت عاقبة ذلك، هل تفهمين الآن يا مانولي؟ ضع نفسك مكانى، فإذا كنت تفعل! أليس من الخير لي أن

أسلمك لهم وليقبلوا بك ما يشاؤون بدلاً من أن يفلت أحد السيوف مسلطاً على رقبتي. قل لي ماذا ترى في كلامي هذا. أليست على حق؟

— أنت على حق يا أبا. سلمني لهم.

— ولكن أسالك بحق إفتشاًطين كذاها ألا تتحدث إلى بديرة صوتك هذه فانك بصوتك هذا تثير جنوني. تعال وقل صراحة لك الاشتراكى حتى أحتاج والغضب وأسلمك لهم دون أن ينطفر قلبى لذلك، والا فاني أشتى أن أسلم حسلاً ودعاً للذئاب كاسرة. هل تفهم ما أريد؟ أنتد سلام نفسى، هذا كل شيء. ولذلك قررت أن أتخلص منك ومنهم. هل تفهمين؟ إذا ما اعترفت بأنك اشتراكى فهذا عين المراد.

وقال مانولي:

— حسن، أنا اشتراكى. ولآن هل يرشيك هذا؟ أنا خطر على الامبراطورية العشائية، لو استطعت لأطحت بها وقذفتها إلى عنان السماء.

— استمر، استمر، اعترف واقسم بديك أنك ارتكبت كل هذه الجرائم. الفعل كل ما في استطاعتك لتثير ثائرتي وغضبي.

— هذا العالم يا أبا عالم ظالم لثيم. الأخيار فيه جوعى معديون، والأثرا شباع ينعمون بغاشي الطعام والشراب، ولهم السلطان. يسوسون الأمور بغير وازع من دين أو ضمير أو محبة. عالم كهذا لا بد أن يباد. فالظلم عمره قصير. سأطلق بكل قوتي أبواب الشوارع وأعتل الأسطح وأصبح بأهل صوئى: «تعالوا أيها الجوعى والمقهورون، تعالوا أيها الأبرار الصالحون، تعالوا لننجد سميرتا ونضرم النار في أرباب الدنيا لعل الأرض تنظهر، وتخلص نفسها من الأساقفة والأعيان والأغوات.

— استمر، استمر يامانولي عليك اللعنة. هذه هي الطريقة المثلى بدأت نار الغضب تتأجج في صدري.

— أود يا أبا لو استطعت أن أذهو إلى التوبة لتمدن فوق الأرض كلها، وأن أحيي الشعوب جميعها: الأبيض والأسود والأصفر، وأوحدهم جميعاً في جيش قوى لا يقهر، وأقيم به القسطنطينية وكل المدن الكبيرة العقنة والقصور الدنسة المعاصرة، وأشعل النار فيها جميعاً.

— استمر، استمر واقس في حديثك أكثر وأكثر. هذه هي الطريقة المثلى.

- ولكنني لست الا شيطانا بانسا . لست الا تابعاً . لا حول لي ولا قوة . ضاعاً وسط قرية في حضيض اناطوليا . وصوتي ضعيف لا يسمع الى ما وراء ليكوفريس وساراكيا . لذلك اقف ما بين القريتين . واعلم على الملا : هيا ايها الاخوة الجوعى والمقهورون . احملوا سلاحكم . الى متى تظل عبيداً ؟ الى متى تبد رقابتنا في استسلام لسيف الالفا ؟ هيا فقد دفت الساحة . الحرية او الموت . لن يعطونا حقوقنا طوعية واختياراً . بل سننتزعها بعد السيف . ليحكمكم جيش واحد ايها الاخوة السحقون تحت الاقدام . ولننقصوا على الحرية لتعلم اهلها . اقتلوا كل من يقاومكم احرقوا بيت الشبح لاداس . هذا الجبل القدر . بيت بطريركاس بيتكم . فادخلوه وتحصنوا فيه . وبعد ان تثبت اقدامكم . ويشد يامكم وتظفروا بالاعنيل والاعيان هيا ثانية وانفضوا على الالفا . وامحو آثاره من فوق أرضنا اليونانية . الفوا به الى الجحيم . ثم . .

ولكن مانولى لم يتم حديثه . إذ فزع الالفا برغي ويزيد . وأمسك برقية مانولى . وهزم في ثورة وغضب . وألقى به الى الأرض . وفتح الباب ورفسه رفسة طويته فوق السلم . وهوى يتدحرج فوق الدرج رأسه قبل قدميه . وتعبه الالفا . وأمسك به ثانية من رقبته . وجرحه فوق أرض الفناء . وفتح بقلده الباب المظلم على الميدان .

وجلل الحشد فرحاً . كان الالفا يرفي ويزيد . لاحت الانفاس . منعق الوجه . مسكاً بمانولى يهزم من قتلاه . وطهر من خلفه بانايولي وقد اتبست أسابير وجهه المنور الازرق . وأشار بيده الى أهل القرية أن اقتربوا . كان القسيس جرجوريس أول من هرب من متدقعا الى الامام . وفتح ذراعيه ليهم بالقس على مانولى .

ودوى صوت الالفا أجس يخنقه الغضب :

- حطوه . اقتلوه . قطعوه ارباً ارباً . لياخذكم الشيطان جميعاً .

ثم وقع مانولى الى الخارج . وصق الباب من خلفه . وانقض عليه القسيس بكل قوته . مقتبلاً مسروراً . وأمسك بمانولى من أحد كتفيه . وأمسك بانايولي بالكنف الآخر . وأحاط به الحشد في عوا وضراخ وانهاوا عليه ضرباً وبعصاً . وحملوه الى الكنيسة .

كان الليل قد أرخى حمله . وأظلمت الدنيا . وغابت النجوم عن السماء . وتلبثت قطع من الغمام الاسود الكبيرة . ولعلت على البعد ناحية الغرب ومضات برق حزينة . باهتة . خرساء .

ومروا في طريقهم بشجرة السنار . وانسب الحشد اللاصق بوانته في مانولى . وكفوا عن الصراخ . وحث الشماس خطاه وتقدم الجمع . وأخرج من جرابه مناع الكنيسة الضخم . وفتح بابها على صمراعيه . وتدفع الناس الى الداخل ورد القسيس ومانولى . كانت الصابيح الذهبية الثلاث الكبيرة مضادة . واحد أمام أيقونة المسيح . والثاني أمام أيقونة العذراء مريم . والثالث أمام القديس يوحنا المعمدان . واحتريق الغمام المقدس والشهداء الآخرين . الاكبر الملائكة ميشيل . وأزعق الارواح . فقد انعكس عليه ضوء مصباح العذراء . تراء نامسطاً جناحيه عند باب المنشدين الصغير . أحمر القدمين كأنهما قدمان لفساوي الجبل . وغابت الكنيسة برائحة البخور والشمع .

أطيق القسيس نكتنا يديه على رقية مانولى . وجره فوق الأرض حتى وصل به الى مكان المنشدين . ثم طرحه أرضاً . وأوقعاه على ركبتيه أمام ملاك الموت .

كان متعباً سعيداً أن رأى مانولى تحت رحمته . فقد بات القصاص الآن مؤكداً . حلوا . قريب المال . وعقلت القرعة لسأته فلم يستطع أن يفتح فمه ويتكلم . خفت الكلمات في حلقه فلم تخرج من فمه غير حركات يم .

وركل بانايوتي بقدمه مانولى الذي شمع برأسه بتفريس في هدوء في قدمي رئيس الملائكة الذي انفل حذاءه لانه رباط أحمر . ودفع الشبح لاداس الحشد جانباً . واقترب مبهور الأنفاس من مانولى وبسق قلبه . وتزاحم الناس حول الضحية . ينتظرون في شوق ولهفة اللحظة التي يعطى فيها لقسيس جرجوريس اشارته . كانوا يلغون شفاههم بقدا . فقد استبد بهم فجأة ظمأ حارق .

دخل القسيس جرجوريس اللذيع . وارتدى زبانه الموشى بالذهب ووقف أمام أيقونة المسيح . وألقت الصابيح الثلاثة بضوئها فوق وجهه الذي يتصبغ عرفاً . وتكر المرح الذي أصاب جبهته . فلزق الدم منه ولفظ حبة القسيس بلونه الأحمر .

وأشار الى بانايوتي بيده . فزابط مانولى تحت ذراعيه . وجرحه تحت قدمي القسيس . وخطا الحشد خطوة أخرى الى الامام مبهور الأنفاس .

وفي رزانة ووقار . قال القسيس بصوت هادر :

- باسم الأب والابن والروح القدس .

ورسم الحشد علامة الصليب وهو يجيب :

- آمين .

وصاح القسيس جريجوريس :

- اركعوا يا اخوتي . ولصلى الرب عسى أن ينزل من سماواته البعل إلى كنيستنا ويلهنا العدالة والساد . يا الهى . ها هو ذا طريد الكنيسة على تحت قلميك . يرتعد فرقا في انتظار سيفك المثار ليهوى على رقبته سرق . وقتل . واشعل الحرائق . وبذر الشقاق بين الاخوة . وفرق ما بين الخطيين . وزرع الحقد والكراهية بين الأب والابن . وأثار المهملين والمخارجين على القانون وحرضهم على التمرد . واتحم بهم قريتنا . وسرقوا مؤننا واتممنا !

لو بقى هذا الأدمى على قيد الحياة يا الهى . فالدين والشرف في خطي وأو ظل حقد الأدمى حيا فان في وجوده خطرا يهدد المسيحية والمسيح اليونانى . هذين الأمانين العظيمين الباقيين على ظهر الأرض . استأجره العدو . ابن الشيطان . لكي يصحو اسمك يا الهى من على ظهر الأرض . اجتمعنا هذا المساء في بيتك يا الهى لنصدر حكمتنا على هذا الإثم الكافر . تنزل علينا يا صاحب القوة والجبروت من قبة الكنيسة وأصدر حكمتك عليه . نسألك أن تسد خطانا ونحن نمد أيدينا إليه لننقذ فيه حكمك يا الهى .

ووظي . تقدمه ظهر مائول تم عاود الصياح :

- فقلت ابنتى وأخى . وهو الجرم الإثم . وبذر الشقاق والفن في قريتنا . وهو الجرم الإثم . اتحم عند المسيح أرض قريتنا . وها هو ذا . من أطوه بقدم . الذي فتح له الباب . وأصبحت مسارا كينا تمج بأعقائى الزناير . وها هو الذى عرضنا لأسراهم السامة . أيها الاخوة المسيحيون . الحكم لكم . صوت الشعب من صوت الرب . فاحكموا عليه .

لم يكذ ينطق القسيس بعبارة هذه حتى تعالت صيحات الحشد في صياح وغضب . وتحت المصابيح اللطيفة لاحت عيون تقذ شررا وكراهية . وتآلفت أستان تصر غيظا . ولوجت قبضات أيدي . والتوت شفاء . وجلس بانايوتى القرقصاء . يحلق في عيني مائول . كأنه يخشى أن يغفل منه . إذا تحرك مائول يمين . تحرك معه . وإذا تحرك

يساراً . تحرك معه . متأهبا لكي ينقض عليه في أية لحظة ويمسك برقبته .

وجلس الشيخ لاداس القرقصاء فوق بلاط الكنيسة . يتذكر بيته المحترق . وزينه وتبيده المهرق . وانخرط في تحييد ونواح .
والحنى القسيس جريجوريس فوق مائول الذى جلس هادلا فوق درج المذبح . صاح فيه :

- قف أيها الملعون . يا طريد الكنيسة . هل سمعت قصة الناس التى جلبتها إلى قريتنا ؟ هل سمعت قصة جرائمك ؟ هل لديك ما تدافع به عن نفسك ؟

ورد مائول في هدوء :

- لا . لا شئ .

- هل تعترف بأنك سرفت . وحرقت . وقتلت ؟

- أعترف أبني اقترفت كل هذا .

- هل تعترف أنك اشتراكى ؟

- إذا كانت كلمة اشتراكى تعنى ما أؤمن به في نفس قنعم . أنا اشتراكى يا أيانا . المسيح وأنا اشتراكيان .

وتعالت صيحات الحشد المولولة يتردد صداها في كل أرجاء الكنيسة حتى تصل إلى سمع المسيح العلى القدير . وهو في عليائه يربق الشهد . ووقف الشيخ لاداس يعزى :

- دعنا نقتله . دعنا نقتله . لسنا بحاجة إلى شهود آخرين . فقد اعترف . أترك لنا فنقتله .

والتهب حماس الحشد . ولوحوا بقبضاتهم . وجازوا :

- الموت . الموت .

انزع مائول نفسه من بين ذراعى بانايوتى . ونزل من فوق درج المذبح فجعل الحشد . وخطا مائول خطوة إلى الامام . وذراعا معقودتان إلى صدره . وقال :

- اقبلوني .

وعا أن يصبره المبح يندفع هكذا ، أعزل ، هادئا ثابت الجنان ، تحت ضوء المصابيح التي كللت رأسه الشقراء بهالة من نور ، حتى ارتد الحشد إلى الوراء مبهورا ، وأفسح ، بمن غير وعي منه ، مكانا مانول ، وراى صمت ووجوم ، حتى لو أن مانول قصد الباب وانطلق هاربا في تلك اللحظة هلن بسد أحد عليه الطريق . ولكن مانول توسط صحن الكنيسة ، ووقف تحت أيقونة الرب ذي القوة والجيروت التي تمثل القبة ، وسقط ذراعيه من جديد ، وصاح بهم إلى شراعة :

— أقتلوني ...

وتقدم القسيس جريجوريس ، وأشار إلى بانابوتي أن اتبعني .

وأصدر أمره بصوت مضيق :

— اغلقوا الباب بالمزلاج ، اغلقوا الباب والا سيهرب .

واندفع الشماس بأقصى سرعته ، وأغلق الباب ثم استند ظهره إليه .

وسرت رعدة بين الناس عند سماعهم صوت القسيس . وانتابهم خوف فجائي حين خطر بأذهانهم أن القرصة قد تمكن من الفرار . وتزاحموا في فزع حول مانول يحاصرونه ، وأحس مانول بأنفسهم الحارفة تلغح وجهه .

وأحس مانول ، للحظة ، بقلبه يسقط بين جوانحه ، واستدار ناحية الباب — كأن مفلقا . ونظر إلى المصابيح الثلاثة المضاءة ، والأيقونات من تحتها أتقنتها القرايين : المسيح متوردة الوجنت ، مشط الشعر في حرس وعناية ، والعذراء مريم منحنية فوق طفلها غير عابئة بما يحدث تحت بصرها ، والقديس يوحنا المعمدان يكرز في الصحراء ... وروا يصبره إلى قبة الكنيسة وتأمل في الضوء الخافت وجه الرب ذي القوة والجيروت ، يطل من عليائه على البشر ، ويومهم بنظرة قاسية . ثم حال بصنبيه بين الحشد الذي يحيط به ، ونخيل إليه كأنه يرى أعمال خناجر تلغح في الظلام من حوله .

وعوى الشيخ لاداس بصوت كأنه سرير :

— هيا تقتله .

وفي نفس اللحظة دقت طرقات عنيفة على باب الكنيسة - فتحوّلت

البروس ناحية الصوت . و صمت مطبق ، وسمعوا صيحات غاضبة محتاجة :

— انحنوا ، انحنوا .

وقال أحدهم :

— هذا صوت القسيس فوئيس .

وقال آخر :

— وهذا صوت ياناكوس ... جاء أهل سباراكينا لينتزعوه من بين

أيدينا .

واعتز الباب في عنف حتى صرت مفاصله ، ودوى بالخارج صخب شديد اختلطت فيه أصوات الرجال والنساء .

وأتى صوت القسيس فوئيس واضحا حليا :

— انحنوا يا قتلة ، إلا تخشون الله ؟

ورفع القسيس جريجوريس يده وقال :

— باسم الأب والابن والروح القدس أحمل هذه الخطيئة على كاهل-

أقتله يا بانابوتي .

واستل بانابوتي خنجره ، والتفت إلى القسيس جريجوريس وسأله :

— هل أجهز عليه ببركانك يا أبانا ؟

— اطمئن غاي أباركك .

وتدافع الحشد ، وانقض على مانول ، وتلجج الدم ، وتناثر فوق وجوههم . وسلطت بعض قطراته الساخنة الملحة على شفتي القسيس جريجوريس .

وارتفع صوت مانول وأصاح ، رفيقا ، بلفظ معه أنفاسه الأخيرة : يا أخوتي ... ولكنه لم يستطع أن يتم كلامه ، وهوى إلى الأرض فوق بلاط الكنيسة الحجرى . شن في هدوء وذراعاه ميسومتان كأنه المسيح المصلوب .

وانارت رائحة الدم أهل ليكوفريس . فانقضوا على الجسد الذي أسلم الروح ، والدم يلفح من بين شفتيه . وعرض الشيخ لاداس رقبة

هانولى بأستانه الهتماء يحاول أن ينتهش قطعة من لحمه . ومسح بابا يوتي
خنجره فى شعره الأحمر وخضب فكاه الكاسر بالدم وصاح :

- مرفت قلبى يا مانولى . وما ألتا قد قتلتك وبذلك تار كل منا من
أخيه . فلم يعد لى ولا عليك .

الحنى القسيس جريجوريس وملا راحتيه دما . ورشه فوق رموس
الحشد وهو يقول :

- لعل دمه يسقط على رموسنا جميعا .

وتلقى الحشد قطرات الدم وهو يرتجف .

وزارت الأصوات من جديد خارج الكنيسة :

- اغنوا يا قتلة . اغنوا .

واتشار القسيس جريجوريس الى التماس الذى تقدم اليه عزنجا .
وأصدر اليه أمره :

- افتح الباب . تم تعال ثانية واغسل البلاط سريعا . لا تسأنا
ستحتفل الليلة بميلاد المسيح .

ثم التفت الى قطيعة وقال :

- هيا بنا ايها الاخوة المسيحيون . أدينا واجبتنا . والله معنا .
وليدخل القسيس فوثيس الآن ليدفن صاحبه .

فتح التماس الباب . فطلعت عليهم وجوه رجال ونساء للبحر وسط
الظلام . غلظة . غامضة . نادر وتوعد .

وصاح ياناكوس بصوت لاهت :

- أين مانولى ؟

وأجاب القسيس جريجوريس :

- اذهبوا وابحثوا عنه . نتحوا جانبا والمحو لنا الطريق .

وجار القسيس فوثيس :

- ان كنت قتلتها فاني ادعو الله أن يقع دمه فوق رموسكم ورموس
أبنائكم من بعد .

وأعاد القسيس جريجوريس ما قاله :

- اذهبوا وابحثوا عنه .

واندفع ياناكوس الى داخل الكنيسة وهو يزار :

- لقد قتلوه .

دقت الأجراس فى منتصف الليل يدعو المسيحيين الى الكنيسة
للاحتفال بميلاد المسيح . وفتحت الأبواب . الواحد بعد الآخر .
وخرج المؤمنون يحتلون العظمى فى طريقهم الى الكنيسة وأجسادهم ترتجف
من شدة البرد . كان الليل هادئا ساكنا . فارس البرد . وصفحة السماء
خالية من النجوم . ففتحت كل الأبواب عدا بيت بطرياركاس . فقد ظل
دورها جميعا . موصدا تحضر من داخله جلبة وضوضاء اختلطت فيها
صيحات الرجال بنواح السيدات .

كان جسد مانولى مسجى فوق سرير بطرياركاس . ملفوفا كطفل
وليه من ملاه من حرير ووثنا ميشيل من جهاز عرس أمه . وأحاط به
رفاقه يرون الى اليه فى صمت بوجود شاحبة . ووضع ياناكوس يده على
قننى مانولى . وانخرط فى لحب كطفل صغير . قضى الليل بطوله يصرخ
ويلطم صدره حتى اهتاه اليكاه . وأغنية اللطافات . فاستند رأسه الى قدمي
صديقه بيكيه بصوت خافت . وذهب لسطفتى الى ساراكينا ليبحث عن
ميشيل . وجلست امرأتان أو ثلاثة الغرضاء فى زاوية من زوايا الحجر .
واتجهن الى الحائط . ينحن ويلطن صدورهن .

والحنى القسيس فوثيس فوق صديقه ينظر اليه على ضوء الصباح .
ويتأمل وجه الهادئ الشاحب : طعة سكين مرفت حده الأيمن بطوله حتى
الذقن . وكان القسيس بين حين وآخر يمد يده يسوى بها شعر رفيقه
اليت . ثم يقبض عنه ويرقرق فى تأملاته . فقد أنه العسجور مارتا منذ
لحظات وخبرته من أن الأما أوفد رسولا الى المدينة يحمل رسالة عاجلة
يطلب فيها كتيبة من المشاة والخيالة . ويعلم فى رسالته أن الاشتراكيين
اقتحموا ليكوفريس . وذكر أيضا أنهم يتوون قتله .

وتفكر القسيس فوثيس وهو يقبض بجماع يديه :

- سيأتون الى هنا بأسلحتهم ومدافعهم . كيف لنا أن نقاومهم ؟
سيبيدوننا عن آخرنا . مرة أخرى يجب أن تبدأ المسيرة ولا نضيع الوقت .
ولكن الى متى . يا الهى ؟ ألسنا لها طيبا خيرا ؟ ألسنا عادلا ؟ ابنى عاجز
عن الفهم

ومد يده ، ورث بها في رقة وحنان على وجه مانوي ، وتمتم :

يا عزيزي مانوي ، جئت بحياتك ولكن دون جدوى ، فقلوك لآنك
حملت خطايانا على كاهلك ، وصحت قائلا : أنا الذي سرفت ، أنا الذي
فشت ، وأنا الذي أشعلت النار في القرية ، أنا ولا أحد سوى ، كل
هذا لتبقى علينا حتى تمت جفورتنا في الأرض في هدوء وسلام ... ولكن
دون جدوى يا مانوي ، صحت بنفسك ، واقتديت الناس بروحك ، ولكن
دون جدوى ...

أصبحت القسيس فوثيس إلى دقات الجرس المتتابعة في تنظم تده
في فرح لتعلن على الملائكة ميلاد المسيح وأنه تنزل إلى الأرض ليخلص العالم
... وهز القسيس رأسه ، ولنت عنه تهيدة عميقة ، وتمتم قائلا :
« لا جدوى يا يسوع ، لا جدوى ، مضى على صليبك ألفا عام ولا زال الناس
يصليوبوك من جديد ، أي يسوع دهي ، متى ستولد يا الهي ولا تصلب
ثانية ، ولكن تعيش بين طهوراتنا خالدا إلى الأبد »

ففى القسيس فوثيس الليل بطولته حتى مطلع الفجر مستندا رأسه
إلى حافة السرير الذي تمدد فوقه مانوي ، ثم أغضض عينيه وأخذته سنة
من النوم ، وراى في أحلامه حتما ، رأى أنه يتعقب عصفورا أصغر صغيرا ،
من نوع الكناري ، تحت شجرة خضراء مورقة ، وترأس له أنه بدأ الطراد
وهو لا يزال طفلا صغيرا ، ومضت به السنون ، وشب وترعرع وأصبح
شابا ثم رجلا أسود الشعر والشارب ، وظلت السنون تضى كباغا حتى
وخط المشيب شعره ثم ابهى لثاما ، وأصبح الآن شيخا ولا زال يتعقب
الطائر الأصغر ولكن دون جدوى ، لم يوفق في الإمساك به ... يمد يده
ليمسك بطائر الكناري الصغير فيغلت من بين يديه ويقفز من غصن إلى
غصن ، ومن زهرة إلى زهرة ، ويصعد كالجنون ...

لم يقف القسيس فوثيس غير طرفة عين ، ولكنه عندما استيقظ خيل
إليه أنه عاش آلاف السنين ، فضاها وهو يتعقب طائر الكناري الصغير
دون أن يتألم منه التعب بل كان يشعر بقوة متجددة دائما ولا بكل أبدا
... ترى هل كان ذلك طائرا حقا ؟ شعر القسيس فوثيس في أعماقه
أن ذلك الطائر الأصغر الصغير الذي كان يفرغ ويصغر كأنه يسخر منه
ورأسه مرفوع إلى السماء ويصعد كالجنون ليس أبدا طائر كناري في
حقيقته ...

وتمتم قائلا :

« لكن هذا المصعور أي شيء ، فلي أعيا بذلك ، ولكننى سأظل
أتعقبه حتى الموت ... »

وعب واقفا ، وصاح صيحة عالية ، دعا رفاقه ، رجلا ونساء ،
وجمعهم في الفناء الكبير ، واستجاب لندائه كل من فضا ألبنتهم متفرقين
بين الحدائق وبساتين الكرم ومزارع الزيتون ، وخفوا إليه والتأم شملهم
في الفناء .

وصاح بهم :

« يا أولادي ، ضعوا قلوبكم فوق راحتكم فإن ما سأقوله لكم شاق
على النفس عسير ، ولكننا أولوا عزم وقوة تبرسنا على تحمل الصعاب ،
وسوف نحصل هذا أيضا ، علمت بالأمس أن جيشا من الأتراك قوامه
فرفقان من الخيالة والمشاة المسلحة بالهرايق ، قادم إلى ليكوفريس ليطردنا
من هنا ، عوا يا أطفال خفا حتى لا تضيق منا دقيقة واحدة ، احبوا
على ظهوركم كل ما تستطيعون ولتنطلق في طريقنا ، لترك ليكوفريس
وساراكينا ، لم نعد الآن غير حفنة من اليونانيين الهيم عى وجوهها في
الأرض ، يجب أن نوطد العزم ، ونعش على النواجذ ، ونضى في طريقنا
لا ، لن يتألوا منا شيئا فنحن ملج الأرض ولن يقضوا علينا ، ان جسدنا
خالدا لا يموت »

وأمسك لوكاس العملاق بعلم القديس جورج وفتح الباب ، وقال :

« لا تخرج يا أبانا ، فإن جسدا خالدا لن يموت ، عيا يا أخوتي ،
البعوا القديس جورج ، وسوف نرى إلى أين يقضى بنا الطريق »

واندفع الناس جميعا إلى مخازن بطرياركاس الغنية ، وأمسك باناركوس
الديق والزيت والنبيد ، ووزع القسيس فوثيس اللباس والبطاطين
والملامات ، وخلعوا الباب من مفصله ووضعوا عليه جثمان مانوي ، وحمله
أربعة من الغنية الأشباه ، وحمل السيوف الأيقونات ، وسار القسيس
فوثيس في مقدمتهم ، وسار الجميع بخطى حثيثة إلى ساراكينا .

وصاح القسيس فوثيس :

« سننقذ أولا جبل ساراكينا حيث نوارى جثمان عزيزنا مانوي
التراب ، ثم نحفر زمس عظام أجدادنا ونعلمها معنا ونبدأ المسيرة من

جديد . الشجاعة يا ابنائي . لاتخشوا شيئا . عضوا على النواجذ . نحن خالسون .

وما أن بلغوا بئر القديس يازل حتى توقف القسيس فوتيس وانحنى عليه لحظة ثم قال :

- يا أطفال ! تنزل يسوع المسيح اليوم الى الأرض . فلنحمله معنا ! معنا أمهات سوف يرضعنه . عيد ميلاد سعيد يا ابنائي ونناتي .

وسار ياناكوس في مؤخرة الركب . ووضع أحمالا ثقالا على ظهر حماره . وسار الى جواره مطرقا برأسه صامتا . بدا له العالم وكأنه يزداد ظلما ساعة بعد ساعة . فمسح ياناكوس عينيه . وسطح العالم بعد ذلك بضوء واه ضاحب . فهو صباح يوم من أيام الشتاء . وريت على كفل حماره في رقة وحنان . فهو الحيوان الحبيب ذيله فرحا منتفجا . واستدار برأسه . ونظر الى صاحبه ورفيق طريقه . فهو لم يفهم شيئا على الإطلاق . ماذا أصاب صاحبه ؟ لماذا يسير صامتا لا يتكلم ؟ لماذا لم يربت بيده على بطنه ورجلته وأذنيه كمادته كل يوم ؟

واتخذوا الطريق الوعر الى ساراكينا وبدأوا الصعود . سار في المقدمة مانولى . مسجى فوق الباب . ومن خلفه صاحبه . رجالا ولساء . يلمهم صمت ثقيل . كان النهار شفافا والقا . وكنيسة النسي ايليا الصغيرة تتألق مع بواكير أشعة الشمس . وسطعت الجبال . بعضها بلون وردي . وأخرى زرقاء شاحبة .

وقف قسطندي أمام الكهوف في انتظارهم . فقد سبقهم الى هناك نقابة القسيس فوتيس . وقال :

- يا أبانا . ميشيل لن يرح قمة النسي ايليا . سيبقى هناك . أخذ معه صرة ملابس وانجيله المفضل . وصفيرتي ماربوري . ولزم صومعة الراهب القديمة . وقال لي « اني سعيد بمقامي هنا . لا أريد أن أرى البشر ثانية . الأخيار منهم والآخر على السواء . لا أحد منهم على الإطلاق . سأعزل الدنيا زاهدا . وسيكون مقامى هنا حيا وميتا » .

وهز القسيس فوتيس رأسه . غارقا في تفكير عميق . وقال :

- من يدري يا عزيزي قسطندي . ربما كان على صواب . دعنا لا نفسد عليه هدوءه . له طريقته ولنا طريقنا . ولننظر نحن في طريقنا . وسائله قسطندي في قلق :

- وما هو طريقى يا أبانا ؟

وضع القسيس راحته على رأس صديقه المؤمن كأنه يباركه . واجاب :

- بعد أن نفرغ من دفن مانول عد الى بيتك توا يا قسطندي . ارجع الى زوجك وأطفالك . فهذا طريقك .

وسعدوا مانولى على الأرض أمام الكهف الذى استخدموه كنيسة لهم . وارتدى القسيس رداءه الدينى . وبدأ يرتل طقوس الدفن . ومن حوله رجاله يرددون التراتيل . وكانت تتردد بين الحين والحين أصوات تشيح ونحيب . وتوقف صوت القسيس التهجد فجأة عن التراتيل اذ لم يستطع أن يكتم نحيجه . بينما واصل الجمع التراتيل .

وانحنى الجميع فوق حبيبهم الراحل . وطعن كل منهم قبلة على جبينه في هدوء . وذرلوا الدمع حزنا عليه . ووقف القسيس فوق حافة القبر المفتوح . وحاول أن يودع مانولى ببضع كلمات . ولكنه أحس بغفاف فى حلقه . فلم تخرج الكلمات من فيه . وفجأة انفجر القسيس فى تشيح مسموع .

واتدلمت امرأة عجوز . وألقت بنفسها فوق الجسد الميت . حلت شعرها الأبيض وصرخت صرخة مولودة . وودعت مانولى قائلة :

- اسم هذا الفتى البار مكتوب على صفحات النج .

اشترقت الشمس . وقاب النج . وحمل اسمه معه فوق المحيطات . وبعد لحظات رفع القسيس فوتيس يده . وأعطى إشارة الرحيل . وصاح :

- باسم يسوع المسيح تبدأ مسيرة الخروج من جديد . تشجعوا يا أطفال .

ومرة أخرى استأنفوا مسيرتهم التى لا تنتهى . وفد ولوا وجوههم شطر الشرق .

خاتمة

الفهرس

الموضوع	صفحة
تصدير	٣
البحث عن يهوذا	١١
مطاردة الأخوة	٣٩
قديسون ولصوص	٧٥
مصارعة مع الكيش	١١٣
الشیطان وقناع المسيح	١٤٧
الكابتن يموت	١٨٤
الرب صانع خزف .. يصنع مخلوقاته من طين	٢١١
جريمة قتل في القرية	٢٤٢
الفداء	٢٦٩
الطريق الصاعد	٢٩٧
عرية من نار	٣٢٣
لعنة القسيس	٣٥٧
للعمل	٣٨١
أنت الذي قتلته .. أنت	٤٠٠
مناوشات أولية	٤٢٧
رحلة بأقدام عارية	٤٥٠
أما الجسد	٤٧٧
الذئاب تبحث عن فريستها	٤٩١
الوجه القاسي للمسيح	٥٠٩
سفك الدماء	٥٢٦
لا جدوى يا يسوع .. لا جدوى	٥٤٣